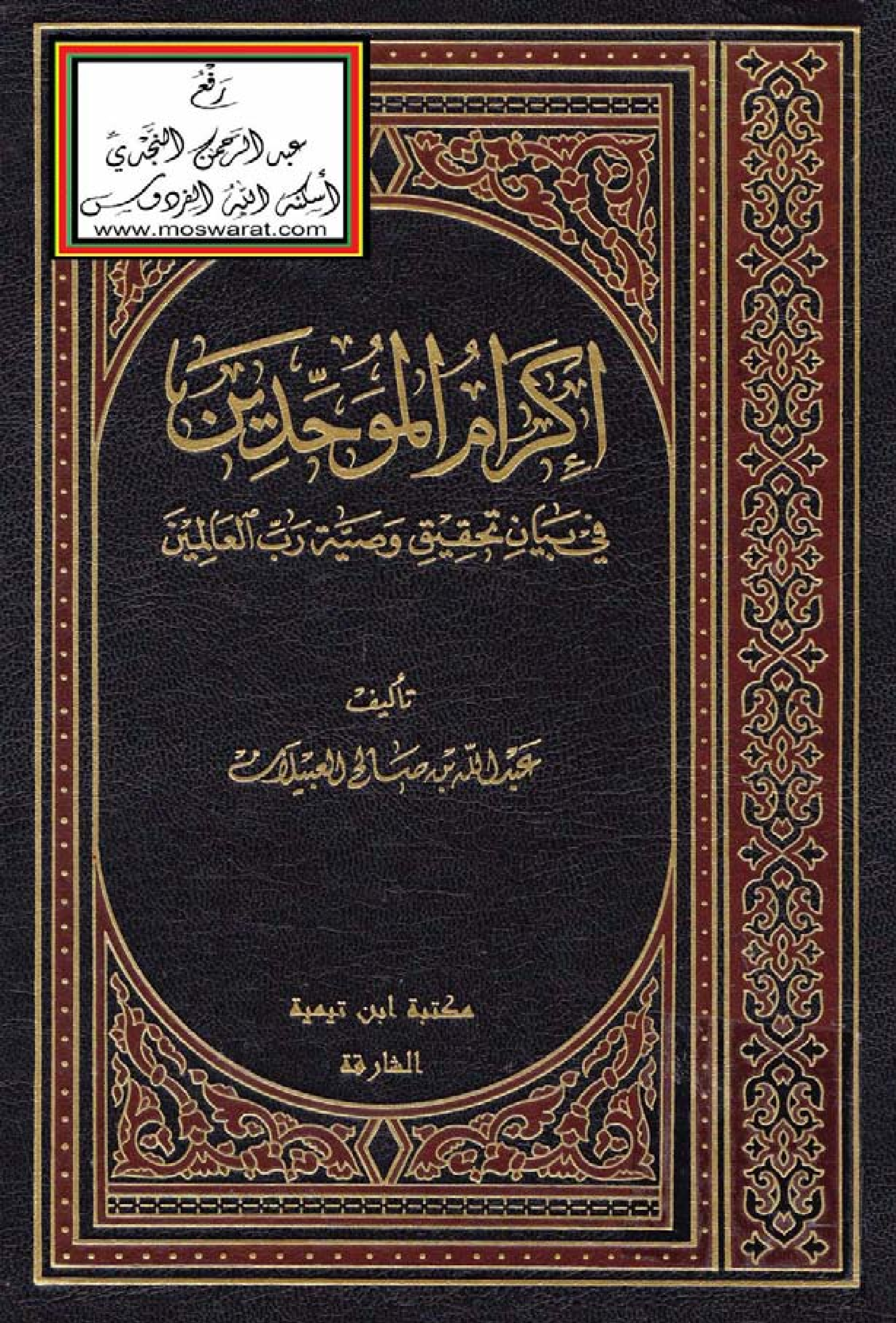


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com
إكرام الموحدين
في بيان تحقيق وصية رب العالمين
تأليف
عبد الله بن صالح العبيلان
مكتبة ابن تيمية
الشارقة


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

إكرام الموحدين

في بيان تحقيق وصية رب العالمين

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

لطلب الكميات الرجاء الاتصال على الجوال: ٠٠٩٦٦ ٥٣٠٠٠٩١٩٦

مكتبة ابن تيمية - الشارقة - الإمارات العربية المتحدة

هاتف : **65639396** - فاكس : **656393935** - جوال : **504990226**






إكرام الموحدين

في بيان تحقيق وصية رب العالمين

تأليف

عبد الله بن صالح العبيلان

مكتبة ابن تيمية

الشارقة





بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَنَا الفَقِيرُ إِلَى رَبِّ البَرِيَّاتِ … أَنَا المسْكِينُ فِي مَجْمُوعِ حالاتي
أنا الظَّلُومُ لِنفسِي وهيَ ظالِمَتِي … والخيرُ إِنْ يَأْتِنَا مِنْ عِنْدِهِ يَاتِي
لا أَسْتَطِيعُ لِنَفْسِي جَلْبَ مَنْفَعَةٍ … ولا عَنِ النَّفْسِ لِي دَفْعَ الْمَضَرَّاتِ
ولَيْسَ لِي دُونَهُ مَوْلًى يُدَبِّرُنِي … ولا شَفِيعٌ إذا حَاطَتْ خَطِيئَاتِي
إِلَّا بِإِذْنٍ مِنَ الرَّحْمَنِ خالِقِنا … إلى الشَّفِيعِ كما قَدْ جاءَ فِي الآياتِ
ولَسْتُ أَمْلِكُ شيئًا دونَهُ أبدًا … ولا شَرِيكٌ أنا في بَعْضِ ذَرَّاتِ
ولا ظَهِيرٌ لهُ كي يَسْتَعِينَ بِهِ … كما يكونُ لأربابِ الولَايَاتِ
والفَقْرُ لي وَصْفُ ذَاتٍ لازِمٌ أبدًا … كما الغِنَى أبدًا وصْفٌ لهُ ذَاتِي
وهذه الحالُ حالُ الخَلْقِ أَجْمَعِهِمْ … وكُلُّهُمْ عِنْدَهُ عَبْدٌ له آتِى
فَمَنْ بَغَى مَطْلَبًا مِنْ غَيْرِ خَالِقِهِ … فَهُوَ الجَهُولُ الظَّلُومُ المشرِكُ العَاتِي
والحَمْدُ للهِ مِلْءُ الكَوْنِ أَجْمَعِهِ … ما كان مِنْهُ وما مِنْ بَعْدُ قَدْ يَاتِي

شيخ الإسلام ابن تيمية



مُقَدِّمَة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد..

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

فإنه في هذا العصر الذي غلبت فيه المادة على عقول كثير من الخلق، وعظمت الدنيا في قلوبهم، فإنه يزداد الخوف على الموحدين، لا سيما إذا كان الفهم للتوحيد ناقصًا أو ضعيفًا، فإني رأيت كثيرًا من الناس يفسرون التوحيد ببعض ما يضاده من مظاهر الشرك: كدعاء الموتى، والاستغاثة بهم، أو الذبح لهم، وهذا وإن كان مما لا يصح التوحيد إلا بتركه، ولكن التوحيد

شيء يطلب من العبد فعله، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ﴾، فدلت الآية على أن اجتناب الشرك لا يكفي بل لا بد من الإنابة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية(١): «في بيانه: وتحقيق التوحيد وذلك بحيث لا يكون العبد ملتفتًا إلى غير الله، ولا ناظرًا إلى ما سواه: لا حبًّا له، ولا خوفًا منه، ولا رجاءً له، بل يكون القلب فارغًا من المخلوقات، خاليًا منها، لا ينظر إليها إلا بنور الله، فبالحق يسمع، وبالحق يبصر، وبالحق يبطش، وبالحق يمشي، فيحب منها ما يحبه الله، ويبغض منها ما يبغضه الله، ويوالي منها ما والاه الله، ويعادي منها ما عاداه الله، ويخاف اللَّه فيها، ولا يخافها في الله، ويرجو اللَّه فيها، ولا يرجوها في الله، فهذا هو القلب السليم الحنيف، الموحد المسلم المؤمن العارف المحقق الموحد بمعرفة الأنبياء والمرسلين، وتحقيقهم وتوحيدهم».

وذلك تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، فإنه ينفي عن قلبه ألوهية ما سوى الحق، ويثبت في قلبه ألوهية الحق، فيكون نافيًا لألوهية كل شيء من المخلوقات، مثبتًا لألوهية رب العالمين، رب الأرض والسموات، وذلك يتضمن اجتماع القلب على الله، ومفارقة ما سواه، فيكون مفرقًا في علمه وقصده، في شهادته وإرادته، في معرفته ومحبته، بين الخالق والمخلوق، بحيث يكون عالمًا باللَّه تعالى، ذاكرًا له، عارفًا به، وهو مع ذلك عالم بمباينته لخلقه، وانفراده عنهم وتوحده دونهم، ويكون محبًّا لله، معظمًا له، عابدًا له، راجيًا له، خائفًا منه، مواليًا فيه، معاديًا فيه، مستعينًا به، متوكلاً

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٢٣).

عليه، ممتنعًا عن عبادة غيره، والتوكل عليه، والاستعانة به، والخوف منه، والرجاء له، والموالاة فيه، والمعاداة فيه، والطاعة لأمره، وأمثال ذلك مما هو من خصائص إلهية اللَّه سبحانه وتعالى .

«فإن الإخلاص ينفي أسباب دخول النار، فمن دخل النار من القائلين لا إله إلا اللَّه لم يحقق إخلاصها المحرِّم له على النار، بل كان في قلبه نوع من الشرك الذي أوقعه فيما أدخله النار، والشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل، ولهذا كان العبد مأمورًا في كل صلاة أن يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]، والشيطان يأمر بالشرك، والنفس تطيعه في ذلك، فلا تزال النفس تلتفت إلى غير الله، إما خوفًا منه، وإما رجاءً له، فلا يزال العبد مفتقرًا إلى تخليص توحيده من شوائب الشرك، وفي الحديث الذي رواه ابن أبي عاصم وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: «**يقول الشيطان: أهلكت الناس بالذنوب، وأهلكوني بلا إله إلا اللَّه والاستغفار، فلما رأيت ذلك، بثثت فيهم الأهواء، فهم يذنبون ولا يستغفرون؛ لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا**»[1]، فصاحب الهوى الذي اتبع هواه بغير هدًى من اللَّه له نصيب ممن اتخذ إلهه هواه، فصار فيه شرك، منعه من الاستغفار.

وأما من حقق التوحيد والاستغفار فلا بد أن يرفع عنه الشر، فلهذا قال ذو النون عليه السلام: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:

---

(١) رواه ابن أبي عاصم (٧) من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وأحمد (٣/ ٧٦) بنحوه من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، قال الحافظ في الفتح (١/ ١١٢): «وإسناد كل منهما حسن» ويشهد له ما أخرجه الطبراني في الأوسط (٤/ ٢٨١) من حديث أنس مرفوعا «إن الله احتجر التوبة عن صاحب البدعة» وهو حديث حسن ويشهد لهما قوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].

٨٧]، ولهذا يقرن اللَّه بين التوحيد والاستغفار في غير موضع كقوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٢، ٣]، وقوله: ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأعراف: ٦٥]، وقوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [هود: ٥٢]، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾﴾ [فصّلت: ٦]»[١].

والمقصود هنا: أن أهل الإيمان يجدون بسبب محبتهم لله ولرسوله من حلاوة الإيمان ما يناسب هذه المحبة، ولهذا علق النبي ﷺ ما يجدونه بالمحبة فقال: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون اللَّه ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار**»[٢].

وقد رأيت من النصيحة للمسلمين أن أجمع ما كتبه الشيخان: شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه المحقق ابن القيم، عليهما رحمة الله، في بيان التوحيد، بعد الاستقراء والتتبع من كافة ما وقع تحت يدي من كتبهما، فرتبته وبوبته، فوضعت العناوين للأبواب والفصول والمسائل؛ وربما نقلت عن غيرهما وبينته في موضعه قاصدًا بذلك تقريبه لقارئه وسامعه، ومذكرًا بجهود الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب وعلماء الدعوة من بعده عليهم رحمة الله، وسميته «إكرام الموحدين في

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٦١).
(٢) أخرجه البخاري (١٦، ٢١) من حديث أنس ﷺ.

بيان تحقيق وصية رب العالمين».

● **وفي هذه المقدمة أحب أن أنبه على أمور، منها:**

أولاً: **أن التوحيد يكون في الطلب، وتعلقه بالربوبية، ويكون في المطلوب، وتعلقه بالألوهية.**

* **الإلهية تتضمن** الربوبية، **والربوبية** تستلزم الإلهية، فإن أحدهما إذا تضمن الآخر عند الانفراد، لم يمنع أن يختص بمعناه عند الاقتران، كما في قوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ [الناس: ١- ٣]، وفي قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: ٢]، فجمع بين الاسمين: اسم الإله، واسم الرب، فإن الإله: هو المعبود الذي يستحق أن يعبد.

والرب: هو الذي يربي عبده فيدبره، ولهذا كانت العبادة متعلقة: باسمه (الله)، والسؤال متعلقًا: باسمه (الرب).

فإن العبادة: هي الغاية التي لها خلق الخلق، **والإلهية:** هي الغاية، **والربوبية:** تتضمن خلق الخلق وإنشاءهم، فهو متضمن ابتداء حالهم، والمصلي إذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]، فبدأ بالمقصود الذي هو الغاية على الوسيلة التي هي البداية، **فالعبادة:** غاية مقصوده، **والاستعانة:** وسيلة إليها، تلك حكمة وهذا سبب، والفرق بين العلة الغائية والعلة الفاعلية معروف، ولهذا يقال: أول الفكرة آخر العمل، وأول البغية آخر الدرك، فالعلة الغائية: متقدمة في التصور والإرادة، وهي متأخرة في الوجود، فالمؤمن يقصد عبادة اللّه ابتداءً، وهو يعلم أن ذلك لا يحصل إلا بإعانته، فيقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾.

ولما كانت العبادة متعلقة باسم اللّه تعالى، جاءت الأذكار المشروعة بهذا الاسم مثل كلمات الأذان: اللّه أكبر اللّه أكبر، ومثل الشهادتين: أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمدًا رسول الله، ومثل التشهد: التحيات لله، ومثل التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير: سبحان اللّه والحمد لله ولا إله إلا اللّه واللّه أكبر. وأما السؤال: فكثيرًا ما يجيء باسم (الرب) كقول آدم وحواء عليهما السلام: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٣]، وقول نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [هود: ٤٧]، وقول موسى السلام: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾ [القصص: ١٦]، وقول الخليل السلام: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم: ٣٧]، وقوله مع إسماعيل السلام: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، وكذلك قول الذين قالوا: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١]. ومثل هذا كثير.

وقد نقل عن مالك رحمه الله أنه قال: أكره للرجل أن يقول في دعائه: «**يا سيدي يا سيدي، يا حنان يا حنان، ولكن يدعو بما دعت به الأنبياء: ربنا ربنا**». نقله عنه العتبي في العتبية.

وقال تعالى عن أولي الألباب: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ الآيات [آل عمران: ١٩١][١].

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٨٤).

ولما كان علم النفوس بحاجتهم وفقرهم إلى الرب قبل علمهم بحاجتهم وفقرهم إلى الإله المعبود، وقصدهم لدفع حاجاتهم العاجلة قبل الآجلة؛ كان إقرارهم باللَّه من جهة ربوبيته أسبق من إقرارهم به من جهة ألوهيته، وكان الدعاء له والاستعانة به والتوكل عليه فيهم أكثر من العبادة له والإنابة إليه.

ولهذا إنما بعث الرسل يدعونهم إلى عبادة اللَّه وحده لا شريك له، الذي هو المقصود المستلزم للإقرار بالربوبية، وقد أخبر عنهم أنهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزُّخرف: ٨٧]، وأنهم إذا مسهم الضر ضل من يدعون إلا إياه، وقال: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾ [لقمان: ٣٢]، فأخبر أنهم مقرون بربوبيته، وأنهم مخلصون له الدين إذا مسهم الضر في دعائهم واستعانتهم، ثم يعرضون عن عبادته في حال حصول أغراضهم.

وكثير من المتكلمين إنما يقررون الوحدانية من جهة الربوبية، وأما الرسل فهم دعوا إليها من جهة الألوهية، وكذلك كثير من المتصوفة المتعبدة، وأرباب الأحوال، إنما توجههم إلى اللَّه من جهة ربوبيته، لما يمدهم به في الباطن من الأحوال التي بها يتصرفون، وهؤلاء من جنس الملوك، وقد ذم اللَّه عَجَّلَكَ في القرآن هذا الصنف كثيرًا، فتدبر هذا، فإنه تنكشف به أحوال قوم يتكلمون في الحقائق، ويعملون عليها، وهم لعمري في نوع من الحقائق الكونية القدرية الربوبية، لا في الحقائق الدينية الشرعية الإلهية.

وعليه؛ **فإن غاية توحيد الربوبيّة**: أن تفرد اللَّه بالطلب والاستعانة، فلا تشرك معه أحدًا غيره فيما هو من خصائصه.

وأما توحيد الإلهية، أو العبادة، فغايته: أن تفرده بالتأله والقصد والإرادة، وبه تفاوتت درجات الناس في التوحيد، كما سيأتي.

ثانيًا: أن الإيمان بالقدر والرضى بالله ربًّا متعلق بتوحيد الربوبية، والواجب على المسلم التسليم لحكم الله وقدره، وذلك في ثلاثة أمور:

الأول: الصبر عند حلول المصائب.

الثاني: الشكر عند حدوث النعم.

الثالث: الاستغفار بعد الوقوع في الذنب.

ثالثًا: أن الأمر والنهي متعلق بالألوهية، وقد صرح تعالى بهذا في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

«**فالعبادة**: هي الغاية التي خلق لها الجن والإنس والخلائق كلها، قال الله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة: ٣٦]؛ أي: مهملًا. قال الشافعي: لا يؤمر ولا ينهى. وقال غيره: لا يثاب ولا يعاقب. والصحيح: الأمران؛ فإن الثواب والعقاب مترتبان على الأمر والنهي، والأمر والنهي طلب العبادة وإرادتها، وحقيقة العبادة امتثالهما.

وقال تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥]، وقال: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الجاثية: ٢٢]، فأخبر أنه خلق السماوات والأرض بالحق المتضمن أمره ونهيه، وثوابه وعقابه»[١].

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٩٨).

رابعًا: «أن توحيد الألوهية: يجمع كمال المحبة وكمال الذل، فالعابد محب خاضع، بخلاف من يحب من لا يخضع له، بل يحبه ليتوسل به إلى محبوب آخر، وبخلاف من يخضع لمن لا يحبه، كما يخضع للظالم، فإن كلًّا من هذين ليس عبادة محضة، وإن كل محبوب لغير الله، ومعظِّم لغير اللَّه ففيه شَوْبٌ من العبادة، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح[١]: «تَعِس عبدُ الدرهمِ، تعس عبد الدينار، تعس عبد القطيفة، تعس عبد الخميصة، تعس وانتَكَس، وإذا شِيك فلا انتَقَش»[٢].

خامسًا: «أن الشرك، إن كان شركًا يكفر به صاحبه، نوعان: شرك في الإلهية، وشرك في الربوبية:

فأما الشرك في الإلهية:

فهو أن يجعل لله ندًّا؛ أي: مثلاً، في عبادته، أو محبته، أو خوفه، أو رجائه، أو إنابته، فهذا هو الشرك الذي لا يغفره اللَّه إلا بالتوبة منه، قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنفال: ٣٨]، وهذا هو الذي قاتل عليه رسول اللَّه ﷺ مشركي العرب؛ لأنهم أشركوا في الإلهية، قال اللَّه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣٠).

(٢) «قاعدة في المحبة» (١/ ٩٨).

حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾ [البقرة: ١٦٥].

وقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزُّمر: ٣].

وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [ص: ٥]، وقال تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾ [ق: ٢٤- ٢٦].

وقال النبي ﷺ لحصين ﷺ: «**كم تعبد اليوم إلهًا؟**». قال: سبعة: ستة في الأرض، وواحدًا في السماء. قال: «**فمن الذي تعدُّ لرغبتك ورهبتك؟**». قال: الذي في السماء. قال: «**ألا تسلم فأعلمك كلمات؟**». فأسلم، فقال النبي ﷺ: «**قل: اللهم ألهمني رشدي، وقني شر نفسي**»[1].

- **وأما الربوبية:**

فكانوا مقرين بها، قال اللّه تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [لقمان: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٤٤٤)، والترمذي (٣٤٨٣). قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤- ٨٩]، وما اعتقد أحد منهم قط أن الأصنام هي التي تنزل الغيث، وترزق العالم وتدبره، وإنما كان شركهم كما ذكرنا: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وهذا المعنى يدل على أن من أحب شيئًا من دون اللَّه كما يحب اللَّه تعالى فقد أشرك، وهذا كقوله: ﴿قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء: ٩٦، ٩٨]، وكذا من خاف أحدًا كما يخاف الله، أو رجاه كما يرجو الله، وما أشبه ذلك.

وأما النوع الثاني: فالشرك في الربوبية:

فإن الرب سبحانه هو المالك المدبر، المعطي المانع، الضار النافع، الخافض الرافع، المعز المذل، فمن شهد أن المعطي أو المانع، أو الضار أو النافع، أو المعز أو المذل غيره؛ فقد أشرك بربوبيته، ذلك أن الالتفات إلى السبب هو اعتماد القلب عليه ورجاؤه، والاستناد إليه، وليس في المخلوقات ما يستحق هذا؛ لأنه ليس مستقلًّا، لا بد له من شركاء وأضداد، ومع هذا كله فإن لم يسخره مسبب الأسباب لم يسخر، وهذا مما يبين أن اللَّه رب كل شيء ومليكه، وأن السموات والأرض وما بينهما والأفلاك وما حوته لها خالق مدبر غيرها، وذلك أن كل ما يصدر عن فلك أو كوكب، أو ملك أو غير ذلك، فإنك تجده ليس مستقلًّا بإحداث شيء من الحوادث، بل لا بد من مشارك ومعاون، وهو مع ذلك له معارضات وممانعات[1].

(١) «مجموع الفتاوى» (٨/ ١٧٠).

سادسًا: «**أن التوحيد له ضدان: الكبر والشرك، ولهذا روي أن نوحًا عليه السلام أمر بنيه بلا إله إلا الله، وسبحان الله، ونهاهم عن الكبر والشرك، في حديث قد ذكرته في غير هذا الموضع**(١)**، فإن المستكبر عن عبادة الله لا يعبده، فلا يكون مستسلمًا له، والذي يعبده ويعبد غيره يكون مشركًا به، فلا يكون سالمًا له، بل يكون له فيه شرك.**

ولفظ الإسلام يتضمن: الاستسلام والسلامة، التي هي الإخلاص، وقد علم أن الرسل جميعهم بعثوا بالإسلام العام المتضمن لذلك، كما قال تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال موسى: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]، وقال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [البقرة: ١١٢]، وقال الخليل عليه السلام، لما قال له ربه أسلم: ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ﴾ ويعقوب أيضًا وصى بها بنيه ﴿يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣١، ١٣٢]، أيضًا وصى بها بنيه: ﴿يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، وقال يوسف عليه السلام: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى

---

(١) ونصه: «إن نبي الله نوحًا ﷺ لما حضرته الوفاة قال لابنه: إني قاص عليك الوصية: آمرك باثنتين وأنهاك عن اثنتين، آمرك بـ(لا إله إلا الله)؛ فإن السماوات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة ووضعت لا إله إلا الله في كفة رجحت بهن لا إله إلا الله، ولو أن السماوات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة قصمتهن لا إله إلا الله. وسبحان الله وبحمده؛ فإنها صلاة كل شيء وبها يرزق الخلق. وأنهاك عن الشرك والكبر ...». صحيح: رواه أحمد (٢/ ١٦٩، ١٧٠، ٢٢٥).

﴿بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، ونظائره كثيرة.

وعُلم أن إبراهيم الخليل هو إمام الحنفاء المسلمين بعده، كما جعله أمة وإمامًا، وجاءت الرسل من ذريته بذلك، فابتدعت اليهود والنصارى ما ابتدعوه مما خرج بهم عن دين اللَّه الذي أُمروا به، وهو الإسلام العام، ولهذا أُمرنا أن نقول: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾، [الفاتحة: ٦، ٧]، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**اليهودُ مغضوبٌ عليهم، والنصارى ضالون**»[1]. وكل من هاتين الأمتين خرجت عن الإسلام، وغلب عليها أحد ضديه، فاليهود يغلب عليهم الكبر، ويقل فيهم الشرك، والنصارى يغلب عليهم الشرك ويقل فيهم الكبر، وقد بين اللَّه ذلك في كتابه، فقال في اليهود: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، وهذا هو أصل الإسلام، إلى قوله: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٣- ٨٧]، وهذا اللفظ الذي هو لفظ الاستفهام هو إنكار لذلك عليهم، وذم لهم عليه، وإنما يذمون على ما فعلوه، فعلم أنهم كانوا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم استكبروا فيقتلون فريقًا من الأنبياء، ويكذِّبون فريقًا، وهذا حال المستكبر الذي لا يقبل ما لا يهواه، فإن النبي ﷺ قد فسر الكبر في الحديث الصحيح بأنه: «**بَطَرُ الحق وغَمْطُ الناس**»، ففي «**صحيح مسلم**» عن عبد اللَّه

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٥٤). وأخرجه ابنُ جرير الطبري في «تفسيره» (١/ ١٠٧، ١١٢)، بأسانيده إلى عدي بن حاتم وابن مسعود مرفوعًا، وموقوف عن ابن عباس ومجاهد والربيع بن أنس وابن زيد. وقال ابنُ أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (١/ ٤٢): لا أعلم خلافًا بين المفسرين في تفسير المغضوب عليهم باليهود والضالين بالنصارى. وصححه الألباني.

بن مسعود قال: قال النبي ﷺ: «**لا يدخلُ النارَ مَن كان في قلبه مثقالُ ذرةٍ مَن إيمان، ولا يدخلُ الجنةَ من كان في قلبه مثقالُ ذَرةٍ من كِبْرٍ**»، فقال رجل: يا رسول الله، الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنًا، أفمن الكبر ذاك؟ فقال: «**لا، إن اللَّه جميلٌ يحبُّ الجمالَ، ولكن الكِبْرَ بَطَرُ الحق، وغَمْطُ الناس**»[1]. وبطر الحق: جحده ودفعه. وغمط الناس: احتقارهم وازدراؤهم.

وكذلك ذَكَر اللَّه الكبر في قوله بعد أن قال: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾، إلى أن قال: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٥، ١٤٦] وهذا حال الذي لا يعمل بعلمه، بل يتبع هواه، وهو الغاوي، كما قال: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦] وهذا مثل علماء السوء، وقد قال لما رجع موسى إليهم: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأعراف: ١٥٤]، فالذين يرهبون ربهم خلاف الذين يتبعون أهواءهم، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١]، فأولئك المستكبرون المتبعون أهواءهم مصروفون عن آيات الله،

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٩٣).

لا يعلمون ولا يفهمون، لما تركوا العمل بما علموه -استكبارًا واتباعًا لأهوائهم-؛ عوقبوا بأن منعوا الفهم والعلم، فإن العلم حرب للمتعالي، كما أن السيل حرب للمكان العالي، والذين يرهبون ربهم عملوا بما علموه فآتاهم اللَّه علمًا ورحمة؛ إذ مَن عمل بما علم أورثه اللَّه علم ما لم يعلم، ولهذا لما وصف اللَّه النصارى بأن منهم قسيسين ورهبانًا -والرهبان من الرهبة- وأنهم لا يستكبرون، كانوا بذلك أقرب مودة إلى الذين آمنوا، كما قال: ﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [المائدة: ٨٢]، فلما كان فيهم رهبة وعدم كبر؛ كانوا أقرب إلى الهدى، فقال في حق المسلمين منهم: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المائدة: ٨٣].

قال ابن عباس رضي اللَّه عنهما: مع محمد وأمته، وهم الأمة الشهداء، فإن النصارى لهم قصد وعبادة، وليس لهم علم وشهادة، ولهذا فإن كان اليهود شرًّا منهم؛ بأنهم أكثر كبرًا، وأقل رهبة، وأعظم قسوة، فإن النصارى شرٌّ منهم؛ فإنهم أعظم ضلالاً، وأكثر شركًا، وأبعد عن تحريم ما حرم اللَّه ورسوله.

وقد وصفهم اللَّه بالشرك الذي ابتدعوه، كما وصف اليهود بالكبر الذي هووه، فقال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ

يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ﴿قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧]، وقد ذكر اللَّه قولهم أن اللَّه هو المسيح ابن مريم، وأن اللَّه ثالث ثلاثة، وقولهم اتخذ اللَّه ولدًا، في مواضع من كتابه، وبين عظيم فريتهم، وشتمهم لله، وقولهم (الإدّ)(١) الذي: ﴿قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾، ولهذا يدعوهم في غير موضع إلى أن لا يعبدوا إلا إلهًا واحدًا، كقوله: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَـٰثَةٌ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَـٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾ [النساء: ١٧٠، ١٧١]؛ وهذا لأن المشركين بمخلوق من البشر أو غيرهم، يصيرون هم مشركون، ويصير الذي أشركوا به من الإنس والجن مستكبرًا، كما قال:

(١) الإدُّ: العَجبُ، والأَمر الفظيع العظيم، والداهية. «اللسان» (أ د د).

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ [الجن: ٦]، فأخبر اللَّه أن عباده لا يستكبرون عن عبادته، وإن أشرك بهم المشركون.

وكذلك قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٣ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧٤ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٧٥﴾ [المائدة: ٧٣- ٧٥]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝٧٢﴾ [المائدة: ٧٢]، فأخبر أنه أمرهم بالتوحيد، ونهاهم عن أن يشركوا به أو بغيره، كما فعلوه.

ولما كان أصل دين اليهود الكبر؛ عاقبهم بالذلة: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟﴾ [آل عمران: ١١٢]، ولما كان أصل دين النصارى الإشراك لتعديد الطرق إلى الله؛ أضلهم عنه، فعوقب كل من الأمتين على ما اجترمه بنقيض قصده، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصّلت: ٤٦]، كما جاء في الحديث: «**يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة في صور الذر، يطؤهم الناس بأرجلهم**»(١). وكما في الحديث عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه موقوفًا ومرفوعًا: «**ما من أحد إلا في رأسه حَكَمَةٌ**(٢)، **فإن تواضع قيل له: انتعش نعشك الله،**

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ١٧٩)، أخرجه الترمذي: (٤/ ٦٥٥) وأخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٥/ ٣٢٩).

(٢) الحَكَمَةُ: حديدة في اللِّجام تكون على أَنْف الفَرَس وَحَنَكِهِ تمنعه عن مخالفة راكبه. «النهاية =

وإن رفع رأسه قيل له: انتكس نكسك الله»[1]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ۝ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ﴾ [الزُّمر: ٥٩- ٦١].

ولهذا استوجبوا الغضب والمقت، والنصارى لما دخلوا في البدع أضلهم عن سبيل الله، فضلوا عن سبيل الله، وأضلوا كثيرًا، وضلوا عن سواء السبيل، وهم إنما ابتدعوها ليتقربوا بها إليه ويعبدوه، فأبعدتهم عنه، وأضلتهم عنه، وصاروا يعبدون غيره.

فتدبر هذا، والله تعالى يهدينا صراطه المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم، غير المغضوب عليهم والضالين.

وقد وصف بعض اليهود بالشرك في قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، وفي قوله: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ﴾ [المائدة: ٦٠]، ففي اليهود من عبد الأصنام، وعبد البشر، وذلك أن المستكبر عن الحق

= في غريب الحديث والأثر» (١/ ١٠٣٣).

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط: (٨/ ١٧٢) بنحوه، ولفظه: «من تواضع لله رفعه، وقال: انتعش نعشك الله. فهو في أعين الناس عظيم وفي نفسه صغير، ومن تكبر قصمه الله، وقال: اخسأ. فهو في أعين الناس صغير وفي نفسه كبير» من حديث عمر ﷺ مرفوعًا.
هو عبارة عن حديثين: فالأول بلفظ: «ما من آدمي إلا في رأسه حكمة بيد ملك فإذا تواضع قيل للملك: ارفع حكمته. وإذا تكبر قيل للملك: ضع حكمته». رواه الطبراني في «الكبير» عن ابن عباس، وهو حسن كما في «الصحيحة» (٥٣٨)، والثاني كما في الحاشية.

يبتلى بالانقياد للباطل، فيكون المستكبر مشركًا كما ذكر اللَّه عن فرعون وقومه أنهم كانوا مع استكبارهم وجحودهم مشركين، فقال عن مؤمن آل فرعون: ﴿۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [غافر: ٤١- ٤٣]، وقال: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾ [غافر: ٣٤]، وقال يوسف الصديق لهم: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يوسف: ٣٩، ٤٠]، وقد قال تعالى: ﴿ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل اللَّه بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الأعراف: ١٢٧][1].

سابعًا: بيان السبب الذي جعل المحبة شرطًا في التوحيد، والخوف من واجباته:

وذلك «**أن الخوف يتعلق بالأفعال، وأما الحب فإنه يتعلق بالذات**

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٦٢٩).

والصفات، ولهذا يزول الخوف في الجنة، وأما الحب فيزداد، ولما كان الحب يتعلق بالذات، كان من أسمائه سبحانه الودود، قال البخاري في «صحيحه»: (الحبيب)، وأما الخوف: فإن متعلقه أفعال الرب، ولا يخرج عن كون سببه جناية العبد، وإن كانت جنايته من قدر الله، ولهذا قال علي بن أبي طالب ﷺ: «**لا يرجون عبد إلا ربه، ولا يخافن عبد إلا ذنبه**». فمتعلق الخوف ذنب العبد، وعاقبته، وهي مفعولات للرب، فليس الخوف عائدًا إلى نفس الذات، والفرق بينه وبين الحب: أن الحب سببه الكمال، وذاته تعالى لها الكمال المطلق، وهو متعلق الحب التام، وأما الخوف فسببه توقع المكروه، وهذا إنما يكون في الأفعال والمفعولات»[١].

ثامنًا: اسم (الله) دال على جميع الأسماء الحسنى، والصفات العليا بالدلالات الثلاث؛ يعني: دلالة التضمن والالتزام والمطابقة، فإنه دال على إلهيته المتضمنة لثبوت صفات الإلهية له، مع نفي أضدادها عنه.

وصفات الإلهية: هي صفات الكمال المنزهة عن التشبيه والمثال، وعن العيوب والنقائص، ولهذا يضيف اللّه تعالى سائر الأسماء الحسنى إلى هذا الاسم العظيم، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠].
ويقال: الرحمن والرحيم والقدوس والسلام والعزيز والحكيم من أسماء الله. ولا يقال: اللّه من أسماء الرحمن، ولا من أسماء العزيز، ونحو ذلك.

فعلم أن اسمه (الله) مستلزم لجميع معاني الأسماء الحسنى، دال عليها

---

(١) «طريق الهجرتين» (١/ ٤٢٦).

بالإجمال، والأسماء الحسنى تفصيل وتبيين لصفات الإلهية، التي اشتق منها اسم الله، واسم اللَّه دال على كونه مألوهًا معبودًا، تألهه الخلائق؛ محبة وتعظيمًا وخضوعًا وفزعًا إليه في الحوائج والنوائب، وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته المتضمنين لكمال الملك والحمد، وإلهيته وربوبيته ورحمانيته وملكه مستلزم لجميع صفات كماله؛ إذ يستحيل ثبوت ذلك لمن ليس بحي ولا سميع ولا بصير، ولا قادر ولا متكلم، ولا فعال لما يريد، ولا حكيم في أفعاله.

وصفات الجلال والجمال أخص باسم الله. وصفات الفعل والقدرة، والتفرد بالضر والنفع والعطاء والمنع، ونفوذ المشيئة وكمال القوة، وتدبير أمر الخليقة، أخص باسم الرب. وصفات الإحسان والجود، والبر والحنان والمنة، والرأفة وال لف، أخص باسم الرحمن[1].

تاسعاً: **أنه سبحانه كامل في أسمائه وصفاته، فله الكمال المطلق من جميع الوجوه، الذي لا نقص فيه بوجه ما، وهو يحب أسماءه وصفاته، ويحب ظهور آثارها في خلقه، فإن ذلك من لوازم كماله، فإنه سبحانه وِتْرٌ يحب الوتر، جميل يحب الجمال، عليم يحب العلماء، جواد يحب الأجواد، قوي والمؤمن القوي أحب إليه من المؤمن الضعيف، حييٌّ يحب أهل الحياء، وفيٌّ يحب أهل الوفاء، شكور يحب الشاكرين، صادق يحب الصادقين، محسن يحب المحسنين.**

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٣).

فإذا كان يحب العفو والمغفرة، والحلم والصفح والستر، لم يكن بد من تقديره للأسباب التي تظهر آثار هذه الصفات فيها، ويستدل بها عباده على كمال أسمائه وصفاته، ويكون ذلك أدعى لهم إلى محبته وحمده وتمجيده، والثناء عليه بما هو أهله، فتحصل الغاية التي خلق لها الخلق، وإن فاتت من بعضهم، فذلك لفوات سبب لكمالها وظهورها، فتضمن ذلك الفوات المكروه له أمرًا هو أحب إليه من عدمه، فتأمل هذا الموضع حق التأمل[١].

فأسماؤه الحسنى تقتضي آثارها، اقتضاء الأسباب التامة لمسبباتها، فاسم السميع البصير يقتضي مسموعًا ومبصرًا، واسم الرزاق يقتضي مرزوقًا، واسم الرحيم يقتضي مرحومًا، وكذلك أسماء الغفور والعفو والتواب والحليم تقتضي من يغفر له ويتوب عليه، ويعفو عنه ويحلم، ويستحيل تعطيل هذه الأسماء والصفات؛ إذ هي أسماء حسنى، وصفات كمال، ونعوت جلال، وأفعال حكمة وإحسان وجود، فلا بد من ظهور آثارها في العالم، وقد أشار إلى هذا أعلم الخلق بالله -صلوات الله وسلامه- عليه حيث يقول: «لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون ثم يستغفرون فيغفر لهم»[٢][٣].

عاشرًا: أن الحد الجامع لتعريف التوحيد هو: «إفراد الله بالتعلق تعبدًا واستعانة».

فإفراده بالعبادة: يخلصه من الشرك في الإلهية.

وإفراده بالاستعانة: يخلصه من الشرك في الربوبية.

(١) «روضة المحبين» (١/ ٦٤).

(٢) أخرجه مسلم (٤/ ٢١٠٦).

(٣) «مدارج السالكين» (١/ ٢٠٨).

والأول: متعلق بمحبته فهو له، فغايته أن تطلبه هو بالتأله.

والثاني: متعلق بمشيئته فهو به، وغايته أن تطلب منه، لا سواه، وقد فهم هذا تمام الفهم الأعرابي الذي جاء إلى النبي ﷺ فقال: علمني كلاما أقوله، قال: قل: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الله أكبر والحمد لله كثيرا، وسبحان الله رب العالمين، لا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم، قال: فهؤلاء لربي فما لي؟ قال: قل: اللهم اغفر لي وارحمني واهدني وارزقني»[١] واللّه أعلم.

واللّه أسأل أن ينفعني به، وكل من اطلع عليه أو سمعه، إن ربي قريب مجيب.

وكتبه الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته
أبو عبد الرحمن
عبد اللّه بن صالح بن عبد العزيز العبيلان
حائل - قرية نقبين
١٩/ ٣/ ١٤٣٠هـ

---

(١) أخرجه مسلم (٢/ ٢٠٧٢) من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ.



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

التوحيد أول دعوة الرسل، وأول منازل الطريق، وأول مقام يقوم فيه الموحد السائر إلى اللَّه تعالى، قال تعالى: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ**﴾ [الأعراف: ٥٩].

وقال هود لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٦٥]، وقال صالح لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٧٣]، وقال شعيب لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

فالتوحيد مفتاح دعوة الرسل، ولهذا قال النبي ﷺ لرسوله معاذ بن جبل ؓ - وقد بعثه إلى اليمن -: «**إنك تأتي قومًا أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة اللَّه وحده، فإذا عرفوا الله، فأخبرهم أن اللَّه قد فرض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة**»[١]، وذكر الحديث. وقال: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول الله**»[٢].

ولهذا كان الصحيح أن أول واجب يجب على المكلف شهادة أن لا إله إلا الله، لا النظر، ولا القصد إلى النظر، ولا الشك، كما هيَ أقوال لأرباب الكلام المذموم.

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٩٥، ١٤٥٨) وانظر أطرافه، ومسلم (١٩/ ٢٩، ٣٠، ٣١).

(٢) أخرجه البخاريّ (١٣٩٩، ٢٩٤٦، ٦٩٢٤، ٧٢٨٤، ٧٢٨٥)، ومسلم (٢٠/ ٣٢، ٢١/ ٣٣، ٣٥).

فالتوحيد أول ما يدخل به في الإسلام، وآخر ما يخرج به من الدنيا، كما قال النبي ﷺ : «**من كان آخر كلامه لا إله إلا اللَّه دخل الجنة**»(١)، فهو أول واجب، وآخر واجب، فالتوحيد أول الأمر وآخره(٢).

* * *

(١) صحيح: أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٢٣٣، ٢٤٧)، وأبو داود (٣١١٦)، وغيرهما.
(٢) «مدراج السالكين» (٣/ ٤٤٣).

أنواع التوحيد

وهو نوعان: توحيد في المعرفة والإثبات، وتوحيد في الطلب والقصد:

فالأول: **هو حقيقة ذات الرب تعالى، وأسمائه وصفاته وأفعاله، وعلوه فوق سمواته على عرشه، وتكلمه بكتبه، وتكليمه لمن شاء من عباده، وإثبات عموم قضائه وقدره وحكمه.**

وقد أفصح القرآن عن هذا النوع جد الإفصاح، كما في أول سورة «**الحديد**»، وسورة «**طه**»، وآخر سورة «**الحشر**»، وأول سورة «**تنزيل السجدة**»، وأول سورة «**آل عمران**»، وسورة «**الإخلاص**» بكمالها، وغير ذلك.

النوع الثاني: **مثل ما تضمنته سورة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾، وقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٤] الآية، وأول سورة: «تنزيل الكتاب» وآخرها، وأول سورة «يونس» ووسطها وآخرها، وأول سورة «الأعراف» وآخرها، وجملة سورة «الأنعام»، وغالب سور القرآن، بل كل سورة في القرآن، فهي متضمنة لنوعي التوحيد.**

بل نقول قولاً كليًا: إن كل آية في القرآن، فهي متضمنة للتوحيد شاهدة به، داعية إليه، فإن القرآن إما خبر عن اللَّه وأسمائه وصفاته وأفعاله، فهو التوحيد العلمي الخبري. وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع كل ما يعبد من دونه، فهو التوحيد الإرادي الطلبي. وإما أمر ونهي وإلزام

بطاعته في نهيه وأمره، فهي حقوق التوحيد ومكملاته. وإما خبر عن كرامة اللَّه لأهل توحيده وطاعته، وما فعل بهم في الدنيا، وما يكرمهم به في الآخرة، فهو جزاء توحيده. وإما خبر عن أهل الشرك، وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يحل بهم في العقبى من العذاب، فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد.

فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم، فـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ توحيد، ﴿ رب العالمين ﴾ توحيد، ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ توحيد، ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾ توحيد، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ توحيد، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ توحيد، ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ توحيد، متضمن لسؤال الهداية إلى طريق أهل التوحيد الذين أنعم اللَّه عليهم و﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ الذين فارقوا التوحيد.

فهو حقيقة الإسلام؛ إذ الإسلام: هو الاستسلام لله لا لغيره، كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾... الآية [الزُّمر: ٢٩].

فمن لم يستسلم له فقد استكبر، ومن استسلم لله ولغيره فقد أشرك، وكل من الكبر والشرك ضد الإسلام، والإسلام ضد الشرك والكبر، وذلك في القرآن كثير، ولهذا كان الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله، وهي متضمنة: عبادة اللَّه وحده وترك عبادة ما سواه، وهو الإسلام العام الذي لا يقبل اللَّه من أحد من الأولين والآخرين دينًا سواه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا

بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: ١٨، ١٩].

وفي «الصحيحين» عن معاذ ﷺ قال: كنت رديفًا للنبي على حمار، فقال: «**يا معاذُ، أتدري ما حقُّ اللهِ على العبادِ؟**». قلت: اللَّه ورسوله أعلم، قال: «**حقُّ اللهِ على العبادِ أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحقُّ العبادِ على اللهِ أن لا يعذبَ من لا يشركُ به شيئًا**»(١).

والعبادة هي: الغاية التي خلق اللَّه لها العباد، من جهة أمر اللَّه ومحبته ورضاه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، وبها أرسل الرسل وأنزل الكتب، وهي اسم يجمع كمال الذل لله ونهايته، وكمال الحب لله ونهايته، فالحب الخلي عن ذل، والذل الخلي عن حب لا يكون عبادة، وإنما العبادة ما يجمع كمال الأمرين، ولهذا كانت العبادة لا تصلح إلا لله، وهي وإن كانت منفعتها للعبد، واللَّه غني عنها، فهي له من جهة محبته لها ورضاه بها(٢).

- **وقد دل استقراء القرآن العظيم أيضًا على أن توحيد اللَّه ينقسم إلى ثلاثة أقسام:**

النوع الأول: توحيده جلَّ وعلا في أسمائه وصفاته

وهذا النوع من التوحيد ينبني على أصلين:

الأول: تنزيه اللَّه جلَّ وعلا عن مشابهة المخلوقين في صفاتهم، كما قال

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٥٦، ٥٩٦٧) وانظر أطرافه، ومسلم (٣٠/ ٤٨- ٥٠).

(٢) «مدراج السالكين» (٣/ ٤٤٩، ٤٥٠)، وانظر «درء التعارض» (٨/ ٤) وما بعدها.

تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشُّورى: ١١].

والثاني: الإيمان بما وصف اللَّه به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ، على الوجه اللائق بكماله وجلاله، كما قال بعد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشُّورى: ١١] مع قطع الطمع عن إدراك كيفية الاتصاف، قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه: ١١٠].

الثاني: توحيده في ربوبيته:

وهذا النوع من التوحيد جبلت عليه فطر العقلاء، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الزُّخرف: ٨٧]، وقال: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يونس: ٣١]، وإنكار فرعون لهذا النوع من التوحيد في قوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الشعراء: ٢٣] - تجاهل من عارف أنه عبد مربوب؛ بدليل قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وقوله: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ﴾ [النمل: ١٤].

وهذا النوع من التوحيد لا ينفع إلا بإخلاص العبادة لله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦]، والآيات الدالة على ذلك كثيرة جدًّا.

الثالث: **توحيده جلّ وعلا في عبادته:**

وضابط هذا النوع من التوحيد هو تحقيق معنى «**لا إله إلّا الله**»، وهي متركبة من نفي وإثبات:

فمعنى النفي منها: خلع جميع أنواع المعبودات غير الله، كائنة ما كانت في جميع أنواع العبادات كائنة ما كانت.

ومعنى الإثبات منها: إفراد اللّه جلّ وعلا وحده بجميع أنواع العبادات، بإخلاص على الوجه الذي شرعه على ألسنة رسله - عليهم الصلاة والسلام - ، وأكثر آيات القرآن في هذا النوع من التوحيد، وهو الذي فيه المعارك بين الرسل وأممهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص: ٥].

ومن الآيات الدالة على هذا النوع من التوحيد قوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ۝١٩﴾ [محمد: ١٩]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ۖ﴾ [النحل: ٣٦]، وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ۝٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقوله: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ۝٤٥﴾ [الزُّخرف: ٤٥]، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٠٨﴾ [الأنبياء: ١٠٨]، فقد أمر في هذه الآية الكريمة أن يقول أنما أوحي إليه محصور في هذا النوع من التوحيد؛ لشمول كلمة «**لا إله إلّا الله**» لجميع ما جاء في الكُتب، لأنها تقتضي طاعة اللّه بعبادته وحده، فيشمل ذلك جميع العقائد، والأوامر والنواهي، وما يتْبع ذلك من ثواب وعقاب، والآيات في هذا النوع من التوحيد كثيرة، كما يأتي تفصيله.

توحيد الأسماء والصفات

قال تعالى: ﴿۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [هود: ٤١]، وقال تعالى: ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾ [هود: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ [هود: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ [هود: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾﴾ [هود: ٩٢]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾ [يوسف: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [يوسف: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [يوسف: ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾، [إبراهيم: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ

ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [سبأ: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [سبأ: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾﴾ [سبأ: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠ - ١٨٢].

* * *



عقيدة الأنبياء والمرسلين في أسماء اللَّه وصفاته

فمداره على إثبات صفات الكمال، وعلى نفي التشبيه والمثال، والتنزيه عن العيوب والنقائص، وقد دل على هذا شيئان: مجمل ومفصل:

أما المجمل: فإثبات الحمد له سبحانه.

وأما المفصل: فذكر صفة الإلهية، والربوبية، والرحمة، والملك، وعلى هذه الأربع مدار الأسماء والصفات.

فأمَّا تضمن الحمد لذلك: فإن الحمد يتضمن مدح المحمود بصفات كماله، ونعوت جلاله، مع محبته، والرضا عنه، والخضوع له، فلا يكون حامدًا من جحد صفات المحمود، ولا من أعرض عن محبته والخضوع له، وكلما كانت صفات كمال المحمود أكثر، كان حمده أكمل، وكلما نقص من صفات كماله، نقص من حمده بحسبها، ولهذا كان الحمد لله حمدًا لا يحصيه سواه، لكمال صفاته وكثرتها، ولأجل هذا لا يحصي أحد من خلقه ثناءً عليه، لما له من صفات الكمال ونعوت الجلال التي لا يحصيها سواه، ولهذا ذم اللَّه تعالى آلهة الكفار وعابها بسلب أوصاف الكمال عنها، فعابها بأنها لا تسمع، ولا تبصر، ولا تتكلم، ولا تهدي، ولا تنفع ولا تضر، وهذه صفة إله الجهمية، التي عاب بها الأصنام، نسبوها إليه، تعالى اللَّه عما يقول الظالمون والجاحدون علوًّا كبيرًا، فقال تعالى حكاية عن خليله إبراهيم عليه السلام في محاجته لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـًٔا﴾ [مريم: ٤٢]، فلو كان إله إبراهيم بهذه الصفة والمثابة لقال له آزر: وأنت إلهك بهذه المثابة، فكيف تنكر عليَّ؟ لكن كان مع شركه أعرف باللَّه من

الجهمية، وكذلك كفار قريش كانوا مع شركهم مقرين بصفات الصانع سبحانه وعلوه على خلقه، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأعراف: ١٤٨]، فلو كان إله الخلق سبحانه كذلك لم يكن في هذا إنكار عليهم، واستدلال على بطلان الإلهية بذلك[١].

فإن قيل: فاللَّه تعالى لا يكلم عباده.

قيل: بلى، قد كلمهم، فمنهم من كلمه اللَّه من وراء حجاب، منه إليه بلا واسطة كموسى، ومنهم من كلمه اللَّه على لسان رسوله الملكي، وهم الأنبياء، وكلم اللَّه سائر الناس على ألسنة رسله، فأنزل عليهم كلامه الذي بلَّغته رسله عنه، وقالوا لهم: هذا كلام اللَّه الذي تكلم به وأمرنا بتبليغه إليكم.

ومن هاهنا قال السلف: من أنكر كون اللَّه متكلمًا فقد أنكر رسالة الرسل كلهم؛ لأن حقيقتها تبليغ كلامه الذي تكلم به إلى عباده، فإذا انتفى كلامه انتفت الرسالة، وقال تعالى في سورة «طه» عن السامري: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَـٰذَآ إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾ [طه: ٨٨، ٨٩]، ورَجْعُ القول هو التكلم والتكليم، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [النحل: ٧٦]، فجعل نفي صفة الكلام موجبًا لبطلان الإلهية، وهذا أمر معلوم بالفطر والعقول السليمة والكتب السماوية، أن فاقد صفات الكمال لا يكون إلهًا، ولا مدبرًا،

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٢٥).

ولا ربًّا، بل هو مذموم معيب ناقص، ليس له الحمد لا في الأولى ولا في الآخرة، وإنما الحمد في الأولى والآخرة لمن له صفات الكمال، ونعوت الجلال التي لأجلها استحق الحمد.

ولهذا سمى السلف كتبهم التي صنفوها في السنة وإثبات صفات الرب وعلوه على خلقه وكلامه وتكليمه - توحيدًا؛ لأن نفي ذلك وإنكاره والكفر به إنكار للصانع وجحد له، وإنما توحيده إثبات صفات كماله وتنزيهه عن التشبيه والنقائص، فجعل المعطلة جحد الصفات وتعطيل الصانع عنها توحيدًا، وجعلوا إثباتها لله تشبيهًا وتجسيمًا وتركيبًا، فسمَّوا الباطل باسم الحق؛ ترغيبًا فيه وزخرفًا يُنَفِّقونه به، وسمَّوا الحق باسم الباطل؛ تنفيرًا عنه، والناس أكثرهم مع ظاهر السكة، ليس لهم نقد النقاد: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧][1].

«والمحمود لا يُحمد على العدم والسكوت البتة إلا إذا كانت سلب عيوب ونقائص تتضمن إثبات أضدادها من الكمالات الثبوتية، وإلا فالسلب المحض لا حمد فيه ولا مدح ولا كمال.

وكذلك حمده لنفسه على عدم اتخاذ الولد المتضمن لكمال صمديته وغناه وملكه وتعبيد كل شيء له، فاتخاذ الولد ينافي ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ [البقرة: ١١٦].

وحمد نفسه على عدم الشريك المتضمن تفرده بالربوبية، والإلهية، وتوحده بصفات الكمال التي لا يوصف بها غيره، فيكون شريكًا له، فلو عدمها لكان كل موجود أكمل منه، لأن الموجود أكمل من المعدوم، ولهذا

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٢٦).

لا يحمد نفسه سبحانه بعدم إلا إذا كان متضمنًا لثبوت كمال، كما حمد نفسه بكونه لا يموت؛ لتضمنه كمال حياته، وحمد نفسه بكونه: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾؛ لتضمن ذلك كمال قيوميته، وحمد نفسه بأنه: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ﴾ [سبأ: ٣]؛ لكمال علمه وإحاطته، وحمد نفسه بأنه لا يظلم أحدًا؛ لكمال عدله وإحسانه، وحمد نفسه بأنه لا تدركه الأبصار؛ لكمال عظمته، يُرى ولا يُدرك، كما أنه يُعلم ولا يُحاط به علمًا، فمجرد نفي الرؤية ليس بكمال؛ لأن العدم لا يُرى، فليس في كون الشيء لا يُرى كمالٌ البتة، وإنما الكمال في كونه لا يحاط به رؤية ولا إدراكًا؛ لعظمته في نفسه وتعاليه عن إدراك المخلوق له، وكذلك حمد نفسه بعدم الغفلة والنسيان؛ لكمال علمه.

فكل سلب في القرآن حمد اللَّه به نفسه فلمضادته لثبوت ضده ولتضمنه كمال ثبوت ضده.

فعلمت أن حقيقة الحمد تابعة لثبوت أوصاف الكمال، وأن نفيها نفي لحمده، ونفي الحمد مستلزم لثبوت ضده»[١].

«فهذه دلالة على توحيد الأسماء والصفات، وأما دلالة الأسماء الخمسة عليها، وهي (الله)، و(الرب)، و(الرحمن)، و(الرحيم)، و(الملك)، فمبني على أصلين:

أحدهما: أن أسماء الرب تبارك وتعالى دالة على صفات كماله، فهي مشتقة من الصفات، فهي أسماء وهي أوصاف، وبذلك كانت حسنى؛ إذ لو كانت ألفاظًا لا معاني فيها لم تكن حسنى، ولا كانت دالة على مدح ولا

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٢٧).

كمال، ولساغ وقوع أسماء الانتقام والغضب في مقام الرحمة والإحسان وبالعكس، فيقال: اللهم إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنك أنت المنتقم. و: اللهم أعطني فإنك أنت الضار المانع، ونحو ذلك.

ونفي معاني أسمائه الحسنى من أعظم الإلحاد فيها، قال تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ولأنها لو لم تدل على معانٍ وأوصاف لم يجز أن يخبر عنها بمصادرها ويوصف بها، لكن اللّه أخبر عن نفسه بمصادرها وأثبتها لنفسه وأثبتها له رسوله، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٨]، فعلم أن القوي من أسمائه، ومعناه: الموصوف بالقوة، وكذلك قوله: ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]، فالعزيز من له العزة، فلولا ثبوت القوة والعزة له لم يسم قويًا ولا عزيزًا، وكذلك قوله: ﴿أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء: ١٦٦]، ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ [هود: ١٤]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وفي «**الصحيح**» عن النبي ﷺ: «**إن اللهَ لا ينامُ ولا ينبغي له أن ينامَ، يخفضُ القسطَ ويرفعُه، يُرفع إليه عملُ الليلِ قبل النهارِ، وعملُ النهارِ قبل الليلِ، حجابُه النورُ، لو كشفه لأحرَقتْ سُبُحاتُ وجهِه ما انتهى إليه بصرُه من خلقِه**»(١). فأثبت المصدر الذي اشتق منه اسمه البصير.

وفي «**صحيح البخاري**» عن عائشة رضي اللّه عنها قالت: «الحمد لله الذي وَسِع سمعه الأصوات»(٢).

وفي «**الصحيح**» حديث الاستخارة: «اللهم إني أستخيرك بعلمك

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٩/ ٢٩٥)، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٤٦)، ورواه البخاري في كتاب التوحيد تعليقًا (١٣/ ٣٨٢)، وهو حديث صحيح.

وأستقدرك بقدرتك»[١]. فهو قادر بقدرة.

وقال تعالى لموسى: ﴿إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤] فهو متكلم بكلام.

وهو العظيم الذي له العظمة، كما في «**الصحيح**» عنه»: **يقول اللَّه تعالى: العظمة إزاري، والكبرياء ردائي**»[٢]. وهو الحكيم الذي له الحكم: ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١٢]، وأجمع المسلمون أنه لو حلف بحياة اللَّه أو سمعه أو بصره أو قوته أو عزته أو عظمته؛ انعقدت يمينه وكانت مكفرة؛ لأن هذه صفات كماله التي اشتقت منها أسماؤه.

وأيضًا لو لم تكن أسماؤه مشتملة على معانٍ وصفات لم يسغ أن يخبر عنه بأفعالها، فلا يقال: يسمع ويرى، ويعلم ويقدر ويريد، فإن ثبوت أحكام الصفات فرع ثبوتها فإذا انتفى أصل الصفة استحال ثبوت حكمها.

وأيضًا فلو لم تكن أسماؤه ذوات معان وأوصاف لكانت جامدة كالأعلام المحضة التي لم توضع لمسماها باعتبار معنى قام به، فكانت كلها سواء ولم يكن فرق بين مدلولاتها، وهذا مكابرة صريحة وبهت بيِّن، فإن من جعل معنى اسم (القدير) هو معنى اسم (السميع البصير)، ومعنى اسم (التواب) هو معنى اسم (المنتقم)، ومعنى اسم (المعطي) هو معنى اسم (المانع) فقد كابر العقل واللغة والفطرة.

فنفي معاني أسمائه من أعظم الإلحاد فيها، والإلحاد فيها أنواع، هذا أحدها.

الثاني: تسمية الأوثان بها كما يسمونها آلهة: وقال ابن عباس ومجاهد:

---

(١) أخرجه البخاري (١١٠٩) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه مسلم بنحوه (١٣٦/ ٢٦٢٠) من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما.

«عدلوا بأسماء اللَّه تعالى عما هي عليه فَسَمَّوا بها أوثانهم، فزادوا ونقصوا، فاشتقوا اللات من الله، والعزى من العزيز ومناة من المنان»[1]، وروي عن ابن عباس: «**يلحدون في أسمائه يكذبون** عليه»[2]، وهذا تفسير بالمعنى.

«وحقيقة الإلحاد فيها: العدول بها عن الصواب فيها، وإدخال ما ليس من معانيها فيها، وإخراج حقائق معانيها عنها. هذا حقيقة الإلحاد، ومن فعل ذلك فقد كذب على الله، ففسر ابن عباس الإلحاد بالكذب، أو هو غاية الملحد في أسمائه تعالى، فإنه إذا أدخل في معانيها ما ليس منها وخرج بها عن حقائقها، أو بعضها، فقد عدل بها عن الصواب والحق، وهو حقيقة الإلحاد.

فالإلحاد إما بجحدها، وإنكارها، وإما بجحد معانيها وتعطيلها، وإما بتحريفها عن الصواب وإخراجها عن الحق بالتأويلات الباطلة، وإما بجعلها أسماء لهذه المخلوقات المصنوعات، كإلحاد أهل الاتحاد، فإنهم جعلوها أسماء هذا الكون، محمودها ومذمومها، حتى قال زعيمهم: (وهو المسمى بكل اسم ممدوح، عقلاً وشرعًا وعرفًا، وبكل اسم مذموم، عقلاً وشرعًا وعرفًا!) تعالى اللَّه عما يقول الملحدون علوًّا كبيرًا.

الأصل الثاني: أن الاسم من أسمائه تبارك وتعالى كما يدل على الذات والصفة التي اشتق منها بالمطابقة، فإنه يدل عليه دلالتين أخريين بالتضمن واللزوم، فيدل على الصفة بمفردها بالتضمن، وكذلك على الذات المجردة

---

(١) ذكره البغوي في «تفسيره» (ص٣٠٦). وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٦١٦) إلى ابن أبي حاتم، قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٣٥٧): وقال العوفي، عن ابن عباس: «إلحاد الملحدين أن دعوا اللات في أسماء الله».

(٢) ذكره البغوي في «تفسيره» (ص٣٠٦). وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٦١٧٦) إلى عبد بن حميد، وأبي الشيخ، عن قتادة، قال: «يكذبون في أسمائه».

عن الصفة، ويدل على الصفة الأخرى باللزوم، فإن اسم (السميع) يدل على ذات الرب وسمعه بالمطابقة، وعلى الذات وحدها، وعلى السمع وحده بالتضمن، ويدل على اسم الحي وصفة الحياة بالالتزام، وكذلك سائر أسمائه وصفاته، ولكن يتفاوت الناس في معرفة اللزوم وعدمه، ومن هاهنا يقع اختلافهم في كثير من الأسماء والصفات والأحكام، فإن من علم أن الفعل الاختياري لازم للحياة، وأن السمع والبصر لازم للحياة الكاملة، وأن سائر الكمال من لوازم الحياة الكاملة؛ أثبت من أسماء الرب وصفاته وأفعاله ما ينكره من لم يعرف لزوم ذلك ولا عرف حقيقة الحياة ولوازمها، وكذلك سائر صفاته.

فإن اسم (العظيم) له لوازم ينكرها من لم يعرف عظمة اللَّه ولوازمها، وكذلك اسم (العلي)، واسم (الحكيم)، وسائر أسمائه، فإن من لوازم اسم (العلي) العلو المطلق بكل اعتبار، فله العلو المطلق من جميع الوجوه: علو القدر، وعلو القهر، وعلو الذات، فمن جحد علو الذات فقد جحد لوازم اسمه (العلي).

وكذلك اسمه (الظاهر) من لوازمه أن لا يكون فوقه شيء، كما في «**الصحيح**» عن النبي ﷺ: «**وأنت الظاهر فليس فوقك شيء**»[(١)]. بل هو سبحانه فوق كل شيء، فمن جحد فوقيته سبحانه فقد جحد لوازم اسمه (الظاهر)، ولا يصح أن يكون الظاهر هو من له فوقية القدر فقط، كما يقال: الذهب فوق الفضة، و: الجوهر فوق الزجاج. لأن هذه الفوقية تتعلق بالظهور، بل قد يكون المفوق أظهر من الفائق فيها، ولا يصح أن يكون ظهور القهر والغلبة فقط، وإن كان سبحانه ظاهرًا بالقهر والغلبة؛ لمقابلة

---

(١) أخرجه مسلم (٧٠٦٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

الاسم (الباطن)، وهو الذي ليس دونه شيء كما قابل (الأول) الذي ليس قبله شيء بالآخر الذي ليس بعده شيء.

وكذلك اسم (الحكيم) من لوازمه ثبوت الغايات المحمودة المقصودة له بأفعاله، ووضعه الأشياء في مواضعها، وإيقاعها على أحسن الوجوه، فإنكار ذلك إنكار لهذا الاسم ولوازمه، وكذلك سائر أسمائه الحسنى.

فإذا تقرر هذان الأصلان فاسم (الله) دال على جميع الأسماء الحسنى والصفات العليا بالدلالات الثلاث، فإنه دال على إلهيته المتضمنة لثبوت صفات الإلهية له مع نفي أضدادها عنه.

وصفات الإلهية: هي صفات الكمال المنزهة عن التشبيه والمثال وعن العيوب والنقائص، ولهذا يضيف اللَّه تعالى سائر الأسماء الحسنى إلى هذا الاسم العظيم، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ويقال: الرحمن والرحيم، والقدوس والسلام، والعزيز والحكيم، من أسماء الله. ولا يقال: اللَّه من أسماء الرحمن، ولا من أسماء العزيز، ونحو ذلك.

فاعلم أن اسمه (الله) مستلزم لجميع معاني الأسماء الحسنى، دال عليها بالإجمال، والأسماء الحسنى تفصيل وتبيين لصفات الإلهية التي اشتق منها اسم (الله).

واسم (الله) دال على كونه مألوهًا معبودًا تألهه الخلائق محبة، وتعظيمًا، وخضوعًا، وفزعًا إليه في الحوائج والنوائب، وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته المتضمنين لكمال الملك والحمد.

وإلهيته وربوبيته ورحمانيته وملكه مستلزم لجميع صفات كماله؛ إذ يستحيل ثبوت ذلك لمن ليس بحي، ولا سميع، ولا بصير، ولا قادر، ولا

متكلم، ولا فعال لما يريد، ولا حكيم في أفعاله.

وصفات الجلال والجمال أخص باسم (الله).

وصفات الفعل والقدرة، والتفرد بالضر والنفع، والعطاء والمنع، ونفوذ المشيئة، وكمال القوة، وتدبير أمر الخليقة - أخص باسم (الرب).

وصفات الإحسان والجود، والبر والحنان، والمنة والرأفة واللطف - أخص باسم (الرحمن) وكرر إيذانًا بثبوت الوصف وحصول أثره وتعلقه بمتعلقاته.

فـ(الرحمن): الذي الرحمة وصفه، و(الرحيم): الراحم لعباده، ولهذا يقول تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧]، ولم يجئ (رحمان بعباده)، ولا (رحمان بالمؤمنين) مع ما في اسم (الرحمن) الذي هو على وزن (فعلان) من سعة هذا الوصف وثبوت جميع معناه الموصوف به.

ألا ترى أنهم يقولون: غضبان. للممتلئ غضبًا؟ و: ندمان، وحيران، وسكران، ولهفان. لمن ملئ بذلك؟ فبناء (فعلان) للسعة والشمول، ولهذا يقرن استواءه على العرش بهذا الاسم كثيرًا، كقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، ﴿عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٥٩]، فاستوى على عرشه باسم (الرحمن)؛ لأن العرش: محيط بالمخلوقات قد وسعها، **والرحمة**: محيطة بالخلق واسعة لهم، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، فاستوى على أوسع المخلوقات، بأوسع الصفات، فلذلك وسعت رحمته كل شيء.

وفي «**الصحيح**» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ:

«**لما قضى اللهُ الخلقَ كتب في كتابٍ، فهو عنده موضوعٌ على العرشِ: إن رحمتي تغلب غضبي**». وفي لفظ: «**فهو عنده على العرشِ**»[١].

فتأمل اختصاص هذا الكتاب بذكر الرحمة، ووضعه عنده على العرش، وطابق بين ذلك، وبين قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، وقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩] ينفتح لك باب عظيم من معرفة الرب تبارك وتعالى، إن لم يغلقه عنك التعطيل، والتجهم.

وصفات العدل، والقبض والبسط، والخفض والرفع، والعطاء والمنع، والإعزاز والإذلال، والقهر والحكم، ونحوها - أخص باسم الملك، وخصه بيوم الدين، وهو الجزاء بالعدل؛ لتفرده بالحكم فيه وحده، ولأنه اليوم الحق وما قبله كساعة، ولأنه الغاية وأيام الدنيا مراحل إليه.

وتأمل ارتباط الخلق والأمر بهذه الأسماء الثلاثة: وهي (الله)، و(الرب)، و(الرحمن) كيف نشأ عنها الخلق والأمر، والثواب والعقاب، وكيف جمعت الخلق وفرقتهم، فلها الجمع ولها الفرق.

فاسم (الرب): له الجمع الجامع لجميع المخلوقات، فهو رب كل شيء وخالقه والقادر عليه، لا يخرج شيء عن ربوبيته، وكل من في السموات والأرض عبد له، في قبضته وتحت قهره، فاجتمعوا بصفة الربوبية وافترقوا بصفة الإلهية، فألَّهه وحده السعداء، وأقروا له طوعًا بأنه اللَّه الذي لا إله إلا هو، الذي لا تنبغي العبادة والتوكل، والرجاء والخوف والحب، والإنابة والإخبات والخشية، والتذلل والخضوع - إلا له.

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٩٤، ٧٤٢٢)، ومسلم (١٤/ ٢٧٥١).

وهنا افترق الناس وصاروا فريقين: فريقًا مشركين في السعير، وفريقًا موحدين في الجنة، فالإلهية هي التي فرقتهم، كما أن الربوبية هي التي جمعتهم.

فالدين والشرع والأمر والنهي مظهره وقيامه من صفة الإلهية، والخلق والإيجاد والتدبير والفعل من صفة الربوبية، والجزاء بالثواب والعقاب والجنة والنار من صفة الملك، وهو ملك يوم الدين، فأمرهم بإلهيته، وأعانهم ووفقهم وهداهم، وأضلهم بربوبيته، وأثابهم وعاقبهم بملكه وعدله، وكل واحدة من هذه الأمور لا تنفك عن الأخرى.

وأما الرحمة: فهي التعلق والسبب الذي بين اللَّه وبين عباده، فالتأليه منهم له، والربوبية منه لهم، والرحمة سبب واصل بينه وبين عباده، بها أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وبها هداهم، وبها أسكنهم دار ثوابه، وبها رزقهم وعافاهم وأنعم عليهم، فبينهم وبينه سبب العبودية، وبينه وبينهم سبب الرحمة.

واقتران ربوبيته برحمته كاقتران استوائه على عرشه برحمته، ف - ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ مطابق لقوله: ﴿الرحمن على العرش استويرب العالمين ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٢، ٣]، فإن شمول الربوبية وسعتها بحيث لا يخرج شيء عنها، أقصى شمول الرحمة وسعتها، فوسع كل شيء برحمته وربوبيته، مع أن في كونه ربًّا للعالمين ما يدل على علوه على خلقه وكونه فوق كل شيء، كما يأتي بيانه إن شاء الله»[1].

* * *

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٠ - ٣٥).

الإيمان بأسماء اللَّه وصفاته يقتضي حمده

«في ذكر هذه الأسماء بعد الحمد، وإيقاع الحمد على مضمونها ومقتضاها ما يدل على أنه محمود في إلهيته، محمود في ربوبيته، محمود في رحمانيته، محمود في ملكه، وأنه إله محمود ورب محمود، ورحمان محمود، وملك محمود، فله بذلك جميع أقسام الكمال: كمال من هذا الاسم بمفرده، وكمال من الآخر بمفرده، وكمال من اقتران أحدهما بالآخر.

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦]، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: ٢٦]، ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ﴾ [الممتحنة: ٧]، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ٧]، فالغِنَى صفة كمال، والحمد صفة كمال، واقتران غناه بحمده كمال أيضًا، وعلمه كمال، وحكمته كمال، واقتران العلم بالحكمة كمال أيضًا، وقدرته كمال، ومغفرته كمال، واقتران القدرة بالمغفرة كمال، وكذلك العفو بعد القدرة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٤٣]، واقتران العلم بالحلم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٢]، وحملة العرش ثمانية: أربعة يقولون: «**سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك**»، وأربعة يقولون: «**سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك**». فما كل من قدر عفا، ولا كل من عفا يعفو عن قدرة، ولا كل من علم يكون حليمًا، ولا كل حليم عالم، فما قرن شيء إلى شيء أفضل من حلم إلى علم، ومن عفو إلى قدرة، ومن ملك إلى حمد، ومن عزة إلى رحمة، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩﴾ [الشعراء: ٩].

ومن هاهنا كان قول المسيح عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٨] أحسن من أن يقول: وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم. أي: إن غفرت لهم كان مصدر مغفرتك عن عزة، وهي كمال القدرة، وعن حكمة، وهي كمال العلم، فمن غفر عن عجز وجهل بجرم الجاني لا يكون قادرًا حكيمًا عليمًا، بل لا يكون ذلك إلا عجزًا، فأنت لا تغفر إلا عن قدرة تامة، وعلم تام، وحكمة تضع بها الأشياء مواضعها، فهذا أحسن من ذكر الغفور الرحيم في هذا الموضع، الدال ذكره على التعريض بطلب المغفرة في غير حينها وقد فاتت، فإنه لو قال: وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم. كان في هذا من الاستعطاف والتعريض بطلب المغفرة لمن لا يستحقها ما ينزه عنه منصب المسيح عليه السلام، لا سيما والموقف موقف عظمة وجلال، وموقف انتقام، ممن جعل لله ولدًا واتخذه إلهًا من دونه، فذكرُ العزة والحكمة فيه أليق من ذكر الرحمة والمغفرة، وهذا بخلاف قول الخليل عليه السلام: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [إبراهيم: ٣٥، ٣٦] ولم يقل: فإنك عزيز حكيم. لأن المقام استعطاف وتعريض بالدعاء، أي: إن تغفر لهم وترحمهم بأن توفقهم للرجوع من الشرك إلى التوحيد، ومن المعصية إلى الطاعة. كما في الحديث: «**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**»[1].

وفي هذا أظهر الدلالة على أن أسماء الرب تعالى مشتقة من أوصاف ومعان قامت به، وأن كل اسم يناسب ما ذكر معه واقترن به من فعله وأمره،

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٢٥٣٩)، ومسلم (٣/ ١٤١٧).

واللَّه الموفق للصواب»[١].

«ونظائر هذا في القرآن كثيرة، ينفي فيها عن نفسه خلاف موجب أسمائه وصفاته؛ إذ ذلك مستلزم تعطيلها عن كمالها ومقتضياتها.

فاسمه (الحميد، المجيد) يمنع ترك الإنسان سُدى مهملاً معطلاً، لا يؤمر ولا ينهى، ولا يثاب ولا يعاقب، وكذلك اسمه (الحكيم) يأبى ذلك، وكذلك اسمه (الملك)، واسمه (الحي) يمنع أن يكون معطلاً من الفعل، بل حقيقة الحياة الفعل، فكل حي فعال، وكونه سبحانه خالقًا قيومًا من موجبات حياته ومقتضياتها، واسمه (السميع، البصير) يوجب مسموعًا ومرئيًا، واسمه (الخالق) يقتضي مخلوقًا وكذلك (الرزاق)، واسمه (الملك) يقتضي مملكة وتصرفًا وتدبيرًا، وإعطاء ومنعًا، وإحسانًا وعدلاً، وثوابًا وعقابًا، واسم (البر، المحسن، المعطي، المنان) ونحوها تقتضي آثارها وموجباتها»[٢].

* * *

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٥- ٣٧).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٤١٨).

أسماء اللَّه تقتضي آثارها في خلقه

«إذا عرف هذا، فمن أسمائه سبحانه (الغفار، التواب، العفو) فلا بد لهذه الأسماء من متعلقات، ولا بد من جناية تُغفر، وتوبة تُقبل، وجرائم يُعفى عنها، ولا بد لاسمه (الحكيم) من متعلق يظهر فيه حكمه؛ إذ اقتضاء هذه الأسماء لآثارها كاقتضاء اسم (الخالق، الرزاق، المعطي، المانع) للمخلوق، والمرزوق، والمعطى، والممنوع، وهذه الأسماء كلها حسنى.

والرب تعالى يحب ذاته وأوصافه وأسماءه، فهو عفوٌّ يحب العفو، ويحب المغفرة، ويحب التوبة، ويفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه، أعظم فرح يخطر بالبال.

وكان تقدير ما يغفره، ويعفو عن فاعله، ويحلم عنه، ويتوب عليه، ويسامحه - من موجب أسمائه وصفاته، وحصول ما يحبه ويرضاه من ذلك، وما يحمد به نفسه ويحمده به أهل سمواته وأهل أرضه ما هو من موجبات كماله ومقتضى حمده.

وهو سبحانه الحميد المجيد، وحمده ومجده يقتضيان آثارهما، من آثارهما: مغفرة الزلات، وإقالة العثرات، والعفو عن السيئات، والمسامحة على الجنايات، مع كمال القدرة على استيفاء الحق، والعلم منه سبحانه بالجناية، ومقدار عقوبتها، فحلمه بعد علمه، وعفوه بعد قدرته، ومغفرته عن كمال عزته وحكمته، كما قال المسيح ﷺ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١١٨﴾ [المائدة: ١١٨]؛ أي: فمغفرتك عن كمال قدرتك وحكمتك لست كمن يغفر عجزًا، ويسامح جهلاً بقدر الحق،

بل أنت عليم بحقك، قادر على استيفائه، حكيم في الأخذ به.

فمن تأمل سريان آثار الأسماء والصفات في العالم، وفي الأمر تبين له أن مصدر قضاء هذه الجنايات من العبيد وتقديرها هو من كمال الأسماء والصفات والأفعال، وغايتها أيضًا مقتضى حمده ومجده، كما هو مقتضى ربوبيته وإلهيته، فله في كل ما قضاه وقدَّره الحكمة البالغة، والآيات الباهرة، والتعرفات إلى عباده بأسمائه وصفاته، واستدعاء محبتهم له، وذكرهم له، وشكرهم له، وتعبدهم له بأسمائه الحسنى»[١].

«إذ كل اسم فله تعبد مختص به علمًا ومعرفة وحالاً، وأكمل الناس عبودية المتعبد بجميع الأسماء والصفات التي يطلع عليها البشر، فلا تحجبه عبودية اسم عن عبودية اسم آخر، كمن يحجبه التعبد باسمه (القدير) عن التعبد باسمه (الحليم، الرحيم)، أو يحجبه عبودية اسمه (المعطي) عن عبودية اسمه (المانع)، أو عبودية اسمه (الرحيم والعفو والغفور) عن اسمه (المنتقم) أو التعبد بأسماء التودد والبر واللطف والإحسان عن أسماء العدل والجبروت والعظمة والكبرياء، ونحو ذلك.

وهذه طريقة الْكُمَّل من السائرين إلى الله، وهي طريقة مشتقة من قلب القرآن، قال اللَّه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، والدعاء بها يتناول دعاء المسألة، ودعاء الثناء، ودعاء التعبد، وهو سبحانه يدعو عباده إلى أن يعرفوه بأسمائه وصفاته، ويثنوا عليه بها، ويأخذوا بحظهم من عبوديتها، وهو سبحانه يحب موجب أسمائه وصفاته، فهو عليم يحب كل عليم، جواد يحب كل جواد، وتر يحب الوتر، جميل يحب الجمال،

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٤١٩).

عفو يحب العفو وأهله، حييٌّ يحب الحياء وأهله، بر يحب الأبرار، شكور يحب الشاكرين، صبور يحب الصابرين، حليم يحب أهل الحلم، فلمحبته سبحانه للتوبة والمغفرة والعفو والصفح خَلَقَ من يغفر له ويتوب عليه ويعفو عنه»[(١)].

* * *

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٤٢٠).



أقسام الناس في آيات الصفات وأحاديثها

«وجماع الأمر أن الأقسام الممكنة في آيات الصفات وأحاديثها ستة أقسام، كل قسم عليه طائفة من أهل القبلة:

قسمان يقولان: تجرى على ظواهرها.

وقسمان يقولان: هي على خلاف ظاهرها.

وقسمان يسكتون.

أما الأولون فقسمان:

أحدهما من يجريها على ظاهرها، ويجعل ظاهرها من جنس صفات المخلوقين، فهؤلاء المشبهة، ومذهبهم باطل، أنكره السلف، وإليهم يتوجه الرد بالحق.

الثاني من يجريها على ظاهرها اللائق بجلال الله، كما يجري ظاهر اسم (العليم والقدير والرب والإله والموجود والذات) ونحو ذلك - على ظاهرها اللائق بجلال الله، فإن ظواهر هذه الصفات في حق المخلوق إما جوهر محدث، وإما عرض قائم به.

فالعلم، والقدرة، والكلام، والمشيئة، والرحمة، والرضا، والغضب، ونحو ذلك - في حق العبد أعراض، والوجه، واليدن والعين، في حقه أجسام، فإذا كان اللَّه موصوفًا عند عامة أهل الإثبات بأن له علمًا وقدرة، وكلامًا ومشيئة، وإن لم يكن ذلك عرضًا يجوز عليه ما يجوز على صفات المخلوقين جاز أن يكون وجه اللَّه ويداه صفات ليست أجسامًا يجوز عليها ما يجوز على صفات المخلوقين.

وهذا هو المذهب الذي حكاه الخطابي وغيره عن السلف، وعليه يدل كلام جمهورهم، وكلام الباقين لا يخالفه، وهو أمر واضح.

فإن الصفات كالذات، فكما أن ذات اللَّه ثابتة حقيقة من غير أن تكون من جنس المخلوقات فصفاته ثابتة حقيقة من غير أن تكون من جنس صفات المخلوقات.

فمن قال لا أعقل علمًا ويدًا إلا من جنس العلم واليد المعهودين.

قيل له: فكيف تعقل ذاتًا من غير جنس ذوات المخلوقين؟ ومن المعلوم أن صفات كل موصوف تناسب ذاته وتلاءم حقيقته، فمن لم يفهم من صفات الرب الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ إلا ما يناسب المخلوق فقد ضل في عقله ودينه.

وما أحسن ما قا بعضهم: إذا قال لك الجهمي: كيف استوى؟ أو كيف ينزل إلى سماء الدنيا؟ أو كيف يداه؟ ونحو ذلك..

فقل له: كيف هو في ذاته؟

فإذا قال لك: لا يعلم ما هو إلا هو، وكنه الباري تعالى غير معلوم للبشر.

فقل له: فالعلم بكيفية الصفة مستلزم للعلم بكيفية الموصوف، فكيف يمكن أن تعلم كيفية صفة لموصوف لم تعلم كيفيته؟! وإنما تعلم الذات والصفات من حيث الجملة على الوجه الذي ينبغي لك، بل هذه المخلوقات في الجنة قد ثبت عن ابن عباس رضي اللَّه عنهما أنه قال: «**ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء**»[1]. وقد أخبر اللَّه تعالى أنه: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١/ ١٧٤).

أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]، وأخبر النبي ﷺ أن في الجنة «**ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**»[1]، فإذا كان نعيم الجنة - وهو خلق من خلق الله - كذلك فما ظنك بالخالق سبحانه وتعالى؟!

وهذه الروح التي في بني آدم قد علم العاقل اضطراب الناس فيها، وإمساك النصوص عن بيان كيفيتها، أفلا يعتبر العاقل بها عن الكلام في كيفية اللّه تعالى؟ مع أنا نقطع بأن الروح في البدن، وأنها تخرج منه، وتعرج إلى السماء، وأنها تُسل منه وقت النزع كما نطقت بذلك النصوص الصحيحة، لا نغالي في تجريدها غلو المتفلسفة ومن وافقهم؛ حيث نفوا عنها الصعود والنزول، والاتصال بالبدن، والانفصال عنه، وتخبطوا فيها، حيث رأوها من غير جنس البدن وصفاته، فعدم مماثلتها للبدن لا ينفي أن تكون هذه الصفات ثابتة لها بحسبها إلا أن يفسروا كلامهم بما يوافق النصوص فيكونون قد أخطئوا في اللفظ، وأنَّى لهم بذلك؟!

ولا نقول أنها مجرد جزء من أجزاء البدن كالدم والبخار، مثلاً، أو صفة من صفات البدن والحياة، وأنها مختلفة الأجساد ومساوية لسائر الأجساد في الحد والحقيقة، كما يقول طوائف من أهل الكلام، بل نتيقن أن الروح عين موجودة غير البدن، وإنها ليست مماثلة له، وهي موصوفة بما نطقت به النصوص حقيقة لا مجازًا، فإذا كان مذهبنا في حقيقة الروح وصفاتها بين المعطلة والممثلة فكيف الظن بصفات رب العالمين؟!

وأما القسمان اللذان ينفيان ظاهرها؛ أعني: الذين يقولون ليس لها في

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٤٤، ٤٧٨٠)، ومسلم (٢- ٤/ ٢٨٢٤)، من حديث أبي هريرة ﷺ، ونصه: «قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

الباطن مدلول هو صفة اللَّه تعالى قط، وأن اللَّه لا صفة له ثبوتية، بل صفاته إما سلبية، وإما إضافية، وإما مركبة منهما، أو يثبتون بعض الصفات وهى الصفات السبعة، أو الثمانية، أو الخمسة عشر، أو يثبتون الأحوال دون الصفات، ويقرون من الصفات الخبرية بما في القرآن دون الحديث، على ما قد عرف من مذاهب المتكلمين - فهؤلاء قسمان:

قسم يتأولونها ويعينون المراد مثل قولهم: (استوى) بمعنى (استولى) أو بمعنى علو المكانة والقدر، أو بمعنى ظهور نوره للعرش، أو بمعنى انتهاء الخلق إليه، إلى غير ذلك من معاني المتكلمين!

وقسم يقولون: اللَّه أعلم بما أراد بها، لكنا نعلم أنه لم يرد إثبات صفة خارجية عما علمناه.

وأما القسمان الواقفان: فقوم يقولون: يجوز أن يكون ظاهرها المراد اللائق بجلال الله، ويجوز أن لا يكون المراد صفة الله، ونحو ذلك، وهذه طريقة كثير من الفقهاء وغيرهم.

وقوم يمسكون عن هذا كله ولا يزيدون على تلاوة القرآن وقراءة الحديث، معرضين بقلوبهم وألسنتهم عن هذه التقديرات.

فهذه الأقسام الستة لا يمكن أن يخرج الرجل عن قسم منها.

والصواب في كثير من آيات الصفات وأحاديثها القطع بالطريقة الثابتة، كالآيات والأحاديث الدالة على أن اللَّه سبحانه وتعالى فوق عرشه، ويعلم طريقة الصواب في هذا وأمثاله بدلالة الكتاب والسنة والإجماع على ذلك، دلالة لا تحتمل النقيض، وفى بعضها قد يغلب على الظن ذلك مع احتمال النقيض وتردد المؤمن في ذلك هو بحسب ما يؤتاه من العلم والإيمان، ومن

لم يجعل اللَّه له نورًا فما له من نور.

ومن اشتبه عليه ذلك أو غيره فليدع بما رواه مسلم في «**صحيحه**» عن عائشة رضي اللَّه عنها قالت: كان رسول اللَّه ﷺ إذا قام يصلي من الليل قال: «**اللهم ربَّ جبرائيلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ، فاطرَ السموات والأرضِ، عالمَ الغيبِ والشهادةِ، أنت تحكمُ بين عبادِك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختُلف فيه مِن الحقِّ بإذنك، إنك تهدى من تشاء إلى صراطٍ مستقيم**»[١].

وفى رواية لأبي داود: «**أنه كان يكبر في صلاته ثم يقول ذلك**»[٢].

فإذا افتقر العبد إلى اللَّه ودعاه وأدمن النظر في كلام اللَّه وكلام رسوله وكلام الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين انفتح له طريق الهدى.

ثم إن كان قد خبر نهايات إقدام المتفلسفة والمتكلمين في هذا الباب، وعرف أن غالب ما يزعمونه برهانًا هو شبهة، ورأى أن غالب ما يعتمدونه يؤول إلى دعوى لا حقيقة لها، أو شبهة مركبة من قياس فاسد، أو قضية كلية لا تصح إلا جزئية، أو دعوى إجماع لا حقيقة له، أو التمسك في المذهب والدليل بالألفاظ المشتركة، ثم إن ذلك إذا رُكِّب بألفاظ كثيرة طويلة غريبة عمن لم يعرف اصطلاحهم أوهمت الغِرَّ[٣] ما يوهمه السراب للعطشان - ازداد إيمانًا وعلمًا بما جاء به الكتاب والسنة، (فإن الضد يظهر حسنه الضد)، وكل من كان بالباطل أعلم كان للحق أشد تعظيمًا وبقدره أعرف إذا هُدِي إليه.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٠/ ٧٧٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٧٦٧).

(٣) الغِرُّ والغَرِيرُ: الشابُّ الذي لا تجربة له، والجمع أَغِرّاء وأَغِرّة، والأُنثى غِرٌّ وغِرّة وغَريرة. «اللسان» (غ ر ر).

فأما المتوسطون من المتكلمين فيخاف عليهم ما لا يخاف على من لم يدخل فيه، وعلى من قد أنهاه نهايته فإن من لم يدخل فيه فهو في عافية، ومن أنهاه فقد عرف الغاية، فما بقي يخاف من شيء آخر، فإذا ظهر له الحق وهو عطشان إليه قبله، وأما المتوسط فيتوهم بما يتلقاه من المقالات المأخوذة تقليدًا لمعظمة هؤلاء.

وقد قال بعض الناس: أكثر ما يفسد الدنيا نصف متكلم، ونصف متفقه، ونصف متطبب، ونصف نحوي. هذا يفسد الأديان، وهذا يفسد البلدان، وهذا يفسد الأبدان، وهذا يفسد اللسان.

ومن علم أن المتكلمين من المتفلسفة وغيرهم في الغالب في قول مختلف يؤفك عنه من أفك يعلم الذكي منهم والعاقل أنه ليس هو فيما يقوله على بصيرة وأن حجته ليست ببينة، وإنما هي كما قيل فيها:

حُجَجٌ تهافتْ كالزُّجاجِ تخالُها حقًّا وكلُّ كاسرٍ مكسورُ

ويعلم العليم البصير بهم أنهم من وجه مستحقون ما قاله الشافعي ﵁، حيث قال: «حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال، ويطاف بهم في القبائل والعشائر، ويقال: هذا جزاء من أعرض عن الكتاب والسنة وأقبل على الكلام».

ومن وجه آخر إذا نظرت إليهم بعين القَدَر - والحَيرة مستولية عليهم، والشيطان مستحوذ عليهم - رحمتهم وترفقت بهم أوتوا ذكاءً وما أوتوا زكاءً، وأعطوا فهومًا وما أعطوا علومًا، وأعطوا سمعًا وأبصارًا وأفئدة ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٣].

ومن كان عليمًا بهذه الأمور تبين له بذلك حذق السلف وعلمهم وخبرتهم؛ حيث حذروا عن الكلام ونهوا عنه وذموا أهله وعابوهم، وعلم أن من ابتغى الهدى في غير الكتاب والسنة لم يزدد من اللَّه إلا بعدًا، فنسأل اللَّه العظيم أن يهدينا صراطه المستقيم صراط الذين أنعم عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين آمين.

والحمد لله رب العالمين وصلاته وسلامه على محمد خاتم النبيين وآله وصحبه أجمعين»[1].

* * *

(١) «مجموع الفتاوى» (٥/ ١١٤- ١٢٠).

محاجة المتأولين في الصفات

«لا ريب أن اللَّه سبحانه وصف نفسه بصفات، وسمى نفسه بأسماء، وأخبر عن نفسه بأفعال، فسمى نفسه بالرحمن الرحيم، الملك القدوس، السلام المؤمن المهيمن، العزيز الجبار المتكبر، إلى سائر ما ذكر من أسمائه الحسنى، ووصف نفسه بما ذكره من الصفات كسورة «الإخلاص» وأول **«الحديد»** وأول **«طه»** وغير ذلك، ووصف نفسه بأنه يحب ويكره، ويمقت ويرضى، ويغضب ويأسف ويسخط، ويجيء ويأتي وينزل إلى سماء الدنيا، وأنه استوى على عرشه، وأن له علمًا وحياة وقدرة وإرادة، وسمعًا وبصرًا ووجهًا، وأن له يدين، وأنه فوق عباده، وأن الملائكة تعرج إليه، وتنزل بالأمر من عنده، وأنه قريب، وأنه مع المحسنين، ومع الصابرين، ومع المتقين، وأن السموات مطويات بيمينه، ووصفه رسوله بأنه يفرح ويضحك، وأن قلوب العباد بين أصابعه، وغير ذلك مما وصف به نفسه ووصفه به رسوله.

فيقال للمتأول: هل تتأول هذا كله على خلاف ظاهره وتمنع حمله على حقيقته، أم تقر الجميع على ظاهره وحقيقته، أم تفرق بين بعض ذلك وبعضه؟

فإن تأولت الجميع وحملته على خلاف حقيقته؛ كان ذلك عنادًا ظاهرًا وكفرًا صراحًا، وجحدًا للربوبية، وحينئذٍ فلا تستقر لك قدم على إثبات ذات الرب تعالى، ولا صفة من صفاته، ولا فعل من أفعاله، فإن أعطيت هذا من

نفسك ولم تستهجنه التحقت بإخوانك الدهرية الملاحدة الذين لا يثبتون للعالم خالقًا ولا ربًا.

فإن قلت: بل أثبت أن للعالم صانعًا وخالقًا، ولكن لا أصفه بصفة تقع على خلقه، وحيث وصف بما يقع على المخلوق أتأوله.

قيل لك: فهذه الأسماء الحسنى والصفات التي وصف بها نفسه هل تدل على معانٍ ثابتة هي حق في نفسها أم لا تدل؟

فإن نفيت دلالتها على معنى ثابت كان ذلك غاية التعطيل، وإن أثبت دلالتها على معان هي حق ثابت، قيل لك: فما الذي سوغ لك تأويل بعضها دون بعض، وما الفرق بين ما أثبته ونفيته؟ وسكت عن إثباته ونفيه من جهة السمع أو العقل؟

ودلالة النصوص على أن له سمعًا وبصرًا، وعلمًا وقدرة، وإرادة وحياة وكلامًا، كدلالتها على أن له رحمة ومحبة، وغضبًا ورضى، وفرحًا وضحكًا، ووجهًا ويدين، فدلالة النصوص على ذلك سواء، فلم نفَيت حقيقة رحمته ومحبته ورضاه وغضبه وفرحه وضحكه وأولتها بنفس الإرادة؟

فإن قلت: لأن إثبات الإرادة والمشيئة لا يستلزم تشبيهًا وتجسيمًا، وإثبات حقائق هذه الصفات يستلزم التشبيه والتجسيم، فإنها لا تعقل إلا في الأجسام، فإن الرحمة رقة تعتري طبيعة الحيوان، والمحبة ميل النفس لجلب ما ينفعها، والغضب غليان دم القلب طلبًا للانتقام، والفرح انبساط دم القلب لورود ما يسره عليه.

قيل لك: وكذلك الإرادة هي ميل النفس إلى جلب ما ينفعها، ودفع ما يضرها، وكذلك جميع ما أثبته من الصفات إنما هي أعراض قائمة بالأجسام

في الشاهد، فإن العلم انطباع صورة المعلوم في نفس العالم، أو صفة عرضية قائمة به، وكذلك السمع والبصر والحياة أعراض قائمة بالموصوف، فكيف لزم التشبيه والتجسيم من إثبات تلك الصفات ولم يلزم من إثبات هذه؟!

فإن قلت: لأني أثبتها على وجه لا يماثل صفاتنا ولا يشابهها.

قيل لك: فهلا أثبت الجميع على وجه لا يماثل صفات المخلوقين ولا يشابهها؟ ولم فهمت من إطلاق هذا التشبيهَ والتجسيمَ، وفهمت من إطلاق ذلك التنزيهَ والتوحيدَ؟

وهلا قلت: أثبتُ له وجهًا ومحبة وغضبًا ورضى وضحكًا ليس من جنس صفات المخلوقين؟

فإن قلت: هذا لا يعقل.

قيل لك: فكيف عقلت سمعًا وبصرًا وحياة وإرادة ومشيئة ليست من جنس صفات المخلوقين؟

فإن قلت: أنا أفرق بين ما يتأول وبين ما لا يتأول؛ بأن ما دل العقل على ثبوته يمتنع تأويله، كالعلم والحياة والقدرة والسمع والبصر، وما لا يدل عليه العقل يجب أو يسوغ تأويله، كالوجه واليد والضحك والفرح والغضب والرضى، فإن الفعل المحكم دل على قدرة الفاعل، وإحكامه دل على علمه، والتخصيص دل على الإرادة، فيمتنع مخالفة ما دل عليه صريح العقل.

قيل لك أولاً: وكذلك الإنعام والإحسان، وكشف الضر، وتفريج الكربات، دل على الرحمة كدلالة التخصيص على الإرادة سواء،

والتخصيص بالكرامة والاصطفاء والاجتباء دال على المحبة كدلالة ما ذكرت على الإرادة، والإهانة والطرد والإبعاد والحرمان دال على المقت والبغض كدلالة ضده على الحب والرضى، والعقوبة والبطش والانتقام دال على الغضب كدلالة ضده على الرضى.

ويقال ثانيًا: هب أن العقل لا يدل على إثبات هذه الصفات التي نفيتها، فإنه لا ينفيها، والسمع دليل مستقل بنفسه، بل الطمأنينة إليه في هذا الباب أعظم من الطمأنينة إلى مجرد العقل، فما الذي يسوغ لك نفي مدلوله؟

ويقال لك ثالثًا: إن كان ظاهر النصوص يقتضي تشبيهًا أو تجسيمًا فهو يقتضيه في الجميع، فأوِّلِ الجميع، وإن كان لا يقتضي ذلك لم يجز تأويل شيء منه، وإن زعمت أن بعضها يقتضيه وبعضها لا يقتضيه طولبت بالفرق بين الأمرين، وعادت المطالبة جذعًا.

ولمَّا تفطن بعضهم لتعذر الفرق قال: ما دل عليه الإجماع، كالصفات السبع لا يتأول، وما لم يدل عليه إجماع فإنه يتأول.

وهذا كما تراه من أفسد الفروق؛ فإن مضمونه أن الإجماع أثبت ما يدل على التجسيم والتشبيه، ولولا ذلك لتأولناه، فقد اعترفوا بانعقاد الإجماع على التشبيه والتجسيم.

وهذا قدح في الإجماع، فإنه لا ينعقد على باطل.

ثم يقال: إن كان الإجماع قد انعقد على إثبات هذه الصفات وظاهرها يقتضي التجسيم والتشبيه بطل نفيكم لذلك، وإن لم ينعقد عليها بطل التفريق به.

ثم يقال: خصومكم من المعتزلة لم يُجمعوا معكم على إثبات هذه

الصفات، فإن قلتم: انعقد الإجماع قبلهم. قيل: صدقتم والله. والذين أجمعوا قبلهم على هذه الصفات أجمعوا على إثبات سائر الصفات ولم يخصوها بسبع، بل تخصيصها بسبع خلاف قول السلف وقول الجهمية والمعتزلة.

فالناس كانوا طائفتين: سلفية وجهمية، فحدثت الطائفة السبعية واشتقت قولاً بين القولين، فلا للسلف اتبعوا، ولا مع الجهمية بقوا.

وقالت طائفة أخرى: ما لم يكن ظاهره جوارح وأبعاض، كالعلم والحياة، والقدرة، والإرادة، والكلام - لا يتأول، وما كان ظاهره جوارح وأبعاض، كالوجه واليدين والقدم والساق والإصبع - فإنه يتعين تأويله؛ لاستلزام إثباته التركيب والتجسيم.

قال المثبتون: جوابنا لكم بعين الجواب الذي تجيبون به خصومكم من الجهمية والمعتزلة نفاة الصفات:

فإنهم قالوا لكم: لو قام به سبحانه صفة وجودية كالسمع والبصر، والعلم والقدرة والحياة لكان محلًّا للأعراض، ولزم التركيب والتجسيم والانقسام.

كما قلتم: لو كان له وجه ويد وإصبع لزم التركيب والانقسام.

فحينئذ فما هو جوابكم لهؤلاء نجيبكم به؟

فإن قلتم: نحن نثبت هذه الصفات على وجه لا تكون أعراضًا ولا نسميها أعراضًا، فلا يستلزم تركيبًا ولا تجسيمًا.

قيل لكم: ونحن نثبت الصفات التي أثبتها اللَّه لنفسه - إذ نفيتموها أنتم عنه - على وجه لا يستلزم الأبعاض والجوارح، ولا يسمى المتصف بها مركبًا ولا جسمًا ولا منقسمًا.

فإن قلتم: هذه لا يعقل منها إلا الأجزاء والأبعاض.

قلنا لكم: وتلك لا يعقل منها إلا الأعراض.

فإن قلتم: العرض لا يبقى زمانين وصفات الرب باقية قديمة أبدية فليست أعراضًا.

قلنا: وكذلك الأبعاض هي ما جاز مفارقتها وانفصالها وانفكاكها وذلك في حق الرب تعالى محال فليست أبعاضًا ولا جوارح، فمفارقة الصفات الإلهية للموصوف بها مستحيل مطلقًا في النوعين، والمخلوق يجوز أن تفارقه أعراضه وأبعاضه.

فإن قلتم: إن كان الوجه عين اليد وعين الساق والإصبع فهو محال، وإن كان غيره لزم التمييز ويلزم التركيب.

قلنا لكم: وإن كان السمع هو عين البصر، وهما نفس العلم، وهي نفس الحياة والقدرة - فهو محال، وإن تميزت لزم التركيب، فما هو جواب لكم؟

فالجواب مشترك:

فإن قلتم: نحن نعقل صفات ليست أعراضًا تقوم بغير جسم متحيز، وإن لم يكن لها نظير في الشاهد.

قلنا لكم: فاعقلوا صفات ليست بأبعاض تقوم بغير جسم، وإن لم يكن له في الشاهد نظير، ونحن لا ننكر الفرق بين النوعين في الجملة، ولكن فرق غير نافع لكم في التفريق بين النوعين، وأن أحدهما يستلزم التجسيم والتركيب، والآخر لا يستلزمه، ولما أخذ هذا الإلزام بحلوق الجهمية قالوا: الباب كله عندنا واحد، ونحن ننفي الجميع.

فتبين أنه لا بد لكم من واحد من أمور ثلاثة:

إما هذا النفي العام والتعطيل المحض.

وإما أن تصفوا اللَّه بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله، ولا تتجاوزوا القرآن والحديث، وتتبعوا في ذلك سبيل السلف الماضين الذين هم أعلم الأمة بهذا الشأن نفيًا وإثباتًا، وأشد تعظيمًا لله وتنزيهًا له عما لا يليق بجلاله، فإن المعاني المفهومة من الكتاب والسنة لا تُرَدُّ بالشبهات؛ فيكون ردها من باب تحريف الكلم عن مواضعه، ولا يُترك تدبرها ومعرفتها؛ فيكون ذلك مشابهة للذين إذا ذُكِّروا بآيات ربهم خروا عليها صمًّا وعميانًا، ولا يقال: هي ألفاظ لا تعقل معانيها ولا يعرف المراد منها؛ فيكون ذلك مشابهة للذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني، بل هي آيات بينات دالة على أشرف المعاني وأجلها، قائمة حقائقها في صدور الذين أوتوا العلم والإيمان - إثباتًا بلا تشبيه، وتنزيهًا بلا تعطيل، كما قامت حقائق سائر صفات الكمال في قلوبهم كذلك، فكان الباب عندهم بابًا واحدًا قد اطمأنت به قلوبهم، وسكنت إليه نفوسهم، فأنسوا من صفات كماله ونعوت جلاله بما استوحش منه الجاهلون المعطلون، وسكنت قلوبهم إلى ما نفر منه الجاحدون، وعلموا أن الصفات حكمها حكم الذات، فكما أن ذاته سبحانه لا تشبه الذوات، فصفاته لا تشبه الصفات، فما جاءهم من الصفات عن المعصوم تلقوه بالقبول، وقابلوه بالمعرفة والإيمان والإقرار؛ لعلمهم بأنه صفة من لا شبيه لذاته ولا لصفاته.

قال الإمام أحمد: «إنما التشبيه أن يقول: يد كيد. أو: وجه كوجه. فأما إثبات يد ليست كالأيدي ووجه ليس كالوجوه فهو كإثبات ذات ليست

كالذوات، وحياة ليست كغيرها من الحياة، وسمع وبصر ليس كالأسماع والأبصار»[1].

وليس إلا هذا المسلك، أو مسلك التعطيل المحض، أو التناقض الذي لا يثبت لصاحبه قدم في النفي ولا في الإثبات وبالله التوفيق»[2].

* * *

(١) قال ابن جرير في «تفسيره»: (٦/ ٢٠): «وقال إسحاق بن إبراهيم: إنما يكون التشبيه إذا قال يد كَيدٍ، أو مِثل يَدٍ، أو سمع كسَمْعٍ، أو مثلَ سمعٍ. فإذا قال سمع كسمعٍ أو مثل سمع- فهذا تشبيه. وأما إذا قال كما قال الله: يد، وسمع، وبصر. ولا يقول: كيف، ولا يقول: مثل سمع ولا كسمع- فهذا لا يكون تشبيهاً. وهو كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾».

(٢) الصواعق المرسلة (١/ ٢٢٠- ٣٢٠).

التأويل منهاج المخالفين

«وحقيقة الأمر أن كل طائفة تتأول ما يخالف نحلتها ومذهبها، فالعيار على ما يتأول وما لا يتأول هو المذهب الذي ذهبت إليه والقواعد التي أصلتها، فما وافقها أقروه ولم يتأولوه، وما خالفها فإن أمكنهم دفعه وإلا تأولوه.

ولهذا لما أصلت الرافضة عداوة الصحابة ردوا كل ما جاء في فضائلهم والثناء عليهم، أو تأولوه.

ولما أصلت الجهمية أن اللّه لا يتكلم ولا يكلم أحدًا، ولا يرى بالأبصار، ولا هو فوق عرشه مبائن لخلقه، ولا له صفة تقوم به، أولوا كل ما خالف ما أصلوه.

ولما أصلت القدرية أن اللّه سبحانه لم يخلق أفعال عباده ولم يقدرها عليهم، أولوا كل ما خالف أصولهم.

ولما أصلت المعتزلة القول بنفوذ الوعيد، وأن من دخل النار لم يخرج منها أبدًا، أولوا كل ما خالف أصولهم.

ولما أصلت المرجئة أن الإيمان هو المعرفة وأنها لا تزيد ولا تنقص أولوا كل ما خالف أصولهم.

ولما أصلت الكلابية أن اللّه سبحانه لا يقوم به ما يتعلق بقدرته ومشيئته وسموا ذلك حلول الحوادث، أولوا كل ما خالف هذا الأصل.

ولمّا أصلت الجبرية أن قدرة العبد لا تأثير لها في الفعل بوجه من الوجوه، وأن حركات العباد بمنزلة هبوب الرياح وحركات الأشجار، وأولوا كل ما جاء بخلاف ذلك.

فهذا في الحقيقة هو عيار التأويل عند الفرق كلها، حتى المقلدين في الفروع أتباع الأئمة الذين اعتقدوا المذهب ثم طلبوا الدليل عليه ضابط ما يتأول عندهم وما لا يتأول ما خالف المذهب أو وافقه، ومن تأمل مقالات الفرق ومذاهبها رأى ذلك عيانًا، وباللَّه التوفيق.

وكل من هؤلاء يتأول دليلاً سمعيًا ويقر على ظاهره نظيره أو ما هو أشد قبولاً للتأويل منه؛ لأنه ليس عندهم في نفس الأمر ضابط كلي مطرد منعكس يفرق ما يتأول وما لا يتأول، إن هو إلا المذهب وقواعده وما قاله الشيوخ، وهؤلاء لا يمكن أحدًا منهم أن يحتج على مبطل بحجة سمعية؛ لأنه يسلك في تأويلها نظير ما سلكه هو في تأويل ما خالف مذهبه»[1].

«إن دعوى الجهمي أن ظاهر القرآن يدل على أن لله سبحانه أيديًا كثيرة على جنب واحد وأعينًا كثيرة على وجه واحد عَضَهٌ[2] للقرآن وتنقص له وذم، ولا يدل ظاهر القرآن ولا باطنه على ذلك بوجه ما، ولا فهمه من له عقل، ولو كان ذلك ظاهر القرآن لكان المخبر به منفرًا للمدعوين عن الإيمان باللَّه ورسوله، ومطرقًا لهم إلى الطعن عليه، واللَّه سبحانه قال: ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤]، وقال: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ [هود: ٣٧]، وقال: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ [الطُّور: ٤٨]، وقال: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا﴾ [يس: ٧١]، وقال في قصة موسى: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ [طه: ٣٩].

فذكر العين المفردة مضافة إلى الضمير المفرد، والأعين مجموعة مضافة

---

(١) «الصواعق المرسلة» (١/ ٢٣٠- ٢٣٣).

(٢) عَضَهه يَعْضَهُه عَضْهاً وعَضِيهةً: قال فيه ما لم يكن. «اللسان» (ع ض هـ).

إلى ضمير الجمع، وذِكْرُ العين مفردة لا يدل على أنها عين واحدة، ليس إلا كما يقول القائل: أفعل هذا على عيني. و: أجيئك على عيني، و: أحمله على عيني. ولا يُرِيدُ به أن له عينا واحدة، فلو فهم أحد هذا من ظاهر كلام المخلوق لعد أخرق، وأما إذا أضيفت العين إلى اسم الجمع ظاهرًا أو مضمرًا فالأحسن جمعها مشاكلة للفظ كقوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤] ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [هود: ٣٧].

وهذا نظير المشاكلة في لفظ اليد المضافة إلى المفرد كقوله: ﴿بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك: ١] و﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦].

وإن أضيفت إلى ضمير جمع جمعت، كقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ [يس: ٧١].

وكذلك إضافة اليد والعين إلى اسم الجمع الظاهر كقوله: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الرُّوم: ٤١]، وقوله: ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنبياء: ٦١].

وقد نطق القرآن والسنة بذكر اليد مضافة إليه سبحانه مفردة، ومثناة، ومجموعة.

وبلفظ العين مضافة إليه مفردة، ومجموعة، ونطقت السنة بإضافتها إليه مثناة، كما قال عطاء عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «**إن العبد إذا قام في الصلاة قام بين عيني الرحمن، فإذا التفت قال له ربه: إلى من تلتفت؟ إلى خير لك مني؟**»[1].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٢/ ٢٥٧) وابن أبي شيبة (١/ ٣٩٥) كلاهما في «المصنف» عن ابن جريج، عن عطاء نحوه، ولم يرفعه. وضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٢٦٩٤).

وقول النبي ﷺ: «**إن ربكم ليس بأعور**»[١]. صريح في أنه ليس المراد إثبات عين واحدة ليس إلا، فإن ذلك عور ظاهر، تعالى اللَّه عن ذلك علوًّا كبيرًا، وهل يَفهم من قول الداعي: «**اللهم احرسنا بعينك التي لا تنام**». أنها عين واحدة ليس إلا - إلا ذهن أقلف وقلب أغلف.

قال خلف بن تميم: حدثنا عبد الجبار بن كثير، قال: قيل لإبراهيم بن أدهم: هذا السبع! فنادى: يا قسورة، إن كنت أُمرت فينا بشيء وإلا. يعني: فاذهب. فضرب بذنَبه وولّى مدبرًا! فنظر إبراهيم إلى أصحابه وقال: قولوا: «**اللهم احرسنا بعينك التي لا تنام واكنفنا بكنفك الذي لا يرام، وارحمنا بقدرتك علينا، ولا نهلك وأنت الرجاء**»[٢].

قال عثمان الدارمي: الأعور ضد البصير بالعينين، وقد قال النبي ﷺ في الدجال: «**إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور**»[٣]، وقد احتج السلف على إثبات العينين له سبحانه بقوله: ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤].

وممن صرح بذلك إثباتًا واستدلالاً: أبو الحسن الأشعري في كتبه كلها، فقال في «**المقالات**» و«**الموجز**» و«**الإبانة**»، وهذا لفظه فيها: «**وجملة قولنا أن نقر باللَّه وملائكته وكتبه ورسله . . .**» إلى أن قال: «**وإن اللَّه مستوٍ على عرشه كما قال**: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، وأن له وجهًا، كما قال: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ۝٢٧﴾ [الرَّحمن: ٢٧]، وأن له يدين، كما قال: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]. وقال: ﴿لِمَا خَلَقۡتُ

---

(١) أخرجه البخاري (٧١٣١، ٧٤٠٨)، ومسلم (٢٩٣٣/ ١٠١)، من حديث أنس، ﷺ.
(٢) أخرجه اللالكائي في «كرامات الأولياء» (ص٢٤٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٤- ٥) من طريقين عن خلف بن تميم بهذا الإسناد.
(٣) سلف تخريجه قبل حديث.

﴿بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، وأن له عينين بلا كيف، كما قال: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤]».

فهذا الأشعري، والناس قبله وبعده ومعه لم يفهموا من الأعين أعينًا كثيرة على وجه، ولم يفهموا من الأيدي أيديًا كثيرة على شق واحد، حتى جاء هذا الجهمي فعَضَهَ القرآن، وادعى أن هذا ظاهره، وإنما قصد هذا وأمثاله التشنيع على من بدَّعه وضلله من أهل السنة والحديث، وهذا شأن الجهمية في القديم والحديث، وهم بهذا الصنيع على اللَّه ورسوله وكتابه يشنعون ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)﴾ [التوبة: ١٠٥].

فما ذنب أهل السنة والحديث إذا نطقوا بما نطقت به النصوص وأمسكوا عما أمسكت عنه، ووصفوا اللَّه بما وصف به نفسه ووصفه رسوله، وردوا تأويل الجاهلين وانتحال المبطلين الذين عقدوا ألوية الفتنة، وأطلقوا أعنة المحنة، وقالوا على اللَّه وفي اللَّه بغير علم، فردوا باطلهم، وبينوا زيفهم، وكشفوا إفكهم، ونافحوا عن اللَّه ورسوله، فلم يقدروا على أخذ الثأر منهم إلا بأن سموهم مشبهة، ممثلة، مجسمة، حشوية، ولو كان لهؤلاء عقول لعلموا أن التلقيب بهذه الألقاب ليس لهم وإنما هو لمن جاء بهذه النصوص وتكلم بها ودعى الأمة إلى الإيمان بها ومعرفتها ونهاهم عن تحريفها وتبديلها؟

فدعوا التشنيع بما تعلمون أنتم وكل عاقل منصف أنه كذب ظاهر، وإفك مفترى، لا يعلم به قائل يناظر عن مقالته، فهل تدفعون عن أنفسكم التعطيل ونفي حقائق صفات الكمال عن رب العالمين، وأنها مجاز لا حقيقة لها،

وأن ظاهرها كفر وتشبيه وإلحاد، فلو كان خصومكم كما زعمتم - وحاشاهم - مشبهة ممثلة مجسمة لكانوا أقل تنقصًا لرب العالمين وكتابه وأسمائه وصفاته منكم بكثير لو كان قولهم يقتضي التنقص، فكيف وهو لا يقتضيه؟ ولو صرحوا به فإنهم يقولون: نحن أثبتنا لله غاية الكمال، ونعوت الجلال، ووصفناه بكل صفة كمال، فإن لزم من هذا تجسيم أو تشبيه لم يكن هذا نقصًا، ولا عيبًا، ولا ذمًّا بوجه من الوجوه، فإن لازم الحق حق، وما لزم من إثبات كمال الرب ليس بنقص، وأما أنتم فنفيتم عنه صفات الكمال، ولا ريب أن لازم هذا النفي وصفه بأضدادها من العيوب والنقائص، فما سوَّى اللَّه ولا رسوله ولا عقلاء عباده بين من نفى كماله المقدس حذرًا من التجسيم وبين من أثبت كماله الأعظم وصفاته العلى بلوازم ذلك كائنة ما كانت.

فلو فرضنا في الأمة من يقول: له سمع كسمع المخلوق وبصر كبصره. لكان أدنى إلى الحق ممن يقول: لا سمع له ولا بصر.

ولو فرضنا في الأمة من يقول: إنه متحيز على عرشه، تحيط به الحدود والجهات. لكان أقرب إلى الصواب من قول من يقول: ليس فوق العرش إله يعبد، ولا رب يصلى له ويسجد، ولا ترفع إليه الأيدي، ولا ينزل من عنده شيء، ولا يصعد إليه شيء، ولا هو فوق خلقه، ولا محايثهم ولا مباينهم.

ولو فرضنا في الأمة من يقول: إنه يتكلم كما يتكلم الآدمي، وأن كلامه بآلات وأدوات تشبه آلات الآدميين وأدواتهم. لكان خيرًا ممن يقول: إنه ما تكلم ولا يتكلم، ولا قال ولا يقول، ولا يقوم به كلام البتة. فإن هذا القائل: يشبِّهه بالأحجار والجمادات التي لا تعقل، وذلك المشبه وصفه بصفات

الأحياء الناطقين.

وكذلك لو فرضنا في الأمة من يقول: له يدان كأيدينا. لكان خيرًا ممن يقول: ليس له يدان. فإن هذا معطل مكذب لله راد على اللَّه ورسوله، وذلك المشبه غالط مخطئ في فهمه، فالمشبِّه - على زعمكم الكاذب - لم يشبِّهه تنقيصًا له وجحدًا لكماله، بل ظنًّا أن إثبات الكمال لا يمكن إلا بذلك، فقابلتموه بتعطيل كماله، وذلك غاية التنقص»[1].

«**إنك أيها الجهمي في فهمك عن اللَّه أن ظاهر كلامه إثبات أيد متعددة على جنب واحد، وعيون متعددة في وجه واحد - قد ضاهيت النصارى، الذين احتجوا على تثليثهم وإثبات آلهة متعددة بظاهر قوله:** ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾﴾ [ق: ٤٣] وأمثاله.

وفي هؤلاء أنزل اللَّه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧].

وفي «**الصحيح**» عن عائشة أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**يا عائشة، إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمَّى اللهُ فاحذروهم**»[2]. وهذا الفهم الفاسد إنما أتى من قبل عجم القلوب والألسن فهم الذين أفسدوا الدين، وشوشوا على الناس، وإلا فلغة العرب متنوعة في إفراد المضاف وتثنيته وجمعه، بحسب أحوال المضاف إليه، فإن أضافوا الواحد المتصل إلى مفرد أفردوه، وإن أضافوه إلى اسم جمع ظاهر أو مضمر جمعوه، وإن أضافوه إلى اسم مثنى فالأفصح من لغتهم جمعه؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ

---

(١) «الصواعق المرسلة» (١/ ٢٥٤- ٢٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٤٧)، ومسلم (١/ ٢٦٦٥).

﴿قُلُوبُكُمَا﴾ [التَّحريم: ٤]، وإنما هما قلبان لا غير، وقوله: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨].

وتقول العرب: اضرب أعناقهما، واقطع ألسنتهما. وهذا أفصح استعمالهم.

وتارة يفردون المضاف فيقولون: لسانهما، وقلبهما، وظهرهما.

وتارة يثنونه كقوله: ظهراهما مثل ظهور الترسين.

والقرآن إنما نزل بلغة العرب لا بلغة العجم والطماطم والأنباط الذين أفسدوا الدين، وتلاعبوا بالنصوص، وانتهكوا حرماتها، وجعلوها عرضة لتأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين، وإذا كان من لغتهم وضع الجمع موضع التثنية؛ لئلا يجمعوا في لفظ واحد بين تثنيتين ولا لبس هناك فلأن يوضع الجمع موضع التثنية فيما إذا كان المضاف إليه مجموعًا أولى بالجواز؛ يدل عليه أنك لا تكاد تجد في كلامهم (عينينا) و(يدينا)، ونحو ذلك، ولا يلبس على السامع قول المتكلم: نراك بأعيننا، ونأخذك بأيدينا، ونحو ذلك، ولا يفهم منه بشر على وجه الأرض عيونًا كثيرة على وجه واحد، وأيديًا متعددة على بدن واحد، فهل قدر القرآن حق قدره من زعم أن هذا ظاهره؟

ولفظ اليد جاء في القرآن على ثلاثة أنواع: مفردًا ومثنى ومجموعًا، فالمفرد كقوله: ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]، والمثنى كقوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، والمجموع كقوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ [يس: ٧١].

فحيث ذكر اليد مثناة أضاف الفعل إلى نفسه بضمير الإفراد وعدى الفعل بالباء إليهما، فقال: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾.

وحيث ذكرها مجموعة أضاف العمل إليها ولم يعد الفعل بالباء، فهذه

ثلاثة فروق، فلا يحتمل ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ من المجاز ما يحتمله ﴿عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾، فإن كل أحد يفهم من قوله: ﴿عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾. ما يفهمه من قوله: عملنا، وخلقنا، كما يفهم ذلك من قوله: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشُّورى: ٣٠].

وأما قوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾. فلو كان المراد منه مجرد الفعل لم يكن لذكر اليد بعد نسبة الفعل إلى الفاعل معنى، فكيف وقد دخلت عليها الباء؟ فكيف إذا ثنيت؟

وسر الفرق أن الفعل قد يضاف إلى يد ذي اليد والمراد الإضافة إليه، كقوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠] ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾.

وأما إذا أضيف إليه الفعل ثم عدي بالباء إلى يده مفردة أو مثناة، فهو ما باشرته يده، ولهذا قال عبد اللّه بن عمرو: «**إن اللّه لم يخلق بيده إلا ثلاثًا: خلق آدم بيده، وغرس جنة الفردوس بيده**» وذكر الثالثة[(١)]، فلو كانت اليد هي القدرة لم يكن لها اختصاص بذلك، ولا كانت لآدم فضيلة بذلك على شيء مما خلق بالقدرة.

وقد أخبر النبي ﷺ أن أهل الموقف يأتونه يوم القيامة فيقولون: «**يا آدم، أنت أبو البشر، خلقك اللّه بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء، فاشفع لنا إلى ربك**». فذكروا أربعة أشياء كلها خصائص[(٢)]، وكذلك قال آدم لموسى في محاجته له: «**اصطفاك اللهُ بكلامِه وخطَّ لك الألواحَ بيدِه**»[(٣)]. وفي لفظ آخر: «**كتب لك التوراةَ**

(١) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» من قول كعب. وعزاه السيوطي في «الدر» (٧/ ٢٠٧) لعبد بن حميد عن كعب أيضًا.
(٢) أخرجه البخاري (٤٤٧٦، ٦٥٦٥)، ومسلم (١٩٣/ ٣٢٢- ٣٢٤)، من حديث أنس ﷺ.
(٣) أخرجه البخاري (٦/ ٢٤٣٩).

بيدِه»[١]. وهو من أصح الأحاديث[٢]، وكذلك الحديث الآخر المشهور أن الملائكة قالوا: «**يا رب، خلقت بني آدم يأكلون ويشربون وينكحون ويركبون، فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة. فقال اللّه تعالى: لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي ونفخت فيه من روحي كمن قلت له: كن فكان**». وهذا التخصيص إنما فهم من قوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾. فلو كانت مثل قوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾ [يس: ٧١] لكان هو والأنعام في ذلك سواء، فلما فهم المسلمون أن قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ موجبًا له تخصيصًا وتفضيلاً بكونه مخلوقًا باليدين على من أمر أن يسجد له، وفهم ذلك أهل الموقف حين جعلوه من خصائصه - كانت التسوية بينه وبين قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾﴾ خطأً محضًا.

وكذلك قول النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**يقبض اللّه سماواته بيده والأرض باليد الأخرى**»[٣]. وقوله: «**يمين اللّه ملأى لا يَغِيضُها نفقة، سَحَّاءُ**

---

(١) أخرجه أبو داود (٤/ ٢٢٦) وأبو يعلى في «مسنده» (١١/ ١١٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٤٠، ٣٣٦١)، ومسلم (١٩٤/ ٣٢٧)، والترمذي (٢٤٣٤)، والنسائي في «الكبرى» كما في «تحفة الأشراف» (١٠/ ٣٣٤)، وابنُ ماجه (٣٣٠٧)، وابنُ حبان (٦٤٦٥) من طرق عن أبي حيان التيمي، عن أبي زرعة بن عَمرو، عن أبي هريرة مرفوعا بلفظ: «أتي النبيُّ ﷺ بلحم، فرُفِعَ إليه الذراعُ، وكان يعجبه، فنهس منها...»، فذكر حديث الشفاعة بطوله. وقال الترمذي: «حسنٌ صحيحٌ». وله طرق أخرى عن أبي هريرة.

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٨٨/ ٢٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول اللهﷺ: «يطوي الله ﷻ السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين بشماله، ثم يقول: أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟».

وأخرجه البخاريُّ (٤٨١٢، ٧٣٨٢)، ومسلم (٢٧٨٧/ ٢٣)، والدارميُّ (٢٧٩٩) من طريقين عن أبي هريرة ﷺ، مرفوعًا: «يقبض الله الأرض يوم القيامة، ويطوي السماء بيمينه، فيقول: أنا الملك أين ملوك الأرض؟».

الليلَ والنهارَ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق الخلق؟ فإنه لم يَغِضْ ما في يمينه، وبيده الأخرى القسط يخفض ويرفع»[(١)]. وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤].

وفي الحديث الذي رواه مسلم في «**صحيحه**»، في أعلى أهل الجنة منزلة: «**أولئك الذين غرستُ كرامتَهم بيدي وختمتُ عليها**»[(٢)].

وقال: أنس بن مالك ﷺ: قال رسول اللَّه ﷺ: «**خلق اللهُ جنةَ عَدْنٍ وغرَس أشجارها بيده، فقال لها: تكلمي. فقالت: قد أفلح المؤمنون**»[(٣)].

وقال عبد اللَّه بن الحارث قال النبي ﷺ: «**إن اللهَ خلق ثلاثةَ أشياءَ بيدِه: خلَق آدمَ بيدِه، وكتَب التوراةَ بيدِه، وغرَس الفِردوسَ بيدِه، ثم قال: وعزتي لا يسكنُها مدمنُ خمرٍ، ولا ديوثٌ**»[(٤)].

وفي «الصحيح» عنه ﷺ: «**تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده كما يكفؤ أحدكم خبزته في السفر، نزلاً لأهل الجنة**»[(٥)]. وكان رسول اللَّه ﷺ يقول في استفتاح الصلاة: «**لبيك وسعديك والخيرُ كلُّه في يديك**»[(٦)].

وفي «الصحيح» أيضًا عنه ﷺ: «**إنَّ اللهَ يَبْسُطُ يدَه بالليلِ ليتوبَ مسيءُ النهارِ، ويبسُطُ يدَه بالنهارِ ليتوبَ مسيءُ الليلِ، حتى تطلعَ الشمسُ من**

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٨٣)، ومسلم (٣٦، ٣٧/ ٩٩٣)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم (١٨٩/ ٣١٢)، من حديث المغيرة بن شعبة ﷺ.

(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٤٢٦).

(٤) ذكره السيوطيُّ في «الدر» (٧/ ٢٠٧) وعزاه لابن أبي الدنيا في «صفة الجنة» وأبي الشيخ في «العظمة» والبيهقي في «الأسماء والصفات».

(٥) أخرجه البخاري (٦٥٢٠)، ومسلم (٢٧٩٢/ ٣٠)، من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٦) أخرجه مسلم (٢٠١، ٢٠٢/ ٧٧١)، من حديث عليٍّ ﷺ.

مغربِها»[١].

وقال عبد اللَّه بن مسعود: قال رسول اللَّه ﷺ: «**الأيدي ثلاثة: فيَدُ اللَّه العليا، ويدُ المعطي التي تليها، ويدُ السائل السفلى**»[٢].

وفي «الصحيح» عنه ﷺ: «**المقسطون عند اللهِ يومَ القيامةِ على منابرَ من نورٍ، عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يَعدلون في حكمِهم وأهليهم وما وَلُوا**»[٣]. وفي «**المسند**» وغيره من[٤] حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: «**لما خلق اللَّه آدم ونفخ فيه الروح عطس فقال: الحمد لله. فحمد اللَّه بإذن الله، فقال له ربه: رحمك ربُّك يا آدمُ. وقال له: اذهب إلى أولئك الملائكة - إلى ملأ منهم جلوس - فقل: السلام عليكم. فذهب، فقالوا: وعليكم السلام ورحمة اللَّه وبركاته. ثم رجع إلى ربه، فقال: هذه تحيتك وتحية بنيك بينهم. فقال اللَّه تعالى، ويداه مقبوضتان: اختر أيَّهما شئت. فقال: اخترتُ يمينَ ربي، وكلتا يدي ربي يمين مباركة، ثم بسطها فإذا فيها آدم وذريته**». وذكر الحديث[٥].

وقال عمر بن الخطاب: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**خلق اللهُ آدمَ، ثم مسح ظهرَه بيمينه، فاستخرج منه ذريةً، فقال: خلقتُ هؤلاء للجنةِ، وبعملِ**

---

(١) أخرجه مسلم (٣١/ ٢٧٥٩)، من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

(٢) أخرجه الإمامُ أحمد (١/ ٤٤٦)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وأخرجه أبو داود من حديث مالك بن نضلة ﷺ وصححه الألباني كما في «صحيح أبي داود».

(٣) أخرجه مسلم (١٨/ ١٨٢٧)، من حديث عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه الإمامُ أحمد (٢/ ١٥٩، ١٦٠)، ومسلم (١٨/ ١٨٢٧).

(٥) أخرجه الترمذي (٣٣٦٨)، والنسائي في «الكبرى» (٦/ ٦٣)، وابنُ خزيمة في «التوحيد» (ص٦٧)، وابنُ حبان (٦١٦٧)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ١٣٢) عن سعيد المقبري، عنه به.

أهلِ الجنةِ يعملون. ثم مسح ظهرَه، فاستخرج منه ذريةً، فقال: خلقتُ هؤلاء للنارِ، وبعملِ أهلِ النار يعملون»[(١)]. وقال هشام بن حكيم عن رسول اللَّه ﷺ: «**إن اللهَ أخذ ذريةَ بني آدمَ من ظهورِهم وأشهدهم على أنفسِهم، ثم أفاض بهم في كفيه، فقال: هؤلاء للجنة، وهؤلاء للنار**»[(٢)].

وقال عبد اللَّه بن عمرو: «**ولما خلق اللَّه آدم نفضه نفْضَ المزود فخرج منه مثل الذر، فقبض قبضتين، فقال لما في اليمين: في الجنة. ولما في الأخرى: في النار**»[(٣)].

وقال أبو موسى الأشعري ؓ عن النبي ﷺ: «**إنَّ اللهَ خلق آدمَ من قبضةٍ قبضها من جميعِ الأرضِ؛ فجاء بنو آدمَ على قدرِ الأرضِ، فمنهم الأحمرُ**

---

(١) أخرجه الإمامُ أحمد (١/ ٤٤)، قال: حدثنا روح وإسحاق - فرقهما- . وأبو داود (٤٧٠٣)، قال: ثنا القعنبي. والترمذي (٣٠٧٥)، عن معن. والنسائي في «الكبرى» (٦/ ٣٤٧)، عن قتيبة بن سعيد. وعبد الله بنُ أحمد في «زوائده على المسند»، قال: ثنا مصعب الزبيري. وابنُ حبان (٦١٦٦)، عن أحمد بن أبي بكر. سبعَتهم عن مالك، وهذا في «الموطأ» (٢/ ٨٩٨)، عن زيد بن أبي أنيسة، عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب أنه أخبره، عن مسلم بن يسار الجهني، أن عُمر بنَ الخطاب سُئِل عن هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ قال. فذكره. قال الترمذي: «هذا حديثٌ حسنٌ». ومسلم بنُ يسار لم يسمع من عُمر. وقد ذكر بعضُهم في هذا الإسناد بين مسلم بن يسار وبين عمر رجلاً مجهولاً. ا؟.

والحديث الذي أشار إليه الترمذي أخرجه أبو داود (٤٧٠٤) بسنده، عن مسلم بن يسار، عن نعيم بن ربيعة، قال: كنت عند عُمر بن الخطاب بهذا الحديث. وحديث مالك أتم، ولا ريب أنه صحيح بهذه الطرق.

(٢) ذكره السيوطيُّ في «الدر» (٣/ ٦٠٤) وعزاه إلى ابن جرير والبزار والطبراني والآجري في «الشريعة» وابن مردويه والبيهقي في «الأسماء والصفات» عن هشام بن حكيم، أن رجلاً أتى النبيّ ﷺ، فقال: أتبدأ الأعمال أم قد قضي القضاء؟ قال. فذكره.

(٣) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٨١٨٤).

والأبيضُ والأسودُ وبين ذلك، والسهل والحَزْن، والطيب والخبيث»[١].

وقال سلمان الفارسي: «**إن اللَّه تعالى خمر طينة آدم أربعين ليلة، أو أربعين يومًا، ثم ضرب بيده فيها، فخرج كلَّ طيب بيمينه، وكل خبيث بيده الأخرى، ثم خلط بينهما**»[٢].

وقال أبو هريرة ﷺ: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ما تصدق أحد بصدقة من طيب، ولا يقبل اللَّه إلا الطيب، إلا أخذها الرحمن بيمينه، وإن كانت تمرة، فتربوا في كفِّ الرحمنِ حتى تكون أعظمَ من الجبلِ**». متفق على صحته[٣].

وقال أنس ﷺ: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إنَّ اللهَ وعدني أن يُدخِل الجنةَ من أمتي أربعمائة ألفِ**». فقال أبو بكر: زدنا يا رسول الله. قال: «**وهكذا**». وجمع يديه، قال: زدنا يا رسول الله. قال: «**وهكذا**». قال: زدنا يا رسول الله. قال عمر: حسبك. فقال أبو بكر: دعني يا عمر، وما عليك أن يدخلنا اللَّه الجنة كلنا؟! قال عمر: إن شاء اللَّه أدخل خلقه الجنة بكف واحدة. فقال النبي: ﷺ«**صدق عمر**»[٤].

---

(١) أخرجه الإمامُ أحمد (٤/ ٤٠٠، ٤٠٦)، وأبو داود (٤٦٩٣)، والترمذي (٢٩٥٥)، وابنُ خزيمة في «التوحيد» (ص٦٤)، وابنُ حبان (٦١٦٠)، والبيهقيُّ (٩/ ٣) عن قسامة بن زهير، أنه سمع أبا موسى الأشعري فذكره. وقال الترمذي: «حسنٌ صحيحٌ».

(٢) عزاه السيوطيُّ في «الدر» (٢/ ١٧٤) لسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في «الأسماء والصفات» وأبي الشيخ في «العظمة» عن سلمان رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الإمامُ أحمد (٢/ ٤١٨، ٥٣٨)، والبخاريُّ (٧٤٣٠)، ومسلم (١٠١٤/ ٦٣)، والترمذي (٦٦١)، والنسائي في «المجتبى» (٥/ ٥٧)، وفي «الكبرى» (٢/ ٣١)، و (٤/ ٤١٣، ٤١٨)، وابنُ ماجه (١٨٤٢)، من طريق سعيد بن يسار، عن أبي هريرة به. قال الترمذي: «وفي الباب عن عائشة وعدي بن حاتم وأنس وعبد الله بن أبي أوفي وحارثة بن وهب وعبد الرحمن بن عوف وبريدة، وحديث أبي هريرة حديثٌ حسنٌ صحيحٌ».

(٤) أخرجه الإمامُ أحمد في «المسند» (٣/ ١٦٥، ١٩٣)، وفي «فضائل الصحابة» (٧١٤) عن =

وقال نافع بن عمر: سألت بن أبي مليكه عن يد اللَّه أواحدة أم اثنتان؟ فقال: لا، بل اثنتان[١].

وقال ابن عباس رضي اللَّه عنهما: «**ما السموات السبع والأرضون السبع وما فيهما في يد اللَّه إلا كخردلة في يد أحدكم**»[٢].

وقال ابن عمر وابن عباس: «**أول شيء خلقه اللَّه القلم، فأخذه بيمينه، وكلتا يديه يمين، فكتب الدنيا وما فيها: من عمل معمول في بر وبحر، ورطب ويابس، فأحصاه عنده**»[٣].

وقال ابن عباس رضي اللَّه عنهما في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾ [الزُّمر: ٦٧]: «**يقبض اللَّه عليها فيرى طرفاها في يده**»[٤]، وقال ابن عمر: رأيت رسول اللَّه ﷺ قائمًا على المنبر فقال: «**إنَّ اللهَ تعالى إذا كان يومَ القيامةِ جمع السماوات والأرضَ في قبضتِه، ثم قال هكذا، ومدَّ يده وبسطها، ثم يقول: أنا اللهُ أنا الرحمنُ**». وذكر الحديث[٥].

وقال ابن وهب، عن أسامة، عن نافع، عن ابن عمر، أن النبي ﷺ قرأ

= قتادة، عن أنس. أو عن النضر بن أنس، عن أنس.

(١) أخرجه أبو سعيد الدارمي في «النقض» (١/ ٢٨٦) قال حدثني سعيد بن أبي مريم، عن نافع بن عمر الجمحي به.

(٢) أخرجه عبد الله بنُ أحمد في «السنة» (١٠٩٠) عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس به. وعزاه السيوطيُّ في «الدر» (٧/ ٢٤٩) لابن جرير الطبري.

(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٥٤٠) عن الأعمش، عن أبي ظبيان، عن ابن عباس نحوه. وأخرجه أبو سعيد الدارمي في «الرد على الجهمية» (٢٥٣)، وفي «النقض» (٢/ ٨٦٠) عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس مرفوعًا.

(٤) أخرجه أبو سعيد الدارمي في «النقض» (١/ ٢٦٧) عن طلق بن حبيب، عن ابن عباس بنحوه.

(٥) أخرجه مسلم (٢٥، ٢٦/ ٢٧٨٨).

على المنبر: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزُّمر: ٦٧] قال: «**مطويةٌ في كفِّه يرمي بها كما يرمي الغلامُ بالكرةِ**»(١).

وقال عبيد اللَّه بن مقسم: نظرت إلى عبد اللَّه بن عمر كيف صنع حيث يحكي رسول اللَّه ﷺ، قال: «**يأخذ اللَّه سماواته وأرضه بيده، فيقول: أنا الله. ويقبض أصابعه ويبسطها، ويقول: أنا الرحمن الرحيم، أنا الملك**». حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه، حتى إني أقول: أساقط هو برسول اللَّه ﷺ(٢).

وقال زيد بن أسلم: لما كتب اللَّه التوراة بيده قال: «**بسم الله، هذا كتابٌ من اللهِ بيدِه لعبدِه موسى يسبحني ويقدسني، ولا يحلف باسمي آثمًا، فإني لا أزكي من حلف باسمي آثمًا**»(٣).

وإنما ذكرنا هذه النصوص التي هي غيض من فيض ليعلم الواقف عليها، أنه لا يفهم أحد من عقلاء بني آدم منها شخصًا له شق واحد وعليه أيد كثيرة، وله ساق واحد، وله وجه واحد وفيه عيون كثيرة، فهذه نصوص القرآن والسنة كما ترى هل يفهم منها مسلم ما ذكره هذا الجهمي؟ أو أحد ممن له أدنى فهم؟ ومَن هذا قدر النصوص عنده فهو حقيق بأن لا يقبل منها شيئًا، ولا ينال منها هدى، ولا يظفر منها بعلم، وهي في حقه كما قال اللَّه تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٤/ ٢٦). وابن منده في «الرد على الجهمية» (ص٤٣).
(٢) سلف تخريجه قبل حديث.
(٣) أخرجه عبد الله بن أحمد في «السنة» (٥٧٦).

أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًىۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصّلت: ٤٤]، وقوله: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

واللَّه يعلم أن هذا من أعظم العضه لها، والتنقص بها، والطعن على من تكلم بها، وجاء بها، أو يقال له هذا ظاهر كلامك وحقيقته، فانظر إلى أقبح التشبيه والتمثيل الذي ادعوا أنه ظاهر النصوص، وإلى التعطيل الذي سطوا به عليها وسموه تأويلاً، فصح أنهم جمعوا بين فهم التشبيه منها واعتقاد التعطيل ونسبة قائلها إلى قصد ما يضاد البيان والإرشاد واللَّه المستعان»[(١)].

* * *

(١) «الصواعق المرسلة» (١/ ٢٦٧- ٢٨٧).



معرفة حقيقة التأويل ومسماه لغة واصطلاحًا

- **التأويل في اللغة:**

التأويل: تفعيل من آل يؤول إلى كذا، إذا صار إليهن فالتأويل التصيير، وأولته تأويلاً، إذا صيرته إليه فآل وتأول وهو مطاوع أولته.

وقال الجوهري: التأويل تفسير ما يؤول إليه الشيء، وقد أولته وتأولته تأولاً بمعنًى. قال الأعشى:

علَى أنَّها كانَت تَأَوُّلُ حُبِّها   تَأَوُّلَ رِبْعِيِّ السِّقابِ فأَصْحَبا

قال أبو عبيدة: يعني تفسير حبها ومرجعه، أي أنه كان صغيرًا في قلبه فلم يزل يثبت حتى صار قديمًا كهذا السقب الصغير لم يزل يشب حتى صار كبيرًا مثل أمه وصار له ابن يصحبه. انتهى كلامه.

ثم تسمى العاقبةُ تأويلاً؛ لأن الأمر يصير إليها، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

وتسمى حقيقةُ الشيء المخبر به تأويلاً؛ لأن الأمر ينتهي إليها، ومنه قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٣]. فمجيءُ تأويله مجيءُ نفس ما أخبرت به الرسل: من اليوم الآخر والمعاد، وتفاصيله، والجنة والنار.

ويسمى تعبيرُ الرؤيا تأويلاً بالاعتبارين: فإنه تفسير لها، وهو عاقبتها وما تؤول إليه، وقال يوسف لأبيه: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ﴾

[يوسف: ١٠٠] أي: حقيقتها ومصيرها إلى ها هنا انتهت.

وتسمى العلةُ الغائية والحكمة المطلوبة بالفعل تأويلاً؛ لأنها بيان لمقصود الفاعل وغرضه من الفعل الذي لم يعرف الرائي له غرضه به، ومنه قول الخضر لموسى عليهما السلام، بعد أن ذكر له الحكمة المقصودة بما فعله من تخريق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار بلا عوض: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨].

فلما أخبره بالعلة الغائية التي انتهى إليها فعلُه قال: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

فالتأويل في كتاب الله سبحانه وتعالى **المراد به:** حقيقة المعنى الذي يؤول اللفظ إليه، وهي الحقيقة الموجودة في الخارج.

فإن الكلام نوعا : خبر وطلب:

فتأويل الخبر هو الحقيقة، وتأويل الوعد والوعيد هو نفس الموعود والمتوعد به، وتأويل ما أخبر الله به من صفاته وأفعاله نفس ما هو عليه سبحانه، وما هو موصوف به من الصفات العلى.

وتأويل الأمر هو نفس الأفعال المأمور بها، قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ يقول في ركوعه وسجوده: «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك**». يتأول القرآن[1]. فهذا التأويل هو نفس فعل المأمور به.

---

(١) أخرجه الإمامُ أحمد (٦/ ٤٣، ٤٩، ١٩٠)، والبخاريُّ (٧٩٤، ٨١٧، ٤٢٩٣، ٤٩٦٧، ٤٩٦٨)، ومسلم (٤٨٤/ ٢١٧، ٢١٨، ٢١٩)، وأبو داود (٨٧٧)، والنسائي في «المجتبى» (٢/ ١٩٠، ٢١٩، ٢٢٠)، وفي «الكبرى» (١/ ٢٣٧، ٢٣٩، ٦/ ٥٢٥)، وابنُ ماجه (٨٨٩)، وابنُ خزيمة (٦٠٥، ٨٤٧)، وابنُ حبان (١٩٣٠)، من طرق عن منصور، عن أبي الضحى، عن مسروق عنها.

فهذا التأويل في كلام اللّه ورسوله.

وأما التأويل في اصطلاح أهل التفسير والسلف من أهل الفقه والحديث، فمرادهم به معنى التفسير والبيان، ومنه قول ابن جرير وغيره: القول في تأويل قوله تعالى كذا وكذا. يريد تفسيره، ومنه قول الإمام أحمد في كتابه في الرد على الجهمية فيما تأولته من القرآن على غير تأويله فأبطل تلك التأويلات التي ذكروها، وهي تفسيرها المراد بها، وهو تأويلها عنده، فهذا التأويل يرجع إلى فهم المعنى وتحصيله في الذهن، والأول يعود إلى وقوع حقيقته في الخارج.

وأما المعتزلة والجهمية وغيرهم من فرق المتكلمين فمرادهم بالتأويل، صرف اللفظ عن ظاهره وحقيقته إلى مجازه وما يخالف ظاهره، وهذا هو الشائع في عرف المتأخرين من أهل الأصول والفقه، ولهذا يقولون: التأويل على خلاف الأصل. و: التأويل يحتاج إلى دليل.

وهذا التأويل هو الذي صنف في تسويغه وإبطاله من الجانبين، فصنف جماعة في تأويل آيات الصفات وأخبارها كأبي بكر بن فورك، وابن مهدي الطبري، وغيرهما، وعارضهم آخرون فصنفوا في إبطال تلك التأويلات كالقاضي أبي يعلى، والشيخ موفق الدين بن قدامة، وهو الذي حكي عن غير واحد إجماع السلف على عدم القول به، كما ستأتي حكاية ألفاظهم إن شاء الله.

وعلى هذا ينبني الكلام في الثاني، وهو انقسام التأويل إلى صحيح وباطل:

فالتأويل الصحيح هو القسمان الأولان، وهما التأويل الصحيح حقيقة

المعنى وما يؤول إليه في الخارج، أو تفسيره وبيان معناه، وهذا التأويل يعم المحكم والمتشابه، والأمر والخبر.

قال جابر بن عبد اللَّه في حديث حجة الوداع: «ورسول اللَّه ﷺ بين أظهرنا ينزل عليه القرآن، وهو يعلم تأويله، فما عمل به من شيء عملنا به»[١].

فعلمه ﷺ بتأويله هو علمه بتفسيره وما يدل عليه، وعمله به هو تأويل ما أمر به ونهى عنه.

ودخل رسول اللَّه ﷺ مكة في عمرة القضاء وعبد اللَّه بن رواحة آخذ بخطام ناقته وهو يقول:

خَلُّوا بني الكفارِ عن سبيلِهِ   خَلُّوا فكلُّ الخيرِ في رسولِهِ
يا ربِّ إنِّي مؤمنٌ بقيلِهِ   أعرفُ حقَّ اللهِ في قبولِه
نحن قتلناكم على تأويله   كما قتلناكم على تنزيله
ضربًا يزيل الهامَ عن مقيلِه   ويُذهلُ الخليلَ عن خليلِه[٢]

قال ابن هشام: نحن قتلناكم على تأويله. إلى آخر الأبيات لعمار بن ياسر في غير هذا اليوم، والدليل على ذلك أن بن رواحة إنما أراد المشركين، والمشركون لم يقروا بالتنزيل، وإنما يقاتَل على التأويل مَن أقر بالتنزيل.

وهذا لا يلزم إن صح الشعر عن ابن رواحة؛ لأن المراد بقتالهم على التأويل هو تأويل قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧].

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٧، ١٤٨/ ١٢١٨).
(٢) أخرجه الترمذي (٢٨٤٧)، والنسائي (٥/ ٢٠٢، ٢١١).

وكان دخولهم المسجد الحرام عام القضية آمنين هو تأويل هذه الرؤيا التي رآها رسول اللَّه ﷺ وأنزلها اللَّه في كتابه، ويدل عليه أن الشعر إنما يناسب خطاب الكفار، بقي أن يقال: فلم يكن هناك قتال حتى يقول: نحن قتلناكم. فيقال: هذا تخويف وتهديد، أي: إن قاتلتمونا قاتلناكم وقتلناكم على التأويل والتنزيل. وعلى التقديرين فليس المراد بالتأويل صرف اللفظ عن حقيقته إلى مجازه.

ومن هذا قول الزهري: «**وقعت الفتنة وأصحاب محمد متوافرون، فأجمعوا أن كل مال أو دم أصيب بتأويل القرآن فهو هدر؛ أنزلوهم منزلة أهل الجاهلية**»[(١)]؛ أي أن القبيلتين في الفتنة إنما اقتتلوا على تأويل القرآن، وهو تفسيره، وما ظهر لكل طائفة منه حتى دعاهم إلى القتال، فأهل الجمل وصفين إنما اقتتلوا على تأويل القرآن، وهؤلاء يحتجون به، وهؤلاء يحتجون به، نعم، التأويلُ الباطلُ تأويلُ أهل الشام قولَه ﷺ لعمار: «**تقتلكَ الفئةُ الباغيةُ**»[(٢)]. فقالوا: نحن لم نقتله، إنما قتله من جاء به حتى أوقعه بين رماحنا. فهذا هو التأويل الباطل المخالف لحقيقة اللفظ وظاهره، فإن الذي قتله هو الذي باشر قتله، لا من استنصر به، ولهذا رد عليهم من هو أولى بالحق والحقيقة منهم فقالوا: فيكون رسول اللَّه ﷺ وأصحابه هم الذين قتلوا حمزة والشهداء معه، لأنهم أتوا بهم حتى أوقعوهم تحت سيوف المشركين؟!!

ومن هذا قول عروة بن الزبير لما روى حديث عائشة رضي اللَّه عنها:

---

(١) أخرجه أبو بكر الخلال في «السنة» (١٢٧) من طريق سفيان بن عيينة عنه.
(٢) أخرجه مسلم (٧٠، ٧١/ ٢٩١٥).

«**فرضت الصلاة ركعتين ركعتين، فزيد في صلاة الحضر، وأقرت صلاة السفر**». فقيل له: فما بال عائشة أتمت في السفر؟ قال: «**تأولت كما تأول عثمان**»(١). وليس مراده أن عائشة وعثمان تأولا آية القصر على خلاف ظاهرها، وإنما مراده أنهما تأولا دليلاً قام عندهما اقتضى جواز الإتمام فعملا به، فكان عملهما به هو تأويله، فإن العمل بدليل الأمر هو تأويله، كما كان رسول اللَّه ﷺ يتأول قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ [النَّصر: ٣] بامتثاله بقوله: «**سبحانَك اللهمَّ ربَّنا وبحمدِك اللهمَّ اغفر لي**».

فكأن عائشة وعثمان تأولا قوله: ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾ [النساء: ١٠٣] وإن إتمامها من إقامتها.

وقيل: تأولت عائشة أنها أم المؤمنين وأن أمهم حيث كانت فكأنها مقيمة بينهم، وأن عثمان كان إمام المسلمين فحيث كان فهو منزله، أو أنه كان قد عزم على الاستيطان بمنى، أو أنه كان قد تأهل بها، ومن تأهل بلد لم يثبت له حكم المسافر، أو أن الأعراب كانوا قد كثروا في ذلك الموسم فأحب أن يعلمهم فرض الصلاة وأنه أربع، أو غير ذلك من التأويلات التي ظناها أدلة مقيدة لمطلق القصر، أو مخصصة لعمومه.

وإن كانت كلها ضعيفة والصواب هدي رسول اللَّه ﷺ فإنه كان إمام المسلمين، وعائشة أم المؤمنين في حياته، وبعد وفاته، وقد قصرت معه، ولم يكن عثمان ليقيم بمكة وقد بلغه أن رسول اللَّه ﷺ إنما رخص بها للمهاجر بعد قضاء نسكه ثلاثًا، والمسافر إذا تزوج في طريقه لم يثبت له حكم الإقامة بمجرد التزوج مالم يزمع الإقامة وقطع السفر.

---

(١) أخرجه البخاريُّ (١٠٩٠)، ومسلم (٦٨٥/ ٣).

وبالجملة فالتأويل الذي يوافق ما دلت عليه النصوص وجاءت به السنة ويطابقها هو التأويل الصحيح، والتأويل الذي يخالف ما دلت عليه النصوص وجاءت به السنة هو التأويل الفاسد، ولا فرق بين باب الخبر والأمر في ذلك، وكل تأويل وافق ما جاء به الرسول فهو المقبول، وما خالفه فهو المردود»[١].

* * *

(١) «الصواعق المرسلة» (١/ ١٧٥- ١٨٧).

أنواع التأويل الباطل

أحدها: ما لم يحتمله اللفظ بوضعه، كتأويل قوله ﷺ: «**حتى يضعَ ربُّ العزةِ عليها رِجْلَه**»(١). بأن الرِّجل جماعة من الناس، فإن هذا لا يعرف في شيء من لغة العرب البتة.

الثاني: ما لم يحتمله اللفظ ببنيته الخاصة من تثنية أو جمع، وإن احتمله مفردًا، كتأويل قوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] بالقدرة.

الثالث: ما لم يحتمله سياقه وتركيبه، وإن احتمله في غير ذلك السياق، كتأويل قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]. بأن إتيان الرب إتيان بعض آياته التي هي أمره، وهذا يأباه السياق كلَّ الإباء؛ فإنه يمتنع حمله على ذلك مع التقسيم والترديد والتنويع.

وكتأويل قوله ﷺ: «**إنكم ترَوْنَ ربَّكم عَيانًا كما ترَوْنَ القمرَ ليلةَ البدرِ صَحْوًا ليس دونه سحابٌ، وكما تَرَوْنَ الشمسَ في الظهيرةِ صَحْوًا ليس دونها سحابٌ**»(٢). فتأويل الرؤية في هذا السياق بما يخالف حقيقتها وظاهرها في غاية الامتناع، وهو ردٌّ وتكذيبٌ تَسَتَّر صاحبُه بالتأويل.

الرابع: ما لم يؤلَّف استعماله في ذلك المعنى في لغة المخاطب، وإن أُلِّف في الاصطلاح الحادث، وهذا موضع زلت فيه أقدام كثير من الناس،

(١) أخرجه البخاري (٤٥٦٧)، ومسلم (٢٨٤٨/٣٧)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٥٥٤، ٥٧٣)، وانظر أطرافه، ومسلم (٦٣٣/ ٢١١، ٢١٢)، من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

وضلت فيه أفهامهم؛ حيث تأولوا كثيرًا من ألفاظ النصوص بما لم يؤلف استعمال اللفظ له في لغة العرب البتة، وإن كان معهودًا في اصطلاح المتأخرين، وهذا مما ينبغي التنبه له؛ فإنه حصل بسببه من الكذب على اللَّه ورسوله ما حصل.

كما تأولت طائفة قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ [الأنعام: ٧٦، ٧٧]. بالحركة، وقالوا: استدل بحركته على بطلان ربوبيته، ولا يعرف في اللغة التي نزل بها القرآن أن الأفول هو الحركة البتة في موضع واحد.

وكذلك تأويل الأحد بأنه الذي لا يتميز منه شيء عن شيء البتة، ثم قالوا: لو كان فوق العرش لم يكن أحدًا، فإن تأويل الأحد بهذا المعنى لا يعرفه أحد من العرب، ولا أهل اللغة، ولا يعرف استعماله في لغة القوم في هذا المعنى في موضع واحد أصلاً وإنما هو اصطلاح الجهمية والفلاسفة والمعتزلة ومن وافقهم.

وكتأويل قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] بأن المعنى: أقبل على خلق العرش، فإن هذا لا يعرف في لغة العرب، بل ولا غيرها من الأمم، أن من أقبل على الشيء، يقال قد استوى عليه، ولا لمن أقبل على عمل من الأعمال: من قراءة، أو كتابة، أو صناعة، قد استوى عليها، ولا لمن أقبل على الأكل قد استوى على الطعام، فهذه لغة القوم وأشعارهم وألفاظهم موجودة ليس في شيء منها ذلك البتة.

وهذا التأويل يبطل من وجوه كثيرة سنذكرها في موضعها، لو لم يكن منها إلا تكذيب رسول اللَّه ﷺ لصاحب هذا التأويل لكفاه، فإنه قد ثبت في «**الصحيح**»: «**أن اللَّه قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض**

بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء»[١]، فكان العرش موجودًا قبل خلق السموات والأرض بأكثر من خمسين ألف سنة، فكيف يقال إنه خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم أقبل على خلق العرش.

والتأويل إذا تضمن تكذيب الرسول فحسبه ذلك بطلانًا، وأكثر تأويلات القوم من هذا الطراز، وسيمر بك منها ما هو قرة عين لكل مُوحِّدٍ، وسخنة عين لكل مُلحِدٍ.

الخامس: ما ألف استعماله في ذلك المعنى لكن في غير التركيب الذي ورد به النص، فيحمله المتأول في هذا التركيب الذي لا يحتمله على مجيئه في تركيب آخر يحتمله، وهذا من أقبح الغلط والتلبيس، كتأويل اليدين في قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾، بالنعمة، ولا ريب أن العرب تقول: لفلان عندي يد. وقال عروة بن مسعود للصدِّيق: **«لولا يد لك عندي لم أجزك بها لأجبتك»**[٢]. ولكن وقوع اليد في هذا التركيب الذي أضاف سبحانه فيه الفعل إلى نفسه ثم تعدى الفعل إلى اليد بالباء التي هي نظير (كتبت بالقلم)، وهي اليد وجعل ذلك خاصة خص بها صفيه آدم دون البشر، كما خص المسيح بأنه نفخ فيه من روحه، وخص موسى بأنه كلمه بلا واسطة، فهذا مما يحيل تأويل اليد في النص بالنعمة، وإن كانت في تركيب آخر تصلح لذلك، فلا يلزم من صلاحية اللفظ لمعنى ما في تركيب صلاحيته له في كل تركيب.

وكذلك قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

---

(١) أخرجه مسلم (١٦/ ٢٦٥٣)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (١٦٩٤، ١٦٩٥)، من حديث المسور بن مخرمة رضي الله عنه.

يستحيل فيها تأويل (النظر) بانتظار الثواب، فإنه أضاف النظر إلى الوجوه التي هي محله، وعداه بحرف (إلى) التي إذا اتصل بها فعل النظر كان من نظر العين ليس إلا، ووصف الوجوه بالنضرة التي لا تحصل إلا مع حضور ما يتنعم به لا مع التنغيص بانتظاره، ويستحيل مع هذا التركيب تأويل (النظر) بغير الرؤية، وإن كان (النظر) بمعنى الانتظار قد استعمل في قوله: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ٣٥].

ومثل هذا قول الجهمي الملبس: إذا قال لك المشبه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾. فقل له: العرش له عندنا سبعة معان، والاستواء له خمسة معان، فأي ذلك المراد؟ فإن المشبه يتحير ولا يدري ما يقول، ويكفيك مؤونته.

فيقال لهذا الجاهل الظالم الفاتن المفتون: ويلك، ما ذنب الموحد الذي سميته أنت وأصحابك مشبهًا، وقد قال لك نفس ما قال الله؟! فوالله لو كان مشبهًا كما تزعم لكان أولى بالله ورسوله منك؛ لأنه لم يتعد النص.

وأما قولك: للعرش سبعة معان، أو نحوها، و: للاستواء خمسة معان. فتلبيس منك وتمويه على الجهال، وكذب ظاهر؛ فإنه ليس لعرش الرحمن الذي استوى عليه إلا معنى واحد، وإن كان للعرش من حيث الجملة عدة معان، فاللام للعهد وقد صار بها العرش معينًا، وهو عرش الرب جل جلاله الذي هو سرير ملكه، الذي اتفقت عليه الرسل، وأقرت به الأمم، إلا من نابذ الرسل.

وقولك: الاستواء له عدة معان. تلبيس آخر، فإن الاستواء المعدى بأداة (على) ليس له إلا معنى واحد، وأما الاستواء المطلق فله عدة معان، فإن

العرب تقول: استوى كذا. إذا انتهى وكمل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [القصص: ١٤].

وتقول: استوى وكذا. إذا ساواه، نحو قولهم: استوى الماء والخشبة، و: استوى الليل والنهار، وتقول: استوى إلى كذا. إذا قصد إليه علوًّا وارتفاعًا، نحو: استوى إلى السطح والجبل، و: استوى على كذا. أي: إذا ارتفع عليه وعلا عليه، لا تعرف العرب غير هذا.

فالاستواء في هذا التركيب نص لا يحتمل غير معناه، كما هو نص في قوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾. لا يحتمل غير معناه، ونص في قولهم: استوى الليل والنهار. في معناه لا يحتمل غيره، فدعوا التلبيس؛ فإنه لا يجدي عليكم إلا مقتًا عند اللَّه وعند الذين آمنوا.

السادس: اللفظ الذي اطرد استعماله في معنى هو ظاهر فيه ولم يعهد استعماله في المعنى المؤول، أو عهد استعماله فيه نادرًا فتأويله حيث ورد وحمله على خلاف المعهود من استعماله باطل، فإنه يكون تلبيسًا وتدليسًا يناقض البيان والهداية، بل إذا أرادوا استعمال مثل هذا في غير معناه المعهود حفوا به من القرائن ما يبين للسامع مرادهم به، لئلا يسبق فهمه إلى معناه المألوف.

ومن تأمل لغة القوم وكمال هذه اللغة وحكمة واضعها تبين له صحة ذلك.

وأما أنهم يأتون إلى لفظ له معنى قد ألف استعماله فيه فيخرجونه عن معناه ويطردون استعماله في غيره مع تأكيده بقرائن تدل على أنهم أرادوا معناه الأصلي - فهذا من أمحل المحال، مثاله قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ

تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤]، وقوله ﷺ: «**ما منكم إلا من سيكلمه ربُّه ليس بينه وبينه تُرْجُمانٌ يُترجِمُ له ولا حاجبٌ**»[(١)]. وقوله ﷺ: «**إنكم ترون ربّكم عَيانًا**». وهذا شأن أكثر نصوص الصفات إذا تأملها من شرح اللّه صدره لقبولها وفرح بما أنزل على الرسول منها يراها قد حفت من القرائن والمؤكدات بما ينفي عنها تأويل المتأول.

السابع: كل تأويل يعود على أصل النص بالإبطال فهو باطل، كتأويل قوله ﷺ: «**أيما امرأة نَكَحَتْ نفسَها بغيرِ إذنِ وليِّها فنكاحُها باطلٌ**»[(٢)]. بحمله على الأمة، فإن هذا التأويل مع شدة مخالفته لظاهر اللفظ، يرجع على أصل النص بالإبطال، وهو قوله: «**فإن دخَل بها فلها المهرُ بما استحلَّ من فرجِها**». ومهر الأمة إنما هو للسيد، فقالوا نحمله على المكاتبة، وهذا يرجع على أصل النص بالإبطال من وجه آخر؛ فإنه أتى فيه ب - (أي) الشرطية التي هي من أدوات العموم وأكدها ب - (ما) المقتضية تأكيد العموم، وأتى بالنكرة في سياق الشرط وهي تقتضي العموم، وعلق بطلان النكاح بالوصف المناسب له، المقتضي لوجود الحكم بوجوده، وهو نكاحها نفسها، ونبه على العلة المقتضية للبطلان، وهي افتياتها على وليها، وأكد الحكم بالبطلان مرة بعد مرة ثلاث مرات، فحمله على صورة لا تقع في العالم إلا نادرًا يرجع على مقصود النص بالإبطال، وأنت إذا تأملت عامة تأويلات الجهمية رأيتها من هذا الجنس، بل أشنع.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٣٩، ٧٤٤٣،)، ومسلم (٦٧/ ١٠١٦)، من حديث عديّ بن حاتم رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٦/ ٤٧، ٦٦، ١٦٥، ٢٦٠)، وأبو داود (٢٠٨٣، ٢٠٨٤)، والترمذي (١١٠٢) من حديث عائشة رضي الله عنها.

الثامن: تأويل اللفظ الذي له معنى ظاهر - لا يُفهم منه عند إطلاقه سواه - بالمعنى الخفي - الذي لا يطلع عليه إلا أفراد من أهل النظر والكلام - كتأويل لفظ (الأحد) الذي يفهمه الخاصة والعامة بالذات المجردة عن الصفات التي لا يكون فيها معنيان بوجه ما، فإن هذا لو أمكن ثبوته في الخارج لم يعرف إلا بعد مقدمات طويلة صعبة جدًّا، فكيف وهو محال في الخارج؟! وإنما يفرضه الذهن فرضًا ثم يستدل على وجوده الخارجي، فيستحيل وضع اللفظ المشهور عند كل أحد لهذا المعنى الذي هو في غاية الخفاء، وستمر بك نظائره إن شاء اللَّه تعالى.

التاسع: التأويل الذي يوجب تعطيل المعنى، الذي هو في غاية العلو والشرف، ويحطه إلى معنى دونه بمراتب كثيرة، وهو شبيه بعزل سلطان عن ملكه، وتوليته مرتبة دون الملك بكثير، مثاله تأويل الجهمية قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨]، وقوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ (٥٠)﴾ [النحل: ٥٠] ونظائره - بأنها فوقية الشرف، كقولهم: الدرهم فوق الفلس. و: الدينار فوق الدرهم.

فتأمل تعطيل المتأولين حقيقة الفوقية المطلقة، التي هي من خصائص الربوبية، وهي المستلزمة لعظمة الرب جل جلاله، وحطها إلى كون قدره فوق قدر بني آدم، وأنه أشرف منهم.

وكذلك تأويلهم علوه بهذا المعنى، وأنه كعلو الذهب على الفضة، وكذلك تأويلهم استواءه على عرشه بقدرته عليه، وأنه غالب له، فيا لله العجب! هل ضلَّت العقول، وتاهت الأحلام، وشكَّت العقلاء في كونه سبحانه غالبًا لعرشه قادرًا عليه، حتى يخبر به سبحانه في سبعة مواضع من

كتابه مطردة بلفظ واحد ليس فيها موضع واحد يراد به المعنى الذي أبداه المتأولون؟ وهذا التمدح والتعظيم كله لأجل أن يعرفنا أنه قد غلب عرشه وقدر عليه، وكان ذلك بعد خلق السموات والأرض؟ أفترى لم يكن سبحانه غالبًا للعرش قادرًا عليه في مدة تزيد على خمسين ألف سنة ثم تجدد له ذلك بعد خلق هذا العالم؟!!!

العاشر: تأويل اللفظ بمعنى لم يدل عليه دليل من السياق ولا معه قرينة تقتضيه، فإن هذا لا يقصده المبين الهادي بكلامه؛ إذ لو قصده لَحُفَّ بالكلام قرائن تدل على المعنى المخالف لظاهره حتى لا يوقع السامع في اللبس والخطأ، فإن اللَّه سبحانه أنزل كلامه بيانًا وهدى، فإذا أراد به خلاف ظاهره ولم تحف به قرائن تدل على المعنى الذي يتبادر غيره إلى فهم كل أحد لم يكن بيانًا ولا هدى.

فهذه بعض الوجوه التي يفرق بها بين التأويل الصحيح والباطل وباللَّه المستعان»[١].

* * *

(١) «الصواعق المرسلة» (١/ ١٩٠- ٢٠١).

بيان ما يقبل التأويل من الكلام وما لا يقبله

«لما كان وضع الكلام للدلالة على مراد المتكلم، وكان مراده لا يعلم إلا بكلامه انقسم كلامه ثلاثة أقسام:

أحدها: ما هو نص في مراده لا يحتمل غيره.

الثاني: ما هو ظاهر في مراده وإن احتمل أن يريد غيره.

الثالث: ما ليس بنص ولا ظاهر في المراد بل هو مجمل يحتاج إلى البيان.

فالأول: يستحيل دخول التأويل فيه، وتحميله التأويل كذب ظاهر على المتكلم، وهذا شأن عامة نصوص القرآن الصريحة في معناها، كنصوص آيات الصفات والتوحيد، وأن اللَّه سبحانه مكلم متكلم، آمرٌ ناهٍ، قائل مخبر موحي، حاكم واعد موعد، منبئ، هادٍ، داعٍ إلى دار السلام، فوق عباده، عَلِيٌّ على كل شيء، مستو على عرشه، ينزِل الأمر من عنده ويعرج إليه، وأنه فعال حقيقة، وأنه كل يوم في شأن، فعال لما يريد، وأنه ليس للخلق من دونه ولي ولا شفيع ولا ظهير، وأنه المنفرد بالربوبية والإلهية، والتدبير والقيومية، وأنه يعلم السر وأخفى، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، وأنه يسمع الكلام الخفي كما يسمع الجهر، ويرى ما في السموات والأرض، ولا يخفى عليه منها ذرة واحدة، وأنه على كل شيء قدير، فلا يخرج مقدور واحد عن قدرته البتة، كما لا يخرج عن علمه وتكوينه، وأن له ملائكة مدبرات بأمره للعالَم، تصعد وتنزل وتتحرك، وتنتقل من مكان إلى مكان، وأنه يذهب بالدنيا ويخرب هذا العالم ويأتي بالآخرة، ويبعث من في القبور،

جل جلاله، إلى أمثال ذلك من النصوص التي هي في الدلالة على مرادها، كدلالة لفظ العشرة والثلاثة على مدلوله، وكدلالة لفظ الشمس والقمر، والليل والنهار، والبر والبحر، والخيل والبغال، والإبل والبقر والغنم، والذكر والأنثى، على مدلولها، لا فرق بين ذلك البتة، ولهذا لما سلطت الجهمية التأويل على نصوص الصفات سلطت الباطنية التأويل على هذه الأمور وجعلوها أمثالاً مضروبة أريد بها خلاف حقائقها وظواهرها، وجعلوا القرآن والشرع كله مؤولا، ولهم في التأويل كتب مستقلة نظير كتب الجهمية في تأويل آيات الصفات وأحاديثها.

فهذا القسم إن سلط التأويل عليه عاد الشرع كله متأولاً؛ لأنه أظهر أقسام القرآن ثبوتًا وأكثرها ورودًا، ودلالة القرآن عليه متنوعة غاية التنوع، فقبول ما سواه للتأويل أقرب من قبوله بكثير.

القسم الثاني: ما هو ظاهر في مراد المتكلم، ولكنه يقبل التأويل، فهذا ينظر في وروده فإن أطرد استعماله على وجه واحد استحال تأويله بما يخالف ظاهره؛ لأن التأويل إنما يكون لموضع جاء نادرًا خارجًا عن نظائره منفردًا عنها فيؤول حتى يرد إلى نظائره وتأويل، هذا غير ممتنع لأنه إذا عرف من عادة المتكلم بإطراد كلامه في توارد استعماله معنى ألفه المخاطب، فإذا جاء موضع يخالفه رده السامع بما عهد من عرف المخاطب إلى عادته المطردة، هذا هو المعقول في الأذهان والفطر وعند كافة العقلاء.

وقد صرح أئمة العربية بأن الشيء إنما يجوز حذفه إذا كان الموضع الذي ادعي فيه حذفه قد استعمل فيه ثبوته أكثر من حذفه، فلا بد أن يكون موضع ادعاء الحذف عندهم صالحًا للثبوت ويكون الثبوت مع ذلك أكثر من

الحذف، حتى إذا جاء ذلك محذوفًا في موضع علم بكثرة ذكره في نظائره أنه قد أزيل من هذا الموضع، فحمل عليه، فهذا شأن من يقصد البيان والدلالة، وأما من يقصد التلبيس والتعمية فله شأن آخر.

والقصد أن الظاهر في معناه إذا اطرد استعماله في موارده مستويًا امتنع تأويله، وإن جاز تأويل ظاهر ما لم يطرد في موارد استعماله.

ومثال ذلك اطراد قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]. في جميع موارده، من أولها إلى آخرها على هذا اللفظ، فتأويله بـ (استولى) باطل، وإنما كان يصح أن لو كان أكثر مجيئه بلفظ (استولى) ثم يخرج موضع عن نظائره، ويرد بلفظ (استوى) فهذا كان يصح تأويله بـ (استولى)، فتفطَّنْ لهذا الموضع واجعله قاعدة فيما يمتنع تأويله من كلام المتكلم وما يجوز تأويله.

نظير هذا اطراد النصوص بالنظر إلى الله، هكذا: «**ترون ربكم**»، «**تنظرون إلى ربكم**»، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ۝٢٣﴾ [القيامة: ٢٣].

ولم يجئ في موضع واحد: ترون ثواب ربكم. فيُحمل عليه ما خرج عن نظائره.

ونظير ذلك اطراد قوله: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ﴾ [مريم: ٥٢]، ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ﴾ [القصص: ٦٢]، ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾ [الأعراف: ٢٢]، ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا﴾ [القصص: ٤٦]، ﴿إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ﴾ [النَّازعات: ١٦] ونظائرها، ولم يجئ في موضع واحد: أمرنا من يناديه، ولا: ناداه ملكنا. فتأويله بذلك عين المحال والباطل.

ونظير ذلك اطراد قوله: «**ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا فيقول**»[١]. في نحو ثلاثين حديثًا كلها مصرحة بإضافة النزول إلى الرب، ولم يجئ موضع واحد بقوله: ينزل ملك ربنا. حتى يحمل ما خرج عن نظائره عليه.

وإذا تأملت نصوص الصفات التي لا تسمح الجهمية بأن يسموها نصوصًا، فإذا احترموها قالوا: ظواهر سمعية وقد عارضتها القواطع العقلية - وجدتها كلها من هذا الباب.

ومما يقضي منه العجب أن كلام شيوخهم ومصنفيهم عندهم نص في مراده لا يحتمل التأويل، وكلام الموافقين عندهم نص لا يجوز تأويله، حتى إذا جاؤوا إلى كلام اللَّه ورسوله وقفوه على التأويل، ووقفوا التأويل عليه فقل ما شئت وحرف ما شئت، أفترى بيان هؤلاء لمرادهم أتم من بيان اللَّه ورسوله؟! أم كانوا مستولين على بيان الحقائق التي سكت اللَّه ورسوله عن بيانها؟! بل أولئك هم الجاهلون المتهوكون.

القسم الثالث: الخطاب المجمل الذي أحيل بيانه على خطاب آخر، فهذا أيضًا لا يجوز تأويله إلا بالخطاب الذي بينه، وقد يكون بيانه معه، وقد يكون منفصلاً عنه.

والمقصود: أن الكلام الذي هو عرضة التأويل قد يكون له عدة معان، وليس معه ما يبين مراد المتكلم، فهذا للتأويل فيه مجال واسع، وليس في كلام اللَّه ورسوله من هذا النوع شيء من الجمل المركبة، وإن وقع في الحروف المفتتح بها السور، بل إذا تأمل من بصره اللَّه طريقة القرآن والسنة وجدها متضمنة لرفع ما يوهمه الكلام من خلاف ظاهره، وهذا موضع لطيف

(١) أخرجه البخاري (١٠٩٤) ومسلم (١٦٨/ ٧٥٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

جدًّا في فهم القرآن، نشير إلى بعضه:

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]. رفع سبحانه توهم المجاز في تكليمه لكليمه بالمصدر المؤكد الذي لا يشك عربي القلب واللسان أن المراد به إثبات تلك الحقيقة، كما تقول العرب: مات موتًا. و: نزل نزولاً. ونظيره التأكيد بالنفس، والعين، و(كل)، و(أجمع)، والتأكيد بقوله: حقًّا، ونظائره.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ۝١﴾ [المجادلة: ١]. فلا يشك صحيح الفهم البتة في هذا الخطاب أنه نص صريح لا يحتمل التأويل بوجه في إثبات صفة السمع للرب تعالى حقيقة وأنه بنفسه سمع.

ومن ذلك قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٤٢﴾ [الأعراف: ٤٢]، فرفع توهم السامع أن المكلفين عملوا جميع الصالحات المقدورة والمعجوز عنها، كما يجوزه أصحاب تكليف ما لا يطاق، رفع هذا التوهم بجملة اعترض بها بين المبتدأ وخبره يزيل الإشكال، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ [النساء: ٨٤]، فلما أمره بالقتال أخبره أنه لا يكلف بغيره، بل إنما كلف نفسه ثم أتبع ذلك بقوله ﴿وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ لئلا يتوهم سامع أنه وإن لم يكلف بهم فإنه يهملهم ويتركهم.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ

وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴿٢١﴾﴾ [الطُّور: ٢١].

فتأمل كم في هذا الكلام من رفع إيهام وإزالة ما عسى أن يعرض للمخاطب من لبس:

فمنها قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾؛ لئلا يتوهم أن الاتباع في نسب، أو تربية، أو حرية، أو رق، وغير ذلك.

ومنها قوله: ﴿وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ﴾ [الطُّور: ٢١]؛ رفعًا لوهم متوهم أنه يحط الآباء إلى درجة الأبناء ليحصل الإلحاق والتبعية، فأزال هذا الوهم بقوله: ﴿وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ﴾ أي: ما نقصنا الآباء بهذا الاتباع شيئًا من عملهم، بل رفعنا الذرية إليهم؛ قرة لعيونهم، وإن لم يكن لهم أعمال يستحقون بها تلك الدرجة.

ومنها قوله: ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ [الطُّور: ٢١]، فلا يتوهم أن هذا الاتباع حاصل في أهل الجنة وأهل النار، بل هو للمؤمنين دون الكفار، فإن اللَّه سبحانه لا يعذب أحدًا إلا بكسبه، وقد يثيبه من غير كسب منه.

ومنها قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾﴾ [الأحزاب: ٣٢]، فلما أمرهن بالتقوى التي من شأنها التواضع ولين الكلام، نهاهن عن الخضوع بالقول؛ لئلا يطمع فيهن ذو المرض، ثم أمرهن بعد ذلك بالقول المعروف؛ رفعًا لتوهم الإذن في الكلام المنكر لما نهين عن الخضوع بالقول.

ومن ذلك قوله: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ [البقرة: ١٨٧]، فرفع توهم فهم الخيطين من الخيوط

بقوله: ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ [التَّكوير: ٢٨]، فأثبت لهم مشيئة، فلعل متوهمًا يتوهم استقلاله بها، وأنه إن شاء أتى بها، وإن شاء لم يأت بها، فأزال سبحانه ذلك بقوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، ثم لعل متوهمًا يتوهم أنه يشاء الشيء بلا حكمة ولا علم بمواقع مشيئته وحيث تصلح، فأزال ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠]، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾ [المدَّثر: ٥٤ - ٥٦].

ومن ذلك قوله: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١]، فلعل متوهمًا يتوهم أن اللّه سبحانه يجوز عليه ترك الوفاء بما وعد به، فأزال ذلك بقوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، فلما ذكر إتيانه سبحانه ربما توهم متوهم أن المراد إتيان بعض آياته، أزال هذا الوهم، ورفع الإشكال بقوله: ﴿أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ﴾، فصار الكلام مع هذا التقسيم والتنويع نصًا صريحًا في معناه لا يحتمل غيره.

وإذا تأملت أحاديث الصفات رأيت هذا لائحًا على صفحاتها، باديًا على ألفاظها، كقوله ﷺ: «**إنكم ترون ربكم عيانا كما ترى الشمس في الظهيرة صحوًا ليس دونها سحاب، وكما يرى القمر ليلة البدر ليس دونه**

سحاب»[١]، وقوله: «**ما منكم إلا مَن سيكلمُه ربُّه ليس بينه وبينه تُرجُمانٌ يترجمُ له، ولا حاجبٌ يَحْجُبه»**[٢]، فلما كان تكليم الملوك قد يقع بواسطة الترجمان ومن وراء الحجاب أزال هذا الوهم من الأفهام، وكذلك الحديث الآخر أنه ﷺ قرأ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤]، وضع إبهامه على أذنه والتي تليها على عينه؛ رفعًا لتوهم متوهم أن المراد بالسمع والبصر غير الصفتين المعلومتين، وأمثال هذا كثير في القرآن والسنة كما في الحديث الصحيح أنه ﷺ قال: «**يقبض اللَّه سماواته بيده والأرض باليد الأخرى ثم جعل رسول اللَّه** ﷺ يقبض يده ويبسطها»[٣]؛ تحقيقًا لإثبات اليد وإثبات صفة القبض، ومن هذا إشارته بأصبعه إلى السماء حين استشهد ربه تبارك وتعالى على الصحابة أنه قد بلغهم؛ تحقيقًا لإثبات صفة العلو وأن الرب الذي استشهده فوق العالم مستو على عرشه.

فهذه أمثلة يسيرة ذكرناها ليعرف الفهم المنصف القاصد للهدى والنجاة منها ما يقبل التأويل وما لا يقبله ولا عبرة بغيره، واللَّه المستعان»[٤].

* * *

(١) تقدم تخريجه.
(٢) تقدم تخريجه قبل ثلاثة أحاديث.
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) «الصواعق المرسلة» (١/ ٣٨٤- ٣٩٧).



الأسباب الجالبة للتأويل

«**وهي أربعة أسباب: اثنان من المتكلم، واثنان من السامع:**

فالسببان اللذان من المتكلم: إما نقصان بيانه، وإما سوء قصده.

واللذان من السامع: إما سوء فهمه، وإما سوء قصده.

فإذا انتفت هذه الأمور الأربعة انتفى التأويل الباطل، وإذا وجدت أو بعضها وقع التأويل، فنقول وباللَّه التوفيق:

لما كان المقصود من التخاطب التقاء قصد المتكلم وفهم المخاطب على محز واحد كان أصح الأفهام وأسعد الناس بالخطاب ما التقى فيه فهم السامع ومراد المتكلم، وهذا هو حقيقة الفقه الذي أثنى اللَّه ورسوله به على أهله وذم من فقده، فقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧]. وقال: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨]. وقال في الثناء على أهله: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٩٨].

وقال النبي ﷺ: «**مَن يُردِ اللهُ به خيرًا يفقِّهْهُ في الدِّينِ**»(١)، وقال لزياد بن لبيد: «**إن كنتُ لأعُدُّك مِن فقهاءِ المدينةِ**»(٢). فالفقه فهم مقصود المتكلم من كلامه، وهذا الأمر زائد على مجرد الفهم، فإذا كان المتكلم قد وفَّى البيان حقَّه، وقصد إفهام المخاطب وإيضاح المعنى له، وإحضاره في ذهنه، فوافق من المخاطب معرفة بلغة المتكلم، وعرفه المطرد في خطابه، وعلم من كمال نصحه أنه لا يقصد بخطابه التعمية والإلغاز، لم يخف عليه معنى

(١) أخرجه البخاري (٧١، ٣١١٦)، ومسلم (١٠٠/ ١٠٣٧)، من حديث معاوية ﷺ.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ١٦٠، ٢١٨، ٢١٩)، وابن ماجه (٤٠٤٨)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٥٣٦)، من حديث زياد بن لبيد الأنصاري ﷺ.

كلامه، ولم يقع في قلبه شك في معرفة مراده.

وإن كان المتكلم قد قصر في بيانه، وخاطب السامع بألفاظ مجملة تحتمل عدة معان، ولم يتبين له ما أراده منها، فإن كان عاجزًا أُتي السامع من عجزه، لا من قصده، وإن كان قادرًا عليه ولم يفعله حيث ينبغي فعله أُتي السامع من سوء قصده.

وقد يَحسن ذلك من المتكلم إذا كان في التعمية على المخاطب مصلحة راجحة فيتكلم بالمجمل ليجعل لنفسه سبيلاً إلى تفسيره بما يتخلص به، أو ليوهم السامع أنه أراد ما يخاف إفهامه إياه، أو لغير ذلك من الأسباب التي يَحسن معها التعريض والكناية والخطاب بضد البيان، وهذا من خاصة العقل، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

وفي الحديث: «**إنَّ في المعاريضِ لمندوحةٌ عن الكذبِ**»[١]. وقد عرَّض إبراهيمُ الخليلُ للجبار بقوله عن امرأته: «**هذه أختي**»[٢]. وعرَّض النبيُّ ﷺ للرجل الذي سأله في طريقه ممن أنتم فقال: «**نحن مِن ماءٍ**»[٣]. وعرَّض الصِّدِّيقُ لمن جعل يسأله في طريق الهجرة من هذا معك؟ فقال: «**هادٍ يهديني السبيلَ**»[٤].

(١) أخرجه البخاري في «كتابه المفرد في الأدب» (٨٥٧، ٨٨٥)، وابن أبي شيبة (٥/ ٢٨٢)، والطبراني في «الكبير» (١٨/ ٢٠١)، عن عمران بن حصين موقوف عليه، قال الحافظ في الفتح (ج١٠/ ٥٩٤): «وللمصنف في الأدب المفرد من طريق أبي عثمان النهدي عن عمر قال أما في المعاريض ما يكفي المسلم من الكذب والمعاريض».

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٥٧، ٣٣٥٧، ٣٣٥٨، ٥٠٨٤)، ومسلم (٢٣٧١/ ١٥٤)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) أخرجه ابن جرير في «تاريخه» (٢/ ٢٧).

(٤) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ١٢٢، ٢٨٧)، وابن أبي شيبة (١١/ ٥١٦)، من حديث أنس ﷺ.

فهذه المواضع ونحوها يحسن فيها ترك البيان، إما بكناية عن المقصود، أو تعريض عنه، والفرق بينهما أنه في الكناية قاصد لإفهام المخاطب مراده بلفظ أخفى لا يفهمه كل أحد، فيكنى عن المعنى الذي يريده بلفظ أخفى من لفظه الصريح، كما كنى اللّه سبحانه عن الجماع بالدخول، وبالمس، واللمس، والإفضاء، وكما يُكنى عن الفرج بالهِنِّ، ونحو ذلك.

وأما التعريض فإفهام السامع معنى ويراد خلافه، كالتعريض بالقذف، مثلاً، فإذا قال: ما أنا بزان. أفهم السامع نفي الزنا عن نفسه، ومراده إثباته للسامع، كما قال الحماسي:

لكنَّ قومي وإن كانوا ذَوي عَددٍ ... ليسوا مِن الشرِّ في شيءٍ وإن هانَا
كأنَّ ربَّك لم يخلُقْ لخشيتِه ... سواهمُ مِنِ جميعِ الناسِ إنسانَا

فإنه أوهم السامع تنزيههم عن الشرور، ووصفهم بخشية الله، ومرادُه وصفهم بالعجز والجبن.

ومثله قول الآخر:

قبيلةٌ لا يغدِرون بذمةٍ ... ولا يظلمون الناسَ حبةَ خردلِ
ولا يرِدُون الماءَ إلا عشيةً ... إذا صدر الورَّادُ عن كلِّ منهلِ

وأما السببان اللذان من السامع:

فأحدهما: سوء الفهم، فإن درجات الفهم متفاوتة في الناس أعظم تفاوت، فإن قوى الأذهان كقوى الأبدان، والناس متفاوتون في هذا وهذا تفاوتًا لا ينضبط، وقد سئل علي بن أبي طالب ﵁: هل خصكم رسول اللّه ﷺ بشيء دون الناس؟ فقال: «**لا والذي فلَق الحَبَّةَ وبرَأ النَّسَمةَ، إلا فهمًا يؤتيه اللهُ عبدًا في كتابه وما في هذه الصحيفة**». وكان فيها العقل، أي:

الديات، وفكاك الأسير[١].

وكان أبو بكر الصديق أفهم الأمة لكلام اللَّه ورسوله، ولهذا لما أشكل على عمر - مع قوة فهمه - قولُه تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧]، وقول النبي ﷺ للصحابة: «**إنكم تأتونه وتطوفون به**». فأورده عليه عام الحديبية، فقال له الصديق: أقال لك إنك تأتيه العام؟ قال: لا. قال: فإنك آتيه ومطوف به. فأجابه بجواب النبي ﷺ[٢].

وأشكل عليه قتالُ الصدِّيق لمانعي الزكاة، وقد قال النبي ﷺ: «**أُمرتُ أن أقاتِل الناسَ حتى يقولوا: لا إله إلا الله. فإذا قالوها عصَموا مني دماءهم وأموالهَم**». فقال: ألم يقل إلا بحقها؟ فإيتاء الزكاة من حقها[٣].

ولما أخبرهم النبي ﷺ: «**إن عبدًا خيَّره اللَّه بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله**». بكى أبو بكر، وقال: نفديك بأبنائنا وأمهاتنا. فكان رسول اللَّه ﷺ هو المخيَّر، وكان أبو بكر أعلم الأمة به[٤].

وكذلك فهم عمر بن الخطاب وعبد اللَّه بن عباس من سورة: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝﴾ أنها إعلام لرسول اللَّه ﷺ بحضور أجله[٥].

ولذلك كان الصحابة أعلم الأمة على الإطلاق، وبينهم وبين من بعدهم في العلم واليقين كما بينهم وبينهم في الفضل والدين، ولهذا كان ما فهمه

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٧٨/ ٤٣، ٤٤، ٤٥).

(٢) أخرجه البخاري (١٦٩٤، ١٦٩٥، ٢٧٣١) وانظر أطرافه.

(٣) تقدم تخريجه (ص١٨).

(٤) أخرجه البخاري (٤٦٦، ٣٦٥٤، ٣٩٠٤)، ومسلم (٢٣٨٢/ ٢)، من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٥) أخرجه البخاري (٣٦٢٧، ٤٢٩٤) وانظر أطرافه.

الصحابة من القرآن أولى أن يصار إليه مما فهمه مَن بعدهم، فانضاف حسن قصدهم إلى حسن فهمهم.

فلم يختلفوا في التأويل في باب معرفة الله، وصفاته، وأسمائه، وأفعاله، واليوم الآخر، ولا يُحفظ عنهم في ذلك خلاف، لا مشهور ولا شاذ.

فلما حدث بعد انقضاء عصرهم من ساء فهمه وساء قصده، وقعوا في أنواع من التأويل، بحسَب سوء الفهم وفساد القصد، وقد يجتمعان وقد ينفردان، وإذا اجتمعا تولد من بينهما جهل بالحق، ومعاداة لأهله، واستحلال ما حرم اللّه منهم.

وإذا تأملت أصول المذاهب الفاسدة؛ رأيت أربابها قد اشتقوها من بين هذين الأصلين، وحملهم عليها منافسة في رياسة، أو مال، أو توصل إلى عرض من أعراض الدنيا، تخطبه الآمال، وتتبعه الهمم، وتشرئب إليه النفوس، فيتفق للعبد شبهة وشهوة، وهما أصل كل فساد، ومنشأ كل تأويل باطل.

وقد ذم اللّه سبحانه من اتبع الظن وما تهوى الأنفس، فالظن الشبهات، وما تهوى الأنفس الشهوات، وهما اللذان ذكرهما في سورة «براءة» في قوله تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ [التوبة: ٦٩]، فذكر الاستمتاع بالخلاق، وهو التمتع بالشهوات، وهو نصيبهم الذي آثروه في الدنيا على حظهم من الآخرة، فالخوض الذي اتبعوا فيه الشبهات، فاستمتعوا بالشهوات وخاضوا

بالشبهات، فنشأ عنهما التفرق المذموم الذي ذم اللَّه أهله في كتابه، ونهى عباده المؤمنين عن التشبه بهم، فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ﴾ [آل عمران: ١٠٥، ١٠٦]، قال ابن عباس - رضي اللَّه عنهما -: «**تبيضُّ وجوه أهل السنة والائتلاف، وتسودُّ وجوه أهل الفرقة والاختلاف**»[(١)].

وأخبر سبحانه أن الحامل لهم على التفرق بعد البيان إنما هو البغي: فقال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ﴾ ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣]، فأخبر سبحانه أن الذين آمنوا هُدوا لما اختلف فيه أهل التأويل الباطل الذي أوقعهم في الاختلاف والتفرق، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾ [الشُّورى: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الجاثية: ١٦، ١٧].

فأخبر سبحانه أن المختلفين بالتأويل لم يختلفوا لخفاء العلم - الذي

---

(١) أورده السيوطي في «الدر» (٢/ ٢٩١) وعزاه لابن أبي حاتم في «تفسيره» وأبي نصر في «الإبانة» والخطيب في «تاريخه» واللالكائي في «السنة» عن ابن عباس. وفيه: «وتسود وجوه أهل البدعة».

جاءت به الرسل - عليهم، وإنما اختلفوا بعد مجيء العلم، وهذا كثير في القرآن، كقوله: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾[يونس: ٩٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾﴾ [البيّنة: ٤].

فهؤلاء المختلفون بالتأويل بعد مجيء الكتاب كلهم مذمومون، والحامل لهم على التفرق والاختلاف البغيُ وسوءُ القصد»[١].

* * * * *

---

(١) «الصواعق المرسلة» (١/ ٥٠٢ - ٥١٣).

فتح باب التأويل سبب فساد الدين وخراب الدنيا

«إذا تأمل المتأمل فساد العالم، وما وقع فيه من التفرق والاختلاف، وما دفع إليه أهل الإسلام - وجده ناشئًا من جهة التأويلات المختلفة المستعملة في آيات القرآن، وأخبار الرسول صلوات اللَّه وسلامه عليه، التي تعلق بها المختلفون، على اختلاف أصنافهم في أصول الدين وفروعه، فإنها أوجبت ما أوجبت من التباين، والتحارب، وتفرق الكلمة، وتشتت الأهواء، وتصدع الشمل، وانقطاع الحبل، وفساد ذات البين، حتى صار يُكفِّرُ ويلعنُ بعضُهم بعضًا، وترى طوائف منهم تسفك دماء الآخرين، وتستحل منهم أنفسهم، وحرمهم، وأموالهم، ما هو أعظم مما يرصدهم به أهل دار الحرب من المنابذين لهم.

فالآفات التي جنتها ويجنيها كل وقت أصحابها على الملة والأمة، من التأويلات الفاسدة أكثر من أن تحصى، أو يبلغها وصف واصف، أو يحيط بها ذكر ذاكر، ولكنها في جملة القول أصل كل فساد وفتنة، وأساس كل ضلال وبدعة، والمولدة لكل اختلاف وفرقة، والناتجة أسباب كل تباين وعداوة وبغضة، ومن عظيم آفاتها ومصيبة الأمة بها أن الأهواء المضلة والآراء المهلكة التي تتولد من قبلها لا تزال تنمو وتتزايد على ممر الأيام، وتعاقب الأزمنة، وليست الحال في الضلالات التي حدثت من قِبَل أصول الأديان الفاسدة كذلك، فإن فساد تلك معلومٌ عند الأمة، وأصحابها لا يطمعون في إدخالها في دين الإسلام، فلا تطمع أهل الملة اليهودية، ولا النصرانية، ولا المجوسية، ولا الثانوية، ونحوهم أن يدخلوا أصول مللهم

في الإسلام، ولا يدعوا مسلمًا إليه، ولا يدخلوه إليهم من بابه أبدًا، بخلاف فرقة التأويل، فإنهم يدعون المسلم من باب القرآن والسنة وتعظيمهما، وأن لنصوصهما تأويلاً لا يوجد إلا عند خواص أهل العلم والتحقيق، وأن العامة في عمى عنه، فضرر هذه الفرقة على الإسلام وأهله أعظم من ضرر أعدائه المنابذين له، ومثلهم ومثل أولئك كمثل قوم في حصن حاربهم عدو لهم فلم يطمع في فتح حصنهم والدخول عليهم، فعمد جماعة من أهل الحصن ففتحوه له وسلطوه على الدخول إليه، فكان مصاب أهل الحصن من قِبَلِهم!

وبالجملة فالأهواء المتولدة من قبل التأويلات الباطلة غير محصورة، ولا متناهية، بل هي متزايدة نامية، بحسب سوانح المتأولين، وخواطرهم، وما تخرجه إليه ظنونهم وأوهامهم، ولذلك لا يزال المستقصي عناء نفسه في البحث عن المقالات وتتبعها يهجم على أقوال من مذاهب أهل التأويل لم تكن تخطر له على بال، ولا تدور له في خيال، ويرى أمواجًا من زبد الصدور تتلاطم، ليس لها ضابط إلا سوانح وخواطر وهوس، تقذف به النفوس التي لم يؤيدها اللَّه بروح الحق، ولا أشرقت عليها شمس الهداية، ولا باشرت حقيقة الإيمان، فخواطرها وهوسها لا غاية له يقف عندها.

فإن أردت الإشراف على ذلك فتأمل كتب المقالات، والآراء، والديانات، تجد كل ما يخطر ببالك قد ذهب إليه ذاهبون، وصار إليه صائرون، ووراء ذلك ما لم يخطر لك على بال، وكل هذه الفرق تتأول نصوص الوحي على قولها، وتحمله على تأويلها.

ومع ذلك فتجد أولي العقول الضعيفة إلى الاستجابة لهم مسارعين، وفي القبول منهم راغبين، فهم يبادرون إلى أخذ ما يوردونه عليهم، وقبولهم إياه

عنهم، وعلى الدعوة إليه هم أشد حرصًا منهم على الدعوة إلى الحق، الذي جاءت به الرسل، ولم يوجد الأمر في قبول دعوة الرسل كذلك، بل قد علم ما لقي المرسلون في الدعوة إلى الله، من الجهد والمشقة، والمكابدة، ولقوا أشد العناء، والمكروه، وقاسوا أبلغ الأذى، حتى استجاب لهم من استجاب إلى الحق، الذي هو موجب الفطر، وشقيق الأرواح، وحياة القلوب، وقرة العيون، ونجاة النفوس، حتى إذا أطلع شيطان التأويل رأسه، وأبدى لهم عن ناجذيه، ورفع لهم علمًا من التأويل - طاروا إليه زرافات ووحدانًا، فهم إخوان السفلة الطَّغام[1]، أشباه الأنعام، بل أضل من الأنعام؛ طبل يجمعهم، وعصا تفرقهم، فانظر ما لقيه نوح وإبراهيم وصالح وهود وشعيب وموسى وعيسى ومحمد صلوات اللَّه وسلامه عليهم في الدعوة إلى الله، من الرد عليهم، والتكذيب لهم، وقصدهم بأنواع الأذى، حتى ظهرت دعوة من ظهرت دعوته منهم، وأقاموا دين الله، وانظر سرعة المستجيبين لدعاة الرافضة والقرامطة الباطنية، والجهمية، والمعتزلة، وإكرامهم لدعاتهم، وبذل أموالهم وطاعتهم لهم، من غير برهان أتوهم به، أو آية أروهم إياها، غير أنهم دعوهم إلى تأويل تستغربه النفوس، وتستطرفه العقول، وأوهموهم أنه من وظيفة الخاصة، الذين ارتفعوا به عن طبقة العامة، فالصائر إليه معدود في الخواص، مفارق للعوام، فلم تر شيئًا من المذاهب الباطلة والآراء الفاسدة المستخرجة بالتأويل قوبل الداعي إليه الآتي به أولاً بالتكذيب له والرد عليه، بل ترى المخدوعين المغرورين يجفلون إليه إجفالاً، ويأتون إليه أرسالاً، تؤزهم إليه شياطينهم ونفوسهم أزًّا، وتزعجهم

---

(١) الطَّغام: أرذال الناس وأوغادهم. اللسان(ط غ م).

إليه إزعاجًا، فيدخلون فيه أفواجًا، يتهافتون فيه تهافت الفراش في النار، ويثوبون إليه مثابة الطير إلى الأوكار.

ثم من عظيم آفاته: سهولة الأمر على المتأولين في نقل المدعوين عن مذاهبهم، وقبيح اعتقادهم إليهم، ونسخ الهدى من صدورهم، فإنهم ربما اختاروا للدعوة إليه رجلاً مشهورًا بالديانة والصيانة، معروفًا بالأمانة، حَسِنَ الأخلاق، جميلَ الهيئة، فصيحَ اللسان، صبورًا على التقشف والتزهد، مرتادًا لمخاطبة الناس على اختلاف طبقاتهم، ويتهيأ لهم مع ذلك من عيب أهل الحق والطعن عليهم والإزراء بهم ما يظفر به المفتش عن العيوب، فيقولون للمغرور المخدوع: وازن بين هؤلاء وهؤلاء، وحكِّم عقلك، وانظر إلى نتيجة الحق والباطل. فيتهيأ لهم بهذا الخداع ما لا يتهيأ بالجيوش، وما لا يطمع في الوصو ، إليه بدون تلك الجهة.

ثم من أعظم جنايات التأويل على الدين وأهله، وأبلغها نكاية فيه: أن المتأول يجد بابًا مفتوحًا لما يقصده، من تشتيت كلمة أهل الدين، وتبديد نظامهم، وسبيلاً سهلة إلى ذلك، فإنه يحتجز من المسلمين بإقراره معهم بأصل التنزيل، ويدخل نفسه في زمرة أهل التأويل، ثم بعد ذلك يقول ما شاء ويدعي ما أحب، ولا يقدر على منعه من ذلك لادعائه أن أصل التنزيل مشترك بينك وبينه، وأن عامة الطوائف المقرة به قد تأولت كل طائفة لنفسها تأويلاً ذهبت إليه، فهو يبدي نظير تأويلاتهم، ويقول: ليس لك أن تبدي في التأويل مذهبًا إلا ومثله سائغ لي، فما الذي أباحه لك وحظره علي؟ وأنا وأنت قد أقررنا بأصل التنزيل، واتفقنا على تسويغ التأويل، فَلِمَ كان تأويلك مع مخالفته لظاهر التنزيل سائغًا، وتأويلي أنا محرمًا؟ فتعلقه بهذا أبلغ مكيدة

يستعملها، وأنكى سلاح يحارب به.

فهذه الآفات وأضعافها إنما لقيها أهل الأديان من التأويل، فالتأويل هو الذي فرق اليهود إحدى وسبعين فرقة، والنصارى ثنيتين وسبعين فرقة، وهذه الأمة ثلاثًا وسبعين فرقة»[١].

* * * *

(١) «الصواعق المرسلة» (١/ ٣٤٨- ٣٥٥).

فساد اليهود من جهة التأويل

قال تعالى: ﴿وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأعراف: ١٦٣].

«فأما اليهود فإنهم بسبب التأويلات التي استخرجوها بآرائهم من كتبهم؛ صاروا فرقًا مختلفة بعد اتفاقهم على أصل الدين والإيمان بما في التوراة والزبور وكتب أنبيائهم التي يدرسونها ويؤمنون بها.

وبسبب التأويلات الباطلة، مسخوا قردة وخنازير، وجرى عليهم من الفتن والمحن ما قصه الله.

وبالتأويل الباطل عبدوا العجل، حتى آل أمرهم إلى ما آل.

وبالتأويل الباطل فارقوا حكم التوراة، واستحلوا المحارم، وارتكبوا المآثم، فهم أئمة التأويل والتحريف والتبديل، والناس لهم فيه تبع، فلا تبلغ فرقة مبلغهم فيه.

وبالتأويل استحلوا محارم اللّه بأقل الحيل.

وبالتأويل قتلوا الأنبياء، فإنهم قتلوهم وهم مصدقون بالتوراة وبموسى.

وبالتأويل والتحريف حلت بهم المثلات، وتتابعت عليهم العقوبات، وقطعوا في الأرض أممًا، وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله.

وبالتأويل دفعوا نبوة عيسى ومحمد صلوات اللّه وسلامه عليهما، وقد

استهلت التوراة وكتب الأنبياء بالبشارة بهما وظهورهما، ولا سيما البشارات بمحمد ﷺ، فإنها متظاهرة في كتبهم بصفة رسول اللّه ﷺ، ومخرجه، ومبعثه، ودعوته، وكتابه، وصفة أمته، وسيرتهم، وأحوالهم، بحيث كان علماؤهم لما رأوه وشاهدوه عرفوه معرفتهم أبناءهم، ومع هذا فجحدوا أمره ﷺ، ودفعوه على قومه، وظهوره بالتأويلات التي استخرجوها من تلك الألفاظ التي تضمنتها البشارات، حتى التبس الأمر بذلك على أتباعهم، ومن لا يعلم الكتاب إلا أماني، وخيل إليهم بتلك التأويلات التي هي من جنس تأويلات الجهمية، والرافضة، والقرامطة، أنه ليس هو، فسطوا على تلك البشارات بكتمان ما وجدوا السبيل إلى كتمانه، وما غلبوا عن كتمانه حرفوا لفظه عن ما هو عليه، وما عجزوا عن تحريف لفظه حرفوا معناه بالتأويل.

وورثهم أشباههم من المنتسبين إلى الملة في هذه الأمور الثلاثة، وكان عصبة الوارثين لهم في ذلك ثلاث طوائف: الرافضة، والجهمية، والقرامطة، فإنهم اعتمدوا في النصوص المخالفة لضلالهم هذه الأمور الثلاثة، واللّه سبحانه ذمهم على التحريف والكتمان، والتحريف نوعان:

تحريف اللفظ: وهو تبديله.

وتحريف المعنى: وهو صرف اللفظ عنه إلى غيره مع بقاء صورة اللفظ»[1].

* * *

(١) «الصواعق المرسلة» (١/ ٣٥٥- ٣٥٨).

فساد النصارى من جهة التأويل

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ [مريم: ٣٦، ٣٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ [المائدة: ٧٧].

«وأما فساد دين النصارى من جهة التأويل، فأول ذلك ما عرض في التوحيد، الذي هو عمود الدين، فإن سلف المثلثة قالوا في الربوبية بالتثليث، وحديث الأقانيم، والأب، والابن، وروح القدس، ثم اختلف من بعدهم في تأويل كلامهم اختلافًا تباينوا به غاية التباين، وإنما عرض لهم هذا الاختلاف من جهة التأويلات الباطلة، وكانت حالهم فيما جنت عليهم التأويلات الباطلة أفسد حالاً من اليهود، فإنهم لم يصلوا بتأويلهم إلى ما وصل إليه عباد الصليب من نسبة الرب تعالى إلى ما لا يليق به.

ثم دفعوا بالتأويلات إلى إبطال شرائع التوراة، فأبطلوا الختان، واستحلوا السبت، واستباحوا الخنزير، وعطلوا الغسل من الجنابة.

وكان الذي فتح عليهم أبواب هذه التأويلات بولس، فاستخف جماعة من ضعفاء العقول، فقبلوا منه تلك التأويلات، ثم أورثت الخلاف بينهم، حتى آل أمرهم إلى ما آل إليه، من انسلاخهم عن شريعة المسيح في التوحيد والعمليات.

ثم تأولت اليعقوبية أتباع يعقوب البراذعي تأويلاً، فتأولت النسطورية

أتباع نسطور بن عبرة فتأولت الملكية وهم الذين على دين الملك عبرة.

فاضمحل الدين وخرجوا منه خروج الشعرة من العجين، فلو تأملت تأويلاتهم لرأيتها، والله، من جنس تأويلات الجهمية، والرافضة، والمعتزلة، ورأيت الجميع من مشكاة واحدة، ولولا خوف التطويل لذكرنا لك تلك التأويلات، ليعلم أنها وتأويلات المحرفين من هذه الأمة:

رضيعَي لبانٍ ثَدْيَ أمٍّ تقاسَمَا   بأسْحَمَ داجٍ عَوْضُ لا نَتَفَرَّقُ

ولو رأيت تأويلاتهم لنصوص التوراة في الأخبار، والأمر والنهي، لقلت: إن أهل التأويل الباطل من هذه الأمة، إنما تلقوا تأويلاتهم عنهم. وعجبت من تشابه قلوبهم، وقوع الحافر على الحافر، والخاطر على الخاطر.

ولم يزل أمر بني إسرائيل مستقيمًا حتى فشا فيهم المولَّدون أبناء سبايا الأمم فاشتقوا لهم الرأي وسلطوا التأويل على نصوص التوراة، فضلوا وأضلوا.

وهؤلاء النصارى لم يزل أمرهم بعد المسيح على منهاج الاستقامة حتى ظهر فيهم المتأولون فأخذت عرى دينهم تنتقض، والمتأولون يجتمعون مجمعًا بعد مجمع، وفي كل مجمع يخرج لهم تأويلات تناقض الدين الصحيح، فيلقاهم أصحاب المجمع الآخر، ولا يوافقوا لهم عليها حتى جمعهم الملك قسطنطين من أقطار الأرض، فبلغوا ثلاثمائة وثمانية عشر بتركًا وأسقفًا، فتأولوا لهم هذه الأمانة التي بأيديهم اليوم، وأبطلوا من دين المسيح ما شاءوا، وزادوا فيه ونقصوا ووضعوا من الشرائع ما شاءوا، كل ذلك بالتأويل، وقد ذكروا الظواهر التي تأولوها، وبالتأويل جعلوا اللَّه ثالث

ثلاثة، وجعلوا المسيح ابنه، وجعلوه هو الله، فقالوا هذا وهذا وهذا! تعالى اللَّه عن قولهم، وبالتأويل تركوا الختان، وأباحوا الخنزير، وهم يعلمون أن المسيح اختتن، وحرم الخنزير، وبالتأويل نقلوا الصوم من محله إلى الفصل الربيعي، وزادوه حتى صار خمسين يومًا، وبالتأويل عبدوا الصليب والصور، وبالتأويل فارقوا حكم التوراة والإنجيل»(١).

* * *

(١) «الصواعق المرسلة» (١/ ٣٥٨ - ٣٦٤).

ثمرة الإيمان بالأسماء والصفات

«من أجلِّ المعارف وأشرفها، وكل اسم من أسمائه سبحانه له صفة خاصة، فإن أسماءه أوصاف مدح وكمال، وكل صفة لها مقتض وفعل، إما لازم وإما متعد، ولذلك الفعل تعلق بمفعول هو من لوازمه، وهذا في خلقه وأمره، وثوابه وعقابه، كل ذلك آثار الأسماء الحسنى وموجباتها.

ومن المُحال تعطيل أسمائه عن أوصافها ومعانيها، وتعطيل الأوصاف عما تقتضيه وتستدعيه من الأفعال، وتعطيل الأفعال عن المفعولات.

كما أنه يستحيل تعطيل مفعوله عن أفعاله، وأفعاله عن صفاته، وصفاته عن أسمائه، وتعطيل أسمائه وأوصافه عن ذاته.

وإذا كانت أوصافه صفات كمال، وأفعاله حِكَماً ومصالح، وأسماؤه حُسْنَى، ففرض تعطيلها عن موجباتها مستحيل في حقه، ولها ينكر سبحانه على من عطله عن أمره ونهيه، وثوابه وعقابه، وأنه بذلك نسبه إلى ما لا يليق به، وإلى ما يتنزه عنه، وأن ذلك حكم سيء ممن حكم به عليه، وأن من نسبه إلى ذلك فما قدره حق قدره، ولا عظمه حق تعظيمه، كما قال تعالى في حق منكري النبوة، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١].

وقال تعالى في حق منكري المعاد، والثواب والعقاب: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزُّمر: ٦٧]، وقال في حق من جوز عليه التسوية بين المختلفين، كالأبرار والفجار، والمؤمنين والكفار: ﴿أَمْ حَسِبَ

ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: ٢١]، فأخبر أن هذا حكم سيئ لا يليق به، تأباه أسماؤه وصفته، وقال سبحانه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦] عن هذا الظن والحسبان الذي تأباه أسماؤه وصفاته.

ونظائر هذا في القرآن كثيرة ينفي فيها عن نفسه خلاف موجب أسمائه وصفاته؛ إذ ذلك مستلزم تعطيلها عن كمالها ومقتضياتها، فاسمه الحميد المجيد، يمنع ترك الإنسان سدًى مهملاً معطلاً، لا يؤمر ولا ينهى، ولا يثاب ولا يعاقب، وكذلك اسمه الحكيم يأبى ذلك، وكذلك اسمه الملك، واسمه الحي، يمنع أن يكون معطلاً من الفعل، بل حقيقة الحياة الفعل، فكل حي فعال، وكونه سبحانه خالقًا قيومًا من موجبات حياته ومقتضياتها، واسمه السميع البصير يوجب مسموعًا ومرئيًا، واسمه الخالق يقتضي مخلوقًا، وكذلك الرزاق، واسمه الملك يقتضي مملكة، وتصرفًا وتدبيرًا، وإعطاءً ومنعًا، وإحسانًا وعدلاً، وثوابًا وعقابًا، واسم البر المحسن المعطي المنان، ونحوها تقتضي آثارها وموجباتها.

إذا عرف هذا فمن أسمائه سبحانه الغفار التواب العفو، فلا بد لهذه الأسماء من متعلقات، ولا بد من جناية تغفر، وتوبة تقبل، وجرائم يعفى عنها، ولا بد لاسمه الحكيم، من متعلق يظهر فيه حكمه؛ إذ اقتضاء هذه الأسماء لآثارها كاقتضاء اسم الخالق الرزاق المعطي المانع، للمخلوق والمرزوق والمعطى والممنوع، وهذه الأسماء كلها حسنى.

والرب تعالى يحب ذاته وأوصافه وأسماءه، فهو عفو يحب العفو، ويحب المغفرة، ويحب التوبة، ويفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم فرح يخطر بالبال.

وكان تقدير ما يغفره، ويعفو عن فاعله، ويحلم عنه، ويتوب عليه ويسامحه - من موجب أسمائه وصفاته، وحصول ما يحبه ويرضاه من ذلك، وما يحمد به نفسه، ويحمده به أهل سمواته وأهل أرضه، ما هو من موجبات كماله، ومقتضى حمده.

وهو سبحانه الحميد المجيد، وحمده ومجده يقتضيان آثارهما، ومن آثارهما مغفرة الزلات، وإقالة العثرات، والعفو عن السيئات، والمسامحة على الجنايات، مع كمال القدرة على استيفاء الحق، والعلم منه سبحانه بالجناية، ومقدار عقوبتها، فحلمه بعد علمه، وعفوه بعد قدرته، ومغفرته عن كمال عزته وحكمته.

كما قال المسيح ﷺ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١١٨﴾ [المائدة: ١١٨]؛ أي: فمغفرتك عن كمال قدرتك وحكمتك، لست كمن يغفر عجزًا، ويسامح جهلاً بقدر الحق، بل أنت عليم بحقك، قادر على استيفائه، حكيم في الأخذ به»[(١)].

فمن تأمل سريان آثار الأسماء والصفات في العالم وفي الأمر - تبين له أن مصدر قضاء هذه الجنايات من العبيد وتقديرها هو من كمال الأسماء والصفات والأفعال.

وغايتها أيضًا مقتضى حمده ومجده كما هو مقتضى ربوبيته وإلهيته، فله

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٤١٧ - ٤١٩).

في كل ما قضاه وقدره الحكمة البالغة، والآيات الباهرة، والتعرفات إلى عباده بأسمائه وصفاته، واستدعاء محبتهم له وذكرهم له، وشكرهم له، وتعبدهم له بأسمائه الحسنى.

إذ كل اسم فله تعبد مختص به علمًا ومعرفة وحالاً، وأكمل الناس عبودية المتعبد بجميع الأسماء والصفات، التي يطلع عليها البشر، فلا تحجبه عبودية اسم عن عبودية اسم آخر، كمن يحجبه التعبد باسمه القدير عن التعبد باسمه الحليم الرحيم، أو يحجبه عبودية اسمه المعطي عن عبودية اسمه المانع، أو عبودية اسمه الرحيم والعفو والغفور عن اسمه المنتقم، أو التعبد بأسماء التودد والبر واللطف والإحسان عن أسماء العدل والجبروت والعظمة والكبرياء.

فالجبار في صفة الرب سبحانه ترجع إلى ثلاثة معانٍ: الملك، والقهر، والعلو، فإن النخلة إذا طالت وارتفعت وفاتت الأيدي سميت جبارة، ولهذا جعل سبحانه اسمه الجبار مقرونًا بالعزيز والمتكبر، وكل واحد من هذه الأسماء الثلاثة تضمن الاسمين الآخرين، وهذه الأسماء الثلاثة نظير الأسماء الثلاثة، وهي الخالق، البارئ، المصور، فالجبار المتكبر يجريان مجرى التفصيل لمعنى اسم العزيز، كما أن البارئ المصور تفصيل لمعنى اسم الخالق، فالجبار من أوصافه يرجع إلى كمال القدرة والعزة والملك؛ ولهذا كان من أسمائه الحسنى، وأما المخلوق فاتصافه بالجبار ذم له ونقص، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥]، وقال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥]؛ أي: مسلط تقهرهم وتكرههم على الإيمان، وفي الترمذي وغيره عن النبي ﷺ: «**يحشر**

الجبارون والمتكبرون يوم القيامة أمثال الذر يطؤهم الناس»[1].

وهذه طريقة الكمل من السائرين إلى الله، وهي طريقة مشتقة من قلب القرآن، قال اللَّه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، والدعاء بها يتناول دعاء المسألة، ودعاء الثناء ودعاء التعبد، وهو سبحانه يدعو عباده إلى أن يعرفوه بأسمائه وصفاته، ويثنوا عليه بها ويأخذوا بحظهم من عبوديتها، وهو سبحانه يحب موجب أسمائه وصفاته، فهو عليم يحب كل عليم، جواد يحب كل جواد، وتر يحب الوتر، جميل يحب الجمال، عفو يحب العفو وأهله، حييٌّ يحب الحياء وأهله، بر يحب الأبرار، شكور يحب الشاكرين، صبور يحب الصابرين، حليم يحب أهل الحلم، فلمحبته سبحانه للتوبة، والمغفرة، والعفو، والصفح - خلق من يغفر له، ويتوب عليه، ويعفو عنه، وقدَّر عليه ما يقتضي وقوع المكروه والمبغوض له، ليترتب عليه المحبوب له المرضي له، فتوسطه كتوسط الأسباب المكروهة المفضية إلى المحبوب.

فربما كان مكروه العباد إلى محبوبها، سبب ما مثله سبب.

والأسباب مع مسبباتها أربعة أنواع:

محبوب يفضي إلى محبوب.

ومكروه يفضي إلى محبوب.

وهذان النوعان عليهما مدار أقضيته وأقداره، سبحانه، بالنسبة إلى ما يحبه وما يكرهه.

والثالث: مكروه يفضي إلى مكروه.

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٧٩)، والترمذي (٢٤٩٢) وقال الترمذي: «حسن صحيح».

والرابع: محبوب يفضي إلى مكروه.

وهذان النوعان ممتنعان في حقه سبحانه؛ إذ الغايات المطلوبة من قضائه وقدره الذي ما خلق ما خلق ولا قضى ما قضى إلا لأجل حصولها - لا تكون إلا محبوبة للرب، مرضية له.

والأسباب الموصلة إليها منقسمة إلى:

محبوب له، ومكروه له:

فالطاعات والتوحيد أسباب محبوبة له، موصلة إلى الإحسان والثواب المحبوب له أيضًا.

والشرك والمعاصي أسباب مسخوطة له، موصلة إلى العدل المحبوب له، وإن كان الفضل أحب إليه من العدل، فاجتماع العدل والفضل أحب إليه من انفراد أحدهما عن الآخر، لما فيهما من كمال الملك، والحمد وتنوع الثناء، وكمال القدرة.

فإن قيل: كان يمكن حصول هذا المحبوب من غير توسط المكروه؟

قيل: هذا سؤال باطل؛ لأن وجود الملزوم بدون لازمه ممتنع، والذي يقدر في الذهن وجوده شيء آخر سوى غير هذا المطلوب المحبوب للرب، وحكم الذهن عليه بأنه محبوب للرب حكم بلا علم، بل قد يكون مبغوضًا للرب تعالى لمنافاته حكمته، فإذا حكم الذهن عليه بأنه محبوب له كان نسبة له إلى ما لا يليق به ويتعالى عنه.

فليعط اللبيب هذا الموضع حقه من التأمل، فإنه مزلة أقدام، ومضلة أفهام، ولو أمسك عن الكلام من لا يعلم لقل الخلاف، وهذا المشهد أجل من أن يحيط به كتاب، أو يستوعبه خطاب، وإنما أشرنا إليه أدنى إشارة تطلع

على ما وراءها، واللَّه الموفق والمعين[1].

● **أركان العلم والمعرفة:**

معرفة الأسماء الأربعة: الأول والآخِر، والظاهر والباطن، هي أركان العلم والمعرفة، فحقيق بالعبد أن يبلغ في معرفتها إلى حيث ينتهي به قواه وفهمه.

واعلم أن لك أنت أولاً وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا، بل كل شيء فله أول وآخر، وظاهر وباطن، حتى الخطرة، واللحظة، والنفس، وأدنى من ذلك، وأكثر.

فأولية اللَّه ﷻ سابقة على أولية كل ما سواه، وآخريته ثابتة بعد آخرية كل ما سواه، فأوليته: سبقُه لكل شيء. وآخريته: بقاؤه بعد كل شيء.

وظاهريته سبحانه: فوقيته وعلوه على كل شيء. ومعنى الظهور يقتضي العلو، وظاهر الشيء: هو ما علا منه وأحاط بباطنه. وبطونه سبحانه: إحاطته بكل شيء، بحيث يكون أقرب إليه من نفسه، وهذا قرب غير قرب المحب من حبيبه، هذا لون وهذا لون.

فمدار هذه الأسماء الأربعة على الإحاطة، وهي إحاطتان: زمانية ومكانية، فإحاطة أوليته وآخريته، بالقبل والبعد، فكل سابق انتهى إلى أوليته، وكل آخر انتهى إلى آخريته، فأحاطت أوليته وآخريته بالأوائل والأواخر، وأحاطت ظاهريته وباطنيته، بكل ظاهر وباطن فما من ظاهر إلا واللَّه فوقه، وما من باطن إلا واللَّه ودونه، وما من أول إلا واللَّه قبله، وما من آخر إلا واللَّه بعده، فالأول قِدَمُه، والآخر دوامه وبقاؤه، والظاهر علوه

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٤١٧ - ٤٢١).

وعظمته، والباطن قربه ودنوه، فسبق كل شيء بأوليته، وبقي بعد كل شيء بآخريته، وعلا على كل شيء بظهوره، ودنا من كل شيء ببطونه، فلا تُواري منه سماءٌ سماءً، ولا أرض أرضًا، ولا يحجب عنه ظاهر باطنًا، بل الباطن له ظاهر، والغيب عنده شهادة، والبعيد منه قريب، والسر عنده علانية.

فهذه الأسماء الأربعة تشتمل على أركان التوحيد:

فهو الأول في آخريته، والآخر في أوليته، والظاهر في بطونه، والباطن في ظهوره، لم يزل أولاً وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا.

والتعبد بهذه الأسماء رتبتان:

الرتبة الأولى: أن تشهد الأولية منه تعالى في كل شيء، والآخرية بعد كل شيء، والعلو والفوقية فوق كل شيء، والقرب والدنو دون كل شيء، فالمخلوق يحجبه مثله عما هو دونه، فيصير الحاجب بينه وبين المحجوب، والرب جل جلاله ليس دونه شيء أقرب إلى الخلق منه.

والمرتبة الثانية: من التعبد أن يعامل كل اسم بمقتضاه، فيعامل سبقه تعالى بأوليته لكل شيء، وسبقه بفضله وإحسانه الأسباب كلها بما يقتضيه ذلك من إفراده، وعدم الالتفات إلى غيره والوثوق بسواه والتوكل على غيره، فمن ذا الذي شفع لك في الأزل حيث لم تكن شيئًا مذكورًا، حتى سماك باسم الإسلام، ووسمك بسمة الإيمان، وجعلك من أهل قبضة اليمين، وأقطعك في ذلك الغيب عمالات المؤمنين، فعصمك عن العبادة للعبيد، وأعتقك من التزام الرق لمن له شكل ونديد، ثم وجه وجهة قلبك إليه سبحانه دون ما سواه؟

فاضْرَعْ إلى الذي عصمك من السجود للصنم، وقضى لك بقدم الصدق

في القِدَم، أن يتم عليك نعمةً هو ابتدأها، وكانت أوليتها منه بلا سبب منك، واسْمُ بهمتك عن ملاحظة الاختيار، ولا تركنن إلى الرسوم والآثار، ولا تقنع بالخسيس الدون، وعليك بالمطالب العالية، والمراتب السامية التي لا تنال إلا بطاعة الله، فإن اللَّه سبحانه قضى أن لا ينال ما عنده إلا بطاعته، ومن كان لله كما يريد كان اللَّه له فوق ما يريد، فمن أقبل إليه تلقاه من بعيد، ومن تصرف بحوله وقوته ألان له الحديد، ومن ترك لأجله أعطاه فوق المزيد، ومن أراد مراده الديني أراد ما يريد، ثم اسْمُ بسرك إلى المطلب الأعلى، واقصر حبك وتقربك على من سبق فضله وإحسانه إليك كل سبب منك، بل هو الذي جاد عليك بالأسباب، وهيأ لك وصرف عنك موانعها، وأوصلك بها إلى غايتك المحمودة، فتوكل عليه وحده، وعامله وحده، وآثر رضاه وحده، واجعل حبه ومرضاته هو كعبة قلبك التي لا تزال طائفًا بها، مستلمًا لأركانها، واقفًا بملتزمها.

فيا فوزك ويا سعادتك إن اطلع سبحانه على ذلك من قلبك، ماذا يفيض عليك من ملابس نعمه وخلع أفضاله؟! اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد، سبحانك وبحمدك.

ثم تعبد له باسمه الآخِر، بأن تجعله وحده غايتك التي لا غاية لك سواه، ولا مطلوب لك وراءه، فكما انتهت إليه الأواخر، وكان بعد كل آخر، فكذلك اجعل نهايتك إليه، فإن إلى ربك المنتهى، إليه انتهت الأسباب والغايات، فليس وراءه مرمى ينتهي إليه، وقد تقدم التنبيه على ذلك وعلى التعبد باسمه الظاهر.

وأما التعبد باسمه الباطن، فإذا شهدت إحاطته بالعوالم، وقرب العبيد

منه، وظهور البواطن له وبدو السرائر، وأنه لا شيء بينه وبينها، فعامله بمقتضى هذا الشهود، وطهِّر له سريرتك، فإنها عنده علانية، وأصلح له غيبك، فإنه عنده شهادة، وَزكِّ له باطنك، فإنه عنده ظاهر.

فانظر كيف كانت هذه الأسماء الأربعة جماع المعرفة باللَّه وجماع العبودية له، فهنا وقفت شهادة العبد مع فضل خالقه ومنته، فلا يرى لغيره شيئًا إلا به، وبحوله وقوته، وغاب بفضل مولاه الحق عن جميع ما منه هو مما كان يستند إليه، أو يتحلى به، أو يتخذه عقدة، أو يراه ليوم فاقته، أو يعتمد عليه في مهمة من مهماته، فكل ذلك من قصور نظره، وانعكاسه عن الحقائق والأصول إلى الأسباب والفروع، كما هو شأن الطبيعة والهوى، وموجب الظلم والجهل.

والإنسان ظلوم جهول، فمن جلى اللَّه سبحانه صدأ بصيرته، وكمل فطرته، وأوقفه على مبادئ الأمور وغاياتها ومناطها، ومصادرها ومواردها، أصبح كمفلس حقًّا من علومه وأعماله، وأحواله وأذواقه، يقول: أستغفر اللَّه من علمي ومن عملي. أي: من انتسابي إليهما وغيبتي بهما عن فضل من ذكرني بهما، وابتدأني بإعطائهما، من غير تقدم سبب مني يوجب ذلك، فهو لا يشهد غير فضل مولاه، وسبق منته ودوامه.

فيثيبه مولاه على هذه الشهادة العالية بحقيقة الفقر الأوسط بين الفقرين الأدنى والأعلى - ثوابين:

أحدهما: الخلاص من رؤية الأعمال، حيث كان يراها ويتمدح بها ويستكثرها، فيستغرق بمطالعة الفضل غائبًا عنها، ذاهبًا عنها، فانيًا عن رؤيتها.

الثواب الثاني: أن يقطعه عن شهود الأحوال، أي: عن شهود نفسه فيها

متكثرة بها فإن الحال محله الصدر، والصدر بيت القلب والنفس، فإذا نزل العطاء في الصدر للقلب ثبتت النفس؛ لتأخذ نصيبها من العطاء، فتتمدح به، وتدل به وتزهو، وتستطيل وتقرر آنيتها؛ لأنها جاهلة ظالمة، وهذا مقتضى الجهل والظلم.

فإذا وصل إلى القلب نور صفة المنة، وشهد معنى اسمه المنان، وتجلى سبحانه على قلب عبده بهذا الاسم مع اسمه الأول، ذهل القلب والنفس به، وصار العبد فقيرًا إلى مولاه، بمطالعة سبق فضله الأول، فصار مقطوعًا عن شهود أمر أو حال ينسبه إلى نفسه، بحيث يكون بشهادته لحاله مفصومًا مقطوعًا عن رؤية عزة مولاه وفاطره، وملاحظة صفاته، فصاحب شهود الأحوال منقطع عن رؤية منة خالقه وفضله، ومشاهدة سبق الأولية للأسباب كلها، وغائب بمشاهدة عزة نفسه عن عزة مولاه، فينعكس هذا الأمر في حق هذا العبد الفقير، وتشغله رؤية عزة مولاه ومنته ومشاهدة سبقه بالأولية عن حال يعتز بها العبد، أو يشرف بها، وكذلك الرجوع إلى السبق بمطالعة الفضل يمحص من أدناس مطالعات المقامات، فالمقام ما كان راسخًا فيه، والحال ما كان عارضًا لا يدوم، فمطالعات المقامة وتشوفه بها، وكونه يرى نفسه صاحب مقام قد حققه وكمله فاستحق أن ينسب إليه ويوصف به، مثل أن يقال: زاهد، صابر، خائف، راج، محب راض، فكونه يرى نفسه مستحقًّا بأن تضاف المقامات إليه، وبأن يوصف بها على وجه الاستحقاق لها - خروج عن الفقر إلى الغنى، وتعد لطور العبودية، وجهل بحق الربوبية، فالرجوع إلى السبق بمطالعة الفضل، يستغرق همة العبد ويمحصه، ويطهره من مثل هذه الأدناس، فيصير مصفى بنور اللّٰه سبحانه عن رذائل هذه

الأرجاس[١].

- **فضل الدعاء باسم الحي القيوم:**

وفي تأثير قوله ﷺ : «**يا حيُّ يا قيوم، برحمتك أستغيث**»[٢]. في دفع هذا الداء مناسبة بديعة، فإن صفة الحياة متضمنة لجميع صفات الكمال مستلزمه لها، وصفة القيومية متضمنة لجميع صفات الأفعال، ولهذا كان اسم اللَّه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى، هو اسم الحي القيوم، والحياة التامة تضاد جميع الأسقام والآلام، ولهذا لما كملت حياة أهل الجنة لم يلحقهم همٌّ ولا غمٌّ، ولا حَزَنٌ، ولا شيء من الآفات، ونقصان الحياة تضر بالأفعال، وتنافي القيومية، فكمال القيومية لكمال الحياة، فالحي المطلق التام الحياة لا تفوته صفة الكمال البتة، والقيوم لا يتعذر عليه فعل ممكن البتة.

فالتوسل بصفة الحياة والقيومية له تأثير في إزالة ما يضاد الحياة ويضر بالأفعال.

ونظير هذا التوسل توسل النبي ﷺ إلى ربه بربوبيته لجبريل وميكائيل وإسرافيل أن يهديه لما اختُلف فيه من الحق بإذنه، فإن حياة القلب بالهداية، وقد وكل اللَّه سبحانه هؤلاء الأملاك الثلاثة بالحياة، فجبريل موكل بالوحي الذي هو حياة القلوب، وميكائيل بالقَطْر الذي هو حياة الأبدان والحيوان، وإسرافيل بالنفخ في الصور الذي هو سبب حياة العالم، وعود الأرواح إلى أجسادها.

---

(١) «طريق الهجرتين» (١/ ٤٦-٥٠).

(٢) دعاء المكروب أخرجه الترمذي (٣٥٢٤)، من حديث أنس، قال: «كان النبيّ ﷺ إذا كرَبَه أمرٌ قال . . .» فذكره. صحيح، وانظر «الصحيحة» (٣١٨٢).

فالتوسل إليه سبحانه بربوبية هذه الأرواح العظيمة الموكلة بالحياة له تأثير في حصول المطلوب.

والمقصود: أن لاسم الحي القيوم تأثيرًا خاصًا في إجابة الدعوات، وكشف الكربات، وفي السنن و«**صحيح أبي حاتم**» مرفوعًا: «**اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين**: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾[البقرة: ١٦٣] **وفاتحة آل عمران** ﴿الم ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾». قال الترمذي: «**حديث صحيح**»[١].

وفي السنن و«**صحيح ابن حبان**» أيضًا من حديث أنس ﷺ: أن رجلًا دعا فقال: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، المنان، بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم. فقال النبي ﷺ: «**لقد دعا اللهَ باسمِه الأعظمِ الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى**»[٢].

ولهذا كان النبي ﷺ إذا اجتهد في الدعاء قال: «**يا حيُّ يا قيومُ**»[٣].

وفي قوله: «**اللهمَّ رحمتَك أرجو، فلا تكلْني إلى نفسي طرفةَ عينٍ، وأصلِحْ لي شأني كلَّه، لا إله إلا أنت**»[٤]. من تحقيق الرجاء لمن الخير كله بيده، والاعتماد عليه وحده، وتفويض الأمر إليه والتضرع إليه، أن يتولى إصلاح شأنه، ولا يكله إلى نفسه، والتوسل إليه بتوحيده - مما له تأثير قوي

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٩٦)، والترمذي (٣٤٧٨)، (٣٣٨٩)، من حديث أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية رضي الله عنها، صحيح ابن حبان (ج٣/ ١٧٥).

(٢) أخرجه أبو داود (١٤٩٦)، والترمذي (٣٤٧٨)، وابن ماجه (٣٨٥٥) من حديث أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية رضي الله عنها.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٤٣٦)، والبيهقي في «الاعتقاد» (ص٨٢)، من حديث أبي هريرة، ﷺ.

(٤) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٤٢)، والبخاري في «كتابه المفرد في الأدب» (٧٠١)، وأبو داود (٥٠٩٠)، من حديث أبي بكرة ﷺ.

في دفع هذا الداء وكذلك قوله: «**اللهُ ربي، لا أشركُ به شيئًا**»[(١)].

- **التوسل إلى الله بجميع أسمائه:**

وأما حديث ابن مسعود ﷺ: «**اللهم إني عبدُك، ابنُ عبدِك**»[(٢)]. ففيه من المعارف الإلهية وأسرار العبودية ما لا يتسع له كتاب، فإنه يتضمن الاعتراف بعبوديته، وعبودية آبائه وأمهاته، وأن ناصيته بيده يصرفها كيف يشاء، فلا يملك العبد دونه لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، لأن مَن ناصيته بيد غيره فليس إليه شيء من أمره، بل هو عانٍ[(٣)] في قبضته، ذليل تحت سلطان قهره.

وقوله: «**ماضٍ في حكمُك، عدلٌ فيَّ قضاؤك**». متضمن لأصلين عظيمين عليهما مدار التوحيد:

أحدهما: إثبات القدر، وأن أحكام الرب تعالى نافذة في عبده، ماضية فيه، لا انفكاك له عنها، ولا حيلة له في دفعها.

الثاني: أنه سبحانه عدلٌ في هذه الأحكام، غير ظالم لعبده، بل لا يخرج فيها عن موجب العدل والإحسان، فإن الظلم سببه حاجة الظالم، أو جهله، أو سفهه، فيستحيل صدوره ممن هو بكل شيء عليم، ومن هو غني عن كل شيء، وكل شيء فقير إليه، ومن هو أحكم الحاكمين، فلا تخرج ذرة من مقدوراته عن حكمته وحمده، كما لم تخرج عن قدرته ومشيئته، فحكمته

---

(١) أخرجه أبو داود (١٥٢٥)، وابن ماجه (٣٨٨٢) من حديث أسماء بنت عميس رضي الله عنها، وصححه الألباني رحمه الله.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٣٩١، ٤٥٢)، وابن حبان (٩٧٢)، من حديث ابن مسعود س، وصححه الألباني رحمه الله.

(٣) والعاني: الأسير والخاضع والعبد «اللسان» (ع ن ى).

نافذة حيث نفذت مشيئته وقدرته، ولهذا قال نبي اللَّه هود صلى اللَّه على نبينا وعليه وسلم، وقد خوفه قومه بآلهتهم: ﴿إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٦﴾ [هود: ٥٤ - ٥٦]؛ أي: مع كونه سبحانه آخذ بنواصي خلقه وتصريفهم كما يشاء، فهو على صراط مستقيم، لا يتصرف فيهم إلا بالعدل والحكمة، والإحسان والرحمة، فقوله: «**ماضٍ فيَّ حكمُك**». مطابق لقوله: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾. وقوله: «**عدلٌ فيَّ قضاؤك**». مطابق لقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

ثم توسل إلى ربه بأسمائه التي سمى بها نفسه، ما علم العباد منها وما لم يعلموا، ومنها ما استأثره في علم الغيب عنده، فلم يُطْلِعْ عليه ملكًا مقربًا، ولا نبيًا مرسلاً، وهذه الوسيلة أعظم الوسائل وأحبها إلى الله، وأقربها تحصيلاً للمطلوب.

ثم سأله أن يجعل القرآن لقلبه كالربيع الذي يرتع فيه الحيوان، وكذلك القرآن ربيع القلوب، وأن يجعله شفاءَ همِّه وغمِّه، فيكون له بمنزلة الدواء الذي يستأصل الداء، ويعيد البدن إلى صحته واعتداله، وأن يجعله لحزنه كالجلاء الذي يجلو الطبوع والأصدية وغيرها، فأحرى بهذا العلاج إذا صدق العليل في استعماله أن يزيل عنه داءه، ويعقبه شفاءً تامًا وصحة وعافية، واللَّه الموفق[(١)].

القرآن كلام الله وقد تجلى اللَّه فيه لعباده بصفاته: «فتارة يتجلى في جلباب الهيبة والعظمة والجلال، فتخضع الأعناق، وتنكسر النفوس، وتخشع

---

(١) «زاد المعاد» (٤/ ٢٠٤- ٢٠٧).

الأصوات، ويذوب الكبر كما يذوب الملح في الماء.

وتارة يتجلى في صفات الجمال والكمال، وهو كمال الأسماء، وجمال الصفات وجمال الأفعال الدال على كمال الذات، فيستنفد حبه من قلب العبد قوة الحب كلها، بحب ما عرفه من صفات جماله، ونعوت كماله، فيصبح فؤاد عبده فارغًا إلا من محبته، فإذا أراد منه الغيرُ أن يعلِّق تلك المحبة به أبى قلبُه وأحشاؤه ذلك كل الإباء، كما قيل:

يُرادُ مِن القلبِ نسيانكم وتأبى الطباعُ على الناقلِ

فتبقى المحبة له طبعًا لا تكلفًا.

وإذا تجلى بصفات الرحمة والبر واللطف والإحسان انبعثت قوة الرجاء من العبد، وانبسط أمله وقوي طمعه، وسار إلى ربه، وحادي الرجاء يحدو ركاب سيره، وكلما قوي الرجاء جد في العمل، كما أن الباذر كلما قوي طمعه في المغل غلق أرضه بالبذر وإذا ضعف رجاؤه قصر في البذر.

وإذا تجلى بصفات العدل والانتقام والغضب، والسخط والعقوبة، انقمعت النفس الأمارة، وبطلت أو ضعفت قواها من الشهوة والغضب، واللهو واللعب، والحرص على المحرمات، وانقبضت أعنة رعوناتها فأحضرت المطية حظها من الخوف والخشية والحذر.

وإذا تجلى بصفات الأمر والنهي، والعهد والوصية، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وشرع الشرائع، انبعثت منها قوة الامتثال والتنفيذ لأوامره والتبليغ لها، والتواصي بها وذكرها وتذكرها، والتصديق بالخبر، والامتثال للطلب، والاجتناب للنهى.

وإذا تجلى بصفة السمع والبصر والعلم، انبعث من العبد قوة الحياء،

فيستحي من ربه أن يراه على ما يكره، أو يسمع منه ما يكره، أو يخفي في سريرته ما يمقته عليه، فتبقى حركاته وأقواله وخواطره موزونة بميزان الشرع، غير مهملة ولا مرسلة تحت حكم الطبيعة والهوى.

وإذا تجلى بصفات الكفاية والحسب، والقيام بمصالح العباد، وسَوق أرزاقهم إليهم، ودفع المصائب عنهم، ونصره لأوليائه، وحمايته لهم، ومعيته الخاصة لهم - انبعثت من العبد قوة التوكل عليه، والتفويض إليه، والرضا به، وما في كل ما يجريه على عبده ويقيمه مما يرضى به هو سبحانه.

والتوكل معنى يلتئم من علم العبد بكفاية الله، وحسن اختياره لعبده، وثقته به، ورضاه بما يفعله به ويختاره له.

وإذا تجلى بصفات العز والكبرياء، أعطت نفسه المطمئنة ما وصلت إليه من الذل لعظمته، والانكسار لعزته، والخضوع لكبريائه، وخشوع القلب والجوارح له، فتعلوه السكينة والوقار، في قلبه ولسانه، وجوارحه وسمته، ويذهب طيشه وقوته وحدته.

وجماع ذلك: أنه سبحانه يتعرف إلى العبد بصفات إلهيته تارة، وبصفات ربوبيته تارة.

فيوجب له شهود صفات الإلهية المحبة الخاصة، والشوق إلى لقائه، والأنس والفرح به، والسرور بخدمته، والمنافسة في قربه، والتودد إليه بطاعته، واللهج بذكره، والفرار من الخلق إليه، ويصير هو وحده همه دون ما سواه.

ويوجب له شهود صفات الربوبية التوكل عليه، والافتقار إليه، والاستعانة به، والذل والخضوع والانكسار له.

وكمال ذلك أن يشهد ربوبيته في إلهيته، وإلهيته في ربوبيته، وحمده في ملكه، وعزه في عفوه، وحكمته في قضائه وقدره، ونعمته في بلائه، وعطاءه في منعه، وبره ولطفه وإحسانه ورحمته في قيوميته، وعدله في انتقامه، وجوده وكرمه في مغفرته وستره وتجاوزه، ويشهد حكمته ونعمته في أمره ونهيه، وعزه في رضاه وغضبه، وحلمه في إمهاله، وكرمه في إقباله، وغناه في إعراضه.

وأنت إذا تدبرت القرآن وأجرته من التحريف وأن تقضي عليه بآراء المتكلمين، وأفكار المتكلفين أشهدك ملكًا قيومًا فوق سماواته على عرشه، يدبر أمر عباده يأمر وينهى، ويرسل الرسل وينزل الكتب، ويرضى ويغضب، ويثيب ويعاقب، ويعطي ويمنع، ويعز ويذل، ويخفض ويرفع يرى من فوق سبع ويسمع، ويعلم السر والعلانية، فعال لما يريد، موصوف بكل كمال، منزه عن كل عيب، لا تتحرك ذرة فما فوقها إلا بإذنه، ولا تسقط ورقه إلا بعلمه، ولا يشفع زهد عنده إلا بإذنه ليس لعباده من دونه ولى ولا شفيع»[1].

- **شرح حديث الاستعاذة:**

«فيما دل عليه قوله ﷺ: «اللهمَّ إني أعوذُ برضاك من سخطِك، وأعوذُ بعفوِك من عقوبتِك، وأعوذُ بك منك، لا أحصي ثناءَ عليك، أنت كما أثنيت على نفسِك»[2] من تحقيق القدر وإثباته، وما تضمنه الحديث من الأسرار العظيمة:

- **قد دل هذا الحديث العظيم القدر على أمور:**

منها: أنه يستعاذ بصفات الرب كما يستعاذ بذاته، وكذلك يستغاث بصفاته

(١) «الفوائد» (١/ ٦٩- ٧١).

(٢) أخرجه مسلم (١١١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

كما يستغاث بذاته، كما في الحديث: «**يا حيُّ يا قيومُ، يا بديعُ السمواتِ والأرضِ، يا ذا الجلالِ والإكرامِ، لا إله إلا أنت، برحمتِك أستغيثُ، أصلِحْ لي شأني كلَّه، ولا تكلْني إلى نفسي طرفةَ عينٍ، ولا إلى أحدٍ من خلقِك**»[١]، وكذلك قوله في الحديث الآخر: «**أعوذُ بعزتِك أن تضلَّني**»[٢]، وكذلك استعاذته بكلمات اللَّه التامات، وبوجهه الكريم وتعظيمه، وفي هذا ما يدل على أن هذه صفات ثابتة وجودية؛ إذ لا يستعاذ بالعدم، وأنها قائمة به غير مخلوقة؛ إذ لا يستعاذ بالمخلوق، وهو احتجاج صحيح، فإن رسول اللَّه ﷺ لا يستعيذ بمخلوق، ولا يستغيث به، ولا يدل أمته على ذلك.

ومنها: أن العفو من صفات الفعل القائمة به، وفيه رد على من زعم أن فعله عين مفعوله، فإن للمفعول مخلوق ولا يستعاذ به.

ومنها: أن بعض صفاته وأفعاله سبحانه أفضل من بعض، فإن المستعاذ به أفضل من المستعاذ منه، وهذا كما أن صفة الرحمة أفضل من صفة الغضب، ولذلك كان لها الغلبة والسبق، ولذلك كلامه سبحانه هو صفته، ومعلوم أن كلامه الذي يثني على نفسه به ويذكر فيه أوصافه وتوحيده أفضل من كلامه الذي يذم به أعداءه ويذكر أوصافهم، ولهذا كانت سورة «**الإخلاص**» أفضل من سورة «**تبت**»، وكانت تعدل ثلث القرآن دونها، وكانت (آية الكرسي) أفضل آية في القرآن، ولا تصغ إلى قول من غلُظ حجابه أن الصفات قديمة، والقديم لا يتفاضل، فإن الأدلة السمعية والعقلية تُبطل قوله، وقد جعل سبحانه ما كان من الفضل والعطاء والخير وأهل السعادة بيده اليمنى، وما

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٢٤٥)، بنحوه، والترمذي (٣٥٢٤) من حديث أنس رضي الله عنه.
(٢) أخرجه مسلم (٧٠٧٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

كان من العدل والقبض بيده الأخرى، ولهذا جعل أهل السعادة في قبضة اليمنى، وأهل الشقاوة في القبضة الأخرى، والمقسطون على منابر من نور عن يمينه، والسموات مطويات بيمينه، والأرض بالأرض.

ومنها: أن الغضب والرضاء، والعفو والعقوبة، لما كانت متقابلة استعاذ بأحدهما من الآخر، فلما جاء إلى الذات المقدسة التي لا ضد لها ولا مقابل، قال: «**وأعوذ بك منك**»[(١)]. فاستعاذ بصفة الرضى من صفة الغضب، وبفعل العفو من فعل العقوبة، وبالموصوف بهذه الصفات والأفعال منه، وهذا يتضمن كمال الإثبات للقدر والتوحيد بأوجز لفظ وأخصره، فإن الذي يستعاذ منه من الشر وأسبابه هو واقع بقضاء الرب تعالى وقدره، وهو المنفرد بخلقه وتقديره وتكوينه، فما شاء كان، وما لم يشاء لم يكن، فالمستعاذ منه إما وصفه، وإما فعله، وإما مفعوله الذي هو أثر فعله، والمفعول ليس إليه نفع ولا ضر، ولا يضر إلا بإذن خالقه، كما قال تعالى في أعظم ما يتضرر به العبد، وهو السحر: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: ١٠٢].

فالذي يستعاذ منه هو بمشيئته وقضائه وقدرته، وإعاذته منه وصرفه عن المستعيذ إنما هو بمشيئته أيضًا وقضائه وقدره، فهو المعيذ من قدره بقدره، ومن ما يصدره عن مشيئته وإرادته بما يصدره عن مشيئته وإرادته، والجميع واقع بإرادته الكونية القدرية، فهو يعيذ من إرادته بإرادته، إذ الجميع خلقه وقدره وقضاؤه، فليس هناك خلق لغيره فيعيذ منه هو، بل المستعاذ منه خلق له، فهو الذي يعيذ عبده من نفسه بنفسه، فيعيذه مما يريده به بما يريده به، فليس هناك أسباب مخلوقة لغيره يستعيذ منها المستعيذ به، كما يستعيذ من

(١) أخرجه مسلم (١١١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

رجل ظلمه وقهره برجل أقوى أو نظيره، فالمستعاذ منه هو الذنوب وعقوباتها، والآلام وأسبابها، والسبب من قضائه، والمسبَّب من قضائه، والإعاذة بقضائه، فهو الذي يعيذ من قضائه بقضائه، فلم يعذ إلا بما قدره وشاءه، وذلك الاستعاذة منه وشاءها، وقدر الإعاذة وشاءها، فالجميع قضاؤه وقدره، وموجب مشيئته، فنتجت هذه الكلمة، التي لو قالها غير الرسول لبادر المتكلم الجاهل إلى إنكارها وردها: إنه لا يملك الضر والنفع، والخلق والأمر، والإعاذة - غيرُك، وأن المستعاذ منه هو بيدك وتحت تصرفك، ومخلوق من خلقك، فما استعذت إلا بك، ولا استعذت إلا منك، وهذا نظير قوله في الحديث الآخر: «**لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك**»[1]. فهو الذي ينجي من نفسه بنفسه، ويعيذ من نفسه بنفسه، وكذلك الفرار يفر عبده منه إليه، وهذا كله تحقيق للتوحيد والقدر، وأنه لا رب غيره، ولا خالق سواه، ولا يملك المخلوق لنفسه ولا لغيره ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، بل الأمر كله لله، ليس لأحد سواه منه شيء، كما قال تعالى لأكرم خلقه عليه وأحسنهم: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

وقال - جوابًا لمن قال: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ﴾ -: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤] قل: فالملك كله له، والأمر كله له، والحمد كله له، والشفاعة كلها له، والخير كله في يديه. وهذا تحقيق تفرده بالربوبية والألوهية، فلا إله غيره، ولا رب سواه، ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٧)، ومسلم (٧٠٥٧) من حديث البراء بن عازب ﷺ.

مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦۚ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزُّمر: ٣٨]، ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [الأنعام: ١٧]، ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ [فاطر: ٢].

فاستعذْ به منه، وفرَّ منه إليه، واجعل لجأك منه إليه، فالأمر كله له، لا يملك أحد معه منه شيئًا، فلا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يذهب بالسيئات إلا هو، ولا تتحرك ذرة فما فوقها إلا بإذنه، ولا يضر سُمٌّ ولا سحر ولا شيطان ولا حيوان ولا غيره إلا بإذنه ومشيئته، يصيب بذلك من يشاء، ويصرفه عمن يشاء، فأعرف الخلق به وأقواهم بتوحيده من قال في دعائه: «**وأعوذُ بك منك**». فليس للخلق معاذ سواه، ولا مستعاذ منه إلا وهو ربه وخالقه ومليكه، وتحت قهره وسلطانه، ثم ختم الدعاء بقوله: «**لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيتَ على نفسِك**»(١). اعترافًا بأن شأنه وعظمته ونعوت كماله وصفاته أعظم وأجلُّ من أن يحصيها أحد من الخلق، أو بلغ أحد حقيقة الثناء عليه غيره سبحانه، فهو توحيد في الأسماء والصفات والنعوت، وذاك توحيد في العبودية والتأله، وإفراده تعالى بالخوف والرجاء والاستعاذة، وهذا مضاد الشرك، وذاك مضاد التعطيل، وباللَّه التوفيق»(٢).

* * *

(١) تقدم تخريجه.

(٢) «شفاء العليل» (١/ ٢٧٢، ٢٧٣).

اللوازم التي تلزم المعطلة النفاة

«إن اللوازم التي تلزم المعطلة النفاة، شر من اللوازم التي تلزم المشبهة المحضة - دع المثبتة لحقائق الأسماء والصفات المنزهين اللَّه عن شبه المخلوقات - فإنهم يلزمهم عشرة لوازم:

أحدها: جحد الصانع ونفيه.

الثاني: سلب كماله عنه.

الثالث: وصفه بالنقائص والعيوب.

الرابع: تشبيهه بالجمادات الناقصة.

الخامس: تشبيهه بالمعدومات، بل بالممتنعات.

السادس: الطعن فيما أخبر به عن نفسه وأخبرت به عنه رسله.

السابع: القدح في علم الرسول، أو بيانه، أو نصحه، أو الجمع.

الثامن: إفساد الفطر والعقول وتغييرها عما فطرت عليه، كإفساد الشياطين لها بالشرك واتباع الغي.

التاسع: إلقاء العداوة بين الوحي والعقل، ودعوى تناقضهما وتعارضهما.

العاشر: القدح في شهادة العقل، فإنهم إذا جوزوا معارضته ومناقضته لكلام اللَّه ورسوله فقد قدحوا فيه أعظم القدح، وجرحوه أبين الجرح، ويكفي في جرحه والطعن في شهادته إقرارهم بأنه مضاد مناقض لما بعث اللَّه به رسوله وأنزل به كتابه»[١].

* * *

---

(١) «الصواعق المرسلة» (٤/ ١٢٣٤ - ١٢٣٥).

قواعد أهل السنة الخالصة في الأسماء والصفات

«ما يجري صفة أو خبرًا على الرب تبارك وتعالى أقسام:

أحدها: ما يرجع إلى نفس الذات؛ كقولك: ذات، وموجود، وشيء.

الثاني: ما يرجع إلى صفات معنوية؛ كالعليم، والقدير، والسميع.

الثالث: ما يرجع إلى أفعاله؛ نحو الخالق، والرزاق.

الرابع: ما يرجع إلى التنزيه المحض، ولا بد من تضمنه ثبوتًا؛ إذ لا كمال في العدم المحض، كالقدوس، والسلام.

الخامس: ولم يذكره أكثر الناس، وهو الاسم الدال على جملة أوصاف عديدة، لا تختص بصفة معينة، بل هو دال على معناه، لا على معنى مفرد، نحو المجيد، العظيم، الصمد.

فإن **المجيد**: من اتصف بصفات متعددة، من صفات الكمال، ولفظه يدل على هذا، فإنه موضوع للسعة والكثرة والزيادة، فمنه: استمجد المَرْخ والعَفَار[(١)]. و: أمجد الناقة علفًا.

ومنه: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝١٥﴾ [البروج: ١٥] صفة للعرش لسعته وعظمه وشرفه.

وتأمل كيف جاء هذا الاسم، مقترنًا بطلب الصلاة من اللَّه على رسوله،

---

(١) العفار: شجرة يتخذ منها الزَّنْد، والمَرْخ والعَفَار، هما شجرتان فيهما نار ليس في غيرهما من الشجر، ويسوَّى من أغصانهما الزناد فيقتدح بها. والعرب تضرب المثل بهما في الشرف العالي فتقول: في كل الشجر نار، واستمجد المَرْخ والعَفَار. استَمْجد: استكثر. وذلك أن هاتين الشجرتين من أكثر الشجر ناراً، وزنادهما أسرع الزناد وَرْيًا. وانظر: اللسان (ع ف ر). ومجموع الفتاوى (١٧/ ٢٤٢).

كما علمناه ﷺ؛ لأنه في مقام طلب المزيد والتعرض لسعة العطاء وكثرته ودوامه، فأتى في هذا المطلوب باسم تقتضيه، كما تقول: اغفر لي وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم. ولا يحسن: إنك أنت السميع البصير. فهو راجع إلى المتوسَّل إليه بأسمائه وصفاته، وهو من أقرب الوسائل وأحبها إليه.

ومنه الحديث الذي في المسند والترمذي: «**أَلِظُّوا بيا ذا الجلال والإكرام**»[1].

ومنه: «**اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المنان، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام**». فهذا سؤال له وتوسل إليه وبحمده، وأنه الذي لا إله إلا هو المنان، فهو توسل إليه بأسمائه وصفاته، وما أحق ذلك بالإجابة، وأعظمه موقعًا عند المسئول، وهذا باب عظيم من أبواب التوحيد، أشرنا إليه إشارة، وقد فتح لمن بصره اللَّه تعالى تفسير الاسم الإلهي العظيم والصمد.

ولنرجع إلى المقصود، وهو وصفه تعالى بالاسم المتضمن لصفات عديدة، فالعظيم من اتصف بصفات كثيرة من صفات الكمال.

وكذلك الصمد، قال ابن عباس: «**هو السيد الذي كمل في سؤدده**»[2].

وقال أبو وائل: «**هو السيد الذي انتهى سؤدده**»[3].

وقال عكرمة: «**الذي ليس فوقه أحد**». وكذلك قال الزجاج: «**الذي**

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ١٧٧) من حديث ربيعة بن عامر ﷺ، وأخرجه الترمذي (٣٥٢٥) من حديث أنس ﷺ.

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٣٠/ ٣٤٦).

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٣٠/ ٣٤٦).

ينتهي إليه السؤدد، فقد صمد له كل شيء». وقال ابن الأنباري: «**لا خلاف بين أهل اللغة أن الصمد: السيد الذي ليس فوقه أحد، الذي يصمد إليه الناس في حوائجهم وأمورهم**».

واشتقاقه يدل على هذا، فإنه من الجمع والقصد الذي اجتمع القصد نحوه، واجتمعت فيه صفات السؤدد، وهذا أصله في اللغة، كما قال:

ألا بَكَّر النَّاعي بخيرِ بني أسدْ   بعمرو بنِ يربوعٍ وبالسيدِ الصمدْ

والعرب تسمي أشرافها بالصمد؛ لاجتماع قصد القاصدين إليه، واجتماع صفات السيادة فيه.

السادس: صفة تحصل من اقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر، وذلك قدر زائد على مفرديهما، نحو: الغني الحميد، العفو القدير، الحميد المجيد، وهكذا عا‹ الصفات المقترنة والأسماء المزدوجة في القرآن، فإن الغنى صفة كمال، والحمد كذلك، واجتماع الغنى مع الحمد كمال آخر، فله ثناء من غناه، وثناء من حمده، وثناء من اجتماعهما.

وكذلك العفو القدير، والحميد المجيد، والعزيز الحكيم، فتأمله فإنه من أشرف المعارف»[1].

* * * * *

(١) «بدائع الفوائد» (١/ ١٦٦- ١٦٩).

- **تسليط صفات السلب على أسماء اللَّه تعالى:**

«وأما صفات السلب المحض فلا تدخل في أوصافه تعالى، إلا أن تكون متضمنة لثبوت، كالأحد المتضمن لانفراده بالربوبية والإلهية، والسلام المتضمن لبراءته من كل نقص يضاد كماله.

وكذلك الإخبار عنه بالسلوب هو لتضمنها ثبوتًا، كقوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فإنه متضمن لكمال حياته وقيوميته، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨] متضمن لكمال قدرته، وكذلك قوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ [يونس: ٦١] متضمن لكمال علمه.

وكذلك قوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾ [الإخلاص: ٣] متضمن لكمال صمديته وغناه، وكذلك قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾ [الإخلاص: ٤] متضمن لتفرده بكماله، وأنه لا نظير له، وكذلك قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] متضمن لعظمته، وأنه جل عن أن يدرك بحيث يحاط به، وهذا مطرد في كل ما وصف به نفسه من السلوب.

ويجب أن تُعلم هنا أمورٌ:

أحدها: أن ما يدخل في باب الإخبار عنه تعالى أوسع مما يدخل في باب أسمائه وصفاته؛ كالشيء، والموجود، والقائم بنفسه، فإنه يخبر به عنه، ولا يدخل في أسمائه الحسنى وصفاته العليا.

الثاني: أن الصفة إذا كانت منقسمة إلى كمال ونقص، لم تدخل بمطلقها في أسمائه، بل يطلق عليه منها كمالها، وهذا كالمريد، والفاعل، والصانع،

فإن هذه الألفاظ لا تدخل في أسمائه، ولهذا غلط من سماه بالصانع عند الإطلاق، بل هو الفعال لما يريد، فإن الإرادة والفعل والصنع منقسمة، ولهذا إنما أطلق على نفسه من ذلك أكمله فعلًا وخبرًا.

الثالث: أنه لا يلزم من الإخبار عنه بالفعل مقيدًا أن يشتق له منه اسم مطلق، كما غلط فيه بعض المتأخرين، فجعل من أسمائه الحسنى المضل، الفاتن، الماكر، تعالى الله.

الرابع: أن أسماءه ﷻ الحسنى هي أعلام وأوصاف، والوصف بها لا ينافي العلمية، بخلاف أوصاف العباد، فإنها تنافي علميتهم؛ لأن أوصافهم مشتركة، فنافتها العلمية المختصة، بخلاف أوصافه.

الخامس: أن الاسم من أسمائه له دلالات؛ دلالة على الذات والصفة بالمطابقة، ودلالة على أحدهما بالتضمن، ودلالة على الصفة الأخرى باللزوم.

السادس: أن أسماءه الحسنى لها اعتباران: اعتبار من حيث الذات، واعتبار من حيث الصفات، فهي بالاعتبار الأول مترادفة، وبالاعتبار الثاني متباينة.

السابع: أن ما يطلق عليه في باب الأسماء والصفات توقيفي، وما يطلق عليه من الأخبار لا يجب أن يكون توقيفًا، كالقديم، والشيء، والموجود، والقائم بنفسه.

فهذا فصل الخطاب في مسألة أسمائه: هل هي توقيفية؟ أو يجوز أن يطلق عليه منها بعض ما لم يرد به السمع؟

الثامن: أن الاسم إذا أطلق عليه جاز أن يشتق منه المصدر والفعل،

فيخبر به عنه فعلاً ومصدرًا، ونحو السميع البصير القدير، يطلق عليه منه السمع والبصر والقدرة، ويخبر عنه بالأفعال من ذلك، نحو: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١﴾ [المجادلة: ١]، ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ۝٢٣﴾ [المرسلات: ٢٣]، هذا إن كان الفعل متعديًا، فإن كان لازمًا لم يخبر عنه به، نحو الحي، بل يطلق عليه الاسم والمصدر دون الفعل، فلا يقال: حي.

التاسع: أن أفعال الرب تبارك وتعالى صادرة عن أسمائه وصفاته، وأسماء المخلوقين صادرة عن أفعالهم؛ فالرب تبارك وتعالى فعاله عن كماله، والمخلوق كماله عن فعاله فاشتقت له الأسماء بعد أن كمل بالفعل.

فالرب لم يزل كاملاً فحصلت أفعاله عن كماله؛ لأنه كامل بذاته وصفاته، فأفعاله صادرة عن كماله، كمل ففعل، والمخلوق فعل فكمل الكمال اللائق به.

العاشر: إحصاء الأسماء الحسنى والعلم بها أصل للعلم بكل معلوم، فإن المعلومات سواه إما أن تكون خلقًا له، أو أمرًا، إما علم بما كونه، أو علم بما شرعه، ومصدر الخلق والأمر عن أسمائه الحسنى، وهما مرتبطان بها ارتباط المقتضى بمقتضيه، فالأمر كله مصدره عن أسمائه الحسنى، وهذا كله حسن لا يخرج عن مصالح العباد، والرأفة والرحمة بهم، والإحسان إليهم، بتكميلهم بما أمرهم به ونهاهم عنه، فأمرُه كله مصلحة وحكمة ولطف وإحسان؛ إذ مصدره أسماؤه الحسنى، وفعله كله لا يخرج عن العدل والحكمة والمصلحة والرحمة؛ إذ مصدره أسماؤه الحسنى، فلا تفاوت في خلقه ولا عبث، ولم يخلق خلقه باطلاً ولا سدًى ولا عبثًا.

وكما أن كل موجود سواه فبإيجاده، فوجود من سواه تابع لوجوده، تبع المفعول المخلوق لخالقه، فكذلك العلم بها أصل للعلم بكل ما سواه، فالعلم بأسمائه وإحصاؤها أصل لسائر العلوم، فمن أحصى أسماءه كما ينبغي للمخلوق أحصى جميع العلوم؛ إذ إحصاء أسمائه أصل لإحصاء كل معلوم؛ لأن المعلومات هي من مقتضاها ومرتبطة بها وتأمل صدور الخلق والأمر عن علمه وحكمته، ولهذا لا تجد فيها خللاً ولا تفاوتًا؛ لأن الخلل الواقع فيما يأمر به العبد أو يفعله، إما أن يكون لجهله به، أو لعدم حكمته.

وأما الرب فهو العليم الحكيم، فلا يلحق فعله ولا أمره خلل ولا تفاوت ولا تناقض.

الحادي عشر: أن أسماءه كلها حسنى ليس فيها اسم غير ذلك أصلاً، وقد تقدم أن من أسمائه ما يطلق عليه باعتبار الفعل؛ نحو: الخالق والرازق والمحيي والمميت، وهذا يدل على أن أفعاله كلها خيرات محض لا شر فيها؛ لأنه لو فعل الشر لاشتق له منه اسم ولم تكن أسماؤه كلها حسنى، وهذا باطل، فالشر ليس إليه، فكما لا يدخل في صفاته ولا يلحق ذاته لا يدخل في أفعاله، فالشر ليس إليه، لا يضاف إليه فعلاً ولا وصفًا، وإنما يدخل في مفعولاته.

وفرق بين الفعل والمفعول، فالشر قائم بمفعوله المباين له، لا بفعله الذي هو فعله.

فتأمل هذا، فإنه خفي على كثير من المتكلمين، وزلت فيه أقدام، وضلت فيه أفهام، وهدى اللَّه أهل الحق لما اختلفوا فيه بإذنه، واللَّه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

الثاني عشر: في بيان مراتب إحصاء أسمائه التي من أحصاها دخل الجنة، وهذا هو قطب السعادة ومدار النجاة والفلاح.

المرتبة الأولى: إحصاء ألفاظها وعددها.

المرتبة الثانية: فهم معانيها ومدلولها.

المرتبة الثالثة: دعاؤه بها، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وهو مرتبتان:

إحداهما: دعاء ثناء وعبادة.

والثاني: دعاء طلب ومسألة.

فلا يثنى عليه إلا بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وكذلك لا يسأل إلا بها.

فلا يقال: يا موجود. أو: يا شيء. أو: يا ذات، اغفر لي وارحمني، بل يسأل في كل مطلوب باسم يكون مقتضيًا لذلك المطلوب، فيكون السائل متوسلاً إليه بذلك الاسم.

ومن تأمل أدعية الرسل، ولا سيما خاتمهم وإمامهم، وجدها مطابقة لهذا، وهذه العبارة أولى من عبارة من قال: يتخلق بأسماء الله. فإنها ليست بعبارة سديدة، وهي منتزعة من قول الفلاسفة بالتشبه بالإله على قدر الطاقة، وأحسن منها عبارة أبي الحكم بن برهان وهي: التعبد. وأحسن منها العبارة المطابقة للقرآن، وهي: الدعاء المتضمن للتعبد والسؤال.

فمراتبها أربعة:

أشدها إنكارًا عبارة الفلاسفة، وهي: التشبه.

وأحسن منها عبارة من قال: التخلق.

وأحسن منها عبارة من قال: التعبد.

وأحسن من الجميع: الدعاء. وهي لفظ القرآن.

الثالث عشر: اختلف النظار في الأسماء التي تطلق على اللَّه وعلى العباد، كالحي والسميع والبصير والعليم والقدير والملك، ونحوها.

فقالت طائفة من المتكلمين: هي حقيقة في العبد، مجاز في الرب. وهذا قول غلاة الجهمية، وهو أخبث الأقوال وأشدها فسادًا.

الثاني: مقابله، وهو أنها حقيقة في الرب، مجاز في العبد، وهذا قول أبي العباس الناشئ.

الثالث: أنها حقيقة فيهما، وهذا قول أهل السنة، وهو الصواب، واختلاف الحقيقتين فيهما لا يخرجها عن كونها حقيقة فيهما، وللرب تعالى منها ما يليق بجلاله، وللعبد منها ما يليق به.

وليس هذا موضع التعرض لمأخذ هذه الأقوال، وإبطال باطلها، وتصحيح صحيحها، فإن الغرض الإشارة إلى أمور ينبغي معرفتها في هذا الباب، ولو كان المقصود بسطها لاستدعت سِفْرَين، أو أكثر.

الرابع عشر: أن الاسم والصفة من هذا النوع له ثلاث اعتبارات:

اعتبار من حيث هو، مع قطع النظر عن تقييده بالرب تبارك وتعالى، أو العبد.

اعتباره مضافًا إلى الرب مختصًا به.

اعتباره مضافًا إلى العبد مقيدًا به.

فما لزم الاسم لذاته وحقيقته كان ثابتًا للرب والعبد، وللرب منه ما يليق

بكماله، وللعبد منه ما يليق به.

وهذا كاسم السميع الذي يلزمه إدراك المسموعات، والبصير الذي يلزمه رؤية المبصرات، والعليم والقدير، وسائر الأسماء، فإن شرط صحة إطلاقها حصول معانيها وحقائقها للموصوف بها، فما لزم هذه الأسماء لذاتها فإثباته للرب تعالى لا محذور فيه بوجه، بل ثبتت له على وجه لا يماثله فيه خلقه ولا يشابههم، فمن نفاه عنه لإطلاقه على المخلوق ألحد في أسمائه وجحد صفات كماله.

ومن أثبته له على وجه يماثل فيه خلقه فقد شبهه بخلقه، ومن شبه اللَّه بخلقه فقد كفر، ومن أثبته له على وجه لا يماثل فيه خلقه بل كما يليق بجلاله وعظمته، فقد برئ من فرث التشبيه، ودم التعطيل، وهذا طريق أهل السنة، وما لزم الصفة لإضافتها إلى العبد، وجب نفيه عن الله، كما يلزم حياة العبد من النوم والسِنَة، والحاجة إلى الغذاء، ونحو ذلك.

وكذلك ما يلزم إرادته من حركة نفسه في جلب ما ينتفع به، ودفع ما يتضرر به.

وكذلك ما يلزم علوه من احتياجه إلى ما هو عال عليه، وكونه محمولاً به مفتقرًا إليه، محاطًا به.

كل هذا يجب نفيه عن القدوس السلام تبارك وتعالى، وما لزم صفة من جهة اختصاصه تعالى بها، فإنه لا يثبت للمخلوق بوجه، كعلمه الذي يلزمه القدم والوجوب، والإحاطة بكل معلوم، وقدرته وإرادته وسائر صفاته، فإن ما يختص به منها لا يمكن إثباته للمخلوق، فإذا أحطت بهذه القاعدة خبرًا وعقلتها كما ينبغي؛ خلصت من الآفتين اللتين هما أصل بلاء المتكلمين: آفة

التعطيل، وآفة التشبيه، فإنك إذا وفيت هذا المقام حقه من التصور، أثبتَّ لله الأسماء الحسنى والصفات العلى حقيقة، فخلصت من التعطيل، ونفيت عنها خصائص المخلوقين ومشابهتهم فخلصت من التشبيه، فتدبر هذا الموضع واجعله جنتك التي ترجع إليها في هذا الباب، واللَّه الموفق للصواب.

الخامس العشر: أن الصفة متى قامت بموصوف لزمها أمور أربعة: أمران لفظيان، وأمران معنويان:

فاللفظيان: ثبوتي، وسلبي. فالثبوتي: أن يشتق للموصوف منها اسم. والسلبي: أن يمتنع الاشتقاق لغيره.

والمعنويان: ثبوتي، وسلبي. فالثبوتي: أن يعود حكمها إلى الموصوف ويخبر بها عنه. والسلبي: أن لا يعود حكمها إلى غيره، ولا يكون خبرًا عنه، وهي قاعدة عظيمة في معرفة الأسماء والصفات.

فلنذكر من ذلك مثالاً واحدًا، وهو صفة الكلام، فإنه إذا قامت بمحل، كانت هو التكلم دون من لم تقم به، وأخبر عنه بها، وعاد حكمها إليه دون غيره، فيقال: قال، وأمر، ونهى، ونادى، وناجى، وأخبر، وخاطب، وتكلم، وكلم، ونحو ذلك، وامتنعت هذه الأحكام لغيره، فيستدل بهذه الأحكام والأسماء على قيام الصفة به، وسلبها عن غيره على عدم قيامها به، وهذا هو أصل السنة الذي ردوا به على المعتزلة والجهمية، وهو من أصح الأصول طردًا وعكسًا.

السادس عشر: أن الأسماء الحسنى لا تدخل تحت حصر، ولا تحد بعدد، فإن لله تعالى أسماء وصفات استأثر بها في علم الغيب عنده لا يعلمها ملك مقرب، ولا نبي مرسل، كما في الحديث الصحيح: «**أسألُك بكلِّ اسمٍ**

هو لك، سميتَ به نفسَك، أو أنزلتَه في كتابِك، أو استأثرتَ به في علمِ الغيبِ عندك»[١]. صحيح على الراجح.

فجعل أسماءه ثلاثة أقسام:

قسم سمى به نفسه، فأظهره لمن شاء من ملائكته، أو غيرهم ولم ينزل به كتابه.

وقسم أنزل به كتابه فتعرف به إلى عباده.

وقسم استأثر به في علم غيبه، فلم يطلع عليه أحد من خلقه، ولهذا قال: «**استأثرت به**»؛ أي: انفردت بعلمه، وليس المراد انفراده بالتسمي به؛ لأن هذا الانفراد ثابت في الأسماء التي أنزل اللَّه بها كتابه.

ومن هذا قول النبي ﷺ في حديث الشفاعة: «**فيفتحُ عليَّ من محامدِه بما لا أحسنه الآن**». رواه البخاري ومسلم[٢]، وتلك المحامد تفي بأسمائه وصفاته.

ومنه قوله ﷺ : «**لا أحصي ثناءَ عليك، أنت كما أثنيتَ على نفسِك**»، رواه مسلم وأبو داود وغيرهما[٣]، وأما قوله ﷺ : «**إنَّ للهِ تسعةً وتسعين اسمًا مَن أحصاها، دخل الجنةَ**». رواه البخاري ومسلم[٤].

فالكلام جملة واحدة، وقوله: «**ومن أحصاها دخل الجنة**» صفة لا خبر مستقبل، والمعنى له أسماء متعددة من شأنها، أن من أحصاها دخل الجنة،

(١) هو حديث ابن مسعود المتقدم تخريجه.
(٢) سلف تخريجه.
(٣) أخرجه ومسلم (٤٨٦/ ٢٢٢)، وأبو داود (٨٧٩)، والترمذي (٣٤٩٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٤) أخرجه البخاري (٢٧٣٦، ٧٣٩٢، ٦٤١٠)، ومسلم (٢٦٧٧/ ٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وهذا لا ينفي أن يكون له أسماء غيرها.

وهذا كما تقول: لفلان مائة مملوك، وقد أعدهم للجهاد. فلا ينفي هذا أن يكون له مماليك سواهم معدون لغير الجهاد، وهذا لا خلاف بين العلماء فيه.

السابع عشر: أن أسماءه تعالى منها ما يطلق عليه مفردًا ومقترنًا بغيره، وهو غالب الأسماء، فالقدير، والسميع، والبصير، والعزيز، والحكيم، وهذا يسوغ أن يدعى به مفردًا ومقترنًا بغيره، فتقول: يا عزيز، يا حليم، يا غفور، يا رحيم، وأن يفرد كل اسم، وكذلك في الثناء عليه والخبر عنه بما يسوغ لك الإفراد والجمع.

ومنها ما لا يطلق عليه بمفرده بل مقرونًا بمقابله، كالمانع، والضار، والمنتقم، فلا يجوز أن يفرد هذا عن مقابله، فإنه مقرون بالمعطي، والنافع، والعفو، فهو المعطي المانع، الضار النافع، المنتقم العفو، المعز المذل؛ لأن الكمال في اقتران كل اسم من هذه بما يقابله، لأنه يراد به أنه المنفرد بالربوبية، وتدبير الخلق، والتصرف فيهم، عطاءً ومنعًا، ونفعًا وضرًّا، وعفوًا وانتقامًا.

وأما أن يثنى عليه بمجرد المنع والانتقام والإضرار، فلا يسوغ، فهذه الأسماء المزدوجة تجري الأسماء منها مجرى الاسم الواحد الذي يمتنع فصل بعض حروفه عن بعض، فهي - وإن تعددت - جارية مجرى الاسم الواحد، ولذلك لم تجئ مفردة، ولم تطلق عليه إلا مقترنة. فاعلَمْه.

فلو قلت: يا مذل، يا ضار، يا مانع، وأخبرت بذلك لم تكن مثنيًا عليه، ولا حامدًا له، حتى تذكر مقابلها.

الثامن عشر: أن الصفات ثلاثة أنواع: صفات كمال. وصفات نقص. وصفات لا تقتضي كمالاً ولا نقصًا، وإن كانت القسمة التقديرية تقتضي قسمًا رابعًا، وهو ما يكون كمالاً ونقصًا باعتبارين.

والرب تعالى منزه عن الأقسام الثلاثة، وموصوف بالقسم الأول، وصفاته كلها صفات كمال محض، فهو موصوف من الصفات بأكملها، وله من الكمال أكمله، وهكذا أسماؤه الدالة على صفاته هي أحسن الأسماء وأكملها، فليس في الأسماء أحسن منها، ولا يقوم غيرها مقامها، ولا يؤدي معناها، وتفسير الاسم منها بغيره ليس تفسيرًا بمرادف محض، بل هو على سبيل التقريب والتفهيم، وإذا عرفت هذا فله من كل صفة كمال أحسن اسم وأكمله وأتمه معنى، وأبعده وأنزهه عن شائبة عيب أو نقص، فله من صفة الإدراكات العليم الخبير، دون العاقل الفقيه، والسميع البصير دون السامع والباصر والناظر.

ومن صفات الإحسان البَرُّ الرحيم الودود، دون الرفيق والشفوق، ونحوهما، وكذلك العلي العظيم، دون الرفيع الشريف، وكذلك الكريم، دون السخي، والخالق البارئ المصور، دون الفاعل الصانع المشكل، والغفور العفو، دون الصفوح الساتر.

وكذلك سائر أسمائه تعالى يجري على نفسه منها أكملها وأحسنها، وما لا يقوم غيره مقامه، فتأمل ذلك، فأسماؤه أحسن الأسماء، كما أن صفاته أكمل الصفات، فلا تعدل عما سمى به نفسه إلى غيره، كما لا تتجاوز ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله إلى ما وصفه به المبطلون والمعطلون.

التاسع عشر: أن من أسمائه الحسنى ما يكون دالًّا على عدة صفات،

ويكون ذلك الاسم متناولاً لجميعها تناول الاسم الدال على الصفة الواحدة لها، كما تقدم بيانه، كاسمه العظيم، والمجيد، والصمد، كما قال ابن عباس، فيما رواه عنه ابن أبي حاتم في تفسيره: «الصمد السيد الذي قد كمل في سؤدده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والعليم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع شرفه، وسؤدده، وهو اللَّه سبحانه». إسناده ضعيف(١).

هذه صفته لا تنبغي إلا له، ليس له كفوًا أحد، وليس كمثله شيء، سبحان اللَّه الواحد القهار، هذا لفظه، وهذا مما خفي على كثير ممن تعاطى الكلام في تفسير الأسماء الحسنى، ففسر الاسم بدون معناه ونقَصَه من حيث لا يعلم، فمن لم يحط بهذا علمًا؛ بخَس الاسم الأعظم حقه، وهضمه معناه، فتدبَّرْه.

العشرون: وهي الجامعة لما تقدم من الوجوه، وهي معرفة الإلحاد في أسمائه، حتى لا يقع فيه.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠].

والإلحاد في أسمائه: هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها، وهو مأخوذ من الميل، كما يدل عليه مادته: (ل ح د).

فمنه اللحد، وهو: الشق في جانب القبر، الذي قد مال عن الوسط.

ومنه الملحد في الدين، المائل عن الحق إلى الباطل.

---

(١) سلف تخريجه.

قال ابن السكيت: «**الملحد: المائل عن الحق، المدخل فيه ما ليس منه**».

ومنه الملتحد: وهو مفتعل من ذلك، وقوله تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٧]؛ أي: من تعدل إليه، وتهرب إليه، وتلتجئ إليه وتبتهل، فتميل إليه عن غيره.

تقول العرب: التحد فلان إلى فلان؛ إذا عدل إليه.

- **أنواع الإلحاد في أسماء الله:**

إذا عرف هذا فالإلحاد في أسمائه تعالى أنواع:

أحدها: أن يسمى الأصنام بها، كتسميتهم اللات من الإلهية، والعزى من العزيز، وتسميتهم الصنم إلهًا، وهذا إلحاد حقيقة، فإنهم عدلوا بأسمائه إلى أوثانهم وآلهتهم الباطلة.

الثاني: تسميته بما لا يليق بجلاله، كتسمية النصارى له أبًا، وتسمية الفلاسفة له موجبًا بذاته، أو علة فاعلة بالطبع، ونحو ذلك.

وثالثها: وصفه بما يتعالى عنه ويتقدس من النقائص، كقول أخبث اليهود: إنه فقير. وقولهم: إنه استراح بعد أن خلق خلقه. وقولهم: يد اللَّه مغلولة. وأمثال ذلك، مما هو إلحاد في أسمائه وصفاته.

ورابعها: تعطيل الأسماء عن معانيها، وجحد حقائقها، كقول من يقول من الجهمية وأتباعهم: إنها ألفاظ مجردة لا تتضمن صفات ولا معاني. فيطلقون عليه اسم السميع، والبصير، والحي، والرحيم، والمتكلم، والمريد، ويقولون: لا حياة له، ولا سمع، ولا بصر، ولا كلام، ولا إرادة تقوم به. وهذا من أعظم الإلحاد فيها، عقلًا، وشرعًا، ولغة، وفطرة، وهو

يقابل إلحاد المشركين، فإن أولئك أعطوا أسماءه وصفاته لآلهتهم، وهؤلاء سلبوه صفات كماله وجحدوها وعطلوها، فكلاهما ملحد في أسمائه.

ثم الجهمية وفروخهم متفاوتون في هذا الإلحاد؛ فمنهم الغالي، والمتوسط، والمنكوب.

وكل من جحد شيئًا عما وصف اللَّه به نفسه، أو وصفه به رسوله، فقد ألحد في ذلك، فليستقل أو ليستكثر.

وخامسها: تشبيه صفاته بصفات خلقه، تعالى اللَّه عما يقول المشبهون علوًّا كبيرًا.

فهذا الإلحاد في مقابلة إلحاد المعطلة، فإن أولئك نفوا صفة كماله وجحدوها، وهؤلاء شبهوها بصفات خلقه، فجمعهم الإلحاد، وتفرقت بهم طرقه.

وبرَّأ اللَّه أتباع رسوله وورثته القائمين بسنته عن ذلك كله، فلم يصفوه إلا بما وصف به نفسه، ولم يجحدوا صفاته، ولم يشبهوها بصفات خلقه، ولم يعدلوا بها عما أنزلت عليه، لفظًا ولا معنًى، بل أثبتوا له الأسماء والصفات، ونفوا عنه مشابهة المخلوقات، فكان إثباتهم بريئًا من التشبيه، وتنزيههم خليًّا من التعطيل، لا كمن شبه حتى كأنه يعبد صنمًا، أو عطل حتى كأنه لا يعبد إلا عدمًا.

وأهل السنة وسط في النِّحَل، كما أن أهل الإسلام وسط في الملل، توقد مصابيح معارفهم ﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٣٥].

فنسأل اللَّه تعالى أن يهدينا لنوره، ويسهل لنا السبيل إلى الوصول إلى

مرضاته ومتابعة رسوله، إنه قريب مجيب.

فهذه عشرون فائدة، مضافة إلى القاعدة التي بدأنا بها في أقسام ما يوصف به الرب تبارك وتعالى، فعليك بمعرفتها ومراعاتها، ثم اشرح الأسماء الحسنى إن وجدت قلبًا عاقلًا، ولسانًا قائلًا، ومحلًّا قابلًا، وإلا فالسكوت أولى بك، فجناب الربوبية أجل وأعز مما يخطر بالبال، أو يعبر عنه المقال ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦] حتى ينتهي العلم إلى من أحاط بكل شيء علمًا»[1].

«**وأما قوله**: إن هذا ورد في الأسماء الحسنى. فالحديث الذي فيه ذكر ذلك هو حديث الترمذي، روى الأسماء الحسنى في جامعه، من حديث الوليد بن مسلم، عن شعيب، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة[2]، ورواها ابن ماجه في «**سننه**»، من طريق مخلد بن زياد القطواني، عن هشام بن حسان عن، محمد بن سيرين، عن أبي هريرة، وقد اتفق أهل المعرفة بالحديث على أن هاتين الروايتين ليستا من كلام النبي ﷺ، وإنما كل منهما من كلام بعض السلف، فالوليد ذكرها عن بعض شيوخه الشاميين، كما جاء مفسرًا في بعض طرق حديثه.

ولهذا اختلفت أعيانهما عنه، فروي عنه في إحدى الروايات من الأسماء بدل ما يذكر في الرواية الأخرى؛ لأن الذين جمعوها قد كانوا يذكرون هذا تارة وهذا تارة، واعتقدوا هم وغيرهم أن الأسماء الحسنى التي من أحصاها دخل الجنة، ليست شيئًا معينًا بل من أحصى تسعة وتسعين اسمًا من أسماء

---

(١) «بدائع الفوائد» (١/ ١٦٦- ١٨١).

(٢) تقدم تخريجه.

اللَّه دخل الجنة، أو أنها وإن كانت معينة فالاسمان اللذان يتفق معناهما يقوم أحدهما مقام صاحبه، كالأحد والواحد، فإن في رواية هشام بن عمار عن الوليد بن مسلم عنه، رواها عثمان بن سعيد (الأحد بدل الواحد، والمعطي بدل المغني). وهما متقاربان، وعند الوليد هذه الأسماء بعد أن روى الحديث عن خليد بن دعلج، عن قتادة، عن بن سيرين، عن أبى هريرة، ثم قال هشام: وحدثنا الوليد، حدثنا سعيد بن عبد العزيز. مثل ذلك، وقال: كلها في القرآن: (هو اللَّه الذي لا اله إلا هو) مثل ما ساقها الترمذي، لكن الترمذي رواها عن طريق صفوان بن صالح عن الوليد عن شعيب، وقد رواها ابن أبي عاصم، وبين ما ذكره هو والترمذي خلاف في بعض المواضع، وهذا كله مما يبين لك أنها من الموصول المدرج في الحديث عن النبي ﷺ في بعض الطرق، وليست من كلامه.

ولهذا جمعها قوم آخرون على غير هذا الجمع، واستخرجوها من القرآن، منهم سفيان بن عيينة والإمام أحمد بن حنبل وغيرهم»[1].

«وسئل شيخ الإسلام عمن قال: لا يجوز الدعاء إلا بالتسعة والتسعين اسمًا، ولا يقول: يا حنان يا منان. ولا يقول: يا دليل الحائرين. فهل له أن يقول ذلك؟

فأجاب:

الحمد لله، هذا القول، وإن كان قد قاله طائفة من المتأخرين كأبي محمد بن حزم وغيره، فإن جمهور العلماء على خلافه، وعلى ذلك مضى سلف الأمة وأئمتها، وهو الصواب؛ لوجوه:

(١) «مجموع الفتاوى» (٦/ ٣٧٩، ٣٨٠).

أحدها: أن التسعة والتسعين اسمًا لم يرد في تعيينها حديث صحيح عن النبي ﷺ، وأشهر ما عند الناس فيها حديث الترمذي الذي رواه الوليد بن مسلم عن شعيب عن أبي حمزة، وحفاظ أهل الحديث يقولون: هذه الزيادة مما جمعه الوليد بن مسلم عن شيوخه من أهل الحديث، وفيها حديث ثانٍ أضعف من هذا. رواه ابن ماجه[(١)]، وقد روي في عددها غير هذين النوعين من جمع بعض السلف.

وهذا القائل الذي حصر أسماء اللَّه في تسعة وتسعين، لم يمكنه استخراجها من القرآن، وإذا لم يقم على تعيينها دليل يجب القول به لم يمكن أن يقال هي التي يجوز الدعاء بها دون غيرها؛ لأنه لا سبيل إلى تمييز المأمور من المحظور، فكل اسم يجهل حاله يمكن أن يكون من المأمور، ويمكن أن يكون من المحظور، وإن قيل: لا تدعوا إلا باسم له ذكر في الكتاب والسنة. قيل: هذا أكثر من تسعة وتسعين.

الوجه الثاني: أنه إذا قيل تعيينها على ما في حديث الترمذي، مثلاً، ففي الكتاب والسنة أسماء ليست في ذلك الحديث، مثل اسم: الرب، فإنه ليس في حديث الترمذي، وأكثر الدعاء المشروع إنما هو بهذا الاسم، كقول آدم: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣]. وقول نوح: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [هود: ٤٧]. وقول إبراهيم: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ [إبراهيم: ٤١]. وقول موسى: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾ [القصص: ١٦]. وقول المسيح: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [المائدة: ١١٤].

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٨٦١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وأمثال ذلك، حتى إنه يذكر عن مالك وغيره أنهم كرهوا أن يقال: يا سيدي، بل يقال: يا رب؛ لأنه دعاء النبيين وغيرهم، كما ذكر اللَّه في القرآن.

وكذلك اسم المنان، ففي الحديث الذي رواه أهل السنن أن النبي ﷺ سمع داعيًا يدعو: اللهم إني أسألك بأن لك الملك، أنت الله، المنان، بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم. فقال النبي ﷺ: «**لقد دعا اللَّه باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى**»[1]. وهذا رد لقول من زعم أنه لا يمكن في أسمائه المنان.

وقد قال الإمام أحمد ﷺ لرجل ودعه: «**قل: يا دليل الحائرين، دلني على طريق الصادقين، واجعلني من عبادك الصالحين**»[2]. وقد أنكر طائفة من أهل الكلام كالقاضي أبي بكر وأبي الوفاء ابن عقيل، أن يكون من أسمائه الدليل؛ لأنهم ظنوا أن الدليل هو الدلالة التي يستدل بها، والصواب ما عليه الجمهور؛ لأن الدليل في الأصل هو المعرف للمدلول، ولو كان الدليل ما يستدل به فالعبد يستدل به أيضًا، فهو دليل من الوجهين جميعًا.

وأيضا فقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنَّ اللهَ وِتْرٌ يحبُّ الوِتْرَ**»[3]. وليس هذا الاسم في هذه التسعة والتسعين، وثبت عنه في

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه اللالكائي في «كرامات الأولياء» (ص٢٣٣) من حديث أبي أحمد القزويني، قال: سمعت القاسم بن الحسين الورَّاق، يقول: يُروى عن أحمد بن حنبل أنَّ رجلًا أراد الخروج إلى طرسوس، قال: «قل: يا دليل الحيارى، دلني على طريق الصادقين واجعلني من عبادك الصالحين». قال: فخرج الرجل، وأصابه شدةٌ، وانقطع من أصحابه، فدعا بهذا الدعاء، فلحق بأصحابه، فجاء إلى أحمد، وأخبره، فقال له أحمد: «اكتمها عليَّ».

(٣) راجعه في تخريج الحديث رقم (٩٩).

الصحيح أنه قال: «**إنَّ اللهَ جميلٌ يحبُّ الجمالَ**»، وليس هو فيها، وفى الترمذي وغيره أنه قال: «**إنَّ اللهَ نظيفٌ يحبُّ النظافةَ**»[١]. وليس هذا فيها، وفى الصحيح عنه أنه قال: «**إنَّ اللهَ طيبٌ لا يقبلُ إلا طيبًا**»[٢]. وليس هذا فيها، وتتبع هذا يطول.

ولفظ التسعة والتسعين المشهورة عند الناس في الترمذي: الله، الرحمن، الرحيم، الملك القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض الباسط، الخافض الرافع، المعز المذل، السميع، البصير، الحكم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور العلىّ، الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوى المتين، الولي، الحميد، المحصى، المبدئ، المعيد، المحيى، المميت، الحيّ، القيوم، الواجد، الماجد، الأحد، ويروى الواحد، الصمد، القادر، المقتدر، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالي، المتعالي، البر، التواب، المنتقم، العفو، الرءوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المقسط، الجامع، الغني، المغني، المعطي، المانع، الضار، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور، الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٧٩٩) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.
(٢) أخرجه مسلم (١٠١٥/ ٦٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

ومن أسمائه التي ليست في هذه التسعة والتسعين، اسمه السبوح، وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «**سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ**»[١].

واسمه الشافي، كما ثبت في الصحيح أنه كان يقول: «**أذهبِ البأسَ ربَّ الناسِ، واشفِ أنت الشافي، لا شافي إلا أنت، شفاءً لا يُغادِرُ سَقَمًا**»[٢]. وكذلك أسماؤه المضافة، مثل: أرحم الراحمين، وخير الغافرين، ورب العالمين، ومالك يوم الدين، وأحسن الخالقين، وجامع الناس ليوم لا ريب فيه، ومقلب القلوب، وغير ذلك مما ثبت في الكتاب والسنة، وثبت في الدعاء بها بإجماع المسلمين وليس من هذه التسعة والتسعين.

الوجه الثالث: ما احتج به الخطابي وغيره، وهو حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما أصاب عبدًا قط همٌّ ولا حزنٌ، فقال: اللهم إني عبدك، وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك بكلِّ اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، وشفاء صدري، وجلاء حزني، وذهاب غمي وهمي؛ إلا أذهب اللَّه همه وغمه، وأبدله مكانه فرحًا**». قالوا: يا رسول الله، أفلا نتعلمهن؟ قال: «**بلى، ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن**»[٣]. رواه الإمام أحمد في «**المسند**» وأبو حاتم ابن حبان في «**صحيحه**»[٤].

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٧/ ٢٢٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٧٥، ٥٧٤٣)، ومسلم (٤٦-٤٨/ ٢١٩١) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) سلف تخريجه.

(٤) سلف تخريجه.

قال الخطابي وغيره: فهذا يدل على أن له أسماء استأثر بها، وذلك يدل على أن معنى قوله: «**إن لله تسعة وتسعين اسمًا، من أحصاها دخل الجنة**». أن في أسمائه تسعة وتسعين من أحصاها دخل الجنة، كما يقول القائل: إن لي ألف درهم أعددتها للصدقة. وإن كان ماله أكثر من ذلك.

والله ﷻ في القرآن قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] فأمر أن يُدعى بأسمائه الحسنى مطلقًا، ولم يقل ليست أسماؤه الحسنى إلا تسعة وتسعين اسمًا، والحديث قد سلِم معناه، والله أعلم(١).

* * *

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٤٨١- ٤٨٦).





توحيد الربوبية



توحيد الربوبية

«**توحيد الربوبية**، وهو: الإقرار بأنه خالق كل شيء»[١]، وإفراده بالافتقار إليه، والاستعانة به، والتوكل عليه، والالتجاء إليه، وإفراده بالسؤال والطلب، والتذلل والخضوع، والتحقق بأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا يملك أحد سواه لهم ضرًا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، وأنه مقلب القلوب، فقلوبهم ونواصيهم بيده، وأنه ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابعه، إن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه.

فإن أول ما يتعلق القلب يتعلق بتوحيد الربوبية، ثم يرتقي إلى توحيد الإلهية، كما يدعو اللَّه سبحانه عباده في كتابه بهذا النوع من التوحيد إلى النوع الآخر، ويحتج عليهم به، ويقررهم به ثم يخبر أنهم ينقضونه بشركهم به في الإلهية.

قال اللَّه تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الزُّخرف: ٨٧]؛ أي: فأين يصرفون عن شهادة أن لا إله إلا الله، وعن عبادته وحده، وهم يشهدون أنه لا رب غيره، ولا خالق سواه؟! وكذلك قوله: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤، ٨٥]، فتعلمون أنه إذا كان هو وحده مالك الأرض ومن فيها، وخالقهم وربهم ومليكهم، فهو وحده إلههم ومعبودهم، فكما لا رب لهم غيره، فهكذا لا إله لهم سواه، ﴿قُلْ مَن رَّبُّ

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٥٠).

ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [المؤمنون: ٨٦ - ٨٨] الآيات، وهكذا قوله في سورة النمل: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [النمل: ٥٩، ٦٠].

يحتج عليهم بأن من فعل لهم هذا وحده، فهو الإله لهم وحده، إن كان معه رب فعل هذا فينبغي أن تعبدوه، وإن لم يكن معه رب فعل هذا فكيف تجعلون معه إلهًا؟!»[1].

«ومن هذا احتجاجه سبحانه على المشركين بالدليل المقسم الحاصر الذي لا يجد سامعه إلى رده ولا معارضته سبيلاً، حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الطُّور: ٣٥، ٣٦].

فتأمل هذا الترديد والحصر المتضمن لإقامة الحجة إلى أقرب طريق وأفصح عبارة، يقول تعالى: هؤلاء مخلوقون بعد أن لم يكونوا، فهل خلقوا من غير خالق خلقهم؟ فهذا من المحال الممتنع عند كل من له فهم وعقل أن يكون مصنوع من غير صانع، ومخلوق من غير خالق، ولو مر رجل بأرض قفر لا بناء فيها ثم مر فيها فرأى فيها بنيانًا وقصورًا، وعمارات محكمة، لم يتخالجه شك ولا ريب أن صانعًا صَنَعَهَا وبانيًا بَنَاها، ثم قال: ﴿أَمۡ هُمُ

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٤١٠- ٤١٢).

ٱلْخَٰلِقُونَ﴾، وهذا أيضًا من المستحيل أن يكون العبد موجدًا خالقًا لنفسه، فإن من لا يقدر أن يزيد في حياته - بعد وجوده وتعاطيه أسباب الحياة - ساعة واحدة، ولا أصبعًا، ولا ظفرًا، ولا شعرة، كيف يكون خالقًا لنفسه في حال عدمه؟! وإذا بطل القسمان؛ تعين أن لهم خالقًا خلقهم، وفاطرًا فطرهم، فهو الإله الحق الذي يستحق عليه العبادة والشكر، فكيف يشركون به إلهًا غيره، وهو وحده الخالق لهم.

فإن قيل: ما موقع قوله: ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الطور: ٣٦] من هذه الحجة؟ قيل: أحسن موقع، فإنه بُيِّن بالقسمين الأولين أن لهم خالقًا وفاطرًا، وأنهم مخلوقون، وبُيِّن بالقسم الثالث أنهم بعد أن وجدوا وخلقوا فهم عاجزون غير خالقين، فإنهم لم يخلقوا نفوسهم، ولم يخلقوا السموات والأرض، وأن الواحد القهار الذي لا إله غيره لا إله ولا رب سواه هو الذي خلقهم، وخلق السموات والأرض، فهو المتفرد بخلق المسكن والساكن بخلق العالم العلوي والسفلي وما فيه»[١].

* * *

(١) «الصواعق المرسلة» (٢/ ٤٩٢- ٤٩٤).

عظمة اللَّه وقدرته وحكمته في خلق الإنسان

«وإذا تأملت ما دعى اللَّه سبحانه في كتابه عباده إلى الفكر فيه أوقعك على العلم به سبحانه وتعالى وبوحدانيته، وصفات كماله، ونعوت جلاله، من عموم قدرته وعلمه، وكمال حكمته ورحمته، وإحسانه وبره، ولطفه وعدله، ورضاه وغضبه، وثوابه وعقابه، فبهذا تعرف إلى عباده وندبهم إلى التفكر في آياته»(١).

ونذكر لذلك أمثلة مما ذكرها اللَّه سبحانه في كتابه يستدل بها على غيرها، فمن ذلك خلق الإنسان، وقد ندب سبحانه إلى التفكر فيه، والنظر في غير موضع من كتابه، كقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥﴾ [الطارق: ٥]، وقوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١﴾ [الذاريات: ٢١]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ﴾ [الحج: ٥]، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣٩ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۝٤٠﴾ [القيامة: ٣٦ - ٤٠]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝٢١ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢٢ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ۝٢٣﴾ [المرسلات: ٢٠ - ٢٣]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٨٧).

ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾ [يس: ٧٧]، وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤].

وهذا كثير في القرآن يدعو العبد إلى النظر والفكر في مبدأ خلقه، ووسطه، وآخره؛ إذ نفسه وخلقه من أعظم الدلائل على خالقه وفاطره، وأقرب شيء إلى الإنسان نفسه، وفيه من العجائب الدالة على عظمة الله، ما تنقضي الأعمار في الوقوف على بعضه، وهو غافل عنه، معرض عن التفكر فيه، ولو فكر في نفسه لزجره ما يعلم من عجائب خلقها عن كفره، قال اللّه تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾ [عبس: ١٧ - ٢٢]، فلم يكرر سبحانه على أسماعنا وعقولنا ذكر هذا لنسمع لفظ النطفة، والعلقة، والمضغة، والتراب، ولا لنتكلم بها فقط، ولا لمجرد تعريفنا بذلك، بل لأمر وراء ذلك كله، هو المقصود بالخطاب، وإليه جرى ذلك الحديث.

● **مراحل خلق الإنسان:**

فانظر الآن إلى النطفة بعين البصيرة، وهي قطرة من ماء مهين ضعيف مستقذر، لو مرت بها ساعة من الزمان؛ فسدت وأنتنت، كيف استخرجها رب الأرباب العليم القدير من بين الصلب والترائب منقادة لقدرته، مطيعة لمشيئته، مذللة الانقياد، على ضيق طرقها، واختلاف مجاريها، إلى أن ساقها إلى مستقرها ومجمعها؟!

وكيف جمع سبحانه بين الذكر والأنثى، وألقى المحبة بينهما، وكيف قادهما بسلسلة الشهوة والمحبة إلى الاجتماع، الذي هو سبب تخليق الولد وتكوينه، وكيف قدر اجتماع ذينك الماءين، مع بُعْد كل منهما عن صاحبه، وساقهما من أعماق العروق والأعضاء، وجمعهما في موضع واحد، جعل لهما قرارا مكينًا، لا يناله هواء يفسده، ولا برد يجمده، ولا عارض يصل إليه، ولا آفة تتسلط عليه، ثم قلب تلك النطفة البيضاء المشربة، علقة حمراء، تضرب إلى سواد، ثم جعلها مضغة لحم مخالفة للعلقة في لونها وحقيقتها وشكلها، ثم جعله عظامًا مجردة لا كسوة عليها، مباينة للمضغة في شكلها وهيئتها وقدرها، وملمسها ولونها، وانظر كيف قسم تلك الأجزاء المتشابهة المتساوية إلى الأعصاب والعظام والعروق والأوتار واليابس واللين وبين ذلك؟! ثم كيف ربط بعضها ببعض أقوى رباط وأشده، وأبعده عن الانحلال؟! وكيف كساها لحمًا ركبه عليها، وجعله وعاءً لها وغشاءً وحافظًا، وجعلها حاملة له مقيمة له؟! فاللحم قائم بها، وهي محفوظة به، وكيف صورها فأحسن صورها، وشق لها السمع والبصر، والفم والأنف، وسائر المنافذ، ومد اليدين والرجلين وبسطهما، وقسم رءوسهما بالأصابع، ثم قسم الأصابع بالأنامل، وركب الأعضاء الباطنة: من القلب، والمعدة، والكبد، والطحال، والرئة، والرحم، والمثانة، والأمعاء؟!! كل واحد منها له قدر يخصه، ومنفعة تخصه.

ثم انظر الحكمة البالغة في تركيب العظام قوامًا للبدن، وعمادًا له، وكيف قدرها ربه وخالقها بتقادير مختلفة، وأشكال مختلفة، فمنها الصغير والكبير، والطويل والقصير، والمنحني والمستدير، والدقيق والعريض، والمصمت

والمجوف، وكيف ركب بعضها في بعض، فمنها ما تركيبه تركيب الذكر في الأنثى، ومنها ما تركيبه تركيب اتصال فقط، وكيف اختلفت أشكالها باختلاف منافعها، كالأضراس؛ فإنها لما كانت آلة للطحن جعلت عريضة، ولما كانت الأسنان آلة للقطع جعلت مستدقة محددة، ولما كان الإنسان محتاجًا إلى الحركة بجملة بدنه وببعض أعضائه للتردد في حاجته، لم يجعل عظامه عظمًا واحدًا، بل عظامًا متعددة، وجعل بينها مفاصل حتى تتيسر بها الحركة، وكان قدر كل واحد منها وشكله على حسب الحركة المطلوبة منه، وكيف شد أسر تلك المفاصل والأعضاء، وربط بعضها ببعض بأوتار ورباطات، أنبتها من أحد طرفي العظم، لهما قرارًا مكينًا العظم بالطرف الأخر، كالرباط له، ثم جعل في أحد طرفي العظم زوائد خارجة عنه، وفي الآخر نقرًا غائصة فيه، موافقة لشكل تلك الزوائد؛ ليدخل فيها وينطبق عليها، فإذا أراد العبد أن يحرك جزء من بدنه لم يمتنع عليه، ولولا المفاصل لتعذر ذلك عليه.

وتأمل كيفية خلق الرأس، وكثرة ما فيه من العظام، حتى قيل: إنها خمسة وخمسون عظمًا مختلفة الأشكال والمقادير والمنافع، وكيف ركبه سبحانه وتعالى على البدن، وجعله عاليًا علو الراكب على مركوبه، ولما كان عاليًا على البدن جعل فيه الحواس الخمس، وآلات الإدراك كلها من: السمع، والبصر، والشم، والذوق، واللمس، وجعل حاسة البصر في مقدمه؛ ليكون كالطليعة والحرس والكاشف للبدن، وركب كل عين من سبع طبقات، لكل طبقة وصف مخصوص، ومقدار مخصوص، ومنفعة مخصوصة، لو فقدت طبقة من تلك الطبقات السبع، أو زالت عن هيئتها

وموضعها، لتعطلت العين عن الإبصار، ثم أركز سبحانه داخل تلك الطبقات السبع خلقًا عجيبًا، وهو إنسان العين بقدر العدسة، يبصر به ما بين المشرق والمغرب، والأرض والسماء، وجعله من العين بمنزلة القلب من الأعضاء، فهو ملكها، وتلك الطبقات والأجفان والأهداب خدم له وحجاب وحراس، فتبارك اللَّه أحسن الخالقين، **فانظر** كيف حسن شكل العينين وهيئتها ومقدارهما، ثم جملهما بالأجفان غطاءً لهما وسترًا وحفظًا وزينة، فهما يتلقيان عن العين الأذى والقذا والغبار، ويكنانهما من البارد المؤذي، والحار المؤذي، ثم غرس في أطراف تلك الأجفان الأهداب جمالاً وزينة، ولمنافع أخر وراء الجمال والزينة، ثم أودعهما ذلك النور الباصر، والضوء الباهر، الذي يخرق ما بين السماء والأرض، ثم يخرق السماء مجاوزًا لرؤية ما فوقها من الكواكب، وقد أودع سبحانه هذا السر العجيب في هذا المقدار الصغير، بحيث تنطبع فيه صورة السموات، مع اتساع أكنافها وتباعد أقطارها.

وشق له السمع، وخلق الأذن أحسن خلقه وأبلغها في حصول المقصود منها، فجعلها مجوفة كالصدفة، لتجمع الصوت فتؤديه إلى الصماخ، وليحس بدبيب الحيوان فيها، فيبادر إلى إخراجه، وجعل فيها غضونًا وتجاويف واعوجاجات تمسك الهواء والصوت الداخل، فتكسر حدته ثم تؤديه إلى الصماخ، ومن حكمة ذلك أن يطول به الطريق على الحيوان، فلا يصل إلى الصماخ حتى يستيقظ، أو ينتبه لإمساكه، وفيه أيضًا حكم غير ذلك.

ثم اقتضت حكمة الرب الخالق سبحانه أن جعل ماء الأذن مرًّا في غاية المرارة، فلا يجاوزه الحيوان ولا يقطعه داخلاً إلى باطن الأذن، بل إذا وصل

إليه أعمل الحيلة في رجوعه.

وجعل ماء العينين ملحًا ليحفظها، فإنها شحمة قابلة للفساد، فكانت ملوحة مائها صيانة لها وحفظًا.

وجعل ماء الفم عذبًا حلوًا، ليدرك به طعوم الأشياء على ما هي عليه؛ إذ لو كان على غير هذه الصفة لأحالها إلى طبيعته، كما أن من عرض لفمه المرارة استمرَّ طعم الأشياء التي ليست بمرة، كما قيل:

ومَن يكُ ذا فمٍ مرٍّ مريضٍ   يجدْ مرًّا به الماءَ الزُّلَالَا

ونصب، سبحانه، قصبة الأنف في الوجه، فأحسن شكله وهيئته ووضعه، وفتح فيه المنخرين وحجز بينهما بحاجز، وأودع فيهما حاسة الشم التي تدرك بها أنواع الروائح الطيبة والخبيثة، والنافعة والضارة، وليستنشق به الهواء فيوصله إلى القلب، فيتروح به، ويتغذى به، ثم لم يجعل في داخله من الاعوجاجات والغضون ما جعل في الأذن؛ لئلا يمسك الرائحة فيضعفها ويقطع مجراها، وجعله سبحانه مصبًّا تنحدر إليه فضلات الدماغ، فتجتمع فيه، ثم تخرج منه.

واقتضت حكمته أن جعل أعلاه أدق من أسفله؛ لأن أسفله إذا كان واسعًا اجتمعت فيه تلك الفضلات فخرجت بسهولة، ولأنه يأخذ من الهواء ملأه، ثم يتصاعد في مجراه قليلاً، حتى يصل إلى القلب، وصولاً لا يضره ولا يزعجه، ثم فصل بين المنخرين بحاجز بينهما، حكمة منه ورحمة، فإنه لما كان قصبة ومجرى ساترًا لما يتحدر فيه من فضلات الرأس، ومجرى النفس الصاعد منه، جعل في وسطه حاجزًا؛ لئلا يفسد بما يجري فيه، فيمنع نشقه للنفَس، بل إما أن تعتمد الفضلات نازلة من أحد المنفذين في الغالب فيبقى

الأخر للتنفس، وإما أن يجري فيهما فينقسم فلا ينسد الأنف جملة، بل يبقى فيه مدخل للتنفس، وأيضًا فإنه لما كان عضوًا واحدًا وحاسة واحدة، ولم يكن عضوين، وحاستين، كالأذنين والعينين اللتين اقتضت الحكمة تعددهما فإنه ربما أصيبت إحداهما، أو عرضت لها آفة تمنعها من كمالها، فتكون الأخرى سالمة، فلا تتعطل منفعة هذا الحس جملة، وكان وجود أنفين في الوجه شيئًا ظاهرًا، فنصب فيه أنفا واحدًا وجعل فيه منفذين، حجز بينهما بحاجز، يجري مجرى تعدد العينين والأذنين في المنفعة، وهو واحد، فتبارك اللّٰه رب العالمين، وأحسن الخالقين!

وشق سبحانه للعبد الفم في أحسن موضع وأليقه به، وأودع فيه من المنافع، وآلات الذوق، والكلام، وآلات الطحن والقطع ما يبهر العقول عجائبه، فأودعه اللسان الذي هو أحد آياته الدالة عليه، وجعله ترجمانًا لملك الأعضاء، مبينًا مؤديًا عنه، كما جعل الأذن رسولاً مؤديًا مبلغًا إليه، فهي رسوله وبريده الذي يؤدي إليه الأخبار، واللسان بريده ورسوله الذي يؤدي عنه ما يريد.

واقتضت حكمته سبحانه أن جعل هذا الرسول مصونًا محفوظًا، مستورًا، غير بارز مكشوف، كالأذن، والعين، والأنف؛ لأن تلك الأعضاء لما كانت تؤدي من الخارج إليه، جعلت بارزة ظاهرة، ولما كان اللسان مؤديًا منه إلى الخارج جعل له سترًا مصونًا لعدم الفائدة في إبرازه؛ لأنه لا يأخذ من الخارج إلى القلب، وأيضًا فلأنه لما كان أشرف الأعضاء بعد القلب، ومنزلته منه منزلة ترجمانه ووزيره، ضرب عليه سرادق تستره وتصونه، وجُعل في ذلك السرادق كالقلب في الصدر، وأيضًا فإنه من ألطف الأعضاء وألينها وأشدها

رطوبة، وهو لا يتصرف إلا بواسطة الرطوبة المحيطة به، فلو كان بارزًا صار عرضة للحرارة واليبوسة والنشاف المانع له من التصرف، ولغير ذلك من الحكم والفوائد.

ثم زين سبحانه الفم بما فيه من الأسنان التي هُنَّ جمال له وزينة، وبها قوام العبد وغذاؤه، وجعل بعضها أرحاء للطحن، وبعضها آلة للقطع، فأَحكم أصولها، وحدَّد رءوسها، وبيَّض لونها، ورتَّب صفوفها، متساوية الرءوس، متناسقة الترتيب، كأنها الدر المنظوم؛ بياضًا وصفاءً وحسنًا، وأحاط سبحانه على ذلك حائطين، وأودعهما من المنافع والحكم ما أودعهما، وهما الشفتان، فحسَّن لونهما وشكلهما، ووضعهما وهيئتهما، وجعلهما غطاءً للفم وطبقًا له، وجعلهما إتمامًا لمخارج حروف الكلام ونهاية له، كما جعل أقصى الحلق بداية له، واللسان وما جاوره وسطًا، ولهذا كان أكثر العمل فيها له، إذ هو الواسطة.

واقتضت حكمته أن جعل الشفتين لحمًا صرفًا، لا عظم فيه ولا عصب؛ ليتمكن بهما من مص الشراب، ويسهل عليه فتحهما وطبقهما، وخص الفك الأسفل بالتحريك، لأن تحريك الأخف أحسن، ولأنه يشتمل على الأعضاء الشريفة، فلم يخاطر بها في الحركة.

وخلق سبحانه الحناجر مختلفة الأشكال في الضيق والسعة، والخشونة والملاسة، والصلابة واللين، والطول والقصر، فاختلفت بذلك الأصوات أعظم اختلاف، ولا يكاد يشتبه صوتان إلا نادرًا، ولهذا كان الصحيح قبول شهادة الأعمى؛ لتمييزه بين الأشخاص بأصواتهم، كما يميز البصير بينهم بصورهم، والاشتباه العارض بين الأصوات كالاشتباه العارض بين الصور.

وزين سبحانه الرأس بالشعر، وجعله لباسًا له لاحتياجه إليه.

وزين الوجه بما أنبت فيه من الشعور المختلفة الأشكال والمقادير؛ فزينه بالحاجبين، وجعلهما وقاية لما يتحدر من بشرة الرأس إلى العينين، وقوَّسهما وأحسن خطهما، وزين أجفاف العينين بالأهداب، وزين الوجه أيضا باللحية، وجعلها كمالاً ووقارًا ومهابة للرجل وزين الشفتين بما أنبت فوقهما من الشارب، وتحتهما من العنفقة.

وكذلك خلقه سبحانه لليدين اللتين هما آلة العبد وسلاحه ورأس مال معاشه، فطولهما بحيث يصلان إلى ما شاء من بدنه، وعرض الكف؛ ليتمكن به من القبض والبسط، وقسم فيه الأصابع الخمس، وقسم كل أصبع بثلاث أنامل، والإبهام باثنتين، ووضع الأصابع الأربعة في جانب، والإبهام في جانب لتدور الإبهام على الجميع، فجاءت على أحسن وضع صلحت به للقبض والبسط، ومباشرة الأعمال، ولو اجتمع الأولون والآخرون على أن يستنبطوا بدقيق أفكارهم وضعًا آخر للأصابع سوى ما وضعت عليه لم يجدوا إليه سبيلاً، فتبارك من لو شاء لسواها وجعلها طبقًا واحدًا كالصفيحة فلم يتمكن العبد بذلك من مصالحه، وأنواع تصرفاته، ودقيق الصنائع، والخط، وغير ذلك، فإنْ بسَط أصابعه كانت طبقًا يضع عليه ما يريد، وإن ضمها وقبضها كانت دبوسًا[1] وآلة للضرب، وإن جعلها بين الضم والبسط، كانت مغرفة له يتناول بها وتمسك فيها ما يتناوله، وركب الأظفار على رءوسها؛ زينة لها وعمادًا ووقاية، وليلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا ينالها جسم

(١) الدبوس: عمود على شكل هراوة -العصا الضخمة- مدملكة الرأس، معربة. «المعجم الوسيط» (هـ ر و).

الأصابع، وجعلها سلاحًا لغيره: من الحيوان والطير، وآلة لمعاشه، وليحك الإنسان بها بدنه عند الحاجة، فالظُّفر الذي هو أقل الأشياء وأحقرها لو عدمه الإنسان ثم ظهرت به حكة لاشتدت حاجته إليه، ولم يقم مقامه شيء في حك بدنه، ثم هدى اليد إلى موضع الحك حتى تمتد إليه، ولو في النوم والغفلة من غير حاجة إلى طلب، ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحك إلا بعد تعب ومشقة، ثم انظر إلى الحكمة البالغة في جعل عظام أسفل البدن غليظة قوية؛ لأنها أساس له، وعظام أعاليه دونها في الثخانة والصلابة؛ لأنها محمولة، ثم انظر كيف جعل الرقبة مركبًا للرأس، وركبها من سبع خرزات مجوفات مستديرات ثم طبق بعضها على بعض، وركب كل خرزة تركيبًا محكمًا متقنًا، حتى صارت كأنها خرزة واحدة، ثم ركب الرقبة على الظهر والصدر، ثم ركب الظهر من أعلاه إلى منتهى عظم العجز من أربع وعشرين خرزة، مركبة بعضها في بعض، هي مجمع أضلاعه، والتي تمسكها أن تنحل وتنفصل، ثم وصل تلك العظام بعضها ببعض، فوصل عظام الظهر بعظام الصدر، وعظام الكتفين بعظام العضدين، والعضدين بالذراعين، والذراعين بالكف والأصابع.

وانظر كيف كسا العظام العريضة، كعظام الظهر والرأس، كسوة من اللحم تناسبها، والعظام الدقيقة كسوة تناسبها، كالأصابع، والمتوسطة كذلك، كعظام الذراعين، والعضدين، فهو مركب على ثلاثمائة وستين عظمًا، مائتان وثمانية وأربعون مفاصل، وباقيها صغار حشيت خلال المفاصل، فلو زادت عظمًا واحدًا لكان مضرة على الإنسان، يحتاج إلى قلعه، ولو نقصت عظمًا واحدًا كان نقصانًا يحتاج إلى جبره، فالطبيب ينظر

في هذه العظام، وكيفية تركيبها ليعرف وجه العلاج في جبرها، والعارف ينظر فيها ليستدل بها على عظمة باريها وخالقها، وحكمته، وعلمه، ولطفه، وكم بين النظرين؟!!

ثم إنه سبحانه ربط تلك الأعضاء والأجزاء بالرباطات، فشد بها أسرها، وجعلها كالأوتاد تمسكها وتحفظها، حتى بلغ عددها إلى خمسمائة وتسعة وعشرين رباطًا، وهي مختلفة في الغلظ والدقة، والطول والقصر، والاستقامة والانحناء، بحسب اختلاف مواضعها ومحالها، فجعل منها أربعة وعشرين رباطًا آلة لتحريك العين، وفتحها وضمها وإبصارها، لو نقصت منهن رباطًا واحدًا، اختل أمر العين، وهكذا لكل عضو من الأعضاء رباطات هن له كالآلات التي بها يتحرك ويتصرف ويفعل.

كل ذلك صنع الرب الحكيم، وتقدير العزيز العليم، في قطرة ماء مهين، فويل للمكذبين، وبعدًا للجاحدين!

ومن عجائب خلقه: أنه جعل في الرأس ثلاث خزائن، نافذًا بعضها إلى بعض: خزانة في مقدمه، وخزانة في وسطه، وخزانة في آخره، وأودع تلك الخزائن من أسراره ما أودعها، من الذكر والفكر والتعقل.

ومن عجائب خلقه: ما فيه من الأمور الباطنة التي لا تشاهَد، كالقلب، والكبد، والطحال، والرئة، والأمعاء، والمثانة، وسائر ما في بطنه من الآلات العجيبة، والقوى المتعددة المختلفة المنافع.

فأما القلب فهو الملك المستعمل لجميع آلات البدن والمستخدم لها، فهو محفوف بها، محشود، مخدوم، مستقر في الوسط، وهو أشرف أعضاء البدن، وبه قوام الحياة، وهو منبع الروح الحيواني، والحرارة الغريزية، وهو

معدن العقل، والعلم، والحلم، والشجاعة، والكرم، والصبر، والاحتمال، والحب، والإرادة، والرضا، والغضب، وسائر صفات الكمال، فجميع الأعضاء الظاهرة والباطنة وقواها إنما هي جند من أجناد القلب. فإن العين طليعته ورائده الذي يكشف له المرئيات، فإن رأت شيئًا أدته إليه، ولشدة الارتباط الذي بينها وبينه إذا استقر فيه شيء ظهر فيها، فهي مرآته المترجمة للناظر ما فيه، كما إن اللسان ترجمانه المؤدي للسمع ما فيه، ولهذا كثيرًا ما يقرن سبحانه في كتابه بين هذه الثلاث كقوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾ [الأحقاف: ٢٦]، وقوله: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البقرة: ١٨] وقد تقدم ذلك، وكذلك يقرن بين القلب والبصر، كقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقوله في حق رسوله محمد: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾ [النَّجم: ١١]، ثم قال: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧﴾ [النَّجم: ١٧]. وكذلك الأذن هي رسوله المؤدي إليه. وكذلك اللسان ترجمانه.

وبالجملة فسائر الأعضاء خدمه وجنوده، وقال النبي ﷺ : «**ألا إنَّ في الجسدِ مضغةٌ، إذا صلَحت صلَح لها سائرُ الجسدِ، وإذا فسدَت فسَد لها سائرُ الجسدِ، إلا وهي القلب**»[١].

وقال: أبو هريرة ﷺ : «**القلب مَلِكٌ، والأعضاء جنوده، فإن طاب الملك طابت جنوده، وإذا خبث الملك خبثت جنوده**»[٢].

وجعلت الرئة له كالمروحة تروح عليه دائمًا؛ لأنه أشد الأعضاء حرارة،

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩/ ١٠٧) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٠٩)، وهو حديث حسن.

بل هو منبع الحرارة.

وأما الدماغ، وهو المخ، فإنه جعل باردًا، واختُلِفَ في حكمة ذاك:

فقالت طائفة: إنما كان الدماغ باردًا لتبريد الحرارة التي في القلب، ليردها عن الإفراط إلى الاعتدال.

وردَّت طائفة هذا، وقالت: لو كان كذلك لم يكن الدماغ بعيدًا عن القلب بل كان ينبغي أن يحيط به كالرئة، أو يكون قريبًا منه في الصدر، ليكسر حرارته.

قالت الفرقة الأولى: بُعْد الدماغ من القلب لا يمنع ما ذكرناه من الحكمة؛ لأنه لو قرُب منه لغلبته حرارة القلب بقوتها، فجُعل البعد بينهما بحيث لا يتفاسدان، وتعتدل كيفية كل واحد منهما بكيفية الآخر، وهذا بخلاف الرئة؛ فإنها آلة للترويح على القلب، لم تجعل لتعديل حرارته.

وتوسطت فرقة أخرى، وقالت: بل المخ حار لكنه فاتر الحرارة، وفيه تبريد بالخاصية، فإنه مبدأ للذهن، ولهذا كان الذهن يحتاج إلى موضع ساكن قارٍّ، صاف عن الأقذار والكدر، خال من الجلبة والزَّجَل[1]، ولذلك يكون جودة الفكر والتذكر، واستخراج الصواب، عند سكون البدن، وفتور حركاته، وقلة شواغله ومزعجاته، ولذلك لم يصلح لها القلب، وكان الدماغ معتدلاً في ذلك صالحًا له، ولذلك تجود هذه الأفعال في الليل، وفي المواضع الخالية، وتفسد عند التهاب نار الغضب والشهوة، وعند الهمِّ الشديد، ومع التعب والحركات القوية، البدنية والنفسانية.

وهذا بحث متصل بقاعدة أخرى، وهي: أن الحواس والعقل هل مبدؤها

(١) الزجل: رفع الصوت. «اللسان» (ز ج ل).

القلب والدماغ؟

فقالت طائفة: مبدؤها كلها القلب، وهي مرتبطة به، وبينه وبين الحواس منافذ وطرق.

قالوا: وكل واحد من هذه الأعضاء التي هي آلات الحواس له اتصال بالقلب، بأعصاب وغير ذلك، وهذه الأعصاب تخرج من القلب، إلى أن تأتي إلى كل واحد من هذه الأجسام التي فيها هذه الحواس.

قالوا: فالعين إذا أبصرت شيئًا، أدته بالآلة التي فيها إلى القلب؛ لأن هذه الآلة متصلة منها إلى القلب، والسمع إذا أحس صوتًا أداه إلى القلب، وكذلك كل حاسة.

ثم أوردوا على أنفسهم سؤالاً، فقالوا: إن قيل: كيف يجوز أن يكون عضو واحد على ضروب من الامتزاج يمده عدة حواس مختلفة، وأجسام هذه الحواس مختلفة، وقوة كل حاسة مخالفة لقوة الحاسة الأخرى؟

وأجابوا عن ذلك: بأن جميع العروق التي في البدن كلها متصلة بالقلب، إما بنفسها، وإما بواسطة، فما من عرق ولا عضو إلا وله اتصال بالقلب، اتصالاً قريبًا، أو بعيدًا.

قالوا: وينبعث منه في تلك العروق والمجاري إلى كل عضو ما يناسبه، ويشاكله فينبعث منه إلى العينين ما يكون منه حس البصر، وإلى الأذنين ما يدرك به المسموعات، وإلى اللحم ما يكون منه حس اللمس، وإلى الأنف ما يكون به حس الشم، وإلى اللسان ما يكون به حس الذوق، وإلى كل ذي قوة ما يمد قوته ويحفظها، فهو المعد لهذه الأعضاء والحواس والقوى.

ولهذا كان الرأي الصحيح أنه أول الأعضاء تكوينًا.

قالوا: ولا ريب أن مبدأ القوة العاقلة منه. وإن كان قد خالف في ذلك آخرون.

وقالوا: بل العقل في الرأس، فالصواب أن مبدأه ومنشأه من القلب، وفروعه وثمرته في الرأس، والقرآن قد دل على هذا بقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج: ٤٦]، وقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧]، ولم يرد بالقلب هُنا مضغة اللحم المشتركة بين الحيوانات، بل المراد ما فيه من العقل واللب.

ونازعهم في ذلك طائفة أخرى، وقالوا: مبدأ هذه الحواس إنما هو الدماغ. وأنكروا أن يكون بين القلب والعين والأذن والأنف أعصاب أو عروق، وقالوا: هذا كذب على الخلقة.

والصواب التوسط بين الفريقين: وهو أن القلب تنبعث منه قوة إلى هذه الحواس، وهي قوة معنوية لا تحتاج في وصولها إليه إلى مجار مخصوصة وأعصاب تكون حاملة لها، فإن وصول القوى إلى هذه الحواس والأعضاء لا يتوقف إلا على قبولها واستعداها وإمداد القلب، لا على مجار وأعصاب، وبهذا يزول الالتباس في هذا المقام الذي طال فيه الكلام، وكثر فيه النزاع والخصام، واللَّه أعلم، وبه التوفيق للصواب.

والمقصود: التنبيه على أقل القليل من وجوه الحكمة التي في خلق الإنسان، والأمر أضعاف أضعاف ما يخطر بالبال، أو يجري فيه المقال، وإنما فائدة ذكر هذه الشذرة التي هي كل شيء بالنسبة إلى ما وراءها التنبيه، وإذا نظر العبد إلى غذائه فقط في مدخله ومستقره ومخرجه؛ رأى فيه العبر والعجائب؛ كيف جعلت له آلة يتناول بها، ثم باب يدخل منه، ثم آلة تقطعه

صغارًا، ثم طاحون يطحنه، ثم أعين بماء يعجنه، ثم جعل له مجرى، وطريقًا إلى جانب النفس، ينزل هذا ويصعد هذا، فلا يلتقيان مع غاية القرب، ثم جعل له حوايا وطرقًا توصله إلى المعدة، فهي خزانته وموضع اجتماعه، ولها بابان: باب أعلى، يدخل منه الطعام. وباب أسفل، يخرج منه تفله، والباب الأعلى أوسع من الأسفل؛ إذ الأعلى مدخل للحاصل، والأسفل مصرف للضار منه، والأسفل منطبق دائمًا ليستقر الطعام في موضعه، فإذا انتهى الهضم، فإن ذلك الباب ينفتح إلى انقضاء الدفع، ويسمى البواب لذلك، والأعلى يسمى فم المعدة، والطعام ينزل إلى المعدة متكيمسًا[1]، فإذا استقر فيها انماع وذاب، ويحيط بالمعدة من داخلها وخارجها حرارة نارية بل ربما تزيد على حرارة النار، ينضج بها الطعام فيها، كما ينضج الطعام في القدر بالنار المحيطة به، ولذلك يذيب ما هو مستحجر كالحصا وغيره، حتى يتركه مائعًا، فإذا أذابته علا صفوه إلى فوق، ورسا كدره إلى أسفل، ومن المعدة عروق متصلة بسائر البدن، يبعث فيها معلوم كل عضو وقوامه، بحسب استعداه وقبوله، فيبعث أشرف ما في ذلك وألطفه وأخفه إلى الأرواح، فيبعث إلى البصر بصرًا، والى السمع سمعًا، والى الشم شمًّا، وإلى كل حاسة بحسبها، فهذا ألطف ما يتولد عن الغذاء، ثم ينبعث منه إلى الدماغ ما يناسبه في اللطافة والاعتدال، ثم ينبعث من الباقي إلى الأعضاء في تلك المجاري بحسبها، وينبعث منه إلى العظام والشعر والأظفار ما يغذيها ويحفظها، فيكون الغذاء داخلاً إلى المعدة من طرق ومجار،

---

(١) الكيموس: الخلاصة الغذائية، وهي مادة لبنية بيضاء صالحة للامتصاص تستمدها الأمعاء من المواد الغذائية في أثناء مرورها بها، وهو معرب. «المعجم الوسيط» (ك م س).

وخارجًا منها إلى الأعضاء من طرق ومجار، هذا وارد إليها، وهذا صادر عنها؛ حكمة بالغة، ونعمة سابغة، ولما كان الغذاء إذا استحال في المعدة استحال دمًا ومرة سوداء ومرة صفراء وبلغمًا - اقتضت حكمته سبحانه وتعالى أن جعل لكل واحد من هذه الأخلاط مصرفًا ينصب إليه ويجتمع فيه، ولا ينبعث إلى الأعضاء الشريفة إلا أكمله.

فوضع المرارة مصبًّا للمرة الصفراء، ووضع الطحال مقرًّا للمرة السوداء، والكبد تمتص أشرف ما في ذلك، وهو الدم، ثم تبعثه إلى جميع البدن من عرق واحد، ينقسم على مجار كثيرة، يوصل إلى كل واحد؛ من: الشعور، والأعصاب، والعظام، والعروق ما يكون به قوامه، ثم إذا نظرت إلى ما فيه من القوى الباطنة والظاهرة، المختلفة في أنفسها ومنافعها، رأيت العجب العجاب، كقوة سمعه وبصره، وشمه وذوقه ولمسه، وحُبه وبغضه، ورضاه وغضبه، وغير ذلك من القوى المتعلقة بالإدراك والإرادة، وكذلك القوى المتصرفة في غذائه، كالقوة المنضجة له، وكالقوة الماسكة له، والدافعة له إلى الأعضاء، والقوة الهاضمة له بعد أخذ الأعضاء حاجتها منه، إلى غير ذلك من عجائب خلقته الظاهرة والباطنة.

فارجع الآن إلى النطفة و**تأمل** حالها أولاً، وما صارت إليه ثانيًا، وأنه لو اجتمع الإنس والجن على أن يخلقوا لها سمعًا، أو بصرًا، أو عقلاً، أو قدرة، أو علمًا، أو روحًا، بل عظمًا واحدًا من أصغر عظامها، بل عرقًا من أدق عروقها، بل شعرة واحدة - لعجزوا عن ذلك، بل ذلك كله آثار صنع اللّه الذي أتقن كل شيء، في قطرة من ماء مهين.

* * *

عظمة اللَّه وقدرته وحكمته في خلق ملكوت السماوات

فمَن هذا صنعُه في قطرة ماء، فكيف صنعه في ملكوت السموات وعلوها وسعتها واستدارتها وعظم خلقها وحسن بنائها، وعجائب شمسها وقمرها وكواكبها، ومقاديرها وأشكالها، وتفاوت مشارقها ومغاربها؟!

فلا ذرة فيها تنفك عن حكمة، بل هي أحكم خلقًا، وأتقن صنعًا، وأجمع العجائب من بدن الإنسان، بل لا نسبة لجميع ما في الأرض إلى عجائب السموات، قال اللَّه تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾﴾ [النَّازعات: ٢٧، ٢٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ١٦٤] فبدأ بذكر خلق السموات، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠]، وهذا كثير في القرآن.

فالأرض والبحار والهواء وكل ما تحت السموات، بالإضافة إلى السموات، كقطرة في بحر، ولهذا قل أن تجيء سورة في القرآن إلا وفيها ذكرها، إما إخبارًا عن عظمها، وسعتها، وإما إقسامًا بها، وإما دعاء إلى النظر فيها، وإما إرشادًا للعباد أن يستدلوا بها على عظم بانيها ورافعها، وإما استدلالاً منه سبحانه بخلقها على ما أخبر به من المعاد والقيامة، وإما

استدلالاً منه بربوبيته لها على وحدانيته، وأنه اللَّه الذي لا إله إلا هو، وإما استدلالاً منه بحسنها، واستوائها والتئام أجزائها، وعدم الفطور فيها على تمام حكمته وقدرته، وكذلك ما فيها من الكواكب والشمس والقمر، والعجائب التي تتقاصر عقول البشر عن قليلها، فكم من قسَم في القرآن بها؛ كقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١﴾ [البروج: ١]، ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١﴾ [الطَّارق: ١]، ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾ [الشمس: ٥]، ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ۝١١﴾ [الطارق: ١١]، ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾ [الشمس: ١]، ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ [النَّجم: ١]، ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣﴾ [الطارق: ٣]، ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥﴾ [التَّكوير: ١٥]، وهي الكواكب التي تكون خنسًا عند طلوعها، جوار في مجراها ومسيرها، كنسًا عند غروبها، فأقسم بها في أحوالها الثلاثة، ولم يقسم في كتابه بشيء من مخلوقاته أكثر من السماء والنجوم والشمس والقمر، وهو سبحانه يقسم بما يقسم به من مخلوقاته؛ لتضمنه الآيات والعجائب الدالة عليه، وكلما كان أعظم آية وأبلغ في الدلالة؛ كان إقسامه به أكثر من غيره، ولهذا يعظم هذا القسم؛ كقوله: ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦﴾ [الواقعة: ٧٥، ٧٦]، وأظهر القولين أنه قسَمٌ بمواقع هذه النجوم التي في السماء، فإن اسم النجوم عند الإطلاق إنما ينصرف إليها.

وأيضًا؛ فإنه لم تجر عادته سبحانه باستعمال النجوم في آيات القرآن، ولا في موضع واحد من كتابه، حتى تحمل عليه هذه الآية، وجرت عادته باستعمال النجوم في الكواكب في جميع القرآن.

وأيضًا؛ فإن نظير الإقسام بمواقعها هنا: إقسامه بهوى النجم في قوله:

﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ١﴾.

وأيضًا؛ فإن هذا قول جمهور أهل التفسير.

وأيضًا؛ فإنه سبحانه يقسم بالقرآن نفسه، لا بوصوله إلى عباده، هذه طريقة القرآن، قال اللَّه تعالى: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ١﴾ [ص: ١]، ﴿يسٓ ١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ٢﴾ [يس: ١، ٢]، ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ١﴾ [ق: ١]، ﴿حمٓ ١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢﴾ [الزُّخرف: ١، ٢] ونظائره.

والمقصود: أنه سبحانه إنما يقسم من مخلوقاته بما هو من آياته الدالة على ربوبيته ووحدانيته، وقد أثنى سبحانه في كتابه على المتفكرين في خلق السموات والأرض، وذم المعرضين عن ذلك، فقال: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ٣٢﴾ [الأنبياء: ٣٢].

وتأمل خلق هذا السقف الأعظم - مع صلابته وشدته ووثاقته - من دخان، وهو بخار الماء، قال اللَّه تعالى: ﴿وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا ١٢﴾ [النَّبأ: ١٢]، وقال تعالى: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ٢٧ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ٢٨﴾ [النازعات: ٢٧، ٢٨]، وقال: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ﴾.

فانظر إلى هذا البناء العظيم، الشديد الواسع، الذي رفع سمكه أعظم ارتفاع، وزينه بأحسن زينة، وأودعه العجائب والآيات، وكيف ابتدأ خلقه من بخار ارتفع من الماء، وهو الدخان.

فسبحان من لا يقدر الخلقُ قدرَه، ومن هو فوق العرش فردٌ مُوَحَّد.

لقد تعرف إلى خلقه بأنواع التعرفات، ونصب لهم الدلالات، وأوضح لهم الآيات البينات، ليهلِك من هلك عن بينة ويحيى من حيَّ عن بينة وأن اللَّه سميع عليم.

فارجع البصر إلى السماء وانظر فيها، وفي كواكبها ودورانها، وطلوعها وغروبها، وشمسها وقمرها، واختلاف مشارقها ومغاربها، ودروبها في الحركة على الدوام، من غير فتور في حركتها، ولا تغير في سيرها، بل تجري في منازل قد رتبت لها بحساب مقدر، لا يزيد ولا ينقص، إلى أن يطويها فاطرها وبديعها، وانظر إلى كثرة كواكبها، واختلاف ألوانها ومقاديرها، فبعضها يميل إلى الحمرة، وبعضها إلى البياض، وبعضها إلى اللون الرصاصي، ثم انظر إلى مسير الشمس في فلكها في مدة سنة، ثم هي في كل يوم تطلع وتغرب بسير سخرها له خالقها، لا تتعداه ولا تقصر عنه، ولولا طلوعها وغروبها لما عرف الليل والنهار ولا المواقيت، ولأطبق الظلام على العالم، أو الضياء، ولم يتميز وقت المعاش من وقت السُّبات والراحة، وكيف قدر لها السميع العليم سفرين متباعدين: أحدهما: سفرها صاعدة إلى أوجها، والثاني: سفرها هابطة إلى حضيضها، تنتقل في منازل هذا السفر منزلة منزلة، حتى تبلغ غايتها منه، فأحدث ذلك السفرُ - بقدرة الرب القادر - اختلاف الفصول من الصيف والشتاء والخريف والربيع، فإذا انخفض سيرها عن وسط السماء برد الهواء وظهر الشتاء، وإذا استوت في وسط السماء اشتد القيظ، وإذا كانت بين المسافتين اعتدل الزمان، وقامت مصالح العباد والحيوان والنبات بهذه الفصول الأربعة، واختلفت بسببها الأقوات، وأحوال النبات وألوانه، ومنافع الحيوان، والأغذية، وغيرها.

وانظر إلى القمر وعجائب آياته، كيف يبديه اللَّه كالخيط الدقيق، ثم يتزايد نوره ويتكامل شيئًا فشيئًا كل ليلة، حتى ينتهي إلى إبداره وكماله وتمامه، ثم يأخذ في النقصان حتى يعود إلى حالته الأولى، ليظهر من ذلك

مواقيت العباد في معاشهم وعبادتهم ومناسكهم، فتميزت به الأشهر والسنين، وقام حساب العالم مع ما في ذلك من الحكم والآيات والعبر، التي لا يحصيها إلا الله.

وبالجملة، فما من كوكب من الكواكب إلا وللرب تبارك وتعالى في خلقه حكم كثيرة، ثم في مقداره، ثم في شكله ولونه، ثم في موضعه من السماء، وقربه من وسطها وبعده، وقربه من الكوكب الذي يليه وبعده منه، وإذا أردت معرفة ذلك على سبيل الإجمال فقسه بأعضاء بدنك، واختلافها، وتفاوتها ما بين المتجاورات منها، وبُعْد ما بين المتباعدات وأَشْكالها ومقاديرها، وتفاوت منافعها وما خلقت له، وأين نسبة ذلك إلى عظم السموات وكواكبها وآياتها.

وقد اتفق أرباب الهيئة على أن الشمس بقدر الأرض مائة مرة ونيفًا وستين مرة، والكواكب التي نراها كثير منها أصغرها بقدر الأرض، وبهذا يعرف ارتفاعها وبعدها، وفي حديث أبي هريرة ﷺ الذي رواه الترمذي: «**إن بين الأرض والسماء مسيرة خمسمائة عام، وبين كل سماءين كذلك**»[1].

وأنت ترى الكوكب كأنه لا يسير، وهو من أول جزء من طلوعه إلى تمام طلوعه يكون فلكه قد طلع بقدر مسافة الأرض مائة مرة، أو أكثر، وذلك بعد لحظة واحدة؛ لأن الكوكب إذا كان بقدر الأرض مائة مرة، مثلًا، ثم سار في اللحظة من موضع إلى موضع فقد قطع بقدر مسافة الأرض مائة مرة وزيادة في لحظة من اللحظات، وهكذا يسير على الدوام، والعبد غافل عنه وعن آياته.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٣٧٠)، والترمذي (٣٢٩٨).

وقال بعضهم: «إذا تلفظت بقولك: (لا نعم) فبين اللفظتين تكون الشمس قد قطعت من الفلك مسيرة خمسمائة عام.

ثم إنه سبحانه أمسك السموات مع عظمها وعظم ما فيها وثبتها من غير علاقة من فوقها ولا عمد من تحتها: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾ [لقمان: ١٠، ١١]»[(١)].

فسل المعطل الجاحد، ما تقول في دولاب دائر على نهر قد أحكمت آلاته، وأحكم تركيبه، وقدرت أدواته أحسن تقدير وأبلغه، بحيث لا يرى الناظر فيه خللاً في مادته، ولا في صورته، وقد جعل على حديقة عظيمة فيها من كل أنواع الثمار والزروع يسقيها حاجتها، وفي تلك الحديقة من يلم شعثها، ويحسن مراعاتها وتعهدها، والقيام بجميع مصالحها، فلا يختل منها شيء، ولا يتلف ثمارها، ثم يقسم قيمتها عند الجذاذ على سائر المخارج بحسب حاجاتهم وضروراتهم، فيقسم لكل صنف منهم ما يليق به، ويقسمه هكذا على الدوام؟ أترى هذا اتفاقًا بلا صانع ولا مختار ولا مدبر، بل اتفق وجود ذلك الدولاب والحديقة وكل ذلك اتفاقًا من غير فاعل ولا قيم ولا مدبر، أفترى ما يقول لك عقلك في ذلك - لو كان - وما الذي يفتيك به، وما الذي يرشدك إليه؟! ولكن من حكمة العزيز الحكيم أن خلق قلوبًا عميًا، لا بصائر لها، فلا ترى هذه الآيات الباهرة إلا رؤية الحيوانات البهيمية، كما خلق أعينًا لا أبصار لها، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، وهي لا

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٨٧- ١٩٩).

تراها، فما ذنبها إن أنكرتها وجحدتها؟ فهي تقول في ضوء النهار: هذا ليل. ولكن أصحاب الأعين لا يعرفون شيئًا، ولقد أحسن القائل:

وهبني قلتُ هذا الصبحْ ليلٌ أيعمى العالمون عن الضياءِ

ثم تأمل الممسك للسماوات والأرض الحافظ لهما أن تزولا أو تقعا، أو يتعطل بعض ما فيهما، أفترى من الممسك لذلك؟ ومن القيم بأمره؟ ومن المقيم له؟ فلو تعطل بعض آلات هذا الدولاب العظيم، والحديقة العظيمة من كان يصلحه؟ وماذا كان عند الخلق كلهم من الحيلة في رده كما كان، فلو أمسك عنهم قيم السموات والأرض الشمس، فجعل عليهم الليل سرمدًا، من الذي كان يطلعها عليهم ويأتيهم بالنهار؟ ولو حبسها في الأفق ولم يسيرها، فمن ذا الذي كان يسيرها ويأتيهم بالليل؟ ولو أن السماء والأرض زالتا، فمن ذا الذي كان يمسكها من بعده؟

* * *

حكمته تعالى في سنة الحر والبرد

ثم تأمل هذه الحكمة البالغة في الحر والبرد، وقيام الحيوان والنبات عليهما، وفكِّر في دخول أحدهما على الآخر بالتدريج والمهلة، حتى يبلغ نهايته، ولو دخل عليه مفاجأة لأضر ذلك بالأبدان وأهلكها، وبالنبات، كما لو خرج الرجل من حمام مفرط الحرارة إلى مكان مفرط في البرودة، ولولا العناية والحكمة والرحمة والإحسان لما كان ذلك.

فإن قلت: هذا التدريج والمهلة إنما كان لإبطاء سير الشمس في ارتفاعها وانخفاضها.

قيل لك: فما السبب في ذلك الانخفاض والارتفاع؟

فإن قلت: السبب في ذلك بعد المسافة من مشارقها ومغاربها.

قيل لك: فما السبب في بعد المسافة؟

ولا تزال المسألة متوجهة عليك، كلما عينت سببًا حتى تفضي بك إلى أحد أمرين: إما مكابرة ظاهرة، ودعوى أن ذلك اتفاق من غير مدبر ولا صانع، وإما الاعتراف برب العالمين والإقرار بقيوم السماوات والأرضين، والدخول في زمرة أولي العقل من العالمين، ولن تجد بين القسمين واسطة أبدًا، فلا تتعِبْ ذهنك بهذيانات الملحدين، فإنها عند من عرفها من هوس الشياطين، وخيالات المبطلين، وإذا طلع فجر الهدى، وأشرقت النبوة فعساكر تلك الخيالات والوساوس في أول المنهزمين، والله متم نوره ولو كره الكافرون.

* * *

عظمة اللَّه وقدرته وحكمته في خلق النار

ثم تأمل الحكمة في خلق النار على ما هي عليه من الكمون والظهور، فإنها لو كانت ظاهرة أبدًا - كالماء والهواء - كانت تحرق العالم وتنتشر، ويعظم الضرر بها والمفسدة، ولو كانت كامنة لا تظهر أبدًا، لفاتت المصالح المترتبة على وجودها، فاقتضت حكمة العزيز العليم أن جعلها مخزونة في الأجسام، يخرجها ويبقيها الرجل عند حاجته إليها، فيمسكها ويحبسها بمادة يجعلها فيها، من الحطب ونحوه، فلا يزال حابسها ما احتاج إلى بقائها، فإذا استغنى عنها وترك حبسها بالمادة خبت بإذن ربها وفاطرها، فسقطت المؤنة والمضرة ببقائها، فسبحان من سخرها وأنشأها على تقدير محكم عجيب، اجتمع فيه الاستمتاع والانتفاع والسلامة من الضرر، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾﴾ [الواقعة: ٧١] إلى قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [الواقعة: ٩٦]، فسبحان ربنا العظيم، لقد تعرف إلينا بآياته، وشفانا ببيناته، وأغنانا بها عن دلالات العالمين، فأخبر سبحانه أنه جعلها تذكرة بنار الآخرة، فنستجير منها ونهرب إليه منها: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الواقعة: ٧٣]، وهم المسافرون النازلون بالقواء، والقواء: هي الأرض الخالية، وهم أحوج إلى الانتفاع بالنار؛ للإضاءة، والطبخ، والخبز، والتدفي، والأُنس، وغير ذلك.

ثم تأمل حكمته تعالى في كونه خص بها الإنسان دون غيره من الحيوانات، فلا حاجة بالحيوان إليها، بخلاف الإنسان، فإنه لو فقدها لعظُم الداخلُ عليه في معاشه ومصالحه، وغيره من الحيوانات لا يستعملها ولا

يتمتع بها.

وننبه من مصالح النار على خلة صغيرة القدر، عظيمة النفع، وهي هذا المصباح الذي يتخذه الناس فيقضون به من حوائجهم ما شاءوا من ليلهم، ولولا هذه الخلة لكان الناس نصف أعمارهم بمنزلة أصحاب القبور، فمن كان يستطيع كتابة، أو خياطة، أو صناعة، أو تصرفًا في ظلمة الليل الداجي؟ وكيف كانت تكون حال من عرض له وجع في وقت من الليل، فاحتاج إلى ضياء، أو دواء، أو استخراج دم، أو غير ذلك، ثم انظر إلى ذلك النور المحمول في ذُبَالة[1] المصباح على صغر جوهره، كيف يضيء ما حولك كله فترى به القريب والبعيد؟! ثم انظر إلى أنه لو اقتبس منه كل من يفرض أن يقدر من خلق اللَّه كيف لا يفنى ولا ينفذ، ولا يضعف!

وأما منافع النار في إنضاج الأطعمة والأدوية وتجفيف ما لا ينتفع إلا بجفافه، وتحليل ما لا ينتفع إلا بتحليله، وعقد ما لا ينتفع إلا بعقده وتركيبه، فأكثر من أن يحصى، **ثم تأمل** ما أعطيته النار من الحركة الصاعدة بطبعها إلى العلو، فلولا المادة تمسكها لذهبت صاعدة، كما أن الجسم الثقيل لولا الممسك يمسكه لذهب نازلاً، فمن أعطى هذا القوة التي يطلب بها الهبوط إلى مستقره، وأعطى هذه القوة التي تطلب بها الصعود إلى مستقرها؟ وهل ذلك إلا بتقدير العزيز العليم!

***

(١) هي: الفَتِيلة التي يُصْبَح بها السراج. «اللسان» (ذ ب ل).

عظمة اللَّه وقدرته وحكمته في خلق الهواء والرياح

ثم تأمل هذا الهواء وما فيه من المصالح، فإنه حياة هذه الأبدان والممسك لها من داخل بما تستنشق منه، ومن خارج بما تباشر به من رَوحه فتتغذى به ظاهرًا وباطنًا، وفيه تُطرد هذه الأصوات، فتحملها وتؤديها للقريب والبعيد، كالبريد والرسول الذي شأنه حمل الأخبار والرسائل، وهو الحامل لهذه الروائح، على اختلافها، ينقلها من موضع إلى موضع، فتأتي العبد الرائحة من حيث تهب الريح، وكذلك تأتيه الأصوات، وهو أيضًا الحامل للحر والبرد اللذين بهما صلاح الحيوان والنبات.

وتأمل منفعة الريح وما يجري له في البر والبحر، وما هيئت له من الرحمة والعذاب، **وتأمل** كم سخر للسحاب من ريح حتى أمطر، فسخرت له المُثِيرة أولاً فتثيره بين السماء والأرض، ثم سخرت له الحاملة التي تحمله على متنها، كالجمل الذي يحمل الراوية، ثم سخرت له المؤلِّفة، فتؤلف بين كِسَفَه وقطعه، ثم يجتمع بعضها إلى بعض فيصير طبقًا واحدًا، ثم سخرت له اللاقِحة بمنزلة الذكر الذي يلقح الأنثى، فتلقحه بالماء، ولولاها لكان جهامًا[1] لا ماء فيه، ثم سخرت له المزجية التي تزجيه وتسوقه إلى حيث أمر، فيفرغ ماءه هنالك، ثم سخرت له بعد إعصاره المفرِّقةُ التي تبثه وتفرقه في الجو، فلا ينزل مجتمعًا، ولو نزل جملة لأهلك المساكن والحيوان والنبات، بل تفرقه فتجعله قطرًا.

وكذلك الرياح التي تلقح الشجر والنبات، ولولاها لكانت عقيمًا،

---

(١) الجهام: السحاب الذي فرغ ماؤه. «اللسان»(ج هـ م).

وكذلك الرياح التي تسَير السفن، ولولاها لوقفت على ظهر البحر.

ومن منافعها أنها تبرد الماء، وتضرم النار التي يراد إضرامها، وتجفف الأشياء التي يحتاج إلى جفافها.

وبالجملة فحياة ما على الأرض من نبات وحيوان بالرياح، فإنه لولا تسخير اللَّه لها لعباده لذوي النبات، ومات الحيوان، وفسدت المطاعم، وأنتن العالم وفسد، ألا ترى إذا ركدت الرياح كيف يحدث الكرب والغم، الذي لو دام لأتلف النفوس، وأسقم الحيوان، وأمرض الأصحاء، وأنهك المرضى، وأفسد الثمار، وعفن الزرع، وأحدث الوباء في الجو، فسبحان من جعل هبوب الرياح تأتي برَوْحه ورحمته ولطفه ونعمته، كما قال النبي ﷺ في الرياح: «**إنها من رَوْحِ**(١) **اللَّه تأتي بالرحمة**»(٢).

وتنبَّه للطيفة في هذا الهواء، وهي: أن الصوت أثر يحدث عند اصطكاك الأجرام، وليس نفس الاصطكاك كما قال ذلك من قاله، ولكنه موجب الاصطكاك، وقرع الجسم للجسم، أو قلعه عنه فسببه قرع، أو قلع، فيحدث الصوت، فيحمله الهواء ويؤديه إلى مسامع الناس فينتفعون به في حوائجهم ومعاملاتهم بالليل والنهار، وتحدث الأصوات العظيمة من حركاتهم، فلو كان أثر هذه الحركات والأصوات يبقى في الهواء كما يبقى الكتاب في القرطاس - لامتلأ العالم منه، ولعظم الضرر به، واشتدت مؤنته، واحتاج الناس إلى محوه من الهواء، والاستبدال به، أعظم من حاجتهم إلى استبدال

(١) الرَوح: الرحمة . أَي: من رحمته بعباده. «اللسان» (ر و ح).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٢٥٠، ٢٦٨)، وأبو داود (٥٠٩٧) من حديث أبي هريرة ﷺ وأخرجه ابن حبان في صحيحه (١٣/ ٣٩) وله شاهد من حديث أبي بن كعب أخرجه الضياء في المختارة (٣/ ٤٢٤)، فهو حديث صحيح.

الكتاب المملوء كتابة، فإن ما يلقى من الكلام في الهواء أضعاف ما يوضع في القرطاس، فاقتضت حكمة العزيز الحكيم أن جعل هذا الهواء قرطاسًا خفيًّا يحمل الكلام بقدر ما يبلغ الحاجة، ثم يمحى بإذن ربه فيعود جديدًا نقيًّا لا شيء فيه، فيحمل ما حمل كل وقت.

* * *

عظمة اللَّه وقدرته وحكمته في خلق الأرض وما عليها

ثم تأمل خلق الأرض على ما هي عليه حين خلقها واقفة ساكنة؛ لتكون مهادًا ومستقرًّا للحيوان والنبات والأمتعة، ويتمكن الحيوان والناس من السعي عليها في مآربهم، والجلوس لراحاتهم، والنوم لِهُدُوِّهِم، والتمكن من أعمالهم، ولو كان رجراجة متكفئة لم يستطيعوا على ظهرها قرارًا ولا هدوًّا، ولا ثبت لهم عليها بناء، ولا أمكنهم عليها صناعة، ولا تجارة، ولا حراثة، ولا مصلحة، وكيف كانوا يتهنون بالعيش والأرض ترتج من تحتهم، واعتبر ذلك بما يصيبهم من الزلازل على قلة مكثها، كيف تصيرهم إلى ترك منازلهم والهرب عنها، وقد نبه اللَّه تعالى على ذلك بقوله: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ [غافر: ٦٤]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [طه: ٥٣] وفي القراءة الأخرى: (مهادًا).

وفي «**جامع الترمذي**» وغيره من حديث أنس بن مالك ﵁ عن النبي ﷺ

قال: «**لما خلَق اللهُ الأرضَ جعلت تميدُ، فخلَق الجبالَ عليها فاستقرتْ، فعجبتِ الملائكةُ من شدةِ الجبالِ، فقالوا: يا رب، هل مِن خَلْقِك شيءٌ أشدُّ من الجبالِ؟ قال: نعم، الحديد.**

قالوا: يا رب، هل من خلقِك شيءٌ أشدُّ من الحديدِ؟

قال: نعم، النار. قالوا: يا رب، فهل من خلقك شيءٌ أشدُّ من النارِ؟ قال: نعم الماء، فقالوا هل من خلقك شيء أشد من الماء، قال: نعم، الريح.

قالوا: يا رب، فهل من خلقِك شيءٌ أشدُّ من الريحِ؟ قال: نعم، ابنُ آدمَ يتصدقُ صدقةً بيمينه يخفيها عن شمالِه»[1].

ثم تأمل الحكمة البالغة في ليونة الأرض مع يبسها، فإنها لو أفرطت في اللين كالطين لم يستقر عليها بناء ولا حيوان، ولا تمكنا من الانتفاع بها، ولو أفرطت في اليبس كالحجر لم يمكن حرثها ولا زرعها، ولا شقها وفلحها، ولا حفر عيونها، ولا البناء عليها، فنقصت عن يبس الحجارة، وزادت على ليونة الطين، فجاءت بتقدير فاطرها على أحسن ما جاء عليه مهاد للحيوان، من الاعتدال بين اللين واليبوسة، فتهيأ عليها جميع المصالح.

ثم تأمل الحكمة البالغة في أن جعل مهب الشَّمال عليها أرفع من مهب الجنوب، وحكمة ذلك أن تتحدر المياه على وجه الأرض فتسقيها وترويها، ثم تفيض فتصب في البحر، فكما أن الباني إذا رفع سطحًا رفع أحد جانبيه وخفض الآخر؛ ليكون مصبًّا للماء، ولو جعله مستويًا لقام عليه الماء

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ١٢٤)، والترمذي (٣٣٦٩)، ومداره على سليمان بن أبي سليمان مولى ابن عباس وذكره ابن حبان في الثقاة في التابعين وأخرجه الضياء في المختارة (٢/ ١٥٢) وقال اسناده حسن، وهو كما قال فإن شواهده في القرآن والسنة.

فأفسده، كذلك جعل مهب الشَّمال في كل بلد أرفع من مهب الجنوب، ولولا ذلك لبقي الماء واقفًا على وجه الأرض، فمنع الناس من العمل والانتفاع، وقطع الطرق والمسالك، وأضر بالخلق!

أفيحسن عند من له مُسْكَة من عقل أن يقول: هذا كله اتفاق من غير تدبير العزيز الحكيم، الذي أتقن كل شيء؟!

ثم تأمل الحكمة العجيبة في الجبال الذي يحسبها الجاهل الغافل فضلة في الأرض لا حاجة إليها، وفيها من المنافع ما لا يحصيه إلا خالقها وناصبها، وفي حديث إسلام ضمام بن ثعلبة قوله للنبي ﷺ: بالذي نصب الجبال، وأودع فيها المنافع، آلله أمرك بكذا وكذا؟ قال: «**اللهم نعم**»(١).

فمن منافعها: أن الثلج يسقط عليها، فيبقى في قُلَلِها(٢) حاصلاً لشراب الناس إلى حين نفاده، وجعل فيها ليذوب أولاً فأولاً، فتجيء منه السيول الغزيرة، وتسيل منه الأنهار، والأودية، فينبت في [المروج والوِهاد والرُّبى](٣) ضروب النبات والفواكه والأدوية التي لا يكون مثلها في السهل والرمل، فلولا الجبال لسقط الثلج على وجه الأرض فانحل جملة وساح دفعة، فعدم وقت الحاجة إليه، وكان في انحلاله جملة السيول التي تهلك ما مرت عليه، فيضر بالناس ضررًا لا يمكن تلافيه ولا دفعه لأذيته.

---

(١) أخرجه مسلم (١٢/ ١٠، ١١) من حديث أنس ﷺ.

(٢) القُلل والقِلال جمع قُلَّة، وقُلَّةُ كل شيء أعلاه. «اللسان» (ق ل ل).

(٣) المروج، جمع مرج، والمَرْجُ: الأَرضُ الواسعةُ ذاتُ نباتٍ كثير تَمْرُجُ فيها الدوابُّ؛ أَي: تُخَلَّى تسرح مختلطةً حيث شاءت. والوِهاد جمع وَهْدة، والوَهْدَةُ: المطمئنُّ من الأَرض والمكان المنخفض كأَنه حفرة. والرُّبى جمع رَبْوة، وهي كلُّ ما ارْتَفَعَ من الأَرض. «اللسان» (م ر ج، و هـ د، ر ب ى).

من منافعها: ما يكون في حصونها وقُلَلِها من المغارات والكهوف والمعاقل التي منزلة الحصون والقلاع، وهي أيضًا أكنانٌ(١) للناس والحيوان.

ومن منافعها: ما ينحت من أحجارها للأبنية، على اختلاف أصنافها، والأَرْحِيَة(٢) وغيرها.

ومن منافعها: ما يوجد فيها من المعادن، على اختلاف أصنافها من الذهب، والفضة، والنحاس، والحديد، والرصاص، والزبرجد، والزمرد، وأضعاف ذلك من أنواع المعادن الذي يعجز البشر عن معرفتها على التفصيل، حتى إن فيها ما يكون الشيء اليسير منه تزيد قيمته ومنفعته على قيمة الذهب بأضعاف مضاعفة.

وفيها من المنافع مالا يعلمه إلا فاطرها ومبدعها سبحانه.

ومن منافعها أيضًا: أنها ترد الرياح العاصفة، وتكسر حدتها، فلا تدعها تصدم ما تحتها، ولهذا فالساكنون تحتها في أمان من الرياح العظام المؤذية.

ومن منافعها أيضًا: أنها ترد عنهم السيول إذا كانت في مجاريها، فتصرفها عنهم ذات اليمين وذات الشمال، ولولاها خربت السيول في مجاريها ما مرت به، فتكون لهم بمنزلة السد والسكن.

ومن منافعها: أنها أعلام يستدل بها في الطرقات، فهي منزلة الأدلة المنصوبة المرشدة إلى الطرق، ولهذا سماها اللَّه أعلامًا، فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٣٢﴾﴾ [الشُّورى: ٣٢] فالجواري هي السفن،

---

(١) الأكنان: جمع كِنّ، والكِنُّ والكِنَّةُ والكِنَانُ: وِقاء كل شيءٍ وسِتْره، والكِنُّ: البيت أَيضاً. «اللسان» (ك ن ن).

(٢) الأرحية: جمع رحا، وهو جمعٌ نادر، والمشهور: أَرْحٍ وأَرْحاءٌ ورُحِيٌّ ورِحِيٌّ. «اللسان» (ر ح ى).

والأعلام الجبال، واحدها علم، قالت الخنساء:

وإنَّ صخرًا لتأتمُّ الهداةُ بهِ كأنَّه علَمٌ في رأسِه نارُ

فسُمي الجبلُ عَلَمًا؛ من العلامة والظهور.

ومن منافعها أيضًا: ما ينبت فيها من العقاقير والأدوية التي لا تكون في السهول والرمال، كما أن ما ينبت في السهول والرمال لا ينبت مثله في الجبال، وفي كل من هذا وهذا منافع وحكم لا يحيط به إلا الخلاق العليم.

ومن منافعها: أنها تكون حصونًا من الأعداء يتحرز فيها عباد اللَّه من أعدائهم كما يتحصنون بالقلاع، بل تكون أبلغ وأحصن من كثير من القلاع والمدن.

ومن منافعها: ما ذكره اللَّه تعالى في كتابه، أن جعلها للأرض أوتادًا تثبتها ورواسي بمنزلة مراسي السفن، وأعظِم بها من منفعة وحكمة!

هذا، وإذا تأملت خلقتها العجيبة البديعة على هذا الوضع، وجدتها في غاية المطابقة للحكمة، فإنها لو طالت واستدقت كالحائط لتعذر الصعود عليها والانتفاع بها، وسترت عن الناس الشمس والهواء فلم يتمكنوا من الانتفاع بها، ولو بسطت على وجه الأرض لضيقت عليهم المزارع والمساكن، ولملأت السهل، ولما حصل لهم بها الانتفاع من التحصن والمغارات والإكنان، ولما سترت عنهم الرياح، ولما حجبت السيول، ولو جعلت مستديرة شكل الكرة، لم يتمكنوا من صعودها، ولما حصل لهم بها الانتفاع التام، فكان أولى الأشكال والأوضاع بها وأليقها وأوقعها على وفق المصلحة هذا الشكل الذي نصبت عليه، ولقد دعانا اللَّه سبحانه في كتابه إلى النظر فيها، وفي كيفية خلقها، فقال: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾

وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ﴿١٩﴾﴾ [الغاشية: ١٧ - ١٩].

فخلْقُها ومنافعُها من أكبر الشواهد على قدرة باريها وفاطرها وعلمِه وحكمتِه ووحدانيته، **هذا مع أنها تسبح بحمده، وتخشع له، وتسجد، وتشقق، وتهبط من خشيته**، وهي التي خافت من ربها وفاطرها وخالقها - على شدتها وعِظَم خَلْقِها - من الأمانة إذ عرضها عليها، وأشفقت من حملها، ومنها الجبل الذي كلم اللهُ عليه موسى كليمَه ونجيَّه، ومنها الجبل الذي تجلَّى له ربُّه فساخ وتدكدك، ومنها الجبل الذي حَبَّبَ اللهُ رسولَه وأصحابَه إليه وأحبَّه رسولُ اللّه وأصحابُه، ومنها الجبلان اللذان جعلهما اللّه سورًا على نبيه، وجعل الصفا في ذيل أحدهما، والمروة في ذيل الآخر، وشرع لعباده السعي بينهما، وجعله من مناسكهم وتعبداتهم، ومنها جبل الرحمة المنصوب عليه ميدان عرفات، فلله كم به من ذنب مغفور، وعثرة مقالة، وزلة معفو عنها، وحاجة مقضية، وكربة مفروجة، وبلية مرفوعة، ونعمة متجددة، وسعادة مكتسبة، وشقاوة ممحوة، كيف وهو الجبل المخصوص بذلك الجمع الأعظم، والوفد الأكرم، الذين جاءوا من كل فجٍّ عميق، وقوفًا لربهم مستكينين لعظمته، خاشعين لعزته، شعثًا غبرًا، حاسرين عن رءوسهم، يستقبلوه عثراتهم، ويسألونه حاجاتهم، فيدنو منهم، ثم يباهي بهم الملائكة، فلله ذاك الجبل وما ينزل عليه من الرحمة والتجاوز عن الذنوب العظام، ومنها جبل حراء الذي كان رسول اللّه ﷺ يخلو فيه بربه، حتى أكرمه اللّه برسالته، وهو في غاره، فهو الجبل الذي فاض منه النور على أقطار العالم، فإنه ليفخر على الجبال، وحق له ذلك، فسبحان من اختص برحمته وتكريمه من شاء من الجبال والرجال، فجعل منها جبالاً هي

مغناطيس القلوب كأنها مركبة منه، فهي تهوي إليها كلما ذكرتها، وتهفو نحوها، كما اختص من الرجال من خصه بكرامته، وأتم عليه نعمته، ووضع عليه محبته منه، فأحبه وحببه إلى ملائكته، وعباده المؤمنين، ووضع له القبول في الأرض بينهم.

وإذا تأملتَ البِقَاعَ وَجدتَها   تَشقى كما تَشقى الرجالُ وتَسْعَدُ

فدع عنك الجبل الفلاني، وجبل بني فلان، وجبل كذا:

خُذْ ما تراه ودَعْ شيئًا سمعتَ بهِ   في طلعةِ الشمسِ ما يُغنيك عن زُحَلِ

هذا، وإنها لتعلم أن لها موعدًا يومًا تنسف فيها نسفًا، وتصير كالعهن من هوله وعظمه، فهي مشفقة من هول ذلك الموعد، منتظرة له، وكانت أم الدرداء رضي اللَّه عنها إذا سافرت فصعدت على جبل تقول لمن معها: «**أسمعت الجبال ما وعدها ربها؟**» فيقال: ما أسمعها. فتقول: «﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٧]».

فهذا حال الجبال، وهي الحجارة الصلبة، وهذه رقتها وخشيتها وتدكدكها من جلال ربها وعظمته، وقد أخبر عنها فاطرها وباريها أنه لو أنزل عليها كلامه لخشعت، ولتصدعت من خشية الله، فيا عجبًا من مضغة لحم أقسى من هذه الجبال، تسمع آيات اللَّه تتلى عليها، ويذكر الرب تبارك وتعالى فلا تلين ولا تخشع ولا تنيب! فليس بمستنكر على اللَّه ﷻ ولا يخالف حكمته أن يخلق لها نارًا تذيبها؛ إذ لم تلن بكلامه وذكره وزواجره ومواعظه، فمن لم يلن لله في هذه الدار قلبُه ولم ينب إليه ولم يذبه بحبه والبكاء من خشيته، فليتمتعْ قليلاً، فإن أمامه المُلِين الأعظم، وسيُرَدُّ إلى

عالم الغيب والشهادة، فيرى ويعلم[١].

وتأمل الحكمة البديعة في تيسيره سبحانه على عباده ما هم أحوج إليه وتوسيعه، وكذلك بذله، فكلما كانوا أحوج إليه كان أكثر وأوسع، وكلما استغنوا عنه كان أقل، وإذا توسطت الحاجة توسط وجوده، فلم يكن بالعام ولا بالنادر على مراتب الحاجات وتفاوتها، فاعتبر هذا بالأصول الأربعة: التراب، والماء، والهواء، والنار، **وتأمل** سعة ما خلق اللَّه منها وكثرته، **فتأمل** سعة الهواء وعمومه ووجوده بكل مكان؛ لأن الحيوان مخلوق في البر لا يمكنه الحياة إلا به، فهو معه أينما كان، وحيث كان؛ لأنه لا يستغنى عنه لحظة واحدة، ولولا كثرته وسعته وامتداده في أقطار العالم لاختنق العالم من الدخان والبخار المتصاعد المنعقد، **فتأمل** حكمة ربك في أن سخر له الرياح، فإذا تصاعد إلى الجو أحالته سحابًا أو ضبابًا، فأذهبت عن العالم شره وأذاه!

فسلِ الجاحدَ: من الذي دبَّر هذا التدبير، وقدَّر هذا التقدير؟!

وهل يقدر العالم كلهم لو اجتمعوا أن يحيلوا ذلك ويقلبوه سحابًا أو ضبابًا، أو يذهبوه عن الناس ويكشفوه عنهم، ولو شاء ربه تعالى لحبس عنه الرياح فاختنق على وجه الأرض، فأهلك ما عليها من الحيوان والناس[٢].

❊ ❊ ❊

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢١٤- ٢٢١).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٢٢، ٢٢٣).

عظمة اللَّه وقدرته وحكمته في خلق الحيوان

ثم تأمل أولًا ذوات الأربع من الحيوان، كيف تراها تتبع أمهاتها، مستقلة بأنفسها فلا تحتاج إلى الحمل والتربية، كما يحتاج إليه أولاد الإنس، فمن أجل أنه ليس عند أمهاتها ما عند أمهات البشر؛ من التربية والملاطفة والرفق، والآلات المتصلة والمنفصلة - أعطاها اللطيف الخبير النهوض والاستقلال بأنفسها، على قرب العهد بالولادة، ولذلك ترى أفراخ كثير من الطير، كالدجاج، [والدَّرَّاج، والفتخ][1]، يدرج ويلقط حين يخرج من البيضة، وما كان منها ضعيف النهوض، كفراخ الحمام واليمام، أعطى سبحانه أمهاتها من فضله العطف والشفقة والحنان، ما تمج به الطعم في أفواه الفراخ من حواصلها، فتخبأه في أعز مكان فيها، ثم تسوقه من فيها إلى أفواه الفراخ، ولا تزال بها كذلك حتى ينهض الفرخ، ويستقل بنفسه، وذلك كله من حظها وقسمها الذي وصل إليها من الرحمة الواحدة من المائة، فإذا استقل بنفسه، وأمكنه الطيران لم يزل به الأبوان يعالجانه أتم معالجة وألطفها، حتى يطير من وكره، ويسترزق لنفسه، ويأكل من حيث يأكلان، وكأنهما لم يعرفاه، ولا عرفهما قط، بل يطردانه عن الوكر، ولا يدعانه وأقواتهما وبنيهما، بل يقولان له بلسان يفهمه: اتخذ لك وكرًا وقوتًا، فلا

(١) الدراج: القنفذ. والفتخاء -كذا- العُقاب، وهو طائر من كواسر الطير قوي المخالب مسرول - يعني: أَلْبَسَ ريشُه ساقَيْه - له منقار قصير أعقف حاد البصر، وفي المثل: (أبصر من عقاب) (لفظه مؤنث للذكر والأنثى). جمعه: أعقب وعِقبان. «اللسان» (درج)، و«المعجم الوسيط» (ف ت خ).

وكر لك عندنا ولا قوت.

فسل المعطل أهذا كله عن إهمال، ومن الذي ألهمها ذلك؟! ومن الذي عطفها على الفراخ وهي صغار أحوج ما كانت إليها، ثم سلب ذلك عنها، إذ استغنت الفراخ رحمة بالأمهات، تسعى في مصالحها، إذ لو دام لها ذلك لأضرَّ بها وشغلها عن معاشها لا سيما مع كثرة ما يحتاج إليه أولادها من الغذاء، فوضع فيها الرحمة والإيثار والحنان؛ رحمة بالفراخ، وسلبها إياها عند استغنائها؛ رحمة بالأمهات، أفيجوز أن يكون هذا كله بلا تدبير مدبر حكيم ولا عناية ولا لطف منه سبحانه وتعالى ؟! لقد قامت أدلة ربوبيته وبراهين إلهيته وشواهد حكمته وآيات قدرته، فلا يستطيع العقل لها جحودًا، إن هي إلا مكابرة باللسان، من كل جحود كفور، أفي اللَّه شك فاطر السموات والأرض؟! وإنما يكون الشك فيما تخفى أدلته، وتشكل براهينه، فأما من له في كل شيء محسوس أو معقول آية، بل آيات، مؤدية عنه شاهدة له بأنه اللَّه الذي لا إله إلا هو رب العالمين، فكيف يكون فيه شك؟!

ثم تأمل الحكمة البالغة في أن جعل ظهور الدواب مبسوطة كأنها سقف على عمد القوائم، ليتهيأ ركوبها، وتستقر الحمولة عليها، ثم خولف هذا في الإبل فجعل ظهورها مسنمة معقودة كالقبو[1]؛ لما خصت به من فضل القوة، وعظم ما تحمله، والأقباء تحمل أكثر مما تحمل السقوف حتى قيل: إن عقد الأقباء إنما أخذ من ظهور الإبل، **وتأمل** كيف لمَّا طول قوائم البعير طول عنقه؛ ليتناول المرعى من قيام، فلو قصرت عنقه لم يمكنه ذلك مع

---

(١) القبو: الطاق المعقود بعضه إلى بعض في شكل قوس، وبناء تحت الأرض تنخفض حرارته في الصيف فيحفظ فيه الجبن والزبد والفواكه وغيرها، جمع أقباء. «المعجم الوسيط» (ق ب ي).

طول قوائمه، وليكون أيضًا طول عنقه موازنًا للحمل على ظهره، إذا استقل به، كما ترى طول قصبة القبان، حتى قيل: إن القَبَّان إنما عُمل من خِلْقَة الجمل من طول عنقه، وثقل ما يحمله؛ ولهذا تراه يمد عنقه إذا استقل بالحمل، كأنه يوازنه موازنة[١].

* * *

عظمة اللَّه وقدرته وحكمته في خلق النمل

ثم تأمل هذه النملة الضعيفة، وما أعطيته من الفطنة، أو الحيلة في جمع القوت وادخاره وحفظه ودفع الآفة عنه، فإنك ترى في ذلك عبرًا وآيات، فترى جماعة النمل إذا أرادت إحراز القوت خرجت من أسرابها طالبة له، فإذا ظفرت به أخذت طريقًا من أسرابها إليه، وشرعت في نقله فتراها رفقتين، رفقة حاملة تحمله إلى بيوتها سربًا ذاهبًا، ورفقة خارجة من بيوتها إليه لا تخالط تلك في طريقها، بل هما كالخيطين بمنزلة جماعة الناس، الذاهبين في طريق، والجماعة الراجعين من جانبهم، فإذا ثقل عليها حمل الشيء من تلك، اجتمعت عليه جماعة من النمل وتساعدت على حمله بمنزلة الخشبة والحجر الذي تتساعد الفئة من الناس عليه، فإذا كان الذي ظفر به منهن واحدة، ساعدها رفقتها عليه إلى بيتها، وخلوا بينها وبينه، وإن كان الذي صادفه جماعة تساعدن عليه، ثم تقاسمنه على باب البيت.

ولقد أخبر بعض العارفين أنه شاهد منهن يومًا عجبًا، قال: رأيت نملة

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٣٦، ٢٣٧).

جاءت إلى شق جرادة فزاولته فلم تطق حمله من الأرض، فذهبت غير بعيد ثم جاءت معها بجماعة من النمل، قال: فرفعْتُ ذلك الشق من الأرض، فلما وصلت النملة برفقتها إلى مكانه، دارت حوله ودرن معها فلم يجدن شيئًا فرجعن، فوضعْتُه، ثم جاءت فصادفته فزاولته فلم تطق رفعه، فذهبت غير بعيد ثم جاءت بهن، فرفعْتُه، فدرن حول مكانه، فلم يجدن شيئًا، فذهبتْ فوضعتُه، فعادت فجاءت بهن، فرفعتُه، فدرن حول المكان، فلما لم يجدن شيئًا تحلقن حلقة وجعلن تلك النملة في وسطها، ثم تحاملن عليها فقطَّعنها عضوًا عضوًا، وأنا أنظر.

ومن عجيب أمر الفطنة فيها، إذا نقلت الحب إلى مساكنها كسرته؛ لئلا ينبت، فإن كان مما ينبت الفلقتان منه كسرته أربعًا، فإذا أصابه ندا وبلل وخافت عليه الفساد أخرجته للشمس، ثم ترده إلى بيوتها، ولهذا ترى في بعض الأحيان حبًّا كثيرًا على أبواب مساكنها مكسرًا، ثم تعود عن قريب، فلا ترى منه واحدة.

ومن فطنتها أنها لا تتخذ قريتها إلا على نشز[1] من الأرض؛ لئلا يفيض عليها السيل فيغرقها، فلا ترى قرية نمل في بطن واد، ولكن في أعلاه وما ارتفع عن السيل منه.

ويكفي في فطنتها ما نص اللَّه ﷻ في كتابه من قولها لجماعة النمل، وقد رأت سليمان عليه الصلاة والسلام وجنوده: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨]، فتكلمت بعشرة أنواع من الخطاب في هذه النصيحة: النداء، والتنبيه، والتسمية، والأمر،

(١) النشز، بالزاي: ما ارتفع وظهر. «اللسان» (ن ش ز).

والنص، والتحذير، والتخصيص، والتفهيم، والتعميم، والاعتذار، فاشتملت نصيحتها مع الاختصار على هذه الأنواع العشرة، ولذلك أعجب سليمانَ قولهُا، وتبسم ضاحكًا منه، وسأل اللّه أن يوزعه شكر نعمته عليه، لما سمع كلامها، ولا تستبعد هذه الفطنة من أمة من الأمم تسبح بحمد ربها، كما في الصحيح عن النبي ﷺ قال: «**نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة فلدغته نملة، فأمر بجهازه فأخرجه ثم أحرق قرية النمل، فأوحى اللّه إليه: مِن أجلِ أنْ لدَغتْكَ نملةٌ أحرقْتَ أمةً من الأممِ تسبِّحُ؟ فهلَّا نملةً واحدةً!**»[1][2].

* * *

(١) أخرجه البخاري (٣٣١٩)، ومسلم (٢٢٤١/ ١٤٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٤٢، ٢٤٣).

عظمة اللّه وقدرته وحكمته في خلق النحل

ثم تأمل أحوال النحل، وما فيها من العبر والآيات، **فانظر** إليها وإلى اجتهادها في صنعة العسل، وبنائها البيوت المسدسة التي هي من أتم الأشكال وأحسنها استدارة، وأحكمها صنعًا، فإذا انضم بعضها إلى بعض لم يكن بينها فرجة ولا خلل، كل هذا بغير مقياس ولا آلة ولا بيكار(١)، وتلك من أثر صنع الله، وإلهامه إياها، وإيحائه إليها، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [النحل: ٦٨، ٦٩].

فتأمل كمال طاعتها وحسن ائتمارها، لأمر ربها، اتخذت بيوتها في هذه الأمكنة الثلاثة: في الجبال الشعفان(٢)، وفي الشجر، وفي بيوت الناس، حيث يعرشون - أي: يبنون العروش، وهي البيوت - فلا يرى للنحل بيت غير هذه الثلاثة البتة.

وتأمل كيف أكثر بيوتها في الجبال، والشعفان، وهو البيت المقدم في الآية، ثم في الأشجار، وهي من أكثر بيوتها، ومما يعرش الناس، وأقل بيوتها بينهم حيث يعرشون، وأما في الجبال والشجر فبيوت عظيمة، يؤخذ منها من العسل الكثير جدًّا.

---

(١) البيكار: البركار، يعني: البرجل. «المعجم الوسيط» (بركل، برجل).

(٢) الشعفان أو الشعفات، والشَّعَفَةُ مُحَرَّكَةً: رَأْسُ الْجَبَلِ. جمع شَعَفٌ وشُعُوفٌ وشِعَافٌ وشَعَفَاتٌ، وهي: رُءوسُ الجِبَالِ. «تاج العروس» (ش ع ف).

وتأمل كيف أداها حسن الامتثال إلى أن اتخذت البيوت أولاً، فإذا استقر لها بيت خرجت منه فرَعَت وأكلت من الثمار، ثم آوت إلى بيوتها؛ لأن ربها سبحانه أمرها باتخاذ البيوت أولاً، ثم بالأكل بعد ذلك، ثم إذا أكلت سلكت سبل ربها مذللة، لا يستوعر عليها شيء، ترعى ثم تعود.

ومن عجيب شأنها أن لها أميرًا يسمى اليعسوب، لا يتم لها رواح ولا إياب ولا عمل ولا مرعى إلا به، فهي مؤتمرة لأمره سامعة له مطيعة، وله عليها تكليف وأمر ونهي، وهي رعية له منقادة لأمره متبعة لرأيه، يدبرها كما يدبر الملك أمر رعيته، حتى إنها إذا آوت إلا بيوتها وقف على باب البيت فلا يدع واحدة تزاحم الأخرى، ولا تتقدم عليها في العبور، بل تعبر بيوتها واحدة بعد واحدة بغير تزاحم ولا تصادم ولا تراكم، كما يفعل الأمير إذا انتهى بعسكره إلى معبر ضيق، لا يجوزه إلا واحد واحد.

ومن تدبر أحوالها وسياساتها وهدايتها واجتماع شملها وانتظام أمرها وتدبير ملكها وتفويض كل عمل إلى واحد منها - يتعجب منها كل العجب، ويعلم أن هذا ليس في مقدورها، ولا هو من ذاتها، فإن هذه أعمال محكمة متقنة في غاية الإحكام والإتقان، فإذا نظرت إلى العامل رأيته من أضعف خلق الله، وأجهله بنفسه وبحاله، وأعجزه عن القيام بمصلحته، فضلاً عما يصدر عنه من الأمور العجيبة.

ومن عجيب أمرها أن فيها أميرين لا يجتمعان في بيت واحد، ولا يتأمَّران على جمع واحد، بل إذا اجتمع منها جندان وأميران، قتلوا أحد الأميرين وقطعوه، واتفقوا على الأمير الواحد من غير معاداة بينهم ولا أذى من بعضهم لبعض، بل يصيرون يدًا واحدة وجندًا واحدًا.

ومن أعجب أمرها ما لا يهتدي له أكثر الناس ولا يعرفونه، وهو النتاج الذي يكون لها، هل هو على وجه الولادة والتوالد أو الاستحالة؟ فقلَّ من يعرف ذلك أو يفطن له، وليس نتاجها على واحد من هذين الوجهين، وإنما نتاجها بأمر من أعجب العجيب، فإنها إذا ذهبت إلى المرعى أخذت تلك الأجزاء الصافية التي على الورق من الورد والزهر والحشيش، وغيره، وهي الطلُّ، فتمصها، وذلك مادة العسل، ثم إنها تكبس الأجزاء المنعقدة على وجه الورقة، وتعقدها على رجلها كالعدسة، فتملأ بها المسدسات الفارغة من العسل، ثم يقوم يعسوبها على بيته مبتدئًا منه فينفخ فيه، ثم يطوف على تلك البيوت بيتًا بيتًا، وينفخ فيها كلها، فتدب فيها الحياة بإذن اللَّه ﷻ، فتتحرك وتخرج طيورًا بإذن الله، وتلك إحدى الآيات والعجائب، التي قل من يتفطن لها، وهذا كله من ثمرة ذلك الوحي الإلهي، أفادها وأكسبها هذا التدبير والسفر والمعاش والبناء والنتاج.

فسل المعطل من الذي أوحى إليها أمرها، وجعل ما جعل في طباعها؟ ومن الذي سهل لها سبله ذللاً منقادة، لا تستعصي عليها، ولا تستوعرها، ولا تضل عنها، على بعدها؟ ومن الذي هداها لشأنها؟ ومن الذي أنزل لها من الطلِّ، ما إذا جنته ردته عسلاً صافيًا مختلفًا ألوانه في غاية الحلاوة واللذاذة والمنفعة، من بين أبيض يرى فيه الوجه أعظم من رؤيته في المرآة، وَسَمَه لي من جاء به، وقال: هذا أفخر ما يعرف الناس من العسل وأصفاه وأطيبه، فإذا طعمه ألذ شيء يكون من الحلوى، ومن بين أحمر وأخضر ومورد وأسود وأشقر، وغير ذلك من الألوان والطعوم المختلفة فيه، بحسب مراعيه ومادتها.

وإذا تأملت ما فيه من المنافع والشفاء، ودخوله في غالب الأدوية، حتى كان المتقدمون لا يعرفون السكر، ولا هو مذكور في كتبهم أصلًا، وإنما كان الذي يستعملونه في الأدوية هو العسل، وهو المذكور في كتب القوم، ولعمر اللَّه إنه لأنفع من السكر وأجدى، وأجلى للأخلاط، وأقمع لها، وأذهب لضررها، وأقوى للمعدة، وأشد تفريحًا للنفس، وتقوية للأرواح، وتنفيذًا للدواء، وإعانة له على استخراج الداء من أعماق البدن، ولهذا لم يجئ في شيء من الحديث قط ذكر السكر، ولا كانوا يعرفونه أصلًا، ولو عدم من العالم لما احتاج إليه، ولو عدم العسل لاشتدت الحاجة إليه، وإنما غلب على بعض المدن استعمال السكر حتى هجروا العسل واستطابوه عليه، ورأوه أقل حدة وحرارة منه، ولم يعلموا أن من منافع العسل ما فيه من الحدة والحرارة، فإذا لم يوافق من يستعمله كسرها بمقابلها، فيصير أنفع له من السكر، وسنفرد إن شاء اللَّه مقالة نبين فيها فضل العسل على السكر، من طرق عديدة لا تمنع، وبراهين كثيرة لا تدفع، ومتى رأيت السكر يجلو بلغمًا؟ ويذيب خلطًا؟ أو يشفي من داء؟ وإنما غايته بعض التنفيذ للدواء إلى العروق للطافته وحلاوته، وأما الشفاء الحاصل من العسل فقد حرمه اللَّه كثيرًا من الناس حتى صاروا يذمونه، ويخشون غائلته من حرارته وحدته، ولا ريب أن كونه شفاء، وكون القرآن شفاء، والصلاة شفاء، وذكر اللَّه والإقبال عليه شفاء، أمر لا يعم الطبائع والأنفس، فهذا كتاب اللَّه هو الشفاء النافع، وهو أعظم الشفاء، وما أقل المستشفين به، بل لا يزيد الطبائع الرديئة إلا رداءة، ولا يزيد الظالمين إلا خسارًا، وكذلك ذكر اللَّه والإقبال عليه والإنابة إليه والفزع إلى الصلاة، كم قد شفي به من عليل، وكم قد عوفي به من

مريض، وكم قام مقام كثير من الأدوية التي لا تبلغ قريبًا من مبلغه في الشفاء، وأنت ترى كثيرًا من الناس، بل أكثرهم، لا نصيب لهم من الشفاء بذلك أصلًا، ولقد رأيت في بعض كتب الأطباء المسلمين في ذكر الأدوية المفردة، ذكر الصلاة، ذكرها في باب الصاد، وذكر من منافعها في البدن التي توجب الشفاء، وجوهًا عديدة، ومن منافعها في الروح، والقلب.

وسمعت شيخنا أبا العباس بن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ يقول، وقد عرض له بعض الألم، فقال له الطبيب: أضرُّ ما عليك الكلام في العلم، والفكر فيه والتوجه والذكر. فقال: ألستم تزعمون أن النفس إذا قويت وفرحت أوجب فرحها لها قوة تعين بها الطبيعة على دفع العارض، فإنه عدوها، فإذا قويت عليه قهرته؟ فقال له الطبيب: بلى. فقال: إذا اشتغلت نفسي بالتوجه والذكر والكلام في العلم، وظفرت بما يشكل عليها منه، فرحت به وقويت فأوجب ذلك دفع العارض هذا. أو نحوه من الكلام.

والمقصود: أن ترك كثير من الناس الاستشفاء بالعسل لا يخرجه عن كونه شفاء، كما أن ترك أكثرهم الاستشفاء بالقرآن من أمراض القلوب، لا يخرجه عن كونه شفاء لها، وهو شفاء لما في الصدور، وإن لم يستشف به أكثر المرضى، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس: ٥٧] فعم بالموعظة والشفاء، وخص بالهدى والمعرفة، فهو نفسه شفاء، استشفي به أو لم يستشف به، ولم يصف اللَّه في كتابه بالشفاء إلا القرآن والعسل، فهما الشفاآن: هذا شفاء القلوب من أمراض غيها وضلالها، وأدواء شبهاتها وشهواتها، وهذا شفاء للأبدان من كثير من أسقامها وأخلاطها وآفاتها.

ولقد أصابني أيام مقامي بمكة أسقام مختلفة، ولا طبيب هناك، ولا أدوية كما في غيرها من المدن، فكنت أستشفي بالعسل وماء زمزم، ورأيت فيهما من الشفاء أمرًا عجيبًا.

وتأمل إخباره سبحانه وتعالى عن القرآن بأنه نفسه شفاء، وقال عن العسل: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۚ﴾ [النحل: ٦٩]، وما كان نفسه شفاء أبلغ مما جعل فيه شفاء، وليس هذا موضع استقصاء فوائد العسل ومنافعه(١).

* * *

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٤٨، ٢٤٩).

عظمة اللَّه وقدرته وحكمته في استخراج اللبن من بهيمة الأنعام

ثم تأمل العبرة التي ذكرها اللَّه ﷻ في الأنعام، وما سقانا من بطونها من اللبن الخالص السائغ الهنيء المريء، الخارج من بين الفرث والدم.

فتأمل كيف ينزل الغذاء من أفواهها إلى المعدة، فينقلب بعضه دمًا، بإذن الله، وما يسري في عروقها وأعضائها وشحومها ولحومها، فإذا أرسلته العروق في مجاريها إلى جملة الأجزاء قلبه كل عضو أو عصب وغضروف وشعر وظفر وحافر - إلى طبيعته، ثم يبقى الدم في تلك الخزائن التي له؛ إذ به قوام الحيوان ثم ينصبُّ ثقله إلى الكرش، فيصير زبلًا، ثم ينقلب باقيه لبنًا صافيًا أبيض، سائغًا للشاربين، فيخرج من بين الفرث والدم، حتى إذا أنهكت الشاة أو غيرها حلبًا خرج الدم مشوبًا بحمرة فصفى اللَّه سبحانه الألطف من الثُّفْل بالطبخ الأول، فانفصل إلى الكبد، وصار دمًا، وكان مخلوطًا بالأخلاط الأربعة، فأذهب اللَّه ﷻ كل خلط منها إلى مقره وخزانته المهيأة له، من المرارة والطحال والكلية، وباقي الدم الخالص يدخل في أوردة الكبد، فينصب من تلك العروق إلى الضرع، فيقلبه اللَّه تبارك وتعالى من صورة الدم وطبعه وطعمه، إلى صورة اللبن وطبعه وطعمه، فاستخرج من الفرث والدم.

فسل المعطل الجاحد من الذي دبر هذا التدبير، وقدر هذا التقدير، وأتقن هذا الصنع، ولطف هذا اللطف، سوى اللطيف الخبير؟![1].

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٥١).

الثمرات العلمية للإيمان بتوحيد الربوبية

وذلك بأن يشهد بما أخبر اللَّه عن نفسه، وأخبر عنه رسوله - عليه الصلاة والسلام - ، أنه يدبر أمر الممالك، ويأمر وينهى، ويخلق ويرزق، ويميت ويحيي، ويقضي وينفذ، ويعز ويذل، ويقلب الليل والنهار، ويداول الأيام بين الناس، ويقلب الدول فيذهب بدولة، ويأتي بأخرى.

والرسل من الملائكة - عليهم الصلاة والسلام - بين صاعد إليه بالأمر، ونازل من عنده به، وأوامره ومراسيمه متعاقبة على تعاقب الآيات، نافذة بحسب إرادته، فما شاء كما شاء في الوقت الذي يشاء على الوجه الذي يشاء، من غير زيادة ولا نقصان، ولا تقدم ولا تأخر، وأمره وسلطانه نافذ في السموات وأقطارها، وفي الأرض وما عليها وما تحتها، وفي البحار والجو، وفي سائر أجزاء العالم، وذراته يقلبها ويصرفها، ويحدث فيها ما شاء، وقد أحاط بكل شيء علمًا، وأحصى كل شيء عددًا، ووسع كل شيء رحمة وحكمة، ووسع سمعُه الأصوات، فلا تختلف عليه، ولا تشتبه عليه، بل يسمع ضجيجها باختلاف لغاتها، على كثرة حاجاتها، لا يشغله سمع عن سمع، ولا تغلطه كثرة المسائل، ولا يتبرم بإلحاح ذوي الحاجات، وأحاط بصره بجميع المرئيات، فيرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، فالغيب عنده شهادة، والسر عنده علانية، يعلم السر وأخفى من السر، فالسر ما انطوى عليه ضمير العبد وخطر بقلبه، ولم تتحرك به شفتاه، وأخفى منه ما لم يخطر بعد، فيعلم أنه سيخطر بقلبه كذا وكذا، في وقت كذا وكذا، له الخلق والأمر، وله الملك والحمد، وله الدنيا والآخرة،

وله النعمة وله الفضل، وله الثناء الحسن، له الملك كله، وله الحمد كله، وبيده الخير كله، واليه يرجع الأمر كله، شملت قدرته كل شيء، ووسعت رحمته كل شيء، وسَعَتْ نعمته إلى كل حي.

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرَّحمن: ٢٩] يغفر ذنبًا، ويفرج همًّا، ويكشف كربًا، ويجبر كسيرًا، ويغني فقيرًا، ويعلم جاهلًا، ويهدي ضالًّا، ويرشد حيران، ويغيث لهفان، ويفك عانيًا، ويشبع جائعًا، ويكسو عاريًا، ويشفي مريضًا، ويعافي مُبْتَلًى، ويقبل تائبًا، ويجزي محسنًا، وينصر مظلومًا، ويقصم جبارًا، ويقيل عثرة، ويستر عورة، ويؤمن من روعة، ويرفع أقوامًا ويضع آخرين، لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه، ويمينه ملأى لا تغيضها نفقة، سحَّاء[1] الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق الخلق؟ فإنه لم يغض ما في يمينه، قلوب العباد ونواصيهم بيده، وأزمة الأمور معقودة بقضائه وقدره، الأرض جميعًا يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه، يقبض سمواته كلها بيده الكريمة، والأرض باليد الأخرى، ثم يهزهن، ثم يقول: أنا الملك أنا الملك، أنا الذي بدأت الدنيا ولم تكن شيئًا، وأنا الذي أعيدها كما بدأتها.

لا يتعاظمه ذنب أن يغفره، ولا حاجة يُسألها أن يعطيها، لو أن أهل سمواته وأهل أرضه وأول خلقه وآخرهم وإنسهم وجنهم، كانوا على أتقى قلب رجل منهم، ما زاد ذلك في ملكه شيئًا، ولو أن أول خلقه وآخرهم

---

(١) سحاء: دائمة الصَّبِّ والهطْل بالعَطاء. ومعنى «لا تغيضها»: لا تنقصها. «النهاية».

وإنسهم وجنهم، كانوا على أفجر قلب رجل منهم، ما نقص ذلك من ملكه شيئًا، ولو أن أهل سمواته وأهل أرضه، وإنسهم وجنهم وحيهم وميتهم ورطبهم ويابسهم، قاموا في صعيد واحد، فسألوه، فأعطى كلًّا منهم ما سأله، ما نقص ذلك مما عنده مثقال ذرة.

ولو أن أشجار الأرض كلها - من حين وجدت إلى أن تنقضي الدنيا - أقلام، والبحر - وراءه سبعة أبحر تمده من بعده - مداد، فكتب بتلك الأقلام، وذلك المداد لفنيت الأقلام، ونفذ المداد ولم تنفذ كلمات الخالق تبارك وتعالى، وكيف تفنى كلماته ﷻ جلاله، وهي لا بداية لها ولا نهاية؟ والمخلوق له بداية ونهاية، فهو أحق بالفناء والنفاد، وكيف يُفني المخلوقُ غيرَ المخلوق، هو الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، والظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء، تبارك وتعالى أحق من ذُكر، وأحق من عُبد، وأحق من حُمد، وأولى من شُكر، وأنصر من ابتغي، وأرأف من مَلك، وأجود من سُئل، وأعفى من قدر، وأكرم من قُصد، وأعدل من انتقم، حلمه بعد علمه، وعفوه بعد قدرته، ومغفرته عن عزته، ومنعه عن حكمته، و موالاته عن إحسانه ورحمته:

ما للعبادِ عليه حقٌّ واجبٌ كلَّا ولا سَعْيٌ لديه ضائعُ
إن عُذِّبوا فبعدلِه أو نُعِّموا فبفضلِه وهو الكريمُ الواسعُ

وهو الملك لا شريك له، والفرد فلا ند له، والغني فلا ظهير له، والصمد فلا ولد له ولا صاحبة، والعلي فلا شبيه له، ولا سمي له، كل شيء هالك إلا وجهه، وكل ملك زائل إلا ملكه، وكل ظل قالص إلا ظله، وكل فضل منقطع إلا فضله، لن يطاع إلا بإذنه ورحمته، ولن يعصى إلا بعلمه

وحكمته، يطاع فيشكر، ويعصى فيتجاوز ويغفر، كل نقمة منه عدل، وكل نعمة منه فضل، أقرب شهيد، وأدنى حفيظ، حال دون النفوس، وأخذ بالنواصي، وسجل الآثار، وكتب الآجال، فالقلوب له مفضية، والسر عنده علانية، والغيب عنده شهادة، عطاؤه كلام، وعذابه كلام، إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له: كن. فيكون.

فإذا أشرقت على القلب أنوار هذه الصفات، اضمحل عندها كل نور، ووراء هذا ما لا يخطر بالبال، ولا تناله عبارة[1].

* * *

(١) «الوابل الصيب» (١/ ٨٨- ٩١).

الثمرات العملية بالإيمان بتوحيد الربوبية

قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء: ٥٦، ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [القصص: ٨٨].

وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾ [الفرقان: ٥٨، ٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ﴾ [البيِّنة: ٥].

ونبين هذا بوجوه نقدم قبلها مقدمة، وذلك أن العبد، بل كل حي، بل وكل مخلوق سوى الله، هو فقير محتاج إلى جلب ما ينفعه، ودفع ما يضره، والمنفعة للحى هي من جنس النعيم واللذة، والمضرة هي من جنس الألم والعذاب، فلابد له من أمرين:

أحدهما: هو المطلوب المقصود المحبوب الذي ينتفع ويلتذ به.

والثاني: هو المعين الموصل المحصل لذلك المقصود، والمانع من دفع المكروه، وهذان هما الشيئان المنفصلان: الفاعل، والغاية، فهنا أربعة أشياء:

أحدها: أمر هو محبوب مطلوب الوجود.

والثاني: أمر مكروه مبغض مطلوب العدم.

والثالث: الوسيلة إلى حصول المطلوب المحبوب.

والرابع: الوسيلة إلى دفع المكروه.

فهذه الأربعة الأمور ضرورية للعبد، بل ولكل حي، لا يقوم وجوده وصلاحه إلا بها، وأما ما ليس بحي فالكلام فيه على وجه آخر.

• ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾:

إذا تبين ذلك فبيان ما ذكرته من وجوه:

أحدها: أن اللَّه تعالى هو الذي يحب أن يكون هو المقصود المدعو المطلوب، وهو المعين على المطلوب، وما سواه هو المكروه، وهو المعين على دفع المكروه، فهو سبحانه الجامع للأمور الأربعة، دون ما سواه، وهذا معنى قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥].

فإن العبودية تتضمن المقصود المطلوب لكن على أكمل الوجوه، والمستعان: هو الذي يستعان به على المطلوب، فالأول: من معنى الألوهية. والثاني: من معنى الربوبية؛ إذ الإله: هو الذي يؤله فيعبد محبة وإنابة وإجلالاً وإكرامًا. والرب: هو الذي يربي عبده فيعطيه خَلْقَه ثم يهديه إلى جميع أحواله من العبادة وغيرها، وكذلك قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشُّورى: ١٠]، وقوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقوله: ﴿عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤]، وقوله تعالى:

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ۝٥٨﴾ وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠]، وقوله: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾ [المزمل: ٨، ٩]، فهذه سبعة مواضع تنتظم هذين الأصلين الجامعين:

- **حقيقة الطمأنينة في قوله تعالى:** ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر: ٢٧]:

الوجه الثاني: أن اللَّه خلق الخلق لعبادته الجامعة لمعرفته والإنابة إليه، ومحبته والإخلاص له، فبذكره تطمئن قلوبهم، وبرؤيته في الآخرة تقر عيونهم، ولا شيء يعطيهم في الآخرة أحب إليهم من النظر إليه، ولا شيء يعطيهم في الدنيا أعظم من الإيمان به.

وحاجتهم إليه في عبادتهم إياه وتألههم، كحاجتهم وأعظم في خلقه لهم وربوبيته إياهم، فإن ذلك هو الغاية المقصودة لهم، وبذلك يصيرون عاملين متحركين، ولا صلاح لهم ولا فلاح ولا نعيم ولا لذة بدون ذلك بحال، بل ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤﴾ [طه: ١٢٤].

ولهذا كان اللَّه ﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، ولهذا كانت لا إله إلا اللَّه أحسن الحسنات، وكان التوحيد بقول: لا إله إلا الله، رأس الأمر.

فأما توحيد الربوبية الذي أقر به الخلق، وقرره أهل الكلام فلا يكفي وحده، بل هو من الحجة عليهم، وهذا معنى ما يروى: «**يا ابن آدم خلقت كل شيء لك وخلقتك لي، فبحقي عليك أن لا تشتغل بما خلقته لك عما خلقتك له**».

واعلم أن هذا حق اللَّه على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، كما في

الحديث الصحيح الذي رواه معاذ عن النبي ﷺ أنه قال: «**أتدرى ما حقُّ اللهِ على عبادِه؟**». قال: قلت: اللّه ورسوله أعلم، قال: «**حق اللّه على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا. أتدرى ما حقُّ العبادِ على اللهِ إذا فعلوا ذلك؟**».
قال: قلت: اللّه ورسوله أعلم، قال: «**حقُّهم أن لا يعذِّبَهم**»[1].

وهو يحب ذلك ويرضى به، ويرضى عن أهله، ويفرح بتوبة من عاد إليه، كما أن في ذلك لذة العبد وسعادته ونعيمه، وقد بينتُ بعض معنى محبة اللّه لذلك وفرحه به في غير هذا الموضع.

فليس في الكائنات ما يسكن العبد إليه، ويطمئن به، ويتنعم بالتوجه إليه، إلا اللّه سبحانه، ومَن عبد غير الله، وإن أحبه، وحصل له به مودة في الحياة الدنيا، ونوع من اللذة، فهو مفسدة لصاحبه أعظم من مفسدة التذاذ أكل الطعام المسموم ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢٢]، فإن قوامهما بأن تأله الإله الحق، فلو كان فيهما آلهة غير الله، لم يكن إلهًا حقًّا؛ إذ اللّه لا سميَّ له، ولا مثل له، فكانت تفسد لانتفاء ما به صلاحها، هذا من جهة الإلهية، وأما من جهة الربوبية فشيء آخر.

- **معنى فقر العبد إلى ربه:**

واعلم أن فقر العبد إلى اللّه أن يعبد اللّه لا يشرك به شيئًا ليس له نظير فيقاس به، لكن يشبه من بعض الوجوه حاجة الجسد إلى الطعام والشراب، وبينهما فروق كثيرة.

فإن حقيقة العبد قلبه وروحه، وهي لا صلاح لها إلا بإلهها اللّه الذي لا إله إلا هو، فلا تطمئن في الدنيا إلا بذكره، وهي كادحة إليه كدحًا فملاقيته،

(١) أخرجه البخاري (٥٩٦٧، ٦٢٦٧، ٦٥٠٠)، ومسلم (٣٠/ ٤٨).

ولا بد لها من لقائه، ولا صلاح لها إلا بلقائه.

ولو حصل للعبد لذات أو سرور بغير اللَّه فلا يدوم ذلك، بل ينتقل من نوع إلى نوع، ومن شخص إلى شخص، ويتنعم بهذا في وقت، وفي بعض الأحوال، وتارة أخرى يكون ذلك الذي يتنعم به والتذ، غير منعم له، ولا ملتذ له، بل قد يؤذيه اتصاله به ووجوده عنده ويضره ذلك.

وأما إلهه فلا بد له منه في كل حال، وكل وقت، وأينما كان فهو معه، ولهذا قال إمامنا إبراهيم الخليل ﷺ: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦]، وكان أعظم آية في القرآن الكريم: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

- **ترك الركون إلى الخلق**: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤]

الوجه الثالث: أن المخلوق ليس عنده للعبد نفع ولا ضرر، ولا عطاء ولا منع، ولا هدى ولا ضلال، ولا نصر ولا خذلان، ولا خفض ولا رفع، ولا عز ولا ذل، بل ربه هو الذي خلقه ورزقه، وبصَّره وهداه، وأسبغ عليه نعمه، فإذا مسه اللَّه بضر فلا يكشفه عنه غيره، وإذا أصابه بنعمة لم يرفعها عنه سواه، وأما العبد فلا ينفعه ولا يضره إلا بإذن الله، وهذا الوجه أظهر للعامة من الأول، ولهذا خوطبوا به في القرآن أكثر من الأول، لكن إذا تدبر اللبيب طريقة القرآن، وجد أن اللَّه يدعو عباده بهذا الوجه إلى الأول.

فهذا الوجه يقتضي التوكل على اللَّه والاستعانة به ودعاءه ومسألته، دون ما سواه، ويقتضي أيضًا محبة اللَّه وعبادته؛ لإحسانه إلى عبده، وإسباغ نعمه عليه، وحاجة العبد إليه في هذه النعم، ولكن إذا عبدوه وأحبوه وتوكلوا عليه

من هذا الوجه، دخلوا في الوجه الأول، ونظيره في الدنيا: من نزل به بلاء عظيم، أو فاقة شديدة، أو خوف مقلق، فجعل يدعو اللَّه ويتضرع إليه، حتى فتح له من لذة مناجاته ما كان أحب إليه من تلك الحاجة التي قصدها أولاً، ولكنه لم يكن يعرف ذلك أولاً حتى يطلبه ويشتاق إليه، والقرآن مملوء من ذكر حاجة العباد إلى اللَّه دون ما سواه، ومن ذكر نعمائه عليهم، ومن ذكر ما وعدهم في الآخرة من صنوف النعيم واللذات، وليس عند المخلوق شيء من هذا، فهذا الوجه يحقق التوكل على الله، والشكر له ومحبته على إحسانه.

- ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ **[العنكبوت: ٢٥]**:

الوجه الرابع: أن تعلق العبد بما سوى اللَّه مضرة عليه إذا أخذ منه القدر الزائد على حاجته في عبادة الله، فإنه إن نال من الطعام والشراب فوق حاجته ضره وأهلكه، وكذلك من النكاح واللباس، وإن أحب شيئًا حبًّا تامًّا بحيث يُخالِلُه فلا بد أن يسأمه، أو يفارقه، وفى الأثر المأثور: «**أحبِبْ ما شئتَ فإنك مفارقُه، واعمَلْ ما شئتَ فإنك ملاقيه، وكن كما شئتَ فكما تَدينُ تُدانُ**»[١].

واعلم أن كل من أحب شيئًا لغير اللَّه فلا بد أن يضره محبوبه، ويكون ذلك سببًا لعذابه، ولهذا كان الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله، يمثل لأحدهم كنزه يوم القيامة شجاعًا أقرع، يأخذ بلِهْزِمَتِه[٢]

(١) أخرجه أبو داود الطيالسي في «المسند» (ص٢٤٢) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٢) اللهزمة، بكسر اللام و الزاي: عظم ناتئ في اللحى تحت الأذن، وهما لِهْزِمَتَانِ، والجمع: =

يقول: أنا كنزك، أنا مالك.

وكذلك نظائر هذا في الحديث: «**يقولُ اللهُ يومَ القيامةِ: يا ابنَ آدمَ، أليس عدلاً منى أن أولِّي كلَّ رجلٍ منكم ما كان يتولَّاه في الدنيا؟**»[(١)].

وأصل التولي: الحب، فكل من أحب شيئًا دون اللَّه ولاه اللَّه يوم القيامة ما تولاه، وأصلاه جهنم وساءت مصيرًا، فمن أحب شيئًا لغير الله، فالضرر حاصل له إن وجد أو فقد، فإن فقد عذب بالفراق وتألم، وإن وجد فإنه يحصل له من الألم أكثر مما يحصل له من اللذة، وهذا أمر معلوم بالاعتبار والاستقراء، وكل من أحب شيئًا دون اللَّه لغير اللَّه فإن مضرته أكثر من منفعته. فصارت المخلوقات وبالاً عليه، إلا ما كان لله وفي الله، فإنه كمال وجمال للعبد، وهذا معنى ما يروى عن النبي ﷺ أنه قال: «**الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها، إلا ذكر اللَّه وما والاه**»[(٢)]. رواه الترمذي وغيره.

● **الرجوع إلى الله في كل هم ونائبة:**

الوجه الخامس: أن اعتماده على المخلوق وتوكله عليه يوجب الضرر من جهته، فإنه يخذل من تلك الجهة، وهو أيضًا معلوم بالاعتبار والاستقراء ما علق العبد رجاءه وتوكله بغير اللَّه إلا خاب من تلك الجهة، ولا استنصر بغير اللَّه إلا خذل، وقد قال اللَّه تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ

= لهازمُ، هذا في «المصباح المنير» وكذلك «المعجم الوسيط»، أما في «غريب الحديث» لابن الجوزي، وكذلك المُغْرِب: شِدْقُهُ، واللهزمتان: الشِّدْقَان.

(١) أخرجه الطبراني في «لكبير» (٩٧٦٣)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٤٠٨)، و(٤/ ٦٣٢) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٢٢)، وابن ماجه (٤١١٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال الترمذي: حديث حسن غريب.

عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٨١، ٨٢].

وهذان الوجهان في المخلوقات نظير العبادة والاستعانة في المخلوق، فلما قال: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ كان صلاح العبد في عبادة اللَّه واستعانته، وكان في عبادة ما سواه والاستعانة بما سواه مضرته وهلاكه وفساده.

- ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾ **[الأنعام: ١٢٨]**:

الوجه السادس: إن اللَّه سبحانه غني حميد كريم واجد رحيم، فهو سبحانه محسن إلى عبده مع غناه عنه، يريد به الخير، ويكشف عنه الضر، لا لجلب منفعة إليه من العبد، ولا لدفع مضرة، بل رحمة وإحسانًا، والعباد لا يتصور أن يعملوا إلا لحظوظهم، فأكثر ما عندهم للعبد أن يحبوه ويعظموه ويجلبوا له منفعة ويدفعوا عنه مضرة ما، وإن كان ذلك أيضًا من تيسير اللَّه تعالى، فإنهم لا يفعلون ذلك إلا لحظوظهم من العبد، إذا لم يكن العمل لله، فإنهم إذا أحبوه طلبوا أن ينالوا غرضهم من محبته، سواء أحبوه لجماله الباطن أو الظاهر، فإذا أحبوا الأنبياء والأولياء طلبوا لقاءهم فهم يحبون التمتع برؤيتهم، وسماع كلامهم ونحو ذلك.

وكذلك من أحب إنسانًا لشجاعته أو رياسته أو جماله أو كرمه، فهو يجب أن ينال حظه من تلك المحبة، ولولا التذاذه بها لما أحبه، وإن جلبوا له منفعة، كخدمة أو مال، أو دفعوا عنه مضرة، كمرض وعدو، ولو بالدعاء أو الثناء، فهم يطلبون العوض، إذا لم يكن العمل لله فأجناد الملوك، وعبيد

المالك، وأجراء الصانع، وأعوان الرئيس، كلهم إنما يسعون في نيل أغراضهم به، لا يعرج أكثرهم على قصد منفعة المخدوم، إلا أن يكون قد عُلِّم وأُدِّب من جهة أخرى، فيدخل ذلك في الجهة الدينية، أو يكون فيها طبع عدل وإحسان من باب المكافأة والرحمة، وإلا فالمقصود بالقصد الأول هو منفعة نفسه، وهذا من حكمة اللَّه التي أقام بها مصالح خلقه، وقسم بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا، ورفع بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضًا سخريًّا.

إذا تبين هذا ظهر أن المخلوق لا يقصد منفعتك بالقصد الأول، بل إنما يقصد منفعته بك، وإن كان ذلك قد يكون عليك فيه ضرر إذا لم يراع العدل، فإذا دعوته فقد دعوت من ضَرُّه أقرب من نفعه.

والرب سبحانه يريدك لك، ولمنفعتك بك، لا لينتفع بك، وذلك منفعة عليك، بلا مضرة، فتدبر هذا، فملاحظة هذا الوجه يمنعك أن ترجو المخلوق، أو تطلب منه منفعة لك، فإنه لا يريد ذلك بالقصد الأول، كما أنه لا يقدر عليه، ولا يحملنك هذا على جفوة الناس، وترك الإحسان إليهم، واحتمال الأذى منهم، بل أحسن إليهم لله، لا لرجائهم، وكما لا تخفهم فلا ترجهم، وخف اللَّه في الناس، ولا تخف الناس في الله، وارج اللَّه في الناس، ولا ترج الناس في الله، وكن ممن قال اللَّه فيه: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [الليل: ١٧ - ٢٠]، وقال فيه: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ [الإنسان: ٩].

- ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٣]

الوجه السابع: أن غالب الخلق يطلبون إدراك حاجاتهم بك، وإن كان ذلك ضررًا عليك، فإن صاحب الحاجة أعمى لا يعرف إلا قضاءها.

- ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦]:

الوجه الثامن: أنه إذا أصابك مضرة، كالخوف والجوع والمرض، فإن الخلق لا يقدرون على دفعها إلا بإذن الله، ولا يقصدون دفعها إلا لغرض لهم في ذلك.

- ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١]:

الوجه التاسع: أن الخلق لو اجتهدوا أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بأمر قد كتبه اللَّه لك، ولو اجتهدوا أن يضروك لم يضروك إلا بأمر قد كتبه اللَّه عليك، فهم لا ينفعونك إلا بإذن الله، ولا يضرونك إلا بإذن الله، فلا تعلِّق بهم رجاءك، قال اللَّه تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾ [الملك: ٢٠، ٢١]، والنصر يتضمن دفع الضرر، والرزق يتضمن حصول المنفعة.

قال اللَّه تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾ [قريش: ٣، ٤]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧]، وقال

الخليل ﷺ: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٢٦] الآية. وقال النبي ﷺ: «**هل تُرزقون وتُنصرون إلا بضعفائكم بدعائهم وصلاتهم وإخلاصهم**»[(١)][(٢)].

- ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

والتوحيد المطلوب من العبد: هو الفرار من اللَّه إليه، وتحت (من) و(إلى) في هذا سرٌّ عظيم من أسرار التوحيد.

الفرار إلى الله:

فإن الفرار إليه سبحانه يتضمن إفراده بالطلب والعبودية ولوازمها، فهو متضمن لتوحيد الإلهية التي اتفقت عليها دعوة الرسل صلوات اللَّه وسلامه عليهم أجمعين.

الفرار من الله:

وأما الفرار منه إليه فهو متضمن لتوحيد الربوبية، وإثبات القدر، وأن كل ما في الكون من المكروه والمحذور الذي يفر منه العبد فإنما أوجبته مشيئة اللَّه وحده، فإنه ما شاء كان، ووجب وجوده بمشيئته، وما لم يشأ لم يكن، وامتنع وجوده لعدم مشيئته، فإذا فر العبد إلى الله، فإنما يفر من شيء إلى شيء وجد بمشيئة اللَّه وقدره، فهو في الحقيقة فارٌّ من اللَّه إليه.

ومن تصور هذا حق تصوره، فهم معنى قوله ﷺ: «**وأعوذ بك منك**»[(٣)]،

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٩٦) من حديث سعد بن أبي وقاص ﵁.
(٢) «مجموع الفتاوى» (١/ ٢١- ٣٢).
(٣) سلف تخريجه.

وقوله: «**لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك**»(١)، فإنه ليس في الوجود شيء يفر منه، ويستعاذ منه، ويلتجأ منه إلا هو من اللَّه خلقًا وإبداعًا.

فالفارُّ والمستعيذ، فارٌّ مما أوجده قدر اللَّه ومشيئته وخلقه، إلى ما تقتضيه رحمته وبره، ولطفه وإحسانه، ففي الحقيقة هو هارب من اللَّه إليه، ومستعيذ باللَّه منه.

وتصوُّر هذين الأمرين يوجب للعبد انقطاع تعلق قلبه عن غيره بالكلية؛ خوفًا ورجاء ومحبة، فإنه إذا علم أن الذي يفر منه ويستعيذ منه إنما هو بمشيئة اللَّه وقدرته وخلقه، لم يبقَ في قلبه خوف من غير خالقه وموجده، فتضمن ذلك إفراد اللَّه وحده بالخوف والحب والرجاء، ولو كان فراره مما لم يكن بمشيئة اللَّه ولا قدرته لكان ذلك موجهًا لخوفه منه، مثل من يفر من مخلوق آخر أقدر منه، فإنه في حال فراره من الأول خائف منه؛ حذرًا أن لا يكون الثاني يفيده منه، بخلاف ما إذا كان الذي يفر إليه هو الذي قضى وقدر وشاء ما يفر منه، فإنه لا يبقى في القلب التفات إلى غيره.

فتفطن إلى هذا السر العجيب في قوله: «**أعوذ بك منك**»، و: «**لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك**». فإن الناس قد ذكروا في هذا أقوالاً، وقلَّ من تعرَّض منهم لهذه النكتة التي هي لب الكلام ومقصوده، وباللَّه التوفيق(٢).

- **شرح حديث الوسيلة:**

وفي «المسند» و«صحيح أبي الحاتم» من حديث عبد اللَّه بن مسعود ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ما أصاب عبدًا همٌّ ولا حَزَنٌ، فقال: اللهمَّ إني**

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤، ٥٩٥٢)، ومسلم (٥٦- ٥٨/ ٢٧١٠) من حديث البراء ﷺ.

(٢) «زاد المهاجر» (١/ ١٧- ١٩).

عبدُك، وابنُ عبدِك، ابنُ أمَتِك، ناصيتي بيدِك، ماضٍ فيَّ حُكمُك، عدلٌ فيَّ قضاؤك، أسألُك بكلِّ اسمٍ هو لك، سميتَ به نفسَك، أو أنزلتَه في كتابِك، أو علمتَه أحدًا من خلقِك، أو استأثرتَ به في علمِ الغيبِ عندَك، أن تجعلَ القرآنَ ربيعَ قلبي، ونورَ صدري، وجِلاءَ حَزَني، وذَهابَ همِّي وغمي؛ إلا أذهب اللهُ همَّه وغمَّه، وأبدله مكانه فرحًا». قالوا: يا رسول الله، أفلا نتعلمهنَّ؟ قال: «**بلى، ينبغي لمن سمعهنَّ أن يتعلمهنَّ**»[1].

فتضمن هذا الحديث العظيم أمورًا من المعرفة والتوحيد والعبودية:

منها: أن الداعي به صدَّر سؤاله بقوله: «**إني عبدُك، ابنُ عبدِك، ابنُ أمَتِك**»، وهذا يتناول مَن فوقه من آبائه وأمهاته إلى أبويه آدم وحواء، وفي ذلك تملُّق له، واستخذا[2] بين يديه، واعتراف بأنه مملوكه، وآباؤه مماليكه، وأن العبد ليس له غير باب سيده، وفضله وإحسانه، وأن سيده إن أهمله وتخلى عنه هلك، ولم يؤوه أحد، ولم يعطف عليه، بل يضيع أعظم ضيعة، فتَحْتَ هذا الاعتراف: إني لا غنى بي عنك طرفة عين، وليس لي من أعوذ به وألوذ به غير سيدي الذي أنا عبده.

وفي ضمن ذلك: الاعتراف بأنه مربوب مدبر، مأمور منهي، إنما يتصرف بحكم العبودية، لا بحكم الاختيار لنفسه، فليس هذا شأن العبد، بل شأن الملوك والأحرار، وأما العبيد فتعرفهم على محض العبودية، فهؤلاء عبيد الطاعة المضافون إليه سبحانه، في قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾ [الإسراء: ٦٥]، وقوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٩١)، وهو حديث صحيح.

(٢) وخَذأَ له، كمَنَعَ وفرِح، خَذْأً، بفتح فسكون، وخُذُوءاً، كقعود، وخَذَأً، محرَّكة: انْخَضَعَ وانْقاد، كاستَخْذَأَ يُهمز ولا يُهمز. «تاج العروس» (خ ذ أ).

هَوۡنٗا﴾ [الفرقان: ٦٣]، ومن عداهم عبيد القهر والربوبية، فإضافتهم إليه كإضافة سائر البيوت إلى ملكه، وإضافة أولئك كإضافة البيت الحرام إليه وإضافة ناقته إليه، وداره التي هي الجنة إليه، وإضافة عبودية رسوله إليه، بقوله: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ﴾ [الجن: ١٩].

وفي التحقيق بمعنى قوله: «إني عبدك»، التزام عبوديته من الذل والخضوع والإنابة وامتثال أمر سيده، واجتناب نهيه، ودوام الافتقار إليه، واللجأ إليه، والاستعانة به، والتوكل عليه، وعياذ العبد به ولياذه به، وأن لا يتعلق قلبه بغيره؛ محبة وخوفًا ورجاء.

وفيه أيضًا: إني عبد من جميع الوجوه: صغيرًا وكبيرًا، حيًّا وميتًا، ومطيعًا وعاصيًا، معافًى ومبتلًى، بالروح والقلب واللسان والجوارح.

وفيه أيضًا: إن مالي ونفسي ملك لك، فإن العبد وما يملك لسيده.

وفيه أيضًا: إنك أنت الذي مننتَ عليَّ بكل ما أنا فيه من نعمة، فذلك كله من إنعامك على عبدك.

وفيه أيضًا: إني لا أتصرف فيما خولتني من مالي ونفسي إلا بأمرك، كما لا يتصرف العبد إلا بإذن سيده، وإني لا أملك لنفسي ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا. فإن صح له شهود ذلك فقد قال: «**إني عبدُك**» حقيقة.

ثم قال: «**ناصيتي بيدك**»؛ أي: أنت المتصرف في تصرفي كيف تشاء، لستُ أنا المتصرف في نفسي. وكيف يكون له في نفسه تصرفٌ مَن نفسُه بيد ربه وسيده، وناصيته بيده، وقلبه بين أصبعين من أصابعه، وموته وحياته، وسعادته وشقاوته، وعافيته وبلاؤه، كله إليه سبحانه ليس إلى العبد منه

شيء؟ بل هو في قبضة سيده أضعف من مملوك ضعيف حقير، ناصيته بيد سلطان قاهر مالك له، تحت تصرفه وقهره، بل الأمر فوق ذلك، ومتى شهد العبد أن ناصيته ونواصي العباد كلها بيد اللَّه وحده، يصرفهم كيف يشاء، لم يخفهم بعد ذلك، ولم يرجهم، ولم ينزلهم منزلة المالِكين، بل منزلة عبيد مقهورين مربوبين، المتصرف فيهم سواهم، والمدبِّر لهم غيرهم، فمن شهد نفسه بهذا المشهد صار فقره وضرورته إلى ربه وصفًا لازمًا له، ومتى شهد الناسَ كذلك لم يفتقر إليهم، ولم يعلِّق أمله ورجاءه بهم، فاستقام توحيده وتوكله وعبوديته، ولِذا قال هود لقومه: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٦].

وقوله: «**ماضٍ فيَّ حكمُك، عدلٌ فيَّ قضاؤك**». تضمن هذا الكلام أمرين:

أحدهما: مضاء حكمه في عبده.

والثاني: يتضمن حمده وعدله، وهو سبحانه له الملك وله الحمد، وهذا معنى قول نبيه هود: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: مع كونه مالكًا قاهرًا متصرفًا في عباده، نواصيهم بيده، فهو على صراط مستقيم، وهو العدل الذي يتصرف به فيهم، فهو على صراط مستقيم في قوله وفعله، وقضائه وقدره، وأمره ونهيه، وثوابه وعقابه، فخبره كله صدق، وقضاؤه كله عدل، وأمره كله مصلحة، والذي نهى عنه كله مفسدة، وثوابه لمن يستحق الثواب بفضله ورحمته، وعقابه لمن يستحق العقاب بعدله وحكمته، وفرق بين الحكم والقضاء، وجعل المضاء للحكم والعدل للقضاء، فإن حكمه سبحانه يتناول حكمه الديني الشرعي، وحكمه الكوني القدري، والنوعان نافذان في العبد ماضيان فيه، وهو مقهور تحت

الحكمين، قد مضيا فيه ونفذا فيه، شاء أم أبى، لكن الحكم الكوني لا يمكنه مخالفته، وأمَّا الديني الشرعي فقد يخالفه، ولما كان القضاء هو الإتمام والإكمال، وذلك إنما يكون بعد مضيه ونفوذه، قال: «**عدلٌ فيَّ قضاؤك**»؛ أي: الحكم الذي أكملته وأتممته ونفذته في عبدك - عدلٌ منك فيه، وأما الحكم فهو ما يحكم به سبحانه، وقد يشاء تنفيذه، وقد لا ينفذه، فإن كان حكمًا دينيًّا فهو ماض في العبد، وإن كان كونيًّا فإن نفذه سبحانه مضى فيه، وإن لم ينفذه اندفع عنه، فهو سبحانه يقضي ما يقضي به، وغيره قد يقضي بقضاء، ويقدر أمر، ولا يستطيع تنفيذه، وهو سبحانه يقضي ويمضي، فله القضاء والإمضاء.

وقوله: «**عدلٌ فيَّ قضاؤك**». يتضمن جميع أقضيته في عبده من كل الوجوه: من صحة وسقم، وغنى وفقر، ولذة وألم، وحياة وموت، وعقوبة وتجاوز، وغير ذلك، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشُّورى: ٣٠]، وقال: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ﴾ [الشُّورى: ٤٨]، فكل ما يقضي على العبد فهو عدل فيه.

فإن قيل: فالمعصية عندكم بقضائه وقدره، فما وجه العدل في قضائها، فإن العدل في العقوبة عليها ظاهر؟

قيل: هذا سؤال له شأن، ومن أجله زعمت طائفة أن العدل هو المقدور، والظلم ممتنع لذاته، قالوا: لأن الظلم هو التصرف في ملك الغير، والله له كل شيء فلا يكون تصرفه في خلقه إلا عدلاً. وقالت طائفة: بل العدل أنه لا يعاقب على ما قضاه وقدره، فلما حسن منه العقوبة على الذنب علم أنه ليس بقضائه وقدره، فيكون العدل هو جزاؤه على الذنب بالعقوبة والذم، إما في الدنيا وإما في الآخرة.

وصَعُبَ على هؤلاء الجمع بين العدل وبين القدر، فزعموا أن من أثبت القدر لم يمكنه أن يقول بالعدل، ومن قال بالعدل لم يمكنه أن يقول بالقدر.

كما صعب عليهم الجمع بين التوحيد وإثبات الصفات، فزعموا أنه لا يمكنهم إثبات التوحيد إلا بإنكار الصفات، فصار توحيدهم تعطيلاً، وعدلهم تكذيبًا بالقدر.

وأما أهل السنة فهم مثبتون للأمرين، والظلم عندهم هو وضع الشيء في غير موضعه، كتعذيب المطيع ومن لا ذنب له، وهذا قد نزه اللَّه نفسه عنه في غير موضع من كتابه، وهو سبحانه وإن أضل من شاء، وقضى بالمعصية والغي على من شاء، فذلك محض العدل فيه؛ لأنه وضع الإضلال والخذلان في موضعه اللائق به، كيف ومِن أسمائه الحسنى (العدل) الذي كل أفعاله وأحكامه سداد وصواب وحق، وهو سبحانه قد أوضح السبل، وأرسل الرسل، وأنزل الكتب، وأزاح العلل، ومكن من أسباب الهداية والطاعة، بالأسماع والأبصار والعقول، وهذا عدله، ووفق من شاء بمزيد عناية، وأراد من نفسه أن يعينه ويوفقه، فهذا فضله، وخذل من ليس بأهل لتوفيقه وفضله، وخلى بينه وبين نفسه، ولم يرد سبحانه من نفسه أن يوفقه، فقطع عنه فضله، ولم يحرمه عدله، وهذا نوعان:

أحدهما: ما يكون جزاء منه للعبد على إعراضه عنه، وإيثار عدوه في الطاعة والموافقة عليه، وتناسي ذكره وشكره، فهو أهل أن يخذله ويتخلى عنه.

والثاني: أن لا يشاء له ذلك ابتداء لما يعلم منه أنه لا يعرف قدر نعمة الهداية، ولا يشكره عليه ولا يثني عليه بها ولا يحبه، فلا يشاؤها له؛ لعدم صلاحية محله.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام: ٥٣]، وقال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال: ٢٣]، فإذا قضى على هذه النفوس بالضلال والمعصية كان ذلك محض العدل، كما إذا قضى على الحية بأن تقتل، وعلى العقرب، وعلى الكلب العقور كان ذلك عدلاً فيه، وإن كان مخلوقًا على هذه الصفة.

والمقصود: أن قوله: «**ماضٍ فيَّ حكمُك، عدلٌ فيَّ قضاؤك**» رد على الطائفتين:

- القدرية الذين ينكرون عموم أقضية اللّه في عبده، ويخرجون أفعال العباد عن كونها بقضائه وقدره، ويردون القضاء إلى الأمر والنهي.

- وعلى الجبرية الذين يقولون كل مقدور عدل، فلا يبقى لقوله: «**عدلٌ فيَّ قضاؤك**» فائدة؛ فإن العدل عندهم كل ما يمكن فعله، والظلم هو المحال لذاته، فكأنه قال: «**ماض ونافذ فيَّ قضاؤك**»، وهذا هو الأول بعينه.

وقوله: «**أسألك بكل اسم . . .**»إلى آخره. توسل إليه بأسمائه كلها، ما علم العبد منها وما لم يعلم، وهذه أحب الوسائل إليه، فإنها وسيلة بصفاته وأفعاله التي هي مدلول أسمائه.

وقوله: «**أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري**». الربيع: المطر الذي يحيي الأرض، شبّه القرآن به؛ لحياة القلوب به، وكذلك شبهه اللّه بالمطر، وجمع بين الماء الذي تحصل به الحياة، والنور الذي تحصل به الإضاءة والإشراق، كما جمع بينهما سبحانه في قوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾

[الرعد: ١٧]، وفي قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧]، ثم قال: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ١٩]، وفي قوله: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ [النور: ٣٥]، ثم قال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾ الآية. [النور: ٤٣].

فتضمن الدعاء أن يحيي قلبه بربيع القرآن، وأن ينور به صدره فتجتمع له الحياة والنور.

قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

ولما كان الصدر أوسع من القلب، كان النور الحاصل له يسري منه إلى القلب؛ لأنه قد حصل لما هو أوسع منه، ولما كانت حياة البدن والجوارح كلها بحياة القلب تسري الحياة منه إلى الصدر ثم إلى الجوارح، سأل الحياة له بالربيع الذي هو مادتها، ولما كان الحزن والهم والغم يضاد حياة القلب واستنارته، سأل أن يكون ذهابها بالقرآن، فإنها أحرى أن لا تعود، وأما إذا ذهبت بغير القرآن، من صحة أو دنيا أو جاه أو زوجة أو ولد، فإنها تعود بذهاب ذلك، والمكروه الوارد على القلب إن كان من أمر ماض أحدث الحزن، وإن كان من مستقبل أحدث الهم، وإن كان من أمر حاضر أحدث الغم، والله أعلم[1].

---

(١) «الفوائد» (١/ ٢١- ٢٦).

أقسام الناس في العبادة والاستعانة

إن كل إنسان فهو همام، حارث، حساس، متحرك بالإرادة، بل كل حي فهو كذلك، له علم وعمل بإرادته، والإرادة: هي المشيئة، والاختيار، ولا بد في العمل الإرادي الاختياري من مراد وهو المطلوب، ولا يحصل المُراد إلا بأسباب ووسائل تحصله، فإن حصل بفعل العبد فلا بد من قدرة وقوة، وإن كان من خارج فلا بد من فاعل غيره، وإن كان منه ومن الخارج فلا بد من الأسباب، كالآلات، ونحو ذلك، فلا بد لكل حي من إرادة، ولا بد لكل مريد من عون يحصل به مراده، فصار العبد مجبولاً على أن يقصد شيئًا، ويريده ويستعين بشيء ويعتمد عليه في تحصيل مراده، هذا أمر حتم لازم ضروري في حق كل إنسان يجده في نفسه، لكن المراد والمستعان على قسمين:

- منه ما يراد لغيره.
- ومنه ما يراد لنفسه.

والمستعان: منه ما هو المستعان لنفسه، ومنه ما هو تبع للمستعان وآلة له.

فمن المراد ما يكون هو الغاية المطلوب، فهو الذي يذل له الطالب ويحبه، وهو الإله المقصود.

ومنه ما يراد لغيره، وهو بحيث يكون المراد هو ذلك الغير، فهذا مراد بالعرض.

ومن المستعان ما يكون هو الغاية التي يعتمد عليه العبد، ويتوكل عليه،

ويعتضد به، ليس عنده فوقه غاية في الاستعانة.

ومنه ما يكون تبعًا لغيره، بمنزلة الأعضاء مع القلب، والمال مع المالك، والآلات مع الصانع.

فإذا تدبر الإنسان حال نفسه وحال جميع الناس، وجدهم لا ينفكون عن هذين الأمرين، لا بد للنفس من شيء تطمئن إليه، وتنتهي إليه محبتها، وهو إلهها، ولا بد لها من شيء تثق به وتعتمد عليه في نيل مطلوبها، هو مستعانها، سواء كان ذلك هو اللَّه أو غيره، وإذًا فقد يكون عامًّا، وهو الكفر، كمن عبد غير اللَّه مطلقًا، وسأل غير اللَّه مطلقًا، مثل عُبَّاد الشمس والقمر، وغير ذلك، الذين يطلبون منهم الحاجات، ويفزعون إليهم في النوائب.

وقد يكون خاصًّا في المسلمين مثل من غلب عليه حب المال، أو حب شخص، أو حب الرياسة حتى صار عَبْدَ ذلك، كما قال النبي ﷺ: «**تَعِسَ عبدُ الدرهمِ، تَعِسَ عبدُ الدينارِ، تَعِسَ عبدُ الخميصةِ، تَعِسَ عبدُ الخميلةِ، إن أُعطي رَضِيَ، وإن مُنع سَخِط، تَعِسَ وانتَكس، وإذا شِيْكَ فلا انْتَقَشَ**»[1].

وكذلك من غلب عليه الثقة بجاهه، وماله بحيث يكون عنده مخدومه من الرؤساء ونحوهم، أو خادمه من الأعوان والأجناد ونحوهم، أو أصدقائه، أو أمواله هي التي تجلب المنفعة الفلانية، وتدفع المضرة الفلانية، فهو معتمد عليها ومستعين بها، والمستعان هو مدعو ومسئول.

وما أكثر ما تستلزم العبادة الاستعانة، فمن اعتمد عليه القلب في رزقه ونصره، ونفعه وضره، خضع له وذل وانقاد، وأحبه من هذه الجهة، وإن لم

(١) أخرجه البخاري (٢٨٨٦، ٢٨٨٧، ٦٤٣٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

يحبه لذاته، لكن قد يغلب عليه الحال حتى يحبه لذاته، وينسى مقصوده منه، كما يصيب كثيرًا ممن يحب المال، أو يحب من يحصل له به العز والسلطان.

وأما من أحبه القلب وأراده وقصده، فقد لا يستعينه ويعتمد عليه إلا إذا استشعر قدرته على تحصيل مطلوبه، كاستشعار المحب قدرة المحبوب على وصله.

فإذا استشعر قدرته على تحصيل مطلوبه استعانه، وإلا فلا، فالأقسام ثلاثة: فقد يكون محبوبًا غير مستعان، وقد يكون مستعانًا غير محبوب، وقد يجتمع فيه الأمران، فإذا علم أن العبد لا بد له في كل وقت وحال من منتهى يطلبه هو إلهه، ومنتهى يطلب منه هو مستعانه، وذلك هو صمده الذي يصمد إليه في استعانته وعبادته، تبين أن قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ كلام جامع محيط أولاً وآخرًا، لا يخرج عنه شيء، فصارت الأقسام أربعة:

- إما أن يعبد غير اللَّه ويستعينه، وإن كان مسلمًا، فالشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل.

- وإما أن يعبده ويستعين غيره، مثل كثير من أهل الدين، يقصدون طاعة اللَّه ورسوله، وعبادته وحده لا شريك له، وتخضع قلوبهم لمن يستشعرون نصرهم ورزقهم وهدايتهم من جهته من الملوك والأغنياء والمشايخ.

- وإما أن يستعينه، وإن عبد غيره، مثل كثير من ذوي الأحوال، وذوي القدرة، وذوي السلطان الباطن، أو الظاهر، وأهل الكشف والتأثير الذين

يستعينونه ويعتمدون عليه، ويسألونه ويلجئون إليه، لكن مقصودهم غير ما أمر اللَّه به ورسوله، وغير اتباع دينه وشريعته، التي بعث اللَّه بها رسوله.

- والقسم الرابع: الذين لا يعبدون إلا إياه، ولا يستعينون إلا به، وهذا القسم الرباعي قد ذكر فيما بعد أيضًا، لكنه تارة يكون بحسب العبادة والاستعانة، وتارة يكون بحسب المستعان، فهنا هو بحسب المعبود والمستعان، لبيان أنه لابد لكل عبد من معبود مستعان، وفيما بعد بحسب عبادة اللَّه واستعانته.

وتفصيل ذلك أن يقال: إن الناس فيها على أربعة أقسام[1]:

أجلُّها وأفضلها أهل العبادة والاستعانة باللَّه عليها، فعبادة اللَّه غاية مرادهم وطلبهم منه أن يعينهم عليها ويوفقهم للقيام بها، ولهذا كان من أفضل ما يسأل الرب تبارك وتعالى الإعانة على مرضاته، وهو الذي علمه النبي ﷺ لحِبِّه معاذ بن جبل رضي الله عنه فقال: «**يا معاذُ، واللهِ إني لأحبُّك، فلا تنس أن تقولَ دبرَ كلِّ صلاةٍ: اللهمَّ أعنِّي على ذكرِك وشكرِك وحسنِ عبادتِك**»[2].

فأنفع الدعاء طلب العون على مرضاته، وأفضل المواهب إسعافه بهذا المطلوب، وجميع الأدعية المأثورة مدارها على هذا، وعلى دفع ما يضاده، وعلى تكميله وتيسير أسبابه، **فتأملها**.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس اللَّه روحه: تأملت أنفع الدعاء، فإذا هو سؤال العون على مرضاته، ثم رأيته في «**الفاتحة**» في: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾.

(١) «مجموع الفتاوى» (١/ ٣٤- ٣٦).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٢٤٤، ٢٤٧)، وأبو داود (١٥٢٢)، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، وهو حديث صحيح.

ومقابل هؤلاء القسم الثاني، وهم المعرضون عن عبادته والاستعانة به، فلا عبادة ولا استعانة، بل إن سأله أحدهم واستعان به فعلى حظوظه وشهواته، لا على مرضاة ربه وحقوقه، فإنه سبحانه يسأله من في السموات والأرض، يسأله أولياؤه وأعداؤه، ويمد هؤلاء وهؤلاء، وأبغض خلقه عدوه إبليس، ومع هذا فقد سأله حاجة فأعطاه إياها، ومتعه بها، ولكن لما لم تكن عونًا له على مرضاته، كانت زيادة له في شقوته، وبعده عن الله، وطرده عنه، وهكذا كل من استعان به على أمر وسأله إياه، ولم يكن عونًا على طاعته، كان مبعدًا له عن مرضاته، قاطعًا له عنه ولا بد.

وليتأمل العاقل هذا في نفسه وفي غيره، وليعلم أن إجابة اللَّه لسائليه ليست لكرامة السائل عليه، بل يسأله عبده الحاجة فيقضيها له وفيها هلاكه وشقوته، ويكون قضاؤها له من هوانه عليه وسقوطه من عينه، ويكون منعه منها لكرامته عليه ومحبته له، فيمنعه حماية وصيانة وحفظا، لا بخلاً، وهذا إنما يفعله بعبده الذي يريد كرامته ومحبته، ويعامله بلطفه، فيظن بجهله أن اللَّه لا يحبه ولا يكرمه، ويراه يقضي حوائج غيره، فيسيء ظنه بربه، وهذا حشو قلبه ولا يشعر به، والمعصوم من عصمه الله، والإنسان على نفسه بصيرة، وعلامة هذا حمله على الأقدار، وعتابه الباطن لها كما قيل:

وعاجزُ الرأيِ مضياعٌ لفرصتِه حتى إذا فات أمرٌ عاتبَ القدَرَا

فواللَّه لو كشف عن حاصله وسره لرأى هناك معاتبة القدر واتهامه، وأنه قد كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، ولكن ما حيلتي والأمر ليس إليَّ، والعاقل خصم نفسه، والجاهل خصم أقدار ربه.

فاحذر كل الحذر، أن تسأله شيئا معَيَّنا خِيْرتُه وعاقبتُه مغيَّبة عنك، وإذا

لم تجد من سؤاله بدًّا فعلِّقه على شرط علمه تعالى فيه الخيرة، وقدم بين يدي سؤالك الاستخارة، ولا تكن استخارة باللسان بلا معرفة، بل استخارة من لا علم له بمصالحه، ولا قدرة له عليها، ولا اهتداء له إلى تفاصيلها، ولا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا، بل إن وُكِلَ إلى نفسه هلك كل الهلاك، وانفرط عليه أمره.

وإذا أعطاك ما أعطاك بلا سؤال، تسأله أن يجعله عونًا لك على طاعته، وبلاغًا إلى مرضاته، ولا يجعله قاطعًا لك عنه، ولا مبعدًا عن مرضاته، ولا تظن أن عطاءه كل ما أعطى لكرامة عبده عليه، ولا منعه كل ما يمنعه لهوان عبده عليه، ولكن عطاؤه ومنعه ابتلاء وامتحان يمتحن بهما عباده، قال اللَّه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥ - ١٧]؛ أي: ليس كل من أعطيته ونعمته وخولته، فقد أكرمته، وما ذاك لكرامته عليَّ، ولكنه ابتلاء عليَّ وامتحان له: أيشكرني فأعطيه فوق ذلك؟ أم يكفرني فأسلبه إياه وأخول فيه غيره؟ وليس كل من ابتليته فضيقت عليه رزقه وجعلته بقدر لا يفضل عنه، فذلك من هوانه عليَّ، ولكنه ابتلاء وامتحان مني له، أيصبر فأعطيه أضعاف أضعاف ما فاته من سعة الرزق؟ أم يتسخط فيكون حظه السخط؟

فرد اللَّه سبحانه على من ظن أن سعة الرزق إكرام، وأن الفقر إهانة، فقال: لم أبتل عبدي بالغنى لكرامته عليَّ، ولم أبتله بالفقر لهوانه عليَّ. فأخبر أن الإكرام والإهانة لا يدوران على المال، وسعة الرزق وتقديره، فإنه سبحانه يوسع على الكافر لا لكرامته، ويقتر على المؤمن لا لإهانته، إنما

يكرم من يكرمه بمعرفته ومحبته وطاعته، ويهين من يهينه بالإعراض عنه ومعصيته، فله الحمد على هذا وعلى هذا، وهو الغني الحميد، فعادت سعادة الدنيا والآخرة إلى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾.

القسم الثالث: من له نوع عبادة بلا استعانة.

وهؤلاء نوعان:

أحدهما: القدرية، القائلون بأنه قد فعل بالعبد جميع مقدوره من الألطاف، وأنه لم يبق في مقدوره إعانة له على الفعل، فإنه قد أعانه بخلق الآلات وسلامتها، وتعريف الطريق، وإرسال الرسل وتمكينه من الفعل فلم يبق بعد هذا إعانة مقدوره يسأله إياها، بل قد ساوى بين أوليائه وأعدائه في الإعانة، فأعان هؤلاء كما أعان هؤلاء، ولكن أولياءه اختاروا لنفوسهم الإيمان، وأعداءه اختاروا لنفوسهم الكفر، من غير أن يكون اللَّه سبحانه وفق هؤلاء بتوفيق زائد أوجب لهم الإيمان، وخذل هؤلاء بأمر آخر أوجب لهم الكفر، فهؤلاء لهم نصيب منقوص من العبادة، لا استعانة معه، فهم موكولين إلى أنفسهم، مسدود عليهم طريق الاستعانة والتوحيد، قال ابن عباس رضي اللَّه عنهما: «**الإيمان بالقدر نظام التوحيد، فمن آمن باللَّه وكذب بقدره نقض تكذيبُه توحيده**»[1].

النوع الثاني: من لهم عبادات وأوراد، ولكن حظهم ناقص من التوكل والاستعانة، لم تتسع قلوبهم لارتباط الأسباب بالقدر، وتلاشيها في ضمنه، وقيامها به، وأنها بدون القدر كالموات الذي لا تأثير له، بل كالعدم الذي لا وجود له، وأن القدر كالروح المحرِّك لها، والمعوَّل على المحرِّك الأول،

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في «السنة» (٩٢٨) عن ابن عباس ﷺ.

فلم تنفذ قوى بصائرهم من المتحرك إلى المحرِّك، ومن السبب إلى المسبِّب، ومن الآلة إلى الفاعل، فضعفت عزائمهم، وقصرت هممهم، فقلَّ نصيبهم من ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ولم يجدوا ذوق التعبد بالتوكل والاستعانة، وإن وجدوا ذوقه بالأوراد والوظائف، فهؤلاء لهم نصيب من التوفيق والنفوذ والتأثير، بحسب استعانتهم وتوكلهم، ولهم من الخذلان والضعف والمهانة والعجز، بحسب قلة استعانتهم وتوكلهم، ولو توكل العبد على اللَّه حق توكله في إزالة جبل عن مكانه، وكان مأمورًا بإزالته لأزاله.

فإن قلت: فما معنى التوكل والاستعانة؟

قلت: هو حال للقلب ينشأ عن معرفته بالله، والإيمان بتفرده بالخلق والتدبير، والضر والنفع، والعطاء والمنع، وأنه ما شاء كان، وإن لم يشأ الناس، وما لم يشأ لم يكن، وإن شاءه الناس، فيوجب له هذا اعتمادًا عليه، وتفويضًا إليه، وطمأنينة به، وثقة به، ويقينًا بكفايته لما توكل عليه فيه، وأنه مَلِيٌّ[1] به، ولا يكون إلا بمشيئته، شاءه الناس أم أبوه، فتشبه حالته حالة الطفل مع أبويه فيما ينويه من رغبة ورهبة، هما مليان بهما، **فانظر** في تجرد قلبه عن الالتفات إلى غير أبويه، وحبس همه على إنزال ما ينويه بهما، فهذه حال المتوكل، ومن كان هكذا مع اللَّه فاللَّه كافيه، ولا بد، قال اللَّه تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطَّلاق: ٣]؛ أي كافيه، والحسب الكافي، فإن كان مع هذا من أهل التقوى كانت له العاقبة الحميدة، وإن لم يكن من أهل التقوى فهو:

(١) الملي: الغني المقتدر. «المغرب في ترتيب المعرب» لابن المطرز، و«المخصص» لابن سيده. وانظر: «تاج العروس».

القسم الرابع: وهو من شهد تفرد اللَّه بالنفع والضر، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ولم يَدُرْ مع ما يحبه ويرضاه، فتوكل عليه، واستعان به على حظوظه وشهواته وأغراضه، وطلبها منه، وأنزلها به، فقضيت له، وأسعف بها، سواء كانت أموالاً، أو رياسة، أو جاهًا عند الخلق، أو أحوالاً، من كشف وتأثير، وقوة وتمكين، ولكن لا عاقبة له، فإنها من جنس الملك الظاهر والأموال لا تستلزم الإسلام، فضلاً عن الولاية والقرب من الله، فإن الملك والجاه، والمال والحال، معطاة للبر والفاجر، والمؤمن والكافر، فمن استدل بشيء من ذلك على محبة اللَّه لمن آتاه إياه، ورضاه عنه، وأنه من أوليائه المقربين - فهو من أجهل الجاهلين، وأبعدهم عن معرفةِ الله، ومعرفةِ دينه، والتمييزِ بين ما يحبه ويرضاه، ويكرهه ويسخطه، فالحال من الدنيا فهو كالملك والمال، إن أعان صاحبه على طاعة اللَّه ومرضاته، وتنفيذ أوامره، ألحقه بالملوك العادلين البررة، وإلا فهو وبال على صاحبه، ومبعد له عن الله، وملحق له بالملوك الظلمة والأغنياء الفجرة[1].

* * *

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٧٨- ٨٢).

الحكمة من تقديم العبادة على الاستعانة

وتقديم العبادة على الاستعانة في الفاتحة من باب تقديم الغايات على الوسائل، إذ العبادة غاية العباد التي خُلقوا لها، والاستعانة وسيلة إليها.

ولأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ متعلق بألوهيته واسمه (الله)، و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ متعلق بربوبيته، واسمه (الرب) فقدم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ كما قدم اسم الله، على الرب في أول السورة، ولأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ قسم الرب فكان من الشطر الأول الذي هو ثناء على اللَّه تعالى؛ لكونه أولى به، و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قسم العبد فكان من الشطر الذي له، وهو: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ إلى آخر السورة.

ولأن العبادة المطلقة تتضمن الاستعانة من غير عكس، فكل عابد لله عبودية تامة مستعين به، ولا ينعكس؛ لأن صاحب الأغراض والشهوات قد يستعين به على شهواته، فكانت العبادة أكمل وأتم، ولهذا كانت قسم الرب.

ولأن الاستعانة جزء من العبادة من غير عكس، ولأن الاستعانة طلب منه، والعبادة طلب له.

ولأن العبادة لا تكون إلا من مخلص، والاستعانة تكون من مخلص ومن غير مخلص.

ولأن العبادة حقه الذي أوجبه عليك، والاستعانة طلب العون على العبادة، وهو بيان صدقته التي تصدق بها عليك، وأداء حقه أهم من التعرض لصدقته.

ولأن العبادة شكر نعمته عليك، واللَّه يحب أن يشكر، والإعانة فعله

بك، وتوفيقه لك، فإذا التزمت عبوديته، ودخلت تحت رِقِّها أعانك عليها، فكان التزامها والدخول تحت رقها سببًا لنيل الإعانة، وكلما كان العبد أتم عبودية، كانت الإعانة من اللَّه له أعظم.

والعبودية محفوفة بإعانتين: إعانة قبلها على التزامها والقيام بها، وإعانة بعدها على عبودية أخرى، وهكذا أبدًا حتى يقضي العبدُ نَحْبَه.

ولأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ له، و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ به، وما له مقدم على ما به؛ لأن ما له متعلق بمحبته ورضاه، وما به متعلق بمشيئته، وما تعلق بمحبته أكمل مما تعلق بمجرد مشيئته، فإن الكون كله متعلق بمشيئته، والملائكة والشياطين، والمؤمنون والكفار، والطاعات والمعاصي، والمتعلق بمحبته: طاعاتهم، وإيمانهم، فالكفار أهل مشيئته، والمؤمنون أهل محبته، ولهذا لا يستقر في النار شيء لله أبدًا، وكل ما فيها فإنه به تعالى وبمشيئته، فهذه الأسرار يتبين بها حكمة تقديم: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[1].

- ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ **[فاطر: ١٠]**

والعبد كلما كان أذل لله، وأعظم افتقارًا إليه، وخضوعًا له، كان أقرب إليه، وأعز له، وأعظم لقدره، فأسعد الخلق أعظمهم عبودية لله.

وأما المخلوق فكما قيل: احتج إلى من شئت تكن أسيره، واستغن عمن شئت تكن نظيره، وأحسن إلى من شئت تكن أميره.

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٧٥- ٧٧).

ولقد صدق القائل:

بـيـن الـتَّـذَلُّلِ والـتَّـدَلُّلِ نـقـطـةٌ　　فـي رفـعِـهـا تَـتَـحَـيَّـرُ الأفـهـامُ

ذاك التذلل شركٌ فافهم يا فتى بالخلف.

فأعظم ما يكون العبد قدرًا وحرمة عند الخلق إذا لم يحتج إليهم بوجه من الوجوه، فإن أحسنت إليهم مع الاستغناء عنهم كنت أعظم ما يكون عندهم، ومتى احتجت إليهم - ولو في شربة ماء - نقص قدرك عندهم، بقدر حاجتك إليهم، وهذا من حكمة اللَّه ورحمته، ليكون الدين كله لله، ولا يشرك به شيء.

ولهذا قال حاتم الأصم، لما سئل فيم السلامة من الناس؟ قال: أن يكون شيئك لهم مبذولاً، وتكون من شيئهم آيسًا.

لكن إن كنت معوِّضًا لهم عن ذلك، وكانوا محتاجين، فإن تعادلت الحاجتان تساويتم، كالمتبايعين ليس لأحدهما فضل على الآخر، وإن كانوا إليك أحوج خضعوا لك، فالرب سبحانه أكرم ما تكون عليه أحوج ما تكون إليه، وأفقر ما تكون إليه، والخلق أهون ما يكون عليهم أحوج ما يكون إليهم؛ لأنهم كلهم محتاجون في أنفسهم، فهم لا يعلمون حوائجك، ولا يهتدون إلى مصلحتك، بل هم جهلة بمصالح أنفسهم، فكيف يهتدون إلى مصلحة غيرهم، فإنهم لا يقدرون عليها، ولا يريدون من جهة أنفسهم، فلا علم ولا قدرة ولا إرادة، والرب تعالى يعلم مصالحك، ويقدر عليها، ويريدها؛ رحمة منه وفضلاً، وذلك صفته من جهة نفسه، لا شيء آخر جعله مريدًا راحمًا، بل رحمته من لوازم نفسه، فإنه كتب على نفسه الرحمة، ورحمته وسعت كل شيء، والخلق كلهم محتاجون، لا يفعلون شيئًا إلا

لحاجتهم ومصلحتهم، وهذا هو الواجب عليهم والحكمة، ولا ينبغي لهم إلا ذلك، لكن السعيد منهم الذي يعمل لمصلحته، التي هي مصلحة، لا لما يظنه مصلحة، وليس كذلك، فهم ثلاثة أصناف: ظالم، وعادل، ومحسن:

فالظالم: الذي يأخذ منك مالاً، أو نفعا، ولا يعطيك عوضه، أو ينفع نفسه بضررك.

والعادل: المكافئ، كالبايع، لا لك ولا عليك، كل به يقوم الوجود، وكل منهما محتاج إلى صاحبه، كالزوجين، والمتبايعين، والشريكين.

والمحسن: الذي يحسن لا لعوض يناله منك، فهذا إنما عمل لحاجته ومصلحته، وهو انتفاعه بالإحسان، وما يحصل له بذلك مما تحبه نفسه، من الأجر، أو طلب مدح الخلق وتعظيمهم، أو التقرب إليك، إلى غير ذلك.

وبكل حال، ما أحسن إليك إلا لما يرجو من الانتفاع، وسائر الخلق إنما يكرمونك، ويعظمونك لحاجتهم إليك، وانتفاعهم بك، إما بطريق المعاوضة؛ لأن كل واحد من المتبايعين، والمتشاركين، والزوجين، محتاج إلى الآخر، والسيد محتاج إلى مماليكه، وهم محتاجون إليه، والملوك محتاجون إلى الجند، والجند محتاجون إليهم، وعلى هذا بني أمر العالم.

وأما بطريق الإحسان منك إليهم، فأقرباؤك، وأصدقاؤك وغيرهم، إذا أكرموك لنفسك فهم إنما يحبونك ويكرمونك لما يحصل لهم بنفسك من الكرامة، فلو قد ولَّيت ولُّوا عنك وتركوك، فهم في الحقيقة إنما يحبون أنفسهم وأغراضهم، فهؤلاء كلهم من الملوك إلى مَن دونهم، تجد أحدهم سيدًا مطاعًا، وهو في الحقيقة عبد مطيع، وإذا أوذي أحدهم بسبب سيده،

أو من يطيعه، تغير الأمر بحسب الأحوال، ومتى كنت محتاجًا إليهم نقص الحب والإكرام والتعظيم، بحسب ذلك، وإن قضوا حاجتك.

والرب تعالى يمتنع أن يكون المخلوق مكافيًا له، أو متفضلاً عليه، ولهذا كان النبي ﷺ يقول: إذا رفعت مائدته: «**الحمدُ للهِ حمدًا كثيرًا طيبًا، مباركًا فيه، غيرَ مَكْفِيٍّ ولا مَكْفُورٍ ولا مُوَدَّعٍ ولا مُسْتَغنًى عنه ربَّنا**». رواه البخاري من حديث أبي أمامة[١].

بل ولا يزال اللّٰه هو المنعم المتفضل على العبد وحده لا شريك له في ذلك، بل ما بالخلق كلهم من نعمة فمن الله، وسعادة العبد في كمال افتقاره إلى الله، واحتياجه إليه، وأن يشهد ذلك ويعرفه ويتصف معه بموجبه، أي بموجب علمه ذلك، فإن الإنسان قد يفتقر ولا يعلم، مثل أن يذهب ماله ولا يعلم، بل يظنه باقيًا، فإذا علم بذهابه صار له حال آخر، فكذلك الخلق، كلهم فقراء إلى الله، لكن أهل الكفر والنفاق في جهل بهذا، وغفلة عنه، وإعراض عن تَذَكُّره والعمل به، والمؤمن يقر بذلك، ويعمل بموجب إقراره، وهؤلاء هم عباد الله، فالإنسان وكل مخلوق فقير إلى اللّٰه بالذات، وفقره من لوازم ذاته، يمتنع أن يكون إلا فقيرًا إلى خالقه، وليس أحد غنيًّا بنفسه إلا اللّٰه وحده، فهو الصمد، الغني عما سواه، وكلُّ ما سواه فقير إليه، فالعبد فقير إلى اللّٰه من جهة ربوبيته، ومن جهة إلهيته[٢].

* * *

(١) أخرجه البخاري (٥٤٥٨، ٥٤٥٩).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١/ ٤٠، ٤١).

أقسام الناس في التوكل على الله

قال اللَّه تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، وقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [إبراهيم: ١١].

وقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطَّلاق: ٣]، وقال عن أوليائه: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

وقال لرسوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩].

وقال لرسوله: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾ [النمل: ٧٩]، وقال له: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١]، وقال له: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقال له: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال عن أنبيائه ورسله: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم: ١٢].

وقال عن أصحاب نبيه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال: ٢]. والقرآن مملوء من ذلك.

وفي «**الصحيحين**» في حديث السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب: **«هم الذين لا يَسْترقُون، ولا يَتطَيَّرون، ولا يَكْتوون، وعلى ربهم يتوكلون»**[(١)].

(١) أخرجه البخاري (٥٣٧٨)، ومسلم (٣٧٤، ٣٧٥/ ٢٢٠) من حديث ابن عباس ﷺ.

وفي «**صحيح البخاري**» عن ابن عباس - رضي اللَّه عنهما - قال: «**حسبنا اللَّه ونعم الوكيل قالها إبراهيم حين ألقي في النار، وقالها محمد حين قالوا له** ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]»[(١)].

وفي «**الصحيحين**» أن رسول اللَّه كان يقول: «**اللهمَّ لك أسلمتُ، وبك آمنتُ، وعليك توكلتُ، وإليك أنبتُ، وبك خاصمتُ، اللهمَّ إني أعوذُ بعزتِك لا إله إلا أنت أن تُضِلَّني، أنت الحيُّ الذي لا يموتُ، والجنُّ والإنسُ يموتون**»[(٢)].

وفي الترمذي عن عمر ﷺ مرفوعًا: «**لو أنكم تتوكلون على اللهِ حقَّ توكلِه، لرزقكم كما يرزقُ الطيرَ، تغدو خِمَاصًا وتروحُ بِطَانًا**»[(٣)].

وفي السنن عن أنس ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**من قال - يعني إذا خرج من بيته -: بسمِ اللهِ توكلتُ على اللهِ، ولا حول ولا قوةَ إلا باللهِ، يقال له: هديت ووقيت وكفيت. فيقولُ الشيطانُ لشيطانٍ آخرَ: كيف لك برجلٍ قد هُدِي وكُفِي ووُقِي؟**»[(٤)].

التوكل نصف الدين، والنصف الثاني الإنابة، فإن الدين استعانة وعبادة، فالتوكل هو الاستعانة، والإنابة هي العبادة، ومنزلته أوسع المنازل وأجمعها، ولا تزال معمورة بالنازلين لسعة متعلق التوكل وكثرة حوائج العالمين، وعموم التوكل ووقوعه من المؤمنين والكفار، والأبرار والفجار، والطير

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٨٨) بنحوه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما..
(٢) أخرجه البخاري (٦٩٤٨)، ومسلم (٦٧/ ٢٧١٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(٣) أخرجه الترمذي (٤/ ٥٧٣)، وقال الترمذي حسن صحيح.
(٤) أخرجه أحمد (١/ ٦٥)، وأبو داود (٥٠٩٥).

والوحش والبهائم، فأهل السموات والأرض المكلفون وغيرهم في مقام التوكل سواء وإن تباين متعلِّق توكلِهم، فأولياؤه وخاصته يتوكلون عليه في حصول ما يُرضيه منهم، وفى إقامته فى الخَلْق، فيتوكَّلون عليه في الإيمان، ونصرة دينه، وإعلاء كلمته، وجهاد أعدائه، وفي محابه، وتنفيذ أوامره.

ودون هؤلاء من يتوكل عليه في استقامته في نفسه، وحفظ حاله مع اللَّه فارغًا عن الناس.

ودون هؤلاء من يتوكل عليه في معلوم يناله منه: من رزق، أو عافية، أو نصر على عدو، أو زوجة، أو ولد، ونحو ذلك.

ودون هؤلاء من يتوكل عليه في حصول الإثم والفواحش، فإن أصحاب هذه المطالب لا ينالونها غالبًا إلا باستعانتهم بالله، وتوكلهم عليه، بل قد يكون توكلهم أقوى من توكل كثير من أصحاب الطاعات، ولهذا يلقون أنفسهم في المتالف والمهالك، معتمدين على اللَّه أن يسلمهم ويظفرهم بمطالبهم(١).

التوكل على اللَّه نوعان:

أحدهما: توكل عليه في جلب حوائج العبد وحظوظه الدنيوية، أو دفع مكروهاته، ومصائبه الدنيوية.

والثاني: التوكل عليه في حصول ما يحبه هو ويرضاه، من الإيمان، واليقين، والجهاد، والدعوة إليه.

وبين النوعين من الفضل ما لا يحصيه إلا الله، فمتى توكل عليه العبد في النوع الثاني حق توكله، كفاه النوع الأول تمام الكفاية، ومتى توكل عليه في

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ١١٢).

النوع الأول، دون الثاني كفاه أيضًا، لكن لا يكون له عاقبة المتوكِّل عليه فيما يحبه ويرضاه.

فأعظم التوكل عليه: التوكل في الهداية، وتجريد التوحيد، ومتابعة الرسول، وجهاد أهل الباطل، فهذا توكل الرسل وخاصة أتباعهم.

التوكل تارة يكون توكل اضطرار وإلجاء، بحيث لا يجد العبد ملجأ ولا وَزَرًا[1] إلا التوكل، كما إذا ضاقت عليه الأسباب، وضاقت عليه نفسه، وظن أن لا ملجأ من اللّه إلا إليه، وهذا لا يتخلف عنه الفرج والتيسير البتة، وتارة يكون توكل اختيار، وذلك التوكل مع وجود السبب المفضي إلى المراد، فإن كان السبب مأمورًا به، ذم على تركه، وإن قام السبب وترك التوكل، ذم على تركه أيضًا، فإنه واجب باتفاق الأمة ونص القرآن، والواجب القيام بهما، والجمع بينهما، وان كان السبب محرمًا حرم عليه مباشرته، وتوحد السبب في حقه في التوكل، فلم يبق سبب سواه، فإن التوكل من أقوى الأسباب في حصول المراد ودفع المكروه، بل هو أقوى الأسباب على الإطلاق، وإن كان السبب مباحًا، نظرت: هل يضعف قيامك به التوكل، أو لا يضعفه؟ فإن أضعفه وفرق عليك قلبك، وشتت همك، فتركه أولى، وإن لم يضعفه فمباشرته أولى؛ لأن حكمة أحكم الحاكمين، اقتضت ربط المسبب به، فلا تعطل حكمته مهما أمكنك القيام بها، ولا سيما إذا فعلته عبودية، فتكون قد أتيت بعبودية القلب بالتوكل، وعبودية الجوارح بالسبب المنوي به القربة، والذي يحقق التوكل القيام بالأسباب المأمور بها،

---

(١) الوَزَر -محرَّكةً- المَلْجَأ؛ وأَصل الوَزَرِ الجبل المنيع، وكلُّ مَعْقِلٍ وَزَرٌ، وفي التنزيل العزيز: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١﴾. «اللسان» (و ز ر).

فمن عطلها لم يصح توكله، كما أن القيام بالأسباب المفضية إلى حصول الخير يحقق رجاءه، فمن لم يقم بها كان رجاؤه تمنيًا، كما أن من عطلها يكون توكله عجزًا، وعجزه توكلًا.

وسر التوكل وحقيقته: هو اعتماد القلب على اللَّه وحده، فلا يضره مباشرة الأسباب مع خلو القلب من الاعتماد عليها، والركون إليها، كما لا ينفعه قوله: توكلت على الله. مع اعتماده على غيره، وركونه إليه، وثقته به، فتوكل اللسان شيء، وتوكل القلب شيء، كما أن توبة اللسان مع إصرار القلب شيء، وتوبة القلب وإن لم ينطق اللسان شيء، فقول العبد: توكلت على الله. مع اعتماد قلبه على غيره، مثل قوله: تبت إلى الله. وهو مصر على معصيته مرتكب لها![١].

* * *

(١) «الفوائد» (١/ ٨٦، ٨٧).



فضل تحقيق التوحيد

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: ٢ - ٤].

ثبت في «**الصحيحين**» من حديث الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**يدخلُ الجنةَ مِن أمتي زمرةٌ هم سبعون ألفًا، تضيء وجوهُهم إضاءةَ القمرِ ليلةَ البدرِ**». فقام عُكَّاشة بن محصن الأسدي، يرفع نَمِرَةً عليه فقال: يا رسول الله، ادع اللَّه أن يجعلني منهم. فقال: «**اللهمَّ اجعلْه منهم**». فقام رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، ادع اللَّه أن يجعلني منهم. فقال: «**سَبَقَك بها عُكَّاشةُ**»[(١)].

وفي «**الصحيحين**» من حديث سهل بن سعد أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**ليَدخُلنَّ الجنةَ من أمتي سبعون ألفًا بغيرِ حسابٍ، أو سبعمائةُ ألفٍ، آخِذٌ بعضُهم ببعضٍ، حتى يدخلَ أولُهم وآخرُهم الجنةَ، وجوهُهم على صورةِ القمرِ ليلةَ البدرِ، فهذه هي الزمرةُ الأولى**»[(٢)]. وهم يدخلونها بغير حساب، والدليل عليه ما ثبت في «**الصحيحين**» والسياق لمسلم: حدثنا سعيد بن منصور، حدثنا هُشيم، أنبأنا حُصين بن عبد الرحمن، قال: كنت عند سعيد بن جبير فقال: أيكم الذي رأى الكوكب الذي انقض البارحة؟ قلت: أنا، ثم

(١) أخرجه البخاري (٥٨١١، ٦٥٤٢)، ومسلم (٢١٦/ ٣٦٩).
(٢) أخرجه البخاري (٣٢٤٧، ٦٥٤٣، ٦٥٥٤)، ومسلم (٢١٩/ ٣٧٣).

قلت: أما إني لم أكن في صلاة، ولكنني لُدغت، قال: فما صنعت. قلت: استرقيت، قال: فما حملك على ذلك؟ قلت: حديث حدثناه الشعبي، قال: وما حدثكم الشعبي؟ قلت: حدثنا عن بريدة بن الحصيب الأسلمي أنه قال: لا رقيه إلا من عين أو حُمَة[١]. فقال: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن حدثنا ابن عباس ﵄ عن النبي ﷺ قال: «**عُرِضتْ عليَّ الأممُ، فرأيتُ النبيَّ ومعه الرَّهْطُ، والنبيَّ ومعه الرجلُ والرجلان، والنبيَّ وليس معه أحدٌ، ورُفِع إليَّ سوادٌ عظيمٌ، فظننتُ أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى وقومه، ولكن انظرْ إلى الأفقِ. فنظرتُ فإذا سوادٌ عظيمٌ، فقيل لي: هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفًا يدخلون الجنةَ بغيرِ حسابٍ ولا عذابٍ**». ثم نهض فدخل منزله، فخاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، فقال بعضهم: لعلهم الذين صحبوا رسول اللَّه ﷺ. وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام فلم يشركوا باللَّه شيئًا. وذكروا أشياء، فخرج عليهم رسول اللَّه ﷺ فقال: «**ما الذي تخوضون فيه؟**». فأخبروه فقال: «**هم الذين لا يَرْقُون، ولا يَسترْقون، ولا يَتطيَّرون، وعلى ربِّهم يتوكلون**». فقام عكاشة بن محصن فقال: ادع اللَّه أن يجعلني منهم، فقال: «**أنت منهم**». ثم قام رجل آخر، فقال: ادع اللَّه أن يجعلني منهم. فقال: «**سبقك بها عُكَّاشةُ**»[٢]. وليس عند البخاري «**لا يَرْقُون**». قال شيخنا: «**وهو الصواب**». وهذه اللفظة وقعت مقحمة في الحديث، وهي غلط من بعض الرواة، فإن النبي ﷺ جعل الوصف الذي يستحق به هؤلاء دخول الجنة بغير

---

(١) الحمة: سُمُّ كل شيء يَلْدَغُ أو يَلْسَعُ . «اللسان» (ح م و).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤١٠، ٥٧٠٥، ٦٤٧٢، ٦٥٤١)، ومسلم (٢٢٠/ ٣٧٤، ٣٧٥).

حساب هو تحقيق التوحيد وتجريده، فلا يسألون غيرهم أن يَرقِيَهم، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون، والطيرة نوع من الشرك، ويتوكلون على اللَّه وحده لا على غيره، وتركهم الاسترقاء والتطير هو من تمام التوكل على الله، كما في الحديث: «**الطِّيَرة شِرْكٌ**». قال ابن مسعود ﷺ: «**وما منا إلا من تَطير، ولكن اللَّه يذهبه بالتوكل**»[١]. فالتوكل ينافى التطير، وأما رقية العين فهي إحسان من الراقي، قد رقى رسولَ اللَّه ﷺ جبريلُ، وأذن في الرقى، وقال: «**لا بأس بها ما لم يكن فيها شركٌ**»[٢]. واستأذنوه فيها، فقال: «**مَن استطاع منكم أن يَنفعَ أخاه فلينفَعْه**»[٣]. وهذا يدل على أنها نفع وإحسان، وذلك مستحب مطلوب لله ورسوله، فالراقي محسن، والمسترقي سائل راجٍ نفعَ الغير، والتوكل ينافي ذلك.

فإن قيل: فعائشة قد رقيت رسول اللَّه ﷺ، وجبريل قد رقاه؟

قيل: أجل، ولكن هو لم يسترق، وهو ﷺ لم يقل: ولا يرقيهم راق. وإنما قال: لا يطلبون من أحد أن يرقيهم.

وفي امتناعه ﷺ أن يدعو للرجل الثاني، سدٌّ لباب الطلب، فإنه لو دعا لكل من سأله ذلك، فربما طلبه من ليس من أهله، واللَّه أعلم.

وفي «**صحيح مسلم**» من حديث محمد بن سيرين عن عمران بن حصين قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفًا، بغيرِ حسابٍ ولا عذابٍ**». قيل: ومن هم؟ قال: «**هم الذين لا يكتوون، ولا يسترقون،**

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٣٨٩، ٤٣٨، ٤٤٠)، وأبو داود (٣٩١٠)، والترمذي (١٦١٤)، من حديث ابن مسعود به.

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٠٠/ ٦٤)، من حديث عوف بن مالك الأشجعي ﷺ.

(٣) أخرجه ومسلم (٢١٩٩/ ٦١)، من حديث جابر بن عبد الله ﷺ.

ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون»[١]. وفي «**صحيحه**» أيضًا من حديث أبي الزبير أنه سمع جابر بن عبد اللَّه قال: سمعت النبي ﷺ يذكر حديثا طويلًا، وفيه: «**فتنجو أول زمرة، وجوههم كالقمر ليلة البدر، سبعون ألفًا لا يحاسبون، ثم الذين يلونهم كأضوإ نجم في السماء، ثم كذلك**». وذكر تمام الحديث[٢].

وقال أحمد بن منيع في «**مسنده**»: حدثنا عبد الملك بن عبد العزيز، حدثنا حماد، عن عاصم، عن زر، عن ابن مسعود قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**عرضت عليَّ الأممُ بالمَوْسِمِ، فراثَتْ عليَّ أمتي، ثم رأيتهم فأعجبني كثرتهم، وهيئتهم قد ملئوا السهل، والجبل، فقال: أرضيتَ يا محمدُ؟ فقلتُ: نعم، فقال: إن مع هؤلاء سبعين ألفًا يدخلون الجنةَ بغيرِ حسابٍ، وهم الذين لا يَسْتَرقون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون**». فقام عُكَّاشة بن مِحصن فقال: يا رسول الله، ادع اللَّه أن يجعلني منهم، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**أنت منهم**». فقام رجل آخر، فقال: «**سبقك بها عُكَّاشة**»[٣]. وإسناده على شرط مسلم[٤][٥].

* * *

(١) أخرجه مسلم (٣٧١/ ٢١٨).
(٢) أخرجه مسلم (٣١٦/ ١٩١).
(٣) أخرجه مسلم (٢١٨/ ٣٧١).
(٤) ذكره الحافظ ابنُ كثير في «تفسيره» (١/ ٥١٩) عن أحمد بن منيع بتمامه.
(٥) «حادي الأرواح» (١/ ٨٨-٩٠).

الفرق بين التوكل والعجز

قال تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾ [البقرة: ١٩٧].

«**وكثيرًا ما يشتبه في هذا الباب المحمود الكامل، بالمذموم الناقص.**

فيشتبه التفويض بالإضاعة، فيضيع العبد حظه، ظنا منه أن ذلك تفويض وتوكل، وإنما هو تضييع لا تفويض، فالتضييع في حق الله، والتفويض في حقك.

ومنه اشتباه التوكل بالراحة، وإلقاء حمل الكَلِّ(١)، فيظن صاحبه أنه متوكل، وإنما هو عامل على عدم الراحة.

وعلامة ذلك أن المتوكل مجتهد في الأسباب المأمور بها غاية الاجتهاد، مستريح من غيرها لتعبه بها.

والعامل على الراحة، آخذ من الأمر مقدار ما تندفع به الضرورة، وتسقط به عنه مطالبة الشرع، فهذا لون وهذا لون.

ومنه اشتباه خلع الأسباب بتعطيلها، فخلعها توحيد، وتعطيلها إلحاد وزندقة، فخلعها عدم اعتماد القلب عليها، ووثوقه وركونه إليها، مع قيامه بها، وتعطيلها إلغاؤها عن الجوارح.

ومنه اشتباه الثقة بالله بالغرور والعجز، والفرق بينهما:

أن الواثق بالله قد فعل ما أمره الله به ووثق بالله في طلوع ثمرته وتنميتها

---

(١) الكَلُّ: الثِّقَل. «اللسان» (ك ل ل).

وتزكيتها، كغارس الشجرة، وباذر الأرض.

والمغتر العاجز قد فرط فيما أمر به، وزعم أنه واثق بالله، والثقة إنما تصح بعد بذل المجهود.

ومنه اشتباه الطمأنينة إلى اللَّه والسكون إليه، بالطمأنينة إلى المعلوم وسكون القلب إليه، ولا يميز بينهما إلا صاحب البصيرة، كما يذكر عن أبي سليمان الداراني: أنه رأى رجلًا بمكة لا يتناول شيئًا، إلا شربة من ماء زمزم، فمضى عليه أيام، فقال له أبو سليمان يومًا: أرأيت لو غارت زمزم، أي شيء كنت تشرب؟ فقام وقبل رأسه، وقال: جزاك اللَّه خيرًا؛ حيث أرشدتني، فإني كنت أعبد زمزم منذ أيام. ثم تركه ومضى»[(١)].

* * *

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ١٢٣، ١٢٤).

علاقة توحيد الربوبية بالأسباب

قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [التوبة: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ [الأنفال: ١٧].

وقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [التوبة: ١١٨].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الشعراء: ١٦].

وقال تعالى: ﴿قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء: ٦٢].

«ومما ينبغي أن يعلم ما قاله طائفة من العلماء، قالوا: الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسبابًا نقصٌ في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع، وإنما التوكل والرجاء معنى يتألف من موجب التوحيد والعقل والشرع.

وبيان ذلك: أن الالتفات إلى السبب هو اعتماد القلب عليه ورجاؤه والاستناد إليه، وليس في المخلوقات ما يستحق هذا؛ لأنه ليس مستقلًا لا بد له من شركاء وأضداد، ومع هذا كله فإن لم يسخره مسبب الأسباب لم

يسخَّر، وهذا مما يبين أن اللَّه رب كل شيء ومليكه، وأن السموات والأرض وما بينهما، والأفلاك وما حوته، لها خالق مدبر غيرها، وذلك أن كل ما يصدر عن فلك، أو كوكب، أو ملك، أو غير ذلك، فإنك تجده ليس مستقلًا بإحداث شيء»[(١)].

«**ولهذا قال الخليل**: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦]، فإنها في حال أفولها قد انقطع أثرها عنا بالكلية، فلم تبق شبهة يستند إليها المتعلق بها، والرب الذي يُدعى ويُسأل، ويُرجى ويُتوكل عليه لا بد أن يكون قيومًا، يقيم العبد في جميع الأوقات والأحوال، كما قال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فهذا وغيره من أنواع النظر والاعتبار يوجب أن العبد لا يرجو إلا الله، ولا يتوكل إلا عليه.

وأما كونه لا يخاف إلا ذنبه؛ فلما علم من أنه لا تصيبه مصيبة إلا بذنوبه، وهذا يعلم بآيات الآفاق والأنفس، وبما أخبر في كتابه، كما هو مبسوط في غير هذا الموضع، وبينا سر ذلك بما لا يحتمله هذا الموضع.

وهذا تحقيق ما ثبت في الحديث الصحيح الإلهي، حديث أبى ذر عن النبي ﷺ عن ربه أنه قال: «**يا عبادي، إنما هي أعمالُكم، أُحصيها لكم، ثم أوَفِّيكم إياها، فمن وَجد خيرًا فليحمدِ اللهَ، ومن وَجد غيرَ ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسَه**»[(٢)]. فبين أن كل ما يجده العبد من الخير فليحمد اللَّه عليه، فإن اللَّه هو الذي أنعم به، وأن ما يجده من الشر فلا يلومن فيه إلا نفسه.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٨/ ١٦٩).

(٢) أخرجه ومسلم (٢٥٧٧/ ٥٥).

وفى الصحيح أيضًا عن النبي ﷺ أنه قال: «**سيدُ الاستغفارِ أن يقولَ العبدُ: اللهمَّ أنت ربى، لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدُك، وأنا على عهدِك ووعدِك ما استطعتُ، أعوذُ بك من شرِّ ما صنعتُ، أبوءُ لك بنعمتِك عليَّ، وأبوءُ بذنبي فاغفر لي، إنه لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنت**»(١).

فقوله: «**أبوءُ لك بنعمتِك عليَّ**» اعتراف وإقرار بالنعمة، وقوله: «**وأبوءُ بذنبي**» إقرار بالذنب، ولهذا قال من قال من السلف: «**إنى أصبح بين نعمة وذنب، فأريد أن أحدث للنعمة شكرًا، وللذنب استغفارًا**»(٢). لكن الشكر يكون بعد النعمة، والتوكل والرجاء يكون قبل النعمة، كما قال الخليل: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ﴾ [العنكبوت: ١٧]، وفي خطبة النبي: «**الحمدُ للهِ، نستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا، ومن سيئاتِ أعمالِنا**»(٣). فجمع بين حمده والاستعانة به، والاستغفار له، فقد تبين أن الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، وهو ظلم وجهل، وهذه حال من دعا غير اللَّه وتوكل عليه.

وأما قولهم: محو الأسباب أن تكون أسبابًا نقصٌ في العقل، فهو كذلك، وهو طعن في الشرع أيضًا، فإن كثيرًا من أهل الكلام أنكروا الأسباب بالكلية، وجعلوا وجودها كعدمها، كما أن أولئك الطبعيين جعلوها عللًا مقتضية، وكما أن المعتزلة فرقوا بين أفعال الحيوان وغيرها، والأقوال الثلاثة باطلة، فإن اللَّه يقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٦، ٦٣٢٣)، من حديث شداد بن أوس ﷺ.
(٢) أخرجه ابنُ أبي الدنيا في «كتاب الشكر» (٦٦، ١٥٠).
(٣) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٣٩٢، ٣٩٣، ٤٣٢)، وأبو داود (٢١١٨)، والترمذي (١١٠٥)، من حديث ابن مسعود ﷺ وهو حديث صحيح.

إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: ١٦]، وقال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦] وأمثال ذلك. فمن قال: يفعل عندها لا بها. فقد خالف لفظ القرآن، مع أن الحس والعقل يشهد أنها أسباب، ويعلم الفرق بين الجهة وبين العين في اختصاص أحدهما بقوة ليست في الآخر، وبين الخبز والحصى في أن أحدهما يحصل به الغذاء دون الآخر.

وأما قولهم: الإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع. بل هو أيضا قدح في العقل، فإن أفعال العباد من أقوى الأسباب لما نيط بها، فمن جعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض، أو يجعل المتقين كالفجار - فهو من أعظم الناس جهلاً، وأشدهم كفرًا، بل ما أمر اللَّه به من العبادات والدعوات، والعلوم والأعمال، من أعظم الأسباب فيما نيط بها من العبادات، وكذلك ما نهى عنه من الكفر والفسوق والعصيان هي من أعظم الأسباب لما علق بها من الشقاوات، ومع هذا فقد قال خير الخلق: «**إنَّه لن يَدخلَ أحدٌ منكم الجنةَ بعملِه**». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا، إلا أن يتغمدني اللهُ برحمةٍ منه وفضلٍ**»[1]. ولما قال لهم: «**ما منكم مِن أحدٍ إلا وقد عُلِم مقعدُه مِن الجنةِ ومقعدُه مِن النارِ**». قالوا: يا رسول الله، أفلا نتكل على الكتاب وندع العمل؟ قال: «**لا، اعملوا، فكلٌّ ميسرٌ لما خُلِق**

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٣، ٦٤٦٣)، ومسلم (٧١-٧٥/ ٢٨١٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

له، أما مَن كان مِن أهلِ السعادةِ فسيُيَسَّر لعملِ أهلِ السعادةِ، وأما كان مِن أهلِ الشقاوةِ فسيُيَسَّر لعملِ أهلِ الشقاوةِ»(١).

وكذلك الدعاء والتوكل من أعظم الأسباب؛ لما جعله اللَّه سببًا له، فمن قال: ما قُدِّر لي فهو يحصل لي، دعوتُ أو لم أدع، وتوكلت أو لم أتوكل! فهو بمنزلة من يقول: ما قسم لي من السعادة والشقاوة فهو يحصل لي، آمنت أو لم أؤمن، وأطعت أم عصيت! ومعلوم أن هذا ضلال وكفر، وإن كان الأول ليس مثل هذا في الضلال؛ إذ ليس تعليق المقاصد بالدعاء والتوكل كتعليق سعادة الآخرة بالإيمان، لكن لا ريب أن ما جعل اللَّه سببًا له بمنزلة ما جعل العمل الصالح سببًا له، وهو قادر على أن يفعله سبحانه بدون هذا السبب، وقد يفعله بسبب آخر.

وكذلك مَن ترك الأسباب المشروعة المأمور بها، أمر إيجاب، أو أمر استحباب، من جلب المنافع، أو دفع المضار، قادحٌ في الشرع، خارجٌ عن العقل، ومن هنا غلطوا في ترك الأسباب المأمور بها، وظنوا أن هذا من تمام التوكل، والتوكل مقرون بالعبادة في قوله: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود: ١٢٣]، والعبادة فعل المأمور، فمَن ترك العبادة المأمور بها وتوكَّلَ، لم يكن أحسن حالاً ممن عبده ولم يتوكل عليه، بل كلاهما عاص لله تارك لبعض ما أمر به.

والتوكل يتناول التوكل عليه ليعينه على فعل ما أمر، والتوكل عليه ليعطيه ما لا يقدر العبد عليه، فالاستعانة تكون على الأعمال، وأما التوكل فأعم من ذلك، ويكون التوكل عليه لجلب المنفعة ودفع المضرة، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٢، ٤٩٤٥ - ٤٩٤٨)، مسلم (٦، ٧/ ٢٦٤٧)، من حديث عليّ ﷺ.

أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [التوبة: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣].

فمن لم يفعل ما أمر به، لم يكن مستعينًا باللَّه على ذلك، فيكون قد ترك العبادة، والاستعانة عليها بترك التوكل في هذا الموضع أيضًا، وآخر يتوكل بلا فعل مأمور، وهذا هو العجز المذموم كما في «**سنن أبي داود**»: أن رجلين اختصما إلى النبي ﷺ فحكم على أحدهما، فقال المقضيّ عليه: حسبي اللَّه ونعم الوكيل. فقال النبي: ﷺ«**إنَّ اللهَ يلومُ على العجزِ، ولكنْ عليك بالكَيْسِ، فإنْ غَلبك أمرٌ فقل: حسبي اللهُ ونعم الوكيلُ**»(١). وفي «**صحيح مسلم**» عن النبي ﷺ: أنه قال: «**المؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى اللهِ من المؤمنِ الضعيفِ، وفي كلٍّ خيرٌ، احرِصْ على ما ينفعُك واستعِنْ باللَّه ولا تعجَزنَّ، وإن أصابك شيءٌ فلا تقلْ: لو أني فعلت كذا لكان كذا. ولكن قُل: قدَّر اللهُ وما شاء فعَل. فإنَّ لو تفتحُ عملَ الشيطانِ**»(٢). فإن الإنسان ليس مأمورًا أن ينظر إلى القدَر عندما يؤمر به من الأفعال، ولكن عندما يجري عليه من المصائب التي لا حيلة له في دفعها، فما أصابك بفعل الآدميين، أو بغير فعلهم، اصبر عليه وارض وسلم، قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [التغابن: ١١].

قال بعض السلف - إما ابن مسعود وإما علقمة -: «**هو الرجل تصيبه**

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٢٧)، من حديث عوف بن مالك ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم (٣٤/ ٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

المصيبة فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويسلم»[١].

ولهذا قال آدم لموسى: «**أتلومني على أمر قدَّره اللَّه عليَّ قبل أن أخلق بأربعين سنة؟! فحجَّ آدمُ موسى**»؛ لأن موسى قال له: «**لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟**». فلامه على المصيبة التي حصلت بسبب فعله، لا لأجل كونها ذنبًا، ولهذا احتج عليه آدم بالقدر، وأما كونه لأجل الذنب كما يظنه طوائف من الناس فليس مرادًا بالحديث؛ لأن آدم - عليه السلام - كان قد تاب من الذنب، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، ولا يجوز لوم التائب باتفاق الناس»[٢].

«**وأمَّا المسألة الرابعة**: فقوله: إذا جف القلم بما هو كائن، فما معنى قوله: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: ٦٠]، وإن كان الدعاء أيضًا مما هو كائن، فما فائدة الأمر به ولا بد من وقوعه؟

فيقال: الدعاء في اقتضائه الإجابة، كسائر الأعمال الصالحة في اقتضائها الإثابة، وكسائر الأسباب في اقتضائها المسببات، ومن قال: إن الدعاء علامة ودلالة محضة على حصول المطلوب المسئول ليس بسبب، أو هو عبادة محضة لا أثر له في حصول المطلوب وجودًا ولا عدمًا، بل ما يحصل بالدعاء يحصل بدونه. فهما قولان ضعيفان، فإن اللَّه علق الإجابة به تعليق المسبب بالسبب، كقوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: ٦٠]. وفي «**الصحيحين**» عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما من مسلمٍ يدعو اللهَ بدعوةٍ ليس**

(١) أخرجه ابن جرير الطبري «التفسير» (٢٨/ ١٢٣)، والبيهقي في «الكبرى» (٤/ ٦٦)، من طرق عن علقمة به. وعزاه السيوطي في «الدر» (٨/ ١٨٤) لسعيد بن منصور، عن ابن مسعود.

(٢) «مجموع الفتاوى» (٨/ ١٧٤-١٧٩).

فيها إثمٌ ولا قطيعةُ رحمٍ إلا أعطاه بها إحدى خصالٍ ثلاثٍ: إما أن يُعجِّلَ له دعوتَه، وإما أن يَدَّخرَ له من الخيرِ مثلَها، وإما أن يَصرف عنه من الشرِّ مثلَها». قالوا: يا رسول الله، إذًا نكثر؟ قال: «**اللهُ أكثرُ**»[1]. فعلق العطايا بالدعاء، تعليق الوعد والجزاء بالعمل المأمور به.

وقال عمر بن الخطاب: «إني لا أحمل همَّ الإجابة، وإنما أحمل همَّ الدعاء، فإذا أُلهمت الدعاء فإن الإجابة معه». وأمثال ذلك كثير.

وأيضًا فالواقع المشهود يدل على ذلك ويبينه، كما يدل على ذلك مثله في سائر الأسباب، وقد أخبر سبحانه من ذلك ما أخبر به، في مثل قوله: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [الصافات: ٧٥]، وقوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٧٨، ٨٨]، وقوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل: ٦٢]. وقوله تعالى عن زكريا: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٨٩، ٩٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٣٩)، مسلم (٩٠- ٩٢/ ٢٧٣٥)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٤﴾ وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ﴿٣٥﴾﴾ [الشُّورى: ٣٢ - ٣٥].

فأخبر أنه إن شاء أوبقهن، فاجتمع أخذهم بذنوبهم وعفوه عن كثير منها، مع علم المجادلين في آياته أنه ما لهم من محيص؛ لأنه في مثل هذا الحال يعلم المورد للشبهات في الدلائل الدالة على ربوبية الرب وقدرته ومشيئته ورحمته - أنه لا مخلص له مما وقع فيه، كقوله في الآية الأخرى: ﴿وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ﴾ [الرعد: ١٣].

فإن المعارف التي تحصل في النفس بالأسباب الاضطرارية أثبت وأرسخ من المعارف التي ينتجها مجرد النظر القياسي - الذي ينزاح عن النفوس في مثل هذه الحال - هل الرب موجب بذاته فلا يكون هو المحدث للحوادث ابتداء، ولا يمكنه أن يحدث شيئًا، ولا يغير العالم حتى يدعى ويسأل؟ وهل هو عالم بالتفصيل والإجمال، وقادر على تصريف الأحوال حتى يسأل التحويل من حال إلى حال؟ أو ليس كذلك، كما يزعمه من يزعمه من المتفلسفة وغيرهم من الضُّلَّال، فيجتمع مع العقوبة والعفو من ذي الجلال علمُ أهل المراء والجدال أنه لا محيص لهم عما أوقع بمن جادلوا في آياته، وهو شديد المحال.

وقد تكلمنا على هذا وأشباهه، وما يتعلق به من المقالات والديانات في غير هذا الموضع.

والمقصود هنا: أن يعلم أن الدعاء والسؤال هو سبب لنيل المطلوب المسئول، ليس وجوده كعدمه في ذلك، ولا هو علامة محضة، كما دل عليه

الكتاب والسنة، وإن كان قد نازع في ذلك طوائف من أهل القبلة وغيرهم، مع أن ذلك يُقرُّ به جماهير بني آدم من المسلمين، واليهود، والنصارى، والصابئين، والمجوس، والمشركين، لكن طوائف من المشركين والصابئين من المتفلسفة المشاءين أتباع أرسطو ومن تبعه من متفلسفة أهل الملل، كالفارابي، وابن سينا، ومن سلك سبيلهما - ممن خلط ذلك بالكلام، والتصوف، والفقه، ونحو هؤلاء - يزعمون أن تأثير الدعاء في نيل المطلوب، كما يزعمونه في تأثير الممكنات المخلوقات من القوى الفلكية والطبيعية، والقوى النفسانية والعقلية، فيجعلون ما يترتب على الدعاء هو من تأثير النفوس البشرية، من غير أن يثبتوا للخالق سبحانه بذلك علمًا مفصلاً، أو قدرة على تغيير العالم، أو أن يثبتوا أنه لو شاء أن يفعل غير ما فعل لأمكنه ذلك، فليس هو عندهم قادرًا على أن يجمع عظام الإنسان، ويسوي بنانه، وهو سبحانه هو الخالق لها ولقواها، فلا حول ولا قوه إلا بالله!

وأما قوله: وإن كان الدعاء مما هو كائن فما فائدة الأمر به، ولا بد من وقوعه؟

فيقال: الدعاء المأمور به لا يجب كونًا، بل إذا أمر اللَّه العباد بالدعاء فمنهم من يطيعه فيستجاب له دعاؤه وينال طلبته، ويدل ذلك على أن المعلوم المقدور هو الدعاء والإجابة، ومنهم من يعصيه فلا يدعو فلا يحصل ما علق بالدعاء، فيدل ذلك على أنه ليس في المعلوم المقدور الدعاء ولا الإجابة، فالدعاء الكائن هو الذي تقدم العلم بأنه كائن، والدعاء الذي لا يكون هو الذي تقدم العلم بأنه لا يكون.

فإن قيل: فما فائدة الأمر فيما علم أنه يكون من الدعاء؟

قيل: الأمر هو سبب أيضًا في امتثال المأمور به، كسائر الأسباب، فالدعاء سبب يدفع البلاء، فإذا كان أقوى منه دفعه، وإن كان سبب البلاء أقوى لم يدفعه، لكن يخففه ويضعفه، ولهذا أُمر عند الكسوف والآيات بالصلاة، والدعاء، والاستغفار، والصدقة، والعتق، والله أعلم»[١].

* * *

(١) «مجموع الفتاوى» (٨/ ١٩٢-١٩٦).

شرح قول عليٍّ رضي الله عنه: «لا يرجونَّ عبدٌ إلا ربه، ولا يخافن إلا ذنبه»

«هذا الكلام يُؤْثَر عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وهو من أحسن الكلام وأبلغه وأتمه، فإن الرجاء يكون للخير، والخوف يكون من الشر، والعبد إنما يصيبه الشر بذنونه، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشُّورى: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾ [النساء: ٧٨، ٧٩].

فإن كثيرًا من الناس، يظن أن المراد بالحسنات والسيئات في هذه الآية الطاعات والمعاصي، ثم المثبتة للقدر يحتجون بقوله: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ فيعارضهم قوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾، ونفاة القدر يحتجون بهذه الثانية مع غلطهم في ذلك، فإن مذهبهم: أن العبد يخلق جميع أعماله، ويعارضهم قوله: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

وإنما غلط كلا الفريقين لما تقدم من ظنهم أن الحسنات والسيئات هي الطاعات والمعاصي، وإنما الحسنات والسيئات في هذه الآية النعم والمصائب، كما في قوله تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨]، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ١٣١]، وقوله

تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ [آل عمران: ١٢٠]، وقوله تعالى: ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝٩﴾ [غافر: ٩] ونحو ذلك، وهذا كثير.

وهذه الآية ذم اللَّه بها المنافقين الذين ينكلون عما أمر اللَّه به، من الجهاد وغيره، فإذا نالهم رزق ونصر وعافية، قالوا: ﴿هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٨٩]، وإن نالهم فقر وذل ومرض قالوا: ﴿هَذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾ [النساء: ٧٨] - يا محمد - بسبب الدِّين الذي أمرتنا به، كما قال قوم فرعون لموسى عليه السلام، وذكر اللَّه ذلك عنهم بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٣١﴾ [الأعراف: ١٣١]، وكما قال الكفار لرسل عيسى عليه السلام: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ [يس: ١٨].

فالكفار والمنافقون إذا أصابتهم المصائب بذنوبهم تطيروا بالمؤمنين، فبين اللَّه سبحانه أن الحسنة من الله، ينعم بها عليهم، وأن السيئة إنما تصيبهم بذنوبهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣﴾ [الأنفال: ٣٣].

فأخبر أنه لا يعذب مستغفرًا؛ لأن الاستغفار يمحو الذنب الذي هو سبب العذاب، فيندفع العذاب، كما في «سنن أبي داود وابن ماجه» عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَن أكثر الاستغفارَ، جعَل اللهُ له من كلِّ همٍّ فرجًا، ومن كلِّ ضِيقٍ مخرجًا، ورزقه من حيث لا يحتسب**»[1].

(١) أخرجه أبو داود (١٥١٨)، وابن ماجه (٣٨١٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وهو حديث =

وقد قال تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ۝٢ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٖ فَضْلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٖ كَبِيرٍ ۝٣﴾ [هود: ٢، ٣].

فبين أن من وحَّده واستغفره فله ﴿مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ ومن عمل بعد ذلك خيرًا، زاده من فضله، وفي الحديث: «**يقول الشيطانُ: أهلكتُ الناسُ بالذنوبِ، وأهلكوني بلا إلهَ إلا اللهُ والاستغفارِ، فلما رأيتُ ذلك بثثتُ فيهم الأهواءَ، فهم يذنبون ولا يتوبون؛ لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا**»[1].

ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٤٣﴾ [الأنعام: ٤٢، ٤٣]، فحقهم عند مجيء البأس التضرع، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ۝٧٦﴾[المؤمنون: ٧٦].

قال عمر بن عبد العزيز: «ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رفع إلا بتوبة»[2].

ولهذا قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ۝١٧٣ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٖ لَّمْ

= حسن، قال تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارٗا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٖ فَضْلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٖ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٣].

(١) تقدم تخريجه في أول الكتاب.

(٢) لم أجد له مصدرًا عن عُمر بن عبد العزيز رحمه الله؛ إنما ورد في صدر دعاء العباس ﷺ لما استسقى به عمر ﷺ، عام الرمادة سنة سبع أو ثمان عشرة. والله أعلم.

يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣، ١٧٤]، وقال تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [آل عمران: ١٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [التوبة: ٥٩].

فهؤلاء قالوا: حسبنا الله؛ أي: كافينا اللَّه في دفع البلاء، وأولئك أُمروا أن يقولوا: حسبنا. في جلب النعماء، فهو سبحانه كافٍ عبده في إزالة الشر وفي إنالة الخير، ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزُّمر: ٣٦].

ومن توكل على غير اللَّه ورجاه خُذل من جهته وحرم، ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [العنكبوت: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]، وقال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإسراء: ٢٢]، وقال الخليل عليه السلام: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

فمن عمل لغير اللَّه رجاء أن ينتفع بما عمل له، كانت صفقته خاسرة، قال اللَّه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [النور: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ

ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾ [إبراهيم: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ﴾ [القصص: ٨٨] كما قيل في تفسيرها: كل عمل باطل إلا ما أريد به وجهه، فمن عمل لغير اللَّه ورجاه بطل سعيه، والراجي يكون راجيًا تارة بعمل يعمله لمن يرجوه، وتارة باعتماد قلبه عليه والتجائه إليه وسؤاله، فذاك نوع من العبادة له، وهذا نوع من الاستعانة به، وقد قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: ٥]، وقال: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠]»[1].

* * * *

(١) «مجموع الفتاوى» (٨/ ١٦١-١٦٦).

الطريق المؤدي إلى باب توحيد اللَّه ﷻ

قال تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾ [الرعد: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النحل: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة: ٢٥٩].

«ومما يوضح ذلك أن كل خير ونعمة تنال العبد فإنما هي من الله، وكل شر ومصيبة تندفع عنه أو تكشف عنه فإنما يمنعها اللَّه وإنما يكشفها الله، وإذا جرى ما جرى من أسبابها على يد خلقه، فاللَّه سبحانه هو خالق الأسباب كلها، سواء كانت الأسباب حركة حيٍّ باختياره وقصده كما يحدثه تعالى بحركة الملائكة والجن والإنس والبهائم، أو حركة جماد بما جعل اللَّه فيه من الطبع، أو بقاسر يقسره، كحركة الرياح والمياه، ونحو ذلك، فاللَّه خالق ذلك كله، فإنه لا حول ولا قوة إلا به، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فالرجاء يجب أن يكون كله للرب، والتوكل عليه، والدعاء له، فإنه إن شاء ذلك ويسَّره كان وتيسر، ولو لم يشأ الناسُ، وإن لم يشأه ولم ييسره لم

يكن، وإن شاءه الناسُ.

وهذا واجب لو كان شيء من الأسباب مستقلًّا بالمطلوب، فإنه لو قُدِّر مستقلًّا بالمطلوب - وإنما يكون بمشيئة اللَّه وتيسيره - لكان الواجب أن لا يُرجى إلا الله، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يسأل إلا هو، ولا يستعان إلا به، ولا يستغاث إلا هو، فله الحمد، وإليه المشتكى، وهو المستعان، وهو المستغاث، ولا حول ولا قو ة إلا به، فكيف وليس شيء من الأسباب مستقلًّا بمطلوب، بل لا بد من انضمام أسباب أخر إليه، ولا بد أيضًا من صرف الموانع والمعارضات عنه حتى يحصل المقصود.

فكل سبب فله شريك وله ضد، فإن لم يعاونه شريكه ولم يصرف عنه ضده لم يحصل سببه، فالمطر وحده لا يُنبت النبات إلا بما ينضم إليه من الهواء والتراب وغير ذلك، ثم الزرع لا يتم حتى تصرف عنه الآفات المفسدة له، والطعام والشراب لا يغذي إلا بما جُعل في البدن من الأعضاء والقوى، ومجموع ذلك لا يفيد إن لم تصرف المفسدات، والمخلوق الذي يعطيك أو ينصرك فهو - مع أن اللَّه يخلق فيه الإرادة والقوة والفعل - فلا يتم ما يفعله إلا بأسباب كثيرة خارجة عن قدرته، تعاونه على مطلوبه، ولو كان ملكًا مطاعًا، ولا بد أن يصرف عن الأسباب المعاونة ما يعارضها ويمانعها، فلا يتم المطلوب إلا بوجود المقتضي وعدم المانع، وكل سبب معين فإنما هو جزء من المقتضي، فليس في الوجود شيء واحد هو مقتضيًا، وإن سمي مقتضيًا وسمي سائر ما يعينه شروطًا، فهذا نزاع لفظي، وحينئذ فيقال: لا بد من وجود المقتضي والشروط، وانتفاء الموانع، وإما أن يكون في المخلوقات علة تامة تستلزم معلولها فهذا باطل.

ومن عرف هذا حق المعرفة، انفتح له باب توحيد الله، وعلم أنه لا يستحق لأن يدعى غيره، فضلاً عن أن يعبد غيره، ولا يتوكل على غيره، ولا يرجى غيره»[(١)].

فالمقامات ثلاثة:

«**أحدها**: تجريد التوحيد، وإثبات الأسباب، وهذا هو الذي جاءت به الشرائع، وهو مطابق للواقع في نفس الأمر.

والثاني: الشرك في الأسباب بالمعبود، كما هو حال المشركين، على اختلاف أصنافهم.

والثالث: إنكار الأسباب بالكلية؛ محافظة من منكرها على التوحيد.

فالمنحرفون طرفان مذمومان:

إما قادح في التوحيد بالأسباب، وأما منكر للأسباب بالتوحيد.

والحق غير ذلك: وهو إثبات التوحيد والأسباب، وربط أحدهما بالآخر، فالأسباب محل حكمه الديني والكوني، والحكمان عليها يجريان، بل عليها يترتب الأمر والنهي، والثواب والعقاب، ورضى الرب وسخطه، ولعنته وكرامته، والتوحيد تجريد الربوبية والإلهية عن كل شرك، فإنكار الأسباب إنكار الحكمة، والشرك بها قدح في توحيده،وإثباتها، والتعلق بالمسبب، والتوكل عليه، والثقة به، والخوف منه، والرجاء له وحده - هو محض التوحيد، والمعرفة تفرق بين ما أثبته الرسول وبين ما نفاه، وبين ما أبطله وبين ما اعتبره، فهذا لون وهذا لون، واللّه الموفق للصواب»[(٢)].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٨/ ١٦٦- ١٦٨).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٢٧٠).

- **شرح حديث الاستخارة:**

«وقال جابر بن عبد اللَّه - رضي اللَّه عنهما -: كان رسول اللَّه ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كما يعلمنا السورة من القرآن، يقول: «**إذا همَّ أحدُكم بالأمرِ فليركعْ ركعتين من غيرِ الفريضةِ، ثم يقولُ: اللهم إني أستخيرُك بعلمِك، وأستقدرُك بقدرتِك، وأسألُك من فضلِك العظيمِ، فإنك تقدرُ ولا أقدرُ، وتعلمُ ولا أعلمُ، وأنت علامُ الغيوبِ، اللهمَّ إن كنت تعلمُ أن هذا الأمرَ، خيرٌ لي في ديني ومعاشي، وعاقبة أمري، فيسرْه لي، ثم باركْ لي فيه، وإن كنت تعلمُ أن هذا الأمرَ، شرٌّ لي في ديني ومعاشي، وعاقبة أمري، فاصرفْه عني، واصرفْني عنه، واقدُرْ ليَ الخيرَ حيث كان، ثم رضِّني به**».
قال: ويسمي حاجته. قال الترمذي: «**هذا حديث حسن صحيح**»[1].

فقوله: «**إذا هم أحدكم بالأمر**». صريح في أنه الفعل الاختياري المتعلق بإرادة العبد، وإذا عُلِم ذلك: فقوله «**أستقدِرُك بقدرتِك**»؛ أي: أسألك أن تُقدرني على فعله بقدرتك. ومعلوم أنه لم يسأل القدرة المصححة التي هي سلامة الأعضاء وصحة البنية، وإنما سأل القدرة التي توجب الفعل، فَعُلِمَ أنها مقدورة لله، ومخلوقة له.

وأكد ذلك بقوله: «**فإنك تقدر ولا أقدر**»؛ أي: تقدر أن تجعلني قادرًا فاعلًا، ولا أقدر أن أجعل نفسي كذلك. وكذلك قوله: «**تعلم ولا أعلم**»؛ أي: حقيقة العلم بعواقب الأمور ومآلها، والنافع منها والضار، عندك وليس

---

(١) أخرجه البخاري (١١٦٦، ٦٣٨٢، ٧٣٩٠)، والترمذي (٤٨٠).
ذكر الحافظ ابن حجر في فتح الباري: «قال أبو الهيثم الكشمهيني سمعت الفربري يقول سمعت محمد بن إسماعيل البخاري يقول: ما وضعت في كتاب الصحيح حديثًا إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين» (مقدمة فتح الباري (ج١/ ٤٨٩)، يستخير الله، فصار الصحيح غرة في جبين الزمان.

عندي، وقوله: «**يسِّرْه لي**»، أو: «**اصرفْه عني**»، فإنهُ طلب من اللَّه تيسيره إن كان له فيه مصلحة، وصرفه عنه إن كان فيه مفسدة، وهذا التيسير والصرف متضمن إلقاء داعية الفعل في القلب، وإلقاء داعية الترك فيه، ومتى حصلت داعية الفعل حصل الفعل، وداعية الترك امتنع الفعل.

وعند القدرية: ترجيح فاعلية العبد على الترك منه ليس للرب فيه صنع ولا تأثير، فطلب هذا التيسير منه لا معنى له عندهم، فإن تيسير الأسباب التي لا قدرة للعبد عليها موجود ولم يسأله العبد.

وقوله: «**ثم رضِّني به**». يدل على أن حصول الرضا - وهو فعل اختياري من أفعال القلوب - أمر مقدور للرب تعالى، وهو الذي يجعل نفسه راضيًا.

وقوله: «**فاصرِفْه عنِّي، واصرفْني عنه**». صريح في أنه سبحانه هو الذي يصرف عبده عن فعله الاختياري إذا شاء صرْفَه عنه، كما قال تعالى في حق يوسف الصديق: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ﴾ [يوسف: ٢٤]، وصرف السوء والفحشاء: هو صرف دواعي القلب وميله إليهما، فينصرفان عنه بصرف دواعيهما.

وقوله: «**واقدُرْ ليَ الخيرَ حيث كان**»، يعم الخير المقدور للعبد من طاعته، وغير المقدور له، فعُلم أن فعل العبد للطاعة والخير أمر مقدور لله، إن لم يقدره اللَّه لعبده لم يقع من العبد، ففي هذا الحديث الشفاء في مسألة القدر.

وأمَر النبيُّ ﷺ الداعي به أن يقدم بين يدي هذا الدعاء ركعتين عبودية منه بين يدي نجواه، وأن يكونا من غير الفريضة، ليتجرد فعلهما لهذا الغرض المطلوب، ولما كان الفعل الاختياري متوقفًا على العلم والقدرة والإرادة، لا يحصل إلا بها، توسل الداعي إلى اللَّه بعلمه وقدرته وإرادته التي يؤتيه بها من

فضله، وأكد هذا المعنى بتجرده وبراءته من ذلك، فقال: «**إنك تعلمُ ولا أعلمُ، وتقدرُ ولا أقدرُ**». وأمر الداعي أن يعلق التيسير بالخير، والصرف بالشر - وهو علم اللّه سبحانه - تحقيقًا للتفويض إليه، واعترافًا بجهل العبد بعواقب الأمور، كما اعترف بعجزه. ففي هذا الدعاء إعطاء العبودية حقها، وإعطاء الربوبية حقها، وباللّه المستعان.

● **شرح دعاء قنوت الوتر:**

وفي الترمذي وغيره من حديث الحسن بن عليٍّ - رضي اللّه عنهما - قال: علمني رسول اللّه ﷺ كلمات أقولهن في الوتر: «**اللهمَّ اهدني فيمن هديتَ، وعافني فيمن عافيتَ، وتولَّني فيمن توليتَ، وباركْ لي فيما أعطَيتَ، وقني شرَّ ما قضَيتَ، إنك تَقضي ولا يُقضى عليك، إنه لا يَذلُّ مَن واليتَ، تباركتَ وتعاليتَ**»(١).

فقوله: «**اهدني**»، سؤال للهداية المطلقة التي لا يتخلف عنها الاهتداء، وعند القدرية أن الرب - سبحانه وتعالى عن قولهم - لا يقدر على هذه الهداية، وإنما يقدر على هداية البيان، والدلالة المشتركة بين المؤمنين والكفار.

وقوله: «**فيمن هديت**». فيه فوائد:

أحدها: أنه سؤال له أن يدخله في جملة المهديين وزمرتهم ورفقتهم.

الثانية: توسل إليه بإحسانه وإنعامه؛ أي: يا ربي قد هديت من عبادك

---

(١) دعاء القنوت في الوتر: أخرجه الإمام أحمد (١/ ١٩٩، ٢٠٠)، وأبو داود (١٤٢٥، ١٤٢٦)، والترمذي (٤٦٤).

قال الترمذي: وفي الباب عن عليّ. وهذا حديثٌ حسنٌ، لا نعرفه إلا من حديث أبي الحوراء. واختلف أهل العلم في القنوت في الوتر: فرأى ابنُ مسعود القنوت في الوتر في السنة كلها، واختار القنوت قبل الركوع، وهو قول بعض أهل العلم، وبه يقول سفيان الثوري وابن المبارك وإسحاق وأهل الكوفة. وقد رُوِيَ عن عليّ بن أبي طالب: أنه كان لا يقنت إلا في النصف الآخر من رمضان، وكان يقنت بعد الركوع، وقد ذهب بعض أهل العلم إلى هذا، وبه يقول الشافعي وأحمد. ا؟.

بشرًا كثيرًا، فضلاً منك وإحسانًا، فأحسن إليَّ فيمن أحسنت إليهم، كما يقول الرجل للملك: اجعلني من جملة من أغنيته وأعطيته وأحسنت إليه.

الثالثة: إن ما حصل لأولئك من الهدى لم يكن منهم، ولا بأنفسهم، وإنما كان منك، فأنت الذي هديتهم.

وقوله: «**وعافني فيمن عافيت**». إنما يسأل ربه العافية المطلقة، وهي العافية من الكفر والفسوق والعصيان والغفلة والإعراض، وفعل ما لا يحبه، وترك ما يحبه، فهذا حقيقة العافية، ولهذا ما سُئل الرب شيئًا أحب إليه من العافية؛ لأنها كلمة جامعة للتخلص من الشر كله وأسبابه.

وقوله: «**وتولَّني فيمن توليتَ**». سؤال للتولي الكامل، ليس المراد به ما فعله بالكافرين من خلق القدرة، وسلامة الآلة، وبيان للطريق، فإن كان هذا هو ولايته للمؤمنين، فهو ولي الكفار كما هو ولي المؤمنين، وهو سبحانه يتولى أولياءه بأمور لا توجد في حق الكفار: من توفيقهم وإلهامهم، وجعلهم مهديين مطيعين، ويدل عليه قوله: «**إنه لا يذل من واليت**». فإنه منصور عزيز غالب، بسبب توليك له، وفي هذا تنبيه على أن من حصل له ذل في الناس، فهو بنقصان ما فاته من تولي الله، وإلا فمع الولاية الكاملة ينتفي الذل كله، ولو سُلط عليه بالأذى مَن في أقطارها، فهو العزيز غير الذليل.

وقوله: «**وقني شرَّ ما قضيتَ**» يتضمن أن الشر بقضائه، فإنه هو الذي يقي منه، وفي «**المسند**» وغيره: أن رسول اللَّه ﷺ قال لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: «**يا معاذُ، واللهِ إني لأحبُّك، فلا تنس أن تقولَ دُبُرَ كلِّ صلاةٍ: اللهمَّ أعنِّي على ذكرِك وشكرِك وحسنِ عبادتِك**»[1]. وهذه أفعال اختيارية، وقد سأل اللَّه أن

---

(١) سبق تخريجه.

يعينه على فعلها، وهذا الطلب لا معنى له عند القدرية، فإن الإعانة عندهم الإقدار والتمكين، وإزاحة الأعذار، وسلامة الآلة، وهذا حاصل للسائل، وللكفار أيضًا، والإعانة التي سألها أن يجعله ذاكرًا شاكرًا، محسنًا لعبادته كما في حديث ابن عباس - رضي اللَّه عنهما - عنه ﷺ في دعائه المشهور: **«ربِّ أعنِّي ولا تُعِنْ عليَّ، وانصرْني ولا تنصرْ عليَّ، وامكُرْ لي ولا تمكُرْ عليَّ، واهدني ويسِّرِ الهدى لي، وانصرني على مَن بَغى عليَّ، ربِّ اجعلني لك شكَّارًا، لك ذكَّارًا، لك رهَّابًا، لك مِطْواعًا، لك مُخْبِتًا**[1]**، إليك أوَّاهًا منيبًا، ربِّ تقبَّل توبتي، واغسِل حَوْبتي**[2]**، وأجبْ دعوتي، وثبِّتْ حجتي، واهد قلبي، وسدِّدْ لساني، واسْلُلْ سَخِيمةَ**[3] **صدري»**. رواه الإمام أحمد في «**المسند**»[4]، وفيه أحد وعشرون دليلاً فتأملها.

وفي «**الصحيحين**» أنه ﷺ كان يقول بعد انقضاء صلاته: «**لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له، له الملكُ وله الحمدُ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، اللهمَّ لا مانعَ لما أعطيتَ، ولا معطيَ لما منعتَ، [ولا ينفعُ ذا الجَدِّ منك الجَدُّ]**[5]»[6]. وكان يقول ذلك الدعاء عند اعتداله من الركوع، ففي هذا نفى

(١) المخبت، مِن الإخبَاتِ: وَهُوَ الْخُشُوع وَالتَّوَاضُع. «عون المعبود».

(٢) المعنى: اْمحُ ذَنْبِي، والحُوب بالضَّمّ مَصْدَر، وَالْحَاب: الْإِثْم، سُمِّيَ بِذَلِكَ لِكَوْنِهِ مَزْجُورًا عَنْهُ، والحُوب فِي الْأَصْل لِزَجْرِ الْإِبِلِ. «عون المعبود».

(٣) المعنى: أَيْ غِشَّهُ وَغِلَّهُ وَحِقْدَهُ وَحَسَدَهُ وَنَحْوَهَا مِمَّا يَنْشَأُ مِنْ الصَّدْر وَيَسْكُنُ فِي الْقَلْب مِنْ مَسَاوِئ الْأَخْلَاق. «عون المعبود».

(٤) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٢٢٧)، وأبو داود (١٥١٠، ١٥١١)، والترمذي (٣٥٥١)، من حديث طَلِيق بن قيس الحنفي، عنه به. وقال الترمذي: «حسن صحيح». ا؟.

(٥) المعنى أَي: لَا يَنْفَع ذَا الْغِنَى -والجد هو الغنى- عِنْدك غِنَاهُ، إِنَّمَا يَنْفَعهُ الْعَمَل الصَّالِح. «فتح الباري».

(٦) سبق تخريجه.

الشريك عنه بكل اعتبار، وإثبات عموم الملك له بكل اعتبار، وإثبات عموم الحمد، وإثبات عموم القدرة، وأن اللَّه سبحانه إذا أعطى عبدًا فلا مانع له، وإذا منعه فلا معطي له، وعند القدرية: أن العبد قد يمنع من أعطى الله، ويعطي من منعه، فإنه يفعل باختياره عطاءً ومنعًا، لم يشأه الله، ولم يجعله معطيًا مانعًا، فيتصور أن يكون لمن أعطى مانع، ولمن منع معط.

وفي الصحيح أن رجلاً سأله أن يدله على عمل يدخل به الجنة، فقال: **«إنه ليسيرٌ على من يسَّره اللهُ عليه»**[1]. فدل على أن التيسير الصادر من قبله سبحانه، يوجب اليسر في العمل، وعدم التيسير يستلزم عدم العمل؛ لأنه ملزومه، والملزوم ينتفي لانتفاء لازمه، والتيسير بمعنى التمكين، وخلق الفعل، وإزاحة الأعذار، وسلامة الأعضاء - حاصل للمؤمن والكافر، والتيسير المذكور في الحديث أمر آخر وراء ذلك، وباللَّه التوفيق والتيسير.

وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال لأبي موسى رضي الله عنه: **«ألا أدلُّك على كنزٍ من كنوزِ الجنةِ؟ لا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ»**[2].

وقد أجمع المسلمون على هذه الكلمة، وتلقيها بالقبول، وهي شافية كافية في إثبات القدَر، وإبطال قول القدرية، وفي بعض الحديث: **«إذا قالها العبدُ، قال اللهُ: أسلم عبدي، واستسلم»**. وفي بعضه: **«فوَّض إليَّ عبدي»**[3].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٣٧)، ومسلم (٢٢٥/ ٤٨٨)، والترمذي (٢٦١٦)، واللفظ له، من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٤٢٠٥، ٦٤٠٩، ٦٣٨٤)، ومسلم (٢٧٠٤/ ٤٤- ٤٧).

(٣) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٣٣٥)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٧١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وقال: «لا علة له».

قال بعض المنتسبين للقدر: لما كانت القدرة بالنسبة إلى الفعل وإلى الترك بحصول الدواعي على التسوية، وما دام الأمر كذلك امتنع صدور الفعل، فإذا رجح جانب الفعل على الترك بحصول الدواعي وإزالة الصوارف حصل الفعل، وهذه القوة هي المشار إليها، بقولنا: لا حول ولا قوة إلا باللَّه العلي العظيم. وشأن الكلمة أعظم مما قال، فإن العالم العلوي والسفلي له تحول من حال إلى حال، وذلك التحول لا يقع إلا بقوة يقع بها التحول، فكذلك الحول، وتلك القوة، قائمة باللَّه وحده ليست بالتحويل، فيدخل في هذا كل حركة في العالم العلوي والسفلي، وكل قوة على تلك الحركة، سواء كانت الحركة قسرية، أو إرادية، أو طبيعية، وسواء كانت من الوسط، أو إلى الوسط، أو على الوسط، وسواء كانت في الكَمِّ، أو الكيف، أو في الأين، كحركة النبات، وحركة الطبيعة، وحركة الحيوان، وحركة الفلك، وحركة النفس والقلب، والقوة على هذه الحركات التي هي حول، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

ولما كان الكنز هو المال النفيس المجتمع الذي يخفى على أكثر الناس، وكان هذا شأن هذه الكلمة، كانت كنزًا من كنوز الجنة، فأوتيها النبي ﷺ من كنز تحت العرش[1]، وكان قائلها أسلم واستسلم لمن أزِمَّة الأمور بيديه، وفوض أمره إليه»[2].

* * *

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ١٥٩)، من حديث أبي ذر ﷺ، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢١٦٦).

(٢) «شفاء العليل» (١/ ١١٠- ١١٢).

في انقسام القضاء، والحكم، والإرادة، والكتابة، والأمر، والإذن، والجعل، والكلمات، والبعث، والإرسال، والتحريم، والإيتاء إلى كوني متعلق بخلقه، وإلى ديني متعلق بأمره، وما يحقق ذلك من إزالة اللبس والإشكال

هذا الباب متصل بالباب الذي قبله، وكل منهما يقرر لصاحبه، فما كان من كوني فهو متعلق بربوبيته وخلقه، وما كان من الديني فهو متعلق بإلهيته وشرعه.

وهو كما أخبر عن نفسه سبحانه له الخلق والأمر، فالخلق: قضاؤه وقدَرُه وفعلُه، والأمر: شرْعُه ودينُه.

فهو الذي خلق وشرع وأمر، وأحكامُه جاريةٌ على خلقه، قدَرًا وشرعًا، ولا خروج لأحد عن حكمه الكوني القدري، وأما حكمه الديني الشرعي فيعصيه الفجار والفساق، والأمران غير متلازمين، فقد يقضي ويقدِّر ما لا يأمر به ولا شرعه، وقد يشرِّع ويأمر بما لا يقضيه ولا يقدره، ويجتمع الأمران فيما وقع من طاعات عباده وإيمانهم، وينتفي الأمران عما لم يقع من المعاصي والفسق والكفر، وينفرد القضاء الديني والحكم الشرعي في ما أمر به وشرعه ولم يفعله المأمور، وينفرد الحكم الكوني فيما وقع من المعاصي.

إذا عرف ذلك، **فالقضاء في كتاب اللَّه نوعان:**

كوني قدري، كقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ [سبأ: ١٤]، وقوله:

﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الزُّمر: ٦٩].

وشرعي ديني، كقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]؛ أي: أمر وشرع، ولو كان قضاء كونيًا، لما عُبد غيرُ الله.

والحكم أيضًا نوعان:

فالكوني، كقوله: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنبياء: ١١٢]؛ أي: افعل ما تنصر به عبادك، وتخذل به أعداءك.

والديني، كقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٠]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١]، وقد يرد بالمعنيين معًا، كقوله: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦] فهذا يتناول حكمه الكوني وحكمه الشرعي.

والإرادة أيضًا نوعان:

فالكونية، كقوله تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]، وقوله: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً﴾ [الإسراء: ١٦]، وقوله: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤]، وقوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٥].

والدينية، كقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧]، فلو كانت هذه الإرادة كونية، لما حصل العسر لأحد منا، ولوقعت التوبة من جميع المكلفين، وبهذا التفصيل يزول الاشتباه في مسألة الأمر والإرادة، هل هما متلازمان، أم لا؟

فقالت القدرية: الأمر يستلزم الإرادة. واحتجوا بحجج لا تندفع.

وقالت المثبتة: الأمر لا يستلزم الإرادة. واحتجوا بحجج لا تندفع.

والصواب: أن الأمر يستلزم الإرادة الدينية، ولا يستلزم الإرادة الكونية، فإنه لا يأمر إلا بما يريده شرعًا ودينًا، وقد يأمر بما لا يريده كونًا وقدرًا، كإيمان من أمره ولم يوفقه للإيمان مراد له دينًا لا كونًا، وكذلك أمر خليله بذبح ابنه، ولم يرده كونًا، وقدرًا، وأمر رسوله بخمسين صلاة[1] ولم يرد ذلك كونًا وقدرًا، وبين هذين الأمرين وأمر من لم يؤمن بالإيمان فرق؛ فإنه سبحانه لم يحب من إبراهيم ذبح ولده، وإنما أحب منه عزمه على الامتثال، وأن يوطن نفسه عليه، وكذلك أمره محمد ﷺ ليلة الإسراء بخمسين صلاة، وأما أمر من علم أنه لا يؤمن بالإيمان، فإنه سبحانه يحب من عباده أن يؤمنوا به وبرسله، ولكن اقتضت حكمته أن أعان بعضهم على فعل ما أمره ووفقه له، وخذل بعضهم فلم يعنه ولم يوفقه، فلم تحصل مصلحة الأمر منهم، وحصلت من الأمر بالذبح.

وأما الكتابة فالكونية، كقوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾ [الحج: ٤].

والشرعية الأمرية، كقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]، وقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾... إلى قوله: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٤]، وقوله: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥].

---

(١) حديث الإسراء والمعراج بطوله: أخرجه البخاري (٣٤٩، ٣٣٤٢، ٣٥٧٠، ٧٥١٧)، ومسلم (١٦٢/ ٢٥٩، ٢٦٢)، من حديث أنس بن مالك ﷺ.

فالأولى كتابة بمعنى القدر، والثانية كتابة بمعنى الأمر.

والأمر الكوني، كقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢]، وقوله: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر: ٥٠]، وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [النساء: ٤٧]، وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٢١]، وقوله: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦] فهذا أمر تقديري كوني، لا أمر ديني شرعي، فإن اللَّه لا يأمر بالفحشاء، والمعنى: قضينا ذلك وقدرناه، وقالت طائفة: بل هو أمر ديني، والمعنى أمرناهم بالطاعة فخالفونا وفسقوا.

والقول الأول أرجح، لوجوه:

أحدها: أن الإضمار على خلاف الأصل، فلا يصار إليه إلا إذا لم يكن تصحيح الكلام بدونه.

الثاني: أن ذلك يستلزم إضمارين، أحدهما أمرناهم بطاعتنا، الثاني فخالفونا، أو عصونا، ونحو ذلك.

الثالث: أن ما بعد الفاء في مثل هذا التركيب هو المأمور به نفسه، كقولك: أمرته ففعل، وأمرته فقام، وأمرته فركب، لا يفهم المخاطَب غير هذا.

الرابع: أنه سبحانه جعل سبب هلاك القرية أمره المذكور، ومن المعلوم أن أمره بالطاعة والتوحيد لا يصلح أن يكون سبب الهلاك، بل هو سبب للنجاة والفوز.

فإن قيل: أمره بالطاعة مع الفسق هو سبب الهلاك.

قيل: هذا يبطل بالوجه **الخامس**:

وهو أن هذا الأمر لا يختص بالمترفين، بل هو سبحانه يأمر بطاعته واتباع رسله المترفين وغيرَهم، فلا يصح تخصيص الأمر بالطاعة بالمترفين، يوضحه:

الوجه السادس: أن الأمر لو كان بالطاعة لكان هو نفس إرسال رسله إليهم، ومعلوم أنه لا يحسن أن يقال: أرسلنا رسلنا إلى مترفيها ففسقوا فيها، فإن الإرسال لو كان إلى المترفين لقال من عداهم: نحن لم يُرسل إلينا.

السابع: أن إرادة اللَّه سبحانه لإهلاك القرية إنما يكون بعد إرسال الرسل إليهم وتكذيبهم، وإلا فقبل ذلك هو لا يريد إهلاكهم؛ لأنهم معذورون بغفلتهم وعدم بلوغ الرسالة إليهم، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: ١١٧] فإذا أرسل الرسل فكذبوهم أراد إهلاكها فأمر رؤساءها، ومترفيها أمرًا كونيًّا قدريًّا، لا شرعيًّا دينيًّا، بالفسق في القرية، فاجتمع أهلها على تكذيبهم وفسق رؤسائهم فحينئذ جاءها أمر الله، وحق عليها قوله بالإهلاك.

والمقصود ذكر الأمر الكوني والديني، ومن الديني قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، وهو كثير.

وأما الإذن الكوني فكقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢] أي: بمشيئته وقدره.

وأما الديني فكقوله: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ [الحشر: ٥] أي بأمره ورضاه، وقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ

أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ [يونس: ٥٩]، وقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاؤُا شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشُّورى: ٢١].

وأما الجعل الكوني فكقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [يس٨: ٩]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [يونس: ١٠٠]، وقوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [النحل: ٧٢] وهو كثير.

وأما الجعل الديني فكقوله: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ [المائدة: ١٠٣] أي ما شرع ذلك، ولا أمر به، وإلا فهو مخلوق له واقع بقدره ومشيئته.

وأما قوله: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧] فهذا يتناول الجعلين فإنها جعلها كذلك بقدره وشرعه، وليس هذا استعمالاً للمشترك في معنييه بل إطلاق اللفظ وإرادة القدر المشترك بين معنييه، فتأمله.

وأما الكلمات الكونية فكقوله: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [يونس: ٣٣]، وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وقوله ﷺ: «**أعوذُ بكلماتِ اللهِ التاماتِ، التي لا يجاوزهنَّ برٌّ ولا فاجرٌ، مِن شرِّ ما خلَق**»[1]. فهذه كلماته

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٤١٩)، وأبو يعلى «المسند» (٦٨٤٤) من حديث عبد الرحمن بن خنبش رضي الله عنه، أن رجلاً سأله: كيف صنع رسول الله ﷺ حين كادته الشياطين؟ قال: جاءت الشياطين إلى رسول الله ﷺ من الأودية وتحدرت عليه من الجبال، وفيهم شيطان معه شعلة من نار يريد أن يحرق بها رسول الله ﷺ. قال: فرعب. قال جعفر -أحد الرواة- أحسبه قال:

الكونية التي يخلق بها ويكوِّن، ولو كانت الكلمات الدينية هي التي يأمر بها وينهى لكانت مما يجاوزهن الفجار والكفار.

وأما الديني فكقوله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] والمراد به القرآن، وقوله ﷺ في النساء: «**واستَحْللتم فروجهنَّ بكلمةِ اللهِ**»[1]. أي: بإباحته ودينه، وهو قوله: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣]، وقد اجتمع النوعان في قوله: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [التَّحريم: ١٢] التي يأمر بها وينهى، ويحل ويحرم، وكلماته التي يخلق بها ويكوِّن، فأخبر أنها ليست جهمية تنكر كلمات دينه، وكلمات تكوينه، وتجعلها خلقًا من جملة مخلوقاته.

وأما البعث الكوني فكقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [الإسراء: ٥]، وقوله: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٣١].

وأما البعث الديني فكقوله: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢]، وقوله: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وأما الإرسال الكوني فكقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ

جعل يتأخر. قال: وجاء جبريل عليه السلام فقال: «يا محمد، قل. قال: ما أقول؟ قال: قل: أعوذ بكلمات الله التامات، التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق وذرأ وبرأ، ومن شر ما ينزل من السماء، ومن شر ما يعرج فيها، ومن شر ما ذرأ في الأرض، ومن شر ما يخرج منها، ومن شر فتن الليل والنهار، ومن شر كل طارق إلا طارقًا يطرق بخير يا رحمن. فطفئت نار الشياطين وهزمهم الله عز وجل». وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٧٣٨).

(١) أخرجه مسلم (٢١٨/ ١٤٧١)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ [مريم: ٨٣]، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ [الفرقان: ٤٨].

وأما الديني فكقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣]، وقوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [المزمل: ١٥].

وأما التحريم الكوني فكقوله: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ [القصص: ١٢]، وقوله: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ﴾ [المائدة: ٢٦]، وقوله: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأنبياء: ٩٥].

وأما التحريم الديني فكقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]، وقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣]، وقوله: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ﴾ [المائدة: ٩٦]، وقوله: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

وأما الإيتاء الكوني فكقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤].

وأما الإيتاء الديني فكقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧]، وقوله: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣].

وأما قوله: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ﴾ [البقرة: ٢٦٩] فهذا يتناول النوعين، فإنه يؤتيها من يشاء أمرًا ودينًا، وتوفيقًا وإلهامًا»(١).

* * *

(١) «شفاء العليل» (١/ ٢٨٠- ٢٨٢).

سنن الله الكونية

قال تعالى: ﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [فاطر: ٤٣].

«وأما الاستدلال بسنته وعادته فهو أيضًا طريق برهاني ظاهر لجميع الخلق، وهم متفقون عليه من يقول بالحكمة، ومن يقول بمجرد المشيئة، فإنه قد علم عادته سبحانه في طلوع الشمس والقمر والكواكب، والشهور والأعوام، وعادته في خلق الإنسان وغيره من المخلوقات، وعادته فيما عرفه الناس من المطاعم والمشارب، والأغذية والأدوية، ولغات الأمم، كالعلم بنحو كلام العرب وتصريفه، والعلم بالطب، وغير ذلك.

كذلك سنته تعالى في الأنبياء الصادقين وأتباعهم، وفيمن كذبهم أو كذب عليهم، فأولئك ينصرهم ويعزهم، ويجعل لهم العاقبة المحمودة، والآخرون يهلكهم ويذلهم، ويجعل لهم العاقبة المذمومة، كما فعل بقوم نوح، وبعاد، وثمود، وقوم لوط، وأصحاب مدين، وفرعون وقومه، وكما فعل بمن كذب محمدًا من قومه قريش، ومن سائر العرب، وسائر الأمم غير العرب، وكما فعل مِن نصْرِ أنبيائه وأتباعهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣]، وقال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ

عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾ [هود: ١٠٠، ١٠١].

وقال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾ [الحج: ٤٢ - ٤٤].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الرُّوم ٩، ١٠].

وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [غافر: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾﴾ [غافر: ٥]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر: ٨٢، ٨٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا

نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفتح: ٢٢ - ٢٣].

وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [فاطر: ٤٢، ٤٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَـٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾ [الإسراء: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء: ٧٣ - ٧٥]، وقد قيل: آية الحاقة وآية الشورى تبين أنه لو افترى عليه لعاقبه، فهذه سنته في الكاذبين.

وحقيقة الاستدلال بسنته وعادته هو اعتبار الشيء بنظيره، وهو التسوية بين المتماثلين، والتفريق بين المختلفين، وهو الاعتبار المأمور به في القرآن، كقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران: ١٣].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ

فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر: ٢]، وقال تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾ [يوسف: ١١١].

وإنما تكون العبرة به بالقياس والتمثيل، كما قال ابن عباس في دية الأصابع: «**هن سواء، واعتبروها بدية الأسنان**»[(١)]. فإذا عرفت قصص الأنبياء، ومن اتبعهم، ومن كذبهم، وأن متبعيهم كان لهم النجاة والعافية، والنصر والسعادة، ولمكذبيهم الهلاك والبوار، جعل الأمر في المستقبل، مثلما كان في الماضي، فعلم أن من صدقهم كان سعيدًا، ومن كذبهم كان شقيًا، وهذه سنة اللَّه وعادته، ولهذا يقول سبحانه في تحقيق عادته وسنته، وأنه لا ينقضها ولا يبدلها: ﴿أَكُفَّارُكُمۡ خَيۡرٞ مِّنۡ أُوْلَٰٓئِكُمۡ أَمۡ لَكُم بَرَآءَةٞ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾ [القمر: ٤٣]، يقول: فإذا لم يكونوا خيرًا منهم، فكيف ينجون من العذاب مع مماثلتهم لهم؟ هذا بطريق الاعتبار والقياس، ثم قال: ﴿أَمۡ لَكُم بَرَآءَةٞ فِي ٱلزُّبُرِ﴾، أي معكم خبر من اللَّه بأنه لا يعذبكم؟ فنفى الدليلين العقلي والسمعي، ثم ذكر قولهم: ﴿نَحۡنُ جَمِيعٞ مُّنتَصِرٞ﴾ [القمر: ٤٤] وإنا نغلب من يغالبنا، فقال تعالى: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر: ٤٥] وهذا مما أنبأه من الغيب في حال ضعف الإسلام، واستبعاد عامة الناس ذلك، ثم كان كما أخبر، وقد قال للمؤمنين في تحقيق سنته وعادته: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤]، وقال لمحمد: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ﴾ [فصّلت: ٤٣]، وقال: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٢٨٩)، وأبو داود (٤٥٦٠)، من حديث ابن عباس مرفوعًا بلفظ: «الأسنان سواء، والأصابع سواء».

مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات: ٥٣، ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ﴾ [البقرة: ١١٨].

وفي «**الصحيحين**» عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «**لتَرْكَبُنَّ سَنَنَ**[١] **مَن كان قبلكم، حَذْوَ القُذَّةِ بالقُذَّةِ، حتى لو دخلوا جُحْرَ ضَبٍّ لدخلتموه**». قالوا: يا رسول الله، اليهودُ والنصارى؟ قال: «**نعم**»[٢].

وفي «**الصحيحين**» عن أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «**لتأخذنَّ أمتي ما أَخذ الأممُ قبلها، شبرًا بشبرٍ، وذراعًا بذراعٍ**». قالوا: يا رسول الله، فارس والروم؟ قال: «**ومن الناس إلا هؤلاء؟**»[٣].

وفي «**السنن**» لما قال له بعض أصحابه: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. قال: «**اللهُ أكبرُ! قلتم كما قال قومُ موسى: اجعَلْ لنا إلهًا كما لهم آلهةٌ**». ثم قال: «**إنها السَّنَنُ، لتركَبُنَّ سَنَنَ مَن كان قبلكم**»[٤].

وقال تعالى: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [آل عمران: ١٣٧] ولهذا احتج من احتج بسنة اللَّه وعادته في مكذبي الرسل، كقول شعيب: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾﴾ [هود: ٨٩].

---

(١) السنن: الطريق. «فتح الباري» (٦/٤٩٨).

(٢) أخرجه البخاري (٦٨٨٨)، بنحوه، وفيه «فارس والروم» بدلاً من «من اليهود والنصارى».

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٥٦، ٧٣٢٠)، ومسلم (٢٦٦٩/ ٦)، بنحوه، وفيه «اليهود والنصارى» بدلاً من «فارس والروم».

(٤) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٢١٨)، والترمذي (٢١٨٠)، من حديث أبي واقد الليثي ﷺ وهو حديث صحيح.

وقال مؤمن آل فرعون: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾ [غافر: ٣٠، ٣١].

وقال تعالى: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ [آل عمران: ١١]

والدأب: العادة في ثلاثة مواضع:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿١١﴾﴾ [آل عمران: ١٠، ١١].

قال ابن قتيبة وغيره: الدأب: العادة، ومعناه: كعادة آل فرعون، يريد كفر اليهود، كل فريق بنبيهم.

وقال الزجاج: «هو الاجتهاد»[١]. أي: دأب هؤلاء، وهو اجتهادهم في كفرهم، وتظاهرهم على النبي كتظاهر آل فرعون على موسى.

وقال عطاء والكسائي وأبو عبيدة: «كسنة آل فرعون»[٢].

وقال النضر بن شميل: «كعادة آل فرعون»[٣]. يريد عادة هؤلاء الكفار في تكذيب الرسل وجحود الحق، كعادة آل فرعون، وقال طائفة: نظم الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم﴾ عند حلول النقمة والعقوبة، مثل آل فرعون وكفار الأمم الخالية، أخذناهم فلن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم.

وفي تفسير أبي روق عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ

(١) راجع «تفسير البغوي» (٢/ ٢٥٦)؛ و«زاد المسير» لابن الجوزي (١/ ٣٥٥).
(٢) ذكره البغوي في «تفسيره» (١/ ٢٨١).
(٣) أورده البغوي في «تفسيره» (١/ ٢٨١). وانظر «زاد المسير» (٣/ ٣٧٠).

﴿فِرۡعَوۡنَ﴾، قال: «**كصنيع آل فرعون**»[١]. قال: ابن أبي حاتم: وروي عن مجاهد والضحاك وأبي مالك وعكرمة، نحو ذلك[٢]، قال: وروي عن الربيع بن أنس: «**كشبه آل فرعون**»[٣].

وعن السدي قال: «**ذكر الذين كفروا كمثل الذين من قبلهم في التكذيب والجحود**»[٤].

قلت: فهؤلاء جعلوا الشبيه في العمل، فإن لفظ الدأب يدل عليه.

قال الجوهري: « دَأَبَ فلان في عمله، أي: جَدَّ وتعِب، دأْبًا ودُءوبًا، فهو دَئِبٌ، وأدأْبتُه أنا، والدائبان: الليل والنهار، قال: والدأْبُ - يعني بالتسكين - العادة والشأن، وقد يُحرك».

قال الفراء: «**أصله من دَأَبْتُ، إلا أن العرب حولت معناه إلى الشأن**».

قلت: الزجاج جعل ما في القرآن من الدأب الذي هو الاجتهاد.

والصواب ما قاله الجمهور: أن الدأْب، بالتسكين، هو العادة، وهو غير الدأَب بالتحريك، إذا زاد اللفظ زاد المعنى، والذي في القرآن مسكَّن، ما علمنا أحدًا قرأه بالتحريك، وهذا معروف في اللغة، يقال: فلان دأْبُه كذا وكذا، أي: هذا عادته وعمله الملازم له، وإن لم يكن في ذلك تعب واجتهاد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ﴾ [إبراهيم: ٣٣] والدائب نظير

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري (٣/ ١٩٠)، وابن أبي حاتم (٢/ ٣٢٣٠، ٥/ ٩١٧٧)، كلاهما في «التفسير»، عن المنجاب بن الحارث، قال: ثنا بشر بن عمارة، عن أبي روق به. وهو في «تفسير الضحاك» (١/ ٢٤٠).

(٢) راجع «تفسير الضحاك» (١/ ٢٤٠)، والطبري (٣/ ١٩٠، ١٠/ ٢٣)، وابن أبي حاتم (٢/ ٣٢٣٠، ٥/ ٩١٧٧)، والبغوي (١/ ٢٨١)، وابن كثير (١/ ٤٦٥).

(٣) راجع الطبري (٣/ ١٩٠)، وابن أبي حاتم (٢/ ٣٢٣٠)، وابن كثير (١/ ٤٦٥).

(٤) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٣/ ١٩٠، ١٩١) .

الدائم، والباء والميم متقاربان، ومنه: اللازب واللازم.

قال ابن عطية: «دائبين أي: متماديين، ومنه قول النبي ﷺ لصاحب الجمل الذي بكى وأجهش إليه: «**إنَّ هذا الجملَ شكا إليّ أنك تجيعُه وتدئبُه**». أي: تديمه في العمل لك والخدمة»[1].

قال: «**وظاهر الآية أن معناه: دائبين في الطلوع والغروب، وما بينهما من المنافع للناس التي لا تحصى كثرة**».

قال: «وحكى الطبري عن مقاتل بن حيان، يرفعه إلى ابن عباس رضي الله عنهما، أنه قال: «**معناه دائبين في طاعة الله**»[2]. قال: «**وهذا قول إن كان يراد به أن الطاعة انقيادهما للتسخير، فذلك موجود في قوله**: ﴿وَسَخَّرَ﴾، وإن كان يُراد أنها طاعة مقصودة كطاعة العبادة من البشر فهذا جيد».

قلت: ليس هذا ببعيد، بل عليه دلت الأدلة الكثيرة، كما هو مذكور في مواضع.

وقالت طائفة منهم البغوي، وهذا لفظُه: «﴿دَآئِبَيْنِ﴾ يجريان فيما يعود إلى مصالح عباد اللّه لا يفتران، قال ابن عباس: دءوبهما في طاعة الله».

ولفظ أبي الفرج: «دائبين في إصلاح ما يصلحانه من النبات وغيره لا يفتران». قال: «ومعنى الدءوب: مرور الشيء على عادة جارية فيه».

قلت: وإذا كان دأبهم هو عادتهم وعملهم الذي كانوا مصرين عليه، فالمقصود أن هؤلاء أشبهوهم في العمل، فيشبهونهم في الجزاء، فيحيق بهم ما حاق بأولئك، هذا هو المقصود ليس المقصود التشبيه في الجزاء، كقوله:

---

(١) انظر «فتح القدير» (٣/ ٤٥).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٢٢٥).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾. أي: فهؤلاء لا تدفع عنهم أموالهم وأولادهم عذاب اللَّه إذا جاءهم، كدأب آل فرعون.

وكذلك قوله: ﴿ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ذلك بما قدمت أيديكم وأن اللَّه ليس بظلام للعبيد كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنفال: ٥١، ٥٢]، فهذا كله يقتضي التشبيه في العذاب.

وأما الطائفة الأخرى: فجعلوا الدأب نفس فعل الرب بهم، وعقوبته لهم.

قال مكي بن أبي طالب: الكاف في ﴿كَدَأْبِ﴾ في موضع نصب، نعت لمحذوف تقديره: غيرناهم كما غيروا تغييرًا، مثل عادتنا في آل فرعون، ومثلها الآية الأولى، إلا أن الأولى العادة في العذاب، تقديره: فعلنا بهم ذلك فعلًا، مثل عادتنا في آل فرعون»[(١)].

وقد جمع بعضهم بين المعنيين: **فقال أبو الفرج**: «﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: كعادتهم، والمعنى: كذب أولئك فنزل بهم العذاب كما نزل بأولئك[(٢)].

قلت: الدأب: العادة، وهو مصدر يضاف إلى الفاعل تارة وإلى المفعول أخرى، فإذا أضيف إلى الفاعل، كان المعنى: كفعل آل فرعون. وإذا أضيف

(١) ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٣٧١).
(٢) راجع «زاد المسير» (١/ ٣٥٥)، و(٣/ ٣٧٠).

إلى المفعول، كان المعنى: كعادتهم في العذاب والمصائب التي نزلت بهم. يقال هذه عادة هؤلاء لما فعلوه، ولما يصيبهم، وهي عادة الرب وسنته فيهم.

والتحقيق أن اللفظ يتناول الأمرين جميعًا، وقد تقدم عن الفراء والجوهري: أن الدأب العادة والشأن. وهذا كقوله: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾.

روى ابن أبي حاتم[1] بالإسناد المعروف عن مجاهد: «﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ من الكفار والمؤمنين، في الخير والشر».

وعن ابن إسحاق: «**أي: قد مضت مني وقائع نقمة في أهل التكذيب لرسلي والشرك بي: عاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين، فرأوا مثلات قد مضت مني فيهم**».

فقد فسرت السنن بأعمالهم وبجزائهم.

قال البغوي: معنى الآية: قد مضت وسلفت مني فيمن كان قبلكم من الأمم الماضية الكافرة بإمهالي واستدراجي إياهم حتى يبلغ الكتاب فيهم أجلي الذي أجلته لإهلاكهم وإدالة أنبيائي، ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦] أي: آخرة المكذبين منهم، قال: وهذا في حرب أحد، يقول فأنا أمهلهم، وأستدرجهم حتى يبلغ أجلي الذي أجلت، من نصرة النبي وأوليائه»[2].

قلت: ونظير هذا قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي

(١) في «تفسيره» (٣/ ٤٢٠١).
(٢) في «تفسيره» (١/ ٣٥٤).

ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الرُّوم: ٩]، وقوله في الآية الأخرى: ﴿كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر: ٨٢ - ٨٥] فهذا كله يبين أن سنة اللّه وعادته مطردة لا تنتقض في إكرام مصدقي الرسل وإهانة مكذبيهم.

وآيات الأنبياء، كما قد عرف، هي مستلزمة لثبوت النبوة، وصدق المخبر بها، والشاهد بها، فيلزم من وجودها وجود النبوة وصدق المخبر بها، ويمتنع أن تكون مع التكذيب بها وكذب المخبر بها، فلا يجوز وجودها لمن كذب الأنبياء، ولا لمن أقر بنبوة كذاب، سواء كان هو نفسه المدعي للنبوة، أو ادعى نبوة غيره، وهذان الصنفان هما المذكوران في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وهؤلاء كلهم مِن أظلم الكاذبين، كما قال تعالى: ﴿۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الزمر: ٣٢، ٣٣]»[1].

(١) «النبوات» (١/ ٢٦٣-٢٦٩).

سنن اللَّه جارية على وفق حكمته

قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾﴾ [الكهف: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء: ١٦].

«**وتأمل حكمة اللَّه** ﷻ في حبس الغيث عن عباده، وابتلائهم بالقحط إذا منعوا الزكاة وحرموا المساكين، كيف جوزوا على منع ما للمساكين قِبلهم من القوت، بمنع اللَّه مادة القوت والرزق وحبسها عنهم، فقال لهم بلسان الحال: منَعتم الحقَّ فمُنعتم الغيثَ، فهلَّا استنزلتموه ببذل ما لله قِبلكم؟

وتأمل حكمة اللَّه تعالى في صرفه الهدى والإيمان عن قلوب الذين يصرفون الناس عنه، فصدهم عنه كما صدوا عباده، صدًّا بصد، ومنعًا بمنع.

وتأمل حكمته تعالى في محق أموال المرابين، وتسليط المتلفات عليها، كما فعلوا بأموال الناس ومحقوها عليهم وأتلفوها بالربا، جوزوا إتلافًا بإتلاف، فقلَّ أن ترى مرابيًا إلا وآخرته إلى محق، وقلة، وحاجة.

وتأمل حكمته تعالى في تسليط العدو على العباد إذا جار قويهم على ضعيفهم، ولم يؤخذ للمظلوم حقه من ظالمه، كيف يسلط عليهم من يفعل بهم كفعلهم برعاياهم وضعفائهم سواء، وهذه سنة اللَّه تعالى منذ قامت الدنيا إلى أن تطوى الأرض، ويعيدها كما بدأها.

وتأمل حكمته تعالى في أن جعل ملوك العباد وأمراءهم وولاتهم من جنس أعمالهم، بل كأن أعمالهم ظهرت في صور ولاتهم وملوكهم، فإن

استقاموا استقامت ملوكهم، وإن عدلوا عدلت عليهم، وإن جاروا جارت ملوكهم وولاتهم، وإن ظهر فيهم المكر والخديعة فولاتهم كذلك، وإن منعوا حقوق اللَّه لديهم وبخلوا بها منعت ملوكهم وولاتهم ما لهم عندهم من الحق، وبخلوا بها عليهم، وإن أخذوا ممن يستضعفونه ما لا يستحقونه في معاملتهم، أخذت منهم الملوك ما لا يستحقونه، وضربت عليهم المكوس والوظائف، وكلما يستخرجونه من الضعيف يستخرجه الملوك منهم بالقوة، فعمالهم ظهرت في صور أعمالهم، وليس في الحكمة الإلهية أن يولى على الأشرار الفجار، إلا من يكون من جنسهم، ولما كان الصدر الأول خيار القرون وأبرها كانت ولاتهم كذلك، فلما شابوا[1] شابت لهم الولاة.

فحكمة اللَّه تأبى أن يولي علينا في مثل هذه الأزمان، مثل معاوية رضي اللَّه عنه **وعمر بن عبد العزيز، فضلاً عن مثل أبي بكر وعمر، رضي اللَّه عنهم أجمعين، بل ولاتنا على قدرنا، وولاة من قبلنا على قدرهم، وكل من الأمرين موجب الحكمة، ومقتضاها.**

ومن له فطنة إذا سافر بفكره في هذا الباب رأى الحكمة الإلهية سائرة في القضاء والقدر، ظاهرة وباطنة فيه، كما في الخلق والأمر سواء، فإياك أن تظن بظنك الفاسد، أن شيئًا من أقضيته وأقداره عارٍ عن الحكمة البالغة، بل جميع أقضيته تعالى وأقداره واقعة على أتم وجوه الحكمة والصواب، ولكن العقول الضعيفة محجوبة بضعفها عن إدراكها، كما أن الأبصار الخفاشية محجوبة بضعفها عن ضوء الشمس، وهذه العقول الضعاف إذا صادفها

(١) الشَّوْبُ: الخَلْطُ شابَ الشيءَ شَوْباً خَلَطَه، وشُبْتُه أَشُوبُه خَلَطْتُه، فهو مَشُوبٌ. «اللسان» (ش و ب).

الباطل جالت فيه وصالت، ونطقت وقالت، كما أن الخفاش إذا صادفه ظلام الليل طار وسار.

خَفَافيشُ أعشاها النَّهارُ بضوئِهِ ... ولازمها قِطَعٌ من الليلِ مُظْلِمُ»[١]

* * *

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٥٣، ٢٥٤).

سنة اللَّه في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾

«**وتأمل حكمته تبارك وتعالى في عقوبات الأمم الخالية، وتنويعها عليهم، بحسب تنوع جرائمهم، كما قال تعالى**: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٣٨ - ٤٠].

وتأمل حكمته تعالى في مسخ مَن مَسخ من الأمم في صور مختلفة مناسبة لتلك الجرائم، فإنها لمَّا مسخت قلوبهم، وصارت على قلوب تلك الحيوانات وطباعها اقتضت الحكمة البالغة أن جعلت صورهم على صورها؛ لتتم المناسبة ويكمل الشبه، وهذا غاية الحكمة، واعتبِرْ هذا بمن مُسخوا قردة وخنازير، كيف غلبت عليهم صفات هذه الحيوانات وأخلاقها وأعمالها.

ثم إن كنت من المتوسِّمين[١] فاقرأ هذه النسخة من وجوه أشباههم ونظرائهم كيف تراها بادية عليها، وإن كانت مستورة بصورة الإنسانية، فاقرأ نسخة القردة من صور أهل المكر والخديعة والفسق، الذين لا عقول لهم، بل هم أخف الناس عقولاً، وأعظمهم مكرًا وخداعًا وفسقًا فإن لم تقرأ نسخة

---

(١) المتوسم: المتفرس. «اللسان» (و س م).

القردة من وجوهم فلست من المتوسِّمين.

واقرأ نسخة الخنازير من صور أشباههم، ولا سيما أعداء خيار خلق اللَّه بعد الرسل، وهم أصحاب رسول اللَّه ﷺ، فإن هذه النسخة، ظاهرة على وجوه الرافضة، يقرؤها كلُّ مؤمن كاتب وغير كاتب، وهي تظهر وتخفى بحسب خنزيرية القلب وخبثه، فإن الخنزير أخبث الحيوانات وأردؤها طباعًا، ومن خاصيته أنه يدع الطيبات فلا يأكلها، ويقوم الإنسان عن رجيعه، فيبادر إليه!

فتأمل مطابقة هذا الوصف لأعداء الصحابة، كيف تجده منطبقًا عليهم، فإنهم عمدوا إلى أطيب خلق اللَّه وأطهرهم فعادوهم وتبرؤوا منهم، ثم والَوْا كلَّ عدو لهم، من النصارى واليهود والمشركين، فاستعانوا في كل زمان على حرب المؤمنين الموالين لأصحاب رسول اللَّه بالمشركين والكفار، وصرحوا بأنهم خير منهم.

فأي شبه ومناسبة أولى بهذا الضرب من الخنازير؟!

فإن لم تقرأ هذه النسخة من وجوههم فلست من المتوسمين»[(١)].

* * *

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٥٤، ٢٥٥).

توحيد الألوهية (العبادة)



توحيد الألوهية (العبادة)

«وتوحيد الإلَهية أن يعبد اللَّه ولا يشرك به شيئًا، فيطيعه ويطيع رسله، ويفعل ما يحبه ويرضاه.

قال جابر بن عبد اللَّه - رضي اللَّه عنهما - في حديثه الصحيح في سياق حجة الوداع: فأهل رسول اللَّه ﷺ بالتوحيد: **«لبيك اللهمَّ لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمدَ والنعمةَ لك والملكَ، لا شريك لك»**(١).

وكانوا في الجاهلية يقولون: لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك. فأهل النبي ﷺ بالتوحيد، كما تقدم.

قال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة: ١٦٣]، وقال تعالى: ﴿۞ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾ [النحل: ٥١]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، وقال تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزُّخرف: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ **[النحل: ٣٦]**.

وأخبرنا عن كل نبي من الأنبياء أنهم دعوا الناس إلى عبادة اللَّه وحده لا شريك له، وقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ

---

(١) مضى تخريجه.

وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤]، وقال تعالى عن المشركين: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [ص: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ [الإسراء: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزُّمر: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾﴾ [الصَّفات: ٣٥، ٣٦]. وهذا في القرآن كثير»[١].

* * *

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٤٤٨).



تفسير التوحيد

وليس المراد بالتوحيد مجرد توحيد الربوبية، وهو اعتقاد أن اللَّه وحده خلق العالم، كما يظن ذلك من يظنه من أهل الكلام والتصوف، ويظن هؤلاء أنهم إذا أثبتوا ذلك بالدليل فقد أثبتوا غاية التوحيد، ويظن هؤلاء أنهم إذا شهدوا هذا وفنَوا فيه فقد فنَوا في غاية التوحيد.

وكثير من أهل الكلام يقول: التوحيد له ثلاث معان، وهو: واحد في ذاته لا قسيم له، أو لا جزء له، وواحد في صفاته لا شبيه له، وواحد في أفعاله لا شريك له.

وهذا المعنى الذي تتناوله هذه العبارة، فيها ما يوافق ما جاء به الرسول ﷺ، وفيها ما يخالف ما جاء به الرسول، وليس الحق الذي فيها هو الغاية التي جاء بها الرسول، بل التوحيد الذي أمر به، أمر يتضمن الحق الذي في هذا الكلام وزيادة أخرى، فهذا من الكلام الذي لبس فيه الحق بالباطل وكتم الحق.

وذلك أن الرجل لو أقر بما يستحقه الرب تعالى من الصفات، ونزهه عن كل ما ينزه عنه، وأقر بأنه وحده خالق كل شيء - لم يكن موحدًا، بل ولا مؤمنًا، حتى يشهد أن لا إله إلا الله، فيقر بأن اللَّه وحده هو الإله المستحق للعبادة، ويلتزم بعبادة اللَّه وحده لا شريك له.

* * *

معنى لفظ الجلالة

«**والإله**: هو بمعنى المألوه المعبود الذي يستحق العبادة، ليس هو الإله: بمعنى القادر على الخلق، فإذا فسر المفسر الإله بمعنى القادر على الاختراع، واعتقد لأن هذا أخص وصف الإله، وجعل إثبات هذا التوحيد هو الغاية في التوحيد، كما يفعل ذلك من يفعله، من متكلمة الصفاتية، وهو الذي ينقلونه عن أبي الحسن وأتباعه، لم يعرفوا حقيقة التوحيد الذي بعث اللَّه به رسوله، فإن مشركي العرب كانوا مقرين بأن اللَّه وحده، خالق كل شيء، وكانوا مع هذا مشركين.

قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦].

قال طائفة من السلف: تسألهم من خلق السموات والأرض، فيقولون: الله. وهم مع هذا يعبدون غيره، وقال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤ - ٨٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [العنكبوت: ٦١].

فليس كل من أقر أن اللَّه رب كل شيء وخالقه يكون عابدًا له دون ما سواه، داعيًا له دون ما سواه، راجيًا خائفًا منه دون ما سواه، يوالي فيه

ويعادي فيه، ويطيع رسله، ويأمر بما أمر به، وينهى عما نهى عنه، وقد قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنفال: ٣٩] وعامة المشركين أقروا بأن اللَّه خالق كل شيء وأثبتوا الشفعاء الذين يشركونهم به، وجعلوا له أندادًا، قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزُّمر: ٤٣، ٤٤].

وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنعام: ٩٤]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]»[١].

«**فالإله**: هو الذي تألهه القلوب، عبادة، واستعانة، ومحبة، وتعظيمًا، وخوفًا ورجاء، وإجلالاً، وإكرامًا، واللَّه ﷻ له حق لا يشركه فيه غيره، فلا يعبد إلا الله، ولا يدعى إلا الله، ولا يخاف إلا الله، ولا يطاع إلا الله»[٢].

* * *

(١) «درء التعارض» (١/ ٢٢٤- ٢٢٧).
(٢) «مجموع الفتاوى » (١/ ٣٦٥).

توحيد الألوهية حقيقة الإسلام

«والإسلام: يجمع معنيين:

أحدهما: الاستسلام والانقياد، فلا يكون متكبرًا.

والثاني: الإخلاص، من قوله تعالى: ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ [الزُّمر: ٢٩]، فلا يكون مشركًا، وهو أن يسلم العبد لله رب العالمين، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣٠ - ١٣٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦١ - ١٦٣].

والإسلام: يستعمل لازمًا معدى بحرف اللام مثل ما ذكر في هذه الآيات، ومثل قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزُّمر: ٥٤]. ومثل قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤]. ومثل قوله: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [آل عمران: ٨٣]. ومثل قوله: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ

هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأنعام: ٧١، ٧٢].

ويستعمل متعديًا مقرونًا بالإحسان، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة: ١١١، ١١٢]، وقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء: ١٢٥]، فقد أنكر أن يكون دين أحسن من هذا الدين، وهو إسلام الوجه لله مع الإحسان، وأخبر أن كل من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، أثبتت هذه الكلمة الجامعة، والقضية العامة، ردًّا لما زعم من زعمه أن لا يدخل الجنة إلا متهود أو متنصر.

وهذان الوصفان: وهما إسلام الوجه لله والإحسان، هما الأصلان المتقدمان، وهما كون العمل خالصًا لله صوابًا موافقًا للسنة والشريعة، وذلك أن إسلام الوجه لله هو متضمن للقصد والنية لله، كما قال بعضهم:

أستغفرُ اللهَ ذنبًا لستُ محصيَهُ ... ربَّ العبادِ إليه الوجهُ والعملُ

وقد استعمل هنا أربعة ألفاظ:

إسلام الوجه، وإقامة الوجه، كقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٢٩]، وقوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الرُّوم: ٣٠].

وتوجيه الوجه، كقول الخليل: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

﴿وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٧٩﴾ [الأنعام: ٧٩]، وكذلك كان النبي يقول في دعاء الاستفتاح في صلاته: «**وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين**»(١). وفي «**الصحيحين**» عن البراء بن عازب ﷺ عن النبي ﷺ، مما يقول إذا أوى إلى فراشه: «**اللهم أسلمت نفسي إليك ووجهت وجهي إليك**»(٢).

فالوجه: يتناول المتوجِّه، والمتوجَّه إليه، ويتناول التوجه نفسه، كما يقال: أيّ وجه تريد، أي: أيّ وجهة وناحية تقصد، وذلك أنهما متلازمان، فحيث توجه الإنسان توجه وجهه، ووجهه مستلزم لتوجهه، وهذا في باطنه وظاهره جميعًا، فهذه أربعة أمور، والباطن هو الأصل، والظاهر هو الكمال والشعار، فإذا توجه قلبه إلى شيء تبعه وجهه الظاهر، فإذا كان العبد قصده ومراده وتوجهه إلى اللّه فهذا صلاح إرادته وقصده، فإذا كان مع ذلك محسنًا، فقد اجتمع أن يكون عمله صالحًا ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا، وهو قول عمر ﷺ: «**اللهم اجعل عملي كله صالحًا، واجعله لوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه شيئًا**».

والعمل الصالح: هو الإحسان، وهو فعل الحسنات، وهو ما أمر اللّه به، والذي أمر اللّه به هو الذي شرعه الله، وهو الموافق لسنة اللّه وسنة رسوله، فقد أخبر اللّه تعالى أنه من أخلص قصده لله، وكان محسنًا في عمله، فإنه مستحق للثواب، سالم من العقاب.

ولهذا كان أئمة السلف يجمعون هذين الأصلين، كقول الفضيل بن

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه

عياض، في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]، قال: «**أخلصه وأصوبه**». فقيل: يا أبا عليّ، ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: إن العمل إذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، وإذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة»[١]»[٢].

* * *

(١) وانظر «تفسير ابن كثير» (٢/ ٥٧٤).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٨/ ١٧٤- ١٧٧)، و«الاستقامة» (٢/ ٣٠٢- ٣٠٩).

قاعدتا توحيد الألوهية (العبادة)

«**وحقيقة التعبد**: الذل والخضوع للمحبوب، ومنه قولهم: طريق معبد. أي: مذلل، قد ذللته الأقدام، فالعبد هو الذي ذلَّل - ه الحب والخضوع لمحبوبه، ولهذا كانت أشرف أحوال العبد ومقاماته في العبودية، فلا منزل له أشرف منها، وقد ذكر اللَّه سبحانه أكرم الخلق عليه وأحبهم إليه، وهو رسوله محمد ﷺ بالعبودية في أشرف مقاماته، وهي: مقام الدعوة إليه، ومقام التحدي بالنبوة، ومقام الإسراء، فقال سبحانه: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدًا ١٩﴾ [الجنّ: ١٩]، وقال: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣]، وقال: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ [الإسراء: ١]، وفي حديث الشفاعة: «**اذهبوا إلى محمدٍ ﷺ عبدٍ غفرَ اللهُ له ما تقدَّم من ذنبِه وما تأخر**»[1].

فقام مقام الشفاعة بكمال عبوديته وكمال مغفرة اللَّه له، واللَّه سبحانه خلق الخلق لعبادته وحده لا شريك له، التي هي أكمل أنواع المحبة مع أكمل أنواع الخضوع والذل، وهذا هو حقيقة الإسلام وملة إبراهيم، التي من رغب عنها فقد سفه نفسه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٣٠﴾ [البقرة: ١٣٠].

---

(١) سلف تخريجه.

ولهذا كان أعظم الذنوب عند اللَّه الشرك، واللَّه لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

وأصل الشرك بالله: الإشراك مع اللَّه في المحبة، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾ [البقرة: ١٦٥] وأخبر سبحانه أن من الناس من يشرك به من دونه، فيتخذ الأنداد من دونه، يحبهم كحب الله، وأخبر أن ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾ من أصحاب الأنداد لأندادهم، وقيل: بل المعنى: أنهم أشد حبًّا لله من أصحاب الأنداد، فإنهم وإن أحبوا اللَّه لكن لمَّا أشركوا بينه، وبين أندادهم في المحبة ضعفت محبتهم لله.

والموحدون لله لما خلصت محبتهم له، كانت أشد من محبة أولئك، والعدل برب العالمين والتسوية بينه وبين الأنداد هو في هذه المحبة، ولما كان مراد اللَّه من خلقه هو خلوص هذه المحبة له أنكر على من اتخذ من دونه وليًّا أو شفيعًا غاية الإنكار، وجمع ذلك تارة، وأفرد أحدهما عن الآخر تارة بالإنكار، فقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [يونس: ٣].

وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنعام: ٥١].

وقال في الإفراد: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزُّمر: ٤٣، ٤٤].

وقال تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الجاثية: ١٠].

فإذا والى العبد ربه وحده، وأقام له وليًا من الشفعاء، وعقد الموالاة بينه وبين عباده المؤمنين، فصاروا أولياءه في الله، بخلاف من اتخذ مخلوقًا أولياء من دون الله، فهذا لون وذاك لون، والشفاعة الشركية الباطلة لون، والشفاعة الحق الثابتة التي إنما تنال بالتوحيد لون، وهذا موضع فرقان بين أهل التوحيد وأهل الشرك بالله، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

والمقصود: أن حقيقة العبودية وموجباته لا تخلص مع الإشراك بالله في المحبة، بخلاف المحبة لله، فإنها من لوازم العبودية وموجباتها، فإن محبة رسول الله ﷺ بل تقديمه في الحب على الأنفس وعلى الآباء والأبناء، لا يتم الإيمان إلا بها؛ إذ محبته من محبة الله، وكذلك كل حب في الله ولله، كما في «**الصحيحين**» عنه ﷺ أنه قال: «**ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه وجَد بهنَّ حلاوةَ الإيمانِ** - وفي لفظ في الصحيح[1]: «**لا يجدُ عبدٌ طعمَ الإيمانِ إلا مَن كان في قلبِهِ ثلاثُ خصالٍ**» - أن يكون اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحبَّ المرءَ لا يحبُّه إلا للهِ، وأن يكرهَ أن يرجعَ إلى الكفرِ بعد إذ أنقذه اللهُ منه، كما يكرهُ أن يُقذفَ في النارِ»[2]. وفي الحديث الذي في «**السنن**»: «**من أحبَّ للهِ، وأبغض للهِ، وأعطى لله، ومنع للهِ، فقد استكمل الإيمانَ**»[3]. وفي

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم (٢٤٧) بإسنادٍ حسن عنه.

(٢) أخرجه البخاري (١٦، ٢١، ٦٠٤١، ٦٩٤١)، ومسلم (٤٣/ ٦٧، ٦٨)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٤٣٨، ٤٤٠)، والترمذي (٢٥٢١)، وأخرجه أبو داود (٤٦٨١)، من حديث أبي إمامة رضي الله عنه.

حديث آخر: «**ما تحابَّ رجلانِ في اللهِ إلا كان أفضلُهما أشدَّهما حبًّا لصاحبِه**»[١]. فإن هذه المحبة من لوازم محبة اللّٰه وموجباتها، وكلما كانت أقوى كان أصلها كذلك»[٢].

* * *

(١) أخرجه البخاري في «كتابه المفرد في الأدب» (٥٤٤)، والطيالسي (ص٢٧٣)، وأبو يعلى (٦/ ٣٤١٩) كلاهما في «المسند»، والحاكمُ في «المستدرك» (٤/ ١٨٩)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) «الجواب الكافي» (١/ ١٣٢- ١٣٤).

أنواع المحبة

«**وههنا أربعة أنواع من الحب يجب التفريق بينها، وإنما ضل من ضل بعدم التمييز بينهما:**

أحدها: محبة الله، ولا تكفي وحدها في النجاة من الله، من عذابه والفوز بثوابه؛ فإن المشركين وعباد الصليب واليهود وغيرهم يحبون الله.

الثاني: محبة ما يحب الله، وهذه هي التي تدخله في الإسلام وتخرجه من الكفر، وأحب الناس إلى اللَّه أقومهم بهذه المحبة، وأشدهم فيها.

الثالث: الحب لله وفيه، وهي من لوازم محبة ما يحب الله، ولا يستقيم محبة ما يحب اللَّه إلا بالحب فيه وله.

الرابع: المحبة مع الله، وهي المحبة الشركية، وكل مَن أحب شيئًا مع الله، لا لله ولا من أجله ولا فيه، فقد اتخذه ندًّا من دون الله، وهذه محبة المشركين.

وبقي **قسم خامس**، ليس مما نحن فيه، وهي المحبة الطبيعية، وهي ميل الإنسان إلى ما يلائم طبعه، كمحبة العطشان للماء، والجائع للطعام، ومحبة النوم، والزوجة، والولد، فتلك لا تذم إلا إن ألهت عن ذكر الله، وشغلته عن محبته، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ۝٩﴾ [المنافقون: ٩]، وقال تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٣٧]»[١].

***

(١) «الجواب الكافي» (١/ ١٣٣، ١٣٤).

المحبة شرط كلمة التوحيد

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤].

«**اعلم أن محركات القلوب إلى الله** ﷻ ثلاثة: المحبة، والخوف، والرجاء، وأقواها المحبة، وهي مقصودة، تراد لذاتها، لأنها تراد في الدنيا والآخرة، بخلاف الخوف، فإنه يزول في الآخرة، قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس: ٦٢]، والخوف المقصود منه الزجر والمنع من الخروج عن الطريق.

فالمحبة تلقى العبد في السير إلى محبوبه، وعلى قدر ضعفها وقوتها يكون سيره إليه. **والخوف** يمنعه أن يخرج عن طريق المحبوب. **والرجاء** يقوده.

فهذا أصل عظيم يجب على كل عبد أن يتنبه له، فإنه لا تحصل له العبودية بدونه»[1].

واعلم أن أصل العبادة المحبة، والشرك فيها أصل الشرك، ومما يبين ذلك:

«**ومما يبين ذلك** أن أصل العبادة هي المحبة، وأن الشرك فيها أصل الشرك، كما ذكره الله في قصة إمام الحنفاء إبراهيم الخليل، حيث قال:

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١/ ٩٥).

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأنعام: ٧٦]، وقال في القمر: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الأنعام: ٧٧]، فلما أفلت الشمس قال: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: ٧٨، ٧٩].

ولهذا تبرأ إبراهيم من المشركين وممن أشركوا بالله، ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء: ٧٥، ٧٧]، وقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

ومما يوضح ذلك أنه قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [البقرة: ١٩٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنفال: ٣٩]، فأمر بالجهاد حتى لا تكون فتنة، وحتى يكون الدين كله لله، فجعل المقصود عدم كون الفتنة ووجود كون الدين كله لله، وناقض بينهما؛ فكون الفتنة ينافي كون الدين لله، وكون الدين لله، ينافي كون الفتنة.

والفتنة قد فسرت بالشرك؛ فما حصلت به فتنة القلوب ففيه شرك، وهو ينافي كون الدين كله لله.

والفتنة جنس تحته أنواع من الشبهات والشهوات، وفتنة الذين يتخذون من دون اللّه أندادًا يحبونهم كحب اللّه من أعظم الفتن، ومنه فتنة أصحاب

العجل، كما قال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾﴾ [طه: ٨٥]، قال موسى عليه السلام: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣].

قيل لسفيان بن عيينة: إن أهل الأهواء يحبون ما ابتدعوه من أهوائهم حبًّا شديدًا. **فقال:** «**أنسيت قوله تعالى:** ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وقوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾». أو كلامًا هذا معناه، وكل ما أُحِبَّ لغير اللَّه فقد يحصل به من الفتنة ما يمنع أن يكون الدين لله.

وعشق الصور من أعظم الفتن، وقد قال تعالى: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: د]، ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤].

وقد قال سبحانه: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت: ١ - ٣].

ومما يبين ذلك، أن رجلًا قال للنبي ﷺ: ما شاء اللَّه وشئت، فقال: «**أجعلتني للهِ ندًّا؟! بل ما شاء اللهُ وحده**»[١]. فأنكر عليه أن جعله ندًّا لله في هذه

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٢١٤، ٢٢٤، ٢٨٣، ٣٤٧)، النسائي في «الكبرى» (١٠٨٢٥)، وابن ماجه (٢١١٧)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

الكلمة التي جمع فيها بينه وبين اللَّه في المشيئة؛ إذ مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله، فلا يكون شريكه لما يعلم أن كون الشيء ندًّا لله، قد يكون بدون أن يعبد العبادة التامة، فإن ذلك الرجل ما كان يعبد رسول اللَّه تلك العبادة.

- **محبة اللَّه توجب المجاهدة في سبيله:**

وبهذا يتبين أن محبة اللَّه توجب المجاهدة في سبيله قطعًا، فإن من أحب اللَّه وأحبه اللَّه أحب ما يحبه الله، وأبغض ما يبغضه الله، ووالى من يواليه الله، وعادى من يعاديه الله، لا تكون محبة قط إلا وفيها ذلك، بحسب قوتها وضعفها، فإن المحبة توجب الدنو من المحبوب، والبعد عن مكروهاته، ومتى كان مع المحبة نَبْذُ ما يبغضه المحبوب فإنها تكون تامة.

- **موادة عدو اللَّه تنافي المحبة:**

وأما موادة عدوه، فإنها تنافي المحبة، قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

فأخبر أن المؤمن الذي لا بد أن يكون اللَّه ورسوله أحب إليه مِمَّا سواهما، كما في الحديث المتفق عليه: «**والذي نفسي بيدِه لا يؤمنُ أحدُكم حتى أكونَ، أحبَّ إليه مِن ولدِه، ووالدِه، والناسِ أجمعين**»[(١)]. لا تجده موادًّا لمن حاد اللَّه ورسوله، فإن هذا جمع بين الضدين لا يجتمعان، ومحبوب اللَّه ومحبوب معاديه لا يجتمعان.

فالمحب له لو كان موادًّا لمحاده، لكان محبًّا لاجتماع مراد المتحادين

(١) أخرجه البخاري (١٥)، ومسلمٌ (٤٤/ ٦٩، ٧٠)، حديث أنس بن مالك ﷺ.

المتعاديين، وذلك ممتنع، ولهذا لم تصلح هذه الحالة إلا لله ورسوله، فإنه يجب على العبد أن يكون اللَّه ورسوله أحب إليه مما سواهما، ولا يكون مؤمنًا إلا بذلك، ولا تكون هذه المحبة مع محبة من يحاد اللَّه ورسوله ويعاديه أبدًا، فلا ولاء لله إلا بالبراءة من عدو اللَّه ورسوله.

وأما المؤمنون الذين قد يقاتل بعضهم بعضًا فأولئك ليسوا متحادين من كل وجه، فإن مع كلٍّ منهما من الإيمان ما يحب عليه الآخر، وإن كان يبغضه أيضًا، فيجتمع فيهما المحبة والبغضة، وكذلك كلٌّ منهما لا يجب أن تكون جميع أفعاله موافقة لمحبة الله، وجميع أفعال الآخر موافقة لبغض الله، بل لا بد أن يفعل أحدهما ما لا يحبه الله، وإن لم يبغضه، ولا بد أن يكون في الآخر أيضًا ما يحبه الله؛ إذ هو مؤمن، فيجب أن يعطى كل واحد من المحبة بقدر إيمانه، ولا يجب أن يحب من أحدهما ما لا يحبه، وإن كان لا يبغضه، بل ولا يحب من واحدهما ما كان خطأ، أو ذنبًا مغفورا، وإن كان لا يبغض على ذلك، فلا يحب إلا ما أحبه اللَّه ورسوله، فيحب ما كان من اجتهاده من عمل صالح.

وهذا الذي ذكرناه، أمر يجده الإنسان من نفسه ويحسه، أنه إذا أحب الشيء لم يحب ضده، بل يبغضه، فلا يتصور اجتماع إرادتين تامتين للضدين، لكن قد يكون في القلب نوع محبة وإرادة لشيء، ونوع محبة وإرادة لضده، فهذا كثير، بل هو غالب على بني آدم، لكن لا يكون واحد منهما تامًّا، فإن المحبة والإرادة التامة توجب وجود المحبوب المراد مع القدرة، فإذا كانت القدرة حاصلة ولم يوجد المحبوب المراد لم يكن الحب والإرادة تامة، وكذلك البغض التام يمنع وجود البغيض مع القدرة، فمتى

وجد مع إمكان الامتناع لم يكن البغض تامًّا.

ومن هُنا يعرف أن قول النبي ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمنٌ، ولا يسرقُ السارقُ حين يسرقُ وهو مؤمنٌ، ولا يشربُ الخمرَ حين يشربُها وهو مؤمنٌ**»[1]. على بابه، لو كان بغضه لما أبغضه اللَّه من هذه الأفعال تامًّا لما فعلها، فإذا فعلها فإما أن يكون تصديقه بأن اللَّه يبغضها فيه ضعف، أو نفس بغضه لما يبغضه اللَّه فيه ضعف، وكلاهما يمنع تمام الإيمان الواجب.

- **محبة اللَّه ورسوله على درجتين:**

ومحبة اللَّه ورسوله على درجتين: واجبة وهي درجة المقتصدين، ومستحبة وهي درجة السابقين:

- **المحبة الواجبة وهي محبة المقتصدين:**

وهي تقتضي أن يكون اللَّه ورسوله، أحب إليه مما سواهما، بحيث لا يحب شيئًا يبغضه، كما قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ وذلك يقتضي محبة جميع ما أوجبه اللَّه تعالى، وبغض ما حرمه اللَّه تعالى، وذلك واجب، فإن إرادة الواجبات إرادة تامة، تقتضي وجود ما أوجبه، كما تقتضي عدم عمل الأشياء التي نهي اللَّه عنها، وذلك مستلزم لبغضها التام.

فيجب على كل مؤمن أن يحب ما أحبه اللَّه ويبغض ما أبغضه الله، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٧٥، ٥٥٧٨، ٦٧٧٢)، ومسلم (٥٧/ ١٠٠-١٠٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه به.

أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾ [محمد: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ [الرعد: ٣٦].

- **والمحبة المستحبة، وهي محبة السابقين:**

أما محبة السابقين، بأن يحب ما أحبه اللَّه من النوافل والفضائل محبة تامة، وهذه حال المقربين الذين قربهم اللَّه إليه.

فإذا كانت محبة اللَّه ورسوله الواجبة، تقتضي بغض ما أبغضه اللَّه ورسوله، كما في سائر أنواع المحبة، فإنها توجب بغض الضد»[1].

* * *

(١) «قاعدة في المحبة» (١/ ٨٨- ٩٣).

العبادة تجمع كمال المحبة وكمال الذل

والعبادة تجمع كمال المحبة وكمال الذل، فالعابد محب خاضع، بخلاف من يحب من لا يخضع له، بل يحبه ليتوسل به إلى محبوب آخر، وبخلاف من يخضع لمن لا يحبه، كما يخضع للظالم، فإن كلًّا من هذين ليس عبادة محضة، وإن كل محبوب لغير اللَّه ومعظم لغير اللَّه ففيه شَوْبٌ من العبادة، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: **«تَعِسَ عبدُ الدرهمِ، تعس عبدُ الدينارِ، تعس عبدُ القطيفةِ، تعس عبدُ الخَمِيصةِ، تعس وانتَكس، وإذا شِيْك فلا انتَقَش»**[(١)].

وذلك كما جاء في الحديث: **«إن الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل»**[(٢)]. مع أنه ليس في الأمم أعظم تحقيقًا للتوحيد من هذه الأمة.

ولهذا كان شداد بن أوس يقول: **«يا نعايا العرب[(٣)]! يا نعايا العرب! إن أخوف ما أخوف عليكم الرياء، والشهوة الخفية»**[(٤)]. قال أبو داود: الشهوة الخفية: حب الرياسة.

وفي حديث الترمذي عن كعب بن مالك أن النبي ﷺ قال: **«ما ذئبان جائعان أُرسِلا في غنمٍ، بأفسدَ لها مِن حرصِ المرءِ على المالِ، والشرفِ**

---

(١) مضى تخريجه.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٤٠٣)، وابنُ أبي شيبة في «المصنف» (٦/ ٧٠)، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٣) نَعَى الميِّتَ يَنْعاه نَعْياً ونَعِيّاً إذا أذاعَ موته وأخْبَر به وإذا ندَبَه، والمعنى: يا نَعايا العرب، جِئنَ فهذا وقْتُكنّ وزمانُكُنّ. يريد أنّ العرب قد هَلَكَت. «النهاية» (٥/ ١٨٨).

(٤) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٦٨٢٧، ٦٨٢٩)، من طريقين عن شداد رضي الله عنه.

لدينِه»[١]. قال الترمذي: حديث حسن صحيح. والحرص يكون على قدر قوة الحب والبغض.

وقد قال اللَّه تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦]. وروي أن أبا بكر الصديق ﷺ قال للنبي ﷺ : «**إذا كان الشرك أخفى من دبيب النمل، فكيف نتجنبه؟**». فقال النبي ﷺ : «**ألا أعلِّمُك كلمةً إذا قلتها نجوتَ مِن قليلِه وكثيره؟ قل: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم**»[٢]. فأمره مع الاستعاذة من الشرك المعلوم بالاستغفار، فإن الاستغفار والتوحيد بهما يكمل الدين.

كما قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾﴾ [محمد: ١٩]، وقال تعالى: ﴿الر ۚ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ١ - ٣].

وفي الحديث: «**إن الشيطان قال: أهلكت بني آدم بالذنوب، وأهلكوني بلا إله إلا اللَّه والاستغفار، فلما رأيت ذلك بثثت فيهم الأهواء، فهم يذنبون ولا يستغفرون، لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا**»[٣]. وهذا كذلك فإن من اتخذ إلهه هواه، صار يعبد من يهواه، وقد زين له سوء عمله فرآه حسنًا.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٤٥٦، ٤٦٠)، والترمذي (٢٣٧٦)، من حديث كعب بن مالك الأنصاري ﷺ، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (٥٨)، من حديث أبي بكر ﷺ، وأحمد (٤/ ٤٠٣)، بنحوه من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ، من غير أن يذر أبا بكر، بل لفظه: فقال له من شاء الله أن يقول: وكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل؟ وصححه الألباني، وانظر «صحيح الجامع» (٣٧٣١).

(٣) تقدم تخريجه، وهو حسن.

قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٠٢ - ١٠٤].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ [غافر: ٣٧].

فمن أحب شيئًا كما يحب الله، أو عظمه كما يعظم الله، فقد جعله لله ندًّا، وإن كان يقول: إنما نعبدهم ليقربونا إلى اللَّه زلفى. و: إنهم شفعاؤنا عند الله»(١).

«الإنسان لا يفعل الحرام إلا لضعف إيمانه ومحبته وإذا فعل مكروهات الحق فلضعف بغضها في قلبه، أو لقوة محبتها التي تغلب بغضها، فالإنسان لا يأتي شيئًا من المحرمات، كالفواحش ما ظهر منها وما بطن، والإثم والبغي بغير الحق، والشرك باللَّه ما لم ينزل به سلطانًا، والقول علي اللَّه بغير علم - إلا لضعف الإيمان في أصله أو كماله، أو ضعف العلم والتصديق، وإما ضعف المحبة والبغض.

لكن إذا كان أصل الإيمان صحيحًا، وهو التصديق، فإن هذه المحرمات يفعلها المؤمن مع كراهته وبغضه لها، فهو إذا فعلها لغلبة الشهوة عليه، فلا بد أن يكون مع فعلها فيه بغض لها، وفيه خوف من عقاب اللَّه عليها، وفيه رجاء لأن يخلص من عقابها، إما بتوبة، وإما حسنات، وإما عفو، وإما دون ذلك، وإلا فإذا لم يبغضها، ولم يخف اللَّه فيها، ولم يرج رحمته، فهذا لا

---

(١) «قاعدة في المحبة» (١/ ٩٨- ١٠٢).

يكون مؤمنًا بحال، بل هو كافر، أو منافق»[١].

مراتب الذل والخضوع لله

«**المرتبة الأولى**، مشتركة بين الخلق، وهي: ذل الحاجة والفقر إلى الله، فأهل السموات والأرض جميعًا محتاجون إليه، فقراء إليه، وهو وحده الغني عنهم، وكل أهل السموات والأرض يسألونه، وهو لا يسأل أحدًا.

المرتبة الثانية: ذل الطاعة والعبودية، وهو ذل الاختيار، وهذا خاص بأهل طاعته، وهو سر العبودية.

المرتبة الثالثة: ذل المحبة، فإن المحب ذليل بالذات، وعلى قدر محبته له يكون ذله، فالمحبة أسست على الذلة للمحبوب، كما قيل:

اخضَعْ وذِلَّ لمن تحبُّ فليس في ... حكمِ الهوى أنفٌ يشالُ ويعقدُ

وقال آخر:

مساكينُ أهلُ الحبِّ حتى قبورَهم ... عليها ترابُ الذلِّ بين المقابرِ

المرتبة الرابعة: ذل المعصية والجناية.

فإذا اجتمعت هذه المراتب الأربع، كان الذل لله والخضوع له أكمل وأتم؛ إذ يذل له خوفا وخشية، ومحبة وإنابة وطاعة، وفقرًا وفاقة»[٢].

«وتفاوت منازل الخلق فيها بحسب تفاوتهم في هذين الأصلين، فمن أعطى حبه وذله وخضوعه لغير الله، فقد شبهه به في خالص حقه، وهذا من

(١) «قاعدة في المحبة» (١/ ١٠٤).
(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٢٠٧).

المحال أن تأتي به شريعة من الشرائع، وقبحه مستقر في كل فطرة وعقل، ولكن غيرت الشياطين فطر أكثر الخلق وعقولهم، وأفسدتها عليهم، واحتالتهم[1] عنها، ومضى على الفطرة الأولى من سبقت له من اللَّه الحسنى، فأرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه بما يوافق فطرهم وعقولهم، فازدادوا بذلك نورًا على نور، يهدي اللَّه لنوره من يشاء.

إذا عرف هذا، **فمن خصائص الإلهية السجود**: فمن سجد لغيره، فقد شبه المخلوق به.

ومنها التوكل: فمن توكل على غيره، فقد شبهه به.

ومنها التوبة: فمن تاب لغيره فقد شبهه به.

ومنها الحلف باسمه تعظيمًا وإجلالاً: فمن حلف بغيره، فقد شبهه به.

هذا في جانب التشبيه، **وأما في جانب التشبه به**: فمن تعاظم وتكبر، ودعا الناس إلى إطرائه في المدح والتعظيم، والخضوع والرجاء، وتعليق القلب به خوفًا ورجاء، والتجاء واستعانة، فقد أشرك باللَّه ونازعه في ربوبيته وإلهيته، وهو حقيقٌ بأن يهينه غاية الهوان، ويذله غاية الذل، ويجعله تحت أقدام خلقه، وفى الصحيح عنه ﷺ قال: «**يقول اللَّه** ﷻ: العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحدًا منهما عذبته»[2].

وإذا كان المصوِّر الذي يصنع الصورة بيده من أشد الناس عذابًا يوم القيامة؛ لتشبهه باللَّه في مجرد الصنعة، فما الظن بالتشبه باللَّه في الربوبية

---

(١) المعنى: أي نَقَلَتهم من حال إلى حال. هكذا جاء في رواية -يعني: بالحاء- والمشهور بالجيم. «النهاية» (١/ ١٠٨٨).

(٢) أخرجه مسلم (١٣٦/ ٢٦٢٠)، بنحوه من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة، رضي الله عنهما.

والإلهية؟! كما قال النبي ﷺ : «**أشدُّ الناسِ عذابًا يومَ القيامةِ المصورون، يقال لهم: أحيوا ما خلقتم**»[١]. وفى الصحيحين عنه ﷺ : أنه قال: «**قال اللَّه** ﷻ : ومَن أظلمُ ممن ذهب يخلقُ خَلقًا كخلقي، فليخلقوا ذرةً، فليخلقوا شَعيرةً»[٢]. فنبه بالذرة والشعيرة على ما هو أعظم منهما وأكبر.

والمقصود: أن هذا حال من تَشَّبَهَ بِهِ في صنعة صورة، فكيف حال من تشبه به في خواص ربوبيته وإلهيته، وكذلك من تشبه به في الاسم الذي لا ينبغي إلا لله وحده، كـ - (ملك الأملاك)، و(حاكم الحكام)، ونحوه، وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**إن أَخْنَعَ الأسماءِ عند اللهِ رجلٌ يسمى بشاهان شاه: ملك الملوك، ولا ملك إلا الله**». وفي لفظ: «**أغيظ رجلٍ على اللَّه رجلٌ يسمى بملكِ الأملاكِ**»[٣]. فهذا مقت اللَّه وغضبه على من تشبه به في الاسم الذي لا ينبغي إلا له، فهو سبحانه ملك الملوك وحده، وهو حاكم الحكام وحده، فهو الذي يحكم على الحكام كلهم، ويقضي عليهم كلهم لا غيره»[٤].

أنواع الذل

والذل أنواع:

أكملها: ذل المحب لمحبوبه.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٥٠)، ومسلم (٢١٠٩/ ٩٨)، من حديث ابن مسعود ﷺ.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٢٣٢، ٢٥٩، ٣٩١)، والبخاري (٥٩٥٣، ٧٥٥٩)، ومسلمٌ (٢١١١/ ١٠١)، وابنُ حبان (٥٨٥٩)، من طرق عن أبي زرعة، عن أبي هريرة به.

(٣) أخرجه البخاري (٦٢٠٥، ٦٢٠٦)، مسلم (٢٠/ ٢١٤٣)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) «الجواب الكافي» (١/ ٩٥).

الثاني: ذل المملوك لمالكه.

الثالث: ذل الجاني بين يدي المنعم عليه، المحسن إليه، المالك له.

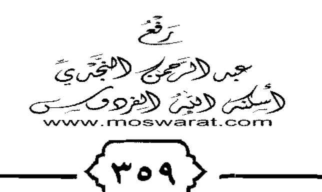
الرابع: ذل العاجز عن جميع مصالحه وحاجاته بين يدي القادر عليها، التي هي في يده وبأمره. وتحت هذا قسمان:

أحدهما: ذل له في أن يجلب له ما ينفعه.

والثاني: ذل له في أن يدفع عنه ما يضره على الدوام، ويدخل في هذا ذل المصائب، كالفقر والمرض، وأنواع البلاء والمحن»[١].

* * *

(١) «طريق الهجرتين» (١/ ٣٥٨).



الأسباب الجالبة لمحبة الله

أحدها: قراءة القرآن بالتدبر، والتفهم لمعانيه، وما أريد به، كتدبر الكتاب الذي يحفظه العبد ويشرحه؛ ليتفهم مراد صاحبه منه.

الثاني: التقرب إلى اللّٰه بالنوافل بعد الفرائض، فإنها توصله إلى درجة المحبوبية بعد المحبة.

الثالث: دوام ذكره على كل حال: باللسان، والقلب، والعمل، والحال، فنصيبه من المحبة على قدر نصيبه من هذا الذكر.

الرابع: إيثار محابه على محابك عند غلبات الهوى، والتسنم إلى محابه، وإن صعب المرتقى.

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته، ومشاهدتها ومعرفتها، وتقلبه في رياض هذه المعرفة ومباديها، فمن عرف اللّٰه بأسمائه وصفاته وأفعاله أحبه لا محالة، ولهذا كانت المعطلة، والفرعونية، والجهمية قطاع الطريق على القلوب، بينها وبين الوصول إلى المحبوب.

السادس: مشاهدة بره وإحسانه، وآلائه ونعمه، الباطنة والظاهرة، فإنها داعية إلى محبته.

السابع، وهو من أعجبها: انكسار القلب بكليته بين يدي اللّٰه تعالى، وليس في التعبير عن هذا المعنى غير الأسماء والعبارات.

الثامن: الخلوة به وقت النزول الإلهي؛ لمناجاته، وتلاوة كلامه، والوقوف بالقلب والتأدب بأدب العبودية بين يديه، ثم ختْمُ ذلك بالاستغفار والتوبة.

التاسع: مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم، كما ينتقى أطايب الثمر، ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام، وعلمت أن فيه مزيدًا لحالك، ومنفعة لغيرك.

العاشر: مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين اللَّه ﷻ.

فمن هذه الأسباب العشرة وصل المحبون إلى منازل المحبة، ودخلوا على الحبيب، وملاك ذلك كله أمران: استعداد الروح لهذا الشأن، وانفتاح عين البصيرة، وباللَّه التوفيق»[(١)].

* * *

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ١٧، ١٨).

علاقة التوحيد بالخوف والرجاء

قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [السجدة: ١٦].

«**الخوف أحد أركان الإيمان والإحسان الثلاثة، التي عليها مدار مقامات الموحدين جميعها، وهي الخوف والرجاء والمحبة، وقد ذكره سبحانه في قوله:** ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧]، فجمع بين المقامات الثلاثة؛ فإن ابتغاء الوسيلة إليه هو التقرب إليه بحبه، وفعل ما يحبه، ثم يقول: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾، فذكر الحب والخوف والرجاء، والمعنى: إن الذين تدعونهم من دون اللَّه من الملائكة والأنبياء والصالحين يتقربون إلى ربهم ويخافونه ويرجونه، فهم عبيده كما أنكم عبيده، فلماذا تعبدونهم من دونه وأنتم وهم عبيد له؟! وقد أمر سبحانه بالخوف منه في قوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، فجعل الخوف منه شرطًا في تحقيق الإيمان، وإن كان الشرط داخلًا في الصيغة على الإيمان، فهو المشروط في المعنى، والخوف شرط في حصوله وتحققه؛ وذلك لأن الإيمان سبب الخوف الحاصل عليه، وحصول المسبب شرط في تحقيق السبب، كما أن حصول السبب موجب لحصول مسببه، فانتفاء الإيمان عند

انتفاء الخوف انتفاءً للمشروط عند انتفاء شرطه، وانتفاء الخوف عن انتفاء الإيمان انتفاءً للمعلول عند انتفاء علته، فتدبره، والمعنى: إن كنتم مؤمنين فخافوني.

والمقصود: أن الخوف من لوازم الإيمان وموجباته، فلا يختلف عنه، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقد أثنى سبحانه على أقرب عباده إليه بالخوف منه، فقال عن أنبيائه بعد أن أثنى عليهم ومدحهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، فالرغب: الرجاء والرغبة، والرهب: الخوف والخشية، وقال عن ملائكته الذين قد أمنهم من عذابه: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ۩ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل: ٥٠]، وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**إني أعلمُكم باللهِ، وأشدُّكم له خشيةً**». وفي لفظ آخر: «**إني أخوفُكم للهِ، وأعلمُكم بما أتقي**»[(١)].

وكان يصلي ولصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء [(٢)].

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، فكلما كان العبد باللَّه أعلم كان له أخوف، قال ابن مسعود ﷺ: «**وكفى بخشية اللَّه علمًا**»[(٣)].

ونقصان الخوف من اللَّه إنما هو لنقصان معرفة العبد به، فأعرف الناس

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠، ٦١٠٠، ٧٣٠١)، ومسلم (٢٣٥٦/ ١٢٧، ١٢٨)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٢٥، ٢٦)، وأبو داود (٩٠٤)، من حديث عبد الله بن الشخير ﷺ.

(٣) عزاه السيوطي في «الدر» (٧/ ٢٠) لابن أبي شيبة، وأحمد في الزهد، وعبد بن حميد، والطبراني، عن ابن مسعود، قال: «كفى بخشية الله علمًا، وكفى باغترار المرء جهلًا».

أخشاهم لله، ومن عرف الله اشتد حياؤه منه وخوفه له وحبه له، وكلما ازداد معرفة ازداد حياءً وخوفًا وحبًّا»(١).

«فالقلب لا يتوكل إلا على من يرجوه، فمن رجا قوته، أو عمله، أو علمه، أو حاله، أو صديقه، أو قرابته، أو شيخه، أو ملكه، أو ماله، غير ناظر إلى الله - كان فيه نوع توكل على ذلك السبب، وما رجا أحد مخلوقًا أو توكل عليه إلا خاب ظنه فيه، فإنه مشرك، ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

وكذلك المشرك يخاف المخلوقين ويرجوهم فيحصل له رعب، كما قال تعالى: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا﴾ [آل عمران: ١٥١]، والخالص من الشرك يحصل له الأمن، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢] وقد فسر النبي الظلم هنا بالشرك، ففي الصحيح عن ابن مسعود أن هذه الآية لما نزلت شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ، وقالوا: أينا لم يظلم نفسه؟! فقال النبي: «**إنما هذا الشرك، ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح:** ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]».

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ

(١) «طريق الهجرتين» (١/ ٤٢٢-٤٢٤).

﴿١٦٧﴾ [البقرة: ١٦٥ - ١٦٧]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء: ٥٦، ٥٧] ولهذا يذكر اللَّه الأسباب ويأمر بأن لا يعتمد عليها ولا يرجى إلا الله، قال تعالى لما أنزل الملائكة: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾ [آل عمران: ١٢٦]، وقال: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [آل عمران: ١٦٠]»[١].

- **الفرق بين المحبة والخوف:**

والخوف ليس مقصودا لذاته، بل هو مقصود لغيره؛ قصد الوسائل، ولهذا يزول بزوال المخوِّف، فإن أهل الجنة لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والخوف يتعلق بالأفعال، والمحبة تتعلق بالذات والصفات، ولهذا تتضاعف محبة المؤمنين لربهم إذا دخلوا دار النعيم، ولا يلحقهم فيها خوف، ولهذا كانت منزلة المحبة ومقامها أعلى وأرفع من منزلة الخوف ومقامه، والخوف المحمود الصادق ما حال بين صاحبه وبين محارم اللَّه ﷻ، فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط.

قال أبو عثمان: «صدق الخوف: هو الورع عن الآثام ظاهرًا وباطنًا».

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس اللَّه روحه يقول: «**الخوف المحمود ما حجزك عن محارم الله**»[٢].

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٥٧).
(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٥١٤).

والرجاء: هو من أجل منازلهم وأعلاهاوأشرفها، وعليه وعلى الحب والخوف مدار السير إلى الله، وقد مدح اللَّه تعالى أهله وأثنى عليهم فقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١].

وفي الحديث الصحيح الإلهي عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه ﷻ: «**يا ابنَ آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي**»(١).

وروى الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: يقول اللَّه ﷻ: «**أنا عند ظنِّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن اقترب إليَّ شبرًا اقتربتُ إليه ذراعًا، وإن اقترب إليَّ ذراعًا اقتربتُ إليه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولةً**». رواه مسلم(٢).

وقد أخبر تعالى عن خواص عباده الذين كان المشركون يزعمون أنهم يتقربون بهم إلى اللَّه تعالى - أنهم كانوا راجين له خائفين منه، فقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾.

يقول تعالى: هؤلاء الذين تدعونهم من دوني هم عبادي يتقربون إليَّ بطاعتي، ويرجون رحمتي، ويخافون عذابي، فلماذا تدعونهم من دوني؟!

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ١٤٧)، ومسلم (٢٦٨٧/ ٢٢) بنحوه، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري (٧٤٠٣)، ومسلم (٢٦٧٥/ ٢، ٢١).

فأثنى عليهم بأفضل أحوالهم ومقاماتهم من الحب والخوف والرجاء.

فالرجاء عبودية وتعلق باللَّه من حيث اسمه المحسن البر، فذلك التعلق والتعبد بهذا الاسم والمعرفة باللَّه هو الذي أوجب للعبد الرجاء من حيث يدري ومن حيث لا يدري، فقوة الرجاء على حسب قوة المعرفة باللَّه وأسمائه وصفاته، وغلبة رحمته غضبه، ولولا روح الرجاء لعطلت عبودية القلب والجوارح: و﴿هدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم اللَّه كثيرا﴾ [الحج: ٤٠]، بل لولا روح الرجاء لما تحركت الجوارح بالطاعة، ولولا ريحه الطيبة لما جرت سفن الأعمال في بحر الإرادات، ولي من أبيات:

لولا التعلقُ بالرجاءِ تقطعتْ ... نفسُ المحبِّ تحسُّرًا وتمزُّقَا

وكذاك لولا بردُه بحرارةِ الـ ... أكبادِ ذابتْ بالحجابِ تحرُّقَا

أيكون قطُّ حليفَ حبٍّ لا يُرى ... برجائه لحبيبِه متعلِّقَا

أم كلما قويتْ محبتُه لهُ ... قويَ الرجاءُ فزاد فيه تشوُّقَا

لولا الرجا يحدو المطيَّ لما سرتْ ... بحمولها لديارِهم ترجو اللِّقَا

وعلى حسب المحبة وقوتها يكون الرجاء، وكل محب راج خائف بالضرورة فهو أرجى ما يكون لحبيبه أحب ما يكون إليه، وكذلك خوفه، فإنه يخاف سقوطه من عينه وطرد محبوبه له، وإبعاده واحتجابه عنه، فخوفه أشد خوف ورجاؤه ذاتي للمحبة، فإنه يرجوه قبل لقائه والوصول إليه، فإذا لقيه ووصل إليه اشتد الرجاء له لما يحصل له به من حياة روحه، ونعيم قلبه، من ألطاف محبوبه وبره، وإقباله عليه، ونظره إليه بعين الرضى، وتأهيله في محبته، وغير ذلك مما لا حياة للمحب ولا نعيم ولا فوز إلا بوصوله إليه من

محبوبه، فرجاؤه أعظم رجاء وأجلُّه وأتمه.

فتأمل هذا الموضع حق التأمل يطلعك على أسرار عظيمة من أسرار العبودية والمحبة، فكل محبة فهي مصحوبة بالخوف والرجاء، وعلى قدر تمكنها من قلب المحب يشتد خوفه ورجاؤه، لكن خوف المحب لا يصحبه وحشة، بخلاف خوف المسيء، ورجاء المحب لا يصحبه علة، بخلاف رجاء الأجير، وأين رجاء المحب من رجاء الأجير وبينهما كما بين حاليهما؟!

وبالجملة، فالرجاء ضروري للمريد الموحد، والعارف لو فارقه لحظة لتلف أو كاد، فإنه دائر بين ذنب يرجو غفرانه، وعيب يرجو إصلاحه، وعمل صالح يرجو قبوله، واستقامة يرجو حصولها ودوامها، وقرب من اللَّه ومنزلة عنده يرجو وصوله إليها، ولا ينفك أحد من الموحدين عن هذه الأمور، أو بعضها، فكيف يكون الرجاء من أضعف منازله وهذا حاله؟!

وأما حديث المعارضة والاعتراض فباطل، فإن الراجي ليس معارضًا ولا معترضًا، بل راغبًا راهبًا، مؤملًا لفضل ربه، محسن الظن به، متعلق الأمل ببره وجوده، عابدًا له بأسمائه (المحسن) (البر) (المعطي) (الحليم) (الغفور) (الجواد) (الوهاب) (الرزاق)، واللَّه سبحانه وتعالى يحب من عبده أن يرجوه؛ ولذلك كان عند رجاء العبد له وظنه به، و الرجاء من الأسباب التي ينال بها العبد ما يرجوه من ربه، بل هو من أقوى الأسباب»[١].

«وفي الحديث المرفوع إلى النبي أنه دخل على مريض فقال: «كيف تجدك؟» فقال: أرجو اللَّه وأخاف ذنوبي. فقال: **«ما اجتمعا في قلبِ عبدٍ في**

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٤١-٤٣).

مثلِ هذا الموطنِ إلا أعطاه اللهُ ما يرجو وآمَنه مما يخافُ»(١).

فالرجاء ينبغي أن يتعلق بالله، ولا يتعلق بمخلوق، ولا بقوة العبد ولا عمله، فإن تعليق الرجاء بغير اللَّه إشراك، وإن كان اللَّه قد جعل لها أسبابًا فالسبب لا يستقل بنفسه، بل لا بد له من معاون، ولا بد أن يمنع المعارض المعوق له، وهو لا يحصل ويبقى إلا بمشيئة اللَّه تعالى»(٢).

- **للرجاء فوائد كثيرة مشاهدة:**

«**منها**: إظهار العبودية والفاقة والحاجة إلى ما يرجوه من ربه، ويستشرفه من إحسانه وأنه لا يستغني عن فضله وإحسانه طرفة عين.

ومنها: أنه سبحانه يحب من عباده أن يؤملوه ويرجوه، ويسألوه من فضله؛ لأنه الملك الحق الجواد، أجود من سئل، وأوسع من أعطى، وأحب ما إلى الجواد أن يُرجى ويُؤمل، ويُسأل، وفي الحديث: «**مَن لم يسألِ اللهَ يغضبُ عليه**»(٣). والسائل راج وطالب، فمن لم يرج اللَّه يغضب عليه.

فهذه فائدة أخرى من فوائد الرجاء وهي: التخلص به من غضب الله.

ومنها: أن الرجاء حاد يحدو به في سيره إلى الله، ويطيب له المسير، ويحثه عليه، ويبعثه على ملازمته، فلولا الرجاء لما سار أحد، فإن الخوف وحده لا يحرك العبد، وإنما يحركه الحب، ويزعجه الخوف، ويحدوه الرجاء.

ومنها: أن الرجاء يطرحه على عتبة المحبة، ويلقيه في دهليزها، فإنه كلما اشتد رجاؤه وحصل له ما يرجوه ازداد حبًا لله تعالى، وشكرًا له،

---

(١) أخرجه الترمذي (٩٨٣)، وابن ماجه (٤٢٦١) من حديث أنس ﷺ.

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٥٦).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٣٧٣)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

ورضًى به وعنه.

ومنها: أنه يبعثه على أعلى المقامات، وهو مقام الشكر، الذي هو خلاصة العبودية، فإنه إذا حصل له مرجوُّه كان أدعى لشكره.

ومنها: أنه يوجب له المزيد من معرفة اللَّه وأسمائه، ومعانيها، والتعلق بها، فإن الراجي متعلق بأسمائه الحسنى، متعبد بها، وداع بها، قال اللَّه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] فلا ينبغي أن يعطل دعاؤه بأسمائه الحسنى التي هي أعظم ما يدعو بها الداعي، فالقدح في مقام الرجاء تعطيل لعبودية هذه الأسماء وتعطيل للدعاء بها.

ومنها: أن المحبة لا تنفك عن الرجاء، كما تقدم، فكل واحد منهما يمد الآخر ويقويه.

ومنها: أن الخوف مستلزم للرجاء، والرجاء مستلزم للخوف، فكل راج خائف، وكل خائف راج، ولأجل هذا حسن وقوع الرجاء في موضع يحسن فيه وقوع الخوف، قال اللَّه تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح: ١٣]، قال كثير من المفسرين: المعنى: ما لكم لا تخافون لله عظمة. قالوا: والرجاء بمعنى الخوف.

والتحقيق أنه ملازم له، فكل راج خائف من فوات مرجوه، والخوف بلا رجاء يأس وقنوط، وقال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ١٤] قالوا في تفسيرها: لا يخافون وقائع اللَّه بهم كوقائعه بمن قبلهم من الأمم.

ومنها: أن العبد إذا تعلق قلبه برجاء ربه فأعطاه ما رجاه كان ذلك ألطف موقعًا وأحلى عند العبد، وأبلغ من حصول ما لم يرجه، وهذا أحد الأسباب

والحكم في جعل المؤمنين بين الرجاء والخوف في هذه الدار، فعلى قدر رجائهم وخوفهم يكون فرحهم في القيامة بحصول مرجوِّهم واندفاع مخوفِّهم.

ومنها: أن اللَّه سبحانه وتعالى يريد من عبده تكميل مراتب عبوديته: من الذل والانكسار، والتوكل والاستعانة، والخوف والرجاء، والصبر والشكر، والرضى والإنابة وغيرها، ولهذا قدَّر عليه الذنب وابتلاه به لتكمل مراتب عبوديته بالتوبة التي هي من أحب عبوديات عبده إليه، فكذلك تكميلها بالرجاء والخوف.

ومنها: أن في الرجاء من الانتظار والترقب والتوقع لفضل اللَّه ما يوجب تعلق القلب بذكره، ودوام الالتفات إليه بملاحظة أسمائه وصفاته، وتنقُّل القلب في رياضها الأنيقة، وأخذه بنصيبه من كل اسم وصفة، كما تقدم بيانه، فإذا فني عن ذلك وغاب عنه فاته حظه ونصيبه من معاني هذه الأسماء والصفات.

إلى فوائد أخرى كثيرة يطالعها مَن أحسن تأمله وتفكره في استخراجها، وباللَّه التوفيق»[1].

* * *

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٥٠- ٥٢).

وجوب اقتران المحبة بالخوف والرجاء

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٩].

«**اعلم أن القلب في سيره إلى الله** ﷻ بمنزلة الطائر، فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطير جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر، ولكن السلف استحبوا أن يقوى في الصحة جناح الخوف على جناح الرجاء، وعند الخروج من الدنيا يقوى جناح الرجاء على جناح الخوف، هذه طريقة أبي سليمان وغيره، قال: ينبغي للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف، فإن غلب عليه الرجاء فسد.

وقال غيره: أكمل الأحوال اعتدال الرجاء والخوف وغلبة الحب، فالمحبة هي المركب، والرجاء حاد، والخوف سائق، والله الموصل بمنه وكرمه»[١].

«**كما أن الخوف** يثمر الورع والاستعانة وقصر الأمل. **وقوة الإيمان باللقاء**

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٥١٧).

تثمر الزهد. **والمعرفة** تثمر المحبة والخوف والرجاء. **والقناعة** تثمر الرضاء. **والذكر** يثمر حياة القلب. **والإيمان بالقدر** يثمر التوكل. **ودوام تأمل الأسماء والصفات** يثمر المعرفة. **والورع** يثمر الزهد أيضًا. **والتوبة** تثمر المحبة أيضًا. **ودوام الذكر** يثمرها. **والرضا**: يثمر الشكر. **والعزيمة والصبر**: يثمران جميع الأحوال والمقامات. **والإخلاص والصدق**: كل منهما يثمر الآخر ويقتضيه. **والمعرفة** تثمر الخلق. **والفكر** يثمر العزيمة. **والمراقبة**: تثمر عمارة الوقت وحفظ الأيام. **والحياء والخشية والإنابة وإماتة النفس وإذلالها وكسرها**: يوجب حياة القلب وعزه وجبره. **ومعرفة النفس ومقتها**: يوجب الحياء من اللَّه ﷻ، واستكثار ما منه واستقلال ما منك من الطاعات. **ومحو أثر الدعوى من القلب واللسان وصحة البصيرة**: تثمر اليقين وحسن التأمل لما ترى وتسمع من الآيات المشهودة والمتلوة يثمر صحة البصيرة.

وملاك ذلك كله أمران:

أحدهما: أن تنقل قلبك من وطن الدنيا فتسكنه في وطن الآخرة، ثم تقبل به كله على معاني القرآن، واستجلائها، وتدبرها، وفهم ما يراد منه، وما نزل لأجله، وأخذ نصيبك وحظك من كل آية من آياته، تنزلها على داء قلبك، فهذه طريق مختصرة قريبة سهلة، موصلة إلى الرفيق الأعلى، آمنة لا يلحق سالكها خوف ولا عطب، ولا جوع ولا عطش، ولا فيها آفة من آفات سائر الطريق البتة، وعليها من اللَّه حارس وحافظ يكلأ الموحدين فيها، ويحميهم ويدفع عنهم، ولا يعرف قدر هذه الطريق إلا من عرف طرق الناس وغوائلها وآفاتها وقطاعها، واللَّه المستعان»[1].

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٨).

معاني العبادات المتعلقة بعمل القلب

«وهكذا **فالتوبة** جامعة لمقام المحاسبة، ومقام الخوف لا يتصور وجودها بدونهما.

والتوكل جامع لمقام التفويض والاستعانة والرضى لا يتصور وجوده بدونها.

والرجاء جامع لمقام الخوف والإرادة.

والخوف جامع لمقام الرجاء والإرادة.

والإنابة جامعة لمقام المحبة والخشية، لا يكون العبد منيبًا إلا باجتماعهما.

والإخبات له جامع لمقام المحبة والذل والخضوع لا يكمل أحدها بدون الآخر إخباتًا.

والزهد جامع لمقام الرغبة والرهبة، لا يكون زاهدًا من لم يرغب فيما يرجو نفعه، ويرهب مما يخاف ضرره.

ومقام **المحبة** جامع لمقام المعرفة والخوف والرجاء والإرادة، فالمحبة معنى يلتئم من هذه الأربعة وبها تحققها.

ومقام **الخشية** جامع لمقام المعرفة بالله، والمعرفة بحق عبوديته، فمتى عرف اللَّه وعرف حقه، اشتدت خشيته له، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر: ٢٨].

فالعلماء به وبأمره هم أهل خشيته، قال النبي ﷺ: «**أنا أعلمكم باللَّه**

وأشدكم له خشية»[1].

ومقام الهيبة جامع لمقام المحبة والإجلال والتعظيم.

ومقام الشكر جامع لجميع مقامات الإيمان، ولذلك كان أرفعها وأعلاها، وهو فوق الرضا، وهو يتضمن الصبر من غير عكس، ويتضمن التوكل والإنابة، والحب والإخبات، والخشوع والرجاء، فجميع المقامات مندرجة فيه، لا يستحق صاحبه اسمه على الإطلاق إلا باستجماع المقامات له، ولهذا كان الإيمان نصفين، نصف صبر، ونصف شكر، والصبر داخل في الشكر، فرجع الإيمان كله شكرًا، والشاكرون هم أقل العباد، كما قال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

ومقام الحياء جامع لمقام المعرفة والمراقبة.

ومقام الأنس جامع لمقام الحب مع القرب، فلو كان المحب بعيدًا من محبوبه لم يأنس به، ولو كان قريبًا من رجل ولم يحبه لم يأنس به، حتى يجتمع له حبه مع القرب منه.

ومقام الصدق جامع للإخلاص والعزم، فباجتماعهما يصح له مقام الصدق.

ومقام المراقبة جامع للمعرفة مع الخشية، فبحسبهما يصح مقام المراقبة.

ومقام الطمأنينة جامع للإنابة والتوكل، والتفويض والرضى والتسليم، فهو معنى ملتئم من هذه الأمور، إذا اجتمعت صار صاحبها صاحب طمأنينة، وما نقص منها نقص من الطمأنينة.

---

(١) أخرجه عبد بن حميد في «مسنده» (١/ ٤٣٥)، وأخرجه البخاري (٢٠) مقتصرًا على لفظ: «أنا أعلمكم بالله». من حديث عائشة رضي الله عنها.

وكذلك الرغبة والرهبة، كل منهما ملتئم من الرجاء والخوف، والرجاء على الرغبة أغلب، والخوف على الرهبة أغلب»[١].

* * *

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٣٦).

علاقة الاستغفار بالتوحيد

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾﴾ [فصلت: ٦]، وقال تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [النمل: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال: ٣٣].

«**فشهادة أن لا إله إلا اللَّه بصدق ويقين تُذهِبُ الشركَ كلَّه، دِقَّه وجِلَّه، خطأه وعمده، أوله وآخره، سره وعلانيته، وتأتي على جميع صفاته وخفاياه ودقائقه.**

والاستغفار يمحو ما بقي من عثراته، ويمحو الذنب الذي هو من شُعَب الشرك، فإن الذنوب كلها من شُعَب الشرك، فالتوحيد يذهب أصل الشرك، والاستغفار يمحو فروعه، فأبلغ الثناء قول: لا إله إلا الله. وأبلغ الدعاء قول: أستغفر الله. فأمره بالتوحيد والاستغفار لنفسه ولإخوانه من المؤمنين»[١].

«فإذا لم تكن القلوب مخلصة لله الدين عبدت غيره من الآلهة التي يعبدها أكثر الناس مما رضوه لأنفسهم، فأشركت باللَّه بعبادة غيره، واستعانته فتعبد غيره، وتستعين به، لجهلها بسعادتها التي تنالها بعبادة خالقها، والاستعانة به، فبالعبادة له تستغني عن معبود آخر، وبالاستعانة به تستغني عن الاستعانة بالخلق، وإذا لم يكن العبد كذلك، كان مذنبًا محتاجًا، وإنما

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٦٩٧).

غناه في طاعة ربه، وهذا حال الإنسان، فإنه فقير محتاج، وهو مع ذلك مذنب خطاء، فلا بد له من ربه، فإنه الذي يسدي مغافره، ولا بد له من الاستغفار من ذنوبه، قال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: ١٩]، فبالتوحيد يقوى العبد ويستغني، ومَن سَرَّه أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله، وبالاستغفار يغفر له ويدفع عنه عذابه ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]، فلا يزول فقر العبد وفاقته، إلا بالتوحيد، فإنه لا بد له منه، وإذا لم يحصل له لم يزل فقيرًا محتاجًا معذبًا في طلب ما لم يحصل له، واللَّه تعالى ﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨]، وإذا حصل مع التوحيد الاستغفار حصل له غناه وسعادته، وزال عنه ما يعذبه، ولا حول ولا قوة إلا بالله»(١).

«وهذا مشهد ذي النون؛ إذ يقول: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] فوحَّد ربه ونزهه عن كل عيب، وأضاف الظلم إلى نفسه، وهذا مشهد صاحب سيد الاستغفار؛ إذ يقول في دعائه: **«اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدُك، وأنا على عهدِك ووعدِك ما استطعتُ، أعوذُ بك من شرِّ ما صنعتُ، أبوءُ لك بنعمتِك عليَّ، وأبوءُ بذنبي فاغفرْ لي، فإنه لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنت»**(٢).

فأقر بتوحيد الربوبية المتضمن لانفراده سبحانه بالخلق، وعموم المشيئة ونفوذها، وتوحيد الإلهية المتضمن لمحبته وعبادته، وحده لا شريك له، والاعتراف بالعبودية المتضمن للافتقار من جميع الوجوه إليه سبحانه، ثم

(١) «مجموع الفتاوى» (١/ ٥٥، ٥٦).
(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ١٢٢)، وأخرجه البخاري في «صحيحه» (٥/ ٢٣٢٣)، الترمذي في «سننه» (٥/ ٤٦٧).

قال: «**وأنا على عهدِك ووعدِك**». فتضمن ذلك التزام شرعه وأمره ودينه، وهو عهده الذي عهده إلى عباده، وتصديق وعده، وهو جزاؤه من ثوابه، فتضمن التزام الأمر، والتصديق بالموعود، وهو الإيمان والاحتساب، ثم لما علم أن العبد لا يوفي هذا المقام حقه الذي يصلح له تعالى، علق ذلك باستطاعته وقدرته التي لا يتعداها، فقال: «**ما استطعت**». أي: ألتزم ذلك بحسب استطاعتي وقدرتي، ثم شهد المشهدين المذكورين، وهما مشهد القدرة والقوة، ومشهد التقصير من نفسه، فقال: «**أعوذُ بك مِن شرِّ ما صنعتُ**». فهذه الكلمة تضمنت المشهدين معًا، ثم أضاف النعمَ كلَّها إلى وليها وأهلها والمبتدئ بها، والذنبَ إلى نفسه وعمله، فقال: «**أبوءُ لك بنعمتِك عليَّ، وأبوءُ بذنبي**». فأنت المحمود والمشكور، الذي له الثناء كله، والإحسان كله، ومنه النعم كلها، فلك الحمد كله، ولك الثناء كله، ولك الفضل كله، وأنا المذنب المسيء، المعترف بذنبه، المقر بخطئه، **كما قال بعض العارفين**: العارف يسير بين مشاهدة المنة من الله، ومطالعة عيب النفس والعمل. فشهود المنة يوجب له المحبة لربه سبحانه، وحمده والثناء عليه، ومطالعة عيب النفس والعمل يوجب استغفاره، ودوام توبته، وتضرعه، واستكانته لربه، ثم لما قام هذا بقلب الداعي، وتوسل إليه بهذه الوسائل، قال: «**فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**»[١].

* * *

---

(١) «طريق الهجرتين» (١/ ٢٦٤، ٢٦٥).

كمال التأله بكمال الذكر

قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ العنكبوت: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩١].

وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ ﴿٥٥﴾﴾ [غافر: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾ [الإنسان: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ ﴿٤١﴾﴾ [آل عمران: ٤١].

«ثم هم يتفاضلون في العلم والإرادة، فإذا كان أحدهم أكثر محبة لله وذكرًا وعبادة، كان الإيمان عنده أقوى وأرسخ من حيث المحبة والعبادة لله،

وإن كان لغيره من العلم بالأسماء والصفات ما ليس له، فصاحب المحبة والذكر والتأله يحصل له من حضور الرب في قلبه وأنسه به ما لا يحصل لمن ليس مثله.

روى أهل السنن والحاكم، وهذا لفظه، عن حميضة بنت ياسر، عن جدتها يسيرة رضي اللَّه عنها، وكانت إحدى المهاجرات، قالت: قال رسول اللَّه ﷺ: «**عليكنَّ بالتسبيحِ والتهليلِ والتقديسِ، ولا تَغْفُلْنَ فتَنْسَيْنَ التوحيد، واعقِدْنَ بالأناملِ، فإنهنَّ مسئولاتٌ ومستنطقاتٌ**»[1].

وروى مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: كان رسول اللَّه ﷺ يسير في طريق مكة، فمر على جبل يقال له جُمْدَان، فقال: «**سيروا، هذا جُمْدَانُ، سَبَقَ المُفَرِّدون**». قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: «**الذاكرون اللهَ كثيرًا والذاكراتُ**»[2][3].

«وأما ما سألت عنه من أفضل الأعمال بعد الفرائض، فإنه يختلف باختلاف الناس فيما يقدرون عليه، وما يناسب أوقاتهم، فلا يمكن فيه جواب جامع مفصل لكل أحد، لكن مما هو كالإجماع بين العلماء باللَّه وأمره أن ملازمة ذكر اللَّه دائمًا هو أفضل ما شغل العبد به نفسه في الجملة، وعلى ذلك دل حديث أبي هريرة ﷺ الذي رواه مسلم: «**سبق المفرِّدون**». قالوا: يا رسول الله، ومن المفردون؟ قال: «**الذاكرون اللَّه كثيرًا والذاكرات**». وفيما رواه أبو داود عن أبي الدرداء ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «**ألا أنبئكم بخيرِ أعمالِكم، وأزكاها عند مليكِكم، وأرفعِها في درجاتِكم، وخيرٍ لكم من إعطاءِ الذهبِ**

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٣٧٠)، والترمذي (٣٥٨٣)، وحسنه الألباني.

(٢) مسلم: (٤/ ٢٠٦٢).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٥/ ٢٥٢).

الوَرِقِ، ومن أن تَلْقَوا عدوَّكم فتضربوا أعناقَهم، ويضربوا أعناقَكم؟». قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**ذكرُ اللهِ**». والدلائل القرآنية، والإيمانية بصرًا وخبرًا ونظرًا على ذلك كثيرة، وأقل ذلك أن يلازم العبد الأذكار المأثورة عن معلم الخير وإمام المتقين ﷺ كالأذكار المؤقتة في أول النهار وآخره، وعند أخذ المضجع، وعند الاستيقاظ من المنام، وأدبار الصلوات، والأذكار المقيدة، مثل ما يقال عند الأكل، والشرب، واللباس، والجماع، ودخول المنزل، والمسجد، والخلاء، والخروج من ذلك، وعند المطر، والرعد، إلى غير ذلك، وقد صنفت له الكتب المسماة بعمل اليوم والليلة أفضل الذكر، ثم ملازمة الذكر مطلقًا، وأفضله: لا إله إلا الله. وقد تعْرِض أحوال يكون بقية الذكر، مثل: سبحان اللَّه والحمد لله واللَّه أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله، أفضل منه، ثم يعلم أن كل ما تكلم به اللسان وتصوره القلب مما يقرب إلى الله، من تعلم علم وتعليمه، وأمر بمعروف ونهي عن منكر، فهو من ذكر الله، ولهذا من اشتغل بطلب العلم النافع بعد أداء الفرائض، أو جلس مجلسًا يتفقه أو يفقه فيه الفقه الذي سماه اللَّه ورسوله فقهًا، فهذا أيضًا من أفضل ذكر الله، وعلى ذلك إذا تدبرت لم تجد بين الأولين في كلماتهم في أفضل الأعمال كبير اختلاف، وما اشتبه أمره على العبد فعليه بالاستخارة المشروعة، فما ندم من استخار اللَّه تعالى، وليكثر من ذلك ومن الدعاء فإنه مفتاح كل خير، ولا يعجل فيقول: قد دعوت فلم يستجب لي. وليتحر الأوقات الفاضلة، كآخر الليل، وأدبار الصلوات، وعند الأذان، ووقت نزول المطر، ونحو ذلك»[١].

«وفي «السنن» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ما مِن قومٍ**

---

(١) «الزهد والورع والعبادة» (١/ ٩٢).

يقومون مِن مجلسٍ لا يذكرون اللهَ تعالى فيه، إلا قاموا عن مثلِ جِيفةِ حمارٍ، وكان عليهم حسرةً»(١)، وفي رواية الترمذي: «**ما جلس قومٌ مجلسًا لم يذكروا اللهَ فيه، ولم يصلوا على نبيِّهم إلا كان عليهم تِرَةً، فإن شاء عذبهم، وإن شاء غفر لهم**»(٢).

وفي «صحيح مسلم» عن الأغر أبي مسلم قال: أشهد على أبي هريرة و أبي سعيد أنهما شهدا على رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «**لا يقعدُ قومٌ يذكرون اللهَ فيه، إلا حفتْهم الملائكةُ، وغشيتْهم الرحمةُ، ونزلتْ عليهم السكينةُ، وذكرهم اللهُ فيمن عنده**»(٣).

وفي «الترمذي» عن عبد اللَّه بن بشر أن رجلًا قال: يا رسول الله، إن أبواب الخير كثيرة، ولا أستطيع القيام بكلها، فأخبرني بما شئت أتشبث به، ولا تكثر عليَّ فأنسى. وفي رواية: إن شرائع الإسلام قد كثرت عليَّ، وأنا كبرت، فأخبرني بشيء أتشبث به. قال: «**لا يزال لسانُك رطبًا بذكرِ اللهِ تعالى**»(٤).

وفي «الترمذي» أيضًا عن أبي سعيد أن رسول اللَّه ﷺ: سُئل أيُّ العبادِ أفضلُ، وأرفعُ درجةً عند اللهِ يوم القيامة؟ قال: «**الذاكرون اللَّه كثيرًا**». قيل: يا رسول الله، ومن الغازي في سبيل الله؟ قال: «**لو ضَرب بسيفِه في الكفارِ والمشركين حتى يتكسرَ ويختضب دمًا، كان الذاكر لله تعالى أفضل منه درجة**»(٥).

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٥١٥) وأبو داود (٤٨٥٥)، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٨٠)، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٠٠).

(٤) أخرجه الترمذي (٣٣٧٥).

(٥) أخرجه الترمذي (٣٣٧٦).

وفي «صحيح البخاري» عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «**مثلُ الذي يذكرُ ربَّه والذي لا يذكرُ ربَّه، مثلُ الحيِّ والميتِ**»[١]. وفي «**الصحيحين**» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**يقولُ اللهُ تبارك وتعالى: أنا عند ظنِّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسِه ذكرتُه في نفسي، وإن ذكرني في ملأٍ، ذكرتُه في ملأٍ خيرٍ منهم، وإن تقرب إليَّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا، وإن تقرب إليَّ ذراعًا تقربت منه باعًا، وإذا أتاني يمشي أتيتُه هرولةً**»[٢]. وفي الترمذي عن أنس أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إذا مَرَرْتم برياضِ الجنةِ فارتَعوا**». قالوا: يا رسول الله، وما رياض الجنة؟ قال: «**حِلَقُ الذِّكرِ**»[٣].

وفي الترمذي أيضًا عن النبي ﷺ عن اللَّه عز وجل أنه يقول: «**إنَّ عبدي كُلَّ عبدي الذي يَذكُرُني وهو مُلاقٍ قِرْنَهُ**». يعني عند القتال[٤]. وهذا الحديث هو فصل الخطاب، والتفضيل بين الذاكر والمجاهد، فإن الذاكر المجاهد أفضل من الذاكر بلا جهاد والمجاهد الغافل، والذاكر بلا جهاد أفضل من المجاهد الغافل عن اللَّه تعالى، فأفضل الذاكرين المجاهدون، وأفضل المجاهدين الذاكرون.

قال اللَّه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال: ٤٥].

فأمرهم بالذكر الكثير والجهاد معًا ليكونوا على رجاء من الفلاح، وقد

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٤٤)، ومسلم (٧٧٩).

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٧٠)، ومسلم (٢٦٧٥).

(٣) أخرجه الترمذي، (٣٥١٠) وحسنه الألباني، ويشهد له قوله عليه السلام: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة» رواه البخاري وذلك لما يكون فيها من الذكر والقرآن والعلم والموعظة.

(٤) أخرجه الترمذي: (٣٥٨٠).

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾ [الأحزاب: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] أي: كثيرًا، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠]، ففيه الأمر بالذكر بالكثرة والشدة؛ لشدة حاجة العبد إليه، وعدم استغنائه عنه طرفة عين، فأي لحظة خلا فيها العبد عن ذكر اللَّه ﷻ كانت عليه لا له، وكان خسرانه فيها أعظم مما ربح في غفلته عن الله. **وقال بعض العارفين**: لو أقبل عبد على اللَّه تعالى كذا وكذا سنة ثم أعرض عنه لحظة لكان ما فاته أعظم مما حصله.

وذكر البيهقي عن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما مِن ساعةٍ تمرُّ بابنِ آدمَ لا يذكرُ اللهَ فيها إلا تحسَّر عليها يومَ القيامةِ**»[١].

وذكر عن معاذ بن جبل يرفعه أيضًا: «**ليس تحسُّرُ أهلِ الجنةِ إلا على ساعةٍ مرَّت بهم لم يذكروا اللهَ ﷻ فيها**»[٢].

وعن أم حبيبة زوج النبي ﷺ قالت: قال رسول اللَّه ﷺ: «**كلامُ ابنِ آدمَ كلُّه عليه لا له، إلا أمرًا بمعروف، أو نهيًا عن منكر، أو ذكرًا لله ﷻ**»[٣].

وعن معاذ بن جبل قال: سألت رسول اللَّه ﷺ: أي الأعمال أحب إلى اللَّه ﷻ؟ قال: «**أن تموت ولسانك رطب من ذكر اللَّه ﷻ**»[٤].

وقال أبو الدرداء رضي اللَّه تعالى عنه: «**لكل شيء جلاء، وإن جلاء القلوب ذكر اللَّه ﷻ**».

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٥١١).
(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٥٤١).
(٣) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٥٤٣).
(٤) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٥٤٥).

وذكر البيهقي مرفوعًا من حديث عبد اللّه بن عمر رضي اللّه عنهما عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «**لكلِّ شيءٍ صَقَالةٌ، وإن صقالة القلوب ذكر اللّه** ﷻ، وما من شيء أنجى من عذاب اللّه ﷻ من ذكر اللّه ﷻ». قالوا: ولا الجهاد في سبيل اللّه ﷻ؟ قال: «**ولو أن يضرب بسيفه حتى ينقطع**»[١].

ولا ريب أن القلب يصدأ كما يصدأ النحاس والفضة وغيرهما، وجلاؤه بالذكر، فإنه يجلوه حتى يدعه كالمرآة البيضاء، فإذا ترك صدئ.

وصدأ القلب بأمرين: بالغفلة، والذنب، وجلاؤه بشيئين: بالاستغفار، والذكر.

فمن كانت الغفلة أغلب أوقاته، كان الصدأ متراكبًا على قلبه، وصدؤه بحسب غفلته، وإذا صدئ القلب لم تنطبع فيه صور المعلومات على ما هي عليه، فيرى الباطل في صورة الحق، والحق في صورة الباطل، لأنه لما تراكم عليه الصدأ أظلم، فلم تظهر فيه صورة الحقائق كما هي عليه، فإذا تراكم عليه الصدأ، واسود ورَكِبَه الرَّان فسد تصوره وإدراكه، فلا يقبل حقًّا، و لا ينكر باطلًا، وهذا أعظم عقوبات القلب.

وأصل ذلك من الغفلة واتباع الهوى، فإنهما يطمسان نور القلب، ويعميان بصره، قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

فإذا أراد العبد أن يقتدي برجل، فلينظر هل هو من أهل الذكر أو من الغافلين؟ وهل الحاكم عليه الهوى أو الوحي؟ فإن كان الحاكم عليه هو الهوى، وهو من أهل الغفلة كان أمره فُرُطًا، ومعنى الفُرُط قد فُسِّر بالتضييع،

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٥٥١).

أي: أمره الذي يجب أن يلزمه ويقوم به، وبه رشده وفلاحه - ضائع قد فرط فيه. وفُسِّر بالإسراف، أي: قد أفرط. وفُسِّر بالإهلاك. وفُسِّر بالخلاف للحق. وكلها أقوال متقاربة.

والمقصود: أن اللَّه سبحانه وتعالى نهى عن طاعة من جَمَعَ هذه الصفات، فينبغي للرجل أن ينظر في شيخه وقدوته ومتبوعه، فإن وجده كذلك، فليبعد منه، وإن وجده ممن غلب عليه ذكر اللَّه تعالى، واتباع السنة، وأمره غير مفروط عليه، بل هو حازم في أمره، فليستمسك بغَرْزِه ولا فرق بين الحي والميت إلا بالذكر، فمثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه، كمثل الحي والميت»[١].

- **الذكر ثلاثة أنواع:**

- ذكر الأسماء والصفات ومعانيها، والثناء على اللَّه بها، وتوحيد اللَّه بها.
- وذكر الأمر والنهي، والحلال والحرام.
- وذكر الآلاء والنعماء، والإحسان والأيادي.

وأنه ثلاثة أنواع أيضًا:

- ذكر يتواطأ عليه القلب واللسان، وهو أعلاها.
- وذكر بالقلب وحده، وهو في الدرجة الثانية.
- وذكر باللسان المجرد، وهو في الدرجة الثالثة»[٢].

* * *

(١) «الوابل الصيب» (١/ ٥٦).
(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٤٣٠).

غلط بعض المتفقهة والمتفلسفة في مقاصد التعبد

« كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، وقال: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [النَّجم: ٢٩، ٣٠].

فتجد كثيرًا من هؤلاء في كثير من الأحكام لا يرى من المصالح والمفاسد إلا ما عاد لمصلحة المال والبدن، وغاية كثير منهم إذا تعدى ذلك أن ينظر إلى سياسة النفس، وتهذيب الأخلاق بمبلغهم من العلم، كما يذكر مثل ذلك المتفلسفة والقرامطة، مثل أصحاب رسائل إخوان الصفا وأمثالهم، فإنهم يتكلمون في سياسة النفس، وتهذيب الأخلاق بمبلغهم من علم الفلسفة، وما ضموا إليه مما ظنوه من الشريعة، وهم في غاية ما ينتهون إليه دون اليهود والنصارى بكثير.

وقوم من الخائضين في أصول الفقه، وتعليل الأحكام الشرعية بالأوصاف المناسبة إذا تكلموا في المناسبة، وأن ترتيب الشارع للأحكام على الأوصاف المناسبة يتضمن تحصيل مصالح العباد، ودفع مضارهم، ورأوا أن المصلحة نوعان: أخروية ودنيوية، جعلوا الأخروية ما في سياسة النفس وتهذيب الأخلاق من الحكم، وجعلوا الدنيوية ما تضمن حفظ الدماء، والأموال، والفروج، والعقول، والدين الظاهر، وأعرضوا عما في العبادات الباطنة والظاهرة من أنواع المعارف بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، وأحوال القلوب وأعمالها، كمحبة الله، وخشيته، وإخلاص الدين له، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، ودعائه، وغير ذلك من أنواع المصالح

في الدنيا والآخرة»[١].

وفي مقابلهم:

«**أهل العبادات البدعية** يزين لهم الشيطان تلك العبادات، ويبغض إليهم السبل الشرعية، حتى يبغضهم في العلم، والقرآن، والحديث، فلا يحبون سماع القرآن والحديث، ولا ذكره، وقد يبغض إليهم حتى الكتاب، فلا يحبون كتاب، ولا من معه كتاب، ولو كان مصحفًا، أو حديثًا.

كما حكى النصرباذى أنهم كانوا يقولون: يدع علم الخِرَق، ويأخذ علم الوَرَق. قال: وكنت أستر ألواحي منهم، فلما كبرت احتاجوا إلى علمي.

وكذلك حكى السري السقطي أن واحدًا منهم دخل عليه، فلما رأى عنده محبرة وقلمًا خرج ولم يقعد عنده.

ولهذا قال سهل بن عبد اللَّه التستري: «يا معشر الصوفية، لا تفارقوا السواد على البياض، فما فارق أحد السواد على البياض إلا تزندق».

وقال الجنيد: (عِلْمُنا هذا مبني على الكتاب والسنة، فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث، لا يُقتدى به في هذا الشأن».

وكثير من هؤلاء ينفر ممن يذكر الشرع أو القرآن، أو يكون معه كتاب أو يكتب، وذلك لأنهم استشعروا أن هذا الجنس فيه ما يخالف طريقهم، فصارت شياطينهم تُهرِّبهم من هذا، كما يُهرِّب اليهودي والنصراني ابنه أن يسمع كلام المسلمين، حتى لا يتغير اعتقاده في دينه، وكما كان قوم نوح يجعلون أصابعهم في آذانهم، ويستغشون ثيابهم؛ لئلا يسمعوا كلامه، ولا يروه.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ٢٣٣).

وقال اللَّه عن المشركين: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصّلت: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمۡ حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ ﴿٥٠﴾ فَرَّتۡ مِن قَسۡوَرَةِۭ ﴿٥١﴾﴾ [المدَّثر: ٤٩ - ٥١].

وهم من أرغب الناس في السماع البدعي، سماع المعازف، ومن أزهدهم في السماع الشرعي، سماع آيات الله.

وكان مما زين لهم طريقهم أن وجدوا كثيرًا من المشتغلين بالعلم والكتب معرضين عن عبادة الله، وسلوك سبيله؛ إما اشتغالاً بالدنيا، وإما بالمعاصى، وإما جهلاً وتكذيبًا بما يحصل لأهل التأله والعبادة، فصار وجود هؤلاء مما ينفرهم، وصار بين الفريقين نوع تباغض يشبه من بعض الوجوه ما بين أهل الملتين، هؤلاء يقولون: ليس هؤلاء على شيء. وهؤلاء يقولون: ليس هؤلاء على شيء. وقد يظنون أنهم يحصل لهم بطريقهم أعظم ممايحصل في الكتب»[١].

«وقد عُلم أن الذي يعرف الحق ولا يتبعه غاوٍ يشبه اليهود، وأن الذي يعبد اللَّه من غير علم وشرع هو ضالٌّ يشبه النصارى، كما كان يقول من يقول من السلف من فسد من العلماء ففيه شبه من اليهود ومن فسد من العباد ففيه شبه من النصارى.

فعلى المسلم أن يحذر من هذين الشبهين الفاسدين؛ من حال قوم فيهم استكبار وقسوة عن العبادة والتأله، وقد أوتوا نصيبًا من الكتاب، وحظًّا من العلم.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٤١١- ٤١٣).

وقوم فيهم عبادة وتأله بإشراك بالله، وضلال عن سبيل اللَّه ووحيه وشرعه، وقد جعل في قلوبهم رأفة ورحمة، ورهبانية ابتدعوها، وهذا كثير منتشر في الناس، والشبه تقل تارة وتكثر أخرى.

فأما المستكبرون المتألهون لغير اللَّه الذين لا يعبدون الله، وإنما يعبدون غيره للانتفاع به فهؤلاء يشبهون فرعون»[١].

* * *

(١) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٦٣٣، ٦٣٤).

العبودية لا تتحقق إلا بأصلين عظيمين

قال تعالى: ﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾ [لقمان: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة: ١٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأنعام: ١٣٨].

- **وتتحقق العبودية بأصلين عظيمين:**

«**أحدهما**: متابعة الرسول ﷺ.

والثاني: الإخلاص للمعبود، فهذا تحقيق ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥].

والناس منقسمون بحسب هذين الأصلين أيضًا إلى أربعة أقسام:

أحدها: أهل الإخلاص للمعبود والمتابعة، وهم أهل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حقيقة، فأعمالهم كلها لله وأقوالهم لله، وعطاؤهم لله ومنعهم لله، وحبهم لله وبغضهم لله، فمعاملتهم ظاهرًا وباطنًا لوجه اللَّه وحده، لا يريدون بذلك من الناس جزاء ولا شكورًا، ولا ابتغاء الجاه عندهم، ولا طلب المحمدة والمنزلة في قلوبهم، ولا هربًا من ذمهم، بل قد عدُّوا الناس بمنزلة أصحاب القبور، لا يملكون لهم ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

فالعمل لأجل الناس وابتغاء الجاه والمنزلة عندهم، ورجائهم للضر

والنفع منهم، لا يكون من عارف بهم البتة، بل من جاهل بشأنهم، وجاهل بربه، فمن عرف الناس أنزلهم منازلهم، ومن عرف اللَّه أخلص له أعماله وأقواله، وعطاءه ومنعه، وحبه وبغضه، ولا يعامل أحدٌ الخلق دون اللَّه إلا لجهله بالله، وجهله بالخلق، وإلا فإذا عرف اللَّه وعرف الناس آثر معاملة اللَّه على معاملتهم.

وكذلك أعمالهم كلها وعبادتهم موافقة لأمر الله، ولما يحبه ويرضاه، وهذا هو العمل الذي لا يقبل اللَّه من عامل سواه، وهو الذي بَلا عباده بالموت والحياة لأجله، قال اللَّه تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [الملك: ٢] وجعل ما على الأرض زينة لها، ليختبرهم أيهم أحسن عملاً.

قال الفضيل بن عياض: العمل الحسن: هو أخلصه وأصوبه.

قالوا: يا أبا علي، ما أخلصُه وأصوبُه؟

قال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص ما كان لله، والصواب ما كان على السنة.

وهذا هو المذكور في قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، وفي قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥].

فلا يقبل اللَّه من العمل إلا ما كان خالصًا لوجهه، على متابعة أمره، وما عدا ذلك فهو مردود على عامله، يرد عليه أحوج ما هو إليه، هباء منثورًا، وفي الصحيح من حديث عائشة رضي اللَّه عنها عن النبي ﷺ: «**كل عمل**

ليس عليه أمرنا فهو رد»[١]. وكل عمل بلا اقتداء، فإنه لا يزيد عامله من اللَّه إلا بعدًا، فإن اللَّه تعالى إنما يُعبد بأمره لا بالآراء والأهواء»[٢].

«فالعمل الصالح هو ما استكمل ثلاثة أمور:

الأول: موافقته لما جاء به النَّبي ﷺ؛ لأن اللَّه يقول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

الثاني: أن يكون خالصًا لله تعالى؛ لأن اللَّه جل وعلا يقول: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾﴾ [الزمر: ١٤]، ﴿فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ [الزمر: ١٥].

الثالث: أن يكون مبنيًّا على أساس العقيدة الصحيحة؛ لأن اللَّه يقول: ﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [النحل: ٩٧] فقيَّد ذلك بالإيمان، ومفهوم مخالفته أنه لو كان غير مؤمن لما قُبِل منه ذلك العمل الصالح.

وقد أوضح جل وعلا هذا المفهوم في آيات كثيرة، كقوله في عمل غير المؤمن: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٦]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ﴾ [النور: ٣٩]، وقوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ﴾ [إبراهيم: ١٨]، إلى غير ذلك من الآيات»[٣].

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٢٥٥٠)، ومسلم (١٧، ١٨/ ١٧١٨).
(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٨٣، ٨٤).
(٣) أضواء البيان (٢/ ٤٤٠).

«**الثاني**: مَن لا إخلاص له ولا متابعة، فليس عمله موافقًا لشرع، وليس هو خالصًا للمعبود، كأعمال المتزينين للناس المرائين لهم، بما لم يشرعه اللَّه ورسوله، وهؤلاء شرار الخلق وأمقتهم إلى اللَّه ﷻ، ولهم أوفر نصيب من قوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨٨] يفرحون بما أتوا من البدعة والضلالة والشرك، ويحبون أن يحمدوا باتباع السنة والإخلاص.

وهذا يكثر فيمن انحرف من المنتسبين إلى العلم، والفقر، والعبادة عن الصراط المستقيم، فإنهم يرتكبون البدع، والضلالات، والرياء، والسمعة، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوه من الاتباع والإخلاص والعلم، فهم أهل الغضب والضلال.

الثالث: مَن هو مخلص في أعماله، لكنها على غير متابعة الأمر.

كجهال العباد، والمنتسبين إلى طريق الزهد والفقر، وكل مَن عَبَد الله بغير أمره، واعتقد عبادته هذه قربة إلى الله، فهذا حاله كمن يظن أن سماع المكاء والتصدية قربة(١)، وأن الخلوة التي يترك فيها الجمعة والجماعة قربة، وأن مواصلة صوم النهار بالليل قربة، وأن صيام يوم فطر الناس كلهم قربة، وأمثال ذلك.

«ومنه ما رواه البخاري من حديث البراء بن عَازِبٍ - رضي اللَّه عنهما - قال ضَحَّى خَالٌ لي يُقَالُ له أبو بُرْدَةَ قبل الصَّلَاةِ، فقال له رسول اللَّهِ ﷺ :

---

(١) الغناء والموسيقى وأنواع الطرب.

«**شَاتُكَ شَاةُ لَحْمٍ**»[١]، وذلك لمخالفة السنة فلم تقع الموقع الشرعي الذي يحبه الله.

الرابع: مَن أعماله على متابعة الأمر، لكنها لغير الله.

كطاعة المرائين، وكالرجل يقاتل رياءً وحمية وشجاعة، ويحج ليقال، ويقرأ القرآن ليقال، فهؤلاء أعمالهم ظاهرها أعمال صالحة مأمور بها، لكنها غير صالحة فلا تقبل.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البيِّنة: ٥].

فكل أحد لم يؤمر إلا بعبادة اللَّه بما أمر، والإخلاص له في العبادة، وهم أهل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾»[٢].

* * *

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢٣٦).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٨٥).

قواعد العبودية

التحقق بما يحبه اللَّه ورسوله ويرضاه من قول اللسان والقلب، وعمل القلب والجوارح.

فالعبودية: اسم جامع لهذه المراتب الأربع، فأصحاب ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حقًّا هم أصحابها.

فقول القلب: هو اعتقاد ما أخبر اللَّه سبحانه به عن نفسه، وعن أسمائه وصفاته، وأفعاله، وملائكته، ولقائه، على لسان رسله.

وقول اللسان: الإخبار عنه بذلك، والدعوة إليه، والذب عنه، وتبيين بطلان البدع المخالفة له، والقيام بذكره، وتبليغ أوامره.

وعمل القلب: كالمحبة له، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والخوف منه، والرجاء له، وإخلاص الدين له، والصبر على أوامره، وعن نواهيه، وعلى أقداره، والرضى به وعنه، والموالاة فيه، والمعاداة فيه، والذل له، والخضوع والإخبات إليه، والطمأنينة به، وغير ذلك من أعمال القلوب التي فرضها أفرض من أعمال الجوارح، ومستحبها أحب إلى اللَّه من مستحبها، وعمل الجوارح بدونها إما عديم المنفعة، أو قليل المنفعة.

وأعمال الجوارح: كالصلاة، والجهاد، ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات، ومساعدة العاجز، والإحسان إلى الخلق، ونحو ذلك[(١)].

* * *

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٠٠، ١٠١).



انقسام العبودية إلى عامة وخاصة

«**فالعبودية العامة**: عبودية أهل السموات والأرض كلهم لله، برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، فهذه عبودية القهر والملك.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣)﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٣]، فهذا يدخل فيه مؤمنهم وكافرهم.

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧)﴾ [الفرقان: ١٧]، فسماهم عباده مع ضلالهم، لكن تسمية مقيدة بالإشارة، وأما المطلقة فلم تجئ إلا لأهل النوع الثاني، كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

وقال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦)﴾ [الزُّمر: ٤٦]، وقال: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣١]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٨]، فهذا يتناول العبودية الخاصة والعامة.

وأما النوع الثاني: فعبودية الطاعة والمحبة واتباع الأوامر، قال تعالى: ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨)﴾ [الزُّخرف: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ [الزُّمر: ١٧]؛ أي: الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وقال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣)﴾ [الفرقان: ٦٣].

وقال تعالى عن إبليس: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [ص: ٨٢، ٨٣]، فقال تعالى عنهم: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: ٤٢]، فالخلق كلهم عبيد ربوبيته، وأهل طاعته وولايته هم عبيد إلهيته.

ولا يجيء في القرآن إضافة العباد إليه مطلقًا إلا لهؤلاء.

وأما وصف عبيد ربوبيته بالعبودية، فلا يأتي إلا على أحد خمسة أوجه:

- الأول: إما منكّرًا، كقوله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ٩٣].

- **والثاني: معرَّفًا باللام**، كقوله: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣١]، ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٨].

- **الثالث: مقيدًا بالإشارة**، أو نحوها، كقوله: ﴿أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ﴾ [الفرقان: ١٧].

- **الرابع: أن يُذكروا في عموم عباده، فيندرجوا مع أهل طاعته في الذكر**، كقوله: ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر: ٤٦].

- **الخامس: أن يُذكروا موصوفين بفعلهم**، كقوله: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣].

وقد يقال: إنما سماهم عباده؛ إذ لم يقنطوا من رحمته، وأنابوا إليه، واتبعوا أحسن ما أنزل إليهم من ربهم، فيكونون من عبيد الإلهية والطاعة.

وإنما انقسمت العبودية إلى خاصة وعامة؛ لأن أصل معنى اللفظة: الذل والخضوع، يقال: طريق معبد، إذا كان مذللًا بوطء الأقدام، و: فلان عبَّده

الحبُّ، إذا ذل - لَّه، لكن أولياؤه خضعوا له وذلوا طوعًا واختيارًا، وانقيادًا لأمره ونهيه، وأعداؤه خضعوا له قهرًا ورغمًا.

ونظير انقسام العبودية إلى خاصة وعامة، انقسام القنوت إلى خاص وعام، والسجود كذلك، قال تعالى في القنوت الخاص: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩]، وقال في حق مريم: ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التَّحريم: ١٢]، وهو كثير في القرآن.

وقال تعالى في القنوت العام: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الروم: ٢٦]؛ أي: خاضعون أذلاء.

وقال تعالى في السجود الخاص: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، وقال تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨]، وهو كثير في القرآن.

وقال تعالى في السجود العام: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾ [الرعد: ١٥].

ولهذا كان هذا السجود الكره، غير السجود المذكور في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ﴾ [الحج: ١٨]، فخص بالسجود هنا كثيرًا من الناس، وعمهم بالسجود في سورة النحل: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [النحل: ٤٩]، وهو سجود الذل، والقهر، والخضوع، فكل أحد خاضع لربوبيته، ذليل لعزته، مقهور تحت سلطانه تعالى.

* * *

مراتب العبودية علمًا وعملاً

للعبودية مراتب بحسب العلم والعمل:

فأما مراتبها العلمية فمرتبتان:

إحداهما: العلم بالله.

والثانية: العلم بدينه.

فأما العلم به سبحانه فخمس مراتب:

العلم بذاته، وصفاته، وأفعاله، وأسمائه، وتنزيهه عما لا يليق به.

والعلم بدينه مرتبتان:

إحداهما: دينه الأمري الشرعي، وهو الصراط المستقيم الموصل إليه.

والثانية: دينه الجزائي، المتضمن ثوابه وعقابه، وقد دخل في هذا العلم، العلم بملائكته وكتبه ورسله.

وأما مراتبها العملية فمرتبتان:

مرتبة لأصحاب اليمين، ومرتبة للسابقين المقربين:

فأما مرتبة أصحاب اليمين: فأداء الواجبات، وترك المحرمات، مع ارتكاب المباحات، وبعض المكروهات، وترك بعض المستحبات.

وأما مرتبة المقربين: فالقيام بالواجبات والمندوبات، وترك المحرمات والمكروهات، زاهدين فيما لا ينفعهم في معادهم، متورعين عما يخافون ضرره، وخاصتهم قد انقلبت المباحات في حقهم طاعات، وقربات بالنية.

فليس في حقهم مباح متساوي الطرفين، بل كل أعمالهم راجحة، ومن

دونهم يترك المباحات مشتغلًا عنها بالعبادات، وهؤلاء يأتونها طاعات وقربات، ولأهل هاتين المرتبتين، درجات لا يحصيها إلا الله[١].

* * *

عبودية الجوارح

عبودية اللسان: وأما عبوديات اللسان الخمس:

فواجبها: النطق بالشهادتين، وتلاوة ما يلزمه تلاوته من القرآن وهو ما تتوقف صحة صلاته عليه، وتلفظه بالأذكار الواجبة في الصلاة التي أمر اللَّه بها ورسوله، كما أمر بالتسبيح في الركوع والسجود، وأمر بقول: «**ربنا ولك الحمد**» بعد الاعتدال، وأمر بالتشهد، وأمر بالتكبير.

ومن واجبه: رد السلام، وفي ابتدائه قولان.

ومن واجبه: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم الجاهل، وإرشاد الضال، وأداء الشهادة المتعينة، وصدق الحديث.

وأما مستحبه: فتلاوة القرآن، ودوام ذكر الله، والمذاكرة في العلم النافع، وتوابع ذلك.

وأما محرمه: فهو النطق بكل ما يبغضه اللَّه ورسوله، كالنطق بالبدع المخالفة لما بعث اللَّه به رسوله، والدعاء إليها، وتحسينها، وتقويتها، وكالقذف، وسب المسلم، وأذاه بكل قول، والكذب، وشهادة الزور، والقول على اللَّه بلا علم، وهو أشدها تحريمًا.

ومكروهه: التكلم بما تركه خير من الكلام به، مع عدم العقوبة عليه.

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٠٥- ١٠٩).

- عبودية السمع:

فعلى السمع وجوب الإنصات، والاستماع لما أوجبه اللَّه ورسوله عليه، من استماع الإسلام والإيمان، وفروضهما، وكذلك استماع القراءة في الصلاة، إذا جهر بها الإمام، واستماع الخطبة للجمعة، في أصح قولي العلماء.

ويحرم عليه استماع الكفر، والبدع، إلا حيث يكون في استماعه مصلحة راجحة، مِن ردِّه، أو الشهادة على قائله، أو زيادة قوة الإيمان والسنة، بمعرفة ضدهما، من الكفر والبدعة، ونحو ذلك، وكاستماع أسرار من يهرب عنك بسره، ولا يحب أن يطلعك عليه، ما لم يكن متضمنًا لحق لله يجب القيام به، أو لأذى مسلم يتعين نصحه وتحذيره منه.

وكذلك استماع أصوات النساء الأجانب، التي تخشى الفتنة بأصواتهن، إذا لم تدع إليه حاجة، من شهادة، أو معاملة، أو استفتاء، أو محاكمة، أو مداواة، ونحوها.

وكذلك استماع المعازف، وآلات الطرب واللهو، كالعود، والطنبور، واليراع، ونحوها، ولا يجب عليه سد أذنه إذا سمع الصوت، وهو لا يريد استماعه، إلا إذا خاف السكون إليه والإنصات، فحينئذ يجب؛ لتجنب سماعها، وجوب سد الذرائع.

ونظير هذا المحرم لا يجوز له تعمد شم الطيب، وإذا حملت الريح رائحته وألقتها في مشامه لم يجب عليه سد أنفه.

ونظير هذا نظرة الفجاءة لا تحرم على الناظر، وتحرم عليه النظرة الثانية إذا تعمدها.

وأما السمع المستحب: فكاستماع المستحب من العلم، وقراءة القرآن، وذكر الله، واستماع كل ما يحبه اللّه وليس بفرض.

والمكروه: عكسه وهو استماع كل ما يكره، ولا يعاقب عليه، والمباح ظاهر.

- **عبودية النظر**:

وأما النظر الواجب: فالنظر في المصحف، وكتب العلم عند تعين تعلم الواجب منها، والنظر إذا تعين لتمييز الحلال من الحرام في الأعيان التي يأكلها، أو ينفقها، أو يستمتع بها، والأمانات التي يؤديها إلى أربابها، ليميز بينها، ونحو ذلك.

والنظر الحرام: النظر إلى الأجنبيات بشهوة مطلقًا وبغيرها، إلا لحاجة، كنظر الخاطب، والمستام، والمعامل، والشاهد، والحاكم، والطبيب، وذي المحرم.

والمستحب: النظر في كتب العلم والدين، التي يزداد بها الرجل إيمانًا وعلمًا، والنظر في المصحف، ووجوه العلماء الصالحين، والوالدين، والنظر في آيات اللّه المشهودة؛ ليستدل بها على توحيده ومعرفته وحكمته.

والمكروه: فضول النظر الذي لا مصلحة فيه، فإن له فضولاً كما للسان فضول، وكم قاد فضولها إلى فضول عزَّ التخلصُ منها، وأعيى دواؤها.

وقال بعض السلف: كانوا يكرهون فضول النظر، كما يكرهون فضول الكلام[١].

والمباح: النظر الذي لا مضرة فيه في العاجل والآجل، ولا منفعة.

---

(١) «حلية الأولياء» (ترجمة داود الطائي)، و«شعب الإيمان» (٥٠٨٢).

ومن النظر الحرام: النظر إلى العورات.

وهي قسمان: عورة وراء الثياب، وعورة وراء الأبواب.

ولو نظر في العورة التي وراء الأبواب، فرماه صاحب العورة ففقأ عينه لم يكن عليه شيء وذهبت هَدَرًا، بنص رسول اللَّه ﷺ في الحديث المتفق على صحته[1].

وأما الذوق الواجب: فتناول الطعام والشراب عند الاضطرار إليه، وخوف الموت، فإن تركه حتى مات، مات عاصيًا قاتلًا لنفسه.

قال الإمام أحمد وطاوس: «من اضطر إلى أكل الميتة فلم يأكل حتى مات دخل النار».

ومن هذا تناول الدواء إذا تيقن النجاة له من الهلاك، على أصح القولين.

وإن ظن الشفاء به، فهل هو مستحب مباح أو الأفضل تركه، فيه نزاع معروف بين السلف والخلف.

والذوق الحرام: كذوق الخمر، والسموم القاتلة، والذوق الممنوع منه للصوم الواجب.

وأما المكروه: فكذوق المشتبهات، والأكل فوق الحاجة، وذوق الطعام الفجاءة وهو الطعام الذي تفجأ آكله، ولم يُرد أن يدعوك إليه، وكأكل أطعمة المرائين في الولائم والدعوات، ونحوها، وفي السنن[2]: أن رسول اللَّه ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٨٨٨، ٦٩٠٢)، ومسلم (٤٣، ٤٤/ ٢١٥٨)، من حديث أبي هريرة ﵁. ولفظ البخاري: «لو أنَّ امرأً اطَّلع عليك بغيرِ إذنٍ فخَذَفْتَه بحصاةٍ ففقأتَ عينَه لم يكن عليك جُناحٌ».

(٢) أخرجه أبو داود (٣٧٥٤)، والحاكمُ في «المستدرك» (٤/ ١٤٣)، والبيهقيُّ في «السنن» (٧/ ٢٧٤)، وفي «الشعب» (٦٠٦٧)، من حديث ابن عباس به.

نهى عن طعام المتبارِيَيْنِ[(١)].

وذوق طعام من يطعمك؛ حياء منك، لا بطيبة نفس.

والذوق المستحب: أكل ما يعينك على طاعة اللَّه ﷻ، مما أذن اللَّه فيه، والأكل مع الضيف، ليطيب له الأكل، فينال منه غرضه، والأكل من طعام صاحب الدعوة، الواجب إجابتها أو المستحب.

وقد أوجب بعض الفقهاء الأكل من الوليمة الواجب إجابتها للأمر به عن الشارع.

والذوق المباح: ما لم يكن فيه إثم ولا رجحان.

وأما تعلق العبوديات الخمس بحاسة الشم:

فالشم الواجب: كل شم تعيَّن طريقًا للتمييز بين الحلال والحرام، كالشم الذي تعلم به هذه العين هل هي خبيثة أو طيبة، وهل هي سم قاتل أو لا مضرة فيه، أو يميز به بين ما يملك الانتفاع به، وما لا يملك، ومن هذا شم المقوم، ورب الخبرة عند الحكم بالتقويم، وشم العبيد، ونحو ذلك.

وأما الشم الحرام: فالتعمد لشم الطيب في الإحرام، وشم الطيب المغصوب، والمسروق، وتعمد شم الطيب من النساء الأجنبيات؛ خشية الافتتان بما وراءه.

وأما الشم المستحب: فشم ما يعينك على طاعة الله، ويقوي الحواس، ويبسط النفس للعلم والعمل، ومن هذا هدية الطيب والريحان إذا أهديت لك، ففي «**صحيح مسلم**» عن النبي ﷺ: «**مَن عُرِضَ عليه رَيْحانٌ، فلا**

---

(١) قال ابن الأثير: هما المُتعَارِضَان بِفِعْلِهما ليُعْجِز أحدهما الآخر بصَنِيعه. وإنما كَرِهه لما فيه من المباهاة والرِّياء. «النهاية».

يَرُدُّه، فإنه طيبُ الريحِ، خفيفُ المَحْمَلِ»[١].

والمكروه: كشم طيب الظلمة، وأصحاب الشبهات، ونحو ذلك.

والمباح: ما لا منع فيه من الله، ولا تبعة ولا فيه مصلحة دينية، ولا تعلق له بالشرع.

وأما تعلق هذه الخمسة بحاسة اللمس:

فاللمس الواجب: كلمس الزوجة حين يجب جماعها، والأمة الواجب إعفافها.

والحرام: لمس ما لا يحل من الأجنبيات.

والمستحب: إذا كان فيه غض بصره، وكف نفسه عن الحرام، وإعفاف أهله.

والمكروه: لمس الزوجة في الإحرام للذة، وكذلك في الاعتكاف، وفي الصيام إذا لم يأمن على نفسه.

ومن هذا لمس بدن الميت لغير غاسله؛ لأن بدنه قد صار بمنزلة عورة الحي؛ تكريمًا له، ولهذا يستحب ستره عن العيون، وتغسيله في قميصه في أحد القولين.

ولمس فخذ الرجل إذا قلنا هي عورة.

والمباح: ما لم يكن فيه مفسدة، ولا مصلحة دينية.

وهذه المراتب أيضًا مرتبة على البطش باليد، والمشي بالرجل، وأمثلتها لا تخفى:

فالتكسب المقدور للنفقة على نفسه وأهله وعياله واجب.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠/ ٢٢٥٣)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

وفي وجوبه لقضاء دينه خلاف، والصحيح وجوبه؛ ليمكنه من أداء دينه.

ولا يجب لإخراج الزكاة.

وفي وجوبه لأداء فريضة الحج نظر، والأقوى في الدليل وجوبه؛ لدخوله في الاستطاعة وتمكنه بذلك من أداء النسك، والمشهور عدم وجوبه.

ومن البطش الواجب: إعانة المضطر، ورمي الجمار، ومباشرة الوضوء والتيمم.

والحرام: كقتل النفس التي حرم اللَّه قتلها، ونهب المال المعصوم، وضرب من لا يحل ضربه، ونحو ذلك، وكأنواع اللعب المحرم بالنص، كالنرد أو ما هو أشد تحريمًا منه عند أهل المدينة كالشطرنج، أو مثله عند فقهاء الحديث، كأحمد وغيره، أو دونه عند بعضهم، ونحو كتابة البدع المخالفة للسنة: تصنيفًا، أو نسخًا، إلا مقرونًا بردها ونقضها، وكتابة الزور، والظلم، والحكم الجائر، والقذف، والتشبيب بالنساء الأجانب، وكتابة ما فيه مضرة على المسلمين في دينهم، أو دنياهم، ولا سيما إن كسبت عليه مالاً، ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩]، وكذلك كتابة المفتي على الفتوى ما يخالف حكم اللَّه ورسوله، إلا أن يكون مجتهدًا مخطئًا، فالإثم موضوع عنه.

وأما المكروه: فكالعبث واللعب الذي ليس بحرام، وكتابة ما لا فائدة في كتابته، ولا منفعة فيه في الدنيا والآخرة.

والمستحب: كتابة كل ما فيه منفعة في الدين، أو مصلحة لمسلم، والإحسان بيده، بأن يعين صانعًا، أو يصنع لأخرق، أو يفرغ من دلوه في دلو المستسقي، أو يحمل له على دابته، أو يمسكها حتى يحمل عليها، أو يعاونه

بيده فيما يحتاج له، ونحو ذلك، ومنه لمس الركن بيده في الطواف، وفي تقبيلها بعد اللمس قولان.

والمباح: ما لا مضرة فيه ولا ثواب.

وأما المشي الواجب: فالمشي إلى الجمعات والجماعات، في أصح القولين؛ لبضعة وعشرين دليلاً مذكورة في غير هذا الموضع، والمشي حول البيت للطواف الواجب، والمشي بين الصفا والمروة بنفسه، أو بمركوبه، والمشي إلى حكم اللَّه ورسوله إذا دعي إليه، والمشي إلى صلة رحمه وبر والديه، والمشي إلى مجالس العلم الواجب طلبه وتعلمه، والمشي إلى الحج، إذا قربت المسافة، ولم يكن عليه فيه ضرر.

والحرام: المشي إلى معصية الله، وهو مِن رَجِلِ الشيطان، قال تعالى: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤]. **قال مقاتل**: «**استعن عليهم بركبان جندك ومشاتهم، فكل راكب وماش في معصية اللَّه فهو من جند إبليس**».

- **وكذلك تتعلق هذه الأحكام الخمس بالركوب أيضًا.**

فواجبه: في الركوب في الغزو، والجهاد الحج الواجب.

ومستحبه: في الركوب المستحب من ذلك، ولطلب العلم، وصلة الرحم، وبر الوالدين، وفي الوقوف بعرفة نزاع: هل الركوب فيه أفضل، أم على الأرض؟

والتحقيق: أن الركوب أفضل إذا تضمن مصلحة من تعليم للمناسك، واقتداء به، وكان أعون على الدعاء، ولم يكن فيه ضرر على الدابة.

وحرامه: الركوب في معصية اللَّه ﷻ.

ومكروهه: الركوب للهو واللعب، وكل ما تَرْكُه خير من فعله.

ومباحه: الركوب لما لم يتضمن فوت أجر، ولا تحصيل وزر.

فهذه خمسون مرتبة على عشرة أشياء: القلب، واللسان، والسمع، والبصر، والأنف، والفم، واليد، والرجل، والفرج، والاستواء على ظهر الدابة[١].

* * *

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١١٤- ١٢٢).

لزوم العبودية لكل عبد إلى الموت

قال اللّه تعالى لرسوله: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحجر: ٩٩]، وقال أهل النار: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤٦ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ۝٤٧﴾ [المدَّثر: ٤٦، ٤٧]، واليقين هاهنا هو الموت بإجماع أهل التفسير.

وفي الصحيح في قصة موت عثمان بن مظعون رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**أما عثمان فقد جاءه اليقين من ربه**»[1]؛ أي: الموت وما فيه.

فلا ينفك العبد من العبودية، ما دام في دار التكليف، بل عليه في البرزخ عبودية أخرى، لما يسأله الملكان من كان يعبد؟ وما يقول في رسول الله؟ ويلتمسان منه الجواب.

وعليه عبودية أخرى يوم القيامة، يوم يدعو اللّه الخلق كلهم إلى السجود، فيسجد المؤمنون، ويبقى الكفار والمنافقون لا يستطيعون السجود، فإذا دخلوا دار الثواب والعقاب انقطع التكليف هناك، وصارت عبودية أهل الثواب تسبيحًا مقرونًا بأنفاسهم، لا يجدون له تعبًا ولا نصبًا، ومن زعم أنه يصل إلى مقام يسقط عنه فيه التعبد، فهو زنديق كافر باللّه وبرسوله، وإنما وصل إلى مقام الكفر باللّه والانسلاخ من دينه، بل كلما تمكن العبد في منازل العبودية كانت عبوديته أعظم، والواجب عليه منها أكبر، وأكثر من الواجب على من دونه، ولهذا كان الواجب على رسول الله، بل على جميع الرسل، أعظم من الواجب على أممهم، والواجب على أولي

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥٤١، ١١٨٦)، من حديث أمِّ العلاء رضي الله عنها - امرأة من الأنصار بايعت النبي ﷺ.

العزم أعظم من الواجب على من دونهم، والواجب على أولى العلم أعظم من الواجب على من دونهم، وكل أحد بحسب مرتبته[١].

* * *

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٠٣، ١٠٤).

العبودية أشرف المقامات

واللَّه تعالى جعل العبودية وصف أكمل خلقه وأقربهم إليه، فقال: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾ [النساء: ١٧٢]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

وهذا يبين أن الوقف التام في قوله: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ هاهنا، ثم يبتدئ: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠]، فهما جملتان تامتان مستقلتان؛ أي: إن له من في السماوات ومن في الأرض عبيدًا وملكًا، ثم استأنف جملة أخرى فقال: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾؛ يعني: أن الملائكة الذين عنده لا يستكبرون عن عبادته؛ يعني: لا يأنفون عنها ولا يتعاظمون، ولا يستحسرون فيعيون وينقطعون، يقال: حسر واستحسر؛ أي: إذا تعب وأعيا، بل عبادتهم وتسبيحهم كالنفس لبني آدم. فالأول: وصف لعبيد ربوبيته، والثاني: وصف لعبيد إلهيته.

وقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣] إلى آخر السورة. وقال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الإنسان: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾ [ص: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ [ص: ٤١]، وقال: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [ص: ٤٥]، وقال عن سليمان: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠]، وقال

عن المسيح الطَّيْلا: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ [الزُّخرف: ٥٩]، فجعل غايته العبودية، لا الإلهية كما يقول أعداؤه النصارى.

ووصف أكرم خلقه عليه وأعلاهم عنده منزلة بالعبودية في أشرف مقاماته: فقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، وقال تبارك وتعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١]، وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١]، فذكره بالعبودية في مقام إنزال الكتاب عليه، وفي مقام التحدي بأن يأتوا بمثله، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الجنّ: ١٩]، فذكره بالعبودية في مقام الدعوة إليه، وقال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ فذكره بالعبودية في مقام الإسراء.

وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**لا تُطْرُوْني كما أَطْرَتِ النصارى المسيحَ ابنَ مريمَ، فإنما أنا عبدٌ، فقولوا: عبدُ اللهِ ورسولُه**»(١).

وفي الحديث: «**أنا عبدٌ، آكلُ كما يأكلُ العبدُ، وأجلسُ كما يجلسُ العبدُ**»(٢). وفي «**صحيح البخاري**» عن عبد اللّه بن عمرو - رضي اللّه عنهما - قال: قرأت في التوراة صفة محمد: «**محمدٌ رسولُ اللهِ، عبدي ورسولي، سميتُه المتوكلَ، ليس بفظٍّ، ولا غليظٍ، ولا صخابٍ بالأسواقِ، ولا يجزي بالسيئةِ السيئةَ، ولكن يعفو ويغفرُ**»(٣).

وجعل اللّه سبحانه البشارة المطلقة لعباده، فقال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزُّمر: ١٧، ١٨]، وجعل الأمن المطلق

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٥، ٦٨٣٠)، من حديث عمر بن الخطاب ﷺ.
(٢) أخرجه ابنُ سعد في «الطبقات» (١/ ٣٨١)، من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٣) أخرجه البخاري (٢١٢٥، ٤٨٣٨).

لهم فقال تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ۝٦٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٦٩﴾ [الزُّخرف: ٦٨، ٦٩]، وعزل الشيطان عن سلطانه عليهم خاصة، وجعل سلطانه على من تولاه، وأشرك به، فقال: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝٤٢﴾ [الحجر: ٤٢] وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ۝١٠٠﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠]، وجعل النبي ﷺ: إحسان العبودية أعلى مراتب الدين وهو الإحسان، فقال في حديث جبريل، وقد سأله عن الإحسان: «**أن تعبدَ اللهَ كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[1].

***

(١) طرف من حديث طويل في صفة الإيمان والإسلام والإحسان. أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٤٢٦)، والبخاريُّ (٥٠، ٤٧٧٧)، ومسلمٌ (٩/ ٥،٦)، وابنُ ماجه (٦٤، ٤٠٤٤)، وابنُ خزيمة (٢٢٤٤)، وابنُ حبان (١٥٩)، من طرق عن أبي حيان التيمي، عن أبي زرعة، عن أبي هريرة به. وفي الباب عن: ابن عُمر، وعُمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

تاريخ الشرك وأنواعه

قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: ٦٥].

وكشْفُ الغطاء عن هذه المسألة أن يقال: إن اللّه ﷻ أرسل رسله، وأنزل كتبه، وخلق السموات والأرض؛ ليعرف، ويعبد، ويوحَّد، ويكون الدين كله له، والطاعة كلها له، والدعوة له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ﴾ [الحجر: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطَّلاق: ١٢]، وقال تعالى: ﴿۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾ [المائدة: ٩٧]، فأخبر سبحانه أن القصد بالخلق، والأمر أن يعرف بأسمائه وصفاته، ويعبد وحده لا يشرك به، وأن يقوم الناس بالقسط، وهو: العدل الذي قامت به السموات والأرض، كما قال

تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، فأخبر سبحانه أنه أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط وهو العدل، ومن أعظم القسط التوحيد، بل هو رأس العدل وقوامه، وأن الشرك ظلم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، فالشرك أظلم الظلم، والتوحيد أعدل العدل، فما كان أشد منافاة لهذا المقصود فهو أكبر الكبائر، وتفاوتها في درجاتها بحسب منافاتها له، وما كان أشد موافقة لهذا المقصود فهو أوجب الواجبات، وأفرض الطاعات.

فتأمل هذا الأصل حق التأمل، واعتبر به تفاصيله، تعرف به أحكم الحاكمين، وأعلم العالمين فيما فرضه على عباده، وحرمه عليهم، وتفاوت مراتب الطاعات والمعاصي، فلما كان الشرك باللَّه منافيًا بالذات لهذا المقصود كان أكبر الكبائر على الإطلاق، وحرم اللَّه الجنة على كل مشرك، وأباح دمه وماله وأهله لأهل التوحيد، وأن يتخذوهم عبيدًا لهم، لما تركوا القيام بعبوديته، وأبى اللَّه سبحانه أن يقبل من مشرك عملاً، أو يقبل فيه شفاعة، أو يستجيب له في الآخرة دعوة، فإن المشرك أجهل الجاهلين بالله؛ حيث جعل له من خلقه ندًا، وذلك غاية الجهل به، كما أنه غاية الظلم منه، وإن كان المشرك لم يظلم ربه، وإنما ظلم نفسه.

ووقعت مسألة، وهي أن المشرك إنما قصده تعظيم جناب الرب تبارك وتعالى، أو أنه لعظمته لا ينبغي الدخول عليه إلا بالوسائط والشفعاء، كحال الملوك، فالمشرك لم يقصد الاستهانة بجناب الربوبية، وإنما قصد تعظيمه، وقال: إنما أعبد هذه الوسائط لتقربني إليه، وتدخلني عليه، فهو المقصود،

وهذه وسائل وشفعاء. فلِم كان هذا القدر موجب لسخطه وغضبه تبارك وتعالى، ومخلدًا في النار، وموجبًا سفك دماء أصحابه، واستباحة حريمهم، وأموالهم؟ وترتب على هذا سؤال آخر:

وهو أنه: هل يجوز أن يشرع اللَّه سبحانه لعباده التقرب إليه بالشفعاء والوسائط، فيكون تحريم هذا إنما استفيد من الشرع، أم ذلك قبيح في الفطر والعقول يمتنع أن تأتي به شريعة، بل جاءت بتقرير ما في الفطر، والعقول من قبحه الذي هو أقبح من كل قبيح، وما السبب في كونه لا يغفره من دون سائر الذنوب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]؟

فتأمل هذا السؤال واجمع قلبك وذهنك على جوابه ولا تستهينه؛ فإن به يحصل الفرق بين المشركين والموحدين، والعالمين باللَّه والجاهلين، وأهل الجنة وأهل النار.

فنقول وباللَّه التوفيق والتأييد، ومنه نستمد المعونة والتسديد، فإنه من يهد اللَّه فهو المهتد، ومن يضلل فلا هادي له، ولا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع:

- **الوسائط التي بين الملوك وبين الناس يكونون على أحد وجوه ثلاثة:**

إما لإخبارهم من أحوال الناس بما لا يعرفونه، ومن قال: إن اللَّه لا يعلم أحوال عباده حتى يخبره بتلك بعض الملائكة أو الأنبياء أو غيرهم. فهو كافر بل هو سبحانه يعلم السر وأخفى، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، وهو السميع البصير، يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات، لا يشغله سمع عن سمع، ولا تُغَلِّطُه المسائل، ولا يتبرم

بإلحاح الملحين.

الوجه الثاني: أن يكون الملك عاجزًا عن تدبير رعيته، ودفع أعدائه إلا بأعوان يعينونه، فلا بد له من أنصار وأعوان لذله وعجزه، واللَّه سبحانه ليس له ظهير، ولا ولي من الذل، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [سبأ: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾ [الإسراء: ١١١].

وكل ما في الوجود من الأسباب فهو خالقه وربه ومليكه، فهو الغني عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير إليه، بخلاف الملوك المحتاجين إلى ظهرائهم، وهم في الحقيقة شركاؤهم في الملك.

واللَّه تعالى ليس له شريك في الملك، بل لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير.

والوجه الثالث: أن يكون الملك ليس مريدًا لنفع رعيته والإحسان إليهم ورحمتهم إلا بمحرك يحركه من خارج، فإذا خاطب الملك من ينصحه ويعظمه، أو من يدل عليه، بحيث يكون يرجوه ويخافه، تحركت إرادة الملك وهمته في قضاء حوائج رعيته؛ إما لما حصل في قلبه من كلام الناصح الواعظ المشير، وإما لما يحصل من الرغبة أو الرهبة من كلام المدل عليه.

واللَّه تعالى هو رب كل شيء ومليكه، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها، وكل الأشياء إنما تكون بمشيئته، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وهو إذا أجرى نفع العباد بعضهم على بعض، فجعل هذا يحسن إلى هذا،

ويدعو له، ويشفع فيه، ونحو ذلك، فهو الذي خلق ذلك كله، وهو الذي خلق في قلب هذا المحسن الداعي الشافع إرادة الإحسان والدعاء والشفاعة، ولا يجوز أن يكون في الوجود من يُكرهه على خلاف مراده، أو يعلمه ما لم يكن يعلم، أو مَن يرجوه الربُّ ويخافه.

ولهذا قال النبي ﷺ : «**لا يقولنَّ أحدُكم: اللهمَّ اغفر لي إن شئتَ. اللهمَّ ارحمني إن شئتَ. ولكن ليعزمَ المسألةَ فإنه لا مُكرِه له**»(١).

والشفعاء الذين يشفعون عنده لا يشفعون إلا بإذنه، كما قال ﷻ : ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].

فبين أن كل من دُعي من دونه، ليس له ملك، ولا شرك في الملك، ولا هو ظهير، وأن شفاعتهم لا تنفع إلا لمن أذن له.

وهذا بخلاف الملوك، فإن الشافع عندهم قد يكون له ملك، وقد يكون شريكًا لهم في الملك، وقد يكون مظاهرًا لهم معاونًا لهم على ملكهم، وهؤلاء يشفعون عند الملوك بغير إذن الملوك هم وغيرهم، والملك يقبل شفاعتهم تارة بحاجته إليهم، وتارة لخوفه منهم، وتارة لجزاء إحسانهم إليه ومكافأتهم ولإنعامهم عليه، حتى إنه يقبل شفاعة ولده وزوجته لذلك، فإنه

(١) أخرجه البخاري في (٥٩٨٠)، ومسلم (٩/ ٢٦٧٩) من حديث أبي هريرة ﷺ .

محتاج إلى الزوجة، وإلى الولد، حتى لو أعرض عنه ولده وزوجته لَتَضَرَّرَ بذلك، ويقبل شفاعة مملوكه، فإذا لم يقبل شفاعته يخاف أن لا يطيعه، أو أن يسعى في ضرره، وشفاعة العباد بعضهم عند بعض كلها من هذا الجنس، فلا يقبل أحد شفاعة أحد إلا لرغبة أو رهبة.

والله تعالى لا يرجو أحدًا، ولا يخافه، ولا يحتاج إلى أحد، بل هو الغني، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾ إلى قوله: ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [يونس: ٦٦ - ٦٨].

والمشركون يتخذون شفعاء من جنس ما يعهدونه من الشفاعة، قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس: ١٨]، وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأحقاف: ٢٨].

وأخبر عن المشركين أنهم قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزُّمر: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء: ٥٦، ٥٧].

فأخبر أن ما يدعى من دونه لا يملك كشف ضر ولا تحويله، وأنهم يرجون رحمته ويخافون عذابه، ويتقربون إليه، فهو سبحانه قد نفى ما من الملائكة والأنبياء إلا من الشفاعة بإذنه[١].

* * *

(١) «الجواب الكافي» (١/ ٨٨-٩٠)، «مجموع الفتاوى» (١/ ١٢٦).

أنواع الشرك

قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦].

الشرك شركان:

شرك يتعلق بذات المعبود وأسمائه وصفاته وأفعاله.

وشرك في عبادته ومعاملته، وإن كان صاحبه يعتقد أنه سبحانه لا شريك له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله.

والشرك الأول نوعان:

أحدهما شرك التعطيل: وهو أقبح أنواع الشرك، كشرك فرعون، إذ قال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]، وقال تعالى مخبرًا عنه أنه قال: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [القصص: ٣٨]، **فالشرك، والتعطيل متلازمان، فكل مشرك معطل وكل معطل مشرك**، لكن لا يستلزم أصل التعطيل، بل قد يكون المشرك مقرًّا بالخالق سبحانه وصفاته، ولكن عطل حق التوحيد.

وأصل الشرك وقاعدته التي يرجع إليها هو التعطيل، وهو ثلاثة أقسام: تعطيل المصنوع عن صانعه وخالقه، وتعطيل الصانع سبحانه عن كماله المقدس؛ بتعطيل أسمائه وصفاته وأفعاله، وتعطيل معاملته عما يجب على العبد من حقيقة التوحيد، ومن هذا شرك طائفة أهل وحدة الوجود الذين يقولون: ما ثم خالق ومخلوق. ويقولون: ولا هاهنا شيئان، بل الحق المنزه، وهو عين الخلق المشبه. ومنه شرك الملاحدة القائلين بقدم العالم

وأبديته، وأنه لم يكن معدومًا أصلاً، بل لم يزل ولا يزال، والحوادث بأسرها مستندة عندهم إلى أسباب ووسائط اقتضيت إيجادها ليسمونها العقول والنفوس، ومن هذا شرك من عطل أسماء الرب تعالى وأوصافه وأفعاله من غلاة الجهمية والقرامطة، فلم يثبتوا اسمًا ولا صفة، بل جعلوا المخلوق أكمل منه؛ إذ كمال الذات بأسمائها وصفاتها.

النوع الثاني: شرك من جعل معه إلهًا آخر، ولم يعطل أسماءه، وربوبيته، وصفاته، كشرك النصارى الذي جعلوه ثلاثة، فجعلوا المسيح إلهًا، وأمه إلهًا، ومن هذا شرك المجوس القائلين بإسناد حوادث الخير إلى النور، وحوادث الشر إلى الظلمة، ومن هذا شرك القدرية القائلين بأن الحيوان هو الذي يخلق أفعال نفسه، وأنها تحدث بدون مشيئة اللَّه وقدرته وإرادته، ولهذا كانوا من أشباه المجوس.

ومن هذا شرك الذي حاج إبراهيم في ربه ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]. فهذا جعل نفسه ندًا لله يحيي ويميت - بزعمه - كما يحيي اللَّه ويميت، فألزمه إبراهيم - عليه السلام ورحمة اللَّه وبركاته - أن طرد قولك أن تقدر على الإتيان بالشمس من غير الجهة التي يأتي اللَّه بها منها، وليس هذا انتقالاً كما زعم بعض أهل الجدل، بل إلزامًا على طرد الدليل، إن كان حقًّا.

ومن هذا شرك كثير ممن يشرك بالكواكب العلويات، ويجعلها أربابًا مدبرة لأمر هذا العالم، كما هو مذهب مشركي الصابئة وغيرهم.

ومن هذا شرك عباد الشمس، وعباد النار، وغيرهم، ومن هؤلاء من يزعم أن معبوده هو الإله على الحقيقة، ومنهم من يزعم أنه أكبر الآلهة،

ومنهم من يزعم أنه إله من جملة الآلهة، وأنه إذا خصه بعبادته والتبتل إليه والانقطاع إليه أقبل عليه واعتنى به، ومنهم من يزعم أن معبودهم الأدنى يقربه إلى المعبود الذي هو فوقه، والفوقاني يقربه إلى من هو فوقه، حتى تقربه تلك الآلهة إلى اللَّه سبحانه، فتارة تكثر الوسائط، وتارة تقل.

وأما الشرك في العبادة فهو أسهل من هذا الشرك، وأخف أمرًا، فإنه يصدر ممن يعتقد أنه لا إله إلا الله، وأنه لا يضر ولا ينفع، ولا يعطي ولا يمنع إلا الله، وأنه لا إله غيره، ولا رب سواه، ولكن لا يخلص لله في معاملته وعبوديته، بل يعمل لحظ نفسه تارة، وطلب الدنيا تارة، ولطلب الرفعة والمنزلة والجاه عند الخلق تارة، فلله من عمله وسعيه نصيب، ولنفسه وحظه وهواه نصيب، وللشيطان نصيب، وللخلق نصيب، هذا حال أكثر الناس، وهو الشرك الذي قال فيه النبي ﷺ فيما رواه ابن حبان في «صحيحه»: «**الشركُ في هذه الأمةِ أخفى من دبيبِ النملِ**». قالوا -يعني أبا بكر الصديق-: وكيف ننجوا منه يا رسول الله؟ قال: «**قل: اللهم إني أعوذُ بك أن أشركَ بك وأنا أعلمُ، وأستغفرُك لما لا أعلمُ**»[1].

فالرياء كله شرك، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠]؛ أي: كما أنه إله واحد لا إله سواه، فكذلك ينبغي أن تكون العبادة له وحده، فكما تفرد بالإلهية يجب أن يفرد بالعبودية، فالعمل الصالح هو الخالي من الرياء، المقيد بالسنة، وكان من دعاء عمر بن

(١) أخرجه البخاري في كتابه «المفرد في الأدب» (٧١٦)، وأبو يعلى (١/ ٥٨، ٦٠، ٦١)، من طريقين عن أبي بكر ﷺ.

الخطاب ﷺ : «**اللهم اجعل عملي كله صالحًا، واجعله لوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه شيئًا**»(١).

وهذا الشرك في العبادة يبطل ثواب العمل، وقد يعاقب عليه إذا كان العمل واجبًا، فإنه ينزله منزلة من لم يعمله، فيعاقب على ترك الأمر، فإن اللّه سبحانه إنما أمر بعبادته خالصة.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البيِّنة: ٥]، فمن لم يخلص لله في عبادته، لم يفعل ما أمر به، بل الذي أتى به شيء غير المأمور به، فلا يصح ولا يقبل منه، ويقول اللّه تعالى: «**أنا أغنى الشركاءِ عن الشركِ، فمَن عَمِل عملًا أشرَك معي فيه غيري فهو للذي أشرك به، وأنا منه بريءٌ**»(٢).

وهذا الشرك ينقسم إلى مغفور وغير مغفور، وأكبر وأصغر.

والنوع الأول ينقسم إلى كبير وأكبر، وليس شيء منه مغفور.

فمنه الشرك باللّه في المحبة والتعظيم، بأن يحب مخلوقًا كما يحب الله، فهذا من الشرك الذي لا يغفره الله، وهو الشرك الذي قال سبحانه فيه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ ۝١٦٥﴾ [البقرة: ١٦٥].

وقال أصحاب هذا الشرك لآلهتهم، وقد جمعتهم الجحيم: ﴿تَٱللَّهِ إِن

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «الزهد» (ص١٦٠/ ٦١٧).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٣٠١، ٤٣٥)، ومسلمٌ (٢٩٨٥/ ٤٦)، وابنُ ماجه (٤٢٠٢)، وابنُ خزيمة (٩٣٨)، وابنُ حبان (٣٩٥)، من طرق عن العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب، عن أبيه، عن أبي هريرة مرفوعًا به. وفي الباب عن أبي سعد بن أبي فضالة الأنصاري ﷺ.

كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨]، ومعلوم أنهم ما سووهم به سبحانه في الخلق والرزق، والإماتة والإحياء، والملك والقدرة، وإنما سووهم به في الحب والتأله، والخضوع لهم والتذلل، وهذا غاية الجهل والظلم.

فكيف يسوى من خُلِق من التراب برب الأرباب؟! وكيف يسوى العبيد بمالك الرقاب؟! وكيف يسوى الفقير بالذات، الضعيف بالذات، العاجز بالذات، المحتاج بالذات، الذي ليس له من ذاته إلا العدم - بالغنى بالذات، القادر بالذات، الذي غناه، وقدرته، وملكه، وجوده، وإحسانه، وعلمه، ورحمته، وكماله المطلق التام، من لوازم ذاته؟!

فأي ظلم أقبح من هذا؟! وأي حكم أشد جورًا منه؟! حيث عدل من لا عِدْلَ له بخلقه، كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام: ١]، فعدل المشركُ مَن خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور، بمن لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، فيا له من عدل تضمن أكبر الظلم وأقبحه.

ويتبع هذا:

الشرك به سبحانه في الأقوال، والأفعال، والإرادات، والنيات.

فالشرك في الأفعال: كالسجود لغيره، والطواف بغير بيته، وحلق الرأس؛ عبودية وخضوعًا لغيره، وتقبيل الأحجار غير الحجر الأسود الذي هو يمين اللَّه في الأرض، أو تقبيل القبور واستلامها والسجود لها، وقد لعن النبي ﷺ من اتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد، يصلى لله فيها، فكيف

بمن اتخذ القبور أوثانًا يعبدها من دون الله؟!

وفي «**الصحيحين**» عنه ﷺ أنه قال: «**لعن اللهُ اليهودَ والنصارى، اتخذوا قبورَ أنبيائهم مساجدَ**»[١].

وفي الصحيح عنه: «**إن شرارَ الناسِ مَن تُدركُهم الساعةُ وهم أحياءٌ، والذين يتخذون القبورَ مساجدَ**»[٢]. وفي الصحيح أيضًا عنه: «**إنَّ مَن كان قبلكم كانوا يتخذون القبورَ مساجدَ، ألا فلا تتخذوا القبورَ مساجدَ، فإني أنهاكم عن ذلك**»[٣].

وفي «**مسند الإمام أحمد**» ﷺ، و«**صحيح ابن حبان**» عنه ﷺ: «**لعن اللهُ زوَّاراتِ القبورِ، والمتخذين عليها المساجدَ والسُّرُجَ**»[٤]. وقال: «**اشتدَّ غضبُ اللهِ على قومٍ اتخذوا قبورَ أنبيائهم مساجدَ**»[٥]. وقال: «**إنَّ مَن كان قبلكم إذا مات فيهم الرجلُ الصالحُ بنَوا على قبرِه مسجدًا، وصوَّروا فيه تلك الصُّوَرَ، أولئك شرارُ الخلقِ عند اللهِ يومَ القيامةِ**»[٦]. فهذا حال من سجد لله

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٣٠، ١٣٩٠، ٤٤٤١)، ومسلم (١٩/ ٥٢٩)، من عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرج البخاري (٦٦٥٦) ومسلم (٥٠٦٦) شطره الأول، وأخرجه بتمامه الإمام أحمد (١/ ٤٠٥) كلهم من حديث ابن مسعود ﷺ.

(٣) أخرجه مسلم (٢٣/ ٥٣٢)، من حديث جندب ﷺ.

(٤) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٣٣٧، ٣٥٦)، والترمذي (١٠٥٦)، من حديث هريرة ﷺ.
قال الترمذي: حسن صحيح، وقد رأى بعض أهل العلم أنَّ هذا كان قبل أن يرخص النبيﷺ في زيارة القبور. فلما رخص دخل في رخصته الرجالُ والنساءُ. وقال بعضُهم: إنما كرهت زيارة القبور للنساء لقلة صبرهن وكثرة جزعهن. ا؟.

(٥) يأتي تخريجه بعد حديث.

(٦) أخرجه البخاري (٤٢٧، ٤٣٤، ١٣٤١، ٣٨٧٣)، ومسلم (٥٢٨/ ١٦-١٨)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

في مسجد على قبر، فكيف حال من سجد للقبر بنفسه، وقد قال النبي ﷺ: «**اللهمَّ لا تجعلْ قبري وثنًا يُعبدُ**»[(١)].

وقد حَمَى النبيُّ ﷺ جانب التوحيد أعظم حماية، حتى نهى عن صلاة التطوع لله سبحانه عند طلوع الشمس وعند غروبها؛ لئلا يكون ذريعة إلى التشبه بعبَّاد الشمس الذين يسجدون لها في هاتين الحالتين، وسد الذريعة بأن منع الصلاة بعد العصر والصبح؛ لاتصال هذين الوقتين بالوقتين اللذين يسجد المشركون فيهما للشمس.

وأما السجود لغير الله، فقال: «**لا ينبغي لأحد أن يسجد لأحد إلا لله**»[(٢)]. و«**لا ينبغي**» في كلام اللَّه ورسوله ﷺ للذي هو في غاية الامتناع شرعًا، كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝﴾ [مريم: ٩٢]، وقوله: ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ ۝﴾ [يس: ٦٩]، وقوله: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ۝﴾ [الشعراء: ٢١٠، ٢١١]، وقوله عن الملائكة: ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ [الفرقان: ١٨].

ومن الشرك به سبحانه: الشرك به في اللفظ؛ كالحلف بغيره، كما رواه أحمد وأبو داود عنه ﷺ أنه قال: «**مَن حلَف بغيرِ اللهِ فقد أشرك**». وصححه الحاكم وابن حبان[(٣)].

ومن ذلك قول القائل للمخلوق: ما شاء اللَّه وشئت. كما ثبت عن النبي

---

(١) أخرجه مالك في «موطئه» (١/ ١٧٢)، وأخرجه الحميدي في «مسنده» (٢/ ٤٤٥).

(٢) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٤١٦٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ١٢٥)، وأبو داود (٣٢٥١)، وابن حبان (٤٣٥٨)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٦٥، ١١٧)، و (٤/ ٣٣٠)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

ﷺ أنه قال له رجل: ما شاء اللَّه وشئت. قال: «**أجعلتني للهِ ندًّا؟! قلْ: ما شاء اللَّه وحده**»(١). وهذا مع أن اللَّه قد أثبت للعبد مشيئة، كقوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨﴾ [التَّكوير: ٢٨]، فكيف من يقول: أنا متوكل على اللَّه وعليك. و: أنا في حسب اللَّه وحسبك. و: ما لي إلا اللَّه وأنت. و: هذا من اللَّه ومنك. و: هذا من بركات اللَّه وبركاتك. و: اللَّه لي في السماء وأنت لي في الأرض. ويقول: واللهِ وحياةِ فلان. أو يقول: نذرًا لله ولفلان. و: أنا تائب لله ولفلان. أو: أرجو اللَّه وفلانًا. ونحو ذلك.

فوازن بين هذه الألفاظ، وبين قول القائل: ما شاء اللَّه وشئت. ثم انظر أيهما أفحش؟ يتبين لك أن قائلها أولى لجواب النبي ﷺ لقائل تلك الكلمة، وأنه إذا كان قد جعله ندًّا لله بها، فهذا قد جعل من لا يداني رسول اللَّه ﷺ في شيء من الأشياء - بل لعله أن يكون من أعدائه - ندًّا لرب العالمين، فالسجود والعبادة، والتوكل والإنابة، والتقوى والخشية، والتحسب والتوبة، والنذر والحلف، والتسبيح والتكبير والتهليل والتحميد والاستغفار، وحلق الرأس خضوعًا وتعبدًا، والطواف بالبيت والدعاء، كل ذلك محض حق اللَّه لا يصلح ولا ينبغي لسواه، مِن ملك مقرب، ولا نبي مرسل، وفي «**مسند الإمام أحمد**»: أن رجلاً أُتِي بهِ إلى النبي ﷺ قد أذنب ذنبًا، فلما وقف بين يديه، قال: اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد. فقال: «**قد عرَفَ الحقَّ لأهلِهِ**»(٢).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٤٣٥) من حديث الأسود بن سريع، وهو حديث حسن ومحمد ابن مصعب أحد رواته قال عنه الإمام أحمد لا بأس به.

- **الشرك في الإرادات والنيات:**

وأما الشرك في الإرادات والنيات فذلك البحر الذي لا ساحل له، وقَلَّ من ينجو منه، فمن أراد بعمله غير وجه الله، ونوى شيئًا غير التقرب إليه، وطلب الجزاء منه، فقد أشرك في نيته وإرادته.

والإخلاص: أن يخلص لله في أفعاله وأقواله، وإرادته ونيته، وهذه هي الحنيفية ملة إبراهيم التي أمر اللَّه بها عباده كلهم، ولا يقبل من أحد غيرها، وهي حقيقة الإسلام، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥]، وهى ملة إبراهيم عليه السلام التي من رغب عنها فهو من أسفه السفهاء.

- **حقيقة الشرك:**

وإذا عرفت هذه المقدمة، انفتح لك باب الجواب عن السؤال المذكور، فنقول ومن اللَّه وحده نستمد الصواب:

حقيقة الشرك هو: التشبه بالخالق أوالتشبيه للمخلوق به، هذا هو التشبيه في الحقيقة، لا إثبات صفات الكمال التي وصف اللَّه بها نفسه ووصفه بها رسول اللَّه ﷺ، فعكس من نكس اللَّه قلبه، وأعمى عين بصيرته، وأركسه بلبسه الأمر، وجعل التوحيد تشبيهًا، والتشبيه تعظيمًا وطاعة.

* * *

خصائص الإلهية

قال تعالى: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨].

فالمشرك مشبه للمخلوق بالخالق في خصائص الإلهية، فإن من خصائص الإلهية: التفرد بملك الضر والنفع، والعطاء والمنع، وذلك يوجب تعليق الدعاء والخوف والرجاء والتوكل - به وحده، فمن علق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق، وجعل من لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، فضلاً عن غيره، شبيهًا بمن له الأمر كله، فأزمة الأمور كلها بيديه، ومرجعها إليه، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، بل إذا فتح لعبده باب رحمته لم يمسكها أحد، وإن أمسكها عنه لم يرسلها إليه أحد، فمِن أقبح التشبيه تشبيه هذا العاجز الفقير بالذات، بالقادر الغني بالذات.

ومن خصائص الإلهية: الكمال المطلق من جميع الوجوه، الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده، والتعظيم والإجلال، والخشية والدعاء، والرجاء والإنابة، والتوكل والاستعانة، وغاية الذل مع غاية الحب، كل ذلك يجب عقلاً وشرعًا وفطرةً أن يكون له وحده، ويُمنع عقلاً وشرعًا، وفطرةً أن يكون لغيره، فمَن جعل شيئًا من ذلك لغيره فقد شبه ذلك الغير بمن لا شبيه له، ولا ند له، وذلك أقبح التشبيه وأبطله، ولشدة قبحه وتضمنه غاية الظلم أخبر سبحانه

عباده أنه لا يغفره، مع أنه كتب على نفسه الرحمة.

ومن خصائص الإلهية: العبودية التي قامت على ساقين، لا قوام لها بدونهما: **غاية الحب مع غاية الذل**.. هذا تمام العبودية، وتفاوت منازل الخلق فيها بحسب تفاوتهم في هذين الأصلين، فمن أعطى حبه وذله وخضوعه لغير اللَّه فقد شبهه به في خالص حقه، وهذا من المحال أن تأتي به شريعة من الشرائع، وقبحه مستقر في كل فطرة وعقل، ولكن غيرت الشياطين فطر أكثر الخلق وعقولهم، وأفسدتها عليهم، واحتالتهم عنها، ومضى على الفطرة الأولى من سبقت له من اللَّه الحسنى، فأرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، بما يوافق فطرهم وعقولهم، فازدادوا بذلك نورًا على نور ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٣٥].

إذا عرف هذا، **فمن خصائص الإلهية**:

السجود، فمن سجد لغيره فقد شبه المخلوق به.

ومنها: التوكل، فمن توكل على غيره فقد شبهه به.

ومنها: التوبة، فمن تاب لغيره فقد شبهه به.

ومنها: الحلف باسمه؛ تعظيمًا وإجلالاً، فمن حلف بغيره فقد شبهه به.

هذا في جانب التشبيه، وأما في جانب التشبُّه به، فمن تعاظم وتكبر، ودعا الناس إلى إطرائه في المدح والتعظيم، والخضوع والرجاء، وتعليق القلب به خوفًا ورجاءً، والتجاءً واستعانة، فقد أشرك باللَّه ونازعه في ربوبيته وإلهيته، وهو حقيق بأن يهينه غاية الهوان، ويذله غاية الذل، ويجعله تحت أقدام خلقه.

وفي الصحيح عنه ﷺ قال: «**يقول اللَّه ﷻ: العظمة إزاري، والكبرياء**

ردائي، **فمن نازعني واحدًا منهما عذبته**»[١]. وإذا كان المصور الذي يصنع الصورة بيده من أشد الناس عذابًا يوم القيامة؛ لتشبهه باللَّه في مجرد الصنعة، فما الظن بالتشبه باللَّه في الربوبية والإلهية؟! كما قال النبي ﷺ: «**أشدُّ الناسِ عذابًا يومَ القيامةِ المصورون، يقال لهم: أَحيُوا ما خلقتم**»[٢].

وفي «الصحيحين» عنه ﷺ أنه قال: «**قال اللَّه ﷻ: ومَن أظلمُ ممن ذهَب يَخلق خلقًا كخلقي، فليخلقوا ذَرَّةً، فليخلقوا شعيرةً**». فنبه بالذرة والشعيرة على ما هو أعظم منهما وأكبر.

والمقصود: أن هذا حال من تشبه به في صنعة صورة، فكيف حال من تشبه به في خواص ربوبيته وإلهيته؟!

وكذلك من تشبه به في الاسم الذي لا ينبغي إلا لله وحده، كملك الأملاك، وحاكم الحكام، ونحوه.

وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**إن أخنعَ الأسماءِ عند اللهِ رجلٌ تَسَمَّى: بشَاهَانْ شاهْ، ملِكُ الملوكِ، ولا ملِكَ إلا اللهُ**». وفي لفظ: «**أغيظُ رجلٍ على اللهِ رجلٌ تَسَمَّى: بملك الأملاك**»[٣]. فهذا مقت اللَّه وغضبه على من تشبه به في الاسم الذي لا ينبغي إلَّا له، فهو سبحانه ملك الملوك وحده، وهو حاكم الحكام وحده، فهو الذي يحكم على الحكام كلهم، ويقضي عليهم كلهم لا غيره.

* * *

(١) سلف تخريجه.

(٢) مضى تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

سر التعلق بغير الله

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَـٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ [آل عمران: ١٥٤].

إذا تبين هذا، فهاهنا أصل عظيم يكشف سر المسألة، وهو أن أعظم الذنوب عند اللّه إساءة الظن به، فإن المسيء به الظن قد ظن به خلاف كماله المقدس، فظن به ما يناقض أسماءه وصفاته، ولهذا توعد اللّه سبحانه الظانين به ظن السوء، بما لم يتوعد به غيرهم، كما قال تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

وقال تعالى لمن أنكر صفة من صفاته: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [فصلت: ٢٣].

وقال تعالى عن خليله إبراهيم أنه قال لقومه: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الصافات: ٨٥ - ٨٧]؛ أي: فما ظنكم أن يجازيكم به إذا لقيتموه، وقد عبدتم غيره، وماذا ظننتم به حين عبدتم معه غيره، وما ظننتم بأسمائه وصفاته وربوبيته من النقص حتى أحوجكم ذلك إلى عبودية غيره، فلو ظننتم به ما هو أهله، من أنه بكل شيء عليم، وهو على كل شيء قدير، وأنه غني عن كل ما سواه، وكل ما سواه

فقير إليه، وأنه قائم بالقسط على خلقه، وأنه المتفرد بتدبير خلقه، لا يشرك فيه غيره، والعالم بتفاصيل الأمور، فلا يخفى عليه خافية من خلقه، والكافي لهم وحده، فلا يحتاج إلى معين، والرحمن بذاته، فلا يحتاج في رحمته إلى من يستعطفه، وهذا بخلاف الملوك وغيرهم من الرؤساء، فإنهم محتاجون إلى من يعرفهم أحوال الرعية وحوائجهم، وإلى من يعينهم على قضاء حوائجهم، وإلى من يسترحمهم، وإلى من يستعطفهم بالشفاعة، فاحتاجوا إلى الوسائط ضرورة لحاجتهم، وضعفهم، وعجزهم، وقصور علمهم.

فأما القادر على كل شيء، الغني عن كل شيء، الرحمن الرحيم، الذي وسعت رحمته كل شيء، فإدخال الوسائط بينه وبين خلقه، نقصٌ بحق ربوبيته وإلهيته وتوحيده، وظنٌّ به ظن سوء، وهذا يستحيل أن يشرعه لعباده، ويمتنع في العقول والفطر، وقبحه مستقر في العقول السليمة فوق كل قبيح، يوضح هذا أن العابد معظم لمعبوده، متأله خاضع ذليل له، والرب تعالى وحده هو الذي يستحق كمال التعظيم والجلال، والتأله والتذلل والخضوع، وهذا خالص حقه، فمن أقبح الظلم أن يعطى حقه لغيره، أو يشرك بينه وبينه فيه، ولا سيما الذي جُعل شريكه في حقه هو عبده ومملوكه، كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الروم: ٢٨]؛ أي: إذا كان أحدكم يأنف، أن يكون مملوكه شريك له في رزقه، فكيف تجعلون لي من عبيدي شركاء فيما أنا به متفرد، وهو الإلهية التي لا تنبغي لغيري، ولا تصح لسوائي؟! فمن زعم ذلك، فما قدرني حق قدري، ولا عظمني حق عظمتي، ولا أفردني بما

أنا متفرد به وحدي دون خلقي. فما قدر اللَّه بحق قدره من عبد معه غيره، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤]، فما قدر اللَّه حق قدره من عبد معه غيره[١].

* * *

(١) «الجواب الكافي» (١/ ٨٧-٩٧).

كشف شبهات مشرك

قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ [الزمر: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأعراف: ٢٨].

وأما من يأتي إلى قبر نبي أو صالح، أو من يعتقد فيه أنه قبر نبي أو رجل صالح وليس كذلك، ويسأله ويستنجده فهذا على ثلاث درجات:

إحداها: أن يسأله حاجته، مثل أن يسأله أن يزيل مرضه، أو مرض دوابه، أو يقضي دينه، أو ينتقم له من عدوه، أو يعافي نفسه وأهله ودوابه، ونحو ذلك، مما لا يقدر عليه إلا اللَّه ﷻ، فهذا شرك صريح، يجب أن يستتاب صاحبه، فإن تاب وإلا قتل.

وإن قال: أنا أسأله لكونه أقرب إلى اللَّه مني، ليشفع لي في هذه الأمور، لأني أتوسل إلى اللَّه به كما يتوسل إلى السلطان بخواصه وأعوانه.

فهذا من أفعال المشركين والنصارى، فإنهم يزعمون أنهم يتخذون أحبارهم ورهبانهم شفعاء يستشفعون بهم في مطالبهم، وكذلك أخبر اللَّه عن المشركين أنهم قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، وقال سبحانه: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزمر: ٤٣، ٤٤]. وقال تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن

وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة: ٤]. وقال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

فبين الفرق بينه وبين خلقه، فإن من عادة الناس أن يستشفعوا إلى الكبير من كبرائهم بمن يكرم عليه، فيسأله ذلك الشفيع فيقضي حاجته، إما رغبة، وإما رهبة، وإما حياء، وإما مودة، وإما غير ذلك.

واللَّه سبحانه لا يشفع عنده أحد، حتى يأذن هو للشافع، فلا يفعل إلا ما شاء، وشفاعة الشافع من إذنه، فالأمر كله له.

ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة ﷺ: «**لا يقولنَّ أحدُكم: اللهمَّ اغفرْ لي إن شئتَ، اللهمَّ ارحمني إن شئتَ**. ولكن ليعزمِ المسألةَ، فإنَّ اللهَ لا مُكْرِهَ له»(١).

فبين أن الرب سبحانه يفعل ما يشاء، لا يكرهه أحد على ما اختاره، كما قد يكره الشافع المشفوع إليه، وكما يكره السائل المسئول إذا ألح عليه وآذاه بالمسألة، فالرغبة يجب أن تكون إليه، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾ [الشرح: ٧، ٨]، والرهبة تكون من الله، كما قال تعالى: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقد أُمِرنا أن نصلي على النبي صلى اللَّه عليه وآله وسلم في الدعاء وجعل ذلك من أسباب إجابة دعائنا.

وقول كثير من الضلال: هذا أقرب إلى اللَّه مني، وأنا بعيد من اللَّه لا يمكنني أن أدعوه إلا بهذه الواسطة. ونحو ذلك من أقوال المشركين، فإن اللَّه تعالى يقول: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا

(١) أخرجه البخاري (٦٣٣٨، ٧٤٦٤)، ومسلم (٧/ ٢٦٧٨)، من حديث أنس ﷺ.

دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقد روى أن الصحابة قالوا: يا رسول الله، ربنا قريب فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فأنزل اللَّه هذه الآية[(١)].

وفي الصحيح أنهم كانوا في سفر، وكانوا يرفعون أصواتهم بالتكبير، فقال النبي صلى اللَّه عليه وآله وسلم: «**يا أيها الناس، ارْبَعوا**[(٢)] **على أنفسِكم، فإنكم لا تدعون أصمَّ، ولا غائبًا بل تدعون سميعًا قريبًا، إن الذي تدعونه أقربُ إلى أحدِكم من عُنُقِ راحلتِه**»[(٣)].

وقد أمر اللَّه تعالى العباد كلهم بالصلاة له ومناجاته، وأمر كلًّا منهم أن يقولوا: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: ٥]، وقد أخبر عن المشركين أنهم قالوا: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾.

ثم يقال لهذا المشرك: أنت إذا دعوت هذا، فإن كنت تظن أنه أعلم بحالك، وأقدر على عطاء سؤالك، أو أرحم بك، فهذا جهل وضلال وكفر.

وإن كنت تعلم أن اللَّه أعلم وأقدر وأرحم فَلِمَ عدلت عن سؤاله إلى سؤال غيره؟! ألا تسمع إلى ما خرجه البخاري وغيره، عن جابر ﷺ قال: كان رسول اللَّه ﷺ يعلِّمُنا الاستخارةَ في الأمورِ كما يعلِّمُنا السورةَ من القرآنِ، يقول: «**إذا هَمَّ أحدُكم بأمرٍ، فليَركعْ ركعتين مِن غيرِ الفريضةِ، ثم ليقُلْ: اللهمَّ إني أستخيرُك بعلمِك، وأستقدِرُك بقدرتِك، وأسألُك مِن فضلِك**

(١) أخرجه ابنُ جرير الطبري في «تفسيره» (٢/ ١٥٨).

(٢) معناه: ارفقوا بأنفسكم واخفضوا أصواتكم، فإن رفع الصوت إنما يفعله الإنسان لبعد من يخاطبه ليسمعه، وأنتم تدعون الله تعالى وليس هو بأصم ولا غائب، بل هو سميع قريب، وهو معكم بالعلم والإحاطة. «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٧/ ٢٦).

(٣) سبق تخريجه.

العظيم، فإنَّك تقدرُ ولا أقدرُ، وتعلمُ ولا أعلمُ، وأنت علامُ الغيوبِ، اللهمَّ إن كنتَ تعلمُ أن هذا الأمرَ خيرٌ لي في ديني ومعاشي وعاقبةِ أمري، فاقدره لي ويسره لي، ثم بارِكْ لي فيه، وإن كنتَ تعلمُ أن هذا الأمرَ شرٌّ لي، في ديني، ومعاشي، وعاقبةِ أمري، فاصرفْه عني، واصرفني عنه، واقدُرْ لي الخيرَ حيث كان ثم ارضني به». قال: «**ويسمِّي حاجته**»[1]. أمر العبد أن يقول: «**أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم**».

وإن كنت تعلم أنه أقرب إلى اللَّه منك، وأعلى درجة عند اللَّه منك، فهذا حق، لكن كلمة حق أريد بها باطل، فإنه إذا كان أقرب منك، وأعلى درجة منك، فإنما معناه أن يثيبه ويعطيه أكثر مما يعطيك، ليس معناه إنك إذا دعوته كان اللَّه يقضي حاجتك أعظم مما يقضيها إذا دعوت أنت اللَّه تعالى، فإنك إن كنت مستحقًّا للعقاب وردِّ الدعاء، مثلاً، لما فيه من العدوان، فالنبي والصالح لا يعين على ما يكرهه الله، ولا يسعى فيما يبغضه الله، وإن لم يكن كذلك، فاللَّه أولى بالرحمة والقبول.

وإن قلت: هذا إذا دعا اللَّه أجاب دعاءه أعظم مما يجيبه إذا دعوته. فهذا هو القسم الثاني:

وهو أن لا تطلب منه الفعل ولا تدعوه، ولكن تطلب أن يدعو لك، كما تقول للحي: ادع لي. وكما كان الصحابة رضوان اللَّه عليهم يطلبون من النبي ﷺ الدعاء، فهذا مشروع في الحي كما تقدم، وأما الميت من الأنبياء والصالحين وغيرهم، فلم يشرع لنا أن نقول: ادع لنا. ولا: اسأل لنا ربك. ولم يفعل هذا أحد من الصحابة والتابعين، ولا أمر به أحد من الأئمة، ولا

(١) سبق تخريجه.

ورد فيه حديث، بل الذي ثبت في الصحيح أنهم لما أجدبوا زمن عمر ﷺ استسقى بالعباس، وقال: «**اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا**». فيسقون[١]. ولم يجيئوا إلى قبر النبي ﷺ قائلين: يا رسول الله، ادع اللّه لنا. و: استسق لنا. و: نحن نشكوا إليك مما أصابنا. ونحو ذلك، لم يفعل ذلك أحد من الصحابة قط، بل هو بدعة ما أنزل اللّه بها من سلطان، بل كانوا إذا جاءوا عند قبر النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم يسلمون عليه، فإذا أرادوا الدعاء لم يدعوا اللّه مستقبلي القبر الشريف، بل ينحرفون ويستقبلون القبلة ويدعون اللّه وحده لا شريك له، كما يدعونه في سائر البقاع.

وذلك أن في «**الموطأ**» وغيره، عنه صلى اللّه عليه وآله وسلم، قال: «**اللهم لا تجعلْ قبري وثنًا يُعبدُ، اشتد غضبُ اللهِ على قومٍ اتخذوا قبورَ أنبيائهم مساجدَ**»[٢].

وفي السنن عنه أنه قال: «**لا تتخذوا قبري عيدًا، وصلوا عليَّ حيثما كنتم، فإن صلاتكم تبلغني**»[٣]، وفي الصحيح عنه أنه قال في مرضه الذي لم يقم منه: «**لعن اللهُ اليهودَ والنصارى، اتخذوا قبورَ أنبيائهم مساجدَ**». يحذر ما فعلوا، قالت عائشة رضي اللّه عنها وعن أبويها: «**ولولا ذلك لأُبرِز قبره، ولكن كره أن يتخذ مسجدًا**»[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (١٠١٠، ٣٧١٠)، من حديث أنس ﷺ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٢٤٦). والحميدي (١٠٢٥)، وابن سعد في «الطبقات» (٢/ ٢٤١)، من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعًا، وأخرجه مالك في «الموطأ» (١/ ١٧٢)، مرسلا وهو حديث صحيح مشهور، والله أعلم.

(٣) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٣٦٧)، وأبو داود (٢٠٤٢)، من حديث أبي هريرة ﷺ .

(٤) تقدم تخريجه في ص٦٢٥، ٦٢٦.

وفي «**صحيح مسلم**» عنه ﷺ أنه قال قبل أن يموت بخمس: «**إنَّ مَن كان قبلكم كانوا يتخذون القبورَ مساجدَ، ألا فلا تتخذوا القبورَ مساجدَ، فإني أنهاكم عن ذلك**»[1]. وفي «**سنن أبي داود**» عنه قال: «**لعن اللهُ زوَّاراتِ القبورِ، والمتخذين عليها المساجدَ والسُّرُجَ**»[2].

هذا، وقال علماؤنا: لا يجوز بناء المسجد على القبور.

وقالوا: إنه لا يجوز أن ينذر لقبر ولا للمجاورين عند القبر شيئًا من الأشياء، لا من درهم، ولا من زيت، ولا من شمع، ولا من حيوان، ولا غير ذلك، كله نذر معصية، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَن نذرَ أن يطيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ، ومَن نذرَ أن يعصيَ اللهَ فلا يَعْصِهِ**»[3].

واختلف العلماء: هل على الناذر كفارة يمين؟ على قولين، ولهذا لم يقل أحد من أئمة السلف أن الصلاة عند القبور وفي مشاهد القبور مستحبة، أو فيها فضيلة، ولا أن الصلاة هناك والدعاء أفضل من الصلاة في غير تلك البقعة والدعاء، بل اتفقوا كلهم على أن الصلاة في المساجد والبيوت، أفضل من الصلاة عند القبور، قبور الأنبياء والصالحين، سواء سميت مشاهد، أو لم تسم.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٦٧) تعليقًا، وابن خزيمة (٧٨٩)، وابنُ حبان (٦٨٤٧)، من حديث ابن مسعود ﷺ. وليس عند البخاري الجملة الأخيرة، وأخرجه مسلم (١٣١/ ٢٩٤٩)، من حديث ابن مسعود، مقتصرًا على: «لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس».

(٢) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٢٢٩، ٢٨٧- ومواضع أخرى)، وأبو داود (٣٢٣٦)، والنسائيُّ (٤/ ٩٤)، وفي «الكبرى» (١/ ٦٥٧)، وابنُ ماجه (١٥٧٥)، وابنُ حبان (٣١٧٩، ٣١٨٠)، من طرق عن محمد بن جحادة، عن أبي صالح، عن ابن عباس -رضي الله عنهما- به. وله شاهد من حديث أبي هريرة ﷺ تقدم تخريجه (ص٣٢٦).

(٣) أخرجه البخاري (٦٦٩٦، ٦٧٠٠)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

وقد شرع اللَّه ورسوله في المساجد دون المشاهد أشياء، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾ [البقرة: ١١٤]، ولم يقل: «**المشاهد**». وقال تعالى: ﴿وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، ولم يقل: «في المشاهد». وقال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن: ١٨].

وقال ﷺ: «**صلاةُ الرجلِ في المسجدِ، تفضلُ على صلاتِه في بيتِه وسوقِه بخمسٍ وعشرين ضِعفًا**»(١). وقال ﷺ: «**مَن بنى للهِ مسجدًا؛ بنى اللهُ له بيتًا في الجنةِ**»(٢).

وأمَّا القبور: فقد ورد نهيه صلى اللَّه عليه وآله وسلم عن اتخاذها مساجد، ولعن من يفعل ذلك، وقد ذكره غير واحد من الصحابة والتابعين، كما ذكره البخاري في «**صحيحه**» والطبراني، وغيره في تفاسيرهم، وذكره وثيمة وغيره في قصص الأنبياء، في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح: ٢٣].

قالوا: «**هذه أسماء قوم صالحين، كانوا من قوم نوح، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم طال عليهم الأمد، فاتخذوا تماثيلهم أصنامًا**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٧، ٦٤٧، ٢١١٩)، ومسلم (٢٧٢/ ٦٤٩)، من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٢) أخرجه البخاري (٤٥٠)، ومسلم (٢٤،٢٥/ ٥٣٣)، من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٣) أخرجه البخاري (٤٩٢٠)، بإسناده عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأورده السيوطي في «الدر» (٨/ ٢٩٣) وزاد نسبته لابن المنذر، وابن مرديه، عن ابن عباس قوله.

وكان العكوف على القبور والتمسح بها، وتقبيلها، والدعاء عندها وفيها، ونحو ذلك - هو أصل الشرك وعبادة الأوثان، ولهذا قال النبي صلى اللَّه عليه وآله وسلم: «**اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد**»[1].

واتفق العلماء على أن من زار قبر النبي صلى اللَّه عليه وآله وسلم، أو قبر غيره من الأنبياء، والصالحين: الصحابة، وأهل البيت، وغيرهم، أنه لا يتمسح به ولا يقبِّله، بل ليس في الدنيا من الجمادات ما يشرع تقبيلها إلا الحجر الأسود، وقد ثبت في «**الصحيحين**» أن عمر ﷺ قال: «**واللَّه إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وآله وسلم يقبِّلُك ما قبَّلتُك**»[2].

ولهذا لا يسن باتفاق الأئمة أن يقبل الرجل أو يستلم ركني البيت اللذين يليان الحجر، ولا جدران البيت، ولا مقام إبراهيم، ولا صخرة بيت المقدس، ولا قبر أحد من الأنبياء والصالحين، حتى تنازع الفقهاء في وضع اليد على منبر سيدنا رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وآله وسلم لما كان موجودًا، فكرهه مالك وغيره؛ لأنه بدعة، وذُكر أن مالكًا لمَّا رأى عطاء فعل ذلك لم يأخذ عنه العلم، ورخص فيه أحمد وغيره؛ لأن ابن عمر رضي اللَّه عنهما فعله.

وأما التمسح بقبر النبي صلى اللَّه عليه وآله وسلم وتقبيله، فكلهم كره ذلك ونهى عنه؛ وذلك لأنهم علموا ما قصده النبي صلى اللَّه عليه وآله وسلم من حسم مادة الشرك وتحقيق التوحيد وإخلاص الدين لله رب العالمين.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (١٥٩٧، ١٦٠٥، ١٦١٠)، ومسلم (٢٤٨-٢٥٢/ ١٢٧٠)، من حديث عمر بن الخطاب ﷺ.

وهذا ما يظهر في الفرق بين سؤال النبي صلى اللَّه عليه وآله وسلم والرجل الصالح في حياته وبين سؤاله بعد موته وفي مغيبه، وذلك أنه في حياته لا يعبده أحد بحضوره، فإذا كان الأنبياء صلوات اللَّه عليهم والصالحون أحياء لا يتركون أحدًا يشرك بهم بحضورهم، بل ينهونهم عن ذلك ويعاقبونهم عليه، ولهذا قال المسيح عليه السلام: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة: ١١٧].

وقال رجل للنبي ﷺ: ما شاء اللَّه وشئت. فقال: «**أجعلتني لله ندًّا؟! ما شاء اللَّه وحده**»[(١)]. وقال: «**لا تقولوا: ما شاء اللهُ وشاء محمدٌ. ولكن قولوا: ما شاء اللهُ، ثم شاء محمد**»[(٢)]. ولما قالت الجويرية: وفينا رسول اللَّه يعلم ما في غد. قال: «**دَعِي هذا، قولي بالذي كنتِ تقولين**»[(٣)]. وقال: «**لا تُطروني كما أَطْرَتِ النصارى ابنَ مريمَ، إنما أنا عبدٌ فقولوا: عبدُ اللهِ ورسولُه**»[(٤)]. ولما صفُّوا خلفه قيامًا قال: «**لا تعظِّموني كما تعظمُ الأعاجمُ بعضُهم بعضًا**»[(٥)].

وقال أنس رضي الله عنه: «**لم يكن شخص أحب إليهم من رسول اللَّه ﷺ**، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له؛ لما يعلمون من كراهته لذلك»[(٦)].

---

(١) تقدم تخريجه ص٢٣٦

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (١٠٨٢٠) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه البخاري (٤٠٠١، ٥١٤٧)، من حديث الرُّبيِّع بنت مُعوِّذ بن عفراء الأنصارية رضي الله عنها.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) أخرجه مسلم (٨٤/ ٤١٣) بنحوه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٦) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ١٣٢، ١٣٤، ٢٥٠)، والترمذي (٢٧٥٤).

ولما سجد له معاذ نهاه، وقال: «**إنه لا يَصلُحُ السجودُ إلا للهِ، ولو كنتُ آمِرًا أحدًا أن يسجدَ لأحدٍ، لأمرتُ المرأةَ أن تسجدَ لزوجِها؛ من عِظَم حقِّه عليها**»[1].

ولمَّا أُتي عليٌّ ﷺ بالزنادقة الذين غَلَوْا فيه، واعتقدوا فيه الإلهية أمر بتحريقهم بالنار.

فهذا شأن أنبياء اللَّه وأوليائه، وإنما يُقِرُّ على الغلو فيه وتعظيمه بغير حقٍّ مَن يريد علوًّا في الأرض وفسادًا، كفرعون ونحوه، ومشائخ الضلال الذين غرضهم العلو في الأرض والفساد، والفتنة بالأنبياء والصالحين، واتخاذهم أربابًا، والإشراك بهم، مما يحصل في مغيبهم وفي مماتهم، كما أشرك بالمسيح وعزير.

فهذا مما يبين الفرق بين سؤال النبي ﷺ والصالح في حياته وحضوره، وبين سؤاله في مماته ومغيبه.

ولم يكن أحد من سلف الأمة في عصر الصحابة ولا التابعين، ولا تابعي التابعين، يتحرون الصلاة والدعاء عند قبور الأنبياء ويسألونهم، ولا يستغيثون بهم، لا في مغيبهم ولا عند قبورهم، وكذلك العكوف.

ومن أعظم الشرك أن يستغيث الرجل بميت أو غائب، كما ذكره، ويستغيث به عند المصائب، يقول: يا سيدي فلان. كأنه يطلب منه إزالة ضره، أو جلب نفعه، وهذا حال النصارى في المسيح وأمه، وأحبارهم ورهبانهم، ومعلوم أن خير الخلق وأكرمهم على اللَّه نبينا محمد صلى اللَّه

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٣٨١)، وابن ماجه (١٨٥٣)، من حديث عبد الله بن أبي أوفى ﷺ.

عليه وآله وسلم، وأعلم الناس بقدره وحقه، أصحابُه، ولم يكونوا يفعلون شيئًا من ذلك، لا في مغيبه ولا بعد مماته، وهؤلاء المشركون يضمون إلى الشرك الكذبَ؛ فإن الكذب مقرون بالشرك، وقد قال تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ [الحج: ٣٠، ٣١]، وقال النبي ﷺ: «**عَدَلَتْ شهادةُ الزورِ الإشراكَ باللهِ**». مرتين أو ثلاثًا[١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأعراف: ١٥٢]، وقال الخليل عليه السلام: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الصافات: ٨٦، ٨٧].

فمِن كذبهم أن أحدهم يقول عن شيخه: إن المريد إذا كان بالمغرب وشيخه بالمشرق، وانكشف غطاؤه، رده عليه! وإن الشيخ إن لم يكن كذلك لم يكن شيخًا، وقد تغويهم الشياطين، كما تغوي عباد الأصنام، كما كان يجري في العرب في أصنامهم، ولعباد الكواكب وطلاسمها من الشرك والسحر، كما يجري للتتار، والهند والسودان وغيرهم من أصناف المشركين، من إغواء الشياطين ومخاطبتهم ونحو ذلك.

فكثير من هؤلاء، قد يجري له نوع من ذلك، لا سيما عند سماع المكاء والتصدية، فإن الشياطين قد تنزل عليهم، وقد يصيب أحدهم كما يصيب المصروع: من الإرغاء والإزباد والصياح المنكر، ويكلمه بما لا يعقل هو

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٣٢١)، وأبو داود (٣٥٩٩)، والترمذي (٢٣٠٠)، من حديث خُرَيم بن فَاتِك رضي الله عنه.

والحاضرون، وأمثال ذلك مما يمكن وقوعه في هؤلاء الضالين.

وأما القسم الثالث: وهو أن يقول: اللهم بجاه فلان عندك، أو ببركة فلان، أو بحرمة فلان عندك - افعل بي كذا وكذا. فهذا يفعله كثير من الناس، لكن لم ينقل عن أحد من الصحابة والتابعين وسلف الأمة أنهم كانوا يدعون بمثل هذا الدعاء، ولم يبلغني عن أحد من العلماء في ذلك ما أحكيه، إلا ما رأيت في فتاوى الفقيه أبى محمد بن عبد السلام، فإنه أفتى أنه لا يجوز لأحد أن يفعل ذلك إلا للنبي ﷺ إن صح الحديث في النبي ﷺ ومعنى الاستفتاء قد روى النسائي والترمذي وغيرهما أن النبي ﷺ علَّم بعض أصحابه أن يدعو فيقول: «**اللهم إني أسألك، وأتوسل إليك بنبيك، نبي الرحمة، يا محمد، يا رسول الله، إني أتوسل بك إلى ربي في حاجتي ليقضيها لي، اللهم فشفعه فيَّ**»[(١)]. فإن هذا الحديث قد استدل به طائفة على جواز التوسل

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ١٣٨)، والترمذي (٣٥٧٨)، من عثمان بن حنيف رضي الله عنه: أنَّ رجلًا ضرير البصر أتى النبيّ ﷺ، فقال: ادع الله أن يعافيني. قال: «إن شئت دعوت، وإن شئت صبرت فهو خير لك». قال: فادعه. قال: فأمره أن يتوضأ، فيحسن وضوءه، ويدعو بهذا الدعاء. وذكره. قال الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٢٢): «فإن الأحاديث الواردة في التوسل به ﷺ تنقسم إلى قسمين: صحيح وضعيف، أما الصحيح فلا دليل فيه البتة على المدَّعى، مثل توسلهم به ﷺ في الاستسقاء، وتوسل الأعمى به ﷺ، فإنه توسل بدعائه ﷺ لا بجاهه ولا بذاته ﷺ، ولما كان التوسل بدعائه ﷺ بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى غير ممكن، كان بالتالي التوسل به ﷺ بعد وفاته غير ممكن وغير جائز. ومما يدلك على هذا أن الصحابة رضي الله عنهم لما استسقوا في زمن عمر توسلوا بعمه ﷺ العباس، ولم يتوسلوا به ﷺ؛ وما ذلك إلا لأنهم يعلمون معنى التوسل المشروع وهو ما ذكرناه من التوسل بدعائه ﷺ، ولذلك توسلوا بعده ﷺ بدعاء عمه؛ لأنه ممكن ومشروع ، وكذلك لم ينقل أن أحدًا من العميان توسل بدعاء ذلك الأعمى؛ ذلك لأن السر ليس في قول الأعمى: «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك نبي الرحمة». وإنما السر الأكبر في دعائه ﷺ له، كما يقتضيه وعده ﷺ إياه بالدعاء له، ويشعر به قوله في دعائه: «اللهم فشفعه فيَّ»؛ أي: اقبل شفاعته ﷺ؛ أي: دعاءه فيَّ. =

بالنبي ﷺ في حياته وبعد مماته، قالوا: وليس في التوسل دعاء المخلوقين، ولا استغاثة بالمخلوق، وإنما هو دعاء واستغاثه بالله، لكن فيه سؤال بجاهه، كما في «**سنن ابن ماجه**» عن النبي ﷺ أنه ذكر في دعاء الخارج للصلاة أن يقول: «**اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك، وبحق ممشاي هذا، فإني لم أخرج أشرًا، ولا بطرًا، ولا رياءً، ولا سمعة، خرجت اتقاء سخطك، وابتغاء مرضاتك، أسألك أن تنقذني من النار، وأن تغفر لي ذنوبي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**»[1].

قالوا: ففي هذا الحديث أنه سأل بحق السائلين عليه، وبحق ممشاه إلى الصلاة، واللَّه تعالى قد جعل على نفسه حقًّا، قال اللَّه تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، ونحو قوله: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ [الفرقان: ١٦].

وفى «**الصحيحين**» عن معاذ بن جبل ﷺ أن النبي ﷺ قال له: «**يا معاذ، أتدرى ما حق اللَّه على العباد؟**». قال: اللَّه ورسوله أعلم. قال: «**حق اللَّه على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا. أتدري ما حق العباد على اللَّه إذا فعلوا ذلك؟ فإن حقهم عليه أن لا يعذبهم**»[2]، وقد جاء في غير حديث: «**كان حقًّا على اللَّه كذا وكذا**»، كقوله: «**مَن شَرِبَ الخمرَ لم تُقبلْ له صلاة**

= و«شفعني فيه»؛ أي: اقبل شفاعتي؛ أي: دعائي في قبول دعائه ﷺ فيَّ. فموضوع الحديث كله يدور حول الدعاء، كما يتضح للقارئ الكريم بهذا الشرح الموجز، فلا علاقة للحديث بالتوسل المبتدع، ولهذه أنكره الإمام أبو حنيفة فقال: «أكره أن يُسأل اللهُ إلا بالله». كما في «الدر المختار»، وغيره من كتب الحنفية.

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٢١)، وابن ماجه (٧٧٨)، من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ. وضعفه الألباني في «الضعيفة» (٢٤).

(٢) تقدم تخريجه.

أربعين يومًا، فإن تاب؛ تاب اللَّه عليه، فإن عاد فشربها في الثالثة، أو الرابعة كان حقًّا على اللَّه أن يسقيه من طينة الخبال»، قيل: وما طينة الخبال؟ قال: **«عِصَارَةُ أهلِ النارِ»**(١).

وقالت طائفة: ليس في هذا جواز التوسل به بعد مماته وفى مغيبه، بل إنما فيه التوسل في حياته بحضوره، كما في **«صحيح البخاري»** أن عمر بن الخطاب ﷺ استسقى بالعباس فقال: **«اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا»**. فيسقون. وقد بين عمر بن الخطاب ﷺ أنهم كانوا يتوسلون به في حياته فيسقون(٢).

وذلك التوسل به: أنهم كانوا يسألونه أن يدعو اللَّه لهم، فيدعو لهم، ويدعون معه، ويتوسلون بشفاعته ودعائه، كما في الصحيح عن أنس بن مالك ﷺ : أن رجلاً دخل المسجد يوم الجمعة من باب كان بجوار دار القضاء، ورسول اللَّه ﷺ قائم يخطب فاستقبل رسول اللَّه ﷺ قائمًا، فقال: يا رسول الله، هلكت الأموال، وانقطعت السبل! فادع اللَّه يغثنا قال فرفع رسول اللَّه ﷺ يديه ثم قال: **«اللهم أغثنا اللهم أغثنا اللهم أغثنا»**، قال أنس: ولا والله، ما نرى في السماء من سحاب ولا قزعة وما بيننا وبين سلع من بيت ولا دار قال فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس فلما توسطت السماء انتشرت ثم أمطرت، قال: فلا واللَّه ما رأينا الشمس سبتًا، قال: ثم دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة المقبلة، ورسول اللَّه ﷺ قائم يخطب فاستقبله قائمًا، فقال: يا رسول الله، هلكت الأموال وانقطعت السبل فادع

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ١٧٦)، والنسائي في «المجتبى» (٨/ ٣١٧)، وفي «الكبرى» (٣/ ٢٣٠)، وابنُ ماجه (٣٣٧٧)، من حديث ابن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) تقدم تخريجه.

اللَّه لنا أن يمسكها عنا. قال: فرفع رسول اللَّه ﷺ يديه ثم قال: «**اللهمَّ حوَالينا ولا علينا، اللهمَّ على الآكامِ والظِرَاب**[١]، **وبطونِ الأوديةِ ومنابتِ الشجرِ**». قال: وأقلعت فخرجنا نمشي في الشمس[٢].

ففي هذا الحديث أنه قال: «**ادع اللَّه لنا أن يمسكها عنا**».

وفي الصحيح: أن عبد اللَّه بن عمر رضي اللَّه عنهما قال: «**إني لأذكر قول أبي طالب في رسول اللَّه** ﷺ حيث يقول:

وأبيضُ يُستسقَى الغَمامُ بوجهِهِ ثِمَال اليتامى عصْمَةٌ للأرامل»[٣]

فهذا كان توسلهم به في الاستسقاء ونحوه، ولما مات توسلوا بالعباس رضي الله عنه، كما كانوا يتوسلون به ويستسقون، وما كانوا يستسقون به بعد موته، ولا في مغيبه، ولا عند قبره، ولا عند قبر غيره، وكذلك معاوية بن أبى سفيان رضي الله عنه استسقى بيزيد بن الأسود الجُرَشيّ، وقال: «**اللهم إنا نستشفع إليك بخيارنا، يا يزيد، ارفع يديك إلى الله**». فرفع يديه ودعا، ودعوا فسقوا[٤].

فلذلك قال العلماء: يستحب أن يستسقى بأهل الصلاح والخير، فإذا كانوا من أهل بيت رسول اللَّه ﷺ كان أحسن. ولم يذكر أحد من العلماء أنه يشرع التوسل، والاستسقاء بالنبي ﷺ والصالح بعد موته ولا في مغيبه، ولا

---

(١) الظراب: بكَسْرِ الْمُعْجَمَة وَآخِره مُوَحَّدَة جَمْع ظَرِب بِكَسْرِ الرَّاء وَقَدْ تُسْكَن. وَقَالَ الْقَزَّاز: هُوَ الْجَبَل الْمُنْبَسِط لَيْسَ بِالْعَالِي، وَقَالَ الْجَوْهَرِيّ: الرَّابِيَة الصَّغِيرَة. «فتح الباري».

(٢) أخرجه البخاري (٩٣٢، ١٠١٣- ١٠١٧، ١٠١٩)، وانظر أطرافه، ومسلم (٨-١٢/ ٨٩٧)، من حديث أنس رضي الله عنه .

(٣) أخرجه البخاري (١٠٠٨، ١٠٠٩).

(٤) أخرجه ابنُ سعد في «الطبقات» (٧/ ٤٤٤)، وأبو زرعة الدمشقي في «تاريخه» (ص٣٠٦)، واللالكائي في «كرامات الأولياء» (ص١٩٠)، وابنُ عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٨/ ٢٢١).

استحبوا ذلك في الاستسقاء، ولا في الاستنصار، ولا غير ذلك من الأدعية، والدعاء مخ العبادة.

والعبادة مبناها على السنة والاتباع، لا على الأهواء والابتداع، وإنما يعبد اللَّه بما شرع، لا يعبد بالأهواء والبدع، قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [الشورى: ٢١].

وقال تعالى: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف: ٥٥]، وقال النبي ﷺ: «**إنه سيكون في هذه الأمةِ قومٌ يعتدون في الدعاءِ والطُّهورِ**»(١).

وأما الرجل إذا أصابته نائبة، أو خاف شيئًا فاستغاث بشيخه يطلب تثبيت قلبه من ذلك الواقع فهذا من الشرك، وهو من جنس دين النصارى، فإن اللَّه هو الذي يصيب بالرحمة ويكشف الضر، قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦۚ﴾ [يونس: ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ [فاطر: ٢].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الأنعام: ٤٠، ٤١].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٨٦، ٨٧)، و(٥/ ٥٥)، وأبو داود (٩٦)، عن عبد الله بن مغفل، أنه سمع ابنه يقول: اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها! فقال: أي بني، سل الله الجنة وتعوذ به من النار، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول. فذكره.

وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ۝٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ۝٥٧﴾ [الإسراء: ٥٧ - ٥٨]، فبين أن من يدعى من الملائكة، والأنبياء وغيرهم، لا يملكون كشف الضر عنهم، ولا تحويلاً.

فإذا قال قائل: أنا أدعو الشيخ ليكون شفيعًا لي.

فهو من جنس دعاء النصارى لمريم والأحبار والرهبان، والمؤمن يرجو ربه ويخافه، ويدعوه مخلصًا له الدين، وحق شيخه أن يدعو له ويترحم عليه، فإن أعظم الخلق قدرًا هو رسول اللَّه ﷺ، وأصحابه أعلم الناس بأمره وقدره، وأطوع الناس له، ولم يكن يأمر أحدًا منهم عند الفزع والخوف أن يقول: يا سيدي يا رسول الله. ولم يكونوا يفعلون ذلك في حياته ولا بعد مماته، بل كان يأمرهم بذكر الله، ودعائه، والصلاة والسلام عليه ﷺ، قال اللَّه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ۝١٧٣ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ۝١٧٤﴾ [آل عمران: ١٧٤ - ١٧٥]، وفي «**صحيح البخاري**» عن ابن عباس رضي اللَّه عنهما: «**إن هذه الكلمة قالها إبراهيم** عليه السلام حين أُلقي في النار، وقالها محمد ﷺ، يعني وأصحابه، حين قال لهم الناسُ: إن الناس قد جمعوا لكم»[(١)].

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه كان يقول عند الكرب: «**لا إله إلا اللهُ العظيمُ الحليمُ، لا إله إلا اللهُ ربُّ العرشِ الكريمِ، لا إله إلا اللَّه ربُّ**

(١) أخرجه البخاري (٤٥٦٣، ٤٥٦٤).

السموات والأرضِ، وربُّ العرشِ العظيمِ»[١].

وقد روي أنه علم نحو هذا الدعاء بعض أهل بيته.

وفي السنن أن النبي ﷺ كان إذا حزبه أمر قال: «**يا حيُّ يا قيومُ، برحمتك أستغيث**»[٢].

وروي أنه علم ابنته فاطمة أن تقول: «**يا حي يا قيوم، يا بديع السموات والأرض، لا إله إلا أنت، برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين، ولا إلى أحد من خلقك**»[٣].

وفي «مسند الإمام أحمد»، و«صحيح أبي حاتم البستي» عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما أصاب عبدًا قطُّ همٌّ ولا حَزَنٌ، فقال: اللهمَّ إني عبدُك وابنُ عبدُك، وابنُ أمتِك، ناصيتي بيدِك، ماضٍ فيَّ حُكمُك، عدلٌ فيَّ قضاؤك، أسألُك بكلِّ اسمٍ هو لك، سميتَ به نفسَك، أو أنزلتَه في كتابِك، أو علمتَه أحدًا مِن خلقِك، أو استأثرتَ به في علمِ الغيبِ عندَك، أن تجعلَ القرآنَ العظيمَ ربيعَ قلبي، ونورَ صدري، وجِلاء حُزْني، وذَهاب همِّي وغمِّي. إلا أذهبَ اللهُ همَّه وغمَّه، وأبدله مكانه فرحًا**». قالوا: يا رسول الله، أفلا نتعلمهن، قال: «**ينبغي لمن سمعهنَّ أن يتعلمهنَّ**»[٤].

وقال لأمته: «**إن الشمسَ والقمرَ، آيتان مِن آياتَ اللهِ، لا ينكسفان لموتِ**

(١) أخرجه البخاري (٦٣٤٥، ٦٣٤٦، ٧٤٢٦، ٧٤٣١)، ومسلم (٢٧٣٠/ ٨٣)، من ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٢٤) من حديث أنس رضي الله عنه، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣١٨٢).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

أحدٍ ولا لحياتِه، ولكنَّ اللهَ يخوِّف بهما عبادَه، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى الصلاةِ، وذكرِ اللهِ، والاستغفارِ»(١).

فأمرهم عند الكسوف بالصلاة، والدعاء، والذكر، والعتق، والصدقة، ولم يأمرهم أن يدعوا مخلوقًا، ولا ملَكًا، ولا نبيًّا، ولا غيرهم.

ومثل هذا كثير في سنته، لم يشرع للمسلمين عند الخوف إلا ما أمر اللَّه به من دعاء الله، وذكره، والاستغفار، والصلاة، والصدقة، ونحو ذلك، فكيف يعدل المؤمن باللَّه ورسوله عما شرع اللَّه ورسوله إلى بدعةٍ ما أنزل اللَّه بها من سلطان، تضاهي دين المشركين والنصارى؟!

فإن زعم أحد أن حاجته قضيت بمثل ذلك، وأنه مثل له شيخه، ونحو ذلك، فعباد الكواكب والأصنام ونحوهم من أهل الشرك، يجري لهم مثل هذا، كما قد تواتر ذلك عمن مضى من المشركين، وعن المشركين في هذا الزمان، فلولا ذلك ما عبدت الأصنام ونحوها، قال الخليل عليه السلام: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾ [إبراهيم: ٣٦].

ويقال: إن أول ما ظهر الشرك في أرض مكة بعد إبراهيم الخليل من جهة عمرو بن لُحَيٍّ الخزاعي الذي رآه النبي ﷺ يَجُرُّ أمعاءه في النار(٢)، وهو أول من سَيَّب السوائب، وغيَّر دين إبراهيم.

قالوا: إنه ورد الشام، فوجد فيها أصنامًا بالبلقاء، يزعمون أنهم ينتفعون بها في جلب منافعهم، ودفع مضارهم، فنقلها إلى مكة، وسنَّ للعرب الشرك، وعبادة الأصنام، والأمور التي حرمها اللَّه ورسوله: من الشرك،

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٤١، ١٠٥٧، ٣٢٠٤)، ومسلم (٢١-٢٣/ ٩١١)، من حديث أبي مسعود الأنصاري البدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٣٥٢١، ٤٦٢٣)، ومسلم (٥١/ ٢٨٥٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والسحر، والقتل، والزنا، وشهادة الزور، وشرب الخمر، وغير ذلك من المحرمات قد يكون للنفس فيها حظ مما تعده منفعة، أو دفع مضرة، ولولا ذلك ما أقدمت النفوس على المحرمات التي لا خير فيها بحال، وإنما يوقع النفوس في المحرمات الجهل أو الحاجة.

فأما العالم بقبح الشيء والنهي عنه فكيف يفعله؟! والذين يفعلون هذه الأمور جميعها قد يكون عندهم جهل بما فيه من الفساد، وقد تكون بهم حاجة إليها، مثل الشهوة إليها، وقد يكون فيها من الضرر أعظم مما فيها من اللذة، ولا يعلمون ذلك؛ لجهلهم، أو تغْلبهم أهواؤهم حتى يفعلوها، والهوى غالبًا يجعل صاحبه كأنه لا يعلم من الحق شيئًا، فإن حبك للشيء يعمي ويصم، ولهذا كان العالم يخشى الله.

وقال أبو العالية: سألت أصحاب محمد ﷺ عن قول الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾﴾ [النساء: ١٧]؟ فقالوا: «**كل من عصى اللَّه فهو جاهل، وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب**»[(١)].

وليس هذا موضع البسط لبيان ما في المنهيات من المفاسد الغالبة، وما في المأمورات من المصالح الغالبة، بل يكفي المؤمن أن يعلم أن ما أمر اللَّه به فهو لمصلحة محضة أو غالبة، وما نهى اللَّه عنه فهو مفسدة محضة أو غالبة، وإن اللَّه لا يأمر العباد بما أمرهم به لحاجته إليهم، ولا نهاهم عما نهاهم بخلافه عليهم، بل أمرهم بما فيه صلاحهم، ونهاهم عما فيه فسادهم، ولهذا وصف نبيه ﷺ بأنه ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ

---

(١) أخرج ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٤/ ٢٩٨).

لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وأما التمسح بالقبر، أيّ قبر كان، وتقبيله وتمريغ الخد عليه، فمنهي عنه باتفاق المسلمين، ولو كان ذلك من قبور الأنبياء، ولم يفعل هذا أحد من سلف الأمة وأئمتها، بل هذا من الشرك.

قال اللّه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ﴿٢٣﴾ وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ﴾ [نوح: ٢٣، ٢٤]، وقد تقدم أن هؤلاء أسماء قوم صالحين، كانوا من قوم نوح، وأنهم عكفوا على قبورهم مدة، ثم طال عليهم الأمد، فصوروا تماثيلهم، لا سيما إذا اقترن بذلك دعاء الميت والاستغاثة به، وقد تقدم ذكر ذلك، وبيان ما فيه من الشرك، وبينا الفرق بين الزيارة البدعية التي تشبَّه أهلُها بالنصارى، والزيارة الشرعية.

وأما وضع الرأس عند الكبراء من الشيوخ وغيرهم، أو تقبيل الأرض ونحو ذلك، فإنه مما لا نزاع فيه بين الأئمة في النهي عنه، بل مجرد الانحناء بالظهر لغير اللّه ﷻ منهي عنه، ففي «**المسند**» وغيره: أن معاذ بن جبل رضي الله عنه لما رجع من الشام، سجد للنبي ﷺ فقال: «**ما هذا يا معاذ؟!**». فقال: يا رسول الله، رأيتهم في الشام يسجدون لأساقفتهم وبطارقتهم، ويذكرون ذلك عن أنبيائهم، فقال: «**كذبوا يا معاذ، لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها؛ مِن عِظم حقِّه عليها، يا معاذ، أرأيت إن مررتَ بقبري أكنتَ ساجدًا؟**». قال: لا، قال: «**لا تفعل هذا**». أو كما قال رسول اللّه ﷺ[1].

بل قد ثبت في الصحيح من حديث جابر رضي الله عنه أنه ﷺ صلى بأصحابه قاعدًا

---

(١) تقدم تخريجه.

من مرض كان به، فصلوا قيامًا، فأمرهم بالجلوس، وقال: «**لا تُعظِّموني كما تعظمُ الأعاجمُ بعضُها بعضًا**»[(١)]. وقال: «**مَن سَرَّه أن يتمثل له الناسُ قيامًا فليتبوأْ مقعدَه مِن النارِ**»[(٢)].

فإذا كان قد نهاهم مع قعوده - وإن كانوا قاموا في الصلاة - حتى لا يتشبهوا بمن يقومون لعظمائهم، وبين أن من سره القيام له كان من أهل النار، فكيف بما فيه من السجود له، ومن وضع الرأس وتقبيل الأيادي، وقد كان عمر بن عبد العزيز ﷺ، وهو خليفة اللَّه على الأرض قد وكل أعوانًا يمنعون الداخل من تقبيل الأرض، ويؤدبهم إذا قبل أحد الأرض.

وبالجملة؛ فالقيام والقعود، والركوع والسجود: حق للواحد المعبود، خالق السموات والأرض، وما كان حقًّا خالصًا لله لم يكن لغيره فيه نصيب، مثل الحلف بغير اللَّه ﷻ، وقد قال رسول اللَّه ﷺ: «**مَن كان حالفًا فليحلِفْ باللهِ أو لِيصمُتْ**». متفق عليه[(٣)]. وقال أيضًا: «**مَن حلَف بغيرِ اللهِ فقد أشرك**»[(٤)].

فالعبادة كلها لله وحده لا شريك له، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البيِّنة: ٥].

وفى الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن اللَّه يرضى لكم ثلاثًا: أن تعبدوه**

(١) تقدم تخريجه ص٣٤١

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٩١، ٩٣، ١٠٠)، وأبو داود (٥٢٢٩)، والترمذي (٢٧٥٥)، من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه البخاري (٦٦٤٦- ٦٦٤٨)، ومسلم (١-٤/ ١٦٤٦)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٦٩، ٨٦)، وأبو داود (٣٢٥١)، والترمذي (١٥٣٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

ولا تشركوا به شيئا، وإن تعتصموا بحبل اللَّه جميعا، ولا تفرقوا، وإن تناصحوا من ولاه اللَّه أمركم»(١).

- **الإخلاص في الدين أصل العبادة:**

وإخلاص الدين لله هو أصل العبادة، **وتأمل** قول النبي ﷺ لأبي هريرة، وقد سأله من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله؟ قال: «**أسعدُ الناسِ بشفاعتي مَن قال: لا إله إلا اللهُ خالصًا مِن قلبِه**»(٢) - كيف جعل أعظم الأسباب التي تنال بها شفاعته تجريد التوحيد، عكس ما عند المشركين أن الشفاعة تنال باتخاذهم أولياءهم شفعاء، وعبادتهم وموالاتهم من دون الله، فقلب النبي ﷺ ما في زعمهم الكاذب، وأخبر أن سبب الشفاعة هو: تجريد التوحيد، فحينئذ يأذن اللَّه للشافع أن يشفع.

ومِن جهْلِ المشرك اعتقادُه أن مَن اتخذه وليًّا أو شفيعًا أنه يشفع له وينفعه عند الله، كما يكون خواص الملوك والولاة تنفع شفاعتهم مَن والاهم، ولم يعلموا أن اللَّه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، ولا يأذن في الشفاعة إلا لمن رضي قوله وعمله، كما قال تعالى في الفصل الأول: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وفي الفصل الثاني: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٣٢٧، ٣٦٠، ٣٦٧)، والبخاريُّ في كتابه «المفرد في الأدب» (٤٤٢)، ومسلمٌ (١٧١٥/ ١٠)، ومالكٌ في «الموطأ» (٢/ ٩٩٠)، وابنُ حبان (٣٣٨٨)، والبيهقيُّ (٨/ ١٦٣)، وفي «الشعب» (٧٣٩٩، ٧٤٩٣)، من طريق سُهَيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة به.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٣٧٣)، والبخاريُّ (٩٩، ٦٥٧٠)، والنسائيُّ في «الكبرى» (٣/ ٤٢٦)، وابنُ خزيمة في «التوحيد» (ص٢٩١-٢٩٢)، والآجري في «الشريعة» (١/ ص٣٠٥)، وابنُ منده في «الإيمان» (٩٠٤، ٩٠٥، ٩٠٦)، من طرق عن عَمرو بن أبي عَمرو، عن المقبري، عن أبي هريرة به. وزادوا في السؤال والجواب: «يوم القيامة».

﴿لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وبقي فصل ثالث، وهو أنه لا يرضى من القول والعمل إلا التوحيد، واتباع الرسول، وعن هاتين الكلمتين يسأل الأولين والآخرين، كما قال أبو العالية: «**كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون: ماذا كنتم تعبدون، وماذا أجبتم المرسلين**».

فهذه ثلاثة أصول تقطع شجرة الشرك من قلب مَن وعاها وعقلها: لا شفاعة إلا بإذنه، ولا يأذن إلا لمن رضي قوله وعمله، ولا يرضى من القول والعمل إلا توحيده واتباع رسوله، فاللَّه تعالى لا يغفر شرك العادلين به غيره، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، وأصح القولين أنهم يعدلون به غيره في العبادة والموالاة والمحبة، كما في الآية الأخرى: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨]، وكما في آية البقرة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وترى المشرك يكذب حالُه وعملُه قولَه، فإنه يقول: لا نحبهم كحب الله، ولا نسويهم بالله. ثم يغضب لهم ولحرماتهم إذا انتهكت أعظم مما يغضب لله، ويستبشر بذكرهم ويتبشبش به، سيما إذا ذكر عنهم ما ليس فيهم: من إغاثة اللهفات، وكشف الكربات، وقضاء الحاجات، وأنهم الباب بين اللَّه وبين عباده.

فإنك ترى المشرك يفرح ويسر، ويحن قلبه، وتهيج منه لواعج التعظيم والخضوع لهم والموالاة! وإذا ذكرت له اللَّه وحده، وجردت توحيده، لحقته وحشة، وضيق، وحرج، ورماك بنقص الإلهية التي له، وربما عاداك،

رأينا والله منهم هذا عِيانًا، ورمونا بعداوتهم، وبغوا لنا الغوائل، والله مخزيهم في الدنيا والآخرة، ولم تكن حجتهم إلا أن قالوا كما قال إخوانهم: عاب آلهتنا. فقال هؤلاء: تنقصتم مشايخنا، وأبواب حوائجنا إلى الله. وهكذا قال النصارى للنبي ﷺ لما قال لهم بأن المسيح عبد الله، قالوا: تنقصت المسيح وعبته. وهكذا قال أشباه المشركين لمن منع اتخاذ القبور أوثانًا تعبد، ومساجد تقصد، وأمر بزيارتها على الوجه الذي أذن الله فيه ورسوله، قالوا: تنقصت أصحابها.

فانظر إلى هذا التشابه بين قلوبهم، حتى كأنهم قد تواصوا به! ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

وقد قطع الله تعالى كل الأسباب التي تعلق بها المشركون جميعًا؛ قطعًا يعلم مَن تأمله وعرفه أن من اتخذ من دون الله وليًا أو شفيعًا فهو ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١]، فقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].

فالمشرك إنما يتخذ معبوده، لما يعتقد أنه يحصل له به من النفع، والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع:

- إما مالك لما يريده عابده منه.
- فإن لم يكن مالكًا كان شريكًا للمالك.
- فإن لم يكن شريكًا له كان معينًا له وظهيرًا.

- فإن لم يكن مُعِينًا ولا ظهيرًا كان شفيعًا عنده.

فنفى سبحانه المراتب الأربع نفيًا مترتبًا متنقلاً من الأعلى إلى ما دونه، فنفى الملك، والشركة، والمظاهرة، والشفاعة التي يظنها المشرك، وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك، وهي الشفاعة بإذنه، فكفى بهذه الآية نورًا، وبرهانًا، ونجاة، وتجريدًا للتوحيد، وقطعًا لأصول الشرك وموادِّه لمن عقلها، والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها، ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته وتضمنه له، ويظنونه في نوع وفي قوم قد خلوا من قبل ولم يعقبوا وارثًا، وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن، ولعمر اللَّه إن كان أولئك قد خلوا فقد ورثهم من هو مثلهم، أو شر منهم، أو دونهم، وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك، ولكن الأمر كما قال عمر بن الخطاب ﵁: «**إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة، إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية**».

وهذا لأنه إذا لم يعرف الجاهلية والشرك وما عابه القرآن وذمه - وقع فيه وأقره، ودعا إليه وصوبه وحسنه، وهو لا يعرف أنه هو الذي كان عليه أهل الجاهلية أو نظيره، أو شر منه أو دونه، فينقض بذلك عرى الإسلام عن قلبه، ويعود المعروف منكرًا، والمنكر معروفًا، والبدعة سنة، والسنة بدعة، ويكفَّر الرجل بمحض الإيمان وتجريد التوحيد، ويبدَّع بتجريد متابعة الرسول ومفارقة الأهواء والبدع، ومن له بصيرة وقلب حيٌّ يرى ذلك عِيانًا، واللَّه المستعان[1].

***

(١) «زيارة القبور» (١/ ١٧-٥٨)، و«مجموع الفتاوى» (٢٧/ ٧٢-٩٤)، و«مدارج السالكين» (١/ ٣٤٠-٣٤٤).

احتجاج النصارى على شركهم بضلال بعض المسلمين

قال تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأعراف: ١٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [البقرة: ١١٨]، وقال تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات: ٥٣].

ولما كان الشيخ - شيخ الإسلام - في: (قاعة الترسيم)، دخل إلى عنده ثلاثة رهبان من الصعيد، فناظرهم وأقام عليهم الحجة بأنهم كفار، وما هم على الذي كان عليه إبراهيم والمسيح عليهما السلام.

فقالوا له: نحن نعمل مثل ما تعملون، أنتم تقولون: بالسيدة نفيسة، ونحن نقول: بالسيدة مريم، وقد أجمعنا نحن وأنتم على أن المسيح ومريم أفضل من الحسين ومن نفيسة، وأنتم تستغيثون بالصالحين الذين قبلكم، ونحن كذلك.

فقال لهم: وأي من فعل ذلك ففيه شبه منكم، وهذا ما هو دين إبراهيم الذي كان عليه، فإن الدين الذي كان عليه إبراهيم عليه السلام: أن لا نعبد إلا اللَّه وحده لا شريك له، ولا نِدَّ له، ولا صاحبة له، ولا ولد له، ولا نشرك معه مَلَكًا، ولا شمسًا، ولا قمرًا، ولا كوكبًا، ولا نشرك معه نبيًّا من الأنبياء، ولا

صالحًا، ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣﴾ [مريم: ٩٣].

وأن الأمور التي لا يقدر عليها غير اللّه لا تطلب من غيره، مثل: إنزال المطر، وإنبات النبات، وتفريج الكربات، والهدى من الضلالات، وغفران الذنوب، فإنه لا يقدر أحد من جميع الخلق على ذلك، ولا يقدر عليه إلا الله.

والأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - نؤمن بهم، ونعظمهم، ونوقرهم، ونتبعهم، ونصدقهم في جميع ما جاءوا به، ونطيعهم، كما قال نوح وصالح وهود وشعيب: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣﴾ [نوح: ٣]، فجعلوا العبادة والتقوى لله وحده، والطاعة لهم، فإن طاعتهم من طاعة الله، فلو كفر أحد بنبي من الأنبياء وآمن بالجميع، ما ينفعه إيمانه حتى يؤمن بذلك النبي، وكذلك لو آمن بجميع الكتب وكفر بكتاب، كان كافرًا حتى يؤمن بذلك الكتاب، وكذلك الملائكة، واليوم الآخر.

فلما سمعوا ذلك منه قالوا: الدين الذي ذكرته خير من الدين الذي نحن وهؤلاء عليه. ثم انصرفوا من عنده[(١)].

* * *

(١) «مجموع الفتاوى» (١/ ٣٧٠).

مثل كلمة التوحيد وعاقبة أهلها

قال تَعالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥]، فَشبه سبحانه وتعالى الكلمة الطيبة، بالشجرة الطيبة؛ لأن الكلمة الطيبة تثمر العمل الصالح، والشجرة الطيبة، تثمر الثمر النافع، وهذا ظاهرٌ على قول جمهور المفسرين الذين يقولون: الكلمة الطيبة هي: شهادة أن لا إله إلا الله. فإنها تثمر جميع الأعمال الصالحة، الظاهرة والباطنة، فكل عمل صالح مرضي لله ثمرة هذه الكلمةِ.

وفي تَفسيرِ عليٍّ بن أبي طلحةَ عن ابن عباسٍ قال: «﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ شهادة أن لا إله إلا اللَّه ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ وهو المؤمن ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ قول: لا إله إلا اللَّه في قلب المؤمن، ﴿وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ يقول: يُرفَعُ بها عملُ المؤمن إلى السماء»[1]. وقال الربيع بن أنس: «﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ هذا مثل الإيمان، فالإيمان: الشجرة الطيبة. وأَصلها الثابت الذي لا يزول: الإخلاص فيه. وفرعه في السماء: خشية اللَّه»[2].

والتشبيه على هذا القول أصح وأظهر وأحسن، فإنه سبحانه شبه شجرة التوحيد في القلب بالشجرة الطيبة، الثابتة الأصل، الباسقة الفرع في السماء علوًّا، التي لا تزال تؤتي ثمرتها كل حين، وإذا تأملت هذا التشبيه رأيته

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٢٠٣).

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٢٠٣، ٢٠٤).

مطابقًا لشجرة التوحيد الثابتة الراسخة في القلب، التي فروعها من الأعمال الصالحة، صاعدة إلى السماء، ولا تزال هذه الشجرة تثمر الأعمال الصالحة كل وقت بحسب ثباتها في القلب، ومحبة القلب لها، وإخلاصه فيها، ومعرفته بحقيقتها، وقيامه بحقوقها، ومراعاتها حق رعايتها.

- **التوحيد عقيدة وعمل:**

فمن رسخت هذه الكلمة في قلبه بحقيقتها التي هي حقيقتها، واتصف قلبه بها، وانصبغ بها بصبغة اللَّه التي لا أحسن صبغة منها، فعرف حقيقة الإلهية التي يثبتها قلبه لله، ويشهد بها لسانه، وتصدقها جوارحه، ونفى تلك الحقيقة ولوازمها عن كل ما سوى الله، وواطأ قلبه لسانه في هذا النفي والإثبات، وانقادت جوارحه لمن شهد له بالوحدانية، طائعة سالكة سبل ربه ذللاً، غير ناكبة عنها، ولا باغيةٍ سواها بدلاً، كما لا يبتغي القلب سوى معبوده الحق بدلاً، فلا ريب أن هذه الكلمة من هذا القلبِ على هذا اللسان، لا تزال تؤتي ثَمرتها من العمل الصالح، الصاعد إلَى اللَّه كل وقت، فهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل الصالح إلى الرب تعالى، وهذه الكلمة الطيبة تثمر كلمًا كثيرًا طيبًا، يقارنه عمل صالح، فيرفع العمل الصالح إلى الكلم الطيب، كما قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

فأخبر سبحانه أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب، وأخبر أن الكلمة الطيبة تثمر لقائلها عملاً صالحا كل وقت.

والمقصود أن كلمة التوحيد إذا شهد بها المؤمن عارفًا بمعناها وحقيقتها؛ نفيًا وإثباتًا، متصفًا بموجبها، قائمًا قلبه ولسانه وجوارحه بشهادته، فهذه

الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل من هذا الشاهد، أصلها ثابت راسخ في قلبه، وفروعها متصلة بالسماء، وهي مخرجة لثمرتها كل وقت.

ومن السلفِ من قال: «إن الشجرة الطيبة هي النخلة»(١). ويدل عليه حديث ابن عمر الصحيح(٢).

ومنهم من قال: «**هي المؤمن نفسه**». كما قال محمد بن سعد: حدثني أبي، حدثني عمي، حدثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس رضي اللّه عنهما: قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾. «يعني بالشجرة الطيبة: المؤمن. ويعني بالأصل الثابت في الأرض والفرع في السماء: يكون المؤمن يعمل في الأرض ويتكلم فيبلغ عمله وقوله السماء وهو في الأرض»(٣).

وقال عطية العَوْفِيُّ في قَوْلِهِ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾. قال: «**ذلك مثل المؤمن لا يزال يخرج منه كلام طيب وعمل صالح يصعد إلى الله**»(٤).

وقال الربيع بن أنس: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ قال: «ذلك المؤمن ضرب مثله في الإخلاص لله وحده، وعبادته وحده لا شريك له. ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ قال: أصل عمله ثابت في الأرض. ﴿وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾، قال: ذكره في السماء»(٥).

---

(١) منهم أنس بن مالك، وابن عباس رضي الله عنهم، ومسروق، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك، وقتادة، وابن زيد. ويراجع الروايات عنهم في «تفسير الطبري» (١٣/ ٢٠٤-٢٠٦).

(٢) أخرجه البخاري (٧٢، ٢٢٠٩، ٥٤٤٤، ٥٤٤٨)، ومسلم (٦٣، ٦٤/ ٢٨١١).

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٢٠٤).

(٤) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٢٠٤).

(٥) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٢٠٤).

ولا اختلاف بين القولين، والمقصود بالمثل المؤمن والنخلة مشبهة به وهو مشبه بها، وإذا كانت النخلة شجرة طيبة، فالمؤمن المشبه بها أولى أن يكون كذلك، ومن قال من السلف أنها شجرة في الجنة، فالنخلة من أشرف أشجار الجنة.

- **حكمة تشبيه المؤمن بالشجرة:**

وفي هذا المثل من الأسرار والعلومِ والمعارف ما يليق به ويقتضيه علم الذي تكلم به وحكمته:

فمن ذلك: أن الشجرة لا بد لها من عروقٍ وساق وفروع وورق وثمر، فكذلك شجرة الإيمان والإسلام ليطابق المشبَّهُ المشبَّهَ به، فعروقها: العلم والمعرفة واليقين. وساقها: الإخلاص. وفروعها: الأعمال. وثمرتها: ما توجبه الأعمال الصالحة من الآثار الحميدة، والصفات الممدوحة، والأخلاق الزكية، والسمت الصالح، والهدي والدَّلِّ المرضي، فيستدل على غرس هذه الشجرة في القلب وثبوتها فيه بهذه الأمور، فإذا كان العلم صحيحًا مطابقًا لمعلومه الذي أنزل اللَّه كتابه به، والاعتقاد مطابقًا لما أخبر به عن نفسه وأخبرت به عنه رسله، والإخلاص قائمًا في القلب، والأعمال موافقة للأمر، والهدي والدَّلُّ والسمت مشابهًا لهذه الأصول، مناسبًا لها - عُلم أن شجرة الإيمان في القلب أصلها ثابت وفرعها في السماء، وإذا كان الأمر بالعكس، عُلم أن القائم بالقلب إنما هو الشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرضِ ما لها من قرار.

ومنها: أن الشجرة لا تبقى حية إلا بمادة تسقيها وتنميها، فإذا قطع عنها السقي أوشك أن تيبس، فهكذا شجرة الإسلام في القلب إن لم يتعاهدها

صاحبها بسقيها كل وقت، بالعلم النافع، والعمل الصالح، والعود بالتذكر على التفكر، والتفكر على التذكر، وإلا أوشك أن تيبس، وفي «**مسند الإمام أحمد**» من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ : «**إنَّ الإيمانَ يَخْلَقُ في القلبِ كما يَخْلَقُ الثوبُ، فجَدِّدوا إيمانكم**»(١). وبالجملة، فالغَرس إن لم يتعاهده صاحبه أوشك أَن يهلك، ومن هنا تعلم شدة حاجة العباد إلى ما أمر اللَّه به من العبادات على تعاقب الأوقات، وعظيم رحمته، وتمام نعمته، وإحسانه إلى عباده، بأن وظفها عليها، وجعلها مادة لسقيِ غراسِ التوحيد الذي غرسه في قلوبهم.

ومنها: أن الغرس والزرع النافع، قد أجرى اللَّه سبحانه العادة أنه لا بد أن يخالطه دَغَل ونبت غريب ليس من جنسه، فإن تعاهده ربُّه ونقَّاه وقلعه، كمل الغرس والزرع واستوى، وتم نباته، وكان أوفر لثمرته وأطيب وأزكى، وإن تركه أوشك أن يغلب على الغرس والزرع، ويكون الحكم له، أو يضعف الأصل، ويجعل الثمرة ذميمة ناقصة، بحسب كثرته، وقلته ومن لم يكن له فقه نفس في هذا ومعرفة به فإنه يفوته ربح كبير، وهو لا يشعر.

فالمؤمن دائمًا سعيه في شيئين: سقي هذه الشجرة، وتنقية ما حولها، فبسقيها تبقى وتدوم، وبتنقية ما حولها تكمل وتتم، واللَّه المستعان وعليه التكلان.

---

(١) لم أجده في «المسند المطبوع»، والظاهر أنه ليس فيه، فلم يعزه الحافظ في الإتحاف (٩/ ٥٦٧) له، إنما عزاه للحاكم في «المستدرك» (١/ ٤٥)، من حديث أبي عبد الرحمن الحُبُلي، عن عبد الله بن عَمرو بن العاص، مرفوعًا بلفظ: «إنَّ الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب الخلق، فاسألوا الله أن يجدد الإيمان في قلوبكم». وحسن إسناده الهيثميُّ في «المجمع» (١/ ٢١٢)، ونسبه للطبراني في «الكبير». والله أعلم.

فهذا بعض ما تضمنه هذا المثل العظيم الجليل من الأسرار والحكم، ولعلها قَطرة من بحر، بحسَب أذهاننا الواقفة، وقلوبنا المخطئة، وعلومنا القاصرة، وأعمالنا التي توجب التوبة والاستغفار، وإلا فلو طهرت منا القلوب وصفت الأذهان، وزكت النفوس، وخلصت الأعمال، وتجردت الهمم للتلقي عن اللَّه ورسوله - لشاهدنا من معاني كلام اللَّه وأسراره وحكمه ما تضمحِل عنده العلوم، وتتلاشى عنده معارف الخلق، وبهذا تعرف قدر علوم الصحابة، ومعارفهم، وأن التفاوت الذي بين علومهم وعلوم من بعدهم كالتفاوت الذي بينهم في الفضل، واللَّه أعلم حيث يجعل مواقع فضله، ومن يختص برحمته.

ثم ذكر سبحانه مثَل الكلمة الخبيثة فشبهها بالشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، فلا عرق ثابت، ولا فرع عال، ولا ثمرة زاكية، فلا ظل، ولا جنًى، ولا ساق قائم، ولا عرق في الأرض ثابت، فلا أسفلها مغدق، ولا أعلاها مونق، ولا جنى لها، ولا تعلو، بل تُعلى.

وإذا تأمل اللبيب أكثر كلام هذا الخلق في خطابهم، وكسبهم وجده كذلك، فالخسران الوقوف معه والاشتغال به عن أفضل الكلام وأنفعه.

قال الضحاك: «ضرب اللَّه مثلًا للكافر بـ «شجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار»، يقول: ليس لها أصل ولا فرع، وليس لها ثمرة، ولا فيها منفعة، كذلك الكافر لا يعمل خيرًا، ولا يقوله ولا يجعل اللَّه فيه بركة ولا منفعة»[1].

وقال ابن عبَّاسٍ - رضي اللَّه عنهما -: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ وهي:

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٢١٣).

الشرك، ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾؛ يعني: الكافر، ﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ يقول: الشرك ليس له أصل يأخذ به الكافر ولا برهان، ولا يقبل اللَّه مع الشرك عملًا»[1].

فلا يُقبل عمل المشرك ولا يصعد إلى الله، فليس له أصل ثابت في الأرض، ولا فرع في السماء، يقول: ليس له عمل صالح في السماء ولا في الأرض.

وقال الربيع بن أنس: «مثل الشجرة الخبيثة مثل الكافر، ليس لقوله ولا لعمله أصل ولا فرع، ولا يستقر قوله ولا عمله على الأرض، ولا يصعد إلى السماء»[2].

وقال سعيد عن قتادة في هذه الآية: «إن رجلًا لقي رجلًا من أهل العلم، فقال له: ما تقول في الكلمة الخبيثة، قال: ما أعلم لها في الأرض مستقرًّا، ولا في السماء مصعدًا، إلا أَن تلزم عنق صاحبها حتى يوافي بها القيامة»[3].

وقوله: ﴿ٱجْتُثَّتْ﴾؛ أي: استؤصلت من فوق الأَرض.

ثم أخبر سبحانه عن فضله وعدله في الفريقين أصحاب الكلم الطيب والكلم الخبيث، فأخبر أنه يثبِّت الذين آمنوا بإيمانهم بالقول الثابت أحوج ما يكونون إليه في الدنيا والآخرة، وأنه يضل الظالمين، وهم المشركون، عن القول الثابت، فأضل هؤلاء بعدله لظلمهم، وثبَّت المؤمنين بفضله لإيمانهم.

وتحت قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ كنز عظيم، مَن وُفِّق لمظنته، وأَحسن استخراجه واقتناءه،

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٢١٣).
(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٢١٣).
(٣) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٢١٢).

وأَنفق منه - فقد غنم، ومن حرمه فقد حرم، وذلك أن العبد لا يستغني عن تثبيت اللَّه له طرفة عين، فإن لم يثبته وإلا زالت سماء إيمانه وأَرضه عن مكانهما، وقد قال تعالى لأكرم خلقه عليه عبده ورسوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ [الإسراء: ٧٤].

وقال تعالى لأكرم خلقه: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنفال: ١٢]، وفي «**الصحيحين**» من حديث البجلي، قال: «**وهو يسألهم ويثبِّتهم**»(١).

وقال تَعَالَى لِرَسُولِهِ: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].

فالخلق كلهم قسمان: موفَّق بالتثبيت، ومخذول بترك التثبيت، ومادة التثبيت أصله ومنشؤه من القول الثابت وفعل ما أمر به العبد، فبهما يثبِّت اللَّه عبده، فكل من كان أثبت قولاً وأحسن فعلاً كان أعظم تثبيتًا، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: ٦٦] فأثبت الناس قلبًا أثبتهم قولاً، **والقول الثابت**: هو القول الحق والصدق، وهو ضد القول الباطل الكذب.

فالقول نوعان: ثابت له حقيقة، وباطل لا حقيقة له.

وأثبت القول: كلمة التوحيد ولوازمها، فهي أعظم ما يثبِّت اللَّه بها عبده

(١) أخرجه البخاري (٥٥٤، ٥٧٣، ٤٨٥١، ٧٤٣٤، ٧٤٣٥، ٧٤٣٦)، ومسلم (٦٣٣/ ٢١١، ٢١٢). وهو حديث رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة، وقد أخرجه الإمام أحمد (٣/ ١٦) وغيره من أصحاب السنن، وليس فيه عند جميع من أخرجه لفظة: «يسألهم ويثبِّتُهم».
لكن هذه اللفظة وردت من حديث عبد العزيز بن محمد الدَّرَاوردِيّ، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا، أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٣٦٨)، والترمذي (٢٥٥٧)، وغيرهما من طرق عن الدراوردي.

في الدنيا والآخرة، ولهذا ترى الصَّادق من أثبت الناس وأشجعهم قلبًا، والكاذب من أمهن الناس وأخبثهم، وأكثرهم تلونًا، وأقلهم ثباتًا، وأهل الفراسة يعرفون صدق الصادق من ثبات قلبه وقت الاختبار وشجاعته ومهابتِهِ، ويعرفون كذب الكاذب بضد ذلك، ولا يخفى ذلك إلا على ضعيف البصيرة.

وسئل بعضهم عن كلام سمعه من متكلم به، فقال: واللَّه ما فهمت منه شيئًا، إلا أني رأيت لكلامه صولة ليست بصولة مبطل.

فما منح العبد منحة أفضل من منحة القول الثابت، ويجد أهل القول الثابت ثمرته أحوج ما يكونون إليه في قبورهم، ويوم معادهم، كما في «**صحيح مسلم**»[1] من حديث البراء بن عازبٍ عن النبي ﷺ: «**أنَّ هذه الآية نزلت في عذاب القبر**»[2].

- **سؤال القبرِ:**

وقد جاء هذا مبينًا في أحاديث صحاح فمنها، ما في «**المسند**» من حديث داود بن أبي هند عن أبي نَضْرَةَ عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ في جنازة، فقال: «**أيها الناسُ، إنَّ هذه الأمةَ تُبتلى في قبورِها، فإذا الإنسانُ دُفن وتفرَّق عنه أصحابُه جاءه ملَكٌ بيدِه مِطْراق فأقعده، قال: ما تقول في هذا الرجلِ؟ فإن كان مؤمنًا قال: أشهدُ أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبدُه ورسولُه. فيقول له: صدقتَ. فيُفتح له بابٌ إلى النارِ، فيقال: هذا منزلُك لو كفرتَ بربِّك، فأما إذ آمنتَ فإنَّ اللهَ أبدلك به هذا. ثم يُفتح له بابٌ إلى**

(١) أخرجه مسلم (٧٣ / ٢٨٧١).
(٢) يعني: قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾.

الجنةِ، فيريد أن ينهض إليه، فيقول: له اسكن. ويُفسح له في قبرِه، وإن كان كافرًا أو منافقًا، فيقول له: ما تقول في هذا الرجلِ؟ فيقول: لا أدري. فيقول: لا دريتَ ولا تليتَ ولا اهتديتَ. ثم يُفتح له بابٌ إلى الجنةِ، فيقال: هذا منزلُك لو آمنتَ بربِّك، فأما إذ كفرتَ فإنَّ اللهَ ﷻ أبدلك به هذا. ويُفتح له بابٌ إلى النارِ، ثم يقمعه قمعةً بالمِطْراق، يَسمعها خلقُ اللهِ كلُّهم غيرُ الثَّقَلين». قال بعض أصحابه: يا رسول الله، ما منَّا أحد يقوم على رأسه ملك بيده مطراق إلا هُبِل[1] عند ذلك. فقال رسول اللَّه ﷺ: «﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾»[2].

وفي «**المسند**» نحوه من حديث البراء بن عازب[3]، وروى المنهال بن عمرٍو عن زاذان عن البراء ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ، وذَكر قَبْضَ رُوحِ المؤمنِ، فقال: «**يَأْتِيهِ آتٍ - يَعْنِي: في قَبْرِهِ - فيقول: مَن رَبُّك؟ وما دِينُك؟ ومَن نبيُّك؟ فيقول: ربِّيَ اللَّهُ، ودينيَ الإسلامُ، ونبيِّي محمدٌ** ﷺ. قال: فَيَنْتَهِرُهُ فيقول: ما رَبُّك؟ وما دِينُك؟ وهي آخرُ فتنةٍ تَعْرِضُ على المؤمنِ، فذلك حيثُ يقول اللَّهُ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾، فيقول: رَبِّي اللَّهُ، وَدِينِي الإِسْلَامُ، وَنَبِيِّي محمدٌ. فَيُقَالُ له: صَدَقْت». وَهَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ[4].

وقال حماد بن سلمة عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة

---

(١) هبل فلان هبلا فقد عقله وتمييزه. «الوسيط» (هبل).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٣).

(٣) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٢٨٢، ٢٩١).

(٤) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٢١٥).

ﷺ قال: قال رسول اللَّهِ ﷺ: «﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ قال: ذاك إِذَا قِيلَ له في القبرِ: مَن ربُّك؟ وما دينُك؟ ومن نبيك؟ فيقول: رَبِّيَ اللَّهُ، ودينيَ الإسلامُ، ونبيِّي محمدٌ جاءنا بالبيِّناتِ مِن عندِ اللَّهِ، فآمَنْتُ به وصَدَّقْتُ. فيقال له: صَدَقْت، على هذا عِشْتَ، وعليه مِتَّ، وَعَلَيْهِ تُبْعَثُ»[(١)].

وقال الأعمش عن المنهال بن عمرو وعن زاذان عن البراء بن عازب ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ، وذكر قَبض روح المؤمن، قال: **«فتَرْجِعُ رُوحُهُ في جَسَدِهِ، ويُبْعَثُ إليهِ ملَكانِ شَدِيدَا الانتِهَارِ، فيُجْلِسَانِهِ ويَنْتَهِرَانِهِ وَيقُولَانِ: من رَبُّك؟ فيقول: اللَّهُ. وما دِينُك؟ فيقول: الإسلامُ. فَيَقُولَانِ له: ما هذا الرَّجُلُ - أو النبي - الذي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فيقول: محمدٌ رسول اللَّهِ. فَيَقُولَانِ له: وما يُدْرِيَك؟ قال: فيقول: قَرَأْت كِتَابَ اللَّهِ، فَآمَنْت بِهِ وَصَدَّقْت. فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾»**[(٢)].

ورواه ابن حبان في «صحيحه» والإمام أحمد[(٣)]، وفي «صحيحه» أيضًا

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٢١٥).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٣٤٧)، وابن حبان (٣١١٣)، من حديث محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة به.
وأخرجه الإمام أحمد (٣/ ١٢٦، ٢٣٣)، والبخاري (١٣٣٨، ١٣٧٤)، ومسلم (٧٠- ٧٢/ ٢٨٧٠)، وأبو داود (٣٢٣١، ٤٧٥٢)، وابن حبان (٣١٢٠)، من طرق عن أنس نحوه.

(٣) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٢٨٧، ٢٨٨)، وأبو داود (٤٧٥٣)، من طريقين عن الأعمش به.
وقال أبو حاتم ابنُ حبان في «صحيحة» عقب حديث (ج ٧ / ص٣٨٦ / رقم ٣١١٧): خبر الأعمش، عن المنهال بن عَمرو، عن زاذان، عن البراء، سمعه الأعمش، عن الحسن بن عمارة، عن المنهال بن عمرو، وزاذان لم يسمعه من البراء. فلذلك لم أخرجه.

من حديث أبي هريرة ﷺ يرفعه، قال: «إنَّ الميت ليَسمعُ خَفْقَ نِعَالِهِمْ حين يُوَلُّونَ عنه مُدْبِرِينَ، فإذا كان مُؤمنًا كانت الصلاةُ عِندَ رَأسِهِ، وَالزكاةُ عن يمينِه، وكان الصيامُ عن يسارِه، وكان فعلُ الخيراتِ، مِن الصدقَةِ، وَالصلةِ، وَالْمَعْرُوفِ، وَالْإِحْسَانِ إلَى الناس، عِندَ رِجلَيهِ، فَيؤتى مِن عندِ رَأسِهِ، فتقولُ الصلاةُ: ما قِبلي مَدخلٌ. فيؤتى عن يمينِهِ، فتقول الزكاةُ: ما قِبلي مدخلٌ. فيؤتى عن يسارِه، فيقول الصيام: ما قِبلي مدخلٌ. فَيؤتى مِن عند رِجليه، فيقول فعلُ الخيراتِ، من الصدقَةِ، وَالصلةِ، والمعروفِ وَالإحسانِ إلَى الناس: ما قِبلي مدخلٌ. فَيقال له: اجلس. فَيجلس قد مثلَت له الشمس قد دنت لِلغروبِ، فيقال: فيقول له: أَخبرنا عما نَسألُك عنه. فيقول: دَعُونِي حتى أصلي. فيقال: إنَّك ستفعل، فأَخبِرنا عما نسألُك، فيقول: وعمَّ تَسألونِي؟ فيقال له: أرأيت هذا الرَّجل الذي كان فِيكُم، مَاذَا تقولُ فيه، وَمَاذَا تَشهدُ بِهِ عليه؟ فيقول: أَمحمد ﷺ ؟ فيقال: نعم. فيقول: أشهدُ أنَّه رسولُ اللَّهِ، وأنَّه جاء بالبَيِّناتِ من عند اللَّه فصدقناه، فيقال له: على ذلك حيِيتَ، وعلى ذلك متَّ، وعلى ذلك تُبعث إن شاء اللهُ. ثُم يُفسح له في قَبرِه سبعونَ ذراعًا، ويُنوَّر له فيه، ثُمَّ يُفْتَحُ له بابٌ إلى الجنَّةِ، فَيقال له: انظر إلى ما أَعدَّ اللهُ لك فيها، فيزدادُ غِبطَةً وسرورًا، ثم تُجعل نسمتُه في النسمِ الطيبِ، وهي طيرٌ خُضرٌ، تعلق بِشجرِ الجنةِ، ويعاد الجسدُ إلى ما بدأَ منه، مِن الترابِ، وذلك قَوْلُ اللَّهِ تعَالَى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾»[1].

وقد ذكر مالك في «الموطأ» عن عبيد اللَّه بن كريز أَنَّ رسول اللَّه ﷺ

---

(١) «إعلام الموقعين» (١/ ١٧١-١٨٠).

قال: «**أفضلُ الدعاءِ دعاءُ يومِ عرفةَ، وأفضلُ ما قلتُ أنا والنبيون مِن قبلي: لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك لَه**»[١].

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**من قال: لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة، كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزًا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأتِ أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه**»[٢].

وعن جابر ﷺ يقول: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**أفضل الذكر: لا إله إلا اللَّه وأفضل الدعاء: الحمد للّه**»[٣].

* * *

(١) أخرجه مالك في «الموطأ» (١/ ٢١٤) وأخرجه البيهقي في «سننه الكبرى» (٤/ ٢٨٤) وحسنه الألباني في صحيح وضعيف الجامع.
(٢) أخرجه البخاري (٣/ ١١٨٩)، مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٧١).
(٣) أخرجه الترمذي (٢/ ١٢٤٩)، وذكره ابن حبان في «صحيحه» (٣/ ١٢٦)، وحسنه الألباني في «صحيح وضعيف الجامع الكبير».

مثل قلوب العباد

وقال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ [الرعد: ١٧].

شبه الوحي الذي أنزله لحياة القلوب والأسماع والأبصار بالماء الذي أنزله لحياة الأرض بالنبات، وشبه القلوب بالأودية، فقلبٌ كبير يسع علمًا عظيمًا كوادٍ كبير يسع ماءً كثيرًا، وقلبٌ صغيرٌ إنَّما يسع بحسبه كالوادي الصَّغير، فسالت أَودية بِقَدَرها، واحتملت قلوب من الهدى والعلم والعمل بِقَدرها، وكما أنَّ السَّيل إذَا خالط الأَرض ومر عليها احتمل غثاء وزبدًا، فكذلك الهدى والعلم إذا خالط القلوب أثار ما فيها من الشهوات والشبهات ليقلعها ويذهبها، كما يثير الدَّواء وقت شربه من البدن أخلاطه فيتكدر بها شاربه، وهي من تمام نفع الدَّواء، فإنه أثارها ليذهب بها، فإنه لا يجامعها ولا يشاركها، وهكذا يضرِبُ اللَّه الحقَّ والباطل.

ثُمَّ ذكر المثَل الناري، فقال: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ وهو الخبث الذي يخرج عند سبك الذهب والفضة والنحاس والحديد، فتخرجه النار وتميزه وتفصله عن الجوهر الذي ينتفع به، فيُرمى ويطرح ويذهب جفاءً.

فكذلك الشَّهوات والشُّبهات يرميها قلب المؤمن ويطرحها ويجفوها، كما يطرح السَّيل والنَّار ذلك الزَّبد والغثاء والخبث، ويستقر في قَرار الوادي

الماء الصافي الذي يستقي منه الناس ويزرعون ويسقون أَنعامهم، كذلك يستقر في قرار القلب وجذره الإيمان الخالص الصَّافي الذي ينفع صاحبه وينتفع بِهِ غيره، ومن لم يفقه هذين المثلين ولم يتدبرهما ويعرف ما يراد منهما فليس من أهلهما، واَلله الموفق[١].

* * *

(١) «إعلام الموقعين» (١/ ١٥١، ١٥٢).



التوحيد ليس مجرد الإقرار باللسان

قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ [آل عمران: ١٦٧].

وقال تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧].

وليس التوحيد مجرد إقرار العبد بأنه لا خالق إلا الله، وأن اللَّه رب كل شيء ومليكه، كما كان عباد الأصنام مقرين بذلك وهم مشركون، بل التوحيد يتضمن من محبة اللَّه والخضوع له والذل، وكمال الانقياد لطاعته، وإخلاص العبادة له، وإرادة وجهه الأعلى، بجميع الأقوال والأعمال، والمنع والعطاء، والحب والبغض، ما يحول بين صاحبه وبين الأسباب الداعية إلى المعاصي والإصرار عليها، ومن عرف هذا، عرف قول النبي ﷺ: «**إنَّ اللهَ حرَّم على النارِ مَن قال: لا إله إلا الله. يبتغي بذلك وجهَ اللهِ**»[(١)]. وقوله: «**لا يدخلُ النارَ مَن قال: لا إله إلا الله**»، وما جاء من هذا الضرب من الأحاديث التي أشكلت على كثير من الناس، حتى ظنها بعضهم

(١) جزء من حديث عتبان بن مالك ﷺ: أخرجه البخاري (٤٢٤، ٤٢٥، ٦٦٧)، وانظر أطرافه، ومسلم (٣٣/ ٢٦٣-٢٦٥).

منسوخة، وظنها بعضهم قيلت قبل ورود الأوامر والنواهي واستقرار الشرع، وحملها بعضهم على نار المشركين والكفار، وأوَّل بعضهم الدخول بالخلود، وقال المعنى: لا يدخلها خالدًا. ونحو ذلك من التأويلات المستكرهة.

والشارع صلوات اللَّه وسلامه عليه لم يجعل ذلك حاصلاً بمجرد قول اللسان فقط، فإن هذا خلاف المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام، فإن المنافقين يقولونها بألسنتهم وهم تحت الجاحدين لها، في الدرك الأسفل من النار، فلا بد من قول القلب وقول اللسان، وقول القلب يتضمن من معرفتها والتصديق بها، ومعرفة حقيقة ما تضمنته من النفي والإثبات، ومعرفة حقيقة الإلهية المنفية عن غير الله، المختصة به، التي يستحيل ثبوتها لغيره، وقيام هذا المعنى بالقلب علمًا ومعرفة ويقينًا وحالاً، ما يوجب تحريم قائلها على النار، وكل قول رتب الشارع ما رتب عليه من الثواب، فإنما هو القول التام، كقوله: «**مَن قال في يوم: سبحان اللهِ وبحمدِه مائةَ مرةٍ. حُطَّتْ عنه خطاياه - أو غفرت ذنوبُه - ولو كانت مثلَ زَبَدِ البحرِ**»[1]. وليس هذا مرتبًا على مجرد قول اللسان، نعم، من قالها بلسانه، غافلاً عن معناها، معرضًا عن تدبرها، ولم يواطئ قلبُه لسانه، ولا عرف قدرها وحقيقتها، راجيًا مع ذلك ثوابها، حطت من خطاياه بحسب ما في قلبه، فإن الأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها، وإنما تتفاضل بتفاضل ما في القلوب، فتكون صورة العملين واحدة، وبينهما في التفاضل كما بين السماء والأرض، والرجلان يكون مقامهما في الصف واحدًا، وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٤٢)، ومسلم (١٨/ ٢٦٩١)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

وتأمل حديث البطاقة التي توضع في كفة، ويقابلها تسعة وتسعون سِجِلًّا، كلُّ سِجِلٍّ منها مدَّ البصر، فتثقل البطاقة، وتطيش السجلات، فلا يعذب[1]، ومعلوم أن كل موحد له مثل هذه البطاقة، وكثير منهم يدخل النار بذنوبه، ولكن السر الذي ثَقَّل بطاقة ذلك الرجل، وطاشت لأجله السجلات، لما لم يحصل لغيره من أرباب البطاقات، انفردت بطاقته بالثقل والرزانة، وإذا أردت زيادة الإيضاح لهذا المعنى فانظر إلى ذكر مَن قلبه ملآن بمحبتك، وذكر من هو معرض عنك، غافل ساه، مشغول بغيرك، قد انجذبت دواعي قلبه إلى محبة غيرك وإيثاره عليك، هل يكون ذكرهما واحدًا؟ أم هل يكون ولداك اللذان هما بهذه المثابة، أو عبداك، أو زوجتاك عندك سواء؟

وتأمل ما قام بقلب قاتل المائة من حقائق الإيمان التي لم تشغله عند السياق عن السير إلى القرية، وحملته وهو في تلك الحال على أن جعل ينوء بصدره، ويعالج سكرات الموت، فهذا أمر آخر وإيمان آخر، ولا جرم أنْ أُلحِق بالقرية الصالحة، وجُعل من أهلها.

---

(١) حديث البطاقة: أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٢١٣)، والترمذي (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠)، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، يقول: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله سيُخَلِّص رجلًا مِن أمتي على رءوسِ الخلائقِ يومَ القيامةِ، فينشرُ عليه تسعةً وتسعين سِجِلًّا، كلُّ سِجِلٍ مثل مدِّ البصرِ، ثم يقول: أتنكرُ من هذا شيئًا؟ أظلمَك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب. فيقول: أفلك عذر؟ فيقول: لا يا رب. فيقول: بلى، إنَّ لك عندنا حسنةً. فإنه لا ظلم عليك اليوم. فتخرج بطاقةٌ فيها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه. فيقول: احضر وزنك. فيقول: يا رب، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟! فقال: إنك لا تظلم. قال: فتوضع السجلاتُ في كِفَّةٍ، والبطاقةُ في كفةٍ، فطاشت السجلاتُ، وثقلت البطاقةُ، فلا يَثقلُ مع اسمِ اللهِ شيءٌ». قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب». .

وقريب من هذا ما قام بقلب البغيِّ التي رأت ذلك الكلب - وقد اشتد به العطش - يأكل الثرى، فقام بقلبها ذلك الوقت مع عدم الآلة، وعدم المعين، وعدم من ترائيه بعملها، ما حملها على أن غررت بنفسها في نزول البئر وملء الماء في خفها، ولم تعبأ بتعرضها للتلف، وحملها خفها بفيها، وهو ملآن حتى أمكنها الرقي من البئر، ثم تواضعها لهذا المخلوق الذي جرت عادة الناس بضربه، فأمسكت له الخف بيدها حتى شرب، من غير أن ترجو منه جزاءً ولا شكورًا، فأحرقت أنوار هذا القدر من التوحيد ما تقدم منها من البغاء فغفر لها.

فهكذا الأعمال والعمال عند الله، والغافل في غفلة من هذا الإكسير الكيماوي الذي إذا وضع منه مثقال ذرة على قناطير من نحاس الأعمال قلَبها ذهبًا. واللَّه المستعان[1].

* * *

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٣٠-٣٣٢).

تحقيق التوحيد وثمراته

قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾ [البقرة: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الجاثية: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: ١٥]، وقال تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾ [الأحزاب: ٨].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾ [النساء: ١٧٣]، وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [البقرة: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزمر: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء: ١٢٥]، وقال

تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأعراف: ٢٩].

- **تحقيق التوحيد:**

«وذلك بحيث لا يكون العبد ملتفتًا إلى غير الله، ولا ناظرًا إلى ما سواه، لا حبًّا له، ولا خوفًا منه، ولا رجاءً له، بل يكون القلب فارغًا من المخلوقات، خاليًا منها، لا ينظر إليها إلا بنور الله، فبالحق يسمع، وبالحق يبصر، وبالحق يبطش، وبالحق يمشي، فيحب منها ما يحبه الله، ويبغض منها ما يبغضه الله، ويوالي منها ما والاه الله، ويعادي منها ما عاداه الله، ويخاف اللَّه فيها، ولا يخافها في الله، ويرجو اللَّه فيها، ولا يرجوها في الله، فهذا هو القلب السليم الحنيف الموحد المسلم المؤمن العارف المحقق الموحد بمعرفة الأنبياء والمرسلين، وبحقيقتهم وتوحيدهم»[(١)].

«وذلك تحقيق شهادة أن لا اله إلا الله، فإنه ينفي عن قلبه ألوهية ما سوى الحق، ويثبت في قلبه ألوهية الحق، فيكون نافيًا لألوهية كل شيء من المخلوقات، مثبتًا لألوهية رب العالمين، رب الأرض والسموات، وذلك يتضمن اجتماع القلب على الله، وعلى مفارقة ما سواه، فيكون مفرقًا في علمه، وقصده في شهادته، وإرادته في معرفته، ومحبته بين الخالق والمخلوق، بحيث يكون عالمًا باللَّه تعالى، ذاكرًا له، عارفًا به، وهو مع ذلك عالم بمباينته لخلقه، وانفراده عنهم، وتوحده دونهم، ويكون محبًّا لله، معظمًا له، عابدًا له، راجيًا له، خائفًا منه، مواليًا فيه، معاديًا فيه، مستعينًا به، متوكلًا عليه، ممتنعًا عن عبادة غيره، والتوكل عليه، والاستعانة

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٢٢، ٢٢٣).

به، والخوف منه، والرجاء له، والموالاة فيه، والمعاداة فيه، والطاعة لأمره، وأمثال ذلك مما هو من خصائص إلهية اللَّه سبحانه وتعالى .

وإقراره بألوهية اللَّه تعالى دون ما سواه يتضمن إقراره بربوبيته، وهو أنه رب كل شيء ومليكه وخالقه ومدبره، فحينئذ يكون موحدًا لله»[1].

«**وكلما حقق العبد الإخلاص في قول: لا اله إلا الله. خرج من قلبه تأله ما يهواه، وتصرف عنه المعاصي والذنوب، كما قال تعالى:** ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، فعلل صرف السوء والفحشاء عنه بأنه من عباد اللَّه المخلصين، وهؤلاء هم الذين قال فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، وقال الشيطان: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢]، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ : أنه قال: «**من قال: لا اله إلا الله. مخلصًا من قلبه؛ حرمه اللَّه على النار**».

فإن الإخلاص ينفي أسباب دخول النار، فمن دخل النار من القائلين لا إله إلا الله، لم يحقق إخلاصها المحرم له على النار، بل كان في قلبه نوع من الشرك الذي أوقعه فيما أدخله النار، والشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل، ولهذا كان العبد مأمورًا في كل صلاة أن يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]، والشيطان يأمر بالشرك، والنفس تطيعه في ذلك، فلا تزال النفس تلتفت إلى غير الله، إمَّا خوفًا منه، وإمَّا رجاء له، فلا يزال العبد مفتقرًا إلى تخليص توحيده من شوائب الشرك، وفي الحديث الذي رواه ابن أبي عاصم وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: «يقولُ

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٢٥).

الشيطانُ: أهلكتُ الناسَ بالذنوبِ، وأهلكونى بـ (لا اله إلا الله) والاستغفارِ، فلما رأيتُ ذلك بَثثتُ فيهم الأهواءَ، فهم يذنبون ولا يستغفرون؛ لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا»(١).

فصاحب الهوى الذي اتبع هواه بغير هدى من الله، له نصيب ممن اتخذ إلهه هواه، فصار فيه شرك منعه من الاستغفار، وأمَّا من حقق التوحيد والاستغفار فلا بد أن يرفع عنه الشر، فلهذا قال ذو النون ﷺ: ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، ولهذا يقرن الله بين التوحيد والاستغفار في غير موضع، كقوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ [محمد: ١٩]، وقوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٢، ٣]، وقوله: ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٦٥﴾ [الأعراف: ٦٥]، وقوله: ﴿وَيَـٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٥٢]، وقوله: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصِّلت: ٦].

والمقصود هنا: أن أهل الإيمان يجدون بسبب محبتهم لله ولرسوله من حلاوة الإيمان ما يناسب هذه المحبة، ولهذا علق النبي ﷺ ما يجدونه بالمحبة فقال: «**ثلاثٌ مَن كنَّ فيه وجد حلاوةَ الإيمانِ: أن يكون اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحبَّ المرءَ لا يحبُّه إلا للهِ، وأن يَكره أن يعودَ في الكفرِ كما يَكره أن يُقذف في النارِ**»(٢).

ومن ذلك ما يجدونه من ثمرة التوحيد والإخلاص والتوكل والدعاء لله وحده، فإن الناس في هذا الباب على ثلاث درجات:

---

(١) تقدم تخريجه، وهو حسن.

(٢) تقدم تخريجه، ص٣ .

منهم: من علم ذلك سماعًا واستدلالاً.

ومنهم: من شاهد وعاين ما يحصل لهم.

ومنهم: من وجد حقيقة الإخلاص، والتوكل على الله، والالتجاء إليه، والاستعانة به، وقطع التعلق بما سواه، وجرب من نفسه أنه إذا تعلق بالمخلوقين ورجاهم وطمع فيهم أن يجلبوا له منفعة، أو يدفعوا عنه مضرة - فإنه يخذل من جهتهم، ولا يحصل مقصوده، بل قد يبذل لهم من الخدمة والأموال وغير ذلك ما يرجو أن ينفعوه وقت حاجته إليهم فلا ينفعونه؛ إما لعجزهم وإما لانصراف قلوبهم عنه.

وإذا توجه إلى اللَّه بصدق الافتقار إليه، واستغاث به مخلصًا له الدين؛ أجاب دعاءه، وأزال ضرره، وفتح له أبواب الرحمة، فمثل هذا قد ذاق من حقيقة التوكل والدعاء لله ما لم يذق غيره.

وكذلك من ذاق طعم إخلاص الدين لله وإرادة وجهه دون ما سواه؛ يجد من الأحوال والنتائج والفوائد ما لا يجده من لم يكن كذلك، بل من اتبع هواه في مثل طلب الرئاسة والعلو وتعلقه بالصور الجميلة أو جمعه للمال؛ يجد في أثناء ذلك من الهموم والغموم والأحزان والآلام وضيق الصدر ما لا يعبر عنه، وربما لا يطاوعه قلبه على ترك الهوى، ولا يحصل له ما يسره، بل هو في خوف وحزن دائمًا؛ إن كان طالبًا لما يهواه، فهو قبل إدراكه حزين متألم؛ حيث لم يحصل له، فإذا أدركه كان خائفًا من زواله وفراقه»[1].

«وأولياء اللَّه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فإذا ذاق هذا أو غيره حلاوة الإخلاص لله، والعبادة له، وحلاوة ذكره ومناجاته، وفهم كتابه،

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٦٠- ٢٦٢).

وأسلم وجهه لله وهو محسن؛ بحيث يكون عمله صالحًا، ويكون لوجه اللَّه خالصًا، فإنه يجد من السرور واللذة والفرح ما هو أعظم مما يجده الداعي المتوكل الذي نال بدعائه وتوكله ما ينفعه من الدنيا، أو اندفع عنه ما يضره، فإن حلاوة ذلك هي بحسب ما حصل له من المنفعة أو اندفع عنه من المضرة، ولا أنفع للقلب من التوحيد وإخلاص الدين لله، ولا أضر عليه من الإشراك، فإذا وجد حقيقة الإخلاص التي هي حقيقة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] مع حقيقة التوكل التي هي حقيقة: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] كان هذا فوق ما يجده كل أحد لم يجد مثل هذا، واللَّه أعلم»(١).

- **العلاقة بين الرياء والعجب:**

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [التوبة: ٢٥ - ٢٧]، وكثيرًا ما يقرن الناس بين الرياء والعجب.

فالرياء: من باب الإشراك بالخلق، **والعجب**: من باب الإشراك بالنفس، وهذا حال المستكبر، فالمرائي لا يحقق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، والمعجب لا يحقق قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فمن حقق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ خرج عن الرياء، ومن حقق قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ خرج عن الإعجاب، وفي الحديث المعروف: «**ثلاثٌ مهلكاتٌ: شحٌّ مطاعٌ، وهوى متَّبعٌ، وإعجابُ المرءِ بنفسِه**»(٢).

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٦٥٢).

(٢) أخرجه العقيلي في «الضعفاء الكبير» (٣/ ٤٤٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٠٧)، والبيهقي في «الشعب» (٧٤٥)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١/ ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٧) من =

ارتباط توحيد الربوبية بالألوهية

«قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البقرة: ٢٠٠]».

«وقول المكروب: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ [القصص: ١٦].

قد يستحضر في ذلك أحد النوعين دون الآخر، فمن أتم اللَّه عليه النعمة استحضر التوحيد في النوعين؛ فإن المكروب همته منصرفة إلى دفع ضره وجلب نفعه، فقد يقول: لا إله إلا الله. مستشعرًا أنه لا يكشف الضر غيرك، ولا يأتي بالنعمة إلا أنت، فهذا مستحضر توحيد الربوبية ومستحضر توحيد السؤال والطلب والتوكل عليه، معرض عن توحيد الإلهية الذي يحبه اللَّه ويرضاه، ويأمر به، وهو ألا يعبد إلا إياه، ولا يعبده إلا بطاعته وطاعة رسوله، فمن استشعر هذا في قوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ [القصص: ١٦]؛ كان عابدًا متوكلًا عليه، وكان ممتثلًا قوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ﴾ [هود: ١٢٣]، وقوله: ﴿عَلَيْهِ

= طرق عن أيوب بن عتبة: ثنا الفضل بنُ بكر العبدي، عن قتادة، عن أنس ﷺ - مرفوعًا- به، وزاد «وثلاث منجيات: خشية الله في السر والعلانية، والقصد في الفقر والغنى، والعدل في الغضب والرضا». لفظ القضاعي. وحسنه الألباني في «الصحيحة» (١٨٠٢).

تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، وقوله: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل: ٨، ٩]»[١]

«**والقلب السليم**: هو الذي سلم من الشرك، والغل والحقد والحسد والشح والكبر وحب الدنيا والرياسة، فسلم من كل آفة تبعده من الله، وسلم من كل شبهة تعارض خبره، ومن كل شهوة تعارض أمره، وسلم من كل إرادة تزاحم مراده، وسلم من كل قاطع يقطعه عن الله، فهذا القلب السليم في جنة معجلة في الدنيا، وفي جنة في البرزخ، وفي جنة يوم المعاد، ولا يتم له سلامته مطلقًا حتى يسلم من خمسة أشياء: من شرك يناقض التوحيد، وبدعة تخالف السنة، وشهوة تخالف الأمر، وغفلة تناقض الذكر، وهوى يناقض التجريد، والإخلاص يعم، وهذه الخمسة حجب عن الله»[٢].

- **أنواع القلوب**:

«**والقلوب ثلاثة**: **القلب الأول**: قلب خال من الإيمان وجميع الخير، فذلك قلب مظلم قد استراح الشيطان من إلقاء الوساوس إليه؛ لأنه قد اتخذه بيتًا ووطنًا، وتحكم فيه بما يريد، وتمكن منه غاية التمكن.

القلب الثاني: قلب قد استنار بنور الإيمان وأوقد فيه مصباحه، لكن عليه ظلمة الشهوات، وعواصف الأهوية، فللشيطان هناك إقبال وإدبار، ومجالات ومطامع، فالحرب دُوَل وسجال، وتختلف أحوال هذا الصنف بالقلة والكثرة، فمنهم من أوقات غلبته لعدوه أكثر، ومنهم من أوقات غلبة عدوه له أكثر، ومنهم من هو تارة وتارة.

---

(١) «الفتاوى الكبرى» (٥/ ٢٤٥).

(٢) «الجواب الكافي» (١/ ٨٤).

القلب الثالث: قلب محشوٌّ بالإيمان قد استنار بنور الايمان، وانقشعت عنه حجب الشهوات، وأقلعت عنه تلك الظلمات، فلنوره في صدره إشراق، ولذلك الإشراق إيقاد، لو دنا منه الوسواس احترق به، فهو كالسماء التي حُرست بالنجوم، فلو دنا منها الشيطان يتخطاها رُجم فاحترق، وليست السماء بأعظم حرمة من المؤمن، وحراسة اللَّه تعالى له أتم من حراسة السماء، والسماء متعبد الملائكة ومستقر الوحي، وفيها أنوار الطاعات، وقلب المؤمن مستقر التوحيد والمحبة والمعرفة والإيمان وفيه أنوارها فهو حقيق أن يحرس ويحفظ من كيد العدو فلا ينال منه شيئًا إلا خطفه»[١].

- **الصبر على الإخلاص في الطاعة:**

ويحتاج العبد هاهنا إلى الصبر في ثلاثة أحوال:

أحدها: قبل الشروع فيها، بتصحيح النية والإخلاص، وتجنب دواعي الرياء والسمعة، وعقد العزم على توفية المأمورية حقها.

الحالة الثانية: الصبر حال العمل، فيلازم العبد الصبر عن دواعي التقصير فيه والتفريط، ويلازم الصبر على استصحاب ذكر النية، وعلى حضور القلب بين يدي المعبود، وألا ينساه في أمره، فليس الشأن في فعل المأمور، بل الشأن كل الشأن ألا ينسى الأمر حال الإتيان بأمره، بل يكون مستصحبًا لذكره في أمره، فهذه عبادة العبيد المخلصين لله، فهو يحتاج إلى الصبر على توفية العبادة حقها بالقيام بأدائها وأركانها وواجباتها وسننها، وإلى الصبر على استصحاب ذكر المعبود فيها، ولا يشتغل عنه بعبادته، فلا يعطله حضوره مع اللَّه بقلبه عن قيام جوارحه بعبوديته، ولا يعطله قيام الجوارح بالعبودية عن

(١) «الوابل الصيب» (١/ ٤٠).

حضور قلبه بين يديه سبحانه.

الحالة الثالثة: الصبر بعد الفراغ من العمل، وذلك من وجوه:

أحدها: أن يصبر نفسه عن الإتيان بما يبطل عمله؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، فليس الشأن الإتيان بالطاعة، إنما الشأن في حفظها مما يبطلها.

الثاني: أن يصبر عن رؤيتها والعجب بها، والتكبر والتعظم بها، فإن هذا أضر عليه من كثير من المعاصي الظاهرة.

الثالث: أن يصبر عن نقلها من ديوان السر إلى ديوان العلانية، فإن العبد يعمل العمل سرًّا بينه وبين اللّه سبحانه، فيكتب في ديوان السر، فإن تحدث به نقل إلى ديوان العلانية، فلا يظن أن بساط الصبر انطوى بالفراغ من العمل»[1].

أهمية الإخلاص:

فالإخلاص هو سبيل الخلاص[2]، والإسلام: هو مركب السلامة،

---

(١) «عدة الصابرين» (١/ ٥٢).

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٧٢)، ومما يحسن ذكره هنا للاعتبار ما ذكره شيخ الإسلام في «درء التعارض» (٦/ ٦٦) قوله: «وكذلك كل من أراد الله لأمر من الأمور، كما حُكي أن أبا حامد بلغه أن من أخلص لله أربعين يومًا تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه قال: فأخلصت أربعين يومًا فلم يتفجر شيء، فذكرت ذلك لبعض العارفين، فقال لي: إنك إنما أخلصت للحكمة لم تخلص لله! وذلك لأن الإنسان قد يكون مقصوده نيل العلم والحكمة، أو نيل المكاشفات والتأثيرات، أو نيل تعظيم الناس له ومدحهم إياه، أو غير ذلك من المطالب، وقد عرف أن ذلك يحصل بالإخلاص لله وإرادة وجهه، فإذا قصد أن يطلب ذلك بالإخلاص لله وإرادة وجهه كان متناقضًا؛ لأن من أراد شيئًا لغيره فالثاني هو المراد المقصود بذاته، والأول يراد لكونه وسيلة إليه، فإذا قصد أن يخلص لله ليصير عالمًا، أو عارفًا، أو ذا حكمة، أو متشرفًا بالنسبة إليه، أو صاحب مكاشفات وتصرفات، ونحو ذلك- فهو هنا لم يرد الله، بل جعل الله وسيلة له إلى ذلك المطلوب الأدنى، وإنما يريد الله ابتداء مَن ذاق حلاوة محبته وذكره».

والإيمان: خاتم الأمان، فمن عوَّد نفسه العمل لله لم يكن عليه أشق من العمل لغيره، ومن عود نفسه العمل لهواه وحظه لم يكن عليه أشق من الإخلاص والعمل لله، وهذا في جميع أبواب الأعمال [(١)].

«**الإخلاص** هو ما لا يعلمه ملك فيكتبه، ولا عدو فيفسده، ولا يعجب به صاحبه فيبطله»[(٢)].

«ولا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس، إلا كما يجتمع الماء والنار، والضب والحوت، فإذا حدثتك نفسك بطلب الإخلاص فأقبل على الطمع أولًا فاذبحه بسكين اليأس، وأقبل على المدح والثناء فازهد فيهما زهد عشاق الدنيا في الآخرة، فإذا استقام لك ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح سهل عليك الإخلاص.

فإن قلت: وما الذي يسهِّل عليَّ ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح؟

قلت: أما ذبح الطمع فيسهله عليك علمك يقينًا أنه ليس من شيء يُطمع فيه إلا وبيد اللَّه وحده خزائنه، لا يملكها غيره، ولا يؤتى العبد منها شيئًا سواه.

وأما الزهد في الثناء والمدح فيسهله عليك علمك أنه ليس أحد ينفع مدحه ويزين، ويضر ذمه ويشين، إلا اللَّه وحده، كما قال ذلك الأعرابي للنبي: إن مدحي زين، وذمي شين، فقال: «**ذلك اللهُ ﷻ**»[(٣)]. فازهد في مدح من لا يزينك مدحه، وفي ذم من لا يشينك ذمه، وارغب في مدح من كل الزين في مدحه، وكل الشين في ذمه، ولن يُقدر على ذلك إلا بالصبر

(١) «عدة الصابرين» (١/ ٤٦).
(٢) «الفوائد» (١/ ٩٩).
(٣) أخرجه الترمذي (٣٢٦٧) وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٦٠٥).

واليقين، فمتى فقدت الصبر واليقين كنت كمن أراد السفر في البحر في غير مركب، قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ۝٦٠﴾ [الرُّوم: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ۝٢٤﴾ [السجدة: ٢٤]»[1].

* * *

(١) «الفوائد» (١/ ١٤٩).

حقيقة الإخلاص والصدق

وحقيقة الإخلاص[١] توحيد المطلوب، وحقيقة الصدق توحيد الطلب والإرادة، ولا يثمران إلا بالاستسلام المحض للمتابعة.

فهذه الأركان الثلاثة هي أركان السير وأصول الطريق، التي من لم يبن عليها سلوكه وسيره فهو مقطوع، وإن ظن أنه سائر فسيره إما إلى عكس جهة مقصوده، وإما سير المقعد والمقيد، وإما سير صاحب الدابة الجموح كلما مشت خطوة إلى قدام رجعت عشرة إلى خلف.

فإن عدم الإخلاص والمتابعة انعكس سيره إلى خلف، وإن لم يبذل جهده ويوحد طلبه سار سير المقيد، وإن اجتمعت له الثلاثة فذلك الذي لا يجارَى في مضمار سيره، وذلك فضل اللَّه يؤتيه من يشاء، واللَّه ذو الفضل العظيم.

* * *

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٩٧).

العبرة عند الحق بحقائق الأمور لا بصورها

عن سليمان بن يسار قال: تفرَّق الناس عن أبي هريرة، فقال له نَاتِلُ أهلِ الشام: أيها الشيخ، حدثنا حديثًا سمعته من رسول اللَّه ﷺ، قال: نعم، سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**إنَّ أولَ الناسِ يُقضَى يوم القيامةِ عليه رجُلٌ استُشهِدَ، فأُتِيَ به، فعرَّفه نِعَمَه فعرَفها، قال: فما عَمِلْتَ فيها؟ قال: قَاتَلْتُ فيك حتى استُشهدتُ. قال: كَذَبْتَ، ولكنَّك قاتلْتَ لأَنْ يقال: جريءٌ. فقد قيل. ثُمَّ أُمرَ به فَسُحِبَ على وجهِهِ حتى أُلْقِيَ في النَّارِ، ورجُلٌ تعلَّم العلمَ وعَلَّمَه، وقَرَأَ القرآنَ، فأُتِيَ به، فعرَّفه نِعَمَه فعرَفها، قال: فما عَمِلْتَ فيها؟ قال: تعلَّمتُ العلمَ وعَلَّمتُه، وقَرَأْتُ فيك القرآنَ. قال: كذبتَ، ولكنَّكَ تعلَّمتَ العلمَ ليقال: عالمٌ. وقرأتَ القرآنَ ليقال: هو قارئٌ. فقد قيل. ثمَّ أُمِرَ به فسُحِبَ على وجهِهِ حتى أُلقِيَ في النَّارِ. ورجلٌ وسَّعَ اللهُ عليه وأعطاه مِن أصنافِ المالِ كلِّهِ، فأُتِيَ به، فعَرَّفه نِعَمَه فعَرَفَها، قال: فما عَمِلْتَ فيها؟ قال: ما تَرَكْتُ مِن سَبِيلٍ تُحِبُّ أنْ يُنْفَقَ فيها إلا أَنْفَقْتُ فيها لك. قال: كذبتَ، ولكنَّك فعلتَ ليقال: هو جَوَادٌ. فقد قِيل. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ على وجهِهِ ثمَّ أُلقِيَ في النَّارِ**»[1].

عن سُوَيْدِ بن غَفَلَةَ قال: قال عليٌّ: إذا حدَّثْتُكم عن رسول اللَّه ﷺ فلأَنْ أَخِرَّ من السَّماءِ أَحَبُّ إليَّ من أنْ أقولَ عليه ما لم يَقُلْ، وإذا حدَّثتُكم فيما بيني وبينكم فإن الحربَ خَدْعَةٌ، سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**سَيَخْرُجُ في**

(١) أخرجه مسلم (٣/ ١٥١٣).

آخرِ الزَّمانِ قومٌ أحداثُ الأسنانِ، سفهاءُ الأحلامِ، يقولونَ مِن خَيْرِ قَوْلِ البريَّةِ، يقرءون القرآنَ لا يُجَاوِزُ حناجِرَهُم، يَمْرُقُونَ من الدِّينِ كما يَمْرُقُ السَّهمُ مِن الرَّمِيَّةِ، فإذا لَقِيتُمُوهُمْ فاقتُلوهُم؛ فإن في قتلِهم أجرًا لمن قَتَلَهُم عند اللهِ يومَ القيامةِ»[(١)].

عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: **«بينما كلبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ**[(٢)] **قد كاد يَقتُلُه العطشُ، إذ رَأَتْه بَغِيٌّ مِن بَغَايا بَنِي إسرائيلَ، فَنَزَعَتْ مُوقَها**[(٣)] **فاسْتَقَتْ له به، فَسَقَتْهُ إِيَّاهُ، فَغُفِرَ لها بِهِ»**[(٤)].

عن أبي هُرَيْرَةَ قال: قال رسول اللّهِ ﷺ: **«مَرَّ رجلٌ بغُصْنِ شجرةٍ على ظهرِ طريقٍ، فقال: واللهِ لَأُنَحِّيَنَّ هذا عن الْمُسْلِمِينَ لَا يُؤْذِيهِمْ. فَأُدْخِلَ الجنَّةَ»**[(٥)].

* * *

(١) أخرجه مسلم (٣/ ٧٦٤).
(٢) لعلها تعرف، والكية: البئر. «اللسان» (ر ك ى).
(٣) الموق: الخف. «اللسان» (م و ق).
(٤) أخرجه مسلم (٤/ ١٧٦١).
(٥) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٢١).

مشاهدة عيب النفس

«إن شهود ذنبه - أي العبد العاصي - وخطيئته يوجب له ألا يرى له على أحد فضلًا، ولا له على أحد حقًّا، فإنه إذا شهد عيب نفسه بفاحشة وخطأها وذنوبها؛ لا يظن أنه خير من مسلم يؤمن باللَّه واليوم الآخر، وإذا شهد ذلك من نفسه لم يَرَ لها على الناس حقوقًا من الإكرام يتقاضاهم إياها، ويذمهم على ترك القيام بها، فإنها عنده أخس قدرًا، وأقل قيمة من أن يكون لها على عباد اللَّه حقوق يجب مراعاتها، أو لها عليهم فضل يستحق أن يلزموه لأجله، فيرى أن من سلم عليه أو لقيه بوجه منبسط قد أحسن إليه، وبذل له ما لا يستحقه، فاستراح في نفسه، واستراح الناس من عتبه وشكايته، فما أطيب عيشه، وما أنعم باله، وما أقر عينه، وأين هذا ممن لا يزال عاتبًا على الخلق، شاكيًا ترك قيامهم بحقه، ساخطًا عليهم، وهم عليه أسخط، فسبحان ذي الحكمة الباهرة التي بهرت عقول العالمين»[١].

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس اللَّه روحه - يقول: «**العارف لا يرى له على أحد حقًّا، ولا يشهد له على غيره فضلًا، ولذلك لا يعاتب، ولا يطالب، ولا يضارب**»[٢].

* * *

---

(١) «طريق الهجرتين» (١/ ٢٧٠- ٢٧١).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٥٢٣).

ملة إبراهيم عليه السلام

«كان رسول اللَّه ﷺ يوصي أصحابه إذا أصبحوا وإذا أمسوا أن يقولوا: «أصبحنا على فِطرةِ الإسلامِ، وكلمةِ الإخلاصِ، ودينِ نبيِّنا محمد ﷺ، وملة أبينا إبراهيم حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين»[(١)].

وتأمل هذه الألفاظ، كيف جعل الفطرة للإسلام؛ فإنه فطرة اللَّه التي فطر الناس عليها، وكلمة الإخلاص هي شهادة أن لا إله إلا الله، والملة لإبراهيم؛ فإنه صاحب الملة، وهي التوحيد، وعبادة اللَّه تعالى وحده لا شريك له، ومحبته فوق كل محبة، والدين للنبي ﷺ، وهو دينه الكامل وشرعه التام الجامع لذلك كله.

وسماه سبحانه: إماما، وأُمَّة، وقانتًا، وحنيفًا.

قال تعالى: ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة: ١٢٤]، فأخبر سبحانه أنه جعله إمامًا للناس، وأن الظالم من ذريته لا ينال رتبة الإمامة، والظالم هو المشرك، وأخبر سبحانه أن عهده بالإمامة لا ينال من أشرك به.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [النحل: ١٢٠ - ١٢٢].

فالأمَّة: هو القدوة المعلم للخير. **والقانت**: المطيع لله الملازم لطاعته.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٤٠٦، ٤٠٧)، والنسائي في «الكبرى» (١٠١٧٥) من حديث عبد الرحمن بن أبزى رضي الله عنه.

والحنيف: المقبل على اللَّه المعرض عما سواه. ومن فسره بالمائل فلم يفسره بنفس موضوع اللفظ، وإنما فسره بلازم المعنى، فإن الحَنَفَ هو: الإقبال. ومن أقبل على شيء مال عن غيره، والحَنَفُ في الرِّجلين هو: إقبال إحداهما على الأخرى. ويلزمه ميلها عن جهتها، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الرُّوم: ٣٠]، ف - «**حنيفًا**» هو حال مقررة لمضمون قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾، ولهذا فسرت مخلصًا، فتكون الآية قد تضمنت الصدق والإخلاص، فإن إقامة الوجه للدين هو إفراد طلبه، بحيث لا يبقى في القلب إرادة لغيره.

والحنيف المفرد لا يريد غيره، فالصدق أن لا ينقسم طلبك، والإفراد أن لا ينقسم مطلوبك. الأول: توحيد الطلب. والثاني: توحيد المطلوب.

والمقصود: أن إبراهيم عليه السلام هو أبونا الثالث، وهو إمام الحنفاء، ويسميه أهل الكتاب عمود العالم، وجميع أهل الملل متفقة على تعظيمه وتَوَلِّيه ومحبته، وكان خيرُ بنيه سيدُ ولدِ آدم محمدٌ ﷺ يجلُّه ويعظمه، ويبجله ويحترمه، ففي «**الصحيحين**» من حديث المختار بن فُلْفُل عن أنس بن مالك - رضي اللَّه تعالى عنه - قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا خير البرية. فقال رسول اللَّه ﷺ: «**ذاك إبراهيم**»[1]. وسماه شيخه كما تقدم[2].

---

(١) أخرجه مسلم (١٥٠/ ٢٣٦٩).

(٢) يعني: عندما دخل رسول الله ﷺ البيت يوم الفتح ورأى فيه صور الملائكة وغيرهم فرأى إبراهيم عليه السلام مصورًا في يده الأزلام يستقسم بها، فقال: «قاتلَهم الله، جعلوا شيخَنا يستقسمُ بالأزلام، ما شأنُ إبراهيمَ والأزلام؟! ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٦٧﴾ [آل عمران: ٦٧]». ثم أمر بتلك الصور كلها فطمست. «سيرة ابن هشام» (٢/ ٤١٢).

وثبت في «**صحيح البخاري**» من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس - رضي اللَّه عنهما - عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنكم محشورون حفاةً عراةً غُرْلاً** - ثم قرأ - : ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، أولُ مَن يُكْسَى يومَ القيامةِ إبراهيمُ»(١).

وكان رسول اللَّه ﷺ أشبه الخلق به، كما في «**الصحيحين**» عنه قال: «**رأيتُ إبراهيمَ فإذا أقربُ الناسِ شبهًا به صاحبُكم**». يعني: نفسه ﷺ(٢).

وفي لفظ آخر: «**وأمَّا إبراهيمُ، فانظروا إلى صاحبِكم**».

وكان ﷺ يعوذ أولاد ابنته حسنًا وحسينًا بتعويذ إبراهيم لإسماعيل وإسحاق، ففي «**صحيح البخاري**» عن سعيد بن جبير عن ابن عباس - رضي اللَّه عنهما- قال كان النبي ﷺ : يعوذ الحسن والحسين، ويقول: «**إن أباكما كان يعوِّذُ بهما إسماعيلَ وإسحاقَ؛ أعوذُ بكلماتِ اللهِ التامَّةِ، مِن كلِّ شيطانٍ وهامَّةٍ، ومِن كلِّ عينٍ لامَّةٍ**»(٣)(٤).

* * *

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٩، ٣٤٤٧)، وانظر أطرافه، ومسلم (٥٧، ٥٨/ ٢٨٦٠).
(٢) أخرجه البخاري (٣٣٩٤، ٣٤٣٧)، ومسلم (١٦٨/ ٢٧٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) أخرجه البخاري (٣٣٧١).
(٤) «جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام» (١/ ٢٦٨-٢٧٠).

مفهوم الإنابة وعلاقتها بالتوحيد

«**الإنابة** هي عكوف القلب على اللّه ﷻ، كاعتكاف البدن في المسجد لا يفارقه، وحقيقة ذلك عكوف القلب على محبته وذكره بالإجلال والتعظيم، وعكوف الجوارح على طاعته بالإخلاص له والمتابعة لرسوله، ومن لم يعكف قلبه على اللّه وحده عكف على التماثيل المتنوعة، كما قال إمام الحنفاء لقومه: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢]، فاقتسم هو وقومه حقيقة العكوف، فكان حظ قومه العكوف على التماثيل، وكان حظه العكوف على الرب الجليل، والتماثيل جمع تمثال وهو الصور الممثلة، فتعلُّقُ القلب بغير اللّه واشتغاله به والركون إليه عُكوفٌ منه على التماثيل التي قامت بقلبه، وهو نظير العكوف على تماثيل الأصنام، ولهذا كان شرك عباد الأصنام بالعكوف بقلوبهم وهممهم وإرادتهم على تماثيلهم، فإذا كان في القلب تماثيل قد ملكته واستعبدته بحيث يكون عاكفًا عليها، فهو نظير عكوف الأصنام عليها، ولهذا سماه النبي عبدًا لها، ودعا عليه بالتعس والنكس، فقال: «**تَعِسَ عبدُ الدينارِ، تَعِسَ عبدُ الدرهم، تَعِسَ وانتَكَسَ، وإذا شِيْكَ فلا انتَقَشَ**»[١]»[٢].

«**كثيرًا ما يتكرر في القرآن ذكر الإنابة، والأمر بها، كقوله**: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزُّمر: ٥٤]، وقوله حكاية عن شعيب أنه قال: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، وقوله: ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ

---

(١) مضى تخريجه.

(٢) «الفوائد» (١/ ١٩٦).

عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴿٨﴾﴾ [ق: ٨]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧]، وقوله عن نبيه داود: ﴿وَخَرَّۤ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤].

والإنابة: الرجوع إلى الله، وانصراف دواعي القلب وجواذبه إليه، وهي تتضمن المحبة والخشية، فإن المنيب محب لمن أناب إليه، خاضع له، خاشع ذليل.

- **والناس في إنابتهم على درجات متفاوتة:**

فمنهم: المنيب إلى الله بالرجوع إليه من المخالفات والمعاصي، وهذه الإنابة مصدرها مطالعة الوعيد، والحامل عليها: العلم والخشية والحذر.

ومنهم: المنيب إليه بالدخول في أنواع العبادات والقربات، فهو ساع فيها بجهده، وقد حبب إليه فعل الطاعات وأنواع القربات، وهذه الإنابة مصدرها الرجاء ومطالعة الوعد والثواب، ومحبة الكرامة من الله، وهؤلاء أبسط نفوسًا من أهل القسم الأول، وأشرح صدورًا، وجانب الرجاء ومطالعة الرحمة والمنة أغلب عليهم، وإلا فكل واحد من الفريقين منيب بالأمرين جميعًا، ولكن خوف هؤلاء اندرج في رجائهم فأنابوا بالعبادات، ورجاء الأولين اندرج تحت خوفهم فكانت إنابتهم بترك المخالفات.

ومنهم: المنيب إلى الله بالتضرع والدعاء والافتقار إليه، والرغبة وسؤال الحاجات كلها منه، ومصدر هذه الإنابة شهود الفضل والمنة، والغنى والكرم والقدرة، فأنزلوا به حوائجهم، وعلقوا به آمالهم، فإنابتهم إليه من هذه الجهة مع قيامهم بالأمر والنهي، ولكن إنابتهم الخاصة إنما من هذه الجهة، وأما الأعمال فلم يرزقوا فيها الإنابة الخاصة، وأملهم المنيب عند الشدائد والضراء فقط إنابة اضطرار لا إنابة اختيار، كحال الذين قال الله في حقهم:

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، وهؤلاء كلهم قد تكون نفس أرواحهم ملتفتة عن اللّه سبحانه معرضة عنه إلى مألوف طبيعي نفساني، قد حال بينها وبين إنابتها بذاتها إلى معبودها وإلهها الحق، فهي ملتفتة إلى غيره، ولها إليه إنابة ما بحسب إيمانها به ومعرفتها له.

فأعلى أنواع الإنابة: إنابة الروح بجملتها إليه؛ لشدة المحبة الخالصة المغنية لهم عما سوى محبوبهم ومعبودهم، وحين أنابت إليه أرواحهم لم يختلف منهم شيء عن الإنابة، فإن الأعضاء كلها رعيتها وملكها تبع للروح، فلما أنابت الروح بذاتها إليه إنابة محب صادق المحبة، وليس فيه عرق ولا مفصل إلا وفيه حب ساكن لمحبوبه - أنابت جميع القوى والجوارح، فأناب القلب أيضًا بالمحبة والتضرع، والذل والانكسار، وأناب العقل بانفعاله لأوامر المحبوب ونواهيه، وتسليمه لها، وتحكيمه إياها دون غيرها، فلم يبق فيه منازعة شبهة معترضة دونها، وأنابت النفس بالانقياد والانخلاع عن العوائد النفسانية، والأخلاق الذميمة، والإرادات الفاسدة، وانقادت لأوامره خاضعة له، وداعية فيه، ومؤثرة إياها على غيره، فلم يبق فيها منازعة شهوة تعترضها دون الأمر، وخرجت عن تدبيرها واختيارها؛ تفويضًا إلى مولاها، ورضى بقضائه، وتسليمًا لحكمه.

وقد قيل: إن تدبير العبد لنفسه هو آخر الصفات المذمومة في النفس.

وأناب الجسد في الأعمال والقيام بها فرضها وسننها على أكمل الوجوه، وأنابت كل جارحة وعضو إنابتها الخاصة، فلم يبق من هذا العبد المنيب عرق ولا مفصل إلا وله إنابة ورجوع إلى الحبيب الحق، الذي كل محبة

سوى محبته عذاب على صاحبها، وإن كانت عذبة في مباديها، فإنها عذاب في عواقبها، فإنابة العبد ولو ساعة من عمره هذه الإنابة الخالصة أنفع له وأعظم ثمرة من إنابة سنين كثيرة من غيره، فأين إنابة هذا من إنابة مَن قبله؟! وذلك فضل اللَّه يؤتيه من يشاء، بل هذه روحه منيبة أبدًا، وإن توارى عنه شهود إنابتها باشتغال، فهي كامنة فيها كمون النار في الزناد، وأما أصحاب الإنابات المتقدمة فإن أناب أحدهم ساعة بالدعاء والذكر والابتهال فلنفسه وروحه وقلبه وعقله التفاتات عمن قد أناب إليه، فهو ينيب ببعضه ساعة، ثم يترك ذلك مقبلاً على دواعي نفسه وطبعه، واللَّه الموفق المعين، لا رب غيره، ولا إله سواه»[١].

● **التوحيد واتباع الهوى متضادان:**

«فإن الهوى صنم، ولكل عبد صنم في قلبه بحسب هواه، وإنما بعث اللَّه رسله بكسر الأصنام وعبادته وحده لا شريك له، وليس مراد اللَّه سبحانه كسر الأصنام المجسدة وترك الأصنام التي في القلب، بل المراد كسرها من القلب أولاً.

قال الحسن بن علي المطوعي: «صنم كل إنسان هواه، فمن كسره بالمخالفة استحق اسم الفتوة»[٢].

وتأمل قول الخليل ﷺ لقومه: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ كيف تجده مطابقًا للتماثيل التي يهواها القلب ويعكف عليها ويعبدها من دون الله؟ قال اللَّه تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ

---

(١) «طريق الهجرتين» (١/ ٢٧٢).

(٢) أخرجه ابن الجوزي في «ذم الهوى» (ص٢٧).

تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ [الفرقان: ٤٣، ٤٤]»[١].

وإذا كان النبي ﷺ قال: «**شاربُ الخمرِ كعابدِ وثنٍ**»[٢]. ومر عليٌّ رضي الله عنه بقوم يلعبون بالشِّطْرَنج، فقال: «**ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟**». وأظنه قلَب الرقعة[٣].

* * *

(١) «روضة المحبين» (١/ ٤٨١- ٤٨٢).

(٢) أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (١/ ١٢٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٦/ ٢٢٤)،والبيهقيُّ في «الكبرى» (١٠/ ٢١٢)، وفي «الشعب» (٦٥١٨) وزاد «لأن يمس أحدُكم جمرًا حتى يطفأ خير له من أن يمسها».

التوحيد أعظم وسيلة

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المائدة: ٣٥].

- «**التوحيد مفزع أعدائه وأوليائه:**

فأما أعداؤه: فينجيهم من كرب الدنيا وشدائدها: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت: ٦٥].

وأما أولياؤه: فينجيهم به من كربات الدنيا والآخرة وشدائدها، ولذلك فزع إليه يونس فنجاه اللَّه من تلك الظلمات، وفزع إليه أتباع الرسل فنجوا به مما عذب به المشركون في الدنيا وما أعد لهم في الآخرة.

ولما فزع إليه فرعون عند معاينة الهلاك وإدراك الغرق له لم ينفعه؛ لأن الإيمان عند المعاينة لا يقبل.

هذه سنة اللَّه في عباده، فما دفعت شدائد الدنيا بمثل التوحيد، ولذلك كان دعاء الكرب بالتوحيد، ودعوة ذي النون التي ما دعا بها مكروب إلا فرج اللَّه كربه بالتوحيد، فلا يُلقي في الكُرَب العظام إلا الشرك، ولا ينجي منها إلا التوحيد، فهو مفزع الخليقة وملجؤها، وحصنها وغياثها، وباللَّه التوفيق»(١).

* * *

---

(١) «الفوائد» (١/ ٥٣).

أضرار التعلق بغير الله

قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [العنكبوت: ٤١].

«وتعلق القلب بغير اللَّه أعظم مفسداته على الإطلاق، فليس عليه أضر من ذلك، ولا أقطع له عن مصالحه وسعادته منه، فإنه إذا تعلق بغير اللَّه وكله اللَّه إلى ما تعلق به، وخذله من جهة ما تعلق به، وفاته تحصيل مقصوده من اللَّه عز وجل بتعلقه بغيره، والتفاته إلى سواه، فلا على نصيبه من اللَّه حصل، ولا إلى ما أمله ممن تعلق به وصل، قال اللَّه تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [يس: ٧٤، ٧٥]، فأعظم الناس خذلانًا من تعلق بغير الله، فإن ما فاته من مصالحه وسعادته وفلاحه أعظم مما حصل له ممن تعلق به وهو معرض للزوال والفوات، ومثل المتعلق بغير اللَّه كمثل المستظل من الحر والبرد ببيت العنكبوت أوهن البيوت.

وبالجملة، فأساس الشرك وقاعدته التي بني عليها التعلق بغير الله، ولصاحبه الذم والخذلان، كما قال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإسراء: ٢٢]، مذمومًا: لا حامد لك. مخذولاً: لا ناصر لك. إذ قد يكون بعض الناس مقهورًا محمودًا، كالذي قهر بباطل،

وقد يكون مذمومًا منصورًا، كالذي قهر وتسلط عليه بباطل، وقد يكون محمودًا منصورًا كالذي تمكن وملك بحق، والمشرك المتعلق بغير اللَّه قسمه أردأ الأقسام الأربعة، لا محمود ولا منصور»[(١)].

وكما أن الرغبة في الدنيا أصل المعاصي الظاهرة، فهي أصل معاصي القلب؛ من التسخط والحسد والكبر والفخر والخيلاء والتكاثر، وهذا كله من امتلاء القلب بها لا من كونها في اليد، وامتلاء القلب بها ينافي الشكر، ورأس الشكر تفريغ القلب منها، وامتداد المال كامتداد العمر والجاه، فخيركم في الدنيا من طال عمره وحسن عمله، فهكذا من امتد ماله وكثر به خيره فنعم المرء، وماله وجاهه إما أن يرفعه درجات، وإما أن يضعه دركات»[(٢)].

* * *

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٤٥٧، ٤٥٨).

(٢) «عدة الصابرين» (١/ ٢٢٧).

فتنة التعلق بالصور

قال تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٢﴾ [الحجر: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝٣١﴾ [يوسف: ٣١]، وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ۝١٩﴾ [غافر: ١٩]، وقال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٣٠﴾ [النور: ٣٠].

«وباب التعلق بالصور هو من جنس الفواحش، وباطنه من باطن الفواحش، وهو من باطن الإثم، قال تعالى: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ [الأنعام: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وقد قال: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٢٨﴾ [الأعراف: ٢٨]»[١].

«وأما من استعبد قلبه صار عبدًا لغير الله، فهذا يضره ذلك ولو كان في الظاهر ملك الناس، فالحرية حرية القلب، والعبودية عبودية القلب، كما أن الغنى غنى النفس، قال النبي ﷺ: «**ليس الغِنى عن كثرةِ العرض، وإنما الغِنى غِنى النَّفْسِ**»[٢].

وهذا لعمري إذا كان قد استعبد قلبه صورة مباحة، فأما من استعبد قلبه

(١) «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٢٥٤).

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٨١)، ومسلم (١٠٥١/١٢٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

صورة محرمة: امرأة أو صبي، فهذا هو العذاب الذي لا يدان فيه، وهؤلاء من أعظم الناس عذابًا وأقلهم ثوابًا، فإن العاشق لصورة إذا بقي قلبه متعلقًا بها مستعبدًا لها اجتمع له من أنواع الشر والفساد ما لا يحصيه إلا رب العباد، ولو سلم من فعل الفاحشة الكبرى، فدوام تعلق القلب بها بلا فعل الفاحشة أشد ضررًا عليه ممن يفعل ذنبًا ثم يتوب منه ويزول أثره من قلبه.

ومن أعظم أسباب هذا البلاء إعراض القلب عن الله، فإن القلب إذا ذاق طعم عبادة اللَّه والإخلاص له لم يكن عنده شيء قط أحلى من ذلك ولا ألذ ولا أطيب، والإنسان لا يترك محبوبًا إلا بمحبوب آخر يكون أحب إليه منه، أو خوفًا من مكروه، فالحب الفاسد إنما ينصرف القلب عنه بالحب الصالح، أو بالخوف من الضرر، قال تعالى في حق يوسف: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، فاللَّه يصرف عن عبده ما يسوءه من الميل إلى الصورة، والتعلق بها، ويصرف عنه الفحشاء بإخلاصه لله، ولهذا يكون قبل أن يذوق حلاوة العبودية لله والإخلاص له تغلبه نفسه على اتباع هواها، فإذا ذاق طعم الإخلاص وقوي في قلبه؛ انقهر له هواه بلا علاج، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، فإن الصلاة فيها دفع للمكروه وهو الفحشاء والمنكر، وفيها تحصيل المحبوب وهو ذكر الله، وحصول هذا المحبوب أكبر من مندفع المكروه، فإن ذكر اللَّه عبادة لله، وعبادة القلب لله مقصودة لذاتها، وأما اندفاع الشر عنه فهو مقصود لغيره على سبيل التبع»[1].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٨٦).

«ثم النظر يولد المحبة، فيكون علاقة؛ لتعلق القلب بالمحبوب، ثم صبابة؛ لانصباب القلب إليه، ثم غرامًا؛ للزومه للقلب كالغريم الملازم لغريمه، ثم عشقًا، إلى أن يصير تَتَيُّمًا، والمتَيَّمُ: المُعَبَّد. وتَيْمُ الله: عبد الله. فيبقى القلب عبدًا لمن لا يصلح أن يكون أخًا، ولا خادمًا، وهذا إنما يبتلى به أهل الإعراض عن الإخلاص لله، الذين فيهم نوع من الشرك، وإلا فأهل الإخلاص كما قال الله في حق يوسف عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: ٢٤]، فامرأة العزيز كانت مشركة، فوقعت - مع تزوجها - فيما وقعت فيه من السوء، ويوسف عليه السلام، مع عزوبته ومراودتها له واستعانتها عليه بالنسوة وعقوبتها له بالحبس على العفة، عصمه الله بإخلاصه لله؛ تحقيقًا لقوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢]، قال: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: ٤٢]، والغي: هو اتباع الهوى. وهذا الباب من أعظم أبواب اتباع الهوى.

ولهذا يقال: إن غض البصر عن الصورة التي ينهى عن النظر إليها، كالمرأة والأمرد الحسن، يورث ذلك ثلاث فوائد جليلة القدر:

أحدها: حلاوة الإيمان ولذته التي هي أحلى وأطيب مما تركه لله، فإن من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه، والنفس تحب النظر إلى هذه الصور، لا سيما نفوس أهل الرياضة والصفا، فإنه يبقى فيها رقة تنجذب بسببها إلى الصور حتى تبقى الصورة تخطف أحدهم، وتصرعه كما يصرعه السبع.

ولهذا قال بعض التابعين: «ما أنا على الشاب التائب من سَبُعٍ يجلس إليه

بأخوف عليه من حَدَثٍ جميل يجلس إليه».

وقال بعضهم: «اتقوا النظر إلى أولاد الملوك؛ فإن فتنتهم كفتنة العذارى».

وما زال أئمة العلم والدين، كأئمة الهدى وشيوخ الطريق، يوصون بترك صحبة الأحداث، حتى يُروى عن فتح الموصلى أنه قال: صحبت ثلاثين من الأبدال كلهم يوصينى عند فراقه بترك صحبة الأحداث.

وقال بعضهم: «ما سقط عبد من عين الله، إلا ابتلاه بصحبة هؤلاء الأنتان».

وأما الفائدة الثانية في غض البصر: فهو نور القلب والفراسة، قال عن قوم لوط: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الحجر: ٧٢]، فالتعلق بالصور يوجب فساد العقل، وعمى البصيرة، وسكر القلب، بل جنونه، كما قيل:

سُكْرانِ سُكْرُ هَوَى وسُكْرُ مُدَامَةٍ ... فمتى يُفِيقُ مَن به سُكْرانِ

وقيل أيضًا:

قالوا جُنِنْتَ بمن تَهْوَى فقلتُ لهم ... العِشقُ أعظمُ ممَّا بالمجانينِ

العِشقُ لا يَستفيقُ الدهرَ صاحبُهُ ... وإنما يُصرَعُ المجنونُ في الحينِ

وذكَر اللهُ سبحانه آية النور عَقِيب آيات غض البصر، فقال: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥].

وكان شجاع بن شاه الكرماني لا تخطئ له فراسة، وكان يقول: «من عمَّر ظاهره باتباع السنة، وباطنه بدوام المراقبة، وغضَّ بصره عن المحارم، وكفَّ نفسه عن الشهوات، - وذكر خصلة سادسة أظنه هو أكل الحلال - لم

تخطئ له فراسة».

واللَّه يجزي العبد على عمله بما هو من جنس عمله، فيطلق نور بصيرته، ويفتح عليه باب العلم والمعرفة والكشوف، ونحو ذلك مما ينال ببصيرة القلب.

الفائدة الثالثة: قوة القلب وثباته وشجاعته، فيجعل اللَّه له سلطان البصيرة مع سلطان الحجة، فإن في الأثر: «**الذي يخالف هواه يَفْرَق الشيطان من ظله**».

ولهذا يوجد في المتبع هواه من ذل النفس وضعفها ومهانتها ما جعله اللَّه لمن عصاه، فإن اللَّه جعل العزة لمن أطاعه، والذلة لمن عصاة، قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، وقال: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران: ١٣٩].

ولهذا كان في كلام الشيوخ: «الناس يطلبون العز بأبواب الملوك، ولا يجدونه إلا في طاعة الله».

وكان الحسن البصرى يقول: «وإن هَمْلَجَتْ بهم البراذين، وطَقْطَقَتْ بهم البغال، فإن ذل المعصية في رقابهم، أبى اللَّه إلا أن يذل من عصاه».

ومن أطاع اللَّه فقد والاه فيما أطاعه فيه، ومن عصاه ففيه قسط من فعل من عاداه بمعاصيه، وفي دعاء القنوت: «**إنه لا يِذلُّ مَن واليتَ، ولا يَعِزُّ مَن عاديتَ**»[1]»[2].

* * *

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ١٩٩)، والترمذي (٤٦٤)، وأبو داود (١٤٢٥) وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».
(٢) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٤٢١).

فتنة التعلق بالجاه والرئاسة

قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه: ١٣١]، وقال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾ [القصص: ٧٩]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف: ٣١]، وقال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [هود: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ [البقرة: ١٣٤]، وقال تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [يونس: ٧٨].

«إن تعليق الشرف في الدين بمجرد النسب، هو حكم من أحكام الجاهلية الذين اتبعتهم عليه الرافضة وأشباههم من أهل الجهل، فإن الله قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال النبي ﷺ: «**لا فضلَ لعربيٍّ على عَجَمِيٍّ، ولا لعَجَمِيٍّ على عربيٍّ، ولا لأسودَ على أبيضَ، ولا لأبيضَ على أسودَ، إلا بالتقوى، الناسُ من آدمَ، وآدمُ من ترابٍ**»[1]. ولهذا

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤١١)، وصححه شيخ الإسلام في «الاقتضاء» (١/ ١٤٤).

ليس في كتاب اللَّه آية واحدة يُمدح فيها أحد بنسبه، ولا يُذم أحد بنسبه، وإنما يمدح بالإيمان والتقوى، ويذم بالكفر والفسوق والعصيان، وقد ثبت عنه في «الصحيح» أنه قال: «**أربعٌ مِن أمرِ الجاهليةِ في أمتي لن يَدَعوهنَّ: الفخرُ بالأحسابِ، والطعنُ في الأنسابِ، والنياحةُ، والاستسقاءُ بالنجومِ**»(١).

فجعل الفخر بالأحساب من أمور الجاهلية.

ولا ريب أن الحرص والرغبة في الحياة الدنيا وفي الدار الدنيا من المال والسلطان مضرٌّ، كما روى الترمذي عن كعب بن مالك قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ما ذئبانِ جائعانِ أُرسِلا في زَرِيبةِ غنمٍ بأفسدَ لها مِن حرصِ المرءِ على المالِ والشرفِ لدينه**». قال الترمذي: «**حديث حسن صحيح**»(٢).

فذم النبي الحرص على المال والشرف، وهو الرياسة والسلطان، وأخبر أن ذلك يفسد الدين - مثل أو فوق - إفساد الذئبين الجائعين لزريبة الغنم.

وهذا دليل على أن هذا الحرص إنما ذم لأنه يفسد الدين الذي هو الإيمان والعمل الصالح، فكان ترك هذا الحرص لصالح العمل، وهذان هما المذكوران في قوله: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ۝٢٩﴾ [الحاقَّة: ٢٨، ٢٩]، وهما اللذان ذكرهما اللَّه في سورة «**القصص**» حيث افتتحها بأمر فرعون، وذكر علوه في الأرض، وهو الرياسة والشرف والسلطان، ثم ذكر في آخرها قارون، وما أوتيه من الأموال، وذكر عاقبة سلطان هذا، وعاقبة مال هذا، ثم قال: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣]، كحال فرعون وقارون، فإن جمع الأموال من غير

(١) أخرجه البخاري (٣/ ١٣٩٨)، ومسلم (٢٩/ ٩٣٤) من حديث ابن عباس وأبي مالك الأشعري رضي الله عنهم.

(٢) أخرجه الترمذي (٤/ ٥٨٨)، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح».

إنفاقها في مواضعها المأمور بها وأخذها من غير وجهها هو من نوع الفساد.

وكذلك الإنسان إذا اختار السلطان لنفسه بغير العدل والحق، لا يحصل إلا بفساد وظلم، وأما نفس وجود السلطان والمال الذي يبتغى به وجه اللَّه والقيام بالحق والدار الآخرة، ويستعان به على طاعة الله، ولا يفتر القلب عن محبة اللَّه ورسوله، والجهاد في سبيله، كما كان النبي وأبو بكر وعمر، ولا يصده عن ذكر الله، فهذا من أكبر نعم اللَّه على عبده، إذا كان كذلك، ولكن قل أن تجد ذا سلطان أو مال إلا وهو مبطأ مثبط عن طاعة اللَّه ومحبته، متبع هواه فيما آتاه الله، وفيه نكول حال الحرب والقتال في سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فبهذه الخصال يكتسب المهانة والذم دنيا وأخرى»[1].

● **فإن الناس أربعة أقسام:**

القسم الأول: يريدون العلو على الناس والفساد في الأرض، وهو معصية الله، وهؤلاء الملوك والرؤساء المفسدون، كفرعون وحزبه، وهؤلاء هم شرار الخلق، قال الله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص: ٤].

وروى مسلم في «صحيحه» عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا يدخلُ الجنةَ مَن في قلبِه مثقالُ ذرَّةٍ مِن كِبْرٍ، ولا يدخلُ النارَ مَن في قلبِه مثقالُ ذرَّةٍ مِن إيمانٍ**». فقال رجل: يا رسول الله، إني أحب أن يكون ثوبي حسنًا ونعلي حسنًا، أفمن الكبر ذاك؟ قال: «**لا، إنَّ اللهَ جميلٌ يحبُّ**

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ٢٣٠).

الجمالَ، الكبرُ بَطَرُ الحقِّ وغَمْطُ الناسِ»[١]. فبَطَرُ الحقِّ: دفعه وجحده. وغَمْطُ الناس: احتقارهم وازدراؤهم. وهذا حال من يريد العلو والفساد.

«**ومن غريب ما أحكيه لك**[٢]: من تأثر هوى الملوك، والميل إلى ما يوافق ما ينفق عندهم واقعة معي مشاهدة لي، وإن كانت الوقائع في هذا الباب لا يأتي عليها الحصر، وهي مودعة بطون الدفاتر، معروفة عند من له خبرة بأحوال من تقدم.

وذلك أنه عقد خليفة العصر - حفظه الله - مجلسًا جمع فيه وزراءه وأكابر أولاده وكثيرًا من خواصه، وحضر هذا المجلس من أهل العلم ثلاثة: أنا أحدهم، وكان عقد هذا المجلس لطلب المشورة في فتنة حدثت بسبب بعض الملوك ووصول جيوشه إلى بعض الأقطار الإمامية، وتخاذُل كثير من الرعايا واضطرابهم، وارتجاف اليمن بأسره بذلك السبب.

فأشرت إلى الخليفة بأن أعظم ما يتوصل به إلى دفع هذه النازلة هو العدل في الرعية، والاقتصار في المأخوذ منهم على ما ورد به الشرع، وعدم مجاوزته في شيء، وإخلاص النية في ذلك، وإشعار الرعية في جميع الأقطار، والعزم عليه على الاستمرار، فإن ذلك من الأسباب التي تدفع كل الدفع، وتنجع أبلغ النجع، فإن اضطراب الرعايا ورفع رءوسهم إلى الواصلين ليس إلا لما يبلغهم من اقتصارهم على الحقوق الواجبة، وليس ذلك لرغبة في شيء آخر.

فلما فرغت من أداء النصيحة انبرى أحد الرجلين الآخرين، وهو ممن

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) «أدب الطلب» (١/ ٥٦).

حظي من العلم بنصيب وافر، ومن الشرف بمرتبة علية، ومن السن بنحو ثمانين سنة، وقال: إن الدولة لا تقوم بذلك، ولا تتم إلا بما جرت به العادة من الجبايات ونحوها، ثم أطال في هذا بما يتحير عنده السامع، ويشترك في العلم بمخالفته للشريعة العالم والجاهل، والمقصر والكامل، وذكر أنه قد أخذ الجباية ونحوها من الرعية فلان وفلان، وعدد جماعة من أئمة العلم، ممن لهم شهرة وللناس فيهم اعتقاد، وهذا مع كونه عنادًا للشريعة، وخلافًا لما جاءت به، وجرأة على اللَّه ونصبًا للخلاف بينه وبين من عصاه وخالف ما شرعه هو أيضًا، مجازفة بحتة في الرواية عن الذين سماهم، بل هو محض الكذب، وإنما يروي عن بعض المتأخرين ممن لم يمسه ذلك القائل، وهذا البعض الذي يروي عنه ذلك إنما فعله أيامًا يسيرة، ثم طوى بساطه، وعلم أنه خلاف ما شرعه اللَّه فتركه، وإنما حمله على ذلك رأي رآه، وتدبير دبره، ثم تبين له فساده.

فانظر - أرشدك الله - ما مقدار ما قاله هذا القائل في ذلك الجمع الحافل الذي شمل الإمام وجميع المباشرين للأعمال الدولية، والناظرين في أمر الرعية، ولم ينتفع هذا القائل بمقالته لا من زيادة جاه ولا مال، بل غاية ما استفاده ونهاية ما وصل إليه اجتماع الألسن على ذمه، واستعظام الناس لما صدر منه.

وهكذا جرت عادة اللَّه في عباده، فإنه لا ينال من أراد الدنيا بالدين إلا وبالاً وخسرانًا، عاجلاً أم آجلاً، خصوصًا من كان من الحاملين لحجة الله، المأمورين بإبلاغها إلى العباد، فإن خيره في الدنيا والآخرة مربوط بوقوفه على حدود الشريعة، فإن زاغ عنها زاغ عنه، وقد صرح اللَّه سبحانه بما يفيد هذا في غير موضع من كتابه العزيز».

* * *

الدعاء

الدعاء نوعان: دعاء العبادة، ودعاء المسألة.

قوله ﷻ: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف: ٥٥]، ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف: ٥٦].

«هاتان الآيتان مشتملتان على آداب نوعي الدعاء: دعاء العبادة، ودعاء المسألة، فإن الدعاء في القرآن يراد به هذا تارة، وهذا تارة، ويراد به مجموعهما، وهما متلازمان، فإن دعاء المسألة هو طلب ما ينفع الداعي، وطلب كشف ما يضره أو دفعه، وكل من يملك الضر والنفع فإنه هو المعبود حقًّا، والمعبود لا بد أن يكون مالكًا للنفع والضرر، ولهذا أنكر اللَّه تعالى على من عبد من دونه ما لا يملك ضرًّا ولا نفعًا.

وذلك كثير في القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [يونس: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يونس: ١٠٦]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾ [المائدة: ٧٦]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء: ٦٦، ٦٧]، وقوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾ [الشعراء: ٦٩ - ٧٣]،

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾ [الفرقان: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ [الفرقان: ٥٥]، فنفى سبحانه عن هؤلاء المعبودين من دونه النفع والضر، القاصر والمتعدي، فلا يملكونه لأنفسهم ولا لعابديهم.

وهذا في القرآن كثير، بَيْد أن المعبود لا بد أن يكون مالكًا للنفع والضر، فهو يدعى للنفع والضر دعاء المسألة، ويدعى خوفًا ورجاءً دعاء العبادة، فعلم أن النوعين متلازمان؛ فكلُّ دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة، وعلى هذا، فقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] يتناول نوعي الدعاء، وبكل منهما فسرت الآية، قيل: أعطيه إذا سألني، وقيل: أثيبه إذا عبدني، والقولان متلازمان، وليس هذا من استعمال اللفظ المشترك في معنييه كليهما، أو استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه، بل هذا استعمال له في حقيقته الواحدة المتضمنة للأمرين جميعًا، فتأمله، فإنه موضع عظيم النفع قلَّ مَن يفطن له، وأكثر ألفاظ القرآن الدالة على معنيين فصاعدًا هي من هذا القبيل، ومثال ذلك قوله : ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ [الإسراء: ٧٨] فُسِّر بالزوال، وفُسِّر الدلوك بالغروب، وحُكيا قولين في كتب التفسير، وليسا بقولين، بل اللفظ يتناولهما معًا، فإن الدلوك: هو الميل، ودلوك الشمس ميلها، ولهذا الميل مبدأ ومنتهى، فمبدؤه الزوال، ومنتهاه الغروب، فاللفظ متناول لهما بهذا الاعتبار، لا يتناول المشترك لمعنييه، ولا

اللفظ لحقيقته ومجازه.

ومثاله أيضًا ما تقدم من تفسير الغاسق بالليل والقمر، وإن ذلك ليس باختلاف بل يتناولهما لتلازمهما؛ فإن القمر آية الليل، ونظائره كثيرة.

ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ [الفرقان: ٧٧]، قيل: لولا دعاؤكم إياه، وقيل: دعاؤه إياكم إلى عبادته، فيكون المصدر مضافًا إلى المفعول، وعلى الأول مضافًا إلى الفاعل، وهو الأرجح من القولين، وعلى هذا فالمراد به نوعا الدعاء، وهو في دعاء العبادة أظهر؛ أي: ما يعبأ بكم ربي لولا أنكم تعبدونه، وعبادته تستلزم مسألته، فالنوعان داخلان فيه.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، فالدعاء يتضمن النوعين، وهو في دعاء العبادة أظهر، ولهذا عقبة بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، الدعاء هو العبادة، فُسر الدعاء في الآية بهذا وهذا، وقد روى سفيان، عن منصور، عن ذر، عن يُسَيع الكندي، عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول على المنبر: «**إنَّ الدعاءَ هو العبادةُ**». ثم قرأ: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾. رواه الترمذي، صحيح، وقال: «**حديث حسن صحيح**»(١).

وأما قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج: ٧٣]، وقوله: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا﴾ [النساء: ١١٧]، وقوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٦٩، ٣٢٤٧، ٣٣٧٢).

كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾ [فصِّلت: ٤٨]. **وكل موضع ذكر فيه دعاء المشركين لأصنامهم وآلهتهم فالمراد به دعاء العبادة المتضمن دعاء المسألة، فهو في دعاء العبادة أظهر** لوجوه ثلاثة:

أحدها: أنهم قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزُّمر: ٣]، فاعترفوا بأن دعاءهم إياهم هو عبادتهم لهم.

الثاني: أن اللّه تعالى فسر هذا الدعاء في مواضع أخرى بأنه العبادة، كقوله: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الشعراء: ٩٢، ٩٣]، وقوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنبياء: ٩٨]، وقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾﴾ [الكافرون: ١، ٢]، وهو كثير في القرآن، فدعاؤهم لآلهتهم هو عبادتهم لها.

الثالث: أنهم إنما كانوا يعبدونها ويتقربون بها إلى الله، فإذا جاءتهم الحاجات والكربات والشدائد دعوا اللّه وحده وتركوها، ومع هذا فكانوا يسألونها بعض حوائجهم ويطلبون منها، وكان دعاؤهم لها دعاء عبادة ودعاء مسألة، وقوله تعالى: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [غافر: ١٤]، هو دعاء العبادة، **والمعنى**: اعبدوه وحده، وأخلصوا عبادته، لا تعبدوا معه غيره.

وأما قول إبراهيم الخليل ﷺ: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩] فالمراد بالسمع هنا: السمع الخاص، وهو سمع الإجابة والقبول، لا السمع العام؛ لأنه سميع لكل مسموع، وإذا كان كذلك، فالدعاء هنا يتناول دعاء الثناء ودعاء الطلب، وسمعُ الرب تبارك وتعالى له إثابتُه على الثناء وإجابتُه

للطلب، فهو سميع لهذا وهذا.

وأما قول زكريا: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤] فقد قيل: إنه دعاء المسألة. **والمعنى**: إنك عودتني إجابتك وإسعافك، ولم تشقني بالرد والحرمان. فهو توسل إليه تعالى بما سلف من إجابته وإحسانه.

كما حُكي أن رجلاً سأل رجلاً، وقال: أنا الذي أحسنت إلي وقت كذا وكذا. فقال: مرحبًا بمن توسل إلينا بنا. وقضى حاجته.

وهذا ظاهر ها هنا، ويدل عليه أنه قدم ذلك أمام طلبه الولد، وجعله وسيلة إلى ربه، فطلب منه أن يجاريه على عادته التي عوده من قضاء حوائجه إلى ما سأله، ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾ [الإسراء: ١١٠].

فأما قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]، فهذا الدعاء المشهور وأنه دعاء المسألة، وهو سبب النزول، قالوا: كان النبي ﷺ يدعوا ربه فيقول مرة: «**يا الله**». ومرة: «**يا رحمن**». فظن الجاهلون من المشركين أنه يدعو إلهين، فأنزل اللَّه تعالى هذه الآية.

قال ابن عباس رضي الله عنه : سمع المشركون النبي ﷺ يدعو في سجوده: «**يا رحمنُ، يا رحيمُ**». فقالوا: هذا يزعم أنه يدعو واحدًا، وهو يدعو مثنى مثنى. فأنزل اللَّه هذه الآية: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ﴾(١).

وقيل: إن الدعاء هاهنا، بمعنى التسمية، كقولهم: دعوت ولدي سعيدًا، وأدعه بعبد الله، ونحوه، والمعنى: سموا اللَّه أو سموا الرحمن. فالدعاء

---

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٥/ ١٨٢).

هاهنا بمعنى التسمية، وهذا قول الزمخشري[1].

والذي حمله على هذا قوله: ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾. فإن المراد بتعدده معنى «أيّ» وعمومُها هاهنا تعدد الأسماء ليس إلا، والمعنى: أي اسم سميتموه به من أسماء اللَّه تعالى، إما (الله) وإما (الرحمن)، فله الأسماء الحسنى؛ أي: فللمسمي سبحانه الأسماء الحسنى، والضمير في «**له**»، يعود إلى المسمى، فهذا الذي أوجب له أن يحمل الدعاء في الدعاء في هذه الآية على التسمية، وهذا الذي قاله هو من لوازم المعنى المراد بالدعاء في الآية، وليس هو عين المراد، بل المراد بالدعاء معناه المعهود المطرد في القرآن، وهو دعاء السؤال ودعاء الثناء، ولكنه متضمن معنى التسمية، فليس المراد مجرد التسمية الخالية عن العبادة والطلب، بل التسمية الواقعة في دعاء الثناء والطلب، فعلى هذا المعنى يصح أن يكون في «**تدعوا**» معنى تُسموا، فتأمله. **والمعنى**: أيًّا ما تسموا في ثنائكم ودعائكم وسؤالكم. واللَّه أعلم.

وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ [الطُّور: ٢٨]، فهذا دعاء العبادة المتضمن للسؤال رغبة ورهبة، **والمعنى**: إنا كنا من قبل نخلص له العبادة. وبهذا استحقوا أن وقاهم عذاب السموم، لا بمجرد السؤال المشترك بين الناجي وغيره، فإن اللَّه سبحانه يسأله من في السموات ومن في الأرض، والفوز والنجاة إنما هي بإخلاص العبادة، لا بمجرد السؤال والطلب. وكذلك قول الفتية أصحاب الكهف: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾ [الكهف: ١٤]؛ أي: لن نعبد غيره. وكذلك قوله تعالى: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الصَّفات: ١٢٥].

(١) «الكشاف» (٢/ ٣١٥).

وأما قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱدْعُوا شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [القصص: ٦٤]، فهذا من دعاء المسألة، يبكتهم اللَّه ﷻ ويخزيهم يوم القيامة، بإراءتهم أن شركاءهم لا يستجيبون لدعوتهم، وليس المراد: اعبدوهم. وهو نظير قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ [الكهف: ٥٢].

وهذا التقرير نافع في مسألة الصلاة، وإنها هل نقلت عن مسماها في اللغة فصارت حقيقة شرعية منقولة، أو استعملت في هذه العبادة مجازًا للعلاقة بينها وبين المسمى اللغوي، أو هي باقية على الوضع اللغوي وضم إليها أركان وشرائط، وعلى ما قررناه ولا حاجة إلى شيء من ذلك، فإن المصلي من أول صلاته إلى آخرها لا ينفك عن دعاء، إما عبادة وثناء، أو دعاء طلب ومسألة، وهو في الحالين داع، فما خرجت الصلاة عن حقيقة الدعاء، فتأمله.

- **فضل الثناء على الدعاء:**

«ومما يبين فضل الثناء على الدعاء أن الثناء المشروع يستلزم الإيمان بالله، وأما الدعاء فقد لا يستلزمه؛ إذ الكفار يسألون اللَّه فيعطيهم، كما أخبر اللَّه بذلك في القرآن في غير موضع، فإن سؤال الرزق والعافية ونحو ذلك من الأدعية المشروعة هو مما يدعو به المؤمن والكافر، بخلاف الثناء، كقوله: «**سبحانك اللهمَّ وبحمدِك، وتبارك اسمُك، وتعالى جدُّك، ولا إله غيرُك**»[1]. و«**التحياتُ للهِ والصلواتُ والطيباتُ، السلام عليك أيها النبي**

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٣) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وأخرجه مسلم (٩١٨) من حديث عمر ﷺ موقوفًا.

ورحمة اللَّه وبركاته»[١]. فإن هذا لا يثني به إلا المؤمن، وكذلك قوله: **«اللهمَّ ربنا ولك الحمدُ، ملءَ السمواتِ، وملءَ الأرضِ، وملءَ ما بينهما، وملءَ ما شئتَ من شيءٍ بعده»**[٢].

لكن قد يكون بعض الثناء يقر به الكفار، كإقرارهم بأن اللَّه خالق السموات والأرض، وأنه يجيب المضطر إذا دعاه، ونحو ذلك، لكن المشركون لم يكن لهم ثناء مشروع يثنون به على الله، حتى في تلبيتهم كانوا يقولون: لبيك لا شريك لك إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك. وكذلك النصارى ثناؤهم فيه الشرك، وأما اليهود فليس في عبادتهم ثناء، اللهم إلا ما يكون مأثورًا عن الأنبياء، وذلك من ثناء أهل الإيمان، وكذلك النصارى إن كان عندهم شيء من ذلك، وأما ما شرعه من ثنائه فهو يتضمن الإيمان.

والأدلة الدالة على فضل جنس الثناء على جنس الدعاء كثيرة، مثل أمره أن يقال عند سماع المؤذن مثل ما يقول، ثم يصلى على النبي ثم يسأل له الوسيلة، ثم يسأل العبد بعد ذلك، فقدم الثناء على الدعاء، وهكذا بعد التشهد، فإنه قدم فيه الثناء على الله، ثم الدعاء لرسوله، ثم للإنسان، وكذلك هنا، مع إني لا أعلم في هذا نزاعًا بين العلماء، ولكن المفضول قد يكون أحيانًا أفضل، فإن الصلاة أفضل من قراءة القرآن، والقرآن أفضل من الذكر، والذكر أفضل من الدعاء، والمفضول قد يعرض له حال يكون فيه أفضل لأسباب متعددة، إما مطلقًا، كفضيلة القراءة وقت النهي على الصلاة، وإما لحال مخصوص.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٩٧)، ومسلم (٥٥/ ٤٠٢) من حديث ابن مسعود ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم (١٠٩٥) من حديث ابن أبي أوفى ﷺ .

والمقصود هنا: أن جنس الثناء أفضل من السؤال، كما قال تعالى: «**مَن شغَله ذكري عن مسألتي أعطيتُه أفضلَ ما أعطي السائلين**»(١). وقراءة القرآن أفضل منهما، كما في حديث الترمذي عن أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال: «**يقولُ اللهُ** ﷻ: مَن شغَله قراءةُ القرآنِ عن ذكري ومسألتي أعطيتُه أفضلَ ما أعطي السائلين». قال الترمذي: «**حسن غريب**».

وهذا بيِّن في الاعتبار؛ لأن السائل غاية مقصوده حصول مطلوبه ومراده، فهو مريد من الله، وإن كان مطلوبه محبوبًا لله مثل أن يطلب منه إعانته على ذكره وشكره وحسن عبادته، فهو يريد منه هذا الأمر المحبوب لله.

وأما المُثْنِي فهو ذاكر لنفس محبوب الحق من أسمائه وصفاته، فالمطلوب بهذا معرفة اللّه ومحبته وعبادته، وهذا مطلوب لنفسه لا لغيره، وهو الغاية التي خلق لها الخلق، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]، والسؤال وسيلة إلى هذا، ولهذا قال في «**الفاتحة**»: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥] فقدم قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾؛ لأنه المقصود لنفسه على قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ لأنه وسيلة إلى ذلك، والمقاصد مقدمة في القصد والقول على الوسائل، ثم مقصود السائل من الدعاء يحصل لهذا العابد المثني مع اشتغاله بأشرف القسمين.

وأما الداعي فإذا كان مهتمًّا بما هو محتاج إليه، من جلب منفعة ودفع مضرة، كحاجته إلى الرزق والنصر الضروري - كان اشتغاله بهذا نفسه صارفًا له عن غيره، فإذا دعا اللّه سبحانه فقد يحصل له بالدعاء، من معرفة

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ١٨٤).

اللَّه ومحبته، والثناء عليه، والعبودية له، والافتقار إليه، ما هو أفضل وأنفع من مطلوبه ذلك، كما قال بعض السلف: «**يا ابن آدم، لقد بورك لك في حاجة أكثرت فيها قرع باب سيدك**».

وقال بعضهم: «إنه ليكون لي إلى اللَّه حاجة فأدعوه، فيفتح لي من باب معرفته ما أحب معه ألا يعجل لي قضاءها؛ لئلا ينصرف قلبي عن الدعاء».

والسائل إذا حصل سؤاله بَرَدَ؛ فإنه لم يكن مراده إلا سؤاله، وإذا حصل أعرض عن الله، فهذا حال الكفار الذين ذمهم اللَّه في القرآن، كقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس: ١٢] أخبر تعالى أنه يكشف ما يدعون إليه، وهي الشدة التى دعوا إليها.

وأما المؤمن فلا بد بعد قضاء حاجته من عبادة اللَّه وإخلاصه له كما أمره، إما قيامًا بالواجب فقط، فيكون من الأبرار، أو بالواجب والمستحب، فيكون من المقربين، ومن ترك بعض ما أمر به بعد قضاء حاجته فهو من أهل الذنوب، وقد يكون ذلك من الشرك الأصغر الذي يبتلى به غالب الخلق، إما شركًا في الربوبية، وإما شركًا في الألوهية، وقد يبتلى في أماكن الجهل وزمانه كثير من الناس بما هو من الشرك الأكبر، وهم لا يعلمون.

فالسائل مقصوده سؤاله، وإن حصل له ما هو محبوب الرب من إنابته إليه ومحبته وتوبته، فهذا بالعَرَض، وقد يدوم، والأغلب أنه لا يدوم، إلا أن يكون ذلك المحبوب للرب هو سؤاله، مثل أن يسأل اللَّه التوبة والإعانة على ذكره وشكره وحسن عبادته، فهنا مطلوبه محبوب للرب، ولهذا ذم اللَّه من لم يطلب إلا الدنيا، في قوله: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى

ﵟٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖﵞ [البقرة: ٢٠٠].

وأما المُثني فنفس ثنائه محبوب للرب، وحصول مقصود السائل يحصل ضمنًا وتبعًا، فهذا أرفع، لكن هذا إنما يتم لمن يخلص إيمانه، فصار يحب اللَّه ويحب حمده وثناءه وذكره، وذلك أحب إلى قلبه من مطالب السائلين رزقًا ونصرًا.

وأما من كان اهتمامه بهذا أكثر فهذا يكون انتفاعه بالدعاء أكثر، وإن كان جنس الثناء أفضل، كما أن قراءة القرآن أفضل من الذكر والدعاء، وقد يكون بعض الناس لنقص حاله انتفاعه بالذكر والدعاء أكمل، فهو خير له بحسب حاله، لا أفضل في نفس الأمر»[١].

- **إخفاء الدعاء:**

«إذا عرفت هذا، فقوله: ﵟٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚﵞ [الأعراف: ٥٥] فإنه يتناول نوعي الدعاء، لكنه ظاهر في دعاء المسألة، متضمن دعاء العبادة، ولهذا أمر بإخفائه وإسراره، **قال الحسن:** «**بين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفًا**»[٢].

ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء، وما يسمع لهم صوت، إن كان إلا همسًا بينهم وبين ربهم، وذلك أن اللَّه تعالى يقول: ﵟٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚﵞ [الأعراف: ٥٥]، وأن اللَّه تعالى ذكر عبدًا صالحًا ورضي بفعله، فقال: ﵟإِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ٣ﵞ [مريم: ٣].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٣٨٢-٣٨٨).

(٢) ذكره البغوي في «تفسيره» (٢/ ١٦٦) عن الحسن.

- **وفي إخفاء الدعاء فوائد عديدة:**

أحدها: أنه أعظم إيمانًا؛ لأن صاحبه يعلم أن اللَّه تعالى يسمع دعاءه الخفي، وليس كالذي قال: إن اللَّه يسمع إن جهرنا، ولا يسمع إن أخفينا!

ثانيها: أنه أعظم في الأدب والتعظيم، ولهذا لا تُخاطب الملوك ولا تُسأل برفع الأصوات، وإنما تخفض عندهم الأصوات، ويخف عندهم الكلام بمقدار ما يسمعونه، ومن رفع صوته لديهم مقتوه، ولله المثل الأعلى، فإذا كان يسمع الدعاء الخفي فلا يليق بالأدب بين يديه إلا خفض الصوت به.

ثالثها: أنه أبلغ في التضرع والخشوع الذي هو روح الدعاء ولبه ومقصوده، فإن الخاشع الذليل الضارع إنما يسأل مسألة مسكين ذليل، قد انكسر قلبه، وذلت جوارحه، وخشع صوته، حتى إنه ليكاد تبلغ به ذلته ومسكنته وكسره وضراعته إلى أن ينكسر لسانه، فلا يطاوله بالنطق، فقلبه سائل طالب مبتهل، ولسانه لشدة ذله وضراعته ومسكنته ساكت، وهذه الحالة لا يتأتى معها رفع الصوت بالدعاء أصلاً.

رابعها: أنه أبلغ في الإخلاص.

خامسها: أنه أبلغ في جمعه القلب على اللَّه تعالى في الدعاء، فإن رفْعَ الصوتِ يفرقه ويشتته، فكلما خفض صوته كان أبلغ في صَمَده وتجريد همته وقصده للمدعو سبحانه وتعالى .

سادسها: وهو من النكت السِّرِّية البديعة جدًّا، أنه دال على قرب صاحبه من الله، وأنه لاقترابه منه وشدة حضوره، يسأله مسألة أقرب شيء إليه، فيسأل مسألة مناجاة للقريب، لا مسألة نداء البعيد للبعيد.

ولهذا أثنى سبحانه على عبده زكريا بقوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾ [مريم: ٣]، فكلما استحضر القلب قرب اللَّه تعالى منه، وإنه أقرب إليه من كل قريب، وتصور ذلك، أخفى دعاءه ما أمكنه ولم يتأت له رفع الصوت به، بل يراه غير مستحسن، كما أن من خاطب جليسًا له يسمَع خفيَّ كلامه، فبالغ في رفع الصوت استهجن ذلك منه.

ولله المثل الأعلى سبحانه، وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى بعينه بقوله في الحديث الصحيح، لما رفع الصحابة أصواتهم بالتكبير، وهم معه في السفر، فقال: «**أَرْبِعوا على أنفسِكم، إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا، إنكم تدعون سميعًا قريبًا، أقربُ إلى أحدِكم مِن عُنُقِ راحلتِه**»(١).

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقد جاء أن سبب نزولها أن الصحابة قالوا: يا رسول الله، ربنا قريب فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فأنزل اللَّه ﷻ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وهذا يدل على إرشادهم للمناجاة في الدعاء، لا للنداء الذي هو رفع الصوت، فإنهم عن هذا سألوا، فأجيبوا بأن ربهم تبارك وتعالى قريب لا يحتاج في دعائه وسؤاله إلى النداء، وإنما يُسأل مسألة القريب المناجَى، لا مسألة البعيد المنادَى، وهذا القرب من الداعي هو قرب خاص، ليس قربًا عامًّا من كل أحد، فهو قريب من داعيه، وقريب من عابده، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، وهو أخص من قرب الإنابة، وقرب الإجابة الذي لم يثبت أكثر المتكلمين سواه،

(١) سلف تخريجه.

بل هو قرب خاص من الداعي والعابد، كما قال النبي ﷺ راويًا عن ربه تبارك وتعالى: «**مَن تقرَّب مني شبرًا، تقربتُ منه ذراعًا، ومَن تقرَّب مني ذراعًا تقربتُ منه باعًا**». رواه البخاري ومسلم(١).

فهذا قربه من عابده، وأما قربه من داعيه وسائله فكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقوله: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥] فيه الإشارة والإعلام بهذا القرب.

وأما قربه تبارك وتعالى من محبه فنوع آخر وبناء آخر وشأن آخر، كما قد ذكرناه في كتاب «**التحف المكية**» على أن العبارة تنبو عنه، ولا تحصل في القلب حقيقة معناه أبدًا، لكن بحسب قوة المحبة وضعفها يكون تصديق العبد بهذا القرب، وإياك ثم إياك أن تعبر عنه بغير العبارة النبوية أو يقع في قلبك غير معناها ومرادها؛ فتزل قدم بعد ثبوتها، وقد ضعف تمييز خلائق في هذا المقام وساء تعبيرهم، فوقعوا في أنواع من الطامات والشطح، وقابلهم من غلظ حجابه فأنكر محبة العبد لربه جملة وقربَه منه، وأعاد ذلك إلى مجرد الثواب المخلوف، فهو عنده المحبوب القريب، ليس إلا، وقد ذكرنا من طرق الرد على هؤلاء وهؤلاء في كتاب «**التحفة**» أكثر من مائة طريق، والمقصود هاهنا الكلام على هذه الآية.

سابعها: أنه أدعى إلى دوام الطلب والسؤال، فإن اللسان لا يمل والجوارح لا تتعب، بخلاف ما إذا رفع صوته، فإنه قد يكل لسانه وتضعف بعض قواه، وهذا نظير من يقرأ ويكرر رافعًا صوته فإنه لا يطول له ذلك،

---

(١) البخاري (٧٥٣٧)، ومسلم (٢٦٧٥/ ٢٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

بخلاف من يخفض صوته.

ثامنها: أن إخفاء الدعاء أبعد له من القواطع والمشوشات والمضعفات، فإن الداعي إذا أخفى دعاءه لم يدر به أحد، فلا يحصل هناك تشويش ولا غيره، وإذا جهر به تفطنت له الأرواح الشريرة والباطولية والخبيثة من الجن والإنس، فشوشت عليه، ولا بد، ومانعته وعارضته، ولو لم يكن إلا أن تعلقها به يفرق عليه همته فيضعف أثر الدعاء لكفى، ومن له تجربة يعرف هذا، فإذا أسر الدعاء وأخفاه أمن هذه المفسدة.

تاسعها: إن أعظم النعم الإقبال على الله، والتعبد له، والانقطاع إليه، والتبتل إليه، ولكل نعمة حاسد على قدرها، دقَّت أو جلَّت، ولا نعمة أعظم من هذه النعمة، فأنفُسُ الحاسدين المنقطعين متعلقة بها، وليس للمحسود أسلم من إخفاء نعمته عن الحاسد، وأن لا يقصد إظهارها له، وقد قال يعقوب ليوسف: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: ٥]، وكم من صاحب قلب وجمعية وحال مع اللَّه قد تحدَّث بها وأخبر بها فسلبه إياها الأغيار، فأصبح يقلب كفيه، ولهذا يوصي العارفون والشيوخ بحفظ السر مع الله، وألا يطلعوا عليه أحدًا ويتكتمون به غاية التكتم، كما أنشد بعضهم في ذلك:

مَن سارروه فأبدى السرَّ مجتهدًا لم يأمنوه على الأسرارِ ما عاشَا
وأبعَدوه فلم يَظفَرْ بقربهمُ وأبدَلوه مكانَ الأُنسِ إيحاشَا
لا يأمنون مذيعًا بعضَ سرهمُ حاشا ودادهم مِن ذلكم حاشَا

والقوم أعظم شيء كتمانًا لأحوالهم مع الله، وما وهب اللَّه لهم من محبته والأنس به، وجمعية القلب عليه، ولا سيما للمبتدئ والموحد، فإذا

تمكن أحدهم وقوي وثبتت أصول تلك الشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء في قلبه، بحيث لا يخشى عليه من العواصف، فإنه إذا أبدى حاله وشأنه مع اللَّه ليُقتدى به ويُؤتم به لم يبال، وهذا باب عظيم النفع، وإنما يعرفه أهله.

وإذا كان الدعاء المأمور بإخفائه يتضمن دعاء الطلب والثناء والمحبة والإقبال على الله، فهو من أعظم الكنوز التي هي أحق بالإخفاء والستر عن أعين الحاسدين، وهذه فائدة شريفة نافعة!

عاشرها: أن الدعاء هو ذكر للمدعو، سبحانه، متضمن للطلب منه والثناء عليه بأسمائه وأوصافه، فهو ذكر وزيادة، كما أن الذكر سمي دعاء لتضمنه الطلب، كما قال النبي ﷺ: «**أفضلُ الدعاءِ الحمدُ للهِ**». حسن[1].

فسمى (الحمد لله) دعاء، وهو ثناء محض؛ لأن الحمد يتضمن الحب والثناء، والحب أعلى أنواع الطلب للمحبوب، فالحامد طالب لمحبوبه، فهو أحق أن يسمى داعيًا من السائل الطالب من ربه حاجة ما، فتأمل هذا الموضع، ولا تحتاج إلى ما قيل أن الذاكر متعرض للنوال، وإن لم يكن مصرحًا بالسؤال، فهو داع بما تضمنه ثناؤه من التعرض، كما قال أمية بن أبي الصلت:

أأذكرُ حاجتي أم قد كفاني ... حياؤك إن شيمتَك الحياءُ
إذا أثنى عليك المرءُ يومًا ... كفاه من تعرضِه الثناءُ

وعلى هذه الطريقة التي ذكرناها، فنفس الحمد والثناء متضمن لأعظم

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٨٣)، والنسائي في «اليوم والليلة» كما في «التحفة» (٢/ ٢٣٨) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

الطلب، وهو طلب المحب، فهو دعاء حقيقة، بل أحقُّ أن يسمى دعاء من غيره من أنواع الطلب الذي هو دونه.

والمقصود: أن كل واحد من الدعاء والذكر يتضمن الآخر، ويدخل فيه، وقد قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، فأمر تعالى نبيه أن يذكره في نفسه.

قال مجاهد وابن جريج: «أمر أن يذكروه في الصدور بالتضرع والاستكانة دون رفع الصوت أو الصياح»[1].

وقد تقدم حديث أبي موسى ﷺ: كنا مع النبي ﷺ في سفر، فارتفعت أصواتنا بالتكبير، فقال: «**يا أيها الناس، أَرْبِعوا على أنفسِكم، فإنكم لا تَدْعون أصمَّ ولا غائبًا، إنما تدعون سميعًا قريبًا، أقربُ إلى أحدِكم من عنقِ راحلتِه**». رواه البخاري ومسلم[2].

وتأمل كيف قال في آية الذكر: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وفي آية الدعاء: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، فذكر التضرع فيهما معًا، وهو التذلل والتمسكن والانكسار، وهو روح الذكر والدعاء، وخص الدعاء الخفية لما ذكرنا من الحِكَم وغيرها.

- **اقتران محبة اللّه بالخوف منه:**

وخص الذكر بالخيفة لحاجة الذاكر إلى الخوف، فإن الذكر يستلزم المحبة ويثمرها ولا بد، فمن أكثر من ذكر اللّه تعالى أثمر له ذلك محبته،

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٨/ ٢٠٧).

(٢) سلف تخريجه.

والمحبة ما لم تُقرن بالخوف، فإنها لا تنفع صاحبها، بل قد تضره؛ لأنها توجب الإدلال والانبساط، وربما آلت بكثير من الجهال المغرورين إلى أنهم استغنوا بها عن الواجبات، وقالوا: المقصود من العبادات إنما هو عبادة القلب، وإقباله على الله، ومحبته له، وتألهه له، فإذا حصل المقصود فالاشتغال بالوسيلة باطل، ولقد حدثني رجل أنه أنكر على رجل من هؤلاء خلوة له ترك فيها حضور الجمعة فقال له الشيخ: أليس الفقهاء يقولون: إذا خاف على شيء من ماله فإن الجمعة تسقط عنه؟ فقال له: بلى، فقال له: فقلب المريد أعز عليه من ضياع عشرة دراهم - أو كما قال - وهو إذا خرج ضاع قلبه، فحفظه لقلبه عذر مسقط للجمعة في حقه. فقال له: هذا غرور، بل الواجب عليه الخروج إلى أمر اللَّه وحفظ قلبه مع الله، فالشيخ المربي العارف يأمر المريد بأن يخرج إلى الأمر، ويراعى حفظ قلبه. أو كما قال.

فتأمل هذا الغرور العظيم، كيف آل بهؤلاء إلى الانسلاخ عن الإسلام جملة، فإن من سلك هذا المسلك انسلخ عن الإسلام العام، كانسلاخ الحية من قشرها، وهو يظن أنه من الخاصة أنواع العبادة، وسبب هذا: اقتران الخوف من اللَّه تعالى بحبه وإرادته، ولهذا قال بعض السلف: «مَن عبَد اللَّه تعالى بالحب وحده فهو زنديق، ومَن عبَده بالخوف وحده فهو حروري، ومَنْ عَبَدَهُ بالرجاء وحده فهو مرجي، ومَنْ عَبَدَهُ بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن»[(١)].

وقد جمع اللَّه تعالى هذه المقامات الثلاثة بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ﴾ [الإسراء: ٥٧]، فابتغاء الوسيلة هو محبته الداعية إلى التقرب إليه، ثم ذكر

---

(١) ذكره ابن رجب الحنبلي في «التخويف من النار» (ص٢٩).

بعدها الرجاء والخوف، فهذه طريقة عباده وأوليائه.

وربما آل الأمر بمن عبده بالحب المجرد إلى استحلال المحرمات، ويقول: المحب لا يضره ذنب!

وصنف بعضهم في ذلك مصنفًا، وذكر فيه أثرًا مكذوبًا: «**إذا أحب اللَّه العبد لم تضره الذنوب**». وهذا كذب قطعًا منافٍ للإسلام، فالذنوب تضر بالذات لكل أحد كضرر السم للبدن.

ولو قدر أن هذا الكلام صح عن بعض الشيوخ - وأما عن رسول اللَّه ﷺ فمعاذ اللَّه من ذلك - فله محمل، وهو أنه إذا أحبه لم يدعه حبه إياه إلى أن يصر على ذنب؛ لأن الإصرار على الذنب منافٍ لكونه محبًّا لله، وإذا لم يصر على الذنب بل بادر إلى التوبة النصوح منه، فإنه يمحو أثره ولا يضر الذنب، وكلما أذنب وتاب إلى اللَّه ال عنه أثر الذنب وضرره، فهذا المعنى صحيح.

والمقصود أن تجريد الحب والذكر عن الخوف يوقع في هذه المعاطب، فإذا اقترن بالخوف جمعه على الطريق ورده إليها كلما شرد.

فكأن **الخوف** سوط يضرب به مطيته؛ لئلا تخرج عن الدرب، **والرجاء** حاد يحدوها يطيب لها السير، **والحب** قائدها وزمامها الذي يسوقها، فإذا لم يكن للمطية سوط، ولا عصا يردها إذا حادت عن الطريق، وتركت تركب التعاسيف خرجت عن الطريق وضلت عنها، فما حفظت حدود اللَّه ومحارمه، ووصل الواصلون إليه بمثل خوفه ورجائه ومحبته، فمتى خلا القلب عن هذه الثلاثة فسد فسادًا لا يرجى صلاحه أبدًا، ومتى ضعف فيه شيء من هذه ضعف إيمانه بحسبه اقتران الخيفة والخفية بالذكر والدعاء، **فتأمل أسرار القرآن الكريم وحكمته في هذا الاقتران**، فإنه قال: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ

﴿فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ﴾، فلم يحتج بعدها أن يقول: خفية. وقال في الدعاء: ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ﴾، فلم يحتج أن يقول في الأول: ادعوا ربكم تضرعًا وخيفة. فانتظمت كل واحدة من الآيتين للخيفة والخفية والتضرع أحسن انتظام، ودلت على ذلك أكمل دلالة، وذكر الطمع الذي هو الرجاء في آية الدعاء؛ لأن الدعاء مبني عليه، فإن الداعي ما لم يطمع في سؤله ومطلوبه لم تتحرك نفسه لطلبه، إذ طلب ما لا طمع فيه ممتنع.

وذكر الخوف في آية الذكر لشدة حاجة الخائف إليه، كما تقدم، فذكر في كل آية ما هو اللائق بها، والأولى بها من الخوف والطمع، فتبارك من أنزل كلامه شفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين»[(١)].

- **أنواع الدعاء**

«**والدعاء ثلاثة أقسام:**

أحدها: أن يسأل اللَّه تعالى بأسمائه وصفاته، وهذا أحد التأويلين في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

والثاني: أن تسأله بحاجتك وفقرك وذُلِّكَ، فتقول: أنا العبد الفقير المسكين البائس الذليل المستجير، ونحو ذلك.

والثالث: أن تسأل حاجتك، ولا تذكر واحدًا من الأمرين، فالأول أكمل من الثاني، والثاني أكمل من الثالث، فإذا جمع الدعاء الأمور الثلاثة كان أكمل.

وهذه عامة أدعية النبي ﷺ»[(٢)].

---

(١) «بدائع الفوائد» (٣/ ٥١٧-٥٢٣).

(٢) «جلاء الأفهام» (١/ ١٥٣).

- **المقصود بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[الأعراف: ٥٥]**

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾. قيل: المراد أنه لا يحب المعتدين في الدعاء، كالذي يسأل ما لا يليق به من منازل الأنبياء، وغير ذلك، وقد روى أبو داود في «**سننه**» من حديث حماد بن سلمة، عن سعيد الجريري، عن أبي نعامة: أن عبد اللَّه بن مغفل ﷺ سمع ابنه يقول: اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها. فقال: يا بني، سل اللَّه الجنة، وتعوذ به من النار، فإني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**إنه سيكون في هذه الأمةِ قومٌ يعتدون في الطُّهورِ والدعاءِ**»[1].

- **أنواع الاعتداء في الدعاء:**

وعلى هذا فالاعتداء بالدعاء تارة بأن يسأل ما لا يجوز له سؤاله، من الإعانة على المحرمات، وتارة بأن يسأل ما لا يفعله الله، مثل أن يسأله تخليده إلى يوم القيامة، أو يسأله أن يرفع عنه لوازم البشرية، من الحاجة إلى الطعام والشراب، أو يسأله أن يطلعه على غيبه، أو يسأله أن يجعله من المعصومين، أو يسأله أن يهب له ولدًا من غير زوجة ولا أَمَة، ونحو ذلك مما سؤاله اعتداء، فكل سؤال يناقض حكمة الله، أو يتضمن مناقضة شرعه وأمره، أو يتضمن خلاف ما أخبر به، فهو اعتداء لا يحبه الله، ولا يحب سائله.

وفُسر الاعتداء برفع الصوت أيضًا في الدعاء، **قال ابن جريج**: «**من الاعتداء رفع الصوت في الدعاء، والنداء في الدعاء والصياح**»[2].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم قريبًا.

وبعد، فالآية أعم من ذلك كله، وإن كان الاعتداء في الدعاء مرادًا بها، فهو من جملة المراد، واللَّه لا يحب المعتدين في كل شيء، دعاء كان أو غيره، كما قال: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]، وعلى هذا فيكون قد أمر بدعائه وعبادته، وأخبر أنه لا يحب أهل العدوان، وهم الذين يدعون معه غيره، فهؤلاء أعظم المعتدين عدوانًا، فإن أعظم العدوان الشرك، وهو وضع العبادة في غير موضعها، فهذا العدوان لا بد أن يكون داخلًا في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]، ومن العدوان أن يدعوه غير متضرع، بل دعاء مُدِلّ، كالمستغني بما عنده، المُدِلّ على ربه به، وهذا من أعظم الاعتداء المنافي لدعاء الضارع الذليل الفقير المسكين من كل جهة في مجموع حالاته، فمن لم يسأل مسألة مسكين متضرع خائف فهو معتد.

ومن الاعتداء أن تعبده بما لم يشرعه، وتثني عليه بما لم يثن به على نفسه، ولا أذن فيه، فإن هذا اعتداء في دعاء الثناء والعبادة، وهو نظير الاعتداء في دعاء المسألة والطلب.

وعلى هذا فتكون الآية دالة على شيئين:

أحدهما: محبوب للرب تبارك وتعالى، مُرضٍ له، وهو الدعاء تضرعًا وخفية.

الثاني: مكروه له مبغوض مسخوط، وهو الاعتداء.

فأمر بما يحبه اللَّه وندب إليه، وحذر مما يبغضه وزجر عنه بما هو أبلغ طرق الزجر والتحذير، وهو أنه لا يحب فاعله، ومن لم يحبه اللَّه فأي خير يناله؟!

وفي قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ عقب قوله: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ دليل على أن من لم يدعه تضرعًا وخفية فهو من المعتدين، الذين لا يحبهم، فقسمت الآية الناس إلى قسمين: داعٍ لله تضرعًا وخفية، ومعتدٍ بترك ذلك»[1].

* * *

(١) «بدائع الفوائد» (٣/ ٥٢٤، ٥٢٥).



عبادة غير اللَّه أعظم الفساد في الأرض

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]. قال أكثر المفسرين: لا تفسدوا فيها بالمعاصي والدعاء إلى غير طاعة الله، بعد إصلاح اللَّه إياها ببعث الرسل وبيان الشريعة والدعاء إلى طاعة الله[١].

فإن عبادة غير اللَّه والدعوة إلى غيره والشرك به هو أعظم فساد في الأرض بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو بالشرك به ومخالفة أمره.

قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، وقال عطية في الآية: «**ولا تعصوا في الأرض؛ فيمسك اللَّه المطر، ويهلك الحرث بمعاصيكم**»[٢]. وقال غير واحد من السلف: «إذا قحط المطر؛ فإن الدواب تلعن عصاة بني آدم، وتقول: اللهم العنهم، فبسببهم أجدبت الأرض وقحط المطر»[٣].

وبالجملة: فالشرك، والدعوة إلى غير الله، وإقامة معبود غيره، ومطاع متبع غير رسول اللَّه ﷺ، هو أعظم الفساد في الأرض، ولا صلاح لها ولا لأهلها إلا أن يكون اللَّه وحده هو المعبود، والدعوة له لا لغيره، والطاعة والاتباع لرسوله، ليس إلا، وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول، فإذا أمر بمعصيته وخلاف شريعته فلا سمع له ولا طاعة؛ فإن اللَّه أصلح

(١) راجع «جامع البيان» للطبري (٨/ ٢٠٧)، و«معالم التنزيل» للبغوي (٢/ ١٦٦)، و«الدر المنثور» للسيوطي (٣/ ٤٧٦- ٤٧٧).

(٢) ذكره عنه البغوي في «تفسيره» (٢/ ١٦٦).

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٢/ ٥٥).

الأرض برسوله ودينه وبالأمر بتوحيده، ونهى عن إفسادها بالشرك به وبمخالفة رسوله.

ومن تدبر أحوال العالم، وجد كل صلاح في الأرض فسببه توحيد اللَّه وعبادته وطاعة رسوله، وكل شر في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو وغير ذلك فسببه مخالفة رسوله والدعوة إلى غير اللَّه ورسوله.

ومن تدبر هذا حق التدبر، **وتأمل أحوال العالم منذ قام إلى الآن**، وإلى أن يرث اللَّه الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين - وجد هذا الأمر كذلك في خاصة نفسه، وفي حق غيره، عمومًا وخصوصًا، ولا قوة إلا باللَّه العلي العظيم»[١].

* * *

(١) «بدائع الفوائد» (٣/ ٥٢٥، ٥٢٦).

حكمة تكرار الأمر بالدعاء

وقوله تعالى: ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفًا وَطَمَعًاۚ﴾ [الأعراف: ٥٦]، إنما كرر الأمر بالدعاء لما ذكر معه من الخوف والطمع، فأمر أولًا بدعائه تضرعًا وخفية، ثم أمر بأن يكون الدعاء أيضًا خوفًا وطمعًا، وفصل بين الجملتين: **إحداهما**: خبرية، ومتضمنة للنهي، وهي قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]، **والثانية**: طلبية، وهي قوله: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، والجملتان مقررتان مقويتان للجملة الأولى، مؤكدتان لمضمونها، ثم لما تقدم تقريرها وبيان ما يضادها ويناقضها، أمر بدعائه خوفًا وطمعًا، ثم قرر ذلك وأكد مضمونه بجملة خبرية، وهي: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، فتعلق هذه الجملة بقوله: ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفًا وَطَمَعًاۚ﴾ كتعلق قوله: ﴿لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ بقوله: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعًا وَخُفۡيَةًۚ﴾.

ولما كان قوله تعالى: ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفًا وَطَمَعًاۚ﴾ مشتملًا على جميع مقامات الإيمان والإحسان، وهي: الحب والخوف والرجاء، عقبها بقوله: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]؛ أي: إنما ينال من دعاه خوفًا وطمعًا فهو المحسن، والرحمة قريب منه؛ لأن مدار الإحسان على هذه الأصول الثلاثة.

ولما كان دعاء التضرع والخفية يقابله الاعتداء بعدم التضرع والخفية، عقب ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾»[1].

«وذكر ابن أبي الدنيا في كتاب «**المجابين في الدعاء**» عن الحسن ﷺ

(١) «بدائع الفوائد» (٣/ ٥١٨- ٥٢٦).

قال: «**كان رجل من أصحاب النبي** ﷺ من الأنصار يكنى أبا مغلق، وكان تاجرًا يتجر بمال له ولغيره، يضرب به في الآفاق، وكان ناسكًا ورعًا، فخرج مرة فلقيه لص مقنع في السلاح، فقال له: ضع ما معك فإني قاتلك. قال: فما تريد إلا دمي، فشأنك والمال. قال: أما المال فلي، ولست أريد إلا دمك. قال: أما إذا أبيت فذرني أصلي أربع ركعات. قال: صلِّ ما بدا لك. فتوضأ ثم صلى أربع ركعات، فكان من دعائه في آخر سجدة أن قال: يا ودود، يا ذا العرش المجيد، يا فعال لما تريد، أسألك بعزك الذي لا يرام، وبملكك الذي لا يضام، وبنورك الذي ملأ أركان عرشك، أن تكفيني شر هذا اللص، يا مغيث أغثني، يا مغيث أغثني، يا مغيث أغثني - ثلاث مرات - ، فإذا هو بفارس أقبل بيده حربة، قد وضعها بين أذني فرسه، فلما بصر به اللص أقبل نحوه فطعنه فقتله، ثم أقبل إليه فقال: قم. فقال: من أنت بأبي أنت وأمي؟ فقد أغاثني اللّه بك اليوم. فقال: أنا ملك من أهل السماء الرابعة، دعوتَ فسمعتُ لأبواب السماء قعقعة، ثم دعوتَ بدعائك الثاني فسمعتُ لأهل السماء ضجة، ثم دعوتَ بدعائك الثالث فقيل لي: دعاء مكروب. فسألتُ اللّه أن يوليني قتله. قال الحسن: فمن توضأ وصلى أربع ركعات، ودعا بهذا الدعاء استجيب له، مكروبًا كان أو غير مكروب»[1]»[2].

* * *

(١) «مجابو الدعوة» (١/ ٦٤).

(٢) «الجواب الكافي» (١/ ٧).

تضمن توحيد الألوهية للأسماء والصفات

«وإذا شرح اللَّه صدر عبده بنوره الذي يقذفه في قلبه، أراه في ضوء ذلك النور حقائق الأسماء والصفات التي تضل فيها معرفة العبد - إذ لا يمكن أن يعرفها العبد على ما هي عليه في نفس الأمر - وأراه في ضوء ذلك النور حقائق الإيمان، وحقائق العبودية، وما يصححها وما يفسدها، وتفاوت معرفة الأسماء والصفات، والإيمان والإخلاص، وأحكام العبودية، بحسب تفاوتهم في هذا النور، قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ [الحديد: ٢٨]، فيكشف لقلب المؤمن في ضوء ذلك النور عن حقيقة المثل الأعلى، مستويًا على عرش الإيمان في قلب العبد المؤمن.

فيشهد بقلبه ربًّا عظيمًا قاهرًا قادرًا، أكبر من كل شيء، في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله، السموات السبع قبضة إحدى يديه، والأرضون السبع قبضة اليد الأخرى، يمسك السموات على أصبع، والأرضين على أصبع، والجبال على أصبع، والشجر على أصبع، والثرى على أصبع، ثم يهزهن، ثم يقول: «**أنا الملك**»[1].

فالسماوات السبع في كفِّه كخردلة في كف العبد، يحيط ولا يحاط به،

---

(١) تقدم تخريجه.

ويحصر خلقه ولا يحصرونه، ويدركهم ولا يدركونه[1].

لو أن الناس من لدن آدم إلى آخر الخلق قاموا صفًّا واحدًا، ما أحاطوا به سبحانه.

ثم يشهده في علمه فوق كل عليم، وفي قدرته فوق كل قدير، وفي جوده فوق كل جواد، وفي رحمته فوق كل رحيم، وفي جماله فوق كل جميل، حتى لو كان جمال الخلائق كلهم على شخص واحد منهم ثم أعطى الخلق كلهم مثل ذلك الجمال، لكانت نسبته إلى جمال الرب سبحانه دون نسبة سراج ضعيف إلى ضوء الشمس، ولو اجتمعت قوى الخلائق على شخص واحد منهم، ثم أعطي كل منهم مثل تلك القوة، لكانت نسبتها إلى قوته سبحانه دون نسبة قوة البعوضة إلى حملة العرش، ولو كان جودهم على رجل واحد، وكل الخلائق على ذلك الجود لكانت نسبته إلى جوده دون نسبة قطرة إلى البحر.

وكذلك علم الخلائق إذا نسبت إلى علمه كان كنقرة عصفور من البحر، وكذلك سائر صفاته، كحياته وسمعه وبصره وإرادته، فلو فرض البحر المحيط بالأرض مداد تحيط به سبعة أبحر، وجميع أشجار الأرض شيئًا بعد شيء أقلام، لفني ذلك المداد والأقلام، ولا تفنى كلماته ولا تنفد، فهو أكبر في علمه من كل عالم، وفي قدرته من كل قادر، وفي جوده من كل جواد، وفي غناه من كل غني، وفي علوه من كل عال، وفي رحمته من كل رحيم، استوى على عرشه، واستولى على خلقه، متفرد بتدبير مملكته، فلا قبض ولا بسط، ولا عطاء ولا منع، ولا ضلال ولا هدى، ولا سعادة ولا شقاوة،

(١) ورد نحوه عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، وتقدم تخريجه.

ولا موت ولا حياة، ولا نفع ولا ضر - إلا بيده، لا مالك غيره، ولا مدبر سواه، لا يستقل أحد معه بملك مثقال ذرة في السموات والأرض، ولا له شركة في ملكها، ولا يحتاج إلى وزير ولا ظهير ولا معين، ولا يغيب فيخلفه غيره، ولا يعيا فيعينه سواه، ولا يتقدم أحد بالشفاعة بين يديه إلا من بعد إذنه، لمن شاء وفيمن شاء. فهو أول مشاهد المعرفة.

ثم يترقى منه إلى مشهد فوقه لا يتم إلا به، وهو مشهد الإلهية، فيشهده سبحانه متجليًا في كماله، بأمره ونهيه، ووعده ووعيده، وثوابه وعقابه، وفضله في ثوابه، فيشهد ربًّا قيومًا متكلمًا، آمرًا ناهيًا، يحب ويبغض، ويرضى ويغضب، قد أرسل رسله، وأنزل كتبه، وأقام على عباده الحجة البالغة، وأتم عليهم نعمته السابغة، يهدي من يشاء؛ نعمة منه وفضلاً، ويضل من يشاء؛ حكمة منه وعدلاً، ينزل إليهم أوامره، وتعرض عليه أعمالهم، لم يخلقهم عبثًا، ولم يتركهم سدًى، بل أمره جارٍ عليهم في حركاتهم وسكناتهم، وظواهرهم وبواطنهم، فلله عليهم حكم وأمر، في كل تحريكة وتسكينة، ولحظة ولفظة.

وينكشف له في هذا النور عدله وحكمته، ورحمته ولطفه، وإحسانه وبره، في شرعه وأحكامه، وأنها أحكام رب رحيم، محسن لطيف حكيم، قد بهرت حكمته العقول، وأقرت بها الفطر، وشهدت لمنزلها بالوحدانية، ولمن جاء بها بالرسالة والنبوة.

وينكشف له في ضوء ذلك النور إثبات صفات الكمال، وتنزيهه سبحانه عن النقص والمثال، وأن كل كمال في الوجود فمعطيه وخالقه أحق به وأولى، وكل نقص وعيب فهو سبحانه منزه متعال عنه.

وينكشف له في ضوء هذا النور حقائق المعاد واليوم الآخر، وما أخبر به الرسول عنه، حتى كأنه يشاهده عيانًا، وكأنه يخبر عن اللَّه وأسمائه وصفاته، وأمره ونهيه، ووعده ووعيده، إخبار من كأنه قد رأى وعاين وشاهد ما أخبر به، فمن أراد سبحانه هدايته شرح صدره لهذا، فاتسع له وانفسح، ومن أراد ضلالته جعل صدره من ذلك في ضيق وحرج، لا يجد فيه مسلكًا ولا منفذًا، واللَّه الموفق المعين.

وهذا الباب يكفي اللبيب في معرفة القدر والحكمة، ويطلعه على العدل والتوحيد الذي تضمنهما قوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُولُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ﴾ [آل عمران: ١٨، ١٩][1].

* * *

(١) «شفاء العليل» (١/١٠٨، ١٠٩).

طريقة القرآن في محاجة المشركين وبيان بطلان عقائدهم وأعمالهم

قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].

«**فتأمل** كيف أخذت هذه الآية على المشركين بمجامع الطرق التي دخلوا منها إلى الشرك وسدتها عليهم أحكم سد وأبلغه، فإن العابد إنما يتعلق بالمعبود لما يرجو من نفعه، وإلا فلو لم يرج منه منفعة لم يتعلق قلبه به، وحينئذٍ فلا بد أن يكون المعبود مالكًا للأسباب التي ينفع بها عابده، أو شريكًا لمالكها، أو ظهيرًا أو وزيرًا ومعاونًا له، أو وجيهًا ذا حرمة وقدر يشفع عنده، فإذا انتفت هذه الأمور الأربعة من كل وجه وبطلت؛ انتفت أسباب الشرك وانقطعت مواده، فنفى سبحانه عن آلهتهم أن تملك مثقال ذرة في السموات والأرض، فقد يقول المشرك: هي شريكة لمالك الحق. فنفى شركتها له، فيقول المشرك: قد تكون ظهيرًا ووزيرًا ومعاونًا. فقال: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾.

فلم يبق إلا الشفاعة، فنفاها عن آلهتهم، وأخبر أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، فهو الذي يأذن للشافع، فإن لم يأذن له لم يتقدم بالشفاعة بين يديه، كما يكون في حق المخلوقين، فإن المشفوع عنده يحتاج إلى الشافع ومعاونته له، فيقبل شفاعته، وإن لم يأذن له فيها.

وأما من كل ما سواه فقير إليه بذاته، وهو الغني بذاته عن كل ما سواه،

فكيف يشفع عنده أحد بدون إذنه؟!

وكذلك قوله سبحانه مقررًا لبرهان التوحيد أحسن تقرير وأوجزه وأبلغه: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الإسراء: ٤٢].

فإن الآلهة التي كانوا يثبتونها معه سبحانه كانوا يعترفون بأنها عبيده ومماليكه، ومحتاجة إليه، فلو كانوا آلهة - كما يقولون - لعبدوه وتقربوا إليه وحده دون غيره، فكيف يعبدونهم من دونه؟!

وقد أفصح سبحانه بهذا بعينه في قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء: ٥٧] أي: هؤلاء الذين يعبدونهم من دوني هم عبيدي، كما أنتم عبيدي، يرجون رحمتي ويخافون عذابي، كما ترجون أنتم رحمتي وتخافوني عذابي، فلماذا تعبدونهم من دوني؟!

وقال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون: ٩١].

فتأمل هذا البرهان الباهر بهذا اللفظ الوجيز البين، فإن الإله الحق لا بد أن يكون خالقًا فاعلاً يوصل إلى عابده النفع ويدفع عنه الضر، فلو كان معه سبحانه إله لكان له خلق وفعل، وحينئذ فلا يرضى بشركة الإله الآخر معه، بل إن قدر على قهره وتفرده بالإلهية دونه فعل، وإن لم يقدر على ذلك انفرد بخلقه وذهب به، كما ينفرد ملوك الدنيا عن بعضهم بعضًا بممالكهم، إذا لم يقدر المنفرد على قهر الآخر والعلو عليه، فلا بد من أحد أمور ثلاثة:

- إما أن يذهب كل إله بخلقه وسلطانه.
- وإما أن يعلو بعضهم على بعض.
- وإما أن يكون كلهم تحت قهر إله واحد، وملك واحد، يتصرف فيهم ولا يتصرفون فيه، ويمتنع من حكمهم عليه، ولا يمتنعون من حكمه عليهم، فيكون وحده هو الإله الحق، وهم العبيد المربوبون المقهورون.

وانتظام أمر العالم العلوي والسفلي وارتباط بعضه ببعض، وجريانه على نظام محكم لا يختلف ولا يفسد من أدل دليل على أن مدبره واحد، لا إله غيره كما دل دليل التمانع على أن خالقه واحد لا رب له غيره، فذاك تمانع في الفعل والإيجاد، وهذا تمانع في العبادة والإلهية، فكما يستحيل أن يكون للعالم ربان خالقان متكافئان، يستحيل أن يكون له إلهان معبودان، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [لقمان: ١١]، فلله!! ما أحلى هذا اللفظ وأوجزه وأدله على بطلان الشرك! فإنهم إن زعموا أن آلهتهم خلقت شيئًا مع الله طولبوا بأن يروه إياه، وإن اعترفوا بأنها أعجز وأضعف، وأقل من ذلك كانت إلهيتها باطلاً ومحالاً، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾﴾ [الأحقاف: ٤]، فطالبهم بالدليل العقلي والسمعي، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾ [الرعد: ١٦]، فاحتج على تفرده بالإلهية بتفرده بالخلق وعلى بطلان إلهية ما سواه بعجزهم

عن الخلق، وعلى أنه واحد – بأنه قهار، والقهر التام يستلزم الوحدة، فإن الشركة تنافي تمام القهر.

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤].

فتأمل هذا المثل الذي أُمر الناس كلهم باستماعه، فمن لم يستمعه فقد عصى أمره، كيف تضمن إبطال الشرك وأسبابه بأصح برهان في أوجز عبارة وأحسنها وأحلاها، وسجل على جميع آلهة المشركين أنهم لو اجتمعوا كلهم في صعيد واحد، وساعد بعضهم بعضًا وعاونه بأبلغ المعاونة لعجزوا عن خلق ذباب واحد، ثم بين ضعفهم وعجزهم عن استنقاذ ما يسلبهم الذباب إياه حين يسقط عليهم، فأي إله أضعف من هذا الإله المطلوب ومن عابده الطالب نفعه وخيره؟!

فهل قدر القويَّ العزيزَ حقَّ قدره مَن أشرك معه آلهة هذا شأنها؟

فأقام سبحانه حجة التوحيد، وبين إفك أهل الشرك والإلحاد، بأعذب ألفاظ وأحسنها لم يستنكرها غموض، ولم يشنها تطويل، ولم يعبها تقصير، ولم تزر بها زيادة ولا نقص، بل بلغت في الحسن والفصاحة والبيان والإيجاز ما لا يتوهم متوهم، ولا يظن ظان أن يكون أبلغ في معناها منها، وتحتها من المعنى الجليل القدر، العظيم الشرف، البالغ في النفع ما هو أجل من الألفاظ»[1].

---

(١) «الصواعق المرسلة» (٢/ ٤٦١- ٤٦٧).

ومن هذا ما حكاه سبحانه في محاجة إبراهيم قومه بقوله: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٨٠ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨١ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢﴾ [الأنعام: ٨٠ - ٨٢].

فهذا الكلام لم يخرج في ظاهره مخرج كلام البشر الذي يتكلفه أهل النظر والجدال، والمقايسة والمعارضة، بل خرج في صورة كلام خبري يشتمل على مبادئ الحجاج ومقاطعه، مشيرًا إلى مقدمات الدليل ونتائجه، بأوضح عبارة وأفصحها وأقربها تناولاً.

والغرض منه: أن إبراهيم قال لقومه متعجبًا مما دعوه إليه من الشرك: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ﴾ وتطمعون أن تستنزلوني عن توحيده بعد أن هداني، وتأكدت بصيرتي، واستحكمت معرفتي بتوحيده بالهداية التي رزقنيها، وقد علمتم أن من كانت هذه حاله في اعتقاده أمرًا من الأمور عن بصيرة لا يعارضه فيها ريب، ولا يتخالجه فيها شك، فلا سبيل إلى استنزاله عنها.

وأيضًا فإن المحاجة والمجادلة بعد وضوح الشيء وظهوره نوع من العبث، بمنزلة المحاجة في طلوع الشمس، وقد رآها من يحاجونه بأعينهم، فكيف يؤثر حِجَاجكم له أنها لم تطلع بعد؟ ثم قال: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ﴾، وكأنه - صلوات اللَّه وسلامه عليه - يذكر أنهم خوفوه آلهتهم أن يناله منها معرة، كما قاله قوم هود له: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ﴾ [هود: ٥٤]، فقال إبراهيم عليه السلام: إن أصابني

مكروه فليس ذلك من قبل هذه الأصنام التي عبدتموها من دون الله، وهي أقل من ذلك، فإنها ليست مما يرجى ويخاف، بل يكون ذلك الذي أصابني من قبل الحيِّ الفعال الذي يفعل ما يشاء، الذي بيده الضر والنفع، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

ثم ذكر سعة علمه سبحانه في هذا المقام، منبهًا على موقع احتراز لطيف، وهو أن لله سبحانه علمًا فيَّ وفيكم وفي هذه الآلهة، لا يصل إليه علمي، فإذا شاء أمرًا من الأمور فهو أعلم بما يشاء، فإنه وسع كل شيء علمًا، فإذا أراد أن يصيبني بمكروه لا علم لي من أي جهة أتاني فعلمه محيط بما لم أعلمه، وهذا غاية التفويض والتبري من الحول والقوة وأسباب النجاة، وأنها بيد اللَّه لا بيدي.

وهكذا قال شعيب لقومه: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأعراف: ٨٩]، فردت الرسل العلم بما يفعله اللَّه إليه، وأنه إذا شاء شيئًا، فهو أعلم بما يشاؤه، ولا علم لنا بامتناعه وعدم كونه.

ثم رجع الخليل إليهم مقررًا للحجة فقال: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ يقول لقومه: كيف يسوغ في عقل، أو عند ذي لب، أن أخاف ما جعلتموه لله شريكًا في الإلهية، وهي ليست بموضع نفع ولا ضر، وأنتم لا تخافون أنكم أشركتم باللَّه في إلهيته أشياء لم ينزل بها حجة عليكم، ولا شرعها لكم، فالذي أشرك بخالقه وفاطره وباريه الذي يقر

بأنه خالق السموات والأرض، ورب كل شيء ومليكه، ومالك الضر والنفع، آلهة لا تخلق شيئًا، وهي مخلوقة، ولا تملك لأنفسها ولا لعابديها ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، وجعلها ندًّا له، ومثلاً في الإلهية تعبد ويسجد لها، ويخضع لها، ويتقرب إليها - أحق بالخوف ممن لم يجعل مع اللَّه إلهًا آخر، بل وحَّده وأفرده بالإلهية والربوبية، والعظمة والسلطان، والحب والخوف والرجاء، ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؟! فحكم اللَّه سبحانه بينهما بأحسن حكم خضعت له القلوب، وأقرت به الفطر، وانقادت له العقول، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

فتأمل هذا الكلام، وعجيب موقعه، في قطع الخصوم، وإحاطته بكل ما وجب في العقل، أن يرد به ما دعوه إليه، وأرادوا حمله عليه، وأخذه بمجامع الحجة التي لم تبق لطاعن مطعنًا ولا سؤالاً، ولما كانت بهذه المثابة أشار سبحانه بذكرها وعظمها بالإشارة إليها، وأضافها إلى نفسه؛ تعظيمًا لشأنها، فقال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنعام: ٨٣].

فعلم السامع بإضافته إياها إلى نفسه أنه هو الذي فهمها خليله، ولقنها إياه، وعنه سبحانه أخذها الخليل، وكفى بحجة يكون اللَّه ﷻ ملقنها لخليله وحبيبه أن تكون قاطعة لمواد العناد، قامعة لأهل الشرك والإلحاد.

وشبيه بهذا الاحتجاج القصة الثانية لإبراهيم في محاجة المشرك الذي أخبر اللَّه سبحانه عما جرى بينه وبينه، في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ

أَنَا أُحْيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة: ٢٥٨].

فإن من تأمل موقع الحجاج، وقطع المجادل فيما تضمنته هذه الآية، وقف على أعظم برهان بأوجز عبارة، فإن إبراهيم لما أجاب المحاج له في اللَّه بأنه الذي يحيي ويميت، أخذ عدو اللَّه معارضته بضرب من المغالطة، وهو أنه يقتل من يريد، ويستبقي من يريد، فقد أحيا هذا وأمات هذا، فألزمه إبراهيم على طرد هذه المعارضة أن يتصرف في حركة الشمس من غير الجهة التي يأتي اللَّه بها منها، إذا كان بزعمه قد ساوى اللَّه في الإحياء والإماتة، فإن كان صادقًا فليتصرف في الشمس تصرفًا تصح به دعواه، وليس هذا انتقالاً من حجة إلى حجة أوضح منها، كما زعم بعض النظار، وإنما هو إلزام للمدعي بطرد حجته إن كانت صحيحة»[1].

«**ومنها قوله تعالى**: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾ [إبراهيم: ١٨]، فشبه - تعالىٰ - أعمال الكفار في بطلانها وعدم الانتفاع بها برماد مرت عليه ريح شديدة في يوم عاصف، فشبه - سبحانه - أعمالهم في حبوطها وذهابها باطلاً، كالهباء المبثور، لكونها على غير أساس من الإيمان والإحسان، وكونها لغير اللَّه ﷻ، وعلى غير أمره - برماد طيرته الريح العاصف، فلا يقدر صاحبه على شيء منه وقت شدة حاجته إليه، فلذلك قال: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ﴾ لا يقدرون يوم القيامة مما كسبوا من أعمالهم على شيء، فلا يرون له أثرًا من ثواب، ولا

(١) «الصواعق المرسلة» (٢/ ٤٨٥- ٤٩١).

فائدة نافعة، فإن اللَّه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا لوجهه، موافقًا لشرعه.

والأعمال أربعة: فواحد مقبولٌ، وثلاثة مردودة:

فالمقبول: الخالص الصواب:

فالخالص: أَن يكون لله لا لغيره.

والصواب: أن يكون مما شرعه اللَّه على لسان رسوله.

والثلاثة المردودة ما خالف ذلك.

وفي تشبيهها بالرماد سرٌّ بديعٌ، وذلك للتشابه الذي بين أعمالهم، وبين الرماد في إحراق النَّار وإذهابها لأصل هذا وهذا، فكانت الأعمال التي لغير اللَّه وعلى غير مراده طعمة للنار، وبها تسعر النار على أصحابها، وينشئ اللَّه سبحانه لهم من أعمالهم الباطلة نارًا وعذابًا، كما ينشئ لأهل الأعمال الموافقة لأمره ونهيه التي هي خالصة لوجهِه من أَعمالهم نعيمًا وروحًا، فأثَّرت النَّار في أعمال أولئك حتى جعلتها رمادًا، فهم وأعمالهم وما يعبدون من دون اللَّه وقود النَّار»[1].

«**ومنها قوله تعالى:** ﴿۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [النحل: ٧٥، ٧٦]، هذان مثلان:

---

(١) «إعلام الموقعين» (١/ ١٧٠، ١٧١).

فالمثل الأول: ما ضربه اللَّه سبحانه لنفسه وللأوثان، فاللَّه سبحانه هو المالك لكل شيء، ينفق كيف يشاء على عبيده، سرًّا وجهرًا، وليلاً ونهارًا، يمينه ملأى لا يغيضها نفقة، سحَّاء الليل والنهار، والأوثان مملوكة عاجزة، لا تقدر على شيء، فكيف يجعلونها شركاء لي، ويعبدونها من دُوني مع هذا التَفَاوت العظيمِ والفَرقِ المبِينِ؟! هذا قول مجاهد وغيره[١].

وقال ابن عبَّاس - رضي اللَّه عنهما -: هو مثل ضربه اللَّه للمؤمن والكافر، ومثل المؤمن في الخير الذي عنده ثم رزقه منه رزقًا حسنًا، فهو ينفق منه على نفسه وعلى غيره سرًّا، وجهرًا، والكافر بمنزلة عبد مملوكٍ عاجز لا يقدر على شيء؛ لأنه لا خير عنده فهل يستوي الرجلان عند أحد من العقلاء؟

والقول الأول أشبه بالمراد؛ فإنه أظهر في بطلان الشرك، وأوضح عند المخاطب، وأعظم في إقامة الحجة، وأقرب نسبًا بقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [النحل: ٧٣، ٧٤]، ثم قال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٧٥].

ومن لوازم هذا المثل وأحكامه أن يكون المؤمن الموحد كمن رزقه منه رزقًا حسنًا، والكافر المشرك كالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء، فهذا مما نبه عليه المثل وأرشد إليه، فذكره ابن عباس - رضي اللَّه عنهما - منبهًا على إرادته، لا أنَّ الآية اختصت به، فتأمله فإنك تجده كثيرًا في كلام ابن عبَّاس - رضي اللَّه عنهما - وغيره من السَّلفِ في فهم القرآن، فيظنُّ الظان

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١٤/ ١٥٠).

أنَّ ذلك هو معنى الآية التي لا معنى لها غيره فيحكيه قوله»[١].

«**ومنها قوله تعالى**: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الروم: ٢٨]، وهذا دليل احتجَّ اللَّه سبحانه به على المشركين، حيث جعلوا له من عبيده وملكه شركاء، فأقام عليهم حجة يعرفون صحتها من نفوسهم لا يحتاجون فيها إلى غيرهم، ومن أبلغ الحجاج أن يأخذ الإنسان من نفسه ويحتج عليه بما هو في نفسه مقرر عندها معلوم لها، فقال: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم﴾ من عبيدكم وإمائكم شركاء في المال والأهل؛ أي: هل يشارككم عبيدكم في أموالكم وأهليكم، فأنتم وهم في ذلك سواء، تخافون أن يقاسموكم أموالكم ويشاطروكم إياها، ويستأثرون ببعضها عليكم، كما يخاف الشريك شريكه؟

وقال ابن عباس - رضي اللَّه عنهما - : «تخافونهم أن يرثوكم كما يرث بعضكم بعضًا، والمعنى: هل يرضى أحد منكم أن يكون عبده شريكه في ماله وأهله حتى يساويه في التصرف في ذلك، فهو يخاف أن ينفرد في ماله بأمر يتصرف فيه، كما يخاف غيره من الشركاء والأحرار؟ فإذا لم ترضوا ذلك لأنفسكم فلِمَ عدلْتم بي من خلقي من هو مملوك لي؟ فإن كان هذا الحكم باطلاً في فطركم وعقولكم، مع أنه جائز عليكم، ممكن في حقكم؛ إذ ليس عبيدكم مِلكًا لكم حقيقةً، وإنما هم إخوانكم جعلهم اللَّه تحت أيديكم، وأنتم وهم عبيد لي، فكيف تستجيزون مثل هذا الحكم في حقي، مع أن مَن جعلتموهم لي شركاء عبيدي وملكي وخلقي؟! فهكذا يكون تفصيل الآيات

---

(١) «إعلام الموقعين» (١/ ١٦٠، ١٦١).

لأولي العقول»[١].

«ومنها قوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٤]، فشبَّه أكثر الناس بالأنعام، والجامع بين النَّوعين التساوي في عدم قبول الهدى والانقياد له، وجعل الأكثرين أضلَّ سبيلاً من الأنعام؛ لأنَّ البهيمة يهديها سائقها فتهتدي وتتبع الطريق، فلا تحيد عنها يمينًا ولا شمالاً، والأكثرون يدعوهم الرسل ويهدونهم السبيل فلا يستجيبون ولا يهتدون، ولا يفرقون بين ما يضرهم وبين ما ينفعهم، والأنعام تفرق بين ما يضرها من النبات والطريق فتجتنبه، وما ينفعها فتؤثره، واللَّه تعالى لم يخلق للأنعام قلوبًا تعقل بها، ولا ألسنة تنطق بها، وأعطى ذلك لهؤلاء ثم لم ينتفعوا بما جعل لهم من العقول والقلوب والألسنة والأسماع، والأبصار فهم أضل من البهائم، فإن من لا يهتدي إلى الرشد، وإلى الطريق مع الدليل إليه، أضل وأسوأ حالاً ممن لا يهتدي حيث لا دليل معه»[٢].

«ومنها قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: ٣٩، ٤٠].

ذكر سبحانه للكافرين مثلين: مثلاً بالسَّراب، ومثلاً بالظلمات المتراكمة؛

(١) «إعلام الموقعين» (١/ ١٦٠).
(٢) «إعلام الموقعين» (١/ ١٥٩).

وذلك لأنَّ المعرضين عن الهدى والحقِّ نوعانِ:

أحدهما: من يظنُّ أنه على شيء، فيتبين له عند انكشاف الحقائق خلاف ما كان يظنه، وهذه حال أهل الجهل وأهل البدع والأهواء الذين يظنون أنهم على هدى وعلم، فإذا انكشفت الحقائق تبين لهم أنهم لم يكونوا على شيء، وأن عقائدهم وأعمالهم التي ترتبت عليها كانت كسراب بقيعة، يُرى في عين الناظر ماء، ولا حقيقة له.

وهكذا الأعمال التي لغير اللَّه وعلى غير أمره، يحسبها العامل نافعة له، وليست كذلك، وهذه هي الأعمال التي قال اللَّه ﷻ فيها: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣]، وتأمَّل جعل اللَّه سبحانه السَّراب بالقيعة، وهي: الأرض القَفْر الخالية من البناء والشجر والنبات والعالم، فمحل السَّراب أرض قفر لا شيء بها، والسراب لا حقيقة له، وذلك مطابق لأعمالهم وقلوبهم التي أقفرت من الإيمان والهدى.

وتأمَّل ما تحت قوله: ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾، والظمآن الذي قد اشتدَّ عطشه فرأى السَّراب فظنه ماءً، فتبعه فلم يجده شيئًا، بل خانه أحوجُ ما كان إليه، فكذلك هؤلاء لما كانت أعمالهم على غير طاعة الرسول ولغير الله؛ جُعِلَتْ كالسَّراب، فرفعت لهم أظمأ ما كانوا وأحوجَ ما كانوا إليها، فلم يجدوا شيئًا، ووجدوا اللَّه سبحانه ثَمَّ فجازاهم بأعمالهم ووفاهم حسابهم.

وفي «الصحيح» من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في حديث التَّجلِّي يوم القيامة: «**ثمَّ يُؤتَى بجهنَّمَ تُعرَضُ كأنَّها السَّرابُ، فيقالُ لليهودِ: ما كنتم تَعبدون؟ فيقولون: كنا نعبُدُ عُزَيرَ ابنَ اللَّهِ. فيقالُ: كَذَبتم، لم يكن للَّهِ صاحبةٌ ولا وَلَدٌ، فما تريدُونَ؟ قالوا: نُرِيدُ أن تَسْقِيَنا. فيقالُ: اشرَبُوا.**

فيَتساقَطُونَ في جهَنَّمَ، ثمَّ يقالُ للنَّصارى: ما كنتم تعبُدُونَ؟ فيقولون: كنا نَعْبُدُ المسيحَ ابنَ اللَّهِ. فيُقَالُ لهم: كَذبتم، لم يكن للَّهِ صاحبةٌ ولا وَلَدٌ، فما تريدون؟ فيقولون: نُرِيدُ أن تَسْقِيَنا. فيقال لهم: اشرَبوا. فيَتساقَطُون . . .». وذكر الحديث[١].

وهذه حال كل صاحب باطل، فإنه يخونه باطله أحوج ما كان إليه، فإن الباطل لا حقيقة له، وهو كاسمه باطل، فإذا كان الاعتقاد غير مطابق ولا حقّ؛ كان متعلقه باطلاً، وكذلك إذا كانت غاية العمل باطلة، كالعمل لغير الله، أو على غير أمره؛ بطل العمل ببطلان غايته، وتضرر عامله ببطلانه، وبحصول ضد ما كان يؤمله فلم يذهب عليه عمله واعتقاده، لا له ولا عليه، بل صار معذبًا بفوات نفعه، وبحصول ضد النفع، فلهذا قال تعالى: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾، فهذا مثل الضال الذي يحسب أنه على هدًى.

والنوع الثاني: أصحاب مثَل الظلمات المتراكمة، وهم الذين عرفوا الحقَّ والهدى، وآثروا عليه ظلمات الباطل والضلال، فتراكمت عليهم ظلمة الطبع، وظلمة النفوس، وظلمة الجهلِ؛ حيث لم يعملوا بعلمهم فصاروا جاهلين، وظلمة اتباع الغي والهوى، فحالهم كحال من كان في بحر لُجِّيٍّ لا ساحل له، وقد غشيه موج، ومن فوق ذلك الموج موج، ومن فوقه سحاب مظلم، فهو في ظلمة البحر، وظلمة الموج، وظلمة السحاب، وهذا نظير ما هو فيه من الظلمات التي لم يخرجه اللَّه منها إلى نور الإيمان.

وهذان المثلان بالسراب الذي ظنه مادة الحياة، وهو الماء، والظلمات

---

(١) حديثُ التجلي، ويقال حديثُ الرؤية: أخرجه البخاري (٤٥٨١، ٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣/ ٣٠٢، ٣٠٣).

المضادة للنور - نظير المثلين اللذَين ضربهما اللَّه للمنافقين والمؤمنين، وهو المثل المائيُّ، والمثَل الناريُّ، وجعل حظ المؤمنين منهما الحياة والإشراق، وحظ المنافقين منهما الظلمة المضادة للنور، والموت المضادَّ للحياة، فكذلك الكفار في هذين المثلَين حظهم من الماء السَّراب الذي يغر النَّاظرَ، ولا حقيقة له، وحظُّهم الظلماتُ المتراكمة، وهذا يجوز أن يكون المراد به حال كل طائفة من طوائف الكفار، وأنهم عدموا مادة الحياة والإضاءة بإعراضهم عن الوحي، فيكون المثلان صفتين لموصوف واحد، ويجوز أن يكون المراد به تنويع أحوال الكفار، وأنَّ أصحاب المثل الأول هم الذين عملوا على غير علم ولا بصيرة، بل على جهل وحسن ظنٍّ بالأسلاف، فكانوا يحسبون أنهم يحسنون صنعًا، وأصحاب المثل الثاني هم الذين استحبوا الضلالة على الهدى، وآثروا الباطل على الحقِّ، وعمُوا عنه بعد أن أبصروه، وجحدوه بعد أَن عرفوه، فهذا حال المغضوب عليهم، والأول حال الضالين، وحال الطائفتين مخالف لحال المنعم عليهم المذكورين في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ﴾. . . إلى قوله: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾ [النور: ٣٨]، فتضمنت الآيات أوصاف الفرق الثلاثة: المنعم عليهم وهم أهل النور، والضالين وهم أصحاب السراب، والمغضوب عليهم وهم أهل الظلمات المتراكمة، واللَّه أَعلم.

فالمثل الأول من المثلَين لأصحاب العمل الباطل الذي لا ينفع، والمثل الثاني لأصحاب العلم الذي لا ينفع والاعتقادات الباطلة، وكلاهما مضاد للهدى ودين الحق، ولهذا مثَّل حال الفريق الثاني في تلاطم أمواج الشُّكوك

والشبهات والعلوم الفاسدة في قلوبهم - بتلاطم أمواج البحر فيه، وأنها أمواج متراكمة من فوقها سحاب مظلم، وهكذا أمواج الشكوك والشبه في قلوبهم المظلمة التي قد تراكمت عليها سُحُبُ الغيِّ والهوى والباطل، فليتدبَّر اللبيب أحوال الفريقين، وليطابق بينهما وبين المثلَين يعرف عظمة القرآن وجلالته، وأنه تنزيل من حكيم حميد.

وأخبر سبحانه أن الموجب لذلك أنه لم يجعل لهم نورًا، بل تركهم على الظلمة التي خلقوا فيها، فلم يخرجهم منها إلى النُّور، فإنه سبحانه ﴿وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وفي «المسند» من حديث عبد اللَّه بن عمرو ﷺ أنَّ النبي ﷺ قال: «**إنَّ اللَّهَ خَلَقَ خلقَهُ في ظُلمَةٍ وألَقى عليهم من نُورِهِ، فَمَن أصابَهُ من ذلك النُّورِ اهتَدَى، ومَن أخطَأهُ ضَلَّ، فلذلك أقولُ: جَفَّ القَلَمُ على عِلْمِ اللَّهِ**»[1].

فاللَّه سبحانه خلق الخلق في ظلمة، فمن أراد هدايته جعل له نورًا وجوديًّا يُحيِي به قلبه وروحه، كما يحيي بدنه بالرُّوح التي ينفخها فيه، فهما حياتان: حياة البدن بالروح، وحياة الروح والقلب بالنور، ولهذا سمى سبحانه الوحي روحًا؛ لتوقف الحياة الحقيقية عليه، كما قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ﴾ [النحل: ٢]، وقال: ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾ [الشورى: ٥٢]، فجعل وحيه روحًا ونورًا، فمن لم يحيه بهذا الروح فهو ميت، ومن لم يجعل له نورًا منه فهو في

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٧٦، ١٩٧)، والترمذي (٥/ ٢٦) وقال هذا حديث حسن.

الظلمات ما له من نور»[1].

«**ومنها قوله تعالى**: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [العنكبوت: ٤١]، فذكر سبحانه أنهم ضعفاء، وأن الذين اتخذوهم أولياءهم أضعف منهم، فهم في ضعفهم وما قصدوه من اتخاذ الأولياء كالعنكبوت اتخذت بيتًا وهو أوهن البيوت وأضعفها، وتحت هذا المثل أنَّ هؤلاء المشركين أضعف ما كانوا حين اتخذوا من دون اللَّه أولياء، فلم يستفيدوا بمن اتخذوهم أولياء إلا ضعفًا، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [يس: ٧٤، ٧٥]، وقال بعد أن ذكر إهلاك الأمم المشركين: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾ [هود: ١٠١].

فهذه أربعة مواضع في القرآن تدلُّ على أن من اتخذ من دون اللَّه وليًا يتعزز به ويتكبَّر به ويستنصر به، لم يحصل له به إلا ضدُّ مقصوده، وفي القرآن أكثر من ذلك، وهذا من أحسن الأمثال وأدلها على بطلان الشِّرك وخسارة صاحبه وحصوله على ضدِّ مقصوده.

فإن قيل: فهم يعلمون أنَّ أوهن البيوت بيت العنكبوت، فكيف نُفِيَ عنهم علم ذلك بقوله: ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١]؟

---

(١) «إعلام الموقعين» (١/ ١٥٥- ١٥٨).

فالجواب: أنه سبحانه لم ينفِ عنهم علمهم بِوهَنِ بيت العنكبوت، وإنما نفى عنهم علمهم بأن اتخاذهم أولياء من دونه كالعنكبوت اتخذت بيتًا، فلو علموا ذلك لما فعلوه، ولكن ظنوا أن اتخاذهم الأولياء من دونه يفيدهم عزًّا وقدرة، فكان الأمر بخلاف ما ظنوه(١).

«ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾﴾ [الأعراف: ١٩٤، ١٩٥]، فبين سبحانه أنَّ هذه الأصنام أشباح وصور خاليةٌ عن صفات الإلهيَّة، وأنَّ المعنى المعتبر معدوم فيها، وأنها لو دعيت لم تجب، فهي صور خالية عن أوصافٍ ومعانٍ تقتضي عبادتها، وزاد هذا تقريرًا بقوله: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾﴾ [الأعراف: ١٩٥]؛ أي: أنَّ جميع ما لهذه الأصنام من الأعضاء التي نحتتها أيديكم إنما هي صور عاطلة عن حقائقها وصفاتها؛ لأن المعنى المراد المختص بالرِّجلِ هو مشيها، وهو معدومٌ في هذه الرِّجلِ، والمعنى المختصُّ باليد هو بطشها، وهو معدوم في هذه اليد، والمرادُ بالعينِ إبصارها، وهو معدومٌ في هذه العين، ومن الأذنِ سمعها، وهو معدوم فيها، والصور في ذلك كله ثابتة موجودة، وكلها فارغة خالية من الأوصاف والمعاني، فاستوى وجودها وعدمها»(٢).

---

(١) «إعلام الموقعين» (١/ ١٥٤، ١٥٥).
(٢) «إعلام الموقعين» (١/ ١٤٩، ١٥٠).

فضل سورة «الإخلاص»

«أما الذي أخرجه أصحاب الصحيح كالبخاري ومسلم فأخرجوا فضل قل هو اللَّه أحد، وروي[(١)] عن الدارقطني أنه قال: «**لم يصح في فضل سورة أكثر مما صح في فضلها**»، وكذلك أخرجوا فضل فاتحة الكتاب قال فيها: «**إنَّه لم يَنزلْ في التوراةِ، ولا في الإنجيلِ، ولا في القرآنِ مثلُها**»[(٢)]. لم يذكر فيها أنها تعدل جزءًا من القرآن كما قال في: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الاخلاص: ١] إنها تعدل ثلث القرآن، ففي «**صحيح البخاري**» عن الضحاك المشرقي عن أبى سعيد الخدري قال: قال رسول اللَّه ﷺ لأصحابه: «**أيَعْجِزُ أحدُكم أن يقرَأ بثلثِ القرآنِ في ليلةٍ؟**». فشقَّ ذلك عليهم، وقالوا: أينا يطيق ذلك يا رسول الله؟! قال: «**اللهُ الواحدُ الصمدُ، ثلثُ القرآنِ**»[(٣)].

وفى «صحيح مسلم» عن معدان بن أبى طلحة، عن أبى الدرداء، عن النبي ﷺ قال: «**أيَعْجِزُ أحدُكم أن يَقرأَ في ليلةٍ ثلثَ القرأن؟**» قالوا: وكيف يقرأ ثلث القرآن؟ قال: «﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ تعدِلُ ثلثَ القرآنِ»[(٤)].

وروى مسلم أيضًا عن أبى الدرداء عن النبي ﷺ قال: «**إنَّ اللهَ جزَّأَ القرآنَ ثلاثةَ أجزاءٍ، فجعَل** ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ جزءًا من أجزاءِ القرآنِ»[(٥)].

وفي «صحيح البخاري» عن عبد الرحمن بن عبد اللَّه بن أبي صَعْصَعَة عن

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٧/ ٦).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٨٧٥)، من حديث أبي هريرة ﷺ، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه البخاري (٤/ ١٩١٦)،

(٤) أخرجه مسلم (١/ ٥٥٦).

(٥) أخرجه مسلم (١/ ٥٥٦).

أبي سعيد: أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ يرددها، فلما أصبح جاء إلى النبي ﷺ فذكر ذلك له، وكان الرجل يتقالُّها، فقال رسول اللَّه ﷺ : «**والذي نفسي بيده، إنَّها لتعدِلُ ثلثَ القرآنِ**»[١].

وأخرج عن أبي سعيد، قال: أخبرني أخي قتادة بن النعمان: «**أن رجلاً قام في زمن رسول اللَّه يقرأ من السحر**: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ لايزيد عليها. . .» الحديث بنحوه[٢].

وفي «**صحيح مسلم**» عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ : «**احشدوا فإني سأقرأُ عليكم ثلثَ القرآنِ**». قال: فحشد من حشد، ثم خرج نبي اللَّه ﷺ فقرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ ثم دخل، فقال بعضنا لبعض: إني أرى هذا خبرًا جاءه من السماء، فذاك الذي أدخله ثم خرج نبي اللَّه ﷺ فقال: «**إني قلتُ لكم: سأقرأُ عليكم ثلثَ القرآنِ، ألا إنها تعدِلُ ثلثَ القرآنِ**»[٣]. وفي لفظ له قال: خرج علينا رسول اللَّه ﷺ فقال: «**أقرأُ عليكم ثلثَ القرآنِ**». فقرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ حتى ختمها[٤].

«**وأما توجيه ذلك**: فقد قالت طائفة من أهل العلم: إن القرآن باعتبار معانيه ثلاثة أثلاث: ثلث توحيد، وثلث قصص، وثلث أمر ونهي، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ هي صفة الرحمن ونسبه، وهي متضمنة ثلث القرآن؛ وذلك لأن القرآن كلام اللَّه تعالى، والكلام إما إنشاء وإما إخبار، فالإنشاء:

---

(١) أخرجه البخاري (٤/ ١٩١٥).
(٢) أخرجه البخاري (٤/ ١٩١٥).
(٣) أخرجه مسلم (١/ ٥٥٧).
(٤) أخرجه مسلم (١/ ٥٥٧).

هو الأمر والنهي، وما يتبع ذلك، كالإباحة ونحوها، وهو الأحكام، والإخبار إما إخبار عن الخالق، وإما إخبار عن المخلوق، فالإخبار عن الخالق: هو التوحيد وما يتضمنه من أسماء اللَّه وصفاته، والإخبار عن المخلوق: هو القصص وهو الخبر عما كان وعما يكون، ويدخل فيه الخبر عن الأنبياء وأممهم، ومَن كذَّبهم، والإخبار عن الجنة والنار، والثواب والعقاب، قالوا: فبهذا الاعتبار تكون ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ تعدل ثلث القرآن؛ لما فيها من التوحيد الذي هو ثلث معاني القرآن»[1].

«**وسمع النبي** ﷺ رجلًا يدعو: اللهم إني أسألك بأنك أنت اللَّه الذي لا إله إلا أنت، المنان، بديع السموات والأرض، ياذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم. وسمع آخر يدعو: اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت اللَّه الذي لا إله إلا أنت، الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد. فقال لأحدهما: «**لقد سألتَ اللهَ باسمِه الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى**». وقال للآخر: «**سَلْ تُعطَه**»[2]. وذلك لما تضمنه هذا الدعاء من أسماء الرب وصفاته، وأحب ما دعاه الداعي به أسماؤه وصفاته»[3].

* * *

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٧/ ٢٠٧).

(٢) أخرجه أحمد الإمام (٣/ ٢٤٥)، وأبو داود (١/ ٢٥٩).

(٣) «الصواعق المرسلة» (٣/ ٩١٢).

البراءة من الشرك وأهله

«وهي اشتمال هذه السورة على النفي المحض، فهذا هو خاصة هذه السورة العظيمة، فإنها سورة براءة من الشرك، كما جاء في وصفها أنها براءة من الشرك، فمقصودها الأعظم هو البراءة المطلوبة بين الموحدين والمشركين[١].

ولهذا أتى بالنفي في الجانبين؛ تحقيقا للبراءة المطلوبة، هذا مع أنها متضمنة للإثبات صريحًا، فقوله: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢﴾ [الكافرون: ٢] براءة محضة، ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣﴾ [الكافرون: ٣] إثبات أن له معبودًا يعبده، وأنتم بريئون من عبادته، فتضمنت النفي والإثبات، وطابقت قول إمام الحنفاء: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ۝٢٧﴾ [الزُّخرف: ٢٦، ٢٧]، وطابقت قول فئة الموحدين: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الكهف: ١٦]، فانتظمت حقيقة لا إله إلا اللّه تعالى، ولهذا كان النبي ﷺ يقرنها بسورة ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ في سنة الفجر وسنة المغرب، فإن هاتين السورتين سورتا الإخلاص. (صحيح)[٢].

---

(١) قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٧٢٦): هذه السورة سورة البراءة من العمل الذي يعمله المشركون، وهي آمرة بالإخلاص فيه. ا؟.

(٢) أخرجه الترمذي (٤٣١)، من عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال: «ما أحصي ما سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقرأ في الركعتين بعد المغرب وفي الركعتين قبل صلاة الفجر: بـ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝١﴾ و﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾».

وأخرجه مسلم (٧٢٦/ ٩٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول اللهﷺ : «قرأ في ركعتي الفجر: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝١﴾ و﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾».

وفي الباب عن ابن عمر وأنس بن مالك، وأبي هريرة، وابن عباس، وحفصة، وعائشة رضي الله عنهم.

وقد اشتملتا على نوعي التوحيد الذي لا نجاة للعبد ولا فلاح إلا بهما، وهما:

توحيد العلم والاعتقاد: المتضمن تنزيه اللَّه عما لا يليق به من الشرك والكفر والولد والوالد، وأنه إله أحد صمد، لم يلد فيكون له فرع، ولم يولد فيكون له أصل، ولم يكن له كفوًا أحد فيكون له نظير، ومع هذا فهو الصمد الذي اجتمعت له صفات الكمال كلها، فتضمنت السورة إثبات ما يليق بجلاله من صفات الكمال، ونفي ما لا يليق به من الشريك أصلاً وفرعًا ونظيرًا، فهذا توحيد العلم والاعتقاد.

والثاني توحيد القصد والإرادة: وهو أن لا يعبد إلا إياه، فلا يشرك به في عبادته سواه، بل يكون وحده هو المعبود، وسورة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ①﴾ مشتملة على هذا التوحيد، فانتظمت السورتان نوعي التوحيد وأخلصتا له، فكان ﷺ يفتتح بهما النهار في سنة الفجر، ويختم بهما في سنة المغرب[(١)].

وفي السنن أنه كان يوتر بهما، فيكونان خاتمان عمل الليل، كما كانا خاتمة عمل النهار[(٢)].

ومن هنا تخريج جواب **مسألة**، وهي: تقديم براءته من معبودهم، ثم أتبعها ببراءتهم من معبوده فتأمله.

وأما المسألة الثانية: وهي إثباته هنا بلفظ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ دون يا أيها الذين كفروا، فسره، واللَّه أعلم، إرادة الدلالة على أن من كان الكفر وصفًا

---

(١) تقدم في الذي قبله.

(٢) أخرجه أبو داود (١٤٢٣)، والنسائيُ (٣/ ٢٣٥)، من حديث أُبيّ بن كعب ﷺ.

ثابتًا لا لازمًا لا يفارقه فهو حقيق أن يتبرأ اللَّه منه، ويكون هو أيضًا بريئًا من الله، فحقيق بالموحد البراءة منه، فكان في معرض البراءة التي هي غاية البعد والمجانبة بحقيقة حاله التي هي غاية الكفر، وهو الكفر الثابت اللازم في غاية المناسبة، فكأنه يقول: كما أن الكفر لازم لكم ثابت لا تنتقلون عنه، فمجانبتكم والبراءة منكم ثابتة دائمًا أبدًا. ولهذا أتى فيها بالنفي الدال على الاستمرار مقابلة الكفر الثابت المستمر، وهذا واضح.

وأما المسألة الثالثة: وهي ما الفائدة في قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝﴾ [الكافرون: ٦]، وهل أفاد هذا معنى زائدًا على ما تقدم، فيقال في ذلك من الحكمة واللَّه أعلم: إن النفي الأول أفاد البراءة، وأنه لا يتصور منه ولا ينبغي له أن يعبد معبوديهم، وهم أيضًا لا يكونون عابدين لمعبوده، وأفاد آخر السورة إثبات ما تضمنه النفي من جهتهم من الشرك والكفر الذي هو حظهم وقسمهم ونصيبهم، فجرى ذلك مجرى من اقتسم هو وغيره أرضًا، فقال له: لا تدخل في حدي، ولا أدخل في حدك، لك أرضك، ولي أرضي. فتضمنت الآية أن هذه البراءة اقتضت أنَّا اقتسمنا خطتنا بيننا، فأصابنا التوحيد والإيمان، فهو نصيبنا، وقسمنا الذي نختص به لا تشركونا فيه، وأصابكم الشرك باللَّه والكفر به، فهو نصيبكم وقسمكم الذي تختصمون به، لا نشرككم به، فتبارك من أحيا قلوب من شاء من عباده بفهم كلامه، وهذه المعاني ونحوها إذا تجلت للقلوب رافلة في حللها فإنها تسبي القلوب وتأخذ بمجامعها، ومن لم يصادف من قلبه حياة فهي خَوْدٌ[1] تُزَفُّ إلى ضرير مقعد، فالحمد لله على مواهبه التي لا تنتهي، ونسأله إتمام نعمته.

(١) الخَوْدُ: الفتاة الحسنة الخَلق الشابة. «اللسان» (خ و د).

وأما المسألة الرابعة: وهي تقديم قسمهم ونصيبهم على قسمه ونصيبه، وفي أول السورة قدم ما يختص بهم، فهذا من أسرار الكلام، وبديع الخطاب الذي لا يدركه إلا فُحول البلاغة وفرسانها، فإن السورة لما اقتضت البراءة واقتسام ديني التوحيد والشرك بينه وبينهم، ورضي كلٌّ بقسمه، وكان المحق هو صاحب القسمة، وقد برز النصيبين وميز القسمين، وعلم أنهم راضون بقسمهم الدون الذي لا أردأ منه، وأنه هو قد استولى على القسم الأشرف والحظ الأعظم، بمنزلة من اقتسم هو وغيره سُمًّا وشفاء، فرضي مُقاسمه بالسُّم، فإنه يقول له: لا تشاركني في قسمي، ولا أشاركك في قسمك، لك قسمك ولي قسمي. فتقديم ذكر قسمه هاهنا أحسن وأبلغ، كأنه يقول: هذا هو قسمك الذي آثرته بالتقديم، وزعمت أنه أشرف القسمين وأحقهما بالتقديم. فكان في تقديم ذكر قسمه من التهكم به، والنداء على سوء اختياره، وقبح ما رضيه لنفسه من الحسن والبيان ما لا يوجد في ذكر تقديم قسم نفسه، والحاكم في هذا هو الذوق، والفَطِنُ يكتفي بأدنى إشارة، وأما غليظ الفهم فلا ينجع فيه كثرة البيان.

ووجه ثان: وهو أن مقصود السورة براءته ﷺ من دينهم ومعبودهم، هذا هو لبها ومغزاها، وجاء ذكر براءتهم من دينه ومعبوده بالقصد الثاني، مكملاً لبراءته ومحققًا لها، فلما كان المقصود براءته من دينهم بدأ به في أول السورة، ثم جاء قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ مطابقًا لهذا المعنى؛ أي: لا أشارككم في دينكم ولا أوافقكم عليه، بل هو دين تختصون أنتم به لا أشرككم فيه أبدًا. فطابق آخر السورة أولها، فتأمله»[1].

---

(١) «بدائع الفوائد» (١/ ١٤٦، ١٤٧).

طريقة القرآن في تقرير الإيمان بالمعاد

وقال سبحانه في تثبيت أمر البعث: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٨، ٧٩] إلى آخر السورة، فلو رام أعلم البشر وأفصحهم وأقدرهم على البيان أن يأتي بأحسن من هذه الحجة، أو بمثلها، في ألفاظ تشابه هذه الألفاظ: في الإيجاز، والاختصار، ووضوح الدلالة، وصحة البرهان - لألفى نفسه ظاهر العجز، منقطع الطمع، يستحي الناس من ذلك، فإنه سبحانه افتتح هذه الحجة بسؤال أورده الملحد اقتضى جوابًا، فكان في قوله سبحانه: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ ما وفَّى بالجواب، وأقام الحجة، وأزال الشبهة، لولا ما أراد سبحانه من تأكيد حجته وزيادة تقريرها؛ وذلك أنه سبحانه أخبر أن هذا الملحد السائل عن هذه المسألة لو لم ينس خَلْقَ نفسِه، وبِدْء كونِه، وذِكْرَ خلقِه، لكانت فكرته فيه كافية في جوابه، مسكتة له عن هذا السؤال، ثم أوضح سبحانه ما تضمنه قوله: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾، وصرح به جوابًا له عن مسألته، فقال: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾، فاحتج بالإبداء على الإعادة، وبالنشأة الأولى على النشأة الأخرى؛ إذ كل عاقل يعلم علمًا ضروريًا أن مَن قدر على هذه قدر على هذه، وأنه لو كان عاجزًا عن الثانية لكان عن الأولى أعجز وأعجز، ولما كان الخلق يستلزم قدرة الخالق على مخلوقه، وعلمه بتفاصيل خلقه، أتبع ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾، فهو عليم بالخلق الأول، وتفاصيله، وجزئياته، ومواده، وصورته، وعلله الأربع، وكذلك هو عليم بالخلق الثاني

وتفاصيله، ومواده، وكيفية إنشائه، فإن كان تام العلم، كامل القدرة، كيف يتعذر عليه أن يحيي العظام وهي رميم؟! ثم أكد الأمر بحجة قاهرة وبرهان ظاهر يتضمن جوابًا عن سؤال ملحد آخر، يقول: العظام إذا صارت رميمًا عادت طبيعتها باردة يابسة، والحياة لا بد أن تكون مادتها وحاملها طبيعته حارة رطبة لتقبل صورة الحياة!! فتولى سبحانه جواب هذا السؤال بما يدل على أمر البعث، ففيه الدليل والجواب معًا، فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠﴾ [يس: ٨٠]، فأخبر سبحانه بإخراج هذا العنصر الذي هو في غاية الحرارة، واليبوسة من الشجر الأخضر الممتلئ بالرطوبة والبرودة، فالذي يخرج الشيء من ضده وتنقاد له مواد المخلوقات وعناصرها، ولا تستعصي عليه، هو الذي يفعل ما أنكره الملحد ودفعه من إحياء العظام وهي رميم.

ثم أكد هذا بأخذ الدلالة من الشيء الأجل الأعظم على الأيسر الأصغر، وأن كل عاقل يعلم أن من قدر على العظيم الجليل فهو على ما دونه بكثير أقدر وأقدر، فمن قدر على حمل قنطار، فهو على حمل أوقية أشد اقتدارًا، فقال: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨١﴾ [يس: ٨١]، فأخبر سبحانه أن الذي أبدع السموات والأرض - على جلالتهما، وعظم شأنهما، وكبر أجسامهما، وسعتهما، وعجيب خلقتهما - أقدر على أن يحيي عظامًا قد صارت رميمًا، فيردها إلى حالتها الأولى، كما قال في موضع آخر: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧﴾ [غافر: ٥٧]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ

ٱلْمَوْتَىٰٓ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف: ٣٣].

ثم أخذ سبحانه ذلك وبَيَّنَهُ بيانًا آخر، يتضمن مع إقامة الحجة دفع شبهة كل ملحد وجاحد، وهو أنه ليس في فعله بمنزلة غيره الذي يفعل بالآلات والكلفة والتعب والمشقة، ولا يمكنه الاستقلال بالفع، بل لا بد معه من آلة ومشارك ومعين، بل يكفي في خلقه لما يريد أن يخلقه ويكونه نفس إرادته، وقوله للمكون: «كن» فإذا هو كائن كما شاءه وأراده.

فأخبر عن نفاذ مشيئته وإرادته، وسرعة تكوينه، وانقياد المكون له، وعدم استعصائه عليه.

ثم ختم هذه الحجة بإخباره أن ملكوت كل شيء بيده، فيتصرف فيه بفعله، وهو قوله: ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [يس: ٨٣].

فتبارك الذي تكلم بهذا الكلام، الذي جمع في نفسه، بوجازته وبيانه وفصاحته وصحة برهانه، كلَّ ما تلزم الحاجة إليه: من تقرير الدليل، وجواب الشبهة، ودحض حجة الملحد، وإسكات المعاند بألفاظ لا أعذب منها عند السمع، ولا أحلى منها ومن معانيها للقلب، ولا أنفع من ثمرتها للعبد.

ومن هذا قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾ [الإسراء: ٤٩ - ٥٢].

فتأمل ما أجيبوا به عن كل سؤال على التفصيل، فإنهم قالوا: ﴿أَءِذَا كُنَّا

عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا﴾، فقيل لهم في جواب هذا السؤال: إن كنتم تزعمون أنه لا خالق لكم ولا رب، فهلَّا كنتم خلقًا جديدًا لا يفنيه الموت كالحجارة والحديد، أو ما هو أكبر في صدوركم من ذلك؟!! فإن قلتم: لنا رب خالق، خلقنا على هذه الصفة، وأنشأنا هذه النشأة التي لا تقبل البقاء ولم يجعلنا حجارة ولا حديدًا. فقد قامت عليكم الحجة بإقراركم، فما الذي يحول بين خالقكم ومنشئكم وبين إعادتكم خلقًا جديدًا؟!

وللحجة تقرير آخر: وهو أنكم لو كنتم من حجارة أو حديد، أو خلق أكبر منهما، لكان قادرًا على أن يفنيكم، ويحيل ذواتكم، وينقلها من حال إلى حال.

ومن قدر على التصرف في هذه الأجسام مع شدتها وصلابتها بالإفناء والإحالة ونقلها من حال إلى حال، فما يعجزه عن التصرف فيما هو دونها بإفنائه وإحالته ونقله من حال إلى حال.

فأخبر سبحانه أنهم يسألون سؤالاً آخر بقولهم: ﴿من يُعِيدُنَاۖ﴾ إذا استحالت أجسامنا وفنيت؟ فأجابهم بقوله: ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾، وهذا الجواب نظير جواب قول السائل: ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾.

فلما أخذتهم الحجة، ولزمهم حكمها، ولم يجدوا عنها معدلاً، انتقلوا إلى سؤال آخر يتعللون به، كما يتعلل المقطوع بالحجاج بمثل ذلك، وهو قولهم: ﴿مَتَىٰ هُوَۖ﴾؟! فأجيبوا بقوله: ﴿قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾

ومن هذا قوله سبحانه: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمۡنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ

بِقَدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة: ٣٦ - ٤٠]، فاحتج سبحانه على أنه لا يترك الإنسان مهملاً معطلاً عن الأمر والنهي، والثواب والعقاب، وأن حكمته وقدرته تأبى ذلك، فإن من نقله من نطفة مني إلى العلقة، ثم إلى المضغة، ثم خلقه، وشق سمعه وبصره، وركب فيه الحواس والقوى، والعظام والمنافع والأعصاب، والرباطات التي هي أسره، وأتقن خلقه وأحكمه غاية الإحكام، وأخرجه على هذا الشكل والصورة التي هي أتم الصور، وأحسن الأشكال، كيف يعجز عن إعادته وإنشائه مرة ثانية؟ أم كيف تقتضي حكمته وعنايته به أن يتركه سدًى؟ فلا يليق ذلك بحكمته ولا تعجز عنه قدرته.

فانظر إلى هذا الحجاج العجيب بالقول الوجيز الذي لا يكون أوجز منه، والبيان الجليل الذي لا يتوهم أوضح منه، ومأخذه القريب الذي لا تقع الظنون على أقرب منه»(١).

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [فصّلت: ٣٩]، فدل سبحانه عباده بما أراهم من الإحياء الذي تحققوه وشاهدوه على الإحياء الذي استبعدوه، وذلك قياس إحياء على إحياء، واعتبار الشيء بنظيره، والعلة الموجبة هي عموم قدرته سبحانه وكمال حكمته، وإحياء الأرض دليل العلة.

ومنه قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الروم: ١٩]، فدل بالنظير على النظير،

---

(١) «الصواعق المرسلة» (٢/ ٤٧٣- ٤٨١).

وقرب أحدهما من الآخر جدًا بلفظ الإخراج؛ أي: يخرجون من الأرض أحياء، كما يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ﴾ [الحج: ٥]، يقول سبحانه: ﴿إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ﴾ فلستم ترتابون في أنكم مخلوقون، ولستم ترتابون في مبدأ خلقكم من حال إلى حال إلى حين الموت والبعث الذي وعدتم به نظير النشأة الأولى، فهما نظيران في الإمكان والوقوع، فإعادتكم بعد الموت خلقًا جديدًا كالنشأة الأولى التي لا ترتابون فيها، فكيف تنكرون إحدى النشأتين مع مشاهدتكم لنظيرها؟!»[(١)].

ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴿٧﴾﴾ [الحج: ٥ - ٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [فصلت: ٣٩]

«جعل اللَّه سبحانه إحياء الأرض بعد موتها نظير إحياء الأموات، وإخراج النَّبات منها نظير إخراجهم من القبور، ودل بالنظير على نظيره، وجعل ذلك

---

(١) «إعلام الموقعين» (١/ ١٣٨- ١٤٠).

آية ودليلاً على خمسة مطالب[١]:

أحدها: وجود الصانع، وأنه الحق المبين، وذلك يستلزم إثبات صفات كماله وقدرته وإرادته وحياته وعلمه وحكمته ورحمته وأفعاله.

الثاني: أنه يحيي الموتى.

الثالث: عموم قدرته على كل شيءٍ.

الرابع: إتيان الساعة وأنها لا ريب فيها.

الخامس: أنه يخرج الموتى من القبور كما أخرج النبات من الأرض.

وقال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾﴾ [عبس: ٢٤ - ٣١].

«فجعل سبحانه نظره في إخراج طعامه من الأرضِ دليلاً على إخراجه هو منها بعد موته، استدلالاً بالنظير على النظير.

ومن ذلك قوله سبحانه ردًّا على الذين قالوا: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [الإسراء: ٩٩]؛ أي: مثل هؤلاء المكذبين، والمراد به النشأة الثانية وهي الخلق الجديد، وهي المثل المذكور في غير موضع، وهم هم بأعيانهم، فلا تنافي في شيءٍ من ذلك، بل هو الحقُّ الذي دلَّ عليه العقل والسمع، ومن لم يفهم ذلك حق فهمه تخبط عليه أمر المعاد وبقي منه في أمر مريج.

والمقصود أنه دلهم سبحانه بخلق السموات والأرض على الإعادة

---

(١) «إعلام الموقعين» (١/ ١٤٤- ١٤٥).

والبعث، وأكد هذا القياس بضرب من الأولى، وهو أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، فالقادر على خلق ما هو أكبر وأعظم منكم أقدر على خلقكم، وليس أول الخلق بأهون عليه من إعادته، فليس مع المكذبين بالقيامة إلا مجرد تكذيب اللّه ورسله، وتعجيز قدرته ونسبة علمه إلى القصور والقدح في حكمته، ولهذا يخبر اللّه سبحانه عمن أنكر ذلك بأنه كافر بربه جاحد له، لم يقر برب العالمين فاطر السموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ [الرعد: ٥]، وقال المؤمن للكافر الذي قال: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف: ٣٦] فقال له: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ [الكهف: ٣٧]، فمنكر المعاد كافر برب العالمين، وإن زعم أنه مقرٌّ به.

ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [العنكبوت: ٢٠]، يقول تعالى: انظروا كيف بدأت الخلق، فاعتبروا الإعادة بالابتداء.

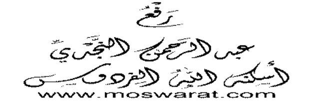
قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الروم: ٥٠]، وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ [ق: ٩ - ١١]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ

كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٠٤﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، والسجل: الورق المكتوب فيه. والكتاب: نفس المكتوب. واللام بمنزلة (على)؛ أي: نطوي السماء كطي الدرج على ما فيه من السطور المكتوبة.

ثم استدلّ على النظير بالنظير، فقال: ﴿كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]»[1].

* * *

(١) «إعلام الموقعين» (١/ ١٤٧، ١٤٨).



أصول الإيمان

«وقد جمعت هذه السورة من أصول الإيمان ما يكفي ويشفي ويغني عن كلام أهل الكلام، ومعقول أهل المعقول، فإنها تضمنت تقرير المبدأ والمعاد، والتوحيد والنبوة، والإيمان بالملائكة، وانقسام الناس إلى هالك شقي وفائز سعيد، وأوصاف هؤلاء وهؤلاء، وتضمنت إثبات صفات الكمال لله وتنزيهه عما يضاد كماله من النقائص والعيوب، وذكر فيها القيامتين: الصغرى والكبرى، والعالَمين: الأكبر، وهو عالم الآخرة، والأصغر، وهو عالم الدنيا، وذكر فيها خلق الإنسان، ووفاته وإعادته، وحاله عند وفاته، ويوم معاده، وإحاطته سبحانه به من كل وجه، حتى علمه بوساوس نفسه، وإقامة الحفظة عليه يحصون عليه كل لفظة يتكلم بها، وأنه يوافيه يوم القيامة ومعه سائق يسوقه إليه، وشاهد يشهد عليه، فإذا أحضره السائق قال: ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ [ق: ٢٣]؛ أي: هذا الذي أمرت بإحضاره قد أحضرته، فيقال عند إحضاره: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾﴾ [ق: ٢٤]، كما يحضر الجاني إلى حضرة السلطان، فيقال: هذا فلان قد أحضرته، فيقول: اذهبوا به إلى السجن، وعاقبوه بما يستحقه.

وتأمل كيف دلت السورة صريحًا على أن اللَّه سبحانه يعيد هذا الجسد بعينه الذي أطاع وعصى، فينعمه ويعذبه، كما ينعم الروح التي آمنت بعينها، ويعذب التي كفرت بعينها، لا أنه سبحانه يخلق روحًا أخرى غير هذه فينعمها ويعذبها، كما قاله من لم يعرف المعاد الذي أخبرت به الرسل، حيث زعم أن اللَّه سبحانه يخلق بدنًا غير هذا البدن من كل وجه، عليه يقع النعيم

والعذاب، والروح عنده عرض من أعراض البدن، فيخلق روحًا غير هذه الروح، وبدنًا غير هذا البدن.

وهذا غير ما اتفقت عليه الرسل، ودل عليه القرآن والسنة، وسائر كتب اللَّه تعالى، وهذا في الحقيقة إنكار للمعاد، وموافقة لقول من أنكره من المكذبين، فإنهم لم ينكروا قدرة اللَّه على خلق أجسام أخر غير هذه الأجسام يعذبها وينعمها، كيف وهم يشهدون النوع الإنساني يُخلق شيئًا بعد شيء، فكل وقت يخلق اللَّه سبحانه أجسامًا وأرواحًا غير الأجسام التي فنيت، فكيف يتعجبون من شيء يشاهدونه عيانًا؟ وإنما تعجبوا من عودهم بأعيانهم بعد أن مزقهم البلى، وصاروا عظامًا ورفاتًا، فتعجبوا أن يكونوا هم بأعيانهم مبعوثين للجزاء، ولهذا: ﴿قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [المؤمنون: ٨٢]، وقالوا: ﴿ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ﴾ [ق: ٣]، ولو كان الجزاء إنما هو لأجسام غير هذه، لم يكن ذلك بعثًا ولا رجعًا، بل يكون ابتداء، ولم يكن لقوله: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ﴿٤﴾﴾ [ق: ٤] كبير معنى، فإنه سبحانه جعل هذا جوابًا لسؤال مقدر وهو أنه يميز تلك الأجزاء التي اختلطت بالأرض، واستحالت إلى العناصر بحيث لا تتميز، فأخبر سبحانه أنه قد علم ما تنقصه الأرض من لحومهم، وعظامهم وأشعارهم، وأنه كما هو عالم بتلك الأجزاء، فهو قادر على تحصيلها وجمعها بعد تفرقها وتأليفها خلقًا جديدًا، وهو سبحانه يقرر المعاد بذكر كمال علمه وكمال قدرته وكمال حكمته، فإن شُبه المنكرين له كلها تعود إلى ثلاثة أنواع:

أحدها: اختلاط أجزائهم بأجزاء الأرض على وجه لا يتميز ولا يحصل

معها تميز شخص عن شخص.

الثاني: أن القدرة لا تتعلق بذلك.

الثالث: أن ذلك أمر لا فائدة فيه، أو إنما الحكمة اقتضت دوام هذا النوع الإنساني شيئًا بعد شيء، هكذا أبدًا، كلما مات جيل خلفه جيل آخر، فأما أن يميت النوع الإنساني كله ثم يحيه بعد ذلك فلا حكمة في ذلك.

فجاءت براهين المعاد في القرآن مبينة على ثلاثة أصول:

أحدها: تقرير كمال علم الرب سبحانه، كما قال في جواب من قال: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٨، ٧٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾ [الحجر: ٨٥، ٨٦]، وقال: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾﴾ [ق: ٤].

والثاني: تقرير كمال قدرته، كقوله: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ [يس: ٨١]، وقوله: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾ [القيامة: ٤]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾ [الحج: ٦]، ويجمع سبحانه بين الأمرين، كما في قوله: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ [يس: ٨١].

الثالث: كمال حكمته، كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الأنبياء: ١٦]، وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ [ص: ٢٧]، وقوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة: ٣٦]، وقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ

ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]، وقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: ٢١].

ولهذا كان الصواب أن المعاد معلوم بالعقل مع الشرع، وأن كمال الرب تعالى وكمال أسمائه وصفاته تقتضيه وتوجبه، وأنه منزه عما يقوله منكروه، كما ينزه كماله عن سائر العيوب والنقائص.

ثم أخبر سبحانه أن المنكرين لذلك لما كذبوا بالحق اختلط عليهم أمرهم ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق: ٥]؛ مختلط لا يحصلون منه على شيء.

ثم دعاهم إلى النظر في العالم العلوي، وبنائه وارتفاعه، واستوائه وحسنه والتئامه، ثم إلى العالم السفلي وهو الأرض، وكيف بسطها، وهيأها بالبسط لما يراد منها، وثبتها بالجبال، وأودع فيها المنافع، وأنبت فيها من كل صنف حسن من أصناف النبات، على اختلاف أشكاله وألوانه، ومقاديره ومنافعه وصفاته، وأن ذلك تبصرة إذا تأملها العبد المنيب وتبصر بها تذكَّر ما دلت عليه مما أخبرت به الرسل من التوحيد والمعاد.

فالناظر فيها يتبصر أولاً ثم يتذكر ثانيًا، وأن هذا لا يحصل إلا لعبد منيب إلى اللَّه بقلبه وجوارحه، ثم دعاهم إلى التفكر في مادة أرزاقهم وأقواتهم وملابسهم ومراكبهم وجناتهم، وهو الماء الذي أنزله من السماء وبارك فيه حتى أنبت به جنات مختلفة الثمار والفواكه، ما بين أبيض وأسود، وأحمر وأصفر، وحلو وحامض، وبين ذلك مع اختلاف منابعها وتنوع أجناسها، وأنبت به الحبوب كلها على تنوعها واختلاف منافعها وصفاتها وأشكالها ومقاديرها، ثم أفرد النخل لما فيه من موضع العبرة والدلالة التي لا تخفى

على المتأمل، وأحيا به الأرض بعد موتها، ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ﴾ [ق: ١١]؛ أي: مثل هذا الإخراج من الأرض، الفواكه والثمار والأقوات والحبوب - خروجكم من الأرض بعدما غُيبتم فيها، وقد ذكرنا هذا القياس وأمثاله من المقاييس الواقعة في القرآن في كتابنا «**المعالم**»، وبَيَّنَّا بعض ما فيها من الأسرار والعبر.

ثم انتقل سبحانه إلى تقرير النبوة بأحسن تقرير، وأوجز لفظ، وأبعده عن كل شبهة وشك، فأخبر أنه أرسل إلى قوم نوح وعاد وثمود، وقوم لوط وقوم فرعون، رسلاً فكذبوهم، فأهلكهم بأنواع الهلاك، وصدق فيهم وعيده الذي أوعدتهم به رسله إن لم يؤمنوا، وهذا تقرير لنبوتهم ولنبوة من أخبر بذلك عنهم، من غير أن يتعلم ذلك من معلم، ولا قرأه في كتاب، بل أخبر به إخبارًا مفصلاً، مطابقًا لما عند أهل الكتاب، ولا يرد على هذا إلا سؤال البهت والمكابرة على جحد الضروريات، بأنه لم يكن شيء من ذلك، أو أن حوادث الدهر ونكباته أصابتهم كما أصابت غيرهم، وصاحب هذا السؤال يعلم من نفسه أنه باهت مباهت جاحد لما شهد به العيان، وتناقلته القرون قرنًا بعد قرن، فإنكاره بمنزلة إنكار وجود المشهورين من الملوك والعلماء والبلاد النائية.

ثم عاد سبحانه إلى تقرير المعاد بقوله: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴿١٥﴾﴾ [ق: ١٥]، يقال لكل من عجز عن شيء: عيي به. وعيي فلان بهذا الأمر. قال الشاعر:

عيوا بأمرهم كما عيت ببيضتها الحمامة

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، قال ابن عباس

- رضي اللَّه عنهما - : «**يريد: أفعجزنا**»[1]. وليس المراد بالإعياء في هذه الآية التعب، كما يظنه من لم يعرف تفسير القرآن، بل هذا المعنى هو الذي نفاه سبحانه عن نفسه في آخر السورة، بقوله ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]، ثم أخبر سبحانه أنهم في: ﴿لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥]؛ أي: أنهم التبس عليهم إعادة الخلق خلقًا جديدًا، ثم نبههم على ما هو من أعظم آيات قدرته، وشواهد ربوبيته وأدلة المعاد، وهو خلق الإنسان، فإنه من أعظم الأدلة على التوحيد والمعاد، وأي دليل أوضح من تركيب هذه الصورة الآدمية بأعضائها، وقواها وصفاتها، وما فيها من اللحم والعظم، والعروق والأعصاب، والرباطات والمنافذ، والآلات والعلوم، والإرادات والصناعات، كل ذلك من نطفة ماء! فلو أنصف العبد ربه؛ لاكتفى بفكره في نفسه واستدل بوجوده على جميع ما أخبرت به الرسل عن اللَّه وأسمائه وصفاته.

ثم أخبر سبحانه عن إحاطة علمه به، حتى علم وساوس نفسه، ثم أخبر عن قربه إليه بالعلم والإحاطة، وأن ذلك أدنى إليه من العِرق الذي هو داخل بدنه، فهو أقرب إليه بالقدرة عليه والعلم به من ذلك العِرق.

وقال شيخنا: «المراد بقول: ﴿نَحْنُ﴾؛ أي: ملائكتنا، كما قال: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ [القيامة: ١٨]؛ أي: إذا قرأه عليك رسولنا جبريل». قال: «**ويدل عليه قوله**: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ [ق: ١٧]، فقيد القرب المذكور بتلقي الملكين، ولو كان المراد به قرب الذات لم يتقيد بوقت تلقي الملكين، فلا حجة في الآية لحلولي ولا معطل».

(١) انظر «تفسير البغوي» (٤/ ٢٢٢)، وابن كثير (٤/ ٢٨٤).

ثم أخبر سبحانه أن على يمينه وشماله ملكين يكتبان أعماله وأقواله، ونبه بإحصاء الأقوال وكتابتها على كتابة الأعمال التي هي أقل وقوعًا وأعظم أثرًا من الأقوال، وهي غايات الأقوال ونهايتها.

ثم أخبر عن القيامة الصغرى، وهي سكرة الموت، وأنها تجيء بالحق، وهو لقاؤه سبحانه، والقدوم عليه، وعرض الروح عليه، والثواب والعقاب الذي تعجل لها قبل القيامة الكبرى.

ثم ذكر القيامة الكبرى بقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ٢٠﴾ [ق: ٢٠]، ثم أخبر عن أحوال الخلق في هذا اليوم، وأن كل أحد يأتي اللَّه سبحانه ذلك اليوم ومعه سائق يسوقه وشهيد يشهد عليه، وهذا غير شهادة جوارحه، وغير شهادة الأرض التي كان عليها له وعليه، وغير شهادة رسوله والمؤمنين، فإن اللَّه سبحانه يستشهد على العبد الحفظة والأنبياء والأمكنة التي عملوا عليها الخير والشر، والجلود التي عصوه بها، ولا يحكم بينهم بمجرد علمه، وهو أعدل العادلين وأحكم الحاكمين.

ولهذا أخبر نبيه أنه يحكم بين الناس بما سمعه من إقرارهم وشهادة البينة، لا بمجرد علمه، فكيف يسوغ لحاكم أن يحكم بمجرد علمه من غير بينة ولا إقرار؟

ثم أخبر سبحانه أن الإنسان في غفلة من هذا الشأن الذي هو حقيق بأن لا يغفل عنه، وأن لا يزال على ذكره وباله، وقال: ﴿فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾ [ق: ٢٢]، ولم يقل: «عنه» كما قال: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾ [هود: ١١٠]، ولم يقل: «**في شك فيه**»، وجاء هذا في المصدر، وإن لم يجئ في الفعل، فلا يقال: «**غفلت منه**»، ولا «**شككت منه**»، كأن غفلته وشكّه ابتداء

منه، فهو مبدأ غفلته وشكه، وهذا أبلغ من أن يقال: «**في غفلة عنه**»، و«**شك فيه**»، فإنه جعل ما ينبغي أن يكون مبدأ التذكرة واليقين ومنشأهما مبدأ للغفلة والشك، ثم أخبر أن غطاء الغفلة والذهول يكشف عنه ذلك اليوم، كما يكشف غطاء النوم عن القلب فيستيقظ، وعن العين فتنفتح، فنسبة كشف هذا الغطاء عن العبد عند المعاينة كنسبة كشف غطاء النوم عنه عند الانتباه.

ثم أخبر سبحانه أن قرينه وهو الذي قرن به في الدنيا من الملائكة يكتب عمله وقوله، يقول لما يحضره: هذا الذي كنت وكلتني به في الدنيا قد أحضرته وأتيتك به. هذا قول مجاهد[1].

وقال ابن قتيبة: المعنى هذا ما كتبته عليه، وأحصيته من قوله وعمله حاضر عندي[2].

والتحقيق: أن الآية تتضمن الأمرين؛ أي: هذا الشخص الذي وكلت به، وهذا عمله الذي أحصيته عليه، فحينئذ يقال: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾﴾ [ق: ٢٤]، وهذا إما أن يكون خطابًا للسائق والشهيد، أو خطابًا للملك الموكل بعذابه، وإن كان واحدًا، وهو مذهب معروف من مذاهب العرب في خطابها، أو تكون الألف منقلبة عن نون التأكيد الخفيفة، ثم أجري الوصل مجرى الوقف.

• **ثم ذكر صفات هذا المُلْقَى، فذكر له ست صفات:**

أحدها: أنه كفار لنعم اللّٰه وحقوقه، كفار بدينه وتوحيده وأسمائه وصفاته، كفار برسله وملائكته، كفار بكتبه ولقائه.

---

(١) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٢٢٣)، والشوكاني في «فتح القدير» (٥/ ١٠٨)، عن مجاهد.

(٢) انظر «زاد المسير» لابن الجوزي (٨/ ١٤).

الثانية: أنه معاند للحق بدفعه جحدًا وعنادًا.

الثالثة: أنه مناع للخير، وهذا يعم منعه للخير الذي هو إحسان إلى نفسه من الطاعات والقرب إلى الله، والخير الذي هو إحسان إلى الناس، فليس فيه خير لنفسه ولا لبني جنسه، كما هو حال أكثر الخلق.

الرابعة: أنه مع منعه للخير معتد على الناس، ظلوم غشوم، معتد عليهم بيده ولسانه.

الخامسة: أنه مريب؛ أي: صاحب ريب وشك، ومع هذا فهو آت لكل ريبة، يقال: فلان مريب؛ إذا كان صاحب ريبة.

السادسة: أنه مع ذلك مشرك بالله، قد اتخذ مع اللَّه إلهاً آخر، يعبده ويحبه، ويغضب له، ويرضى له، ويحلف باسمه، وينذر له، ويوالي فيه، ويعادى فيه، فيختصم هو وقرينه من الشياطين، ويحيل الأمر عليه، وأنه هو الذي أطغاه وأضله، فيقول قرينه: لم يكن لي قوة أن أضله وأطغيه، ولكن كان في ضلال بعيد، اختاره لنفسه وآثره على الحق؛ كما قال إبليس لأهل النار: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ [إبراهيم: ٢٢]، وعلى هذا فالقرين هنا هو شيطانه، يختصمان عند الله.

وقالت طائفة: بل قرينه هاهنا هو الملَك، فيدعي عليه أنه زاد عليه فيما كتبه عليه وطغى، وأنه لم يفعل ذلك كله، وأنه أعجله بالكتابة عن التوبة، ولم يمهله حتى يتوب، فيقول الملك: ما زدت في الكتابة على ما عمل، ولا أعجلته عن التوبة، ولكن كان في ضلال بعيد، فيقول الرب تعالى: ﴿لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾ [ق: ٢٨]، وقد أخبر سبحانه عن اختصام الكفار والشياطين بين يديه في سورة «**الصافات**»، و«**الأعراف**»،

وأخبر عن اختصام الناس بين يديه في سورة «**الزمر**»، وأخبر عن اختصام أهل النار فيها في سورة «**الشعراء**» وسورة (ص).

ثم أخبر سبحانه أنه لا يبدل القول لديه، فقيل: المراد بذلك قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]، ووعده لأهل الإيمان بالجنة، وأن هذا لا يبدل، ولا يخلف.

قال ابن عباس - رضي اللَّه عنهما - : «**يريد ما لِوَعْدِي خُلْف لأهل طاعتي ولا أهل معصيتي**»[(١)]. **قال مجاهد**: «**قد قضيت ما أنا قاض**»[(٢)].

وهذا أصح القولين في الآية.

وفيها قول آخر: أن المعنى: «**ما يغير القول عندي بالكذب والتلبيس، كما يغير عند الملوك والحكام**».

فيكون المراد بالقول قول المختصمين، وهو اختيار الفراء وابن قتيبة.

قال الفراء « المعنى ما يكذب عندي، لعلمي بالغيب».

وقال ابن قتيبة: «أي: ما يحرف القول عندي ولا يزاد فيه، ولا ينقص منه»[(٣)].

قال: لأنه قال: القول عندي. ولم يقل: قولي. وهذا كما يقال: لا يكذب عندي. فعلى القول الأول يكون قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٩] من تمام قوله: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ [ق: ٢٩] في المعنى أي: ما قلته ووعدت به لا بد من فعله، ومع هذا فهو عدل لا ظلم فيه ولا جور.

---

(١) راجع «تفسير البغوي» (٤/ ٢٢٤)، و«فتح القدير» (٥/ ١٠٩).
(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٢٦/ ١٦٩).
(٣) انظر «تفسير البغوي» (٤/ ٢٢٤).

وعلى الثاني يكون قد وصف نفسه بأمرين:

أحدهما: أن كمال علمه واطلاعه يمنع من تبديل القول بين يديه وترويج الباطل عليه، وكمال عدله وغناه يمنع من ظلمه لعبيده.

ثم أخبر عن سعة جهنم وأنها كلما أُلقي فيها تقول: هل من مزيد. وأخطأ من قال أن ذلك للنفي؛ أي: ليس من مزيد. والحديث الصحيح يرد هذا التأويل.

ثم أخبر عن تقريب الجنة من المتقين، وأن أهلها هم الذين اتصفوا بهذه الصفات الأربع:

إحداها: أن يكون أوابًا؛ أي: رجاعًا إلى اللَّه من معصيته إلى طاعته، ومن الغفلة عنه إلى ذكره.

قال عبيد بن عمير: «الأواب: الذي يتذكر ذنوبه ثم يستغفر منها». **وقال مجاهد**: «هو الذي إذا ذكر ذنبه في الخلاء استغفر منه». **وقال سعيد بن المسيب**: **«هو الذي يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب»**.

الثانية: أن يكون حفيظًا.

قال ابن عباس: «لما ائتمنه اللَّه عليه وافترضه. **وقال قتادة**: «حافظ لما استودعه اللَّه من حقه ونعمته».

ولما كانت النفس لها قوتان: قوة الطلب، وقوة الإمساك، كان الأواب مستعملاً لقوة الطلب في رجوعه إلى اللَّه ومرضاته وطاعته، والحفيظ مستعملاً لقوة الحفظ في الإمساك عن معاصيه ونواهيه، فالحفيظ: الممسك نفسه عما حرم عليه، والأواب: المقبل على اللَّه بطاعته.

الثالثة: قوله: ﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾ [ق: ٣٣]، يتضمن الإقرار

بوجوده وربوبيته، وقدرته وعلمه، واطلاعه على تفاصيل أحوال العبد، ويتضمن الإقرار بكتبه ورسله وأمره ونهيه، ويتضمن الإقرار بوعده ووعيده ولقائه، فلا تصح خشية الرحمن بالغيب إلا بعد هذا كله.

الرابعة: قوله: ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣]، **قال ابن عباس** - رضي اللَّه عنهما -: «**راجع عن معاصي الله، مقبل على طاعة الله**»[١].

وحقيقة الإنابة عكوف القلب على طاعة اللَّه ومحبته والإقبال عليه.

ثم ذكر سبحانه جزاء من قامت به هذه الأوصاف بقوله: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ۝٣٤ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ۝٣٥﴾ [ق: ٣٤، ٣٥].

ثم خوفهم بأن يصيبهم من الهلاك ما أصاب من قبلهم، وأنهم كانوا أشد منهم بطشًا، ولم يدفع عنهم الهلاك شدة بطشهم، وإنهم عند الهلاك تقلبوا وطافوا في البلاد وهل يجدون محيصًا، ومنجى من عذاب الله.

قال قتادة: «حاص أعداء اللَّه فوجدوا أمر اللَّه لهم مدركًا»[٢].

وقال الزجاج: «طوَّفوا وفتشوا فلم يرو محيصًا من الموت، وحقيقة ذلك أنهم طلبوا المهرب من الموت فلم يجدوه»[٣].

ثم أخبر سبحانه أن في هذا الذي ذكر ﴿لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

ثم أخبر أنه خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ولم يمسه من تعب ولا إعياء، تكذيبًا لأعدائه من اليهود؛ حيث قالوا: إنه استراح في اليوم السابع، ثم أمر نبيه بالتأسي به سبحانه في الصبر على ما يقول أعداؤه

(١) راجع «زاد المسير» (٨/ ٢٠)، و«الدر المنثور» (٧/ ٦٠٤).
(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٢٦/ ١٧٧).
(٣) انظر «تفسير ابن كثير» (٤/ ٢٩٢)، و«فتح القدير» (٥/ ١١٣).

فيه، كما أنه سبحانه صبر على قول اليهود: إنه استراح. ولا أحد أصبر على أذى يسمعه منه(١).

ثم أمره بما يستعين به على الصبر، وهو التسبيح بحمد ربه قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، وبالليل وأدبار السجود.

فقيل: هو الوتر. وقيل: الركعتان بعد المغرب. والأول قول ابن عباس - رضي اللَّه عنهما - ، والثاني قول عمر وعليٍّ وأبي هريرة والحسن بن عليٍّ، وإحدى الروايتين عن ابن عباس، وعن ابن عباس رواية ثالثة: إنه التسبيح باللسان أدبار الصلاة المكتوبات(٢).

ثم ختم السورة بذكر المعاد، ونداء المنادي برجوع الأرواح إلى أجسادها للحشر، وأخبر أن هذا النداء من مكان قريب، يسمعه كل أحد ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾ [ق: ٤٤] بالبعث ولقاء الله.

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ﴾ [ق: ٤٤] كما تشقق عن النبات، فيخرجون ﴿سِرَاعًا﴾ [ق: ٤٤] من غير مهلة ولا بطء، ذلك حشر يسير عليه سبحانه.

ثم أخبر سبحانه أنه عالم بما يقول أعداؤه، وذلك يتضمن مجازاته لهم بقولهم؛ إذ لم يَخْفَ عليه، وهو سبحانه يذكر علمه وقدرته لتحقيق الجزاء.

ثم أخبره أنه ليس بمسلَّط عليهم ولا قهار، ولم يُبعث ليجبرهم على الإسلام ويكرههم عليه، وأمره أن يذكِّر بكلامه من يخاف وعيده، فهو الذي

---

(١) يُشير إلى ما أخرجه البخاري (٦٠٩٩، ٧٣٧٨)، ومسلم (٢٨٠٤/ ٤٩، ٥٠) من حديث أبي موسى ﷺ.

(٢) راجع «تفسير الطبري» لهذه الأقوال (٢٦/ ١٧٩- ١٨١). وقال البغوي في «تفسيره» (٤/ ٢٢٧): «هذا قول أكثر المفسرين» ا؟.
والرواية الثالثة لابن عباس، أخرجها ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ١٨٦٤٦).

ينتفع بالتذكير، وأما من لا يؤمن بلقائه ولا يخاف وعيده ولا يرجو ثوابه فلا ينتفع بالتذكير»[١].

* * *

(١) «الفوائد» (١/ ٥- ١٤).

الإيمان بالقدر

سئل شيخ الإسلام مفتي الأنام بقية السلف أبو العباس أحمد بن تيمية - رحمه اللَّه تعالى - عن أقوام يحتجون بسابق القدر، ويقولون: إنه قد مضى الأمر، والشقي شقي، والسعيد سعيد. محتجين بقول اللَّه سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنبياء: ١٠١]، قائلين: بأن اللَّه قدر الخير والشر، والزنا مكتوب علينا، وما لنا في الأفعال قدرة، وإنما القدرة لله، ونحن نتوقى ما كتب لنا، وأن آدم ما عصى، وأن من قال: لا إله إلا الله، دخل الجنة. محتجين بقوله ﷺ: «**من قال: لا إله إلا الله؛ دخل الجنة، وإن زنى وإن سرق**»[1]. فبيِّنوا لنا فساد قول هذه

(١) الروايات الواردة تفسر بعضُها البعضَ: فأخرج البخاري (٥٨٢٧)، ومسلم (٩٤/ ١٥٤)، من حديث أبي ذر، قال: أتيت النبيﷺ وعليه ثوب أبيض، وهو نائم، ثم أتيته وقد استيقظ، فقال: «ما من عبد قال لا إله إلا الله، ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة». قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإن زنى وإن سرق». قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإن زنى وإن سرق». قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإن زنى وإن سرق، على رغم أنف أبي ذر». وكان أبو ذر إذا حدث بهذا، قال: وإن رغم أنف أبي ذر. قال البخاري: هذا عند الموت أو قبله، إذا تاب وندم، وقال لا إله إلا الله؛ غُفِر له. ا؟.
وأخرجه البخاري (٣٢٢٢) وانظر أطرافه، ومسلم (٣٢، ٣٣/ ٩٤)، من حديث أبي ذر أيضًا، قال: قال النبيﷺ: «قال لي جبريل: من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة، أو: لم يدخل النار». قال: وإن زنى وإن سرق؟ قال «وإن». لفظ البخاري في الموضع الأول.
أمّا لفظ حديثِ الباب فأخرجه: الإمامُ أحمد (٦/ ٤٤٢)، عن أبي الدرداء، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ دخل الجنة». قال: قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإن زنى وإن سرق». قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإن زنى وإن سرق». قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبي الدرداء». قال: فخرجت لأنادي بها في الناس. قال: فلقيني عمر، فقال: ارجع فإن الناس إن علموا بهذه اتكلوا =

الطائفة بالبراهين القاطعة؟

فأجاب رحمه اللَّه تعالى: الحمد لله رب العالمين، هؤلاء القوم إذا أصروا على هذا الاعتقاد كانوا أكفر من اليهود والنصارى، فإن اليهود والنصارى يؤمنون بالأمر والنهي، والوعد والوعيد، والثواب والعقاب، لكن حرفوا وبدلوا، وآمنوا ببعض وكفروا ببعض، كما قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٥٢﴾﴾ [النساء: ١٥٠ - ١٥٢]، فإذا كان من آمن ببعض وكفر ببعض فهو كافر حقًّا، فكيف بمن كفر بالجميع، ولم يقر بأمر اللَّه ونهيه، ووعده ووعيده؟! بل ترك ذلك محتجًّا بالقدر، فهو أكفر ممن آمن ببعض وكفر ببعض.

وقول هؤلاء يظهر بطلانه من وجوه:

أحدها: أن الواحد من هؤلاء إما أن يرى القدر حجة للعبد، وإما أن لا يراه حجة للعبد، فإن كان القدر حجة للعبد فهو حجة لجميع الناس، فإنهم كلهم مشتركون في القدر، وحينئذ فيلزم أن لا ينكر على من يظلمه،

= عليها. فرجعت فأخبرته ﷺ، فقال ﷺ: «صدق عمر».

وهذا الحديث علَّقه البخاري عقب حديث زيد بن وهب، عن أبي ذرّ، رقمي (٦٢٦٨، ٦٤٤٣) من طريق الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي الدرداء نحو حديث أبي ذرّ. ثم قال: قال البخاريُّ في الموضع الثاني: حديث أبي صالح، عن أبي الدرداء، مرسلٌ، لا يصح. إنما أردنا للمعرفة. والصحيحُ حديثُ أبي ذرّ. قيل لأبي عبد الله (يعني: البخاري): حديث عطاء بن يسار، عن أبي الدرداء! قال: مرسلٌ أيضًا، لا يصحّ، والصحيحُ حديثُ أبي ذرّ. اضربوا على حديث أبي الدرداء هذا. إذا مات قال: «لا إله إلا الله» عند الموت. ا؟.

ويشتمه، ويأخذ ماله، ويفسد حريمه، ويضرب عنقه، ويهلك الحرث والنسل، وهؤلاء جميعهم كذابون متناقضون، فإن أحدهم لا يزال يذم هذا، ويبغض هذا، ويخالف هذا، حتى إن الذي ينكر عليهم يبغضونه ويعادونه وينكرون عليه، فإن كان القدر حجة لمن فعل المحرمات وترك الواجبات لزمهم أن لا يذموا أحدًا ولا يبغضوا أحدًا، ولا يقولوا في أحد: إنه ظالم. ولو فعل ما فعل، ومعلوم أن هذا لا يمكن أحدًا فعله، ولو فعل الناس هذا لهلك العالم، فتبين أن قولهم فاسد في العقل، كما أنه كفر في الشرع، وأنهم كذابون مفترون في قولهم: إن القدر حجة للعبد.

الوجه الثاني: أن هذا يلزم منه أن يكون إبليس، وفرعون، وقوم نوح، وعاد، وكل من أهلكه اللَّه بذنوبه معذورًا، وهذا من الكفر الذي اتفق عليه أرباب الملل.

الوجه الثالث: أن هذا يلزم منه أن لا يفرق بين أولياء اللَّه وأعداء الله، ولا بين المؤمنين والكفار، ولا أهل الجنة وأهل النار، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾ [فاطر: ١٩ - ٢٢]، وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: ٢١].

وذلك أن هؤلاء جميعهم سبقت لهم عند اللَّه السوابق، وكتب اللَّه مقاديرهم قبل أن يخلقهم، وهم مع هذا قد انقسموا إلى سعيد بالإيمان

والعمل الصالح، وإلى شقي بالكفر والفسق والعصيان، فعلم بذلك أن القضاء والقدر ليس بحجة لأحد على معاصي الله.

الوجه الرابع: أن القدر نؤمن به، ولا نحتج به، فمن احتج بالقدر فحجته داحضة، ومن اعتذر بالقدر فعذره غير مقبول، ولو كان الاحتجاج مقبولاً لقبل من إبليس وغيره من العصاة، ولو كان القدر حجة للعباد لم يُعَذَّبْ أحدٌ من الخلق، لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولو كان القدر حجة لم تقطع يد سارق، ولا قتل قاتل، ولا أقيم حد على ذي جريمة، ولا جوهد في سبيل الله، ولا أمر بالمعروف، ولا نهي عن المنكر.

الوجه الخامس: أن النبي ﷺ سئل عن هذا فإنه قال: «**ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة، ومقعده من النار**»، فقيل: يا رسول الله، أفلا ندع العمل ونتكل على الكتاب؟ قال: «**لا، اعملوا؛ فكل ميسر لما خلق له**». رواه البخاري ومسلم[1].

وفى حديث آخر في «**الصحيح**» أنه قيل: يا رسول الله، أرأيت ما يعمل الناس فيه ويكدحون؟ أفيما جفت به الأقلام وطويت به الصحف؟ أم فيما يستأنفون مما جاءهم به؟ أو كما قيل، فقال: «**بل فيما جفت به الأقلام، وطويت به الصحف**»، فقيل: ففيم العمل؟ فقال: «**اعملوا؛ فكل ميسر لما خلق له**»[2].

الوجه السادس: أن يقال: إن اللَّه علم الأمور وكتبها على ما هي عليه، فهو سبحانه قد كتب أن فلانًا يؤمن ويعمل صالحًا فيدخل الجنة، وفلانًا

(١) سلف تخريجه.
(٢) أخرجه مسلم (١٠/ ٢٦٥٠) من حديث عمران بن حصين ﷺ.

يعصي ويفسق فيدخل النار، كما علم، وكتب أن فلانًا يتزوج امرأة ويطؤها فيأتيه ولد، وأن فلانًا يأكل ويشرب فيشبع ويروى، وأن فلانًا يبذر البذر فينبت الزرع، فمن قال: إن كنت من أهل الجنة، فأنا أدخلها بلا عمل صالح. كان قوله قولاً باطلاً متناقضًا؛ لأنه علم أنه يدخل الجنة بعمله الصالح، فلو دخلها بلا عمل كان هذا مناقضًا لما علمه اللَّه وقدره.

ومثال ذلك: من يقول: أنا لا أطأ امرأة، فإن كان قد قضى اللَّه لي بولد فهو يولد. فهذا جاهل، فإن اللَّه إذا قضى بالولد، قضى أن أباه يطأ امرأة فتحبل فتلد، وأما الولد بلا حبل ولا وطئ فإن اللَّه لم يقدره ولم يكتبه، كذلك الجنة إنما أعدها اللَّه للمؤمنين، فمن ظن أنه يدخل الجنة بلا إيمان كان ظنه باطلاً، وإذا اعتقد أن الأعمال التي أمر اللَّه بها لا يحتاج إليها، ولا فرق بين أن يعملها أو لا يعملها، كان كافرًا، واللَّه قد حرم الجنة على الكافرين، فهذا الاعتقاد يناقض الإيمان الذي لا يدخل صاحبه النار.

وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ١٠١﴾ [الأنبياء: ١٠١]، فمن سبقت له من اللَّه الحسنى فلا بد أن يصير مؤمنًا تقيًا، فمن لم يكن من المؤمنين لم يسبق له من اللَّه حسنى، ولكن إذا سبقت للعبد من اللَّه سابقة استعمله بالعمل الذي يصل به إلى تلك السابقة، كمن سبق له من اللَّه أن يولد له ولد، فلا بد أن يطأ امرأة يحبلها، فإن اللَّه سبحانه قدر الأسباب والمسببات، فسبق منه هذا وهذا، فمن ظن أن أحدًا سبق له من اللَّه حسنى بلا سبب فقد ضل، بل هو سبحانه ميسر الأسباب والمسببات، وهو قد قدر فيما مضى هذا وهذا.

وأما قول القائل: «**ما لنا في جميع أفعالنا قدرة**». فقد كذب، فإن اللَّه

سبحانه فرق بين المستطيع القادر وغير المستطيع، فقال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وقال: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿۞ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ [الروم: ٥٤]، واللَّه قد أثبت للعبد مشيئة وفعلاً، كما قال تعالى: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ [التكوير: ٢٨] ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٩]، وقال: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، لكن اللَّه سبحانه خالقه وخالق كل ما فيه، من قدرة ومشيئة وعمل، فإنه لا رب غيره، ولا إله سواه، وهو خالق كل شيء وربه ومليكه.

وأما قول القائل: «**الزنا وغيره من المعاصي مكتوب علينا**». فهو كلام صحيح، لكن هذا لا ينفعه الاحتجاج به، فإن اللَّه كتب أفعال العباد خيرها وشرها، وكتب ما يصيرون إليه من الشقاوة والسعادة، وجعل الأعمال سببًا للثواب والعقاب، وكتب ذلك كما كتب الأمراض، وجعلها سببًا للموت، وكما كتب أكل السم، وجعله سببًا للمرض والموت، فمن أكل السم فإنه يمرض أو يموت، واللَّه قدر وكتب هذا وهذا، كذلك من فعل ما نهي عنه من الكفر والفسق والعصيان، فإنه يعمل ما كتب عليه، وهو مستحق لما كتبه اللَّه من الجزاء لمن عمل ذلك.

وحجة هؤلاء بالقدر على المعاصي من جنس حجة المشركين الذين قال اللَّه عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النحل: ٣٥]، وقال

تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، قال اللَّه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأنعام: ١٤٨، ١٤٩].

ومن قال: «**إن آدم ما عصى**». فهو مكذب للقرآن، ويستتاب فإن تاب وإلا قتل، فإن اللَّه قال: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١]، والمعصية هي مخالفة الأمر الشرعي، فمن خالف أمر اللَّه الذي أرسل به رسله وأنزل به كتبه فقد عصى، وإن كان داخلاً فيما قدره اللَّه وقضاه، وهؤلاء ظنوا أن المعصية هي الخروج عن قدر الله، وهذا لا يمكن، فإن أحدًا من المخلوقات لا يخرج عن قدر الله، فإن لم تكن المعصية إلا هذا فلا يكون إبليس وفرعون وقوم نوح وعاد وثمود وجميع الكفار عصاة أيضًا؛ لأنهم داخلون في قدر الله، ثم قائل هذا يضرب ويهان، وإذا تظلم ممن فعل هذا به، قيل له: هذا الذي فعل هذا ليس بعاص، فإنه داخل في قدر اللَّه كسائر الخلق، وقائل هذا القول متناقض لا يثبت على حال.

وأما قول القائل: «**من قال: لا إله إلا الله؛ دخل الجنة**»، واحتجاجه بالحديث المذكور.

فيقال له: لا ريب أن الكتاب والسنة فيهما وعد ووعيد، وقد قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء: ١٠]، وقال اللَّه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ

مِّنكُمْۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ [النساء: ٢٩، ٣٠]، ومثل هذا كثير في الكتاب والسنة، والعبد عليه أن يصدق بهذا وبهذا، لا يؤمن ببعض ويكفر ببعض.

فهؤلاء المشركون أرادوا أن يصدقوا بالوعد ويكذبوا بالوعيد.

والحرورية والمعتزلة أرادوا أن يصدقوا بالوعيد دون الوعد، وكلاهما أخطأ.

والذي عليه أهل السنة والجماعة الإيمان بالوعد والوعيد.

فكما أن ما توعد اللَّه به العبد من العقاب قد بين سبحانه أنه بشروط: بأن لا يتوب، فإن تاب تاب اللَّه عليه. وبأن لا يكون له حسنات تمحو ذنوبه، فإن الحسنات يذهبن السيئات. وبأن لا يشاء اللَّه أن يغفر له: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨] - فهكذا الوعد له تفسير وبيان، فمن قال بلسانه: لا إله إلا الله. وكذب الرسول؛ فهو كافر باتفاق المسلمين، وكذلك إن جحد شيئًا مما أنزل الله.

فلا بد من الإيمان بكل ما جاء به الرسول، ثم إن كان من أهل الكبائر فأمره إلى الله، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له، فإن ارتد عن الإسلام ومات مرتدًا كان في النار، فالسيئات تحبطها التوبة، والحسنات تحبطها الردة، ومن كان له حسنات وسيئات فإن اللَّه لا يظلمه، بل من يعمل مثقال ذرة خيرًا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره، واللَّه تعالى قد يتفضل عليه ويحسن إليه بمغفرته ورحمته.

ومن مات على الإيمان فإنه لا يخلد في النار، فالزاني والسارق لا يخلد

في النار، بل لا بد أن يدخل الجنة، فإن النار يخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، وهؤلاء المسئول عنهم يسمون القدرية المباحية المشركين، وقد جاء في ذمهم من الآثار ما يضيق عنه هذا المكان، واللَّه سبحانه وتعالى أعلم، وصلى اللَّه على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، وحسبنا اللَّه ونعم الوكيل»[1].

* * *

(١) «مجموع الفتاوى» (٨/ ٢٦٢- ٢٧١).

الرضا بقضاء اللَّه من كمال التوحيد

قال اللَّه تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩].

«اعلم أن الراضي الموافق تستوي عنده الحالات من النعمة والبلية في رضاه بحسن اختيار اللَّه له، وليس المراد استواؤها عنده في ملاءمته ومنافرته، فإن هذا خلاف الطبع البشري، بل خلاف الطبع الحيواني.

وليس المراد أيضًا استواء الحالات عنده في الطاعة والمعصية، فإن هذا منافٍ للعبودية من كل وجه، وإنما تستوي النعمة والبلية عنده في الرضى بهما؛ لوجوه:

أحدها: أنه مفوِّض، والمفوض راضٍ بكل ما اختاره له مَن فوض إليه، ولا سيما إذا علم كمال حكمته ورحمته ولطفه، وحسن اختياره له.

الثاني: أنه جازم بأنه لا تبديل لكلمات الله، ولا راد لحكمه، وأنه ما شاء اللَّه كان، وما لم يشأ لم يكن، فهو يعلم أن كلًّا من البلية والنعمة بقضاء سابق وقدَر حتم.

الثالث: أنه عبد محض، والعبد المحض لا يسخط جريان أحكام سيده المشفق البار الناصح المحسن، بل يتلقاها كلها بالرضى به وعنه.

الرابع: أنه محب، والمحب الصادق مَن رضي بما يعامله به حبيبه.

الخامس: أنه جاهل بعواقب الأمور، وسيده أعلم بمصلحته وبما ينفعه.

السادس: أنه لا يريد مصلحة نفسه من كل وجه، ولو عرف أسبابها، فهو جاهل ظالم، وربه تعالى يريد مصلحته ويسوق إليه أسبابها، ومن أعظم

أسبابها ما يكرهه العبد، فإن مصلحته فيما يكره أضعاف أضعاف مصلحته فيما يحب، قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: ٢١٦]، وقال تعالى: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

السابع: أنه مسلم، والمسلم: من قد سلَّم نفسه لله، ولم يعترض عليه في جريان أحكامه عليه، ولم يسخط ذلك.

الثامن: أنه عارف بربه، حسن الظن به، لا يتهمه فيما يجريه عليه من أقضيته وأقداره، فحسن ظنه به يوجب له استواء الحالات عنده ورضاه بما يختاره له سيده سبحانه.

التاسع: أنه يعلم أن حظه من المقدور ما يتلقاه به من رضى وسخط، فلا بد له منه، فإن رضي فله الرضى، وإن سخِط فله السَّخَط.

العاشر: علمه بأنه إذا رضي انقلب في حقه نعمة ومنحة، وخف عليه حمله، وأعين عليه، وإذا سخطه تضاعف عليه ثِقَلُه وكَلُّه، ولم يزدد إلا شدة، فلو أن السخط يجدي عليه شيئًا لكان له فيه راحة أنفع له من الرضى به.

ونكتة المسألة: إيمانه بأن قضاء الرب تعالى خير له، كما قال النبي: «**والذي نفسي بيده، لا يقضي اللهُ للمؤمنِ قضاءً إلا كان خيرًا له، إن أصابتْه سراءُ شكَر؛ فكان خيرًا له، وإن أصابتْه ضراءُ صبَر؛ فكان خيرًا له، وليس ذلك إلا للمؤمنِ**»(١).

الحادي عشر: أن يعلم أن تمام عبوديته في جريان ما يكرهه من الأحكام

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ١٧٣)، ومسلم في «صحيحه» (٤/ ٢٢٩٥).

عليه، ولو لم يجرِ عليه منها إلا ما يحب لكان أبعد شيء عن عبودية ربه، فلا تتم له عبوديته، من الصبر والتوكل والرضى، والتضرع والافتقار، والذل والخضوع وغيرها - إلا بجريان القدر له بما يكرهه، وليس الشأن في الرضى بالقضاء الملائم للطبيعة، إنما الشأن في القضاء المؤلم المنافر للطبع.

الثاني عشر: أن يعلم أن رضاه عن ربه سبحانه وتعالى في جميع الحالات يثمر رضى ربه عنه، فإذا رضي عنه بالقليل من الرزق، رضي ربه عنه بالقليل من العمل، وإذا رضي عنه في جميع الحالات واستوت عنده، وجده أسرع شيء إلى رضاه إذا ترضاه وتملقه.

الثالث عشر: أن يعلم أن أعظم راحته وسروره ونعيمه فى الرضى عن ربه تعالى وتقدس في جميع الحالات، فإن الرضى باب اللَّه الأعظم، ومستراح العارفين، وجنة الدنيا، فجدير بمن نصح نفسه أن تشتد رغبته فيه، وأن لا يستبدل بغيره منه.

الرابع عشر: أن السخط باب الهم والغم والحزن، وشتات القلب، وكسف البال، وسوء الحال، والظن باللَّه خلاف ما هو أهله، والرضى يخلصه من ذلك كله، ويفتح له باب جنة الدنيا قبل جنة الآخرة.

الخامس عشر: أن الرضى يوجب له الطمأنينة وبرد القلب وسكونه وقراره، والسخط يوجب اضطراب قلبه وريبته وانزعاجه وعدم قراره.

السادس عشر: أن الرضى ينزل عليه السكينة التي لا أنفع له منها، ومتى نزلت عليه السكينة استقام وصلحت أحواله، وصلح باله، والسخط يبعده منها بحسب قلته وكثرته، وإذا ترحلت عنه السكينة ترحل عنه السرور والأمن والدعة، والراحة وطيب العيش، فمِن أعظم نعم اللَّه على عبده تنزل السكينة

عليه، ومن أعظم أسبابها الرضى عنه في جميع الحالات.

السابع عشر: أن الرضى يفتح له باب السلامة، فيجعل قلبه سليمًا نقيًّا من الغش والدغل والغل، ولا ينجو من عذاب اللَّه إلا من أتى اللَّه بقلب سليم، كذلك وتستحيل سلامة القلب مع السخط وعدم الرضى، وكلما كان العبد أشد رضى كان قلبه أسلم، فالخبث والدغل والغش قرين السخط، وسلامة القلب وبره ونصحه قرين الرضى، وكذلك الحسد هو من ثمرات السخط، وسلامة القلب منه من ثمرات الرضى.

الثامن عشر: أن السخط يوجب تلون العبد، وعدم ثباته مع الله، فإنه لا يرضى إلا بما يلائم طبعه ونفسه، والمقادير تجري دائمًا بما يلائمه وبما لا يلائمه، وكلما جرى عليه منها ما لا يلائمه أسخطه، فلا تثبت له قدم على العبودية، فإذا رضي عن ربه في جميع الحالات استقرت قدمه في مقام العبودية، فلا يزيل التلون عن العبد شيء مثل الرضى.

التاسع عشر: أن السخط يفتح عليه باب الشك في اللَّه وقضائه وقدره، وحكمته وعلمه، فقلَّ أن يسلم الساخط من شك يداخل قلبه ويتغلغل فيه، وإن كان لا يشعر به، فلو فتش نفسه غاية التفتيش لوجد يقينه معلولاً مدخولاً، فإن الرضى واليقين أخوان مصطحبان، والشك والسخط قرينان، وهذا معنى الحديث الذي في الترمذي أو غيره: «**إن استطعَتَ أن تَعمَلَ بالرضى مع اليقينِ فافعلْ، فإن لم تستطِعْ فإنَّ في الصبرِ على ما تَكرَه النفسُ خيرًا كثيرًا**»[1].

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣١٤)، وهو حديث حسن وشواهده في القرآن والسنة.

العشرون: أن الرضى بالمقدور من سعادة ابن آدم، وسخطه من شقاوته، كما في «**المسند**» و«**الترمذي**» من حديث سعد بن أبي وقاص ﵁ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**مِن سعادةِ ابنِ آدمَ استخارةُ اللهِ ﷻ، ومِن سعادةِ ابنِ آدمَ رضاه بما قضى اللهُ، ومِن شقاوةِ ابنِ آدمَ سخطُه بما قضى اللهُ، ومِن شقاوةِ ابنِ آدمَ تركُ استخارةِ اللهِ**»[1]. فالرضا بالقضاء من أسباب السعادة، والتسخط على القضاء من أسباب الشقاوة.

الحادي والعشرون: أن الرضى يوجب له أن لا يأسى على ما فاته، ولا يفرح بما آتاه، وذلك من أفضل الإيمان، أما عدم أساه على الفائت فظاهر، وأما عدم فرحه بما آتاه فلأنه يعلم أن المصيبة فيه مكتوبة من قبل حصوله، فكيف يفرح بشيء يعلم أن له فيه مصيبة منتظرة ولا بد.

الثاني والعشرون: أن من ملأ قلبه من الرضى بالقدر؛ ملأ اللَّه صدره غنًى وأمنًا وقناعة، وفرغ قلبه لمحبته والإنابة إليه والتوكل عليه، ومن فاته حظه من الرضى؛ امتلأ قلبه بضد ذلك، واشتغل عما فيه سعادته وفلاحه، فالرضى يفرغ القلب لله، والسخط يفرغ القلب من الله.

الثالث والعشرون: أن الرضى يثمر الشكر الذي هو من أعلى مقامات الإيمان، بل هو حقيقة الإيمان، والسخط يثمر ضده، وهو كفر النعم، وربما أثمر له كفر المنعم، فإذا رضي العبد عن ربه في جميع الحالات أوجب له ذلك شكره، فيكون من الراضين الشاكرين، وإذا فاته الرضى كان من الساخطين، وسلك سبيل الكافرين.

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ١٦٨)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٦٩٩)، وحسن الحافظ إسناده كما في فتح الباري (١١/ ١٨٤).

الرابع والعشرون: أن الرضى ينفي عنه آفات الحرص والكَل - بَ على الدنيا، وذلك رأس كل خطيئة، وأصل كل بلية، وأساس كل رزية، فرِضاه عن ربه في جميع الحالات ينفي عنه مادة هذه الآفات.

الخامس والعشرون: أن الشيطان إنما يظفر بالإنسان غالبًا عند السخط والشهوة، فهناك يصطاده، ولا سيما إذا استحكم سخطه، فإنه يقول ما لا يُرضي الرب، ويفعل ما لا يرضيه، وينوي ما لا يرضيه، ولهذا قال النبي ﷺ عند موت ابنه إبراهيم: «**يحزنُ القلبُ، وتدمعُ العينُ، ولا نقولُ إلا ما يُرضي الربَّ**»(١).

فإن موت البنين من العوارض التي توجب للعبد السخط على القدر، فأخبر النبي ﷺ أنه لا يقول في مثل هذا المقام الذي يسخطه أكثر الناس، فيتكلمون بما لا يرضي الله، ويفعلون ما لا يرضيه - إلا ما يرضي ربه تبارك وتعالى، ولهذا لما مات ابن الفضيل بن عياض رؤي في الجنازة ضاحكًا، فقيل له: أتضحك وقد مات ابنك؟! فقال: إن اللَّه قضى بقضاء، فأحببت أن أرضى بقضائه. فأنكرت طائفة هذه المقالة على الفضيل، وقالوا: رسول اللَّه ﷺ بكى يوم مات ابنه، وأخبر أن القلب يحزن والعين تدمع، وهو في أعلى مقامات الرضى، فكيف يعد هذا من مناقب الفضيل؟!

والتحقيق: أن قلب رسول اللَّه ﷺ اتسع لتكميل جميع المراتب من الرضى عن الله، والبكاء رحمة للصبي، فكان له مقام الرضى ومقام الرحمة ورقة القلب. والفضيل: لم يتسع قلبه لمقام الرضى ومقام الرحمة، فلم يجتمع له الأمران.

---

(١) أخرجه مسلم (٤ / ١٨٠٧) من حديث أنس رضي الله عنه.

- **والناس في ذلك على أربع مراتب:**

أحدها: من اجتمع له الرضى بالقضاء ورحمة الطفل، فدمعت عيناه رحمةً، والقلبُ راضٍ.

الثاني: من غيَّبه الرضى عن الرحمة، فلم يتسع للأمرين، بل غيبه أحدهما عن الآخر.

الثالث: من غيَّبته الرحمة والرقة عن الرضى، فلم يشهده، بل فني عن الرضى.

الرابع: من لا رضى عنده ولا رحمة، وإنما يكون حزنه لفوات حظه من الميت، وهذا حال أكثر الخلق، فلا إحسان ولا رضى عن الرحمن، واللَّه المستعان.

فالأول في أعلى مراتب الرضى، والثاني دونه، والثالث دون الثاني، والرابع هو الساخط.

السادس والعشرون: أن الرضى هو اختيار ما اختاره اللَّه لعبده، والسخط كراهة ما اختاره اللَّه له، وهذا نوع محادة، فلا يتخلص منه إلا بالرضى عن اللَّه فى جميع الحالات.

السابع والعشرون: أن الرضى يخرج الهوى من القلب، فالراضي هواه تبع لمراد ربه منه، أعني: المراد الذي يحبه ربه ويرضاه، فلا يجتمع الرضى واتباع الهوى في القلب أبدًا، وإن كان معه شعبة من هذا وشعبة من هذا فهو للغالب عليه منهما.

الثامن والعشرون: أن الرضى عن اللَّه في جميع الحالات يثمر للعبد رضي الله عنه كما تقدم بيانه في الرضى به، فإن الجزاء من جنس العمل، وفي أثر

إسرائيلي: «**إن موسى** عليه السلام سأل ربه عز وجل: ما يدني من رضاه؟ فقال: إن رضاي في رضاك بقضائي».

التاسع والعشرون: أن الرضى بالقضاء أشق شيء على النفس، بل هو ذبحها في الحقيقة، فإنه مخالفة هواها وطبعها وإرادتها، ولا تصير مطمئنة قط حتى ترضى بالقضاء، فحينئذ تستحق أن يقال لها: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠].

الثلاثون: أن الراضي متلق أوامر ربه الدينية والقدرية بالانشراح والتسليم، وطيب النفس والاستسلام، والساخط يتلقاها بضد ذلك، إلا ما وافق طبعه وإرادته منها، وقد بَيَّنَّا أن الرضى بذلك لا ينفعه ولا يثاب عليه، فإنه لم يرض به لكون اللَّه قدره وقضاه وأمر به، وإنما رضي به لموافقته هواه وطبعه، فهو إنما رضي لنفسه وعن نفسه، لا لربه عن ربه»[1].

* * *

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٠٥-٢١١).

الإيمان بالملائكة

«فكل حركة في السماوات والأرض: من حركات الأفلاك والنجوم والشمس والقمر والرياح والسحاب والنبات والحيوان - فهي ناشئة عن الملائكة الموكلين بالسماوات والأرض، كما قال تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥﴾ [النازعات: ٥] وقال: ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝٤﴾ [الذاريات: ٤]، وهي الملائكة عند أهل الإيمان وأتباع الرسل عليهم السلام، وأما المكذبون للرسل، المنكرون للصانع، فيقولون: هي النجوم. وقد أشبعنا الرد على هؤلاء في كتابنا الكبير المسمى بـ «**المفتاح**».

وقد دل الكتاب والسنة على أصناف الملائكة، وأنها موكلة بأصناف المخلوقات، وأنه سبحانه وكَّل بالجبال ملائكة، ووكل بالسحاب والمطر ملائكة، ووكل بالرحم ملائكة تدبر أمر النطفة حتى يتم خلقها، ثم وكل بالعبد ملائكة لحفظه، وملائكة لحفظ ما يعمله وإحصائه وكتابته، ووكل بالموت ملائكة، ووكل بالسؤال في القبر ملائكة، ووكل بالأفلاك ملائكة يحركونها، ووكل بالشمس والقمر ملائكة، ووكل بالنار وإيقادها وتعذيب أهلها وعمارتها ملائكة، ووكل بالجنة وعمارتها وغراسها وعمل الأنهار فيها ملائكة، فالملائكة أعظم جنود اللَّه تعالى.

ومنهم ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥﴾ [المرسلات: ١ - ٥].

ومنهم ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ۝٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ۝٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ۝٤ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥﴾ [النازعات: ١ - ٥].

ومنهم ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝٢ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۝٣﴾ [الصافات: ١ - ٣].

ومنهم ملائكة الرحمة، وملائكة العذاب، وملائكة قد وكلوا بحمل العرش، وملائكة قد وكلوا بعمارة السموات بالصلاة والتسبيح والتقديس، إلى غير ذلك من أصناف الملائكة التي لا يحصيها إلا اللَّه تعالى.

ولفظ الملَك يُشعر بأنه رسول منفذ لأمر غيره، فليس لهم من الأمر شيء، بل الأمر كله لله الواحد القهار، وهم ينفذون أمره ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ۝٢٧ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ۝٢٨﴾ [الأنبياء: ٢٧، ٢٨]، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٥٠﴾ [النحل: ٥٠]، ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التَّحريم: ٦]، ولا تتنزل إلا بأمره، ولا تفعل شيئًا إلا من بعد إذنه، فهم عباد له مكرمون، منهم الصافون، ومنهم المسبحون، ليس منهم إلا من له مقام معلوم لا يتخطاه، وهو على عمل قد أمر به لا يقصر عنه ولا يتعداه، وأعلاهم الذين عنده سبحانه ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠]، ورؤساؤهم الأملاك الثلاث: جبريل وميكائيل وإسرافيل، وكان النبي يقول: **«اللهمَّ ربَّ جبريلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ، فاطرَ السمواتِ والأرضِ، عالمَ الغيبِ والشهادةِ، أنت تحكمُ بين عبادِك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختُلِف فيه من الحقِّ بإذنِك، إنك تهدي مَن تشاء إلى صراطٍ مستقيم»**.

فتوسل إليه سبحانه بربوبيته العامة والخاصة لهؤلاء الأملاك الثلاثة الموكَّلين بالحياة.

فجبريل موكل بالوحي الذي به حياة القلوب والأرواح، وميكائيل موكل بالقطر الذي به حياة الأرض والنبات والحيوان، وإسرافيل موكل بالنفخ في الصور الذي به حياة الخلق بعد مماتهم.

فسأله رسوله بربوبيته لهؤلاء أن يهديه لما اختلف فيه من الحق بإذنه؛ لما في ذلك من الحياة النافعة.

وقد أثنى اللَّه سبحانه على عبده جبريل في القرآن أحسن الثناء، ووصفه بأجمل الصفات، فقال: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾﴾ [التَّكوير: ١٥ - ٢١]، فهذا جبريل، فوصفه بأنه رسوله، وأنه كريم عنده، وأنه ذو قوة ومكانة عند ربه سبحانه، وأنه مطاع في السموات، وأنه أمين على الوحي، فمن كرَمِه على ربه أنه أقرب الملائكة إليه.

قال بعض السلف: «منزلته من ربه منزلة الحاجب من الملك».

ومن قوته أنه رفع مدائن قوم لوط على جناحه ثم قلبها عليهم[(١)].

فهو قوي على تنفيذ ما يؤمر به، غير عاجز عنه، إذ تطيعه أملاك السموات فيما يأمرهم به عن اللَّه تعالى.

قال ابن جرير في «تفسيره» عن إسماعيل بن أبي خالد، عن أبي صالح: **«أمين على أن يدخل سبعين سرادقًا من نور بغير إذن»**[(٢)].

ووصْفُه بالأمانة يقتضي صدقه ونصحه وإلقاءه إلى الرسل ما أمر به من

---

(١) راجع «تفسير القرطبي» (١٧/ ٧٦).

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٣٠/ ٨٠).

غير زيادة ولا نقصان ولا كتمان، وقد جمع له بين المكانة والأمانة، والقوة والقرب من الله.

ونظير الجمع له بين المكانة والأمانة قول العزيز ليوسف عليه السلام: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤]، والجمع بين القوة والأمانة نظير قول ابنة شعيب في موسى عليهما السلام: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، وقال تعالى في وصفه: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾﴾ [النَّجم: ٥، ٦].

قال ابن عباس - رضي اللَّه عنهما - : **«ذو منظر حسن»**[(١)]. **وقال قتادة: «ذو خلق حسن»**[(٢)].

وقال ابن جرير: عُنِي ب - (المِرَّة): صحة الجسم وسلامته من الآفات والعاهات، والجسم إذا كان كذلك من الإنسان كان قويًا، والمِرة واحدة المِرَر، وإنما أريد به ذو مرة سوية، ومنه قول النبي ﷺ : **«لا تَحِلُّ الصدقةُ لغنيٍّ، ولا لذي مِرَّةٍ سويٍّ»**[(٣)].

وقالت اليهود للنبي ﷺ : مَن صاحبك الذي يأتيك من الملائكة؟ فإنه ليس من نبي إلا يأتيه ملك بالخبر. قال: **«هو جبريلُ»**. قالوا: ذاك الذي ينزل بالحرب والقتال، ذاك عدونا، لو قلت ميكائيل الذي ينزل بالنبات والقطر والرحمة. فأنزل اللَّه تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ

---

(١) أخرجه ابنُ جرير الطبري في «تفسيره» (٢٧/ ٤٢).

(٢) أخرجه ابنُ جرير«تفسيره» (٢٧/ ٤٣).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٣٧٧، ٣٨٩)، والنسائيُّ في «المجتبى» (٥/ ٩٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [البقرة: ٩٧، ٩٨][(١)].

والمقصود: أن اللَّه سبحانه وكل بالعالم العلوي والسفلي ملائكة، فهي تدبر أمر العالم بإذنه ومشيئته وأمره، فلهذا يضيف التدبير إلى الملائكة تارة لكونهم هم المباشرين للتدبير، كقوله: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾﴾، ويضيف التدبير إليه، كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ﴾ [يونس: ٣]، وقوله: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يونس: ٣١]، فهو المدبر أمرًا وإذنًا ومشيئة، والملائكة المدبرات مباشرة وامتثالاً.

وهذا كما أضاف التوفي إليهم تارة، كقوله: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١]، وإليه تارة كقوله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾ [الزمر: ٤٢]، ونظائره الملائكة الموكلة بالإنسان من حين كونه نطفة إلى آخر أمره لهم، وله شأن آخر، فإنهم موكلون بتخليقه ونقله من طور إلى طور، وتصويره وحفظه في أطباق الظلمات الثلاث، وكتابة رزقه وعمله وأجله، وشقاوته وسعادته، وملازمته في جميع أحواله، وإحصاء أقواله وأفعاله، وحفظه في حياته، وقبض روحه عند وفاته، وعرضها على خالقه وفاطره، وهم الموكلون بعذابه ونعيمه في البرزخ وبعد البعث، وهم الموكلون بعمل آلات النعيم والعذاب، وهم المثبِّتون للعبد المؤمن بإذن الله، والمعلِّمون له ما ينفعه، والمقاتِلون الذابُّون عنه، وهم أولياؤه في الدنيا والآخرة، وهم الذين يُرُونه في منامه ما

(١) أخرجه البخاري (٣٣٢٩، ٣٩٣٨، ٤٤٨٠)، من حديث أنس ﷺ.

يخافه ليحذره، وما يحبه ليقوَى قلبُه ويزداد شكرًا، وهم الذين يعِدونه بالخير ويدعونه إليه، وينهونه عن الشر ويحذرونه منه.

فهم أولياؤه وأنصاره وحفظته ومعلموه وناصحوه والداعون له والمستغفرون له، وهم الذين يصلُّون عليه ما دام في طاعة ربه، ويصلون عليه ما دام يعلم الناس الخير، ويبشرونه بكرامة اللَّه تعالى في منامه وعند موته ويوم بعثه، وهم الذين يزهِّدونه في الدنيا ويرغِّبونه في الآخرة، وهم الذين يذكِّرونه إذا نسي، وينشِّطونه إذا كَسِل، ويثبِّتونه إذا جَزِع، وهم الذين يسعون في مصالح دنياه وآخرته، فهم رسل اللَّه في خلقه وأمره، وسفراؤه بينه وبين عباده تتنزل بالأمر من عنده في أقطار العالم، وتصعد إليه بالأمر، قد أطَّت بهم السماء، وحُق لها أن تَئطَّ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا ومَلَك قائم أو راكع أو ساجد، ويدخل البيت المعمور كلَّ يوم منهم سبعون ألف ملَك، لا يعودون إليه آخر ما عليهم.

والقرآن مملوء بذكر الملائكة وأصنافهم وأعمالهم ومراتبهم، كقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: ٣٠ - ٣٤] إلى آخر القصة، وقوله: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن

كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾﴾ [القدر: ٤]، وما بين هاتين السورتين من سور القرآن، بل لا تخلو سورة من سور القرآن عن ذكر الملائكة تصريحًا أو تلويحًا أو إشارة، وأما ذكرهم في الأحاديث النبوية فأكثر وأشهر من أن يذكر، ولهذا كان الإيمان بالملائكة - عليهم السلام - أحد الأصول الخمس التي هي أركان الإيمان، وهي الإيمان باللَّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر»(١).

* * *

(١) «إغاثة اللهفان» (٢/ ١٢٥- ١٣١).

أنواع الكفر

- **وأما الكفر الأكبر فخمسة أنواع:**

كفر تكذيب، وكفر استكبار وإباء مع التصديق، وكفر إعراض، وكفر شك، وكفر نفاق.

فأما كفر التكذيب: فهو اعتقاد كذب الرسل، وهذا القسم قليل في الكفار؛ فإن اللَّه تعالى أيد رسله وأعطاهم من البراهين والآيات على صدقهم ما أقام به الحجة، وأزال به المعذرة؛ قال اللَّه تعالى عن فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: ١٤]، وقال لرسوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، وإن سمي هذا كفر تكذيب أيضًا فصحيح؛ إذ هو تكذيب باللسان.

وأما كفر الإباء والاستكبار: فنحو كفر إبليس فإنه لم يجحد أمر الله، ولا قابله بالإنكار، وإنما تلقاه بالإباء والاستكبار، ومن هذا كفر من عرف صدق الرسول، وأنه جاء بالحق من عند اللَّه ولم ينقدِ له إباءً واستكبارًا، وهو الغالب على كفر أعداء الرسل، كما حكى اللَّه تعالى عن فرعون وقومه: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَـٰبِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧]، وقول الأمم لرسلهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠]، وقوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾﴾ [الشمس: ١١]، وهو كفر اليهود، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]، وهو كفر أبي طالب أيضًا، فإنه

صدقه ولم يشك في صدقه، ولكن أخذته الحمية وتعظيم آبائه أن يرغب عن ملتهم، ويشهد عليهم بالكفر.

- **وأما كفر الإعراض:**

فأن يعرض بسمعه وقلبه عن الرسول، لا يصدقه ولا يكذبه، ولا يواليه ولا يعاديه، ولا يصغي إلى ما جاء به البتة، كما قال أحد بني عبد ياليل للنبي: «**واللَّه أقول لك كلمة: إن كنت صادقًا فأنت أجل في عيني من أن أرد عليك، وإن كنت كاذبًا فأنت أحقر من أن أكلمك**».

- **وأما كفر الشك:**

فإنه لا يجزم بصدقه ولا بكذبه، بل يشك في أمره، وهذا لا يستمر شكه إلا إذا ألزم نفسه الإعراض عن النظر في آيات صدق الرسول جملة، فلا يسمعها ولا يلتفت إليها، وأما مع التفاته إليها ونظره فيها؛ فإنه لا يبقى معه شك؛ لأنها مستلزمة للصدق، ولا سيما بمجموعها، فإن دلالتها على الصدق كدلالة الشمس على النهار.

- **وأما كفر النفاق:**

فهو أن يظهر بلسانه الإيمان، وينطوي بقلبه على التكذيب، فهذا هو النفاق الأكبر، وسيأتي بيان أقسامه إن شاء اللَّه تعالى.

- **وكفر الجحود نوعان: كفر مطلق عام، وكفر مقيد خاص.**

فالمطلق: أن يجحد جملة ما أنزله اللَّه وإرساله الرسول.

والخاص المقيد: أن يجحد فرضًا من فروض الإسلام، أو تحريم محرم من محرماته، أو صفة وصف اللَّه بها نفسه، أو خبرًا أخبر اللَّه به عمدًا، أو تقديمًا لقول من خالفه عليه لغرض من الأغراض.

وأما جحد ذلك جهلًا أو تأويلًا يعذر فيه صاحبه، فلا يكفر صاحبه به، كحديث الذي جحد قدرة اللَّه عليه، وأمر أهله أن يحرقوه ويذروه في الريح، ومع هذا فقد غفر اللَّه له ورحمه لجهله[١]؛ إذ كان ذلك الذي فعله مبلغ علمه، ولم يجحد قدرة اللَّه على إعادته عنادًا أو تكذيبًا«[٢].

* * *

(١) أخرجه والبخاري (٣٤٨١، ٧٥٠٦)، ومسلم (٢٧٥٦/ ٢٤، ٢٥، ٢٦)، من حديث أبي هريرة، عن النبيّ ﷺ قال: «كان رجلٌ يُسرفُ على نفسه، فلما حضره الموتُ، قال لبنيه: إذا أنا مُتُّ فأحرقوني، ثم اطحنوني، ثم ذرُّوني في الريح، فوالله لئن قدَرَ عليَّ ربي ليُعَذِّبنِّي عذابًا ما عذبه أحدًا. فلما مات فُعِلَ به ذلك، فأمر الله الأرضَ، فقال: اجمعي ما فيك منه. ففعلت، فإذا هو قائمٌ، فقال: ما حملك على ما صنعت؟ قال: يا ربِّ، خشيتُك. فغفر له». وقال غيره: «مخافتُك يا ربّ». لفظ البخاري في الموضع الأول.

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٣٣٧- ٣٣٩).

أركان الكفر

- **«أركان الكفر أربعة: الكبر، والحسد، والغضب، والشهوة.**

فالكبر: يمنعه الانقياد.

والحسد: يمنعه قبول النصيحة وبذلها.

والغضب: يمنعه العدل.

والشهوة: تمنعه التفرغ للعبادة.

فإذا انهدم ركن الكبر؛ سهل عليه الانقياد، وإذا انهدم ركن الحسد؛ سهل عليه قبول النصح وبذله، وإذا انهدم ركن الغضب؛ سهل عليه العدل والتواضع، وإذا انهدم ركن الشهوة؛ سهل عليه الصبر والعفاف والعبادة.

وزوال الجبال عن أماكنها أيسر من زوال هذه الأربعة عمن بُلِيَ بها، ولا سيما إذا صارت هيئات راسخة، وملكات وصفات ثابتة، فإنه لا يستقيم له معها عمل البتة، ولا تزكو نفسه مع قيامها بها، وكلما اجتهد في العمل أفسدته عليه هذه الأربعة، وكل الآفات متولدة منها، وإذا استحكمت في القلب؛ أرته الباطل في صورة الحق، والحق في صورة الباطل، والمعروف في صورة المنكر، والمنكر في صورة المعروف، وقربت منه الدنيا، وبعدت منه الآخرة.

وإذا تأملت كفر الأمم رأيته ناشئًا منها، وعليها يقع العذاب، وتكون خفته وشدته بحسب خفتها وشدتها، فمن فتحها على نفسه؛ فتح عليه أبواب الشرور كلها، عاجلاً وآجلا، ومن أغلقها على نفسه؛ أغلق عنه أبواب الشرور، فإنها تمنع الانقياد والإخلاص، والتوبة والإنابة، وقبول الحق،

ونصيحة المسلمين، والتواضع لله ولخلقه.

ومنشأ هذه الأربعة: من جهله بربه وجهله بنفسه، فإنه لو عرف ربه بصفات الكمال ونعوت الجلال، وعرف نفسه بالنقائص والآفات؛ لم يتكبر ولم يغضب لها، ولم يحسد أحدًا على ما أتاه الله، فإن الحسد في الحقيقة نوع من معاداة الله، فإنه يكره نعمة اللَّه على عبده، وقد أحبها اللَّه وأحب زوالها عنه، واللَّه يكره ذلك، فهو مضاد لله في قضائه وقدره، ومحبته وكراهته، ولذلك كان إبليس عدوه حقيقة؛ لأن ذنبه كان عن كبر وحسد.

فقلع هاتين الصفتين: بمعرفة اللَّه وتوحيده، والرضا به وعنه، والإنابة إليه.

وقلع الغضب: بمعرفة النفس، وأنها لا تستحق أن يغضب لها وينتقم لها، فإن ذلك إيثار لها بالرضا والغضب على خالقها وفاطرها، وأعظم ما تدفع به هذه الآفة، أن يعودها أن تغضب له سبحانه، وترضى له، فكلما دخلها شيء من الغضب والرضا له؛ خرج منها مقابله من الغضب والرضا لها، وكذا بالعكس.

وأما الشهوة: فدواؤها صحة العلم والمعرفة بأن إعطاءها شهواتها أعظم أسباب حرمانها إياها ومنعها منها، وحميتها أعظم أسباب اتصالها إليها، فكلما فتَحْتَ عليها باب الشهوات؛ كنت ساعيًا في حرمانها إياها، وكلما أغلقت عنها ذلك الباب؛ كنت ساعيًا في إيصالها إليها على أكمل.

فالغضب مثل السَّبُع إذا أفلته صاحبه بدأ بأكله.

والشهوة مثل النار إذا أضرمها صاحبها بدأت بإحراقه.

والكبر بمنزلة منازعة الملِك ملكَه، فإن لم يهلكك طردك عنه.

والحسد بمنزلة معاداة من هو أقدر منك.

والذي يغلب شهوته وغضبه يفْرق الشيطان من ظله، ومن تغلبه شهوته وغضبه يَفْرَق من خياله»[١].

* * *

(١) «الفوائد» (١/ ١٥٧- ١٥٩).

أنواع النفاق وصفات أهله

قال تعالى في حقِّ المنافقين: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [البقرة: ١٧ - ٢٠]، فضرب للمنافقين بحسب حالهم مَثلَين: مثلًا ناريًّا ومثلًا مائيًّا؛ لما في النار والماء من الإضاءة والإشراق والحياة، فإن النار مادة النُّور، والماء مادة الحياة.

وقد جعل اللَّه سبحانه الوحي الذي أنزله من السَّماء متضمنًا لحياة القلوب واستنارتها، ولهذا سمَّاه روحًا ونورًا، وجعل قابليه أحياء في النُّور، ومن لم يرفع به رأسًا أمواتًا في الظُّلمات، وأخبر عن حال المنافقين بالنسبة إلى حظهم من الوحي، وأنهم بمنزلة من استوقد نارًا لتضيء له وينتفع بها؛ وهذا لأنَّهم دخلوا في الإسلام، فاستضاءوا به وانتفعوا به وأمنوا به، وخالطوا المسلمين، ولكن لَمَّا لم يكن لصحبتهم مادة من قلوبهم من نور الإسلام؛ طفئ عنهم، وذهب اللَّه بنورهم، ولم يقل: بنارهم. فإن النَّار فيها الإضاءة والإحراق، فذهب اللَّه بما فيها من الإضاءة، وأبقى عليهم ما فيها من الإحراق، وتركهم في ظلمات لا يبصرون، فهذا حال من أبصر ثمَّ عمي، وعرف ثم أنكر، ودخل في الإسلام ثم فارقه بقلبه، فهو لا يرجع إليه، ولهذا قال: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.

ثم ذكر حالهم بالنسبة إلى المثل المائيِّ، فشبَّههم بأصحاب صيبٍ، وهو المطر الذي يصَوَّبُ، أي: ينزل من السماء، فيه ظلمات ورعد وبرق، فلضعف بصائرهم وعقولهم اشتدت عليهم زواجر القرآن، ووعيده وتهديده، وأوامره ونواهيه، وخطابه الذي يشبه الصواعق، فحالهم كحال من أصابه مطر فيه ظلمة ورعد وبرق، فلضعفه وخوره جعل أصبعيه في أذنيه وغمض عينيه؛ خشية من صاعقة تصيبه.

وقد شاهدنا نحن وغيرنا كثيرًا من مخانيث تلاميذ الجهميَّة والمبتدعة إذا سمعوا شيئًا من آيات الصفات وأحاديثِ الصفات المنافية لبدعتهِم رأيتهم عنها معرضين، كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝٥٠ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ۝٥١﴾ [المدَّثر: ٥٠، ٥١]، ويقول مخنثهم: سدوا عنا هذا الباب، واقرءوا شيئًا غير هذا! وترى قلوبهم مولية وهم يجمحون لثِقَل معرفة الربِّ سبحانه وتعالى وأسمائه وصفاته على عقولهم وقلوبهم، وكذلك المشركون على اختلاف شركهم إذا جُرد لهم التوحيد وتُليت عليهم النصوص المبطلة لشركهم اشمأزت قلوبهم وثقلت عليهم، ولو وجدوا السَّبيل إلى سدِّ آذانهم لفعلوا، ولذلك تجد أعداء أصحاب رسول اللَّه ﷺ إذا سمعوا نصوص الثناء على الخلفاء الرَّاشدين وصحابة رسول اللَّه ﷺ ثقُل ذلك عليهم جدًّا وأنكرته قلوبهم، وهذا كله شبهٌ ظاهر ومثل محقق من إخوانهم من المنافقين في المثل الذي ضربه اللَّه لهم بالماء، فإنَّهم لمَّا تشابهت قلوبهم تشابهت أعمالهم»[(١)].

«وأما النفاق فالداء العضال الباطن الذي يكون الرجل ممتلئًا منه وهو لا يشعر، فإنه أمر خفي على الناس، وكثيرًا ما يخفى على من تلبس به، فيزعم

(١) «إعلام الموقعين» (١/ ١٥٠- ١٥٢).

أنه مصلح وهو مفسد.

وهو نوعان: أكبر وأصغر:

فالأكبر: يوجب الخلود في النار، في دركها الأسفل، وهو أن يُظهر للمسلمين إيمانه باللَّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهو في الباطن منسلخ من ذلك كله، مكذب به، لا يؤمن بأن اللَّه تكلم بكلام أنزله على بشر جعله رسولاً للناس، يهديهم بإذنه، وينذرهم بأسه، ويخوفهم عقابه، وقد هتك اللَّه سبحانه أستار المنافقين وكشف أسرارهم في القرآن، وجلى لعباده أمورهم؛ ليكونوا منها ومن أهلها على حذر، وذكر طوائف العالم الثلاثة في أول سورة «**البقرة**»: المؤمنين، والكفار، والمنافقين.

فذكر في المؤمنين أربع آيات، وفي الكفار آيتين، وفي المنافقين ثلاث عشرة آية؛ لكثرتهم وعموم الابتلاء بهم، وشدة فتنتهم على الإسلام وأهله، فإن بلية الإسلام بهم شديدة جدًّا؛ لأنهم منسوبون إليه وإلى نصرته وموالاته، وهم أعداؤه في الحقيقة، يُخرجون عداوته في كل قالب يظن الجاهل أنه علم وإصلاح، وهو غاية الجهل والإفساد!

فلله كم من معقل للإسلام قد هدموه؟!

وكم من حصن له قد قلعوا أساسه وخربوه؟!

وكم من علم له قد طمسوه؟!

وكم من لواء له مرفوع قد وضعوه؟!

وكم ضربوا بمعاول الشبه في أصول غراسه ليقلعوها؟!

وكم عموا عيون موارده بآرائهم ليدفنوها ويقطعوها؟!!

فلا يزال الإسلام وأهله منهم في محنة وبلية، ولا يزال يطرقه من شبههم

سَرية بعد سَرية، ويزعمون أنهم بذلك مصلحون ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [البقرة: ١٢]، ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الصَّف: ٨]، اتفقوا على مفارقة الوحي، فهم على ترك الاهتداء به مجتمعون، ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [المؤمنون: ٥٣]، ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]، ولأجل ذلك: ﴿ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]، درست معالم الإيمان في قلوبهم فليسوا يعرفونها، ودثرت معاهده عندهم فليسوا يعمرونها، وأَفَلَتْ كواكبه النيرة من قلوبهم فليسوا يحيونها، وكَسَفت شمسه عند اجتماع ظلم آرائهم وأفكارهم فليسوا يبصرونها، لم يقبلوا هدى اللَّه الذي أرسل به رسوله، ولم يرفعوا به رأسًا، ولم يروا بالإعراض عنه إلى آرائهم وأفكارهم بأسًا، خلعوا نصوص الوحي عن سلطنة الحقيقة، وعزلوها عن ولاية اليقين، وشنوا عليها غارات التأويلات الباطلة، فلا يزال يخرج عليها منهم كمين بعد كمين، نزلت عليهم نزول الضيف على أقوام لئام فقابلوها بغير ما ينبغي لها من القبول والإكرام، وتلقوها من بعيد، ولكن بالدفع في الصدور منها والأعجاز، وقالوا: ما لك عندنا من عبور، وإن كان لا بد فعلى سبيل الاجتياز.

أعدوا لدفعها أصناف العدد وضروب القوانين، وقالوا لما حلت بساحتهم: مالنا ولظواهر لفظية لا تفيدنا شيئًا من اليقين. وعوامهم قالوا: حسبنا ما وجدنا عليه خلَفَنا من المتأخرين؛ فإنهم أعلم بها من السلف الماضين، وأقوم بطرائق الحجج والبراهين، وأولئك غلبت عليهم السذاجة وسلامة الصدور، ولم يتفرغوا لتمهيد قواعد النظر، ولكن صرفوا هممهم

إلى فعل المأمور، وترك المحظور، فطريقة المتأخرين أعلم وأحكم، وطريقة السلف الماضين أجهل، لكنها أسلم، أنزلوا نصوص السنة والقرآن منزلة الخليفة في هذا الزمان، اسمه على السكة، وفي الخطبة فوق المنابر مرفوع، والحكم النافذ لغيره، فحكمه غير مقبول ولا مسموع، لبسوا ثياب أهل الإيمان على قلوب أهل الزيغ والخسران، والغل والكفران، فالظواهر ظواهر الأنصار، والبواطن قد تحيزت إلى الكفار، فألسنتهم ألسنة المسالمين، وقلوبهم قلوب المحاربين، ويقولون: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨].

رأس مالهم الخديعة والمكر، وبضاعتهم الكذب والخَتْر[١]، وعندهم العقل المعيشي أن الفريقين عنهم راضون، وهم بينهم آمنون، ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [البقرة: ٩].

قد نهكت أمراض الشبهات والشهوات قلوبهم فأهلكتها، وغلبت القصود السيئة على إراداتهم ونياتهم فأفسدتها، ففسادهم قد ترامى إلى الهلاك، فعجز عنه الأطباء العارفون، ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ [البقرة: ١٠].

مَن علقت مخالب شكوكهم بأديم إيمانه مزقته كل تمزيق، ومن تعلق شرر فتنتهم بقلبه ألقاه في عذاب الحريق، ومن دخلت شبهات تلبيسهم في مسامعه حال بين قلبه وبين التصديق.

ففسادهم في الأرض كثير، وأكثر الناس عنه غافلون، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا

(١) الختر: شبيه بالغدر والخديعة. «اللسان» (خ ت ر).

يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ [البقرة: ١١، ١٢]، المتمسك عندهم بالكتاب والسنة صاحب ظواهر مبخوس حظه من المعقول، والدائر مع النصوص عندهم كحمار يحمل أسفارًا، فهمُّه في حمل المنقول، وبضاعة تاجر الوحي لديهم كاسدة، وما هو عندهم بمقبول، وأهل الاتباع عندهم سفهاء، فهم في خلواتهم ومجالسهم بهم يتطيرون، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [البقرة: ١٣].

لكل منهم وجهان: وجه يلقى به المؤمنين ووجه ينقلب به إلى إخوانه من الملحدين، وله لسانان أحدهما يقبله بظاهره المسلمون، والآخر يترجم به عن سره المكنون، ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾ [البقرة: ١٤]، قد أعرضوا عن الكتاب والسنة؛ استهزاء بأهلهما واستحقارًا، وأبوا أن ينقادوا لحكم الوحيين؛ فرحًا بما عندهم من العلم، الذي لا ينفع الاستكثار منه؛ أشرًا واستكبارًا، فتراهم أبدًا بالمتمسكين بصريح الوحي يستهزئون، ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ [البقرة: ١٥].

خرجوا في طلب التجارة البائرة في بحار الظلمات، فركبوا مراكب الشُّبه والشكوك، تجري بهم في موج الخيالات، فلعبت بسفنهم الريح العاصف فألقتها بين سفن الهالكين: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾ [البقرة: ١٦]، أضاءت لهم نار الإيمان، فأبصروا في ضوئها مواقع الهدى والضلال، ثم طفئ ذلك النور، وبقيت نارًا تأجج ذات لهب واشتعال، فهم بتلك النار معذبون، وفي تلك الظلمات يعمهون، ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ

بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾.

أسماع قلوبهم قد أثقلها الوَقْر، فهي لا تسمع منادي الإيمان، وعيون بصائرهم عليها غشاوة العمى، فهي لا تبصر حقائق القرآن، وألسنتهم بها خرس عن الحق، فهم به لا ينطقون، ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾، صاب عليهم صيب الوحي، وفيه حياة القلوب والأرواح، فلم يسمعوا منه إلا رعد التهديد والوعيد والتكاليف التي وضعت عليهم في المساء والصباح، فجعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم، وجدُّوا في الهرب والطلب في آثارهم والصياح، فنودي عليهم على رءوس الأشهاد، وكشفت حالهم للمستبصرين، وضرب لهم مثلان بحسب حال الطائفتين منهم المناظرين والمقلدين، فقيل: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾، ضعفت أبصار بصائرهم عن احتمال ما في الصيب من بروق أنواره، وضياء معانيه، وعجزت أسماعهم عن تلقي وعوده ووعيده، وأوامره ونواهيه، فقاموا عند ذلك حيارى في أودية التيه، لا ينتفع بسمعه السامع، ولا يهتدي ببصره البصير، ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾، لهم علامات يعرفون بها، مبينة في السنة والقرآن، بادية لمن تدبرها من أهل بصائر الإيمان، قام بهم والله الرياء، وهو أقبح مقام قامه الإنسان، وقعد بهم الكسل عما أمروا به من أوامر الرحمن، فأصبح الإخلاص عليهم لذلك ثقيلاً، ﴿وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، أحدهم كالشاة العائرة بين الغنمين تيعر إلى هذه

مرة، وإلى هذه مرة، ولا تستقر مع إحدى الفئتين، فهم واقفون بين الجمعين، ينظرون أيهم أقوى وأعز قبيلًا، ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾ [النساء: ١٤٣]، يتربصون الدوائر بأهل السنة والقرآن، فإن كان لهم فتح من اللَّه قالوا: ألم نكن معكم! وأقسموا على ذلك باللَّه جهد إيمانهم، وإن كان لأعداء الكتاب والسنة من النصرة نصيب قالوا: ألم تعلموا أن عقد الإخاء بيننا محكم، وأن النسب بيننا قريب! فيا من يريد معرفتهم خذ صفتهم من كلام رب العالمين، فلا تحتاج بعده دليلًا: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ [النساء: ١٤١]، يعجب السامع قول أحدهم لحلاوته ولينه، ويُشهد اللَّه على ما في قلبه من كذبه ولينه، فتراه عند الحق نائمًا، وفي الباطل على الأقدام، فخذ وصفهم من قول القدوس السلام: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾﴾ [البقرة: ٢٠٤]، أوامرهم التي يأمرون بها أتباعهم متضمنة لفساد البلاد والعباد، ونواهيهم عما فيه صلاحهم في المعاش والمعاد، وأحدهم تلقاه بين جماعة أهل الإيمان في الصلاة والذكر والزهد والاجتهاد، ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [البقرة: ٢٠٥].

هم جنسٌ بعضُه يشبه بعضًا، يأمرون بالمنكر بعد أن يفعلوه، وينهون عن المعروف بعد أن يتركوه، ويبخلون بالمال في سبيل اللَّه ومرضاته أن ينفقوه، كم ذكَّرهم اللَّه بنعمه فأعرضوا عن ذكره ونسوه، وكم كشف حالهم لعباده

المؤمنين ليتجنبوه، فاسمعوا أيها المؤمنون: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [التوبة: ٦٧].

إن حاكمتهم إلى صريح الوحي وجدتهم عنه نافرين، وإن دعوتهم إلى حكم كتاب اللَّه وسنة رسوله رأيتهم عنه معرضين، فلو شهدتَ حقائقهم لرأيت بينها وبين الهدى أمدًا بعيدًا، ورأيتها معرضة عن الوحي إعراضًا شديدًا: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء: ٦١]، فكيف لهم بالفلاح والهدى بعدما أصيبوا في عقولهم وأديانهم؟ وأنى لهم التخلص من الضلال والردى وقد اشتروا الكفر بإيمانهم؟ فما أخسر تجارتهم البائرة وقد استبدلوا بالرحيق المختوم حريقًا! ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾ [النساء: ٦٢].

نشب زقوم الشبه والشكوك في قلوبهم فلا يجدون له مسيغًا، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾ [النساء: ٦٣].

تبًّا لهم ما أبعدهم عن حقيقة الإيمان! وما أكذب دعواهم للتحقيق والعرفان!! فالقوم في شأنٍ وأتباع الرسول في شأن، لقد أقسم اللَّه جل جلاله في كتابه بنفسه المقدسة قسَمًا عظيمًا يعرف مضمونه أولو البصائر، فقلوبهم منه على حذر؛ إجلالاً له وتعظيمًا، فقال تعالى تحذيرًا لأوليائه وتنبيهًا على حال هؤلاء وتفهيمًا: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

تسبق يمينُ أحدهم كلامَه من غير أن يُعترض عليه؛ لعلمه أن قلوب أهل الإيمان لا تطمئن إليه، فيتبرأ بيمينه من سوء الظن به، وكشف ما لديه، وكذلك أهل الريبة يكذبون ويحلفون ليحسب السامع أنهم صادقون، ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٢﴾ [المنافقون: ٢].

تبًّا لهم! برزوا إلى البيداء مع ركب الإيمان، فلما رأوا طول الطريق وبعد الشُّقة نكصوا على أعقابهم، ورجعوا وظنوا أنهم يتمتعون بطيب العيش، ولذة المنام في ديارهم، فما متعوا به، ولا بتلك الهجعة انتفعوا، فما هو إلا أن صاح بهم الصائح، فقاموا عن موائد أطعمتهم، والقوم جياع ما شبعوا، فكيف حالهم عند اللقاء وقد عرفوا ثم أنكروا، وعموا بعد ما عاينوا الحق وأبصروا، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣﴾ [المنافقون: ٣].

أحسن الناس أجسامًا، وأخلبهم لسانًا، وألطفهم بيانًا، وأخبثهم قلوبًا، وأضعفهم جنانًا، فهم كالخشب المسندة التي لا ثمر لها، قد قلعت من مغارسها، فتساندت إلى حائط يقيمها؛ لئلا يطأها الموحدون، ﴿۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٤﴾ [المنافقون: ٤].

يؤخرون الصلاة عن وقتها الأول إلى شَرَق الموتى[1]، فالصبح عند

---

(١) المعنى: يؤخرونها عن وقتها المختار وهو أول وقتها لا عن جميع وقتها، وشرق الموتى بفتح الشين والراء. قال ابن الأعرابي: فيه معنيان:
أحدهما: إن الشمس في ذلك الوقت وهو آخر النهار إنما تبقى ساعة ثم تغيب.
والثاني: إنه من قولهم شرق الميت بريقه إذا لم يبق بعده إلا يسيرًا ثم يموت. «صحيح مسلم =

طلوع الشمس، والعصر عند الغروب، وينقرونها نقر الغراب؛ إذ هي صلاة الأبدان، لا صلاة القلوب، ويلتفتون فيها التفات الثعلب؛ إذ يتيقن أنه مطرود مطلوب، ولا يشهدون الجماعة، بل إن صلى أحدهم ففي البيت أو الدكان، وإذا خاصم فجر، وإذا عاهد غدر، وإذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان [(١)].

هذه معاملتهم للخلق، وتلك معاملتهم للخالق، فخذ وصفهم من أول «**المطففين**»، وآخر ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١﴾، فلا ينبئك عن أوصافهم مثل خبير، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٧٣﴾ [التوبة: ٧٣].

فما أكثرهم وهم الأقلون، وما أجبرهم وهم الأذلون، وما أجهلهم وهم المتعالمون، وما أغرهم بالله إذ هم بعظمته جاهلون، ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ۝٥٦﴾ [التوبة: ٥٦].

إن أصاب أهل الكتاب والسنة عافية ونصر وظهور ساءهم ذلك وغمهم، وإن أصابهم ابتلاء من الله وامتحان يمحص به ذنوبهم ويكفر به عنهم سيئاتهم أفرحهم ذلك وسرهم، وهذا يحقق إرثهم وإرث من عداهم، ولا يستوي مَن موروثه الرسول، ومن موروثهم المنافقون، ﴿إِن تُصِبْكَ

= بشرح النووي»، وسُئل الحسنُ بن محمد بن الحنفية عنه فقال: ألم تَر إلى الشمس إذا ارْتَفَعت عن الحيطان فصارَت بين القُبُور كأنها لُجَّة فذلك شَرَق الموتى. يقال: شَرِقت الشمسُ شَرَقًا إذا ضَعُفَ ضوءها. قال الهروي: وهذا وجه ثالث. «النهاية في غريب الحديث والأثر».

(١) هذه صفة المنافق التي جاءت في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٤، ٢٤٥٩)، ومسلم (٥٨/ ١٠٦)، عن عبد الله بن عمرو، أنَّ النبيّ ﷺ قال: «أربعٌ مَن كنَّ فيه كان منافقًا خالصًا ومَنْ كانت فيه خصلةٌ منهنَّ كانت فيه خصلةٌ مِن النفاقِ حتى يدعَها: إذا اؤتمِنَ خان، وإذا حدَّث كذَب، وإذا عاهد غدَر، وإذا خاصم فجَر».

حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ۝٥٠ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝٥١﴾ [التوبة: ٥٠، ٥١].

وقال تعالى في شأن السلفين المختلفين والحق لا يندفع بمكابرة أهل الزيغ والتخليط: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ۝١٢٠﴾ [آل عمران: ١٢٠].

كره اللَّه طاعاتهم لخبث قلوبهم وفساد نياتهم، فثبطهم عنها وأقعدهم، وأبغض قربهم منه وجواره، لميلهم إلى أعدائه، فطردهم عنه وأبعدهم، وأعرضوا عن وحيه فأعرض عنهم، وأشقاهم وما أسعدهم، وحكم عليهم بحكم عدل لا مطمع لهم في الفلاح بعده، إلا أن يكونوا من التائبين، فقال تعالى: ﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ۝٤٦﴾ [التوبة: ٤٦]، ثم ذكر حكمته في تثبيطهم وإقعادهم وطردهم عن بابه وإبعادهم، وأن ذلك من لطفه بأوليائه وإسعادهم، فقال وهو أحكم الحاكمين: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۝٤٧﴾ [التوبة: ٤٧].

ثقلت عليهم النصوص فكرهوها، وأعياهم حملها فألقوها عن أكتافهم ووضعوها، وتفلتت منهم السنن أن يحفظوها فأهملوها، وصالت عليهم نصوص الكتاب والسنة فوضعوا لها قوانين ردوها بها ودفعوها، ولقد هتك اللَّه أستارهم، وكشف أسرارهم وضرب لعباده أمثالهم، واعلم أنه كلما

انقرض منهم طوائف خلفهم أمثالهم، فذكَر أوصافهم لأوليائه ليكونوا منها على حذر، وبيَّنها لهم فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٩﴾ [محمد: ٩].

هذا شأن من ثَقُلت عليه النصوص فرآها حائلة بينه وبين بدعته وهواه، فهي في وجهه كالبنيان المرصوص، فباعها بمحصل من الكلام الباطل، واستبدل منها بالفصوص، فأعقبهم ذلك أن أفسد عليهم إعلانهم وإسرارهم، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ۝٢٦ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ۝٢٧ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٢٨﴾ [محمد: ٢٦ - ٢٨].

أسروا سرائر النفاق فأظهرها اللَّه على صفحات الوجوه منهم، وفلتات اللسان ووسمهم لأجلها بسيماء لا يخفون بها على أهل البصائر والإيمان، وظنوا أنهم إذ كتموا كفرهم وأظهروا إيمانهم راجوا على الصيارف والنقاد، كيف والناقد البصير قد كشفها لكم؟ ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ۝٢٩ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ۝٣٠﴾ [محمد: ٢٩، ٣٠].

فكيف إذا جُمعوا ليوم التلاق، وتجلى اللَّه جل جلاله للعباد، وقد كشف عن ساق، ودعوا إلى السجود فلا يستطيعون، ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ۝٤٣﴾ [القلم: ٤٣]؟

أم كيف بهم إذا حُشروا إلى جسر جهنم، وهو أدق من الشعرة، وأحدُّ من الحُسَام، وهو دحض مزلة، مظلم، لا يقطعه أحد إلا بنور يبصر به

مواطئ الأقدام، فقُسِّمت بين الناس الأنوار، وهم على قدر تفاوتها في المرور والذهاب، وأُعطوا نورًا ظاهرًا مع أهل الإسلام، كما كانوا بينهم في هذه الدار، يأتون بالصلاة والزكاة والحج والصيام، فلما توسطوا الجسر عصفت على أنوارهم أهوية النفاق، فأطفأت ما بأيديهم من المصابيح، فوقفوا حيارى لا يستطيعون المرور، فضرب بينهم وبين أهل الإيمان بسور له باب، ولكن قد حيل بين القوم وبين المفاتيح، باطنه الذي يلي المؤمنين فيه الرحمة، وما يليهم من قِبَلهم العذاب والنقمة، ينادون مَن تقدمهم مِن وفد الإيمان، ومشاعل الركب تلوح على بعد كالنجوم تبدو لناظر الإنسان: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣] لنتمكن في هذا المضيق من العبور، فقد طفئت أنوارنا ولا جواز اليوم إلا بمصباح من النور! ﴿قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ [الحديد: ١٣] حيث قسمت الأنوار، فهيهات الوقوف لأحد في مثل هذا المضمار، كيف نلتمس الوقوف في هذا المضيق، فهل يلوي اليوم أحد على أحد في هذا الطريق؟ وهل يلتفت اليوم رفيق إلى رفيق؟ فذكَّروهم باجتماعهم معهم وصحبتهم لهم في هذه الدار، كما يذكِّر الغريب صاحب الوطن بصحبته له في الأسفار: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ [الحديد: ١٤] نصوم كما تصومون، ونصلي كما تصلون، ونقرأ كما تقرءون، ونتصدق كما تصدقون، ونحج كما تحجون؟ فما الذي فرق بيننا اليوم حتى انفردتم دوننا بالمرور؟! ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الحديد: ١٤]، ولكنكم كانت ظواهركم معنا، وبواطنكم مع كل ملحد وكل ظلوم كفور، ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ [الحديد: ١٤، ١٥].

لا تستطل أوصاف القوم، فالمتروك والله أكثر من المذكور، كاد القرآن أن يكون كله في شأنهم لكثرتهم على ظهر الأرض، وفي أجواف القبور، فلا خلت بقاع الأرض منهم؛ لئلا يستوحش المؤمنون في الطرقات، وتتعطل بهم أسباب المعايش، وتخطفهم الوحوش والسباع في الفلوات، سمع حذيفة رضي الله عنه رجلاً يقول: «**اللهم أهلك المنافقين، فقال: يا ابن أخي، لو هلك المنافقون لاستوحشتم في طرقاتكم من قلة السالك**»(١).

تالله لقد قطع خوف النفاق قلوب السابقين الأولين، لعلمهم بدقة وجله وتفاصيله وجمله، ساءت ظنونهم بنفوسهم، حتى خشوا أن يكونوا من جملة المنافقين، قال عمر بن الخطاب لحذيفة - رضي الله عنهما - : «**يا حذيفة، نشدتك بالله، هل سماني لك رسول الله منهم؟ قال لا، ولا أزكي بعدك أحدًا**»(٢).

وقال ابن أبي مليكة: «أدركت ثلاثين من أصحاب محمد ﷺ، كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول إن إيمانه كإيمان جبريل وميكائيل». ذكره البخاري(٣).

وذكر عن الحسن البصري: «**ما أَمِنه إلا منافق، وما خافه إلا مؤمن**»(٤).

ولقد ذكر عن بعض الصحابة أنه كان يقول في دعائه: «**اللهم إني أعوذ بك من خشوع النفاق**». قيل: وما خشوع النفاق؟ قال: «**أن يرى البدن**

---

(١) أخرجه الفريابي في «صفة المنافق» (ص٦٣).

(٢)أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١١/ ١١).

(٣) علقه البخاري في «صحيحه» (١/ ٢٠) عنه، قال الحافظ في «تغليق التعليق (ج٢/ ٥٣): «ورجاله ثقات».

(٤) علقه البخاري في «صحيحه» (١/ ٢٠) بصيغة التمريض.

خاشعًا، والقلب ليس بخاشع»[1].

تاللَّه لقد ملئت قلوب القوم إيمانًا ويقينًا، وخوفهم من النفاق شديد، وهمهم لذلك ثقيل، وسواهم كثير منهم لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، وهم يدَّعون أن إيمانهم كإيمان جبريل وميكائيل.

زرع النفاق ينبت على ساقيتين: ساقية الكذب، وساقية الرياء.

ومخرجهما من عينين: عين ضعف البصيرة، وعين ضعف العزيمة.

فإذا تمت هذه الأركان الأربع استحكم نبات النفاق وبنيانه، ولكنه بمدارج السيول على شفا جرف هار، فإذا شاهدوا سيل الحقائق يوم تبلى السرائر، وكشف المستور، وبعثر ما في القبور، وحصل ما في الصدور - تبين حينئذ لمن كانت بضاعته النفاق أن حواصله التي حصلها كانت كالسراب، ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

قلوبهم عن الخيرات لاهية، وأجسادهم إليها ساعية، والفاحشة في فجاجهم فاشية، وإذا سمعوا الحق كانت قلوبهم عن سماعه قاسية، وإذا حضروا الباطل وشهدوا الزور انفتحت أبصار قلوبهم وكانت آذانهم واعية.

فهذه واللَّه أمارات النفاق، فاحذرها أيها الرجل قبل أن تنزل بك القاضية:

إذا عاهدوا لم يفوا، وإن وعدوا أخلفوا، وإن قالوا لم ينصفوا، وإن دعوا إلى الطاعة وقفوا، وإذا قيل لهم: تعالوا إلى ما أنزل اللَّه وإلى الرسول صدُّوا. وإذا دعتهم أهواؤهم إلى أغراضهم أسرعوا إليها وانصرفوا.

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٥/ ٦٩٦٧).

فذرهم وما اختاروا لأنفسهم من الهوان والخزي والخسران، فلا تثق بعهودهم، ولا تطمئن إلى وعودهم، فإنهم فيها كاذبون، وهم لما سواها مخالفون، ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [التوبة: ٧٥ - ٧٧]»[١].

* * *

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٤٧- ٣٥٩).

أنواع الفسوق

«**وأما الفسوق فهو في كتاب الله نوعان**: مفرد مطلق، ومقرون بالعصيان.

والمفرد نوعان أيضًا: فسوق كفر يخرج عن الإسلام، وفسوق لا يخرج عن الإسلام.

فالمقرون: كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧].

والمفرد الذي هو فسوق كفر: كقوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾الآية [البقرة ٢٦، ٢٧]، وقوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [البقرة: ٩٩]، وقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [السجدة: ٢٠]، فهذا كله فسوق كفر.

وأما الفسوق الذي لا يخرج عن الإسلام: فكقوله تعالى: ﴿وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ﴾ الآية[البقرة: ٢٨٢]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ﴾ [الحجرات: ٦] الآية.

فإن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط لما بعثه رسول الله ﷺ إلى بني المصطلق بعد الوقعة مصدقًا[1]، وكان بينه وبينهم عداوة في

(١) المُصَدِّقُ -بتخفيف الصاد- الذي يأْخذ الحُقوقَ من الإِبل والغنم. ويقال للذي يقبض الصَّدَقات ويجمعها لأَهل السُّهمان: مُصَدِّق أيضًا. «اللسان» (ص د ق).

الجاهلية، فلما سمع القوم بمقدمه تلقوه؛ تعظيمًا لأمر رسول اللَّه ﷺ، فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله، فهابهم، فرجع من الطريق إلى رسول اللَّه ﷺ فقال: إن بني المصطلق منعوا صدقاتهم وأرادوا قتلي. فغضب رسول اللَّه ﷺ وهَمَّ أن يغزوهم، فبلغ القومَ رجوعُه، فأتوا رسول اللَّه فقالوا: يا رسول الله، سمعنا برسولك فخرجنا نتلقاه ونكرمه، ونؤدي إليه ما قِبَلنا من حق الله، فبدا له في الرجوع، فخشينا أنه إنما رده من الطريق كتاب جاء منك لغضب غضبته علينا، وإنا نعوذ باللَّه من غضبه وغضب رسوله. فاتهمهم رسول الله، وبعث خالد بن الوليد خفية في عسكر وأمره أن يخفي عليهم قدومه، وقال له: «**انظُرْ، فإن رأيتَ منهم ما يدلُّ على إيمانِهم فخُذْ منهم زكاةَ أموالِهم، وإن لم ترَ ذلك فاستعمِلْ فيهم ما تستعملُ في الكفارِ**». ففعل ذلك خالد ووافاهم، فسمع منهم أذان صلاتَي المغرب والعشاء، فأخذ منهم صدقاتهم، ولم يرَ منهم إلا الطاعة والخير، فرجع إلى رسول اللَّه وأخبره الخبر، فنزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ الآية[الحجرات: ٦] (١).

والنبأ: هو الخبر الغائب عن المخبَر إذا كان له شأن. **والتبين**: طلب بيان حقيقةٍ، والإحاطة بها علمًا.

وهاهنا فائدة لطيفة، وهي: أنه سبحانه لم يأمر برد خبر الفاسق وتكذيبه ورد شهادته جملة، وإنما أمر بالتبين، فإن قامت قرائن وأدلة من خارج تدل على صدقه عُمل بدليل الصدق، ولو أخبر به من أخبر، فهكذا ينبغي الاعتماد

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٧٩)، وابنُ أبي حاتم في «تفسيره»- كما في «تفسير ابن كثير» (٤/ ٢٦٦)- والطبراني في «الكبير» (٣/ ٣٣٩٥).

في رواية الفاسق وشهادته.

وكثير من الفاسقين يصدُقون في أخبارهم ورواياتهم وشهاداتهم، بل كثير منهم يتحرى الصدق غاية التحري، وفسقه من جهات أخر، فمثل هذا لا يرد خبره ولا شهادته، ولو ردت شهادة مثل هذا وروايته لتعطلت أكثر الحقوق، وبطل كثير من الأخبار الصحيحة، ولا سيما مَن فسقُه من جهة الاعتقاد والرأي، وهو متحرٍّ للصدق، فهذا لا يرد خبره ولا شهادته.

وأما مَن فسقُه من جهة الكذب، فإن كثر منه وتكرر بحيث يغلب كذبه على صدقه فهذا لا يقبل خبره ولا شهادته، وإن ندر منه مرة ومرتين ففي رد شهادته وخبره بذلك قولان للعلماء، وهما روايتان عن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

والمقصود ذكر الفسوق الذي لا يخرج إلى الكفر، والفسوق الذي تجب التوبة منه أعم من الفسوق الذي تُرد به الرواية والشهادة.

وكلامنا الآن فيما تجب التوبة منه، وهو قسمان:

فسق من جهة العمل، وفسق من جهة الاعتقاد.

ففسق العمل نوعان: مقرون بالعصيان، ومفرد.

فالمقرون بالعصيان: هو ارتكاب ما نهى اللَّه عنه، والعصيان هو عصيان أمره، كما قال اللَّه تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التَّحريم: ٦]، وقال موسى لأخيه هرون عليهما السلام: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾﴾ [طه: ٩٢، ٩٣].

وقال الشاعر:

أمرتُك أمرًا جازمًا فعصيتني فأصبحت مسلوب الإمارة نادما

فالفسق أخص بارتكاب النهي، ولهذا يطلق عليه كثيرًا، كقوله تعالى:

﴿وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، والمعصية أخص بمخالفة الأمر، كما تقدم، ويطلق كل منهما على صاحبه كقوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠]، فسمى مخالفته للأمر فسقًا، وقال: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: ١٢١]، فسمى ارتكابه للنهي معصية، فهذا عند الإفراد، فإذا اقترنا كان أحدهما لمخالفة الأمر والآخر لمخالفة النهي.

والتقوى اتقاء مجموع الأمرين، وبتحقيقها تصح التوبة من الفسوق والعصيان؛ بأن يعمل العبد بطاعة اللَّه على نور من الله، يرجو ثواب الله، ويترك معصية اللَّه على نور من الله، يخاف عقاب الله.

وفسق الاعتقاد: كفسق أهل البدع الذين يؤمنون باللَّه ورسوله واليوم الآخر، ويحرمون ما حرم الله، ويوجبون ما أوجب الله، ولكن ينفون كثيرًا مما أثبت اللَّه ورسوله؛ جهلاً وتأويلاً وتقليدًا للشيوخ، ويثبتون ما لم يثبته اللَّه ورسوله كذلك، وهؤلاء كالخوارج المارقة، وكثير من الروافض، والقدرية، والمعتزلة، وكثير من الجهمية الذين ليسوا غلاة في التجهم.

وأما غالية الجهمية فكغلاة الرافضة ليس للطائفتين في الإسلام نصيب، ولذلك أخرجهم جماعة من السلف من الثنتين والسبعين فرقة، وقالوا: «**هم مباينون للملة**».

وليس مقصودنا الكلام في أحكام هؤلاء، وإنما المقصود تحقيق التوبة من هذه الأجناس العشرة.

فالتوبة من هذا الفسوق: بإثبات ما أثبته اللَّه لنفسه ورسوله من غير تشبيه ولا تمثيل، وتنزيهه عما نزه نفسه عنه ونزهه عنه رسوله من غير تحريف ولا

تعطيل، وتلقي النفي والإثبات من مشكاة الواحي لا من آراء الرجال ونتائج أفكارهم التي هي منشأ البدعة والضلالة.

فتوبة هؤلاء الفساق من جهة الاعتقادات الفاسدة بمحض اتباع السنة، ولا يُكتفى منهم بذلك أيضًا حتى يبينوا فساد ما كانوا عليه من البدعة؛ إذ التوبة من ذنب هي بفعل ضده، ولهذا شرَط اللَّه تعالى في توبة الكاتمين ما أنزل اللَّه من البينات والهدى - البيان؛ لأن ذنبهم لما كان بالكتمان كانت توبتهم منه بالبيان، قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ [البقرة: ١٥٩، ١٦٠]، وذنب المبتدع فوق ذنب الكاتم؛ لأن ذاك كتم الحق، وهذا كتمه ودعا إلى خلافه، فكل مبتدع كاتم ولا ينعكس.

وشرَط في توبة المنافق الإخلاص؛ لأن ذنبه بالرياء، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾، ثم قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾ [النساء: ١٤٥، ١٤٦]، ولذلك كان الصحيح من القولين أن توبة القاذف إكذابُه نفسَه؛ لأنه ضد الذنب الذي ارتكبه وهتك به عرض المسلم المحصن.

فلا تحصل التوبة منه إلا بإكذابه نفسه، لينتفي عن المقذوف العار الذي ألحقه به بالقذف، وهو مقصود التوبة»[1].

* * *

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٥٩- ٣٦٤).

أصول المعاصي

«فإن أصول المعاصي كلها كبارها وصغارها ثلاثة: تعلق القلب بغير الله، وطاعة القوة الغضبية، والقوة الشهوانية، وهي: الشرك، والظلم، والفواحش.

فغاية التعلق بغير اللَّه شرك، وأن يُدعى معه إله آخر، وغاية طاعة القوة الغضبية القتل، وغاية القوة الشهوانية الزنا، ولهذا جمع اللَّه سبحانه بين الثلاثة في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾﴾ [الفرقان: ٦٨]، وهذه الثلاثة يدعو بعضها إلى بعض، فالشرك يدعو إلى الظلم والفواحش، كما أن الإخلاص والتوحيد يصرفهما عن صاحبه، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤] فالسوء: العشق. والفحشاء: الزنا. وكذلك الظلم يدعو إلى الشرك والفاحشة، فإن الشرك أظلم الظلم، كما أن أعدل العدل التوحيد، فالعدل قرين التوحيد، والظلم قرين الشرك، ولهذا يجمع سبحانه بينهما:

أما الأول: ففي قوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨].

وأما الثاني: فكقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، والفاحشة تدعو إلى الشرك والظلم، ولا سيما إذا قويت إرادتها، ولم تحصل إلا بنوع من الظلم بالظلم والاستعانة بالسحر والشيطان، وقد جمع سبحانه بين الزنا والشرك في قوله: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ

إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [النور: ٣]، فهذه الثلاثة يجر بعضها إلى بعض، ويأمر بعضها ببعض، ولهذا كلما كان القلب أضعف توحيدًا وأعظم شركًا كان أكثر فاحشة وأعظم تعلقًا بالصور وعشقًا لها، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الشورى: ٣٦، ٣٧]، فأخبر أن ما عنده خير لمن آمن به وتوكل عليه، وهذا هو التوحيد، ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾، فهذا اجتناب داعي القوة الشهوانية، ثم قال: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾، فهذا مخالفة القوة الغضبية، فجمع بين التوحيد والعفة والعدل التي هي جماع الخير كله»(١).

* * *

(١) «الفوائد» (١/ ٨١- ٨٢).

فتنة التعلق بالقبور

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾ [الكهف: ٢١].

«ومن أعظم مكايده التي كاد بها أكثر الناس، وما نجا منها إلا من لم يرد اللَّه تعالى فتنته، ما أوحاه قديمًا وحديثًا إلى حزبه وأوليائه من الفتنة بالقبور، حتى آل الأمر فيها إلى أن عُبد أربابُها من دون الله، وعبدت قبورهم واتخذت أوثانًا، وبنيت عليها الهياكل، وصورت صور أربابها فيها، ثم جعلت تلك الصور أجسادًا لها ظل، ثم جعلت أصنامًا وعبدت مع اللَّه تعالى.

وكان أول هذا الداء العظيم في قوم نوح كما أخبر سبحانه عنهم في كتابه، حيث يقول: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾﴾ [نوح: ٢١ - ٢٤].

قال ابن جرير: «وكان من خبر هؤلاء فيما بلغنا ما حدثنا به ابن حميد: حدثنا مهران، عن سفيان، عن موسى، عن محمد بن قيس: «أن يغوث ويعوق ونسرًا كانوا قومًا صالحين من بني آدم، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم. فصوروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم

إبليس، فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يُسقون المطر. فعبدوهم!»[(١)].

قال سفيان، عن أبيه، عن عكرمة، قال: «**كان بين آدم ونوح عليهما السلام عشرة قرون كلهم على الإسلام**»[(٢)].

حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة في هذه الآية، قال: «**كانت آلهة يعبدها قوم نوح ثم عبدتها العرب بعد ذلك، فكان ودّ لكلب بدومة الجندل، وكان سُواع لهُذيل، وكان يغوث لبني غطيف من مراد، وكان يعوق لهمدان، وكان نسر لذي الكُلاع من حمير**»[(٣)].

وقال الوالبي عن ابن عباس: «**هذه أصنام كانت تعبد في زمان نوح** عليه السلام»[(٤)].

وقال البخاري: حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا هشام، عن ابن جريج قال: قال عطاء: عن ابن عباس - رضي اللَّه عنهما - : «صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعدُ، أما ود فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع فكانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد، ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع، أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا، وسموها

---

(١) في «تفسيره» (٢٩/ ٩٨، ٩٩).

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٢٩/ ٩٩).

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٢٩/ ٩٩) قال: ثنا ابن عبد الأعلى، قال: ثنا ابن ثور، عن معمر، عن قتادة به. وأخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣/ ٣٣٤٢)، عن معمر عنه.

(٤) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٢٩/ ٩٩).

بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونُسي العلم عُبدت»(١).

وقال غير واحد من السلف: «**كان هؤلاء قومًا صالحين في قوم نوح** عليه السلام، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم»(٢).

فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور، وفتنة التماثيل، وهما الفتنتان اللتان أشار إليهما رسول اللَّه ﷺ في الحديث المتفق على صحته عن عائشة رضي اللَّه عنها: أن أم سلمة - رضي اللَّه عنها - ذكرت لرسول اللَّه ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة يقال لها: مارية. فذكرت له ما رأت فيها من الصور، فقال: رسول اللَّه ﷺ: «**أولئك قومٌ إذا مات فيهم العبدُ الصالحُ، أو الرجلُ الصالحُ، بنَوْا على قبرِه مسجدًا، وصوَّروا فيه تلك الصورَ، أولئك شِرارُ الخلقِ عند اللهِ تعالى**»(٣).

وفي لفظ آخر في «**الصحيحين**»: «**أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأينها . . .**»(٤).

فجمع في هذا الحديث بين التماثيل والقبور، وهذا كان سبب عبادة اللات، فروى ابن جرير بإسناده عن سفيان عن منصور عن مجاهد: (﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ١٩﴾ [النَّجم: ١٩] قال: «**كان يَلِتُّ لهم السَّوِيق،**

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٢٠). وراجع رقم (٢٤٧).

(٢) انظر لأقوالهم «تفسير ابن كثير» (٤/ ٥٤٨).

(٣) سلف تخريجه.

(٤) أخرجه البخاري (٤١٧، ٣٦٦٠)، ومسلم (٥٢٨/١٦) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

فمات، فعكفوا على قبره»[١]، وكذلك قال أبو الجوزاء عن ابن عباس - رضي اللَّه عنهما - : «**كان يَلِتُّ السويق للحاج**»[٢].

فقد رأيتَ أن سبب عبادة ود ويغوث ويعوق ونسر واللات، إنما كانت من تعظيم قبورهم، ثم اتخذوا لها التماثيل وعبدوها، كما أشار إليه النبي ﷺ.

قال شيخنا: «وهذه العلة التي لأجلها نهى الشارع عن اتخاذ المساجد على القبور هي التي أوقعت كثيرًا من الأمم إما في الشرك الأكبر، أو فيما دونه من الشرك، فإن النفوس قد أشركت بتماثيل القوم الصالحين وتماثيل يزعمون أنها طلاسم للكواكب ونحو ذلك، فإن الشرك بقبر الرجل الذي يعتقد صلاحه أقرب إلى النفوس من الشرك بخشبة أو حجر، ولهذا نجد أهل الشرك كثيرًا يتضرعون عندها ويخشعون ويخضعون ويعبدونهم بقلوبهم عبادة لا يفعلونها في بيوت الله، ولا وقت السَّحَر، ومنهم من يسجد لها! وأكثرهم يرجون من بركة الصلاة عندها والدعاء ما لا يرجونه في المساجد، فلأجل هذه المفسدة حسَم النبي ﷺ مادتها؛ حتى نهى عن الصلاة في المقبرة مطلقًا، وإن لم يقصد المصلي بركة البقعة بصلاته، كما يقصد بصلاته بركة المساجد، كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس وغروبها؛ لأنها أوقات يقصد المشركون الصلاة فيها للشمس، فنهى أمته عن الصلاة حينئذ وإن لم يقصد المصلي ما قصده المشركون؛ سدًّا للذريعة.

قال: «وأما إذا قصد الرجل الصلاة عند القبور متبركًا بالصلاة في تلك البقعة، فهذا عين المحادة لله ولرسوله والمخالفة لدينه، وابتداع دين لم يأذن

---

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢٧/ ٥٨).
(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢٧/ ٥٩).

به اللَّه تعالى، فإن المسلمين قد أجمعوا على ما علموه بالاضطرار من دين رسول اللَّه أن الصلاة عند القبور منهي عنها، وأنه لعن من اتخذها مساجد، فمن أعظم المحدثات، وأسباب الشرك الصلاة عندها، واتخاذها مساجد، وبناء المساجد عليها، وقد تواترت النصوص عن النبي عليه الصلاة والسلام بالنهي عن ذلك، والتغليظ فيه، فقد صرح عامة الطوائف بالنهي عن بناء المساجد عليها، متابعة منهم للسنة الصحيحة الصريحة، وصرح أصحاب أحمد وغيرهم من أصحاب مالك والشافعي بتحريم ذلك، وطائفة أطلقت الكراهة، والذي ينبغي أن تحمل على كراهة التحريم؛ إحسانًا للظن بالعلماء، وأن لا يظن بهم أن يجوزوا فعل ما تواتر عن رسول اللَّه لعن فاعله والنهي عنه، ففي «**صحيح مسلم**» عن جندب بن عبد اللَّه البجلي ﵁ قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول: «**إني أبرأُ إلى اللهِ أن يكون لي منكم خليلٌ، فإنَّ اللهَ تعالى قد اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيمَ خليلاً، ولو كنتُ متخذًا من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكرٍ خليلاً، ألا وإنَّ مَن كان قبلكم كانوا يتخذون قبورَ أنبيائهم مساجدَ، ألا فلا تتخذوا القبورَ مساجدَ، فإني أنهاكم عن ذلك**»[1].

وعن عائشة وعبد اللَّه بن عباس - رضي اللَّه عنهما - قالا: لما نزل برسول اللَّه طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم كشفها، فقال وهو كذلك: «**لعنةُ اللهِ على اليهودِ والنصارى، اتخذوا قبورَ أنبيائهم مساجدَ**». يحذر ما صنعوا. متفق عليه[2].

---

(١) سلف تخريجه

(٢) سلف تخريجه.

وفي «**الصحيحين**» أيضًا عن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**قاتل اللهُ اليهودَ والنصارى؛ اتخذوا قبورَ أنبيائهم مساجدَ**»[١].

وفي رواية مسلم: «**لعن اللهُ اليهودَ والنصارى، اتخذوا قبورَ أنبيائهم مساجدَ**»[٢].

فقد نهى ﷺ عن اتخاذ القبور مساجد في آخر حياته، ثم إنه لعن وهو في السياق مَن فعل ذلك من أهل الكتاب؛ ليحذر أمته أن يفعلوا ذلك.

قالت عائشة - رضي اللَّه عنها - قال رسول اللَّه ﷺ في مرضه الذي لم يقم منه: «**لعن اللهُ اليهودَ والنصارى، اتخذوا قبورَ أنبيائهم مساجدَ**»، ولولا ذلك لأبرز قبره، غير أنه خُشي أن يتخذ مسجدًا. متفق عليه[٣].

وقولها: (خُشي) - هو بضم الخاء - تعليلاً لمنع إبراز قبره.

وروى الإمام أحمد في «**مسنده**» بإسناد جيد عن عبد اللَّه بن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إنَّ مِن شرارِ الناسِ مَن تُدركُهم الساعةُ وهم أحياءٌ، والذين يتخذون القبورَ مساجدَ**»[٤].

وعن زيد بن ثابت ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**لعن اللهُ اليهودَ اتخذوا قبورَ أنبيائهم مساجدَ**». رواه الإمام أحمد[٥].

وعن ابن عباس - رضي اللَّه عنهما - قال: «**لعن رسول اللَّه** ﷺ زائرات

---

(١) راجع الأحاديث السابقة.
أخرجه البخاري (٤٣٧)، ومسلم (٥٣٠/ ٢٠).
(٢) أخرجه مسلم (٥٢٩/ ١٩)، من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٣) سلف تخريجه.
(٤) سلف تخريجه.
(٥) أخرجه أحمد (٥/ ١٨٤، ١٨٦)، وراجع لطرقه ما تقدم تخريجه.

القبور، والمتخذين عليها المساجد والسرج». رواه الإمام أحمد وأهل السنن[١].

وفي «صحيح البخاري»: «**أن عمر بن الخطاب ﷺ رأى أنس بن مالك** ﷺ يصلي عند قبر، فقال: القبرَ القبرَ»[٢].

وهذا يدل على أنه كان من المستقر عند الصحابة رضي اللَّه عنهم ما نهاهم عنه نبيهم من الصلاة عند القبور، وفعل أنس ﷺ لا يدل على اعتقاده جوازه، فإنه لعله لم يره، أو لم يعلم أنه قبر، أو ذهل عنه، فلما نبهه عمر - رضي اللَّه تعالى عنه - تنبه، وقال أبو سعيد الخدري - رضي اللَّه تعالى عنه - : قال رسول اللَّه ﷺ: «**الأرضُ كلُّها مسجدٌ، إلا المقبرةَ والحمامَ**». رواه الإمام أحمد، وأهل السنن الأربعة، وصححه أبو حاتم بن حبان[٣].

وأبلغ من هذا أنه نهى عن الصلاة إلى القبر، فلا يكون القبر بين المصلي وبين القبلة.

فروى مسلم في «صحيحه» عن أبي مرثد الغنوي رحمه اللَّه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**لا تجلسوا على القبورِ، ولا تصلُّوا إليها**»[٤].

وفي هذا إبطال قول من زعم أن النهي عن الصلاة فيها لأجل النجاسة، فهذا أبعد شيء عن مقاصد الرسول، وهو باطل من عدة أوجه:

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ذكره البخاري (١/ ١٦٥) معلقًا، ووصله وكيع بن الجراح في «مصنفه» كما في «عمدة القاري» (٤/ ١٧٢)، والبيهقي (٢/ ٤٣٥).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٨٣، ٩٦)، وأبو داود (٤٩٢)، والترمذي (٣١٧)، وابن ماجه (٧٤٥)، والدارمي (١٣٩٠)، من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم (٩٧/ ٩٧٢).

منها: أن الأحاديث كلها ليس فيها فرق بين المقبرة الحديثة والمنبوشة، كما يقوله المعللون بالنجاسة.

ومنها: أنه لعن اليهود والنصارى على اتخاذ قبور أنبيائهم مساجد، ومعلوم قطعًا أن هذا ليس لأجل النجاسة، فإن ذلك لا يختص بقبور الأنبياء، ولأن قبور الأنبياء من أطهر البقاع، وليس للنجاسة عليها طريق البتة، فإن اللَّه حرم على الأرض أن تأكل أجسادهم فهم في قبورهم طريون.

ومنها: أنه نهى عن الصلاة إليها.

ومنها: أنه أخبر أن الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام، ولو كان ذلك لأجل النجاسة لكان ذكر الحشوش والمجازر ونحوها أولى من ذكر القبور.

ومنها: أن موضع مسجده كان مقبرة للمشركين، فنبش قبورهم وسواها، واتخذه مسجدًا، ولم ينقل ذلك التراب، بل سوَّى الأرض ومهدها، وصلى فيه، كما ثبت في «الصحيحين» عن أنس بن مالك ﷺ قال: لما قدم النبي المدينة فنزل بأعلى المدينة في حيٍّ يقال لهم بنو عمرو بن عوف، فأقام النبي فيهم أربع عشرة ليلة، ثم أرسل إلى ملأ بني النجار فجاءوا متقلدي السيوف، وكأني أنظر إلى النبي ﷺ على راحلته وأبو بكر ردفه، وملأ بني النجار حوله، حتى ألقى بفناء أبي أيوب، وكان يحب أن يصلي حيث أدركته الصلاة، ويصلي في مرابض الغنم، وأنه أمر ببناء المسجد، فأرسل إلى ملأ بني النجار، فقال: «**يا بني النجارِ، ثامنوني بحائطكم هذا**». قالوا: لا واللَّه ما نطلب ثمنه إلا إلى الله.

فقال أنس: فكان فيه ما أقول لكم، قبور المشركين، وفيه خَرِب، وفيه

نخل، فأمر النبي ﷺ بقبور المشركين فنبشت، ثم بالخَرِب فسُوِّيت، وبالنخل فقطع، فصفوا النخل قبلة المسجد، وجعلوا عضادتيه الحجارة، وجعلوا ينقلون الصخر وهم يرتجزون. وذكر الحديث[١].

ومنها: أن فتنة الشرك بالصلاة في القبور ومشابهة عباد الأوثان أعظم بكثير من مفسدة الصلاة بعد العصر والفجر، فإذا نهى عن ذلك سدًّا لذريعة التشبه التي لا تكاد تخطر ببال المصلي، فكيف بهذه الذريعة القريبة التي كثيرًا ما تدعو صاحبها إلى الشرك، ودعاء الموتى، واستغاثتهم، وطلب الحوائج منهم، واعتقاد أن الصلاة عند قبورهم أفضل منها في المساجد، وغير ذلك مما هو محادة ظاهرة لله ورسوله، فأين التعليل بنجاسة البقعة من هذه المفسدة؟! ومما يدل على أن النبي قصد منع هذه الأمة من الفتنة بالقبور كما افتتن بها قوم نوح ومن بعدهم.

ومنها: أنه لعن المتخذين عليها المساجد، ولو كان ذلك لأجل النجاسة لأمكن أن يتخذ عليها المسجد مع تطيينها بطين طاهر فتزول اللعنة، وهو باطل قطعًا.

ومنها: أنه قرن في اللعن بين متخذي المساجد عليها، وموقدي السرج عليها، فهما في اللعنة قرينان، وفي ارتكاب الكبيرة صنوان، فإن كل ما لعن رسول اللَّه فهو من الكبائر، ومعلوم أن إيقاد السرج عليها إنما لعن فاعله لكونه وسيلة إلى تعظيمها، وجعلها نُصُبًا يوفض إليه المشركون كما هو الواقع، فهكذا اتخاذ المساجد عليها، ولهذا قرن بينهما، فإن اتخاذ المساجد عليها تعظيم لها، وتعريض للفتنة بها، ولهذا حكى اللَّه سبحانه وتعالى عن

(١) أخرجه البخاري (٤٢٨، ١٨٦٨، ٢١٠٦)، وانظر أطرافه، ومسلم (٩/ ٥٢٤).

المتغلبين على أمر أصحاب الكهف أنهم قالوا: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١].

ومنها: أنه قال: «**اللهمَّ لا تجعلْ قبري وثنًا يُعبَدُ، اشتدَّ غضبُ اللهِ على قومٍ اتخذوا قبورَ أنبيائهم مساجدَ**». فذكره ذلك عقيب قوله: «**اللهمَّ لا تجعلْ قبري وثنًا يُعبدُ**». تنبيه منه على سبب لحوق اللعن لهم، وهو توصلهم بذلك إلى أن تصير أوثانًا تعبد.

وبالجملة فمن له معرفة بالشرك وأسبابه وذرائعه، وفهم عن الرسول ﷺ مقاصده؛ جزم جزمًا لا يحتمل النقيض أن هذه المبالغة منه باللعن والنهي بصيغتيه: صيغة (لا تفعلوا)، وصيغة (إني أنهاكم) ليس لأجل النجاسة، بل هو لأجل نجاسة الشرك اللاحقة بمن عصاه، وارتكب ما عنه نهاه، واتبع هواه، ولم يخش ربه ومولاه، وقَلَّ نصيبه - أو عدم - في تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، فإن هذا وأمثاله من النبي ﷺ صيانة لحمى التوحيد أن يلحقه الشرك ويغشاه، وتجريد له، وغضب لربه أن يعدل به سواه، فأبى المشركون إلا معصية لأمره، وارتكابًا لنهيه، وغرهم الشيطان فقال: بل هذا تعظيم لقبور المشايخ والصالحين، وكلما كنتم أشد لها تعظيمًا، وأشد فيهم غلوًّا؛ كنتم بقربهم أسعد، ومن أعدائهم أبعد.

ولعمر الله، من هذا الباب بعينه دخل على عباد يغوث ويعوق ونسر، ومنه دخل على عباد الأصنام منذ كانوا إلى يوم القيامة، فجمع المشركون بين الغلو فيهم والطعن في طريقتهم، وهدى اللّه أهل التوحيد لسلوك طريقتهم وإنزالهم منازلهم التي أنزلهم اللّه إياها: من العبودية، وسلب خصائص الإلهية عنهم، وهذا غاية تعظيمهم وطاعتهم.

فأما المشركون فعصوا أمرهم، وتنقصوهم في صورة التعظيم لهم.

قال الشافعي: «**أكره أن يعظم مخلوق حتى يجعل قبره مسجدًا؛ مخافة الفتنة عليه وعلى من بعده من الناس**»(١).

وممن علل بالشرك ومشابهة اليهود والنصارى الأثرم في كتاب «**ناسخ الحديث ومنسوخه**»، فقال بعد أن ذكر حديث أبي سعيد أن النبي ﷺ قال: «**جُعلتْ لي الأرضُ مسجدًا، إلا المقبرةَ والحمامَ**»(٢). وحديث زيد بن جبيرة عن داود بن الحصين عن نافع عن ابن عمر أن النبي ﷺ نهى عن الصلاة في سبع مواطن، وذكر منها المقبرة(٣).

قال الأثرم: إنما كرهت الصلاة في المقبرة للتشبه بأهل الكتاب؛ لأنهم يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد.

ومن ذلك اتخاذها عيدًا، والعيد: ما يعتاد مجيئه وقصده من مكان وزمان.

فأما الزمان: فكقوله: «**يوم عرفة، ويوم النحر، وأيام منى عيدنا أهل الإسلام**». رواه أبو داود وغيره(٤).

وأما المكان: فكما روى أبو داود في «**سننه**» أن رجلًا قال: يا رسول الله، إني نذرت أن أنحر إبلًا ببُوَانَة، فقال: «**أبِها وثنٌ مِن أوثانِ المشركين،**

---

(١) راجع «المهذب» (١/ ٢٥٧).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) هذا الحديث أخرجه الترمذي (٣٤٦، ٣٤٧)، وابن ماجه (٧٤٦)، والمواطن هي: المزبلة، والمجزرة، والمقبرة، وقارعة الطريق، والحمام، ومعاطن الإبل، وفوق الكعبة.

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ١٥٢)، وأبو داود (٢٤١٩)، والترمذي (٧٧٣)، والنسائي (٥/ ٢٥٢) من حديث عقبة بن عامر ﷺ.

أو عيدٌ مِن أعيادِهم؟» قال: لا. قال: «**فأوفِ بنذرِك**»[١]. وكقوله: «**لا تجعلوا قبري عيدًا**»[٢].

والعيد مأخوذ من المعاودة والاعتياد، فإذا كان اسمًا للمكان، فهو المكان الذي يقصد الاجتماع فيه، وانتيابه للعبادة أو لغيرها، كما أن المسجد الحرام ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر جعلها اللَّه تعالى عيدًا للحنفاء ومثابة، كما جعل أيام التعبد فيها عيدًا.

وكان للمشركين أعياد زمانية ومكانية، فلما جاء اللَّه بالإسلام أبطلها، وعوض الحنفاء منها: عيد الفطر، وعيد النحر، وأيام منى، كما عوضهم عن أعياد المشركين المكانية بالكعبة البيت الحرام وعرفة ومنى والمشاعر.

فاتخاذ القبور عيدًا هو من أعياد المشركين التي كانوا عليها قبل الإسلام، وقد نهى عنه رسول اللَّه في سيد القبور منبهًا به على غيره.

فقال أبو داود: حدثنا أحمد بن صالح، قال: قرأت على عبد اللَّه بن نافع، أخبرني ابن أبي ذئب، عن سعيد المقبرى، عن أبي هريرة - رضي اللَّه تعالى عنه - قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا تجعلوا بيوتكم قبورًا، ولا تجعلوا قبري عيدًا، وصلوا عليَّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم**». وهذا إسناد حسن رواته كلهم ثقات مشاهير[٣].

وقال أبو يعلى الموصلي في «**مسنده**»: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا زيد بن الحباب، حدثنا جعفر بن إبراهيم - من ولد ذي الجناحين -

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٣١٣)، والطبراني في «الكبير» (٢/ ١٣٤١)، من حديث ثابت بن الضحاك الأنصاري الأوسي رضي الله عنه.

(٢) سلف تخريجه.

(٣) سلف تخريجه، وهو حديث صحيح.

حدثنا علي بن عمر، عن أبيه، عن علي بن الحسين أنه رأى رجلا يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي فيدخل فيها فيدعو، فنهاه، وقال: ألا أحدثكم حديثًا سمعته من أبي عن جدي عن رسول اللَّه ﷺ قال: «**لا تتخذوا قبري عيدًا، ولا بيوتكم قبورًا، فإن تسليمكم يبلغني أينما كنتم**». رواه أبو عبد اللَّه محمد بن عبد الواحد المقدسي في «**مختاراته**»[(١)].

وقال سعيد بن منصور في «**السنن**»: حدثنا حبان بن علي، حدثني محمد ابن عجلان، عن أبي سعيد مولى المهري قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا تتخذوا قبري عيدًا، ولا بيوتكم قبورًا، وصلوا عليَّ حيثما كنتم فإن صلاتكم تبلغني**».

وقال سعيد: حدثنا عبد العزيز بن محمد، أخبرني سهيل بن أبي سهيل قال: رآني الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ﷺ عند القبر، فناداني وهو في بيت فاطمة يتعشى، فقال: هلم إلى العشاء. فقلت: لا أريده، فقال: ما لي رأيتك عند القبر؟ فقلت: سلمت على النبي ﷺ، فقال: إذا دخلت المسجد فسلم. ثم قال: إن رسول اللَّه ﷺ قال: «**لا تتخذوا بيتي عيدًا، ولا تتخذوا بيوتَكم مقابرَ، لعن اللهُ اليهودَ والنصارى، اتخذوا قبورَ أنبيائهم مساجدَ، وصلُّوا عليَّ، فإنَّ صلاتَكم تبلغني حيثما كنتم، ما أنتم ومَن بالأندلسِ إلا سواء**»[(٢)]. فهذان المرسلان من هذين الوجهين المختلفين

---

(١) أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (٢/ ١٨٦)، وأبو يعلى في «مسنده» (١/ ٤٦٩ وأخرجه إسماعيل بن إسحاق القاضي في «فضل الصلاة على النبيّ ﷺ» كما في «تفسير ابن كثير» (٣/ ٦٧٧).

(٢) وأخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٣/ ٧١، ٥٧٧) وابن أبي شيبة في «المصنف» (٢/ ١٥٠، ٣/ ٣٠) من طريق سهيل، به بنحوه.

يدلان على ثبوت الحديث، لا سيما وقد احتج به من أرسله، وذلك يقتضي ثبوته عنده، هذا لو لم يكن روي من وجوه مسندة غير هذين، فكيف وقد تقدم مسندًا؟!

قال شيخ الإسلام - قدس اللَّه روحه - : «ووجه الدلالة أن قبر رسول اللَّه أفضل قبر على وجه الأرض، وقد نهى عن اتخاذه عيدًا، فقبر غيره أولى بالنهي كائنًا من كان، ثم إنه قرن ذلك بقوله: «**ولا تتخذوا بيوتكم قبورًا**». أي: لا تعطلوها من الصلاة فيها والدعاء والقراءة، فتكون بمنزلة القبور، فأمر بتحري النافلة في البيوت، ونهى عن تحري العبادة عند القبور، وهذا ضد ما عليه المشركون من النصارى وأشباههم.

ثم إنه عقب النهي عن اتخاذه عيدًا بقوله: «**وصلوا عليَّ، فإنَّ صلاتكم تبلغني حيث كنتم** . يشير بذلك إلى أن ما ينالني منكم من الصلاة والسلام يحصل مع قربكم من قبري وبعدكم، فلا حاجة بكم إلى اتخاذه عيدًا، وقد حرف هذه الأحاديث بعض من أخذ شبهًا من النصارى بالشرك، وشبهًا من اليهود بالتحريف، فقال: «هذا أمر بملازمة قبره والعكوف عنده واعتياد قصده وانتيابه، ونهي أن يجعل كالعيد الذي إنما يكون في العام مرة أو مرتين، فكأنه قال: لا تجعلوه بمنزلة العيد الذي يكون من الحول إلى الحول، واقصدوه كل ساعة وكل وقت»!! وهذا مراغمة ومحادة لله ومناقضة لما قصده الرسول وقلب للحقائق، ونسبة الرسول إلى التدليس والتلبيس بعد التناقض، فقاتل اللَّه أهل الباطل، أنى يؤفكون؟! ولا ريب أن من أمر الناس باعتياد أمر وملازمته وكثرة انتيابه بقوله: لا تجعلوه عيدًا فهو إلى التلبيس وضد البيان أقرب منه إلى الدلالة والبيان، فإن لم يكن هذا تنقيصًا فليس

للتنقيص حقيقة فينا، كمن يرمي أنصار الرسول وحزبه بدائه ومصابه وينسل كأنه بريء، ولا ريب أن ارتكاب كل كبيرة بعد الشرك أسهل إثمًا وأخف عقوبة من تعاطي مثل ذلك في دينه وسنته.

وهكذا غُيرت ديانات الرسل، ولولا أن اللَّه أقام لدينه الأنصار والأعوان الذابين عنه لجرى عليه ما جرى على الأديان قبله.

ولو أراد رسول اللَّه ﷺ ما قاله هؤلاء الضُّلَّال لم ينه عن اتخاذ قبور الأنبياء مساجد، ويلعن ويلعن فاعل ذلك، فإنه إذا لعن من اتخذها مساجد يعبد اللَّه فيها، فكيف يأمر بملازمتها والعكوف عندها؟!! وأن يعتاد قصدها وانتيابها! ولا تجعل كالعيد الذي يجيء من الحول إلى الحول! وكيف يسأل ربه أن لا يجعل قبره وثنًا يعبد؟! وكيف يقول أعلم الخلق بذلك: ولولا ذلك لأبرز قبره، ولكن خُشي أن يتخذ مسجدًا؟! وكيف يقول: «**لا تجعلوا قبري عيدًا وصلوا عليَّ حيثما كنتم**»؟! وكيف لم يفهم أصحابه وأهل بيته من ذلك ما فهمه هؤلاء الضُّلَّال الذين جمعوا بين الشرك والتحريف؟!!

وهذا أفضل التابعين من أهل بيته علي بن الحسين - رضي اللَّه عنهما - نهى ذلك الرجل أن يتحرى الدعاء عند قبره، واستدل بالحديث، وهو الذي رواه وسمعه من أبيه الحسين عن جده عليٍّ ﵁، وهو أعلم بمعناه من هؤلاء الضُّلال، وكذلك ابن عمه الحسن بن الحسن شيخ أهل بيته كره أن يقصد الرجل القبر إذا لم يكن يريد المسجد، ورأى أن ذلك من اتخاذه عيدًا.

قال شيخنا: «فانظر هذه السنة كيف مخرجها من أهل المدينة وأهل البيت الذين لهم من رسول اللَّه ﷺ قرب النسب وقرب الدار؛ لأنهم إلى ذلك أحوج من غيرهم، فكانوا له أضبط.

مفاسد اتخاذ القبور أعياد

ثم إن في اتخاذ القبور أعيادًا من المفاسد العظيمة التي لا يعلمها إلا اللَّه تعالى ما يغضب لأجله كل من في قلبه وقار لله تعالى، وغيرة على التوحيد، وتهجين وتقبيح للشرك، ولكن: ما لجُرحٍ بميتٍ إيلامُ!

فمن مفاسد اتخاذها أعيادًا: الصلاة إليها، والطواف بها، وتقبيلها، واستلامها، وتعفير الخدود على ترابها، وعبادة أصحابها، والاستغاثة بهم، وسؤالهم النصر والرزق والعافية، وقضاء الديون، وتفريج الكربات، وإغاثة اللهفان، وغير ذلك من أنواع الطلبات التي كان عباد الأوثان يسألونها أوثانهم.

❊ ❊ ❊

وصف حال أهل الغلو في الأضرحة

فلو رأيت غلاة المتخذين لها عيدًا، وقد نزلوا عن الأكوار والدواب، إذا رأوها من مكان بعيد فوضعوا لها الجباه، وقبلوا الأرض، وكشفوا الرءوس، وارتفعت أصواتهم بالضجيج، وتباكوا حتى تسمع لهم النشيج، ورأوا أنهم قد أَرْبَوا في الربح على الحجيج، فاستغاثوا بمن لا يبدي ولا يعيد، ونادوا ولكن من مكان بعيد، حتى إذا دنوا منها صلَّوا عند القبر ركعتين، ورأوا أنهم قد أحرزوا من الأجر ولا أجرَ مَن صلى إلى القبلتين، فتراهم حول القبر ركعًا سجدًا يبتغون فضلاً من الميت ورضوانًا، وقد مَلئوا أكفهم خيبة وخسرانًا، فلغير الله، بل للشيطان، ما يراق هناك من العبرات، ويرتفع من الأصوات، ويطلب من الميت من الحاجات، ويسأل من تفريج الكربات، وإغناء ذوي الفاقات، ومعافاة أولي العاهات والبليات، ثم انثنوا بعد ذلك حول القبر طائفين؛ تشبيهًا له بالبيت الحرام، الذي جعله اللَّه مباركًا وهدى للعالمين، ثم أخذوا في التقبيل والاستلام، أرأيت الحجر الأسود وما يَفعل به وفدُ البيت الحرام!! ثم عفروا لديه تلك الجباه والخدود التي يعلم اللَّه أنها لم تعفر كذلك بين يديه في السجود، ثم كملوا مناسك حج القبر بالتقصير هناك والحلاق، واستمتعوا بخلاقهم من ذلك الوثن؛ إذ لم يكن لهم عند اللَّه من خلاق، وقربوا لذلك الوثن القرابين، وكانت صلاتهم ونسكهم وقربانهم لغير اللَّه رب العالمين، فلو رأيتهم يهنئ بعضهم بعضًا، ويقول: أجزل اللَّه لنا ولكم أجرًا وافرًا وحظًّا. فإذا رجعوا سألهم غلاة المتخلفين أن يبيع أحدهم ثواب حجة القبر بحج المتخلف إلى البيت الحرام، فيقول: لا، ولو بحجك

كل عام.

هذا ولم نتجاوز فيما حكيناه عنهم ولا استقصينا جميع بدعهم وضلالهم؛ إذ هي فوق ما يخطر بالبال، أو يدور في الخيال، وهذا كان مبدأ عبادة الأصنام في قوم نوح كما تقدم، وكل من شم أدنى رائحة من العلم والفقه يعلم أن من أهم الأمور: سد الذريعة إلى هذا المحذور.

وأن صاحب الشرع أعلم بعاقبة ما نهى عنه لما يئول إليه، وأحكم في نهيه عنه، وتوعده عليه، وأن الخير والهدى في اتباعه وطاعته، والشر والضلال في معصيته ومخالفته.

ورأيت لأبي الوفاء بن عقيل في ذلك فصلًا حسنًا، فذكرته بلفظه قال: «لما صعبت التكاليف على الجهال والطغام، عدلوا عن أوضاع الشرع إلى تعظيم أوضاع وضعوها لأنفسهم، فسهلت عليهم؛ إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم». قال: «وهم عندي كفار[1] بهذه الأوضاع، مثل: تعظيم القبور وإكرامها بما نهى عنه الشرع: من إيقاد النيران، وتقبيلها، وتخليقها، وخطاب الموتى بالحوائج، وكتب الرقاع فيها: يا مولاي افعل بي كذا وكذا. وأخذ تربتها تبركًا، وإفاضة الطيب على القبور، وشد الرحال إليها، وإلقاء الخرق على الشجر؛ اقتداءً بمن عبد اللات والعزى، والويل عندهم لمن لم

---

(١) الأظهر أنها تجري عليهم أحكام المسلمين في الحياة ولا يجزم بكفرهم ما لم تقم عليهم الحجة وأما بعد الموت فيجزم بكفرهم إذا ماتوا على هذه الحال وهذه طريقة القرآن؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [البقرة: ١٦١]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾ [البقرة: ٢١٧] وهذا في الأحكام الظاهرة وأما في الأحكام الباطنة فأمرهم إلى الله.

يقبل مشهد الكف، ولم يتمسح بآجرة مسجد الملموسة يوم الأربعاء، ولم يقل الحمالون على جنازته: الصديق أبو بكر، أو محمد، وعلي، أو لم يعقد على قبر أبيه أزجًا بالجص والآجر، ولم يخرق ثيابه إلى الذيل، ولم يرق ماء الورد على القبر» انتهى.

* * *

غربة التوحيد والسنة في أكثر بلاد المسلمين

ومن جمع بين سنة رسول اللَّه ﷺ في القبور، وما أمر به، ونهى عنه، وما كان عليه أصحابه - وبين ما عليه أكثر الناس اليوم رأى أحدهما مضادًا للآخر، مناقضًا له، بحيث لا يجتمعان أبدًا.

فنهى رسول اللَّه ﷺ عن الصلاة إلى القبور، وهؤلاء يصلون عندها!

ونهى عن اتخاذها مساجد، وهؤلاء يبنون عليها المساجد ويسمونها مشاهد؛ مضاهاة لبيوت اللَّه تعالى!

ونهى عن إيقاد السرج عليها، وهؤلاء يُوقِفون الوقوف على إيقاد القناديل عليها!

ونهى أن تتخذ عيدًا، وهؤلاء يتخذونها أعيادًا ومناسك، ويجتمعون لها كاجتماعهم للعيد أو أكثر!

وأمر بتسويتها، كما روى مسلم في «صحيحه» عن أبي الهياج الأسدي قال: قال علي بن أبي طالب ﷺ: **«ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول اللَّه ﷺ؟** أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته»[1]. وفي **«صحيحه»** أيضًا عن ثُمامة بن شُفَي قال: **«كنا مع فضالة بن عبيد بأرض الروم بِرودس، فتوفي صاحب لنا، فأمر فضالة بقبره فسُوِّي، ثم قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يأمر بتسويته»**[2]. وهؤلاء يبالغون في مخالفة هذين الحديثين،

---

(١) أخرجه مسلم (٩٦٩/ ٩٣)، وقال الترمذي: «العمل على هذا عند بعض أهل العلم، يكرهون أن يُرفع القبر فوق الأرض. قال الشافعي: أكره أن يرفع القبر إلا بقدر ما نعرف أنه قبر لكي لا يوطأ ولا يجلس عليه». اهـ.

(٢) أخرجه مسلم (٩٦٨/ ٩٢).

ويرفعونها عن الأرض كالبيت ويعقدون عليها القباب.

ونهى عن تجصيص القبر والبناء عليه، كما روى مسلم في «**صحيحه**» عن جابر قال: «**نهى رسول اللَّه** ﷺ عن تجصيص القبر، وأن يُقعد عليه، وأن يُبنى عليه بناء»[(١)].

ونهى عن الكتابة عليها، كما روى أبو داود والترمذي في «**سننهما**» عن جابر ﷺ: «**أن رسول اللَّه** ﷺ نهى أن تجصص القبور، وأن يكتب عليها». قال الترمذي: «**حديث حسن صحيح**»[(٢)]. وهؤلاء يتخذون عليها الألواح، ويكتبون عليها القرآن وغيره.

ونهى أن يزاد عليها غير ترابها، كما روى أبو داود من حديث جابر أيضًا: «**أن رسول اللَّه** ﷺ نهى أن يجصص القبر، أو يكتب عليه، أو يزاد عليه»[(٣)]. وهؤلاء يزيدون عليه سوى التراب الآجُرِّ والأحجار والجص، ونهى عمر بن عبد العزيز أن يبنى القبر بآجُر، وأوصى أن لا يفعل ذلك بقبره، وأوصى الأسود بن يزيد: «**أن لا تجعلوا على قبري آجُرًّا**»، وقال إبراهيم النخعي: «**كانوا يكرهون الآجُرَّ على قبورهم**»، وأوصى أبو هريرة ﷺ حين حضرته الوفاة: «**أن لا تضربوا عليَّ فسطاطًا**». وكره الإمام أحمد أن يضرب على القبر فسطاط.

والمقصود: أن هؤلاء المعظمين للقبور، المتخذيها أعيادًا، الموقدين عليها السرج، الذين يبنون عليها المساجد والقباب، مناقضون لما أمر به رسول اللَّه ﷺ، محادون لما جاء به، وأعظم ذلك: اتخاذها مساجد، وإيقاد

(١) أخرجه مسلم (٩٧٠/ ٩٤).
(٢) أخرجه أبو داود (٣٢٢٦)، والترمذي (١٠٥٢).
(٣) تقدم في الذي قبله.

السرج عليها، وهو من الكبائر، وقد صرح الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم بتحريمه.

قال أبو محمد المقدسي: «ولو أبيح اتخاذ السرج عليها لم يلعن النبي ﷺ مَن فعله، ولأن فيه تضييعًا للمال في غير فائدة، وإفراطًا في تعظيم القبور أشبه تعظيم الأصنام». قال: «**ولا يجوز اتخاذ المساجد على القبور لهذا الخبر، ولأن النبي ﷺ** قال: «**لعن اللَّه اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**». يحذر ما صنعوا. متفق عليه[1]. وقالت عائشة - رضي اللَّه عنها -: «**إنما لم يبرز قبر رسول اللَّه** ﷺ لئلا يتخذ مسجدًا»[2]؛ لأن تخصيص القبور بالصلاة عندها يشبه تعظيم الأصنام بالسجود لها، والتقرب إليها، وقد روينا أن ابتداء عبادة الأصنام تعظيم الأموات باتخاذ صورهم، والتمسح بها، والصلاة عندها» انتهى.

وقد آل الأمر بهؤلاء الضُّلَّال المشركين إلى أن شرعوا للقبور حجًّا، ووضعوا له مناسك، حتى صنف بعض غلاتهم في ذلك كتابًا وسماه: «**مناسك حج المشاهد**» مضاهاة منه بالقبور للبيت الحرام!

ولا يخفى أن هذا مفارقة لدين الإسلام، ودخول في دين عباد الأصنام.

فانظر إلى هذا التباين العظيم بين ما شرعه رسول اللَّه ﷺ وقصده من النهي عما تقدم ذكره في القبور، وبين ما شرعه هؤلاء وقصدوه، ولا ريب أن في ذلك من المفاسد ما يعجز العبد عن حصره:

فمنها تعظيمها المُوقع في الافتتان بها.

---

(١) سلف تخريجه.

(٢) سلف تخريجه.

ومنها اتخاذها عيدًا.

ومنها السفر إليها.

ومنها مشابهة عبادة الأصنام بما يفعل عندها من العكوف عليها والمجاورة عندها، وتعليق الستور عليها وسِدانتها، وعبَّادُها يرجحون المجاورة عندها على المجاورة عند المسجد الحرام، ويرون سِدانتها أفضل من خدمة المساجد، والويل عندهم لقيِّمها ليلة يطفئ القنديل المعلق عليها.

ومنها النذر لها ولسَدَنتها.

ومنها اعتقاد المشركين بها أن بها يُكشف البلاء، وينصر على الأعداء، ويستنزل غيث السماء، وتفرج الكروب، وتقضى الحوائج، وينصر المظلوم، ويجار الخائف، إلى غير ذلك.

ومنها الدخول في لعنة اللَّه تعالى ورسوله، باتخاذ المساجد عليها وإيقاد السُّرُج عليها.

ومنها الشرك الأكبر الذي يفعل عندها.

ومنها إيذاء أصحابها بما يفعله المشركون بقبورهم، فإنهم يؤذيهم ما يفعل عند قبورهم، ويكرهونه غاية الكراهة، كما أن المسيح يكره ما يفعله النصارى عند قبره، وكذلك غيره من الأنبياء والأولياء والمشايخ يؤذيهم ما يفعله أشباه النصارى عند قبورهم، ويوم القيامة يتبرءون منهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾﴾ [الفرقان: ١٧، ١٨]، قال اللَّه للمشركين: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا

تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [الفرقان: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ [المائدة: ١١٦].

ومنها: مشابهة اليهود والنصارى في اتخاذ المساجد والسرج عليها.

ومنها: محادة الله ورسوله، ومناقضة ما شرعه فيها.

ومنها: التعب العظيم مع الوزر الكثير والإثم العظيم.

ومنها: إماتة السنن وإحياء البدع.

ومنها: تفضيلها على خير البقاع وأحبها إلى الله، فإن عبَّاد القبور يعطونها من التعظيم والاحترام والخشوع ورقة القلب والعكوف بالهمة على الموتى ما لا يفعلونه في المساجد، ولا يحصل لهم فيها نظيره ولا قريب منه.

ومنها: أن ذلك يتضمن عمارة المشاهد وخراب المساجد، ودين الله الذي بعث به رسوله بضد ذلك، ولهذا لما كانت الرافضة من أبعد الناس عن العلم والدين عمروا المشاهد، وأخربوا المساجد.

ومنها: أن الذي شرعه الرسول عند زيارة القبور إنما هو تذكر الآخرة، والإحسان إلى المزور، بالدعاء له، والترحم عليه، والاستغفار له، وسؤال العافية له، فيكون الزائر محسنًا إلى نفسه وإلى الميت، فقلب هؤلاء المشركون الأمر، وعكسوا الدين، وجعلوا المقصود بالزيارة الشرك بالميت، ودعاءه والدعاء به، وسؤاله حوائجهم، واستنزال البركات منه، ونصره لهم

على الأعداء، ونحو ذلك، فصاروا مسيئين إلى نفوسهم وإلى الميت.

ولو لم يكن إلا بحرمانه بركة ما شرعه اللَّه تعالى من الدعاء له والترحم عليه والاستغفار له.

* * *

الزيارة المشروعة

فاسمع الآن زيارة أهل الإيمان التي شرعها اللَّه تعالى على لسان رسوله، ثم وازن بينها وبين زيارة أهل الإشراك التي شرعها لهم الشيطان، واختر لنفسك.

قالت عائشة - رضي اللَّه عنها - : كان رسول اللَّه ﷺ كلما كان ليلتها منه يخرج من آخر الليل إلى البقيع، فيقول: «**السلامُ عليكم دارَ قومٍ مؤمنين، وأتاكم ما توعدون، غدًا مؤجَّلون، وإنا إن شاء اللهُ بكم لاحقون، اللهمَّ اغفرْ لأهلِ بقيعِ الغَرْقَدِ**». رواه مسلم(١).

وفي «صحيحه» عنها أيضًا: أن جبريل أتاه فقال: «**إنَّ ربَّك يأمرُك أن تأتيَ أهلَ البقيعِ فتستغفرَ لهم**». قالت: قلت: كيف أقولُ لهم يا رسول الله؟ قال: «**قولي: السلامُ على أهلِ الديارِ من المؤمنين والمسلمين، ويرحمُ اللهُ المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء اللهُ بكم للاحقون**»(٢).

وفي «صحيحه» أيضًا عن سليمان بن بريدة، عن أبيه قال: كان رسول اللَّه ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولوا: «**السلامُ على أهلِ الديارِ**». وفي لفظ: «**السلامُ عليكم أهلَ الديارِ من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء اللهُ بكم لاحقون، نسألُ اللهَ لنا ولكم العافيةَ**»(٣).

وعن بريدة قال: قال رسول اللَّه ﷺ : «**كنتُ نهيتُكم عن زيارةِ القبورِ،**

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٢/ ٩٧٤).
(٢) أخرجه مسلم (١٠٣/ ٩٧٤).
(٣) أخرجه مسلم (١٠٤/ ٩٧٥).

فمَن أراد أن يزورَ فليزُرْ، ولا تقولوا هُجْرًا[١]». رواه أحمد والنسائي[٢].

وكان رسول اللَّه ﷺ قد نهى الرجال عن زيارة القبور؛ سدًّا للذريعة، فلما تمكن التوحيد في قلوبهم أذن لهم في زيارتها على الوجه الذي شرعه، ونهاهم أن يقولوا هُجْرًا، فمن زارها على غير الوجه المشروع الذي يحبه اللَّه ورسوله؛ فإن زيارته غير مأذون فيها، ومن أعظم الهُجر: الشرك عندها قولاً وفعلاً.

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**زوروا القبور؛ فإنها تذكر الموت**»[٣].

وعن علي بن أبي طالب - رضي اللَّه تعالى عنه - أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إني كنتُ نهيتُكم عن زيارةِ القبورِ فزوروها؛ فإنها تذكرُكم الآخرةِ**». رواه الإمام أحمد[٤].

وعن ابن عباس - رضي اللَّه تعالى عنهما - قال: مَرَّ رسول اللَّه ﷺ بقبور المدينة، فأقبل عليهم بوجهه فقال: «**السلامُ عليكم يا أهلَ القبورِ، يغفرُ اللهُ لنا ولكم، ونحن بالأثر**»[٥]. رواه أحمد والترمذي وحسنه.

وعن ابن مسعود - رضي اللَّه تعالى عنه - أن رسول اللَّه ﷺ قال:

---

(١) الهجر: الفحش. «النهاية».

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣٦١)، والنسائي (٤/ ٨٩).

(٣) أخرجه مسلم (١٠٥/ ٩٧٦).

(٤) هو من زيادات عبد الله بن الإمام أحمد على «مسند أبيه» (١/ ١٤٥)، كما في «المسند» المطبوع؛ لكن راجعتُ «إتحافَ المهرة» (١١/ ٦٣٤) فوجدته من رواية الإمام أحمد -وهو الصواب.

(٥) راجعتُ «إتحاف المهرة» (٧/ ٣٩- ٤٨) فلم أجده عزاه للإمام أحمد، وليس هو في «المسند المطبوع». وأخرجه الترمذي (١٠٥٣).

«كنتُ نهيتُكم عن زيارةِ القبورِ فزوروا القبورَ؛ فإنها تزهدُ في الدنيا، وتذكرُ الآخرةَ». رواه ابن ماجه[١].

وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«كنتُ نهيتُكم عن زيارةِ القبورِ فزوروها؛ فإنَّ فيها عبرةً»**[٢].

فهذه الزيارة التي شرعها رسول اللَّه ﷺ لأمته وعلمهم إياها، هل تجد فيها شيئًا مما يعتمده أهل الشرك والبدع؟ أم تجدها مضادة لما هم عليه من كل وجه؟

وما أحسن ما قال مالك بن أنس رَحِمَهُ اللَّهُ: **«لن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها»**. ولكن كلما ضعف تمسك الأمم بعهود أنبيائهم ونقص إيمانهم، عوضوا عن ذلك بما أحدثوه من البدع والشرك.

ولقد جرد السلف الصالح التوحيد وحموا جانبه، حتى كان أحدهم إذا سلم على النبي ﷺ ثم أراد الدعاء استقبل القبلة، وجعل ظهره إلى جدار القبر، ثم دعا.

فقال سلمة بن وردان: «**رأيت أنس بن مالك** ﷺ يسلم على النبي ﷺ، ثم يسند ظهره إلى جدار القبر، ثم يدعو».

اتفق على ذلك الأئمة الأربعة أنه يستقبل القبلة وقت الدعاء حتى لا يدعو عند القبر، فإن الدعاء عبادة.

وفي الترمذي وغيره مرفوعًا: **«الدعاء هو العبادة»**[٣].

فجرد السلف العبادة لله، ولم يفعلوا عند القبور منها إلا ما أذن فيه

---

(١) أخرجه ابنُ ماجه (١٥٧١).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣٨).

(٣) تقدم تخريجه.

رسول اللَّه ﷺ من السلام على أصحابها، والاستغفار لهم، والترحم عليهم.

وبالجملة: فالميت قد انقطع عمله، فهو محتاج إلى من يدعو له ويشفع له، ولهذا شُرع في الصلاة عليه من الدعاء له، وجوبًا واستحبابًا، ما لم يشرع مثله في الدعاء للحي.

قال عوف بن مالك ﷺ: صلى رسول اللَّه ﷺ على جنازة فحفظتُ من دعائه وهو يقول: «**اللهم اغفر له وارحمه، وعافه واعف عنه، وأكرم نزله، ووسع مدخله، واغسله بالماء والثلج والبرد، ونقه من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس، وأبدله دارًا خيرًا من داره، وأهلًا خيرًا من أهله، وزوجًا خيرًا من زوجه، وأدخله الجنة، وأعذه من عذاب القبر، أو من عذاب النار**». حتى تمنيت أن أكون أنا الميت، لدعاء رسول اللَّه صلى اللَّه تعالى عليه وآله وسلم على ذلك الميت. رواه مسلم(١).

وقال أبو هريرة - رضي اللَّه تعالى عنه - سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول في صلاته على الجنازة: «**اللهمَّ أنت ربُها، وأنت خلقتَها، وأنت هديتَها للإسلامِ، وأنت قبضتَ رُوحَها، وأنت أعلم بسرِّها وعلانيتِها، جئنا شفعاءَ، فاغفرْ له**». رواه الإمام أحمد(٢).

وفي «**سنن أبي داود**» عن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء**»(٣).

وقالت عائشة وأنس - رضي اللَّه عنهما -، عن النبي ﷺ: «**ما من ميت يصلي عليه أمةٌ من المسلمين يبلغون مائةً كلُّهم يشفعون له إلا شفعوا**

---

(١) مسلم (٨٥،٨٦/ ٩٧٥).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٥٦، ٣٤٥، ٣٦٣).

(٣) أخرجه أبو داود (٣١٩٩).

فيه». رواه مسلم[١].

وعن ابن عباس - رضي اللَّه عنهما - قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**ما مِن رجلٍ مسلم يموتُ، فيقومُ على جنازتِه أربعون رجلًا لا يشركون باللهِ شيئًا، إلا شفَّعهم اللهُ فيه**». رواه مسلم[٢].

فهذا مقصود الصلاة على الميت، وهو الدعاء له والاستغفار والشفاعة فيه.

ومعلوم أنه في قبره أشد حاجة منه على نعشه، فإنه حينئذ معرض للسؤال وغيره، وقد كان النبي ﷺ يقف على القبر بعد الدفن فيقول: «**سَلُوا له التثبيتَ؛ فإنَّه الآن يُسألُ**»[٣].

فَعُلِمَ أنه أحوج إلى الدعاء له بعد الدفن، فإذا كنا على جنازته ندعو له لا ندعو به، ونشفع له لا نشفع به، فبعد الدفن أولى وأحرى.

فبدل أهل البدع والشرك قولاً غير الذي قيل لهم؛ بدلوا الدعاء له بدعائه نفسه، والشفاعة له بالاستشفاع به، وقصدوا بالزيارة التي شرعها رسول اللَّه إحسانًا إلى الميت وإحسانًا إلى الزائر وتذكيرًا بالآخرة - سؤال الميت، والإقسام به على الله، وتخصيص تلك البقعة بالدعاء الذي هو مخ العبادة، وحضور القلب عندها وخشوعه أعظم منه في المساجد، وأوقات الأسحار.

ومن المحال أن يكون دعاء الموتى، أو الدعاء بهم، أو الدعاء عندهم، مشروعًا وعملاً صالحًا، ويصرف عنه القرون الثلاثة المفضلة بنص رسول الله، ثم يرزقه الخلوف الذين يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون.

---

(١) أخرجه مسلم (٥٨/ ٩٤٧).

(٢) أخرجه مسلم (٥٩/ ٩٤٨).

(٣) أخرجه أبو داود (٣٢٢١)، من حديث عثمان بن عفان ﷺ.

فهذه سنة رسول اللَّه في أهل القبور بضعًا وعشرين سنة حتى توفاه اللَّه تعالى، وهذه سنة خلفائه الراشدين، وهذه طريقة جميع الصحابة والتابعين لهم بإحسان.

هل يمكن بشر على وجه الأرض أن يأتي عن أحد منهم بنقل صحيح أو حسن أو ضعيف أو منقطع، أنهم كانوا إذا كان لهم حاجة قصدوا القبور فدعوا عندها وتمسحوا بها، فضلاً أن يصلوا عندها، أو يسألوا اللَّه بأصحابها، أو يسألوهم حوائجهم؟

فليوقفونا على أثر واحد، أو حرف واحد في ذلك، بلى، يمكنهم أن يأتوا عن الخلوف التي خلفت بعدهم بكثير من ذلك، وكلما تأخر الزمان وطال العهد كان ذلك أكثر، حتى لقد وجد في ذلك عدة مصنفات ليس فيها عن رسول اللَّه ﷺ ولا عن خلفائه الراشدين، ولا عن أصحابه حرف واحد من ذلك، بلى، فيها من خلاف ذلك كثير كما قدمناه من الأحاديث المرفوعة.

وأما آثار الصحابة فأكثر من أن يحاط بها، وقد ذكرنا إنكار عمر رضي الله عنه على أنس رضي الله عنه صلاته عند القبر، وقوله له: «**القبرَ القبرَ**».

وقد ذكر محمد بن إسحاق في «**مغازيه**» من زيادات يونس بن بكير عن أبي خلدة خالد بن دينار، قال: حدثنا أبو العالية قال: «**لما فتحنا تُسْتَر وجدنا في بيت مال الهرمزان سريرًا عليه رجل ميت عند رأسه مصحف له، فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر بن الخطاب** رضي الله عنه فدعا له كعبًا فنسخه بالعربية، فأنا أول رجل من العرب قرأه قرأته مثل ما أقرأ القرآن. فقلت لأبي العالية: ما كان فيه؟ قال: سيرتُكم وأمورُكم ولحونُ كلامكم، وما هو كائن بعد.

قلت: فما صنعتم بالرجل؟ قال: حفرنا بالنهار ثلاثة عشر قبرًا متفرقة، فلما كان الليل دفناه وسوينا القبور كلها؛ لنعميه على الناس لا ينبشونه. فقلت: وما يرجون منه؟ قال: كانت السماء إذا حُبست عنهم أبرزوا السرير فيمطرون. فقلت: مَن كنتم تظنون الرجل؟ قال: رجل يقال له: دانيال. فقلت: مذ كم وجدتموه مات؟ قال: مذ ثلاثمائة سنة. قلت: ما كان تغير منه شيء؟ قال: لا، إلا شعيرات من قفاه؛ إن لحوم الأنبياء لا تبليها الأرض، ولا تأكلها السباع»[1].

ففي هذه القصة ما فعله المهاجرون والأنصار من تعمية قبره؛ لئلا يفتتن به الناس، ولم يبرزوه للدعاء عنده والتبرك به، ولو ظفر به المستأخرون لجالدوا عليه بالسيوف، ولعبدوه من دون الله، فهم قد اتخذوا من القبور أوثانًا من لا يداني هذا ولا يقاربه، وأقاموا لها سَدَنة، وجعلوها معابد أعظم من المساجد.

فلو كان الدعاء عند القبور والصلاة عندها والتبرك بها فضيلة أو سنة أو مباحًا لنصب المهاجرون والأنصار هذا القبر عَلَمًا لذلك، ودعوا عنده، وسنُّوا ذلك لمن بعدهم، ولكن كانوا أعلم باللَّه ورسوله ودينه من الخُلوف التي خلفت بعدهم، وكذلك التابعون لهم بإحسان راحوا على هذا السبيل، وقد كان عندهم من قبور أصحاب رسول اللَّه بالأمصار عدد كثير وهم متوافرون، فما منهم من استغاث عند قبر صاحب ولا دعاه، ولا دعا به، ولا دعا عنده، ولا استشفى به، ولا استسقى به، ولا استنصر به، ومن المعلوم

---

(١) هذا الخبر أخرجه نعيم بن حماد في «الفتن» (١/ ٣٨)، مختصرًا. وذكره بطوله ابنُ كثير في «البداية والنهاية» (٢/ ٤٠)، وقال: إسناده صحيح إلى أبي العالية.

أن مثل هذا مما تتوفر الهمم والدواعي على نقله، بل على نقل ما هو دونه.

وحينئذٍ فلا يخلو إما أن يكون الدعاء عندها والدعاء بأربابها أفضل منه في غير تلك البقعة، أو لا يكون، فإن كان أفضل فكيف خفي علمًا وعملاً على الصحابة والتابعين وتابعيهم؟! فتكون القرون الثلاثة الفاضلة جاهلة بهذا الفضل العظيم! وتظفر به الخلوف علمًا وعملًا! ولا يجوز أن يعلموه ويزهدوا فيه، مع حرصهم على كل خير، لا سيما الدعاء! فإن المضطر يتشبث بكل سبب، وإن كان فيه كراهة ما، فكيف يكونون مضطرين في كثير من الدعاء وهم يعلمون فضل الدعاء عند القبور ثم لا يقصدونه؟! هذا محال طبعًا وشرعًا.

فتعين القسم الآخر، وهو أنه لا فضل للدعاء عندها، ولا هو مشروع، ولا مأذون فيه بقصد الخصوص، بل تخصيصها بالدعاء عندها ذريعة إلى ما تقدم من المفاسد، ومثل هذا مما لا يشرعه اللَّه ورسوله البتة، بل استحباب الدعاء عندها شرع عبادة لم يشرعها الله، ولم ينزل بها سلطانًا.

وقد أنكر الصحابة ما هو دون هذا بكثير:

فروى غير واحد عن المعرور بن سويد قال: «**صليت مع عمر بن الخطاب** ﷺ في طريق مكة صلاة الصبح فقرأ فيها: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١﴾ [الفيل: ١] و﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١﴾ [قريش: ١]، ثم رأى الناس يذهبون مذاهب، فقال: أين يذهب هؤلاء؟ فقيل: يا أمير المؤمنين، مسجد صلى فيه النبي ﷺ، فهم يصلون فيه، فقال: إنما هلك من كان قبلكم بمثل هذا، كانوا يتبعون آثار أنبيائهم، ويتخذونها كنائس وبيعًا، فمن أدركته الصلاة منكم في هذه المساجد فليصل، ومن لا فليمض ولا

يتعمدها»[١].

وكذلك أرسل عمر - رضي اللَّه تعالى عنه - أيضًا: «**فقطع الشجرة التي بايع تحتها أصحاب رسول اللَّه ﷺ**».

بل قد أنكر رسول اللَّه ﷺ على الصحابة لما سألوه أن يجعل لهم شجرة يعلقون عليها أسلحتهم ومتاعهم بخصوصها.

فروى البخاري في «**صحيحه**» عن أبي واقد الليثي ﷺ قال: خرجنا مع رسول اللَّه ﷺ قبل حنين، ونحن حديثو عهد بكفر، وللمشركين سِدْرَة يعكفون حولها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها: ذات أنواط، فمررنا بسِدرة، فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط، كما لهم ذات أنواط، فقال النبيﷺ : «**اللهُ أكبرُ، هذا كما قالت بنو إسرائيل: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾** [الأعراف: ١٣٨]، **لتركبُنَّ سَنَنَ مَن كان قبلكم**»[٢].

فإذا كان اتخاذ هذه الشجرة لتعليق الأسلحة والعكوف حولها اتخاذ إله مع اللَّه تعالى مع أنهم لا يعبدونها ولا يسألونها، فما الظن بالعكوف حول القبر والدعاء به ودعائه والدعاء عنده؟! فأي نسبة للفتنة بشجرة إلى الفتنة بالقبر، لو كان أهل الشرك والبدعة يعلمون!

قال بعض أهل العلم من أصحاب مالك: «**فانظروا رحمكم اللَّه أينما وجدتم سِدرة أو شجرة يقصدها الناس ويعظمونها ويرجون البراء والشفاء من قبلها ويضربون بها المسامير والخرق - فهي ذات أنواط، فاقطعوها**».

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٢/ ١١٨)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٢/ ١٥١).
(٢) تقدم تخريجه، ولم يروه البخاري في «صحيحه».

ومن له خبرة بما بعث اللَّه تعالى به رسوله، وبما عليه أهل الشرك والبدع اليوم في هذا الباب وغيره، علم أن بين السلف وبين هؤلاء الخلوف من البعد أبعد مما بين المشرق والمغرب، وأنهم على شيء، والسلف على شيء، كما قيل:

سارتْ مشرقة وسرت مغربًا شتان بين مشرق ومغرب

والأمر واللَّه أعظم مما ذكرنا، وقد ذكر البخاري في «**الصحيح**» عن أم الدرداء - رضي اللَّه عنها - قالت: «**دخل عليَّ أبو الدرداء مغضبًا، فقلت له: ما لك؟ فقال: واللَّه ما أعرف فيهم شيئًا من أمر محمد إلا أنهم يصلون جميعًا**»[١].

وروى مالك في «**الموطأ**» عن عمه أبي سهيل بن مالك، عن أبيه أنه قال: «**ما أعرف شيئًا مما أدركت عليه الناس إلا النداء بالصلاة - يعني الصحابة رضي اللَّه عنهم**»[٢].

وقال الزهري: «**دخلت على أنس بن مالك بدمشق وهو يبكي، فقلت له: ما يبكيك؟ فقال: ما أعرف شيئًا مما أدركت إلا هذه الصلاة، وهذه الصلاة قد ضُيعت**». ذكره البخاري[٣].

في لفظ آخر: «**ما كنت أعرف شيئًا على عهد رسول اللَّه إلا قد أنكرته اليوم**»[٤].

وقال الحسن البصري: «**سأل رجل أبا الدرداء** ﵁، فقال: رحمك الله،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠).
(٢) «الموطأ» (١/ ٧٢).
(٣) أخرجه البخاري (٥٣٠).
(٤) أخرجه البخاري (٥٢٩).

لو أن رسول اللَّه ﷺ بين أظهرنا، هل كان ينكر شيئًا مما نحن عليه؟ فغضب واشتد غضبه، وقال: وهل كان يعرف شيئًا مما أنتم عليه؟!!».

وقال المبارك بن فضالة: «**صلى الحسن الجمعة وجلس فبكى، فقيل له: ما يبكيك يا أبا سعيد؟ فقال: تلومونني على البكاء، ولو أن رجلًا من المهاجرين اطَّلع من باب مسجدكم ما عرف شيئًا مما كان عليه على عهد رسول اللَّه أنتم اليوم عليه إلا قبلتكم هذه!**».

وهذه هي الفتنة العظمى التي قال فيها عبد اللَّه بن مسعود ﷺ: «**كيف أنتم إذا لبستكم فتنة؟ يهرم فيها الكبير، وينشأ فيها الصغير، تجري على الناس، يتخذونها سُنة إذا غُيِّرت قيل: غيرت السنة. أو: هذا منكر**»[1].

وهذا مما يدل على أن العمل إذا جرى على خلاف السنة فلا عبرة به، ولا التفات إليه، فإن العمل قد جرى على خلاف السنة منذ زمن أبي الدرداء وأنس كما تقدم.

وذكر أبو العباس أحمد بن يحيى، قال: حدثني محمد بن عبيد بن ميمون، حدثني عبد اللَّه بن إسحق الجعفري قال: «كان عبد اللَّه بن الحسن يكثر الجلوس إلى ربيعة، قال: فتذاكروا يومًا السنن، فقال رجل كان في المجلس: ليس العمل على هذا. فقال عبد الله: أرأيت إن كثر الجهال حتى يكونوا هم الحكام، فهم الحجة على السنة؟ فقال ربيعة: أشهد أن هذا كلام أبناء الأنبياء»[2].

* * *

(١) أخرجه الدارمي (١٨٥، ١٨٦)، وعبد الرزاق (١١/ ٣٥٩)، وابن أبي شيبة (٧/ ٤٥٢) كلاهما في «المصنف».

(٢) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٢٩/ ٢٥٤).



فتنة الأنصاب والأزلام

ومن أعظم مكايد الشيطان ما نصبه للناس من الأنصاب والأزلام التي هي من عمله، وقد أمر اللَّه تعالى باجتناب ذلك، وعلق الفلاح باجتنابه، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المائدة: ٩٠].

فالأنصاب: كل ما نُصب يعبد من دون اللَّه من حجر أو شجر أو وثن أو قبر، وهي جمعٌ واحدها نُصُب، كطنب وأطناب.

قال مجاهد وقتادة وابن جريج: «كانت حول البيت أحجار كان أهل الجاهلية يذبحون عليها، ويشرحون اللحم عليها، وكانوا يعظمون هذه الحجارة ويعبدونها، قالوا: وليست بأصنام، إنما الصنم ما يصور وينقش»(١). وقال ابن عباس - رضي اللَّه عنهما -: «هي الأصنام التي يعبدونها من دون اللَّه تعالى»(٢). وقال الزجاج: «حجارة كانت لهم يعبدونها، وهي الأوثان». وقال الفراء: «هي الآلهة التي كانت تُعبد، من أحجار وغيرها».

وأصل اللفظة: الشيء المنصوب الذي يقصده مَن رآه، ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [المعارج: ٤٣].

قال ابن عباس - رضي اللَّه عنهما -: «إلى غاية، أو علم يسرعون»(٣). وهو قول أكثر المفسرين، وقال الحسن: «**يعني إلى أنصابهم**

---

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٦/ ٧٥).
(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٦/ ٧٥).
(٣) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢٩/ ٨٩).

أيهم يستلمها أولاً»[١]. قال الزجاج: (وهذا على قراءة من قرأ ﴿نُصُبٌ﴾ - بضمتين - كقوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣] قال: ومعناه أصنام لهم، والمقصود أن النصب: كل شيء نصب، من خشبة أو حجر أو علم. والإيفاض: الإسراع»[٢].

وأما الأزلام: فقال ابن عباس - رضي اللَّه عنهما -: «هي قداح كانوا يستقسمون بها الأمور؛ أي: يطلبون بها علم ما قسم لهم»[٣]. وقال سعيد بن جبير: «كانت لهم حَصَيات إذا أراد أحدهم أن يغزو أو يجلس استقسم بها»[٤]. وقال أيضًا: «هي القَدَحان اللذان كان يستقسم بهما أهل الجاهلية في أمورهم، أحدهما عليه مكتوب: أمرني ربي، والآخر: نهاني ربي، فإذا أرادوا أمرًا ضربوا بها، فإن خرج الذي عليه: أمرني؛ فعلوا ما هموا به، وإن خرج الذي عليه: نهاني؛ تركوه»[٥]. وقال أبو عبيد: «الاستقسام: طلب القسمة». وقال المبرد: «الاستقسام: أخذ كل واحد قسمه. وقيل: الاستقسام: إلزام أنفسهم بما تأمرهم به القداح كقسم اليمين»[٦]. وقال الأزهري: «﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾؛ أي: تطلبوا من جهة الأزلام ما قسم لكم من أحد الأمرين». وقال أبو إسحاق الزجاج وغيره: «الاستقسام بالأزلام حرام، ولا فرق بين ذلك وبين قول المنجم: لا تخرج من أجل نجم

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢٩/ ٨٩).
(٢) راجع «زاد المسير» (٢/ ٢٨٣).
(٣) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٦/ ٧٨).
(٤) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٦/ ٧٦).
(٥) هذا من تفسير الحسن البصري. كما أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٦/ ٧٦).
(٦) راجع لهذه الأقوال «زاد المسير» (٢/ ٢٨٤).

كذا، واخرج من أجل طلوع نجم كذا. لأن اللَّه تعالى يقول: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ [لقمان: ٣٤]، وذلك دخول في عِلْمِ اللَّه ﷻ الذي هو غيب عنا، فهو حرام كالأزلام التي ذكرها اللَّه تعالى».

والمقصود: أن الناس قد ابتلوا بالأنصاب والأزلام، فالأنصاب للشرك والعبادة، والأزلام للتكهن وطلب علم ما استأثر اللَّه به، هذه للعلم، وتلك للعمل، ودين اللَّه سبحانه وتعالى مضاد لهذا وهذا، والذي جاء به رسول اللَّه بإبطالهما وكسر الأنصاب والأزلام.

فمن الأنصاب ما قد نصبه الشيطان للمشركين من شجرة، أو عمود، أو وثن، أو قبر، أو خشبة، أو عين، ونحو ذلك، والواجب هدم ذلك كله، ومحو أثره، كما أمر النبي ﷺ عليًا رضي الله عنه بهدم القبور المشرفة، وتسويتها بالأرض، كما روى مسلم في «**صحيحه**» عن أبي الهياج الأسدي قال: قال لي عليٌّ رضي الله عنه : «**ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول اللَّه** ﷺ ؟ أن لا أدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته»[1].

وعمّى الصحابة بأمر عمر رضي الله عنه قبر دانيال وأخفوه عن الناس [2]، ولما بلغه أن الناس ينتابون الشجرة التي بايع تحتها رسول اللَّه أصحابه، أرسل فقطعها، رواه ابن وضاح في كتابه. فقال: سمعت عيسى بن يونس يقول: «**أمر عمر بن الخطاب** رضي الله عنه بقطع الشجرة التي بويع تحتها النبي ﷺ فقطعها؛ لأن الناس كانوا يذهبون فيصلون تحتها، فخاف عليهم الفتنة.

قال عيسى بن يونس: وهو عندنا من حديث ابن عون عن نافع: «**أن**

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

الناس كانوا يأتون الشجرة فقطعها عمر رضي اللَّه عنه»[(١)].

فإذا كان هذا فعل عمر ﷺ بالشجرة التي ذكرها اللَّه تعالى في القرآن وبايع تحتها الصحابة رسول اللَّه ﷺ، فماذا حكمه فيما عداها من هذه الأنصاب والأوثان التي قد عظمت الفتنة بها، واشتدت البلية بها؟ وأبلغ من ذلك: أن رسول اللَّه ﷺ هدم مسجد الضرار [(٢)].

ففي هذا دليل على هدم ما هو أعظم فسادًا منه، كالمساجد المبنية على القبور، فإن حكم الإسلام فيها أن تهدم كلها حتى تسوى بالأرض، وهي أولى بالهدم من مسجد الضرار، وكذلك القباب التي على القبور يجب هدمها كلها؛ لأنها أسست على معصية الرسول، لأنه قد نهى عن البناء على القبور كما تقدم، فبناء أسس على معصيته ومخالفته بناء غير محترم، وهو أولى بالهدم من بناء الغاصب قطعًا.

وقد أمر رسول اللَّه بهدم القبور المشرفة كما تقدم، فهدم القباب والبناء والمساجد التي بنيت عليها أولى وأحرى؛ لأنه لعن متخذي المساجد عليها، ونهى عن البناء عليه، فيجب المبادرة والمساعدة إلى هدم ما لعن رسول اللَّه فاعله ونهى عنه، واللَّه ﷻ يقيم لدينه وسنة رسوله من ينصرهما ويذب عنهما، فهو أشد غيرة وأسرع تغييرًا.

وكذلك يجب إزالة كل قنديل أو سراج على قبر وطفيه، فإن فاعل ذلك ملعون بلعنة رسول الله، ولا يصح هذا الوقف ولا يحل إثباته وتنفيذه.

قال الإمام أبو بكر الطرطوشي: «انظروا - رحمكم الله - أينما وجدتم

---

(١) ذكره أبو شامة في «الباعث على إنكار البدع» (ص٦٢).

(٢) وكان ذلك في سنة تسع من الهجرة، السنة التي كانت تسمى سنة الوفود. وراجع «البداية والنهاية» (٥/ ٣٩).

سدرة أو شجرة يقصدها الناس ويعظمونها ويرجون البرء والشفاء من قبلها ويضربون بها المسامير والخرق؛ فهي ذات أنواط، فاقطعوها».

وقال الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة في كتاب «**الحوادث والبدع**»: «ومن هذا القسم أيضًا ما قد عم به الابتلاء من تزيين الشيطان للعامة تَخْلِيق[١] الحيطان والعُمُد وسرج مواضع مخصوصة من كل بلد، يحكي لهم حاك أنه رأى في منامه بها أحدًا، ممن شهر بالصلاح والولاية، فيفعلون ذلك ويحافظون عليه مع تضييعهم فرائض اللَّه وسننه، ويظنون أنهم متقربون بذلك! ثم يتجاوزون هذا إلى أن يعظم وقع تلك الأماكن في قلوبهم فيعظمونها، ويرجون الشفاء لمرضاهم، وقضاء حوائجهم بالنذر لها، وهي من بين عيون وشجر وحائط وحجر، وفي مدينة دمشق من ذلك مواضع متعددة: كعوينة الحمى، خارج باب توما، والعمود المخلق داخل باب الصغير، والشجرة الملعونة اليابسة خارج باب النصر في نفس قارعة الطريق، سهل اللَّه قطعها واجتثاثها من أصلها، فما أشبهها بذات أنواط التي في الحديث». ثم ساق حديث أبي واقد أنهم مروا مع رسول اللَّه ﷺ بشجرة عظيمة خضراء يقال لها ذات أنواط فقالوا: يارسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال النبي ﷺ: «**اللهُ أكبرُ، هذا كما قال قومُ موسى لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾**، لتَرْكبُنَّ سَنَنَ مَن كان قبلكم». قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح»[٢].

ثم ذكر ما صنعه بعض أهل العلم ببلاد إفريقية أنه كان إلى جانبه عين

(١) المعنى تطيبها. وينظر: «اللسان» (خ ل ق).

(٢) تقدم تخريجه.

تسمى عين العافية، كان العامة قد افتتنوا بها يأتونها من الآفاق فمن تعذر عليه نكاح أو ولد قال امضوا بي إلى العافية، فيعرف فيها الفتنة فخرج في السحر فهدمها وأذن للصبح عليها، ثم قال: «**اللهم إني هدمتها لك، فلا ترفع لها رأسًا، قال: فما رفع لها رأس إلى الآن**»(١).

وقد كان بدمشق كثير من هذه الأنصاب، فيسر اللَّه سبحانه كسرها على يد شيخ الإسلام وحزب اللَّه الموحدين: كالعمود المخَلَّق، والنصب الذي كان بمسجد النارنج عند المصلى، يعبده الجهال، والنصب الذي كان تحت الطاحون الذي عند مقابر النصارى، ينتابه الناس للتبرك به، وكان صورة صنم في نهر القلوط ينذرون له ويتبركون به، وقطع اللَّه سبحانه النُّصُب الذي كان عند الرحبة يسرج عنده ويتبرك به المشركون، وكان عمودًا طويلاً على رأسه حجر كالكرة، وعند مسجد درب الحجر نُصُب قد بني عليه مسجد صغير يعبده المشركون، يسر اللَّه كسره.

فما أسرع أهل الشرك إلى اتخاذ الأوثان من دون الله، ولو كانت ما كانت، ويقولون: إن هذا الحجر وهذه الشجرة وهذه العين تقبل النذر! أي: تقبل العبادة من دون اللَّه تعالى، فإن النذر عبادة وقربة يتقرب بها الناذر إلى المنذور له، ويتمسحون بذلك النصب ويستلمونه.

ولقد أنكر السلف التمسح بحجر المقام الذي أمر اللَّه تعالى أن يتخذ منه مصلى، كما ذكر الأزرقي في كتاب «تاريخ مكة» عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]، قال: «**إنما أمروا أن يصلوا عنده، ولم يؤمروا بمسحه، ولقد تكلفت هذه الأمة شيئًا ما تكلفته الأمم قبلها؛**

---

(١) انظر «الباعث على إنكار البدع» (ص٢٥، ٢٦).

ذكر لنا من رأى أثره وأصابعه، فما زالت هذه الأمة تمسحه حتى اخلولق».

وأعظم الفتنة بهذه الأنصاب فتنة أنصاب القبور، وهي أصل فتنة عبادة الأصنام، كما قاله السلف من الصحابة والتابعين وقد تقدم.

ومن أعظم كيد الشيطان أنه ينصب لأهل الشرك قبر معظَّم يعظِّمه الناس، ثم يجعله وثنًا يعبد من دون الله، ثم يوحي إلى أوليائه أن من نهى عن عبادته واتخاذه عيدًا وجَعْلِهِ وثنًا فقد تنقصه، وهضم حقه، فيسعى الجاهلون المشركون في قتله وعقوبته ويكفرونه، وذنبه عند أهل الإشراك أمرُه بما أمر اللهُ به ورسولُه، ونهيُه عما نهى اللهُ عنه ورسولُه، من جَعْلِهِ وثنًا وعيدًا وإيقاد السرج عليه، وبناء المساجد والقباب عليه، وتجصيصه وإشادته وتقبيله واستلامه ودعائه، أو الدعاء به، أو السفر إليه، أو الاستغاثة به من دون الله، مما قد عُلم بالاضطرار من دين الإسلام أنه مضاد لما بعث اللَّه به رسوله من تجريد التوحيد لله، وأن لا يعبد إلا الله، فإذا نهى الموحد عن ذلك، غضب المشركون واشمأزت قلوبهم، وقالوا: قد تنقص أهل الرتب العالية، وزعم أنهم لا حرمة لهم ولا قدر، وسرى ذلك في نفوس الجهال والطَّغام وكثير ممن ينسب إلى العلم والدين، حتى عادوا أهل التوحيد ورموهم بالعظائم، ونفَّروا الناس عنهم، ووالَوا أهل الشرك وعظَّموهم، وزعموا أنهم هم أولياء اللَّه وأنصار دينه ورسوله، ويأبى اللَّه ذلك، فما كانوا أولياءه، إن أولياؤه إلا المتبعون له، الموافقون له، العارفون بما جاء به، الداعون إليه، لا المتشبعون بما لم يعطوا، لابسو ثياب الزور: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [هود: ١٩]، ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤].

ولا تحسب أيها المنعَم عليه باتباع صراط اللَّه المستقيم صراط أهل نعمته

ورحمته وكرامته، أن النهي عن اتخاذ القبور أوثانًا وأعيادًا وأنصابًا، والنهي عن اتخاذها مساجد، أو بناء المساجد عليها، وإيقاد السرج عليها، والسفر إليها، والنذر لها، واستلامها، وتقبيلها، وتعفير الجباه في عرصاتها - غضٌّ من أصحابها، ولا تنقيص لهم، ولا تنقص، كما يحسبه أهل الإشراك والضلال، بل ذلك من إكرامهم، وتعظيمهم، واحترامهم، ومتابعتهم فيما يحبونه، وتجنب ما يكرهونه، فأنت واللّه وليهم ومحبهم، وناصر طريقتهم وسنتهم، وعلى هديهم ومنهاجهم، وهؤلاء المشركون أعصى الناس لهم، وأبعدهم من هديهم، ومتابعتهم كالنصارى مع المسيح، واليهود مع موسى، عليهما السلام، والرافضة مع عليٍّ ﷺ، فأهل الحق أولى بأهل الحق من أهل الباطل، فالمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، والمنافقون والمنافقات بعضهم من بعض.

- **الاشتغال بالبدع ثمرته ترك السنن:**

قال تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ [النمل: ٤٣].

«فاعلم أن القلوب إذا اشتغلت بالبدع؛ أعرضت عن السنن، فتجد أكثر هؤلاء العاكفين على القبور معرضين عن طريقة مَن فيها وهديه وسنته، مشتغلين بقبره عما أمر به ودعا إليه، وتعظيم الأنبياء والصالحين ومحبتهم إنما هي باتباع ما دعوا إليه من العلم النافع والعمل الصالح، واقتفاء آثارهم، وسلوك طريقتهم دون عبادة قبورهم، والعكوف عليها، واتخاذها أعيادًا.

فإن من اقتفى آثارهم كان متسببًا إلى تكثير أجورهم باتباعه لهم، ودعوته الناس إلى اتباعهم، فإذا أعرض عما دعوا إليه واشتغل بضده حرم نفسه

وحرمهم ذلك الأجر، فأي تعظيم لهم واحترام في هذا؟!

وإنما اشتغل كثير من الناس بأنواع من العبادات المتبدعة التي يكرهها اللَّه ورسوله؛ لإعراضهم عن المشروع أو بعضه، وإن قاموا بصورته الظاهرة، فقد هجروا حقيقته المقصودة منه، وإلا فمن أقبل على الصلوات الخمس بوجهه وقلبه، عارفًا بما اشتملت عليه من الكلم الطيب والعمل الصالح، مهتمًّا بها كل الاهتمام - أغنته عن الشرك، وكل من قصر فيها، أو في بعضها، تجد فيه من الشرك بحسب ذلك.

ومن أصغى إلى كلام اللَّه بقلبه وتدبَّره وتفهَّمه أغناه عن السماع الشيطاني الذي يصد عن ذكر اللَّه وعن الصلاة وينبت النفاق في القلب، وكذلك من أصغى إليه وإلى حديث الرسول بكليته، وحدث نفسه باقتباس الهدى والعلم منه لا من غيره - أغناه عن البدع والآراء، والتخرصات والشطحات والخيالات، التي هي وساوس النفوس وتخيلاتها، ومَن بعُد عن ذلك فلا بد له أن يتعوض عنه بما لا ينفعه.

كما أن من غَمَر قلبه بمحبة اللَّه تعالى وذكره وخشيته والتوكل عليه، والإنابة إليه أغناه ذلك عن محبة غيره وخشيته والتوكل عليه، وأغناه أيضًا عن عشق الصور .

وإذا خلا من ذلك صار عبد هواه، أي شيءٍ استحسنه ملكه واستعبده.

فالمعرض عن التوحيد مشرك، شاء أم أبى.

والمعرض عن السنة مبتدع ضال، شاء أم أبى.

والمعرض عن محبة اللَّه وذكره عبد الصور، شاء أم أبى.

واللَّه المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه العلي العظيم.

• **أسباب الوقوع في البدع:**

فإن قيل: فما الذي أوقع عباد القبور في الافتتان بها مع العلم بأن ساكنيها أموات لا يملكون لهم ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا؟

قيل: أوقعهم في ذلك أمور:

منها: الجهل بحقيقة ما بعث اللّه به رسوله، بل جميع الرسل من تحقيق التوحيد، وقطع أسباب الشرك، فقلَّ نصيبهم جدًّا من ذلك، ودعاهم الشيطان إلى الفتنة، ولم يكن عندهم من العلم ما يبطل دعوته، فاستجابوا له بحسب ما عندهم من الجهل، وعُصموا بقدر ما معهم من العلم.

ومنها: أحاديث مكذوبة مختلقة، وضعها أشباه عباد الأصنام من المقابرية على رسول الله، تناقض دينه وما جاء به، كحديث: «**إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور**»! وحديث: «**لو أحسن أحدكم ظنه بحجر نفعه**»!! وأمثال هذه الأحاديث التي هي مناقضة لدين الإسلام، وضعها المشركون، وراجت على أشباههم من الجهال الضلال، واللّه بعث رسوله يقتل من حسن ظنه بالأحجار، وجنب أمته الفتنة بالقبور بكل طريق، كما تقدم.

ومنها: حكايات حُكيت لهم عن تلك القبور: أن فلانًا استغاث بالقبر الفلاني في شدة فخلص منها! وفلانًا دعاه أو دعا به في حاجة فقضيت له! وفلانًا نزل به ضر فاسترجى صاحب ذلك القبر فكشف ضره! وعند السدنة والمقابرية من ذلك شيء كثير يطول ذكره، وهم من أكذب خلق اللّه تعالى على الأحياء والأموات، والنفوس مولعة بقضاء حوائجها، وإزالة ضروراتها، ويسمع بأن قبر فلان ترياق مجرب، والشيطان له تلطف في الدعوة، فيدعوهم أولاً إلى الدعاء عنده، فيدعو العبد بحرقة وانكسار وذلة، فيجيب

اللَّه دعوته؛ لِما قام بقلبه، لا لأجل القبر، فإنه لو دعاه كذلك في الحانة والخمارة والحمام والسوق أجابه، فيظن الجاهل أن للقبر تأثيرًا في إجابة تلك الدعوة، واللَّه سبحانه يجيب دعوة المضطر، ولو كان كافرًا، وقد قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ۝٢٠﴾ [الإسراء: ٢٠]، وقد قال الخليل: ﴿وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾ فقال اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦].

فليس كل من أجاب اللَّه دعاءه يكون راضيًا عنه، ولا محبًّا له، ولا راضيًا بفعله، فإنه يجيب البر والفاجر، والمؤمن والكافر، وكثير من الناس يدعو دعاء يعتدي فيه، أو يشترط في دعائه، أو يكون مما لا يجوز أن يسأل فيحصل له ذلك أو بعضه، فيظن أن عمله صالح، مرضي لله، ويكون بمنزلة من أملى له، وأمد بالمال والبنين، وهو يظن أن اللَّه تعالى يسارع له في الخيرات، وقد قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤].

فالدعاء قد يكون عبادة فيثاب عليه الداعي، وقد يكون مسألة تقضى به حاجته، ويكون مضرة عليه إما أن يعاقب بما يحصل له، أو تنقص به درجته فيقضي حاجته ويعاقبه على ما جرأ عليه من إضاعة حقوقه، واعتداء حدوده.

والمقصود: أن الشيطان بلطف كيده يحسن الدعاء عند القبر، وأنه أرجح منه في بيته ومسجده وأوقات الأسحار، فإذا تقرر ذلك عنده نقله درجة أخرى من الدعاء عنده إلى الدعاء به، والإقسام على اللَّه به، وهذا أعظم من الذي قبله، فإن شأن اللَّه أعظم من أن يقسم عليه أو يسأل بأحد من خلقه، وقد أنكر أئمة الإسلام

ذلك.

فقال أبو الحسين القدوري في شرح كتاب الكرخي: قال بشر بن الوليد: سمعت أبا يوسف يقول: قال أبو حنيفة: «لا ينبغي لأحد أن يدعو اللَّه إلا به». قال: «وأكره أن يقول: أسألك بمعقد العز من عرشك. وأكره أن يقول: بحق فلان، وبحق أنبيائك ورسلك، وبحق البيت الحرام».

قال أبو الحسين: «أما المسألة بغير اللَّه فمنكرة في قولهم؛ لأنه لا حق لغير اللَّه عليه وإنما الحق لله على خلقه، وأما قوله: بمعقد العز من عرشك، فكرهه: أبو حنيفة، ورخص فيه أبو يوسف، وقال: «وروي أن النبي ﷺ دعا بذلك». قال: ولأن معقد العز من العرش، إنما يراد به القدرة التي خلق اللَّه بها العرش مع عظمته، فكأنه سأله بأوصافه».

وقال ابن بلدجي في «شرح المختار»: «ويكره أن يدعو اللَّه تعالى إلا به، فلا يقول: أسألك بفلان، أو بملائكتك، أو بأنبيائك، ونحو ذلك؛ لأنه لا حق للمخلوق على خالقه، أو يقول في دعائه: أسألك بمعقد العز من عرشك. وعن أبي يوسف جوازه، وما يقول فيه أبو حنيفة وأصحابه: أكره. كذا هو عند محمد حرام، وعند أبي حنيفة وأبي يوسف هو إلى الحرام أقرب، وجانب التحريم عليه أغلب، وفي فتاوى أبي محمد بن عبد السلام: أنه لا يجوز سؤال اللَّه سبحانه بشيء من مخلوقاته لا الأنبياء ولا غيرهم، وتوقف في نبينا لاعتقاده أن ذلك جاء في حديث وأنه لم يعرف صحة الحديث».

فإذا قرر الشيطان عنده أن الإقسام على اللَّه به والدعاء به أبلغ في تعظيمه واحترامه، وأنجع في قضاء حاجته - نقله درجة أخرى إلى دعائه نفسه من دون الله، ثم ينقله بعد ذلك درجة أخرى إلى أن يتخذ قبره وثنًا يعكف عليه،

ويوقد عليه القنديل، ويعلق عليه الستور، ويبني عليه المسجد، ويعبده بالسجود له، والطواف به، وتقبيله واستلامه، والحج إليه، والذبح عنده، ثم ينقله درجة أخرى إلى دعاء الناس إلى عبادته، واتخاذه عيدًا ومنسكًا، وأن ذلك أنفع لهم في دنياهم وآخرتهم.

قال شيخنا - قدس اللَّه روحه - : «وهذه الأمور المبتدعة عند القبور مراتب:

أبعدها عن الشرع: أن يسأل الميت حاجته ويستغيث به فيها، كما يفعله كثير من الناس». قال: «وهؤلاء من جنس عباد الأصنام، ولهذا قد يتمثل لهم الشيطان في صورة الميت أو الغائب، كما يتمثل لعباد الأصنام، وهذا يحصل للكفار من المشركين وأهل الكتاب، يدعو أحدهم من يعظمه فيتمثل له الشيطان أحيانًا، وقد يخاطبهم ببعض الأمور الغائبة، وكذلك السجود للقبر والتمسح به وتقبيله.

المرتبة الثانية: أن يسأل اللَّه ﷻ به، وهذا يفعله كثير من المتأخرين، وهو بدعة باتفاق المسلمين.

الثالثة: أن يظن أن الدعاء عند قبره مستجاب، أو أنه أفضل من الدعاء في المسجد، فيقصد زيارته، والصلاة عنده لأجل طلب حوائجه، فهذا أيضًا من المنكرات المبتدعة باتفاق المسلمين، وهي محرمة، وما علمت في ذلك نزاعًا بين أئمة الدين، وإن كان كثير من المتأخرين يفعل ذلك، ويقول بعضهم: قبر فلان ترياق مجرب.

والحكاية المنقولة عن الشافعي: أنه كان يقصد الدعاء عند قبر أبي حنيفة من الكذب الظاهر.

الفرق بين زيارة الموحدين للقبور وزيارة المشركين

أما زيارة الموحدين فمقصودها ثلاثة أشياء:

أحدها: تذكر الآخرة والاعتبار والاتعاظ، وقد أشار النبي ﷺ إلى ذلك بقوله: «**زوروا القبورَ؛ فإنها تذكُركم الآخرةَ**»[١].

الثاني: الإحسان إلى الميت، وأن لا يطول عهده به فيهجره، ويتناساه كما إذا ترك زيارة الحي مدة طويلة تناساه، فإذا زار الحي فرح بزيارته، وسُر بذلك، فالميت أولى؛ لأنه قد صار في دار قد هجر أهلَها إخوانُهم وأهلهم ومعارفهم، فإذا زاره وأهدى إليه هدية من دعاء أو صدقة، أو أهدى قربة ازداد بذلك سروره وفرحه، كما يُسر الحي بمن يزوره، ويهدي له، ولهذا شرع النبي ﷺ للزائرين أن يدعوا لأهل القبور بالمغفرة والرحمة وسؤال العافية فقط، ولم يشرع أن يدعوهم، ولا أن يدعوا بهم، ولا يصلي عندهم.

الثالث: إحسان الزائر إلى نفسه باتباع السنة، والوقوف عند ما شرعه الرسول ﷺ، فيحسن إلى نفسه وإلى المزور.

وأما الزيارة الشركية: فأصلها مأخوذ عن عباد الأصنام.

قالوا: الميت المعظم الذي لروحه قرب ومنزلة ومزية عند اللَّه تعالى لا يزال تأتيه الألطاف من اللَّه تعالى، وتفيض على روحه الخيرات، فإذا علق الزائر روحه به وأدناها منه، فاض من روح المزور على روح الزائر من تلك الألطاف بواسطتها، كما ينعكس الشعاع من المرآة الصافية والماء ونحوه على الجسم المقابل له.

---

(١) تقدم تخريجه.

- **أوهام أهل الشرك:**

قالوا: فتمام الزيارة أن يتوجه الزائر بروحه وقلبه إلى الميت، ويعكف بهمته عليه ويوجه قصده كله، وإقباله عليه بحيث لا يبقى فيه التفات إلى غيره، وكلما كان جمع الهمة والقلب عليه أعظم، كان أقرب إلى انتفاعه به.

وقد ذكر هذه الزيارة على هذا الوجه: ابن سينا والفارابي، وغيرهما، وصرح بها عباد الكواكب في عبادتها.

وقالوا: إذا تعلقت النفس الناطقة بالأرواح العلوية؛ فاض عليها منها النور.

وبهذا السر عبدت الكواكب، واتخذت لها الهياكل، وصنفت لها الدعوات، واتخذت الأصنام المجسدة لها، وهذا بعينه هو الذي أوجب لعباد القبور اتخاذها أعيادًا، وتعليق الستور عليها، وإيقاد السرج عليها، وبناء المساجد عليها، وهو الذي قصد رسول اللَّه ﷺ إبطاله ومحوه بالكلية، وسد الذرائع المفضية إليه، فوقف المشركون في طريقه وناقضوه في قصده، وكان في شق وهؤلاء في شق.

وهذا الذي ذكره هؤلاء المشركون في زيارة القبور هو الشفاعة التي ظنوا أن آلهتهم تنفعهم بها، وتشفع لهم عند اللَّه تعالى.

قالوا: فإن العبد إذا تعلقت روحه بروح الوجيه المقرب عند الله، وتوجه بهمته إليه وعكف بقلبه عليه؛ صار بينه وبينه اتصال يفيض به عليه منه نصيب مما يحصل له من الله، وشبهوا ذلك بمن يخدم ذا جاه وحظوة وقرب من السلطان، فهو شديد التعلق به، فما يحصل لذلك من السلطان من الإنعام والإفضال ينال ذلك المتعلق به بحسب تعلقه به.

فهذا سر عبادة الأصنام، وهو الذي بعث اللَّه رسله وأنزل كتبه بإبطاله،

وتكفير أصحابه ولعنهم، وأباح دماءهم وأموالهم، وسبي ذراريهم، وأوجب لهم النار، والقرآن من أوله إلى آخره مملوء من الرد على أهله وإبطال مذهبهم.

● **حقيقة الشفاعة في القرآن والسنة:**

قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزمر: ٤٣، ٤٤]، فأخبر أن الشفاعة لمن له ملك السموات والأرض، وهو اللَّه وحده، فهو الذي يشفع بنفسه إلى نفسه ليرحم عبده، فيأذن هو لمن يشاء أن يشفع فيه، فصارت الشفاعة في الحقيقة إنما هي له، والذي يشفع عنده إنما يشفع بإذنه له، وأمرُه بعد شفاعته سبحانه إلى نفسه، وهي إرادته من نفسه أن يرحم عبده، وهذا ضد الشفاعة الشركية التي أثبتها هؤلاء المشركون ومن وافقهم، وهي التي أبطلها اللَّه سبحانه في كتابه بقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [البقرة: ١٢٣]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنعام: ٥١]، وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [يونس: ٣].

فأخبر سبحانه أنه ليس للعباد شفيع من دونه، بل إذا أراد اللَّه سبحانه

رحمة عبده أذن هو لمن يشفع فيه، كما قال تعالى: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾، وقال: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾، فالشفاعة بإذنه ليست شفاعة من دونه، ولا الشافع شفيع من دونه، بل شفيع بإذنه.

والفرق بين الشفيعين كالفرق بين الشريك والعبد المأمور، فالشفاعة التي أبطلها اللَّه شفاعة الشريك، فإنه لا شريك له، والتي أثبتها شفاعة العبد المأمور الذي لا يشفع ولا يتقدم بين يدي مالكه حتى يأذن له، ويقول: اشفع في فلان.

ولهذا كان أسعد الناس بشفاعة سيد الشفعاء يوم القيامة أهل التوحيد الذين جردوا التوحيد، وخلصوه من تعلقات الشرك وشوائبه، وهم الذين ارتضى اللَّه سبحانه؛ قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾ [طه: ١٠٩]، فأخبر أنه لا يحصل يومئذ شفاعة تنفع إلا بعد رضاء قول المشفوع له وإذنه للشافع فيه.

فأما المشرك فإنه لا يرتضيه ولا يرضى قوله، فلا يأذن للشفعاء أن يشفعوا فيه.

فإنه سبحانه علقها بأمرين: رضاه عن المشفوع له، وإذنه للشافع، فما لم يوجد مجموع الأمرين لم توجد الشفاعة، وسر ذلك أن الأمر كله لله وحده، فليس لأحد معه من الأمر شيء، وأعلى الخلق وأفضلهم وأكرمهم عنده هم الرسل والملائكة المقربون، وهم عبيد محض لا يسبقونه بالقول، ولا يتقدمون بين يديه، ولا يفعلون شيئًا إلا بعد إذنه لهم وأمرهم، ولا سيما يوم لا تملك نفس لنفس شيئًا، فهم مملوكون مربوبون، أفعالهم مقيدة بأمره

وإذنه، فإذا أشرك بهم المشرك واتخذهم شفعاء من دونه؛ ظنًّا منه أنه إذا فعل ذلك تقدموا وشفعوا له عند الله، فهو من أجهل الناس بحق الرب سبحانه، وما يجب له ويمتنع عليه، فإن هذا محال ممتنع، شبيه قياس الرب تعالى على الملوك والكبراء، حيث يتخذ الرجل من خواصهم وأوليائهم من يشفع له عندهم في الحوائج، وبهذا القياس الفاسد عبدت الأصنام، واتخذ المشركون من دون اللَّه الشفيع والولي.

والفرق بينهما هو الفرق بين المخلوق والخالق، والرب والمربوب، والسيد والعبد، والمالك والمملوك، والغني والفقير، والذي لا حاجة به إلى أحد قط والمحتاج من كل وجه إلى غيره.

فالشفعاء عند المخلوقين هم شركاؤهم، فإن قيام مصالحهم بهم، وهم أعوانهم وأنصارهم، الذين قيام أمر الملوك والكبراء بهم، ولولاهم لما انبسطت أيديهم وألسنتهم في الناس، فلحاجتهم إليهم يحتاجون إلى قبول شفاعتهم، وإن لم يأذنوا فيها ولم يرضوا عن الشافع؛ لأنهم يخافون أن يردوا شفاعتهم فتنتقض طاعتهم لهم، ويذهبون إلى غيرهم، فلا يجدون بدًّا من قبول شفاعتهم على الكره والرضى.

فأما الغني الذي غناه من لوازم ذاته، وكل ما سواه فقير إليه بذاته، وكل من في السموات والأرض عبيد له، مقهورون بقهره، مصرفون بمشيئته، لو أهلكهم جميعًا لم ينقص من عزه وسلطانه وملكه وربوبيته وإلهيته مثقال ذرة، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا

يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [المائدة: ١٧]، وقال سبحانه في سيدة آي القرآن «**آية الكرسي**»: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزمر: ٤٤]، فأخبر أن حال ملكه للسموات والأرض يوجب أن تكون الشفاعة كلها له وحده، وأن أحدًا لا يشفع عنده إلا بإذنه، فإنه ليس بشريك بل مملوك محض بخلاف شفاعة أهل الدنيا بعضهم عند بعض.

فتبين أن الشفاعة التي نفاها اللَّه سبحانه في القرآن هي هذه الشفاعة الشركية التي يعرفها الناس، ويفعلها بعضهم مع بعض، ولهذا يطلق نفيها تارة بناء على أنها هي المعروفة المشاهدة عند الناس، ويقيدها تارة بأنها لا تنفع إلا بعد إذنه، وهذه الشفاعة في الحقيقة هي منه، فإنه الذي أذن والذي قبل، والذي رضي عن المشفوع، والذي وفقه لفعل ما يستحق به الشفاعة.

وقوله: فمتخذ الشفيع مشرك لا تنفعه شفاعته ولا يشفع فيه، ومتخذ الرب وحده إلهه ومعبوده، ومحبوبه ومرجوه ومخوفه، الذي يتقرب إليه وحده، ويطلب رضاه، ويتباعد من سخطه - هو الذي يأذن اللَّه سبحانه للشفيع أن يشفع فيه؛ قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزمر: ٤٣، ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس: ١٨]، فبين سبحانه أن المتخذين شفعاء مشركون،

وأن الشفاعة لا تحصل باتخاذهم هم، وإنما تحصل بإذنه للشافع ورضاه عن المشفوع له.

- **وسر الفرق بين الشفاعتين:**

أن شفاعة المخلوق للمخلوق وسؤاله للمشفوع عنده لا يفتقر فيها إلى المشفوع عنده، لا خلقًا ولا أمرًا ولا إذنًا، بل هو سبب محرك له من خارج، كسائر الأسباب التي تحرك الأسباب، وهذا السبب المحرك قد يكون عند المتحرك لأجله ما يوافقه، كمن يشفع عنده في أمر يحبه ويرضاه، وقد يكون عنده ما يخالفه، كمن يشفع إليه في أمر يكرهه، ثم قد يكون سؤاله وشفاعته أقوى من المعارض فيقبل شفاعة الشافع، وقد يكون المعارض الذي عنده أقوى من شفاعة الشافع فيردها ولا يقبلها، وقد يتعارض عنده الأمران فيبقى مترددًا بين ذلك المعارض الذي يوجب الرد وبين الشفاعة التي تقتضي القبول، فيتوقف إلى أن يترجح عنده أحد الأمرين بمرجح.

فشفاعة الإنسان عند المخلوق مثله هي سعي في سبب منفصل عن المشفوع إليه يحركه به، ولو على كره منه، فمنزلة الشفاعة عنده منزلة من يأمر غيره أو يُكرهه على الفعل؛ إما بقوة وسلطان، وإما بما يرغبه، فلا بد أن يحصل للمشفوع إليه من الشافع، إما رغبة ينتفع بها، وإما رهبة منه تندفع عنه بشفاعته.

وهذا بخلاف الشفاعة عند الرب سبحانه، فإنه ما لم يخلق شفاعة الشافع، ويأذن له فيها، ويحبها منه، ويرضى عن الشافع - لم يمكن أن توجد، والشافع لا يشفع عنده لحاجة الرب إليه، ولا لرهبته منه، ولا لرغبته فيما لديه، وإنما يشفع عنده مجرد امتثال لأمره وطاعة له، فهو مأمور

بالشفاعة، مطيع بامتثال الأمر، فإن أحدًا من الأنبياء والملائكة وجميع المخلوقات لا يتحرك بشفاعة ولا غيرها إلا بمشيئة اللَّه تعالى وخلقه، فالرب سبحانه وتعالى هو الذي يحرك الشفيع حتى يشفع، والشفيع عند المخلوق هو الذي يحرك المشفوع إليه حتى يقبل، والشافع عند المخلوق مستغنٍ عنه في أكثر أموره، وهو في الحقيقة شريكه، ولو كان مملوكه وعبده، فالمشفوع عنده محتاج إليه فيما يناله منه من النفع بالنصر والمعاونة وغير ذلك، كما أن الشافع محتاج إليه فيما يناله منه من رزق أو نصر أو غيره، فكل منهما محتاج إلى الآخر.

ومن وفقه اللَّه تعالى لفهم هذا الموضع ومعرفته تبين له حقيقة التوحيد والشرك، والفرق بين ما أثبته اللَّه تعالى من الشفاعة، وبين ما نفاه وأبطله، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]»[١].

● **أنواع الشفاعة:**

قد وردت أحاديث الشفاعة عن النبي ﷺ، من حديث أنس، وأبي سعيد، وجابر، وأبي هريرة، وعوف بن مالك الأشجعي، وأبي ذر، وبن الجدعاء، ويقال بن أبي الجدعاء، وعتبة بن عبد السلمي، وعمران بن حصين، وحذيفة، رضي اللَّه عنهم، وكلها في الصحيح.

ففي الصحيحين: عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «**لكل نبي دعوة دعاها لأمته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة**»[٢].

وفي الصحيحين: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**لكل نبي**

(١) «إغاثة اللهفان» (١/ ١٨٢- ٢٢٣).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: (٥/ ٢٣٢٣)، و أخرجه مسلم: (١/ ١٩٠)، و أخرجه ابن حبان في صحيحه: (١٤/ ٧٦)، و أبي يعلى في مسنده: (٥/ ٢٢٩).

دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله، من مات من أمتي لا يشرك باللَّه شيئا»[١]، ولفظه لمسلم[٢]، ورواه مسلم من حديث جابر بنحوه[٣].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة ﷺ قال: قلت: «**يا رسول اللَّه من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة، قال: لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أولى منك، لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا اللَّه من قبل نفسه**»[٤].

وفي صحيح البخاري: عن أنس ﷺ قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**إذا كان يوم القيامة شفعت، فقلت: يا رب أدخل الجنة من في قلبه خردلة، فيدخلون، ثم أقول: يا رب أدخل الجنة من في قلبه أدنى شيء، قال أنس: كأني أنظر إلى أصابع رسول اللَّه ﷺ**»[٥].

وفي صحيح البخاري: عن عمران بن حصين ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**يخرج قوم من النار بشفاعة محمد ﷺ**، فيدخلون الجنة ويسمون الجهنميين»[٦].

وفي الصحيحين: عن حماد بن زيد قال: قلت لعمرو بن دينار، «**أسمعت جابر بن عبد اللَّه يحدث بحديث عن رسول اللَّه ﷺ** إن اللَّه يخرج

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: (٥/ ٢٣٢٣).
(٢) أخرجه مسلم: (١/ ١٨٩).
(٣) أخرجه مسلم: (١/ ١٩٠).
(٤) أخرجه أحمد في مسنده: (٢/ ٣٧٣)، وأخرجه البخاري في صحيحه: (١/ ٤٩)، و النسائي في سننه الكبرى: (٣/ ٤٢٦).
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه: (٦/ ٢٧٢٧).
(٦) أخرجه أحمد في مسنده: (٤/ ٤٣٤)، وأخرجه البخاري في صحيحه: (٥/ ٢٤٠١)، و أبو داود في سننه: (٤/ ٢٣٦)، وابن ماجه في سننه: (٢/ ١٤٤٣).

قوما من النار بالشفاعة؟ قال: نعم»[١].

وفي الصحيحين: عن أنس ﷺ قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**يجمع اللّه الناس يوم القيامة، فيهتمون لذلك، فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا، فذكر الحديث، وفيه ثم أشفع فيحد لي حدا، فأخرجهم من النار وأدخلهم الحنة، ثم أعود فأقع ساجدا، فيدعني ما شاء اللّه أن يدعني، ثم يقال لي: ارفع رأسك، يا محمد، قل تسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع، فارفع رأسي فأحمد ربي بتحميد يعلمنيه، ثم أشفع فيحد لي حدا، فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة، وذكر باقي الحديث**»[٢].

وفي الصحيحين أيضا: من حديث أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم في بعض، فيأتون آدم، وذكر الحديث، وقال: فأقول: يا رب أمتي أمتي، فقال: انطلق فمن كان في قلبه مثقال حبة من برة، أو شعيرة من إيمان فأخرجه منها، فأنطلق فافعل ثم أرجع إلى ربي فأحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجدا، فيقال لي: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأقول يا رب أمتي أمتي، فيقال لي: انطلق فمن كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه منها، فأنطلق فأفعل، ثم أعود إلى ربي فأحمده بتلك المحامد، ثم أخر له ساجدا، فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأقول يا رب أمتي أمتي، فيقال لي: إنطلق فمن كان في قلبه أدنى أدنى أدنى من مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه من النار، فأنطلق فأفعل ثم أرجع**

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: (٥/ ٢٣٩٩)، وأخرجه مسلم: (١/ ١٧٨).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده: (٣/ ١١٦)، وأخرجه البخاري في صحيحه: (٤/ ١٦٢٤)، وأخرجه مسلم: (١/ ١٨٠)، وأخرجه ابن حبان في صحيحه: (١٤/ ٣٧٧).

إلى ربي في الرابعة، فأحمده بتلك المحامد، ثم أخر له ساجدا، فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك، سل تعطه، واشفع تشفع، فأقول: يا رب ائذن لي فيمن قال لا إله إلا الله، قال: ليس ذلك لك، ولكن وعزتي وجلالي وعظمتي وكبريائي لأخرجن من قال لا إله إلا الله»(١).

وفي الصحيحين: عن أبي هريرة ﷺ قال: «**أتى رسول الله** ﷺ يوما بلحم، فرفع إليه الذراع، وكانت تعجبه فذكر الحديث إلى أن قال: فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجدا لربي، ثم يفتح الله علي ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه لأحد قبلي، ثم قال يا محمد ارفع رأسك، سل تعطه اشفع تشفع، فأرفع رأسي، فأقول يا رب أمتي أمتي، فيقال: يا محمد أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من باب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب»(٢).

وفي صحيح مسلم عن حذيفة وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «**يجمع الله تبارك وتعالى الناس، فيقوم المؤمنون حتى تزدلف لهم الجنة، فيأتون آدم فيقولون يا أبانا استفتح لنا الجنة، فيقول وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم**

لست بصاحب ذلك، فذكر الحديث إلى أن قال: فيأتون محمدا ﷺ فيقوم فيؤذن له، ويرسل الأمانة، والرحم الحديث»(٣).

وفي صحيح مسلم عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ«**أنا أول الناس**

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: (٦/ ٢٧٢٧)، وأخرجه مسلم: (١/ ١٨٣).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: (٤/ ١٧٤٥)، و أخرجه مسلم: (١/ ١٨٤).
(٣) أخرجه مسلم: (١/ ١٨٧).

يشفع في الجنة الحديث»[١].

وفي الصحيحين عن أبي سعيد ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ«**ذكر عنده عمه أبو طالب فقال: لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيجعل في ضحضاح من النار، يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه»**[٢].

وفي الصحيحين عن العباس بن عبد المطلب أنه قال: «**يا رسول الله، هل نفعت أبا طالب بشيء فإنه كان يحوطك ويغضب لك، قال: نعم هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار»**[٣].

فقد تضمنت هذه الأحاديث خمسة أنواع من الشفاعة:

أحدها: الشفاعة العامة التي يرغب فيها الناس إلى الأنبياء، نبيا بعد نبي، حتى يريحهم اللَّه من مقامهم.

النوع الثاني: الشفاعة في فتح الجنة لأهلها.

النوع الثالث: الشفاعة في دخول من لا حساب عليهم الجنة.

النوع الرابع: الشفاعة في إخراج قوم من أهل التوحيد من النار.

النوع الخامس: في تخفيف العذاب عن بعض أهل النار.

ويبقى نوعان يذكرهما كثير من الناس:

أحدهما: في قوم استوجبوا النار فيشفع فيهم أن لا يدخلوها وهذا النوع لم أقف إلى الآن على حديث يدل عليه، وأكثر الأحاديث

---

(١) أخرجه مسلم: (١/ ١٨٨).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده: (٣/ ٥٠)، وأخرجه البخاري في صحيحه: (٣/ ١٤٠٩)، و أخرجه ابن حبان في صحيحه: (١٤/ ١٦٨).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده: (١/ ٢٠٦)، و أخرجه البخاري في صحيحه: (٣/ ١٤٠٨)، وأخرجه مسلم: (١/ ١٩٤).

صريحة في أن الشفاعة في أهل التوحيد من أرباب الكبائر، إنما تكون بعد دخولهم النار، وأما أن يشفع فيهم قبل الدخول فلا يدخلون فلم أظفر فيه بنص.

والنوع الثاني: شفاعته ﷺ لقوم من المؤمنين في زيادة الثواب ورفعة الدرجات.

وهذا قد يستدل عليه بدعاء النبي ﷺ لأبي سلمة وقوله: «**اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين**»[(١)].

وقوله في حديث أبي موسى: «**اللهم اغفر لعبيد أبي عامر، واجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك**»[(٢)].

وفي قوله في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**أسعد الناس بشفاعتي من قال لا إله إلا الله**»[(٣)]، سر من أسرار التوحيد: وهو أن الشفاعة إنما تنال بتجريد التوحيد فمن كان أكمل توحيدا كان أحرى بالشفاعة، لا أنها تنال بالشرك بالشفيع كما عليه أكثر المشركين وباللّه التوفيق[(٤)].

* * *

(١) أخرجه أحمد في مسنده: (٦/ ٢٩٧)، و أخرجه مسلم: (٢/ ٦٣٤)،و النسائي في سننه الكبرى: (٥/ ٧٧).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: (٤/ ١٥٧١)، و أخرجه مسلم: (٤/ ١٩٤٣). ،و أخرجه ابن حبان في صحيحه: (١٦/ ١٧٢).
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) تهذيب السنن (١٣/ ١٥).

بطلان نسبة كثير من القبور لأصحابها

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما بنت يزيد بن السكن، فهذه توفيت بالشام، فهذه قبرها محتمل، وأما قبر بلال فممكن؛ فإنه دفن بباب الصغير بدمشق فيعلم أنه دفن هناك، وأما القطع بتعيين قبره ففيه نظر؛ فإنه يقال: إن تلك القبور حرثت، ومنها القبر المضاف إلى أويس القرني غربي دمشق، فإن أويسًا لم يجئ إلى الشام، وإنما ذهب إلى العراق، ومنها القبر المضاف إلى هود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بجامع دمشق كذب باتفاق أهل العلم، فإن هودًا لم يجئ إلى الشام، بل بعث باليمن، وهاجر إلى مكة، فقيل: إنه مات باليمن. وقيل: إنه مات بمكة. وإنما ذلك تلقاء قبر معاوية بن أبى سفيان.

وأما الذي خارج باب الصغير الذي يقال: إنه قبر معاوية، فإنما هو معاوية بن يزيد بن معاوية الذي تولى الخلافة مدة قصيرة ثم مات، ولم يعهد إلى أحد، وكان فيه دين وصلاح.

ومنها: قبر خالد بحمص، يقال: إنه قبر خالد بن يزيد بن معاوية أخو معاوية هذا، ولكن لما اشتهر أنه خالد، والمشهور عند العامة خالد بن الوليد ظنوا أنه خالد بن الوليد، وقد اختلف في ذلك هل هو قبره، أو قبر خالد بن يزيد؟ وذكر أبو عمر بن عبد البر في «الاستيعاب»: أن خالد بن الوليد توفي بحمص، وقيل: بالمدينة، سنة إحدى وعشرين، أو اثنين وعشرين، في خلافة عمر بن الخطاب، وأوصى إلى عمر، واللّه أعلم.

ومنها: قبر أبى مسلم الخولانى الذي بداريا، اختلف فيه.

ومنها: قبر عليٍّ بن الحسين الذي بمصر فإنه كذب قطعًا، فإن عليَّ بن الحسين توفي بالمدينة بإجماع الناس، ودفن بالبقيع.

ومنها: مشهد الرأس الذي بالقاهرة فإن المصنفين في قتل الحسين اتفقوا على أن الرأس ليس بمصر، ويعلمون أن هذا كذب، وأصله أنه نقل من مشهد بعسقلان، وذاك المشهد بُني قبل هذا بنحو من ستين سنة في أواخر المائة الخامسة، وهذا بُني في أثناء المائة السادسة بعد مقتل الحسين بنحو من خمسمائة عام، والقاهرة بُنيت بعد مقتل الحسين بنحو ثلاثمائة عام، قد بين كذب هذا المشهد ابن دحية في العلم المشهور وأن الرأس دفن بالمدينة، كما ذكره الزبير بن بكار، والذي صح من أمر حمل الرأس ما ذكره البخاري في «صحيحه»: «أنه حمل إلى عبيد اللّه بن زياد، وجعل ينكت بالقضيب على ثناياه». وقد شهد ذلك أنس بن مالك، وفى رواية أبي برزة الأسلمى، وكلاهما كان بالعراق[1].

وقد ورد بإسناد منقطع أو مجهول أنه حمل إلى يزيد، وجعل ينكت بالقضيب على ثناياه، وإن أبا برزة كان حاضرًا، وأنكر هذا، وهذا كذب؛ فإن أبا برزة لم يكن بالشام عند يزيد، وإنما كان بالعراق.

وأما بدن الحسين فبـ(كربلاء) بالاتفاق، قال أبو العباس: وقد حدثني الثقات: طائفة عن ابن دقيق العيد، وطائفة عن أبى محمد عبد المؤمن بن خلف الدمياطى، وطائفة عن أبى بكر محمد بن أحمد بن القسطلانى، وطائفة عن أبى عبد اللّه القرطبي صاحب «**التفسير**» كل هؤلاء حدثني عنه من لا أتهمه، وحدثني عن بعضهم عدد كثير، كل حدثني عمن حدثه من هؤلاء:

(١) أخرجه البخاري (٣٧٤٨).

أنه كان ينكر أمر هذا المشهد، ويقول: إنه كذب، وإنه ليس فيه قبر الحسين ولا شيء منه، والذين حدثوني عن ابن القسطلانى ذكروا عنه أنه قال: إنما فيه نصراني!

ومنها: قبر عليٍّ ﷺ الذي بباطن النجف؛ فإن المعروف عند أهل العلم أن عليًا دفن بقصر الإمارة بالكوفة، كما دفن معاوية بقصر الإمارة من الشام، ودفن عمرو بقصر الإمارة؛ خوفًا عليهم من الخوارج أن ينبشوا قبورهم، ولكن قيل: إن الذي بالنجف قبر المغيرة بن شعبة، ولم يكن أحد يذكر أنه قبر عليٍّ، ولا يقصده أحد أكثر من ثلاثمائة سنة.

ومنها: قبر عبد اللَّه بن عمر في الجزيرة، والناس متفقون على أن عبد اللَّه بن عمر مات بمكة عام قتل ابن الزبير، وأوصى أن يدفن بالحل؛ لكونه من المهاجرين، فشق ذلك عليهم، فدفنوه بأعلى مكة.

ومنها: قبر جابر الذي بظاهر حران، والناس متفقون على أن جابرًا توفي بالمدينة النبوية، وهو آخر من مات من الصحابة بها.

ومنها: قبر ينسب إلى أم كلثوم ورقية بالشام، وقد اتفق الناس على أنهما ماتتا في حياة النبي - ﷺ - بالمدينة تحت عثمان، وهذا إنما هو سبب اشتراك الأسماء؛ لعل شخصًا يسمى باسم مَن ذُكر، توفي ودفن في موضع من المواضع المذكورة، فظن بعض الجهال أنه أحد من الصحابة»[1].

* * *

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٧/ ٤٩١- ٤٩٤).

أنواع الشرك الأصغر

وأما الشرك الخفي:

فهو الذي لا يكاد أحد أن يسلم منه، مثل أن يحب مع اللَّه غيره، فإن كانت محبته لله مثل حب النبيين والصالحين والأعمال الصالحة فليست من هذا الباب؛ لأن هذه تدل على حقيقة المحبة؛ لأن حقيقة المحبة أن يحب المحبوب وما أحبه، ويكره ما يكرهه، ومن صحت محبته امتنعت مخالفته؛ لأن المخالفة إنما تقع لنقص المتابعة، ويدل على نقص المحبة قول اللَّه تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١]، فليس الكلام في هذا، إنما الكلام في محبة تتعلق بالنفوس لغير اللَّه تعالى، فهذا لا شك أنه نقص في توحيد المحبة لله، وهو دليل على نقص محبة اللَّه تعالى، إذ لو كملت محبته لم يحب سواه.

ولا يرد علينا الباب الأول لأن ذلك داخل في محبته، وهذا ميزان لم يجر عليك، كلما قويت محبة العبد لمولاه صغرت عنده المحبوبات وقَلَّت، وكلما ضعفت كثرت محبوباته وانتشرت.

وكذا الخوف والرجاء وما أشبه ذلك، فإن كمل خوف العبد من ربه لم يخف شيئًا سواه، قال اللَّه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾ [الأحزاب: ٣٩]، وإذا نقص خوفه خاف من المخلوق، وعلى قدر نقص الخوف وزيادته يكون الخوف، كما ذكرنا في المحبة، وكذا الرجاء وغيره.

فهذا هو الشرك الخفي الذي لا يكاد أحد أن يسلم منه إلا من عصمه اللَّه

تعالى، وقد روي: «**إنَّ الشركَ في هذه الأمةِ أخفى مِن دبيبِ النملِ**»[(١)].

وطريق التخلص من هذه الآفات كلها الإخلاص لله ﷻ، قال اللَّه تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، ولا يحصل الإخلاص إلا بعد الزهد، ولا زهد إلا بتقوى، والتقوى: متابعة الأمر والنهى«[(٢)].

«**وأما الشرك الأصغر فكيسير الرياء، والتصنع للخلق، والحلف بغير الله، كما ثبت عن النبي** ﷺ أنه: «**مَن حلَف بغيرِ اللهِ فقد أشرَك**»[(٣)]. وقول الرجل للرجل: ما شاء اللَّه وشئت، وهذا من اللَّه ومنك، وأنا باللَّه وبك، وما لي إلا اللَّه وأنت، وبأنا متوكل على اللَّه وعليك، ولولا أنت لم يكن كذا وكذا، وقد يكون هذا شركًا أكبر بحسب قائله ومقصده، وصح عن النبي ﷺ أنه قال لرجل قال له: ما شاء اللَّه وشئت: «**أجعلتني لله ندًّا؟! قل: ما شاء اللَّه وحده**»[(٤)]. وهذا اللفظ أخف من غيره من الألفاظ.

ومن أنواعه: النذر لغير الله، فإنه شرك، وهو أعظم من الحلف بغير الله، فإذا كان من حلف بغير اللَّه فقد أشرك، فكيف بمن نذر لغير الله، مع أن في السنن من حديث عقبة بن عامر عنه: «**النذرُ حَلْفَةٌ**»[(٥)].

ومن أنواعه: الخوف من غير الله، والتوكل على غير الله، والعمل لغير

---

(١) سلف تخريجه.

(٢) «مجموع الفتاوى» (١/ ٩١- ٩٤).

(٣)سلف تخريجه.

(٤)سلف تخريجه.

(٥) أخرجه أحمد (١/ ٢٣٩، ٢٥٢، ٣١١) بلفظ: «إنما النذر يمين كفارتها كفارة اليمين»، وصححه الألباني في«الصحيحة» (٢٨٦٠).

الله، والإنابة والخضوع والذل لغير الله، وابتغاء الرزق من عند غيره، وحمد غيره على ما أعطى، والغنية بذلك عن حمده سبحانه، والذم والسخط على ما لم يقسمه ولم يجر به القدر، وإضافة نعمه إلى غيره»[١].

* * *

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٤٤- ٣٤٦).

كمال التوحيد الواجب بإفراد اللَّه بالتعلق

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنفال: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾﴾ [الزمر: ٣٦].

ولهذا كان الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل، وفي «**الصحيح**» عن النبي ﷺ أنه قال: «**تعِس عبدُ الدرهم، تعِس عبدُ الدينارِ، تعِس عبدُ القطيفةِ، تعِس عبدُ الخَميصةِ، تعِس وانتكس، وإذا شِيك فلا انتقشْ، إن أُعطي رَضي، وإن مُنع سَخِط**»[1].

فسماه النبي ﷺ عبد الدرهم، وعبد الدينار، وعبد القطيفة، وعبد الخميصة، وذكر ما فيه دعاء وخبر، وهو قوله: «**تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش**». والنقش: إخراج الشوكة من الرجل، والمنقاش: ما يخرج به الشوكة. وهذه حال من إذا أصابه شر لم يخرج منه، ولم يفلح لكونه تعس وانتكس، فلا نال المطلوب ولا خلص من المكروه، وهذه حال من عبد المال، وقد وصف ذلك بأنه: «**إذا أعطي رضي، وإذا منع سخط**». كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [التوبة: ٥٨] فرضاهم لغير الله، وسخطهم لغير الله.

وهكذا حال من كان متعلقًا برئاسة أو بصورة، ونحو ذلك من أهواء نفسه إن حصل له رضي وإن لم يحصل له سخط، فهذا عبد ما يهواه من ذلك، وهو رقيق له؛ إذ الرق والعبودية في الحقيقة هو رق القلب وعبوديته، فما

---

(١) سلف تخريجه.

استرق القلب واستعبده، فهو عبده، ولهذا يقال: العبدُ حرٌّ ما قَنَع، والحرُّ عبدٌ ما طَمَع. وقال القائل:

أطعت مطامعي فاستعبدتني ولو أنى قنعت لكنت حرّا

ويقال: الطمع غل في العنق، قيد في الرجل، فإذا زال الغل من العنق، زال القيد من الرجل.

ويروى عن عمر بن الخطاب ﵁ أنه قال: «**الطمع فقر، واليأس غنى، وأن أحدكم إذا يئس من شيء استغنى عنه**»[1].

وهذا أمر يجده الإنسان من نفسه، فإن الأمر الذي ييأس منه لا يطلبه ولا يطمع به، ولا يبقى قلبه فقيرًا إليه، ولا إلى من يفعله، وأما إذا طمع في أمر من الأمور ورجاه تعلق قلبه به، فصار فقيرًا إلى حصوله، وإلى من يظن أنه سبب في حصوله، وهذا في المال والجاه والصور وغير ذلك، قال الخليل: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

فالعبد لا بد له من الرزق، وهو محتاج إلى ذلك، إذا طلب رزقه من اللَّه صار عبدًا لله، فقيرًا إليه، وإن طلبه من مخلوق صار عبدًا لذلك المخلوق، فقيرًا إليه.

ولهذا كانت مسألة المخلوق محرمة في الأصل، وإنما أبيحت للضرورة، وفي النهى عنها أحاديث كثيرة، في الصحاح والسنن والمسانيد، كقوله: «**لا تزالُ المسألةُ بأحدِكم حتى يأتيَ يومَ القيامةِ، وليس في وجهِه مُزْعَةُ لحمٍ**»[2].

---

(١) أخرجه أحمد (ص١١٧)، وابن المبارك (ص٢٢٣) كلاهما في «الزهد»، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٥٤).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٧٤، ١٤٧٥)، ومسلم(١٠٤، ١٠٤/ ١٠٤٠)، من حديث ابن عمر ﵄.

وقوله: «**مَن سأل الناسَ وله ما يغنيه جاءت مسألتُه يومَ القيامةِ خُدُوشًا أو خُمُوشًا أو كُدُوحًا في وجهِهِ**»[١]. وقوله: «**لا تحِلُّ المسألةُ إلا لذي غُرمٍ مُفظِعٍ، أو دم مُوجِعٍ، وفقرٍ مُدْقِعٍ**». هذا المعنى في «**الصحيح**»[٢]، وفيه أيضًا: «**لأنْ يأخذ أحدُكم حبلَه فيذهب فيحتطب خيرٌ له مِن أنْ يسألَ الناسَ أَعطَوه أو مَنعوه**»[٣]. وقال: «**ما أتاك مِن هذا المالِ وأنت غيرُ سائلٍ ولا مُشرفٍ فخذْه، وما لا فلا تُتْبِعْه نفسَك**»[٤].

فكره أخذه من سؤال اللسان، واستشراف القلب، وقال في الحديث الصحيح: «**مَن يَستغنِ يغنِه اللهُ، ومَن يَستعففْ يُعفَّه اللهُ، ومَن يَتصبَّرْ يُصبِّرْه الله، ما أُعطي أحدٌ عطاءً خيرًا وأوسعَ مِن الصبرِ**»[٥].

وأوصى خواص أصحابه أن لا يسألوا الناس شيئًا، ففي «**المسند**»: «**إن أبا بكر كان يسقط السَّوْط من يده فلا يقول لأحد: ناولني إياه. ويقول: «إن**

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٨، ٤٤١)، وأبو داود (١٦٢٦)، والترمذي (٦٥٠)، من حديث ابن مسعود ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم (١٠٩/ ١٠٤٤) من حديث قَبيصة ﷺ، ولفظه: أن النبي ﷺ قال: «يا قَبِيصةُ، إن المسألةَ لا تَحلُّ إلا لأحدِ ثلاثةٍ: رجلٍ تحمَّل حِمالةً، فحلَّتْ له المسألةُ حتى يصيبها، ثم يمسك، ورجلٍ أصابتْه جائحةٌ اجتاحت مالَه فحلَّتْ له المسألةُ حتى يصيب قِوَامًا مِن عيشٍ- أو قال: سِدادًا من عيشٍ- ورجلٍ أصابتْه فاقةٌ حتى يقولَ ثلاثةٌ مِن ذوي الحِجَا مِن قومِه: لقد أصابت فلانًا فاقةٌ فحلَّتْ له المسألةُ حتى يصيبَ قِوَامًا مِن عيشٍ- أو قال: سِدادًا مِن عيشٍ- فما سِواهنَّ مِن المسألةِ يا قَبيصةُ، سُحْتًا يأكلُها صاحبُها سُحْتًا».

(٣) أخرجه البخاري (١٤٧٠)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) أخرجه البخاري (٧١٦٤، ١٤٧٣)، ومسلم (١١٠/ ١٠٤٠)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٥) أخرجه البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٢٤/ ١٠٥٣)، من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

خليلي أمرني أن لا أسأل الناس شيئًا»[(١)].

وفي «صحيح مسلم» وغيره، عن عوف بن مالك ﷺ: أن النبي ﷺ بايعه في طائفة، وأسرَّ إليهم كلمة خفية: «**أن لا تسألوا الناسَ شيئًا**». فكان بعض أولئك النفر يسقط السَّوْط من يد أحدهم، ولا يقول لأحد: ناولني إياه»[(٢)].

وقد دلت النصوص على الأمر بمسألة الخالق، والنهي عن مسألة المخلوق، في غير موضع، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧﴾ [الشرح: ٧]. وقول النبي ﷺ لابن عباس - رضي اللّه عنهما - : «**إذا سألتَ فاسألِ اللهَ، وإذا استعنتَ فاستعِنْ باللهِ**»[(٣)].

ومنه قول الخليل: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. ولم يقل فابتغوا الرزق عند الله؛ لأن تقديم الظرف يشعر بالاختصاص والحصر، كأنه قال: لا تبتغوا الرزق إلا عند الله، وقد قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٣٢]، والإنسان لا بد له من حصول ما يحتاج إليه من الرزق ونحوه، ودفع ما يضره، وكلا الأمرين شرع له أن يكون دعاؤه لله، فله أن يسأل اللّه وإليه يشتكى، كما قال يعقوب ﵇: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦].

واللّه تعالى ذكر في القرآن الهجر الجميل، والصفح الجميل، والصبر الجميل.

وقد قيل: إن الهجر الجميل: هو هجر بلا أذى. **والصفح الجميل**: صفح بلا معاتبة. **والصبر الجميل**: صبر بغير شكوى إلى المخلوق. ولهذا

(١) أخرجه أحمد (١/ ١١).
(٢) أخرجه مسلم (١٠٤٣/ ١٠٨).
(٣) سلف تخريجه.

قرئ على أحمد بن حنبل في مرضه أن طاوسًا كان يكره أنين المريض، ويقول: إنه شكوى. فما أَنَّ أحمد حتى مات[١].

وأما الشكوى إلى الخالق: فلا تنافي الصبر الجميل، فإن يعقوب ﷺ قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨]، وقال: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

وكان عمر بن الخطاب ﷺ يقرأ في الفجر بسورة «**يونس**» و«**يوسف**» و«**النحل**»، فمر بهذه الآية في قراءته، فبكى حتى سمُع نَشيجُه من آخر الصفوف.

ومن دعاء موسى ﷺ: «اللهمَّ لك الحمدُ، وإليك المشتكي، وأنت المستعانُ، وبك المستغاثُ، وعليك التُكْلانُ ولا حولَ ولا قوةَ إلا بك»[٢].

وفي الدعاء الذي دعا به النبي ﷺ لما فعل به أهل الطائف ما فعلوا: «اللهمَّ إليك أشكو ضعفَ قوتي، وقلةَ حيلتي، وهواني على الناسِ، أنت ربُّ المستضعفين، وأنت ربي، اللهمَّ إلى مَن تَكِلُني؟ إلى بعيدٍ يَتَجَهَّمُنى؟ أم إلى عدوٍّ ملَّكتَه أمري؟ إن لم يكن بك غضبٌ عليَّ فلا أبالي، غيرَ أنَّ عافيتَك أوسعُ لي، أعوذُ بنورِ وجهِك الذي أشرَقتْ به الظلماتُ، وصلَح عليه أمرُ الدنيا والآخرةِ، أن ينزلَ بي سخطُك أو يَحُلَّ عليَّ غضبُك، لك العُتْبَى حتى ترضى، فلا حولَ ولا قوةَ إلا بك». وفي بعض الروايات: «**ولا حولَ ولا قوةَ**

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» كما في «فتح الباري» (١٠/ ١٢٤). وذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (٢/ ١٢٨٤)، والحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» (١٠/ ٣٤١).
(٢) أورده السيوطي في «الدر» (٦/ ٢٩٩).

إلا بك»[١].

وكلما طمع العبد في فضل اللَّه ورحمته ورجائه لقضاء حاجته ودفع ضرورته؛ قويت عبوديته له وحريته مما سواه، فكما أن طمعه في المخلوق يوجب عبوديته له، فيأسه منه يوجب غنى قلبه عنه، كما قيل: «**استغنِ عمن شئت تكن نظيره، وأفضِلْ على من شئت تكن أميره، واحتجْ إلى من شئت تكن أسيره**». فكذلك طمع العبد في ربه ورجاؤه له يوجب عبوديته له، فيأسه منه يوجب غنى قلبه عنه، كما قيل: «**استغنِ عمن شئت تكن نظيره، وأفضِلْ على من شئت تكن أميره، واحتجْ إلى من شئت تكن أسيره**». فكذلك طمع العبد في ربه ورجاؤه له يوجب عبوديته له، وإعراض قلبه عن الطلب من اللَّه والرجاء له، يوجب انصراف قلبه عن العبودية لله، لا سيما من كان يرجو المخلوق ولا يرجو الخالق، بحيث يكون قلبه معتمدًا إما على رئاسته وجنوده وأتباعه ومماليكه، وإما على أهله وأصدقائه، وإما على أمواله وذخائره، وإما على ساداته وكبرائه، كمالكه وملكه وشيخه ومخدومه، وغيرهم ممن هو قد مات أو يموت، قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [الفرقان: ٥٨].

وكل من علق قلبه بالمخلوقات أن ينصروه أو يرزقوه أو أن يهدوه خضع قلبه لهم، وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك، وإن كان في الظاهر أميرًا لهم، مدبرًا لهم، متصرفًا بهم.

فالعاقل ينظر إلى الحقائق لا إلى الظواهر، فالرجل إذا تعلق قلبه بامرأة،

---

(١) أخرجه الطبراني في «الدعاء» (ص٣١٥)، وابن عدي في «الكامل» (٦/ ١١١) من حديث عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما.

ولو كانت مباحة له يبقى قلبه أسيرًا لها، تحكم فيه وتتصرف بما تريد، وهو في الظاهر سيدها لأنه زوجها، وفي الحقيقة هو أسيرها ومملوكها، لا سيما إذا درت بفقره إليها وعشقه لها، وأنه لا يعتاض عنها بغيرها، إنها حينئذ تحكم فيه بحكم السيد القاهر الظالم في عبده المقهور الذي لا يستطيع الخلاص منه، بل أعظم، فإن أسْرَ القلب أعظم من أسر البدن، واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن، فإن من استعبد بدنه واسترق لا يبالي إذا كان قلبه مستريحًا من ذلك مطمئنًا، بل يمكنه الاحتيال في الخلاص، وأما إذا كان القلب الذي هو الملك رقيقًا مستعبدًا متيمًا لغير الله، هذا هو الذل والأسر المحض والعبودية لما استعبد القلب.

وعبودية القلب وأسره هي التي يترتب عليها الثواب والعقاب، إن المسلم لو أسره كافر أو استرقه فاجر بغير حق لم يضره ذلك، إذا كان قائمًا بما يقدر عليه من الواجبات، ومن استعبد بحق إذا أدى حق اللّه وحق مواليه له أجران، ولو أكره على التكلم بالكفر، فتكلم به وقلبه مطمئن بالإيمان؛ لم يضره ذلك، وأما من استعبد قلبه صار عبدًا لغير الله، فهذا يضره ذلك، ولو كان في الظاهر ملك الناس.

فالحرية حرية القلب، والعبودية عبودية القلب، كما إن الغنى غنى النفس، قال النبي ﷺ : **«ليس الغنى عن كثرةِ العَرَضِ، وإنما الغنى غنى النفسِ»**[(١)].

وهذا لعمري إذا كان قد استعبد قلبه صورة مباحة، فأما من استعبد قلبه صورة محرمة؛ امرأة أو صبي، فهذا هو العذاب الذي لا يدان فيه، وهؤلاء

(١) أخرجه البخاري (٦٤٤٦)، ومسلم (١٢٠/ ١٠٥١) من حديث أبي هريرة ﷺ .

من أعظم الناس عذابًا، وأقلهم ثوابًا، فإن العاشق لصورة إذا بقي قلبه متعلقًا بها مستعبدًا لها اجتمع له من أنواع الشر والفساد ما لا يحصيه إلا رب العباد، ولو سلم من فعل الفاحشة الكبرى، فدوام تعلق القلب بها بلا فعل الفاحشة أشد ضررًا عليه ممن يفعل ذنبًا ثم يتوب منه، ويزول أثره من قلبه، وهؤلاء يشبهون بالسكارى والمجانين، كما قيل:

سُكْرانِ سُكرُ هوًى وسكرُ مُدامةٍ ... ومتى إفاقةُ مَن به سُكرانِ

وقيل:

قالوا جُننتَ بمن تهوى فقلتُ لهم ... العشقُ أعظمُ مما بالمجانينِ

العشقُ لا يستفيقُ الدهرَ صاحبُهُ ... وإنما يُصرعُ المجنونُ في الحينِ

- **ومن أعظم أسباب هذا البلاء:**

إعراض القلب عن الله، فإن القلب إذا ذاق طعم عبادة اللَّه والإخلاص له؛ لم يكن عنده شيء قط أحلي من ذلك ولا ألذ ولا أطيب، والإنسان لا يترك محبوبًا إلا بمحبوب آخر يكون أحب إليه منه، أو خوفًا من مكروه، فالحب الفاسد إنما ينصرف القلب عنه بالحب الصالح، أو بالخوف من الضرر؛ قال تعالى في حق يوسف ﵇: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، فاللَّه يصرف عن عبده ما يسوؤه من الميل إلى الصورة والتعلق بها ويصرف عنه الفحشاء بإخلاصه لله.

ولهذا يكون قبل أن يذوق حلاوة العبودية لله والإخلاص له، تغلبه نفسه على اتباع هواها، فإذا ذاق طعم الإخلاص وقوي في قلبه؛ انقهر له هواء بلا علاج؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، فإن الصلاة فيها دفع للمكروه وهو الفحشاء

والمنكر، وفيها تحصيل المحبوب وهو ذكر الله، وحصول هذا المحبوب أكبر من مندفع المكروه، فإن ذكر اللّه عبادة لله، وعبادة القلب لله مقصودة لذاتها، وأما اندفاع الشر عنه فهو مقصود لغيره على سبيل التبع.

ولما كان الكبر مستلزمًا للشرك، والشرك ضد الإسلام، وهو الذنب الذي لا يغفره الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء: ٤٨]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ [النساء: ١١٦] - كان الأنبياء جميعهم مبعوثين بدين الإسلام، فهو الدين الذي لا يقبل اللّه غيره، لا من الأولين ولا من الآخرين.

قال نوح: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [يونس: ٧٢]، وقال في حق إبراهيم: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣٠ - ١٣٢]، وقال يوسف: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، وقال موسى: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [يونس: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [المائدة: ٤٤]، وقالت بلقيس: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤]، وقال: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟

بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة: ١١١]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [آل عمران: ٨٣].

فذكر إسلام الكائنات طوعًا وكرهًا؛ لأن المخلوقات جميعها متعبدة له التعبد العام، سواء أقر المقر بذلك أو أنكره، وهم مدينون مدبرون، فهم مسلمون له طوعًا وكرهًا، ليس لأحد من المخلوقات خروج عما شاءه وقدره، ولا حول ولا قوة إلا به، وهو رب العالمين ومليكهم، يصرفهم كيف يشاء، وهو خالقهم كلهم وبارئهم ومصورهم، وكل من سواه فهو مربوب مصنوع ومفطور، فقير محتاج معبد مقهور، وهو الواحد القهار، الخالق البارئ المصور، وهو إن كان قد خلق ما خلقه بأسباب فهو خالق السبب والمقدِّر له، وهو مفتقر إليه كافتقار هذا، وليس في المخلوقات سبب مستقل بفعل ولا دفع ضرر، بل كل ما هو سبب فهو محتاج إلى سبب آخر يعاونه، وإلى ما يدفع عنه الضد الذي يعارضه ويمانعه، وهو سبحانه وحده الغني عن كل ما سواه، ليس له شريك يعاونه، ولا ضد يناوئه ويعارضه، قال تعالى: ﴿قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨]»[١].

* * *

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٨٢- ٢٠١).

طريق الخلاص من الشرك الأصغر

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾﴾ [البقرة: ٢٠٨].

«وطريق التخلص من هذه الآفات كلها: الإخلاص لله ﷻ؛ قال الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، ولا يحصل الإخلاص إلا بعد الزهد، ولا زهد إلا بتقوى، والتقوى متابعة الأمر والنهي»[(١)].

ومن أعظم أسباب هذا البلاء إعراض القلب عن الله، فإن القلب إذا ذاق طعم عبادة اللَّه والإخلاص له؛ لم يكن عنده شيء قط أحلى من ذلك ولا ألذ ولا أطيب، والإنسان لا يترك محبوبًا إلا بمحبوب آخر يكون أحب إليه منه، أو خوفًا من مكروه، فالحب الفاسد إنما ينصرف القلب عنه بالحب الصالح، أو بالخوف من الضرر.

والقلب خُلِقَ يحب الحق ويريده ويطلبه، فلما عرضت له إرادة الشر طلب دفع ذلك، فإنه يفسد القلب كما يفسد الزرع بما ينبت فيه من الدَّغَل، ولهذا قال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٩، ١٠]، وقال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥]، وقال: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [النور: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا﴾ [النور: ٢١].

(١) «مجموع الفتاوى» (١/ ٩٤).

فجعل سبحانه غض البصر، وحفظ الفرج هو أزكى للنفس، وبيَّن أن ترك الفواحش من زكاة النفوس، وزكاة النفوس تتضمن زوال جميع الشرور: من الفواحش والظلم والشرك والكذب وغير ذلك.

وكذلك طالب الرئاسة والعلو في الأرض قلبه رقيق لمن يعينه عليها، ولو كان في الظاهر مقدمهم والمطاع فيهم، فهو في الحقيقة يرجوهم ويخافهم، فيبذل لهم الأموال والولايات، ويعفو عنهم ليطيعوه ويعينوه، فهو في الظاهر رئيس مطاع، وفي الحقيقة عبد مطيع لهم، والتحقيق أن كلاهما فيه عبودية للآخر، وكلاهما تارك لحقيقة عبادة الله، وإذا كان تعاونهما على العلو في الأرض بغير الحق كانا بمنزلة المتعاونين على الفاحشة، أو قطع الطريق، فكل واحد من الشخصين لهواه الذي استعبده واسترقه يستعبده الآخر.

وهكذا أيضًا طالب المال فإن ذلك يستعبده ويسترقه، وهذه الأمور نوعان:

منها ما يحتاج العبد إليه: كما يحتاج إليه من طعامه وشرابه ومسكنه ومنكحه، ونحو ذلك، هذا يطلبه من اللَّه ويرغب إليه فيه، فيكون المال عنده يستعمله في حاجته بمنزلة حماره الذي يركبه، وبساطه الذي يجلس عليه، بل بمنزلة الكنيف الذي يقضي فيه حاجته، من غير أن يستعبده فيكون إذا مسه الشر جزوعًا، وإذا مسه الخير منوعًا.

ومنها ما لا يحتاج العبد إليه: فهذه لا ينبغي له أن يعلق قلبه بها، فإذا تعلق قلبه بها صار مستعبَدًا لها، وربما صار معتمدًا على غير الله، فلا يبقى معه حقيقة العبادة لله، ولا حقيقة التوكل عليه، بل فيه شعبة من العبادة لغير الله، وشعبة من التوكل على غير الله، وهذا من أحق الناس بقوله ﷺ :

«تَعِس عبدُ الدرهمِ، تَعِس عبدُ الدينارِ، تَعِس عبدُ القطيفةِ، تَعِس عبدُ الخَمِيصةِ»(١).

وهذا هو عبد هذه الأمور، فلو طلبها من اللَّه فإن اللَّه إذا أعطاه إياها رضي، وإذا منعه إياها سخِط، وإنما عبدُ اللَّه من يرضيه ما يرضي الله، ويسخطه ما يسخط الله، ويحبُّ ما أحبه اللَّه ورسوله، ويبغض ما أبغضه اللَّه ورسوله، ويوالي أولياء الله، ويعادي أعداء اللَّه تعالى، وهذا هو الذي استكمل الإيمان، كما في الحديث: «**مَن أحبَّ للهِ، وأبغض للهِ، وأعطى للهِ، ومنع للهِ؛ فقد استكمل الإيمانَ**»(٢). وقال: «**أوثقُ عرى الإيمانِ الحبُّ في اللهِ والبغضُ في اللهِ**»(٣).

وفي الصحيح عنه: «**ثلاثٌ مَن كنَّ فيه وجد حلاوةَ الإيمانِ: مَن كان اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهما، ومَن كان يحبُّ المرءَ لا يحبُّه إلا للهِ، ومَن كان يَكره أن يرجعَ في الكفرِ، بعد إذ أنقذه اللَّه منه، كما يَكره أن يُلقى في النارِ**»(٤). فهذا وافق ربه فيما يحبه وما يكرهه، فكان اللَّه ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأحب المخلوق لله لا لغرض آخر، فكان هذا فكان من تمام حبه لله، فإن محبة محبوب المحبوب من تمام محبة المحبوب، فإذا أحب أنبياء اللَّه وأولياء اللَّه لأجل قيامهم بمحبوبات الحق لا لشيء آخر فقد أحبهم لله لا لغيره، وقد قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ

(١) سلف تخريجه.
(٢) سلف خريجه.
(٣) أخرجه أبو داود الطيالسي في «مسنده» (ص١٠١).
(٤) تقدم تخريجه.

﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝٣١﴾ [آل عمران: ٣١].

فإن الرسول يأمر بما يحب الله، وينهى عما يبغضه الله، ويفعل ما يحبه الله، ويخبر بما يحب اللّه التصديق به، فمن كان محبًّا لله لزم أن يتبع الرسول فيصدقه فيما أخبر، ويطيعه فيما أمر، ويتأسى به فيما فعل، ومن فعل هذا فقد فعل ما يحبه اللّه فيحبه الله.

فجعل اللّه لأهل محبته علامتين: اتباع الرسول، والجهاد في سبيله؛ وذلك لأن الجهاد حقيقته: الاجتهاد في حصول ما يحب اللّه مِن الإيمان والعمل الصالح، ومِن دفع ما يبغضه اللّه من الكفر والفسوق والعصيان، وقد قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٢٤﴾ [التوبة: ٢٤]، فتوعد من كان أهله وماله أحب إليه من اللّه ورسوله والجهاد في سبيله بهذا الوعيد، بل قد ثبت أنه في «**الصحيح**» أنه قال: «**والذي نفْسي بيدِه، لا يؤمنُ أحدُكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من ولدِه ووالدِه والناسِ أجمعين**»(١).

وفي «الصحيح» أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال له يا رسول الله: واللّه لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال: «**لا يا عمرُ، حتى أكونَ أحبَّ إليك مِن نفسِك**»، فقال: فواللّه لأنت أحب إليَّ من نفسي، فقال: «**الآن يا عمرُ**»(٢).

---

(١) سلف تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٩٤، ٦٢٦٤، ٦٦٣٢) من حديث عبد الله بن هشام بن زُهرة رضي الله عنه.

فحقيقة المحبة لا تتم إلا بموالاة المحبوب، وهو موافقته في حب ما يحب وبغض ما يبغض، واللَّه يحب الإيمان والتقوى، ويبغض الكفر والفسوق والعصيان، ومعلوم أن الحب يحرك إرادة القلب، فكلما قويت المحبة في القلب طلب القلب فعل المحبوبات، فإذا كانت المحبة تامة استلزمت إرادة جازمة في حصول المحبوبات، فإذا كان العبد قادرًا عليها حصَّلها، وإن كان عاجزًا عنها ففعل ما يقدر عليه من ذلك، كان له كأجر الفاعل، كما قال النبي ﷺ: «**مَن دعا إلى هدًى كان له مِن الأجرِ مثلُ أجورِ مَن اتَّبعَه، مِن غيرِ أن ينقصَ مِن أجورِهم شيئًا، ومَن دعا إلى ضلالةٍ كان عليه مِن الوِزرِ مثلُ أوزارِ مَن اتَّبعَه مِن غيرِ أن يَنقُصَ مِن أوزارِهم شيئًا**»[(١)]. وقال: «**إنَّ بالمدينةِ لرجالاً ما سِرْتم مسيرًا، ولا قَطَعتم واديًا إلا كانوا معكم**»[(٢)]. قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: «**هم بالمدينةِ، حَبسَهم العذرُ**».

والجهاد هو بذل الوسع، وهو القدرة في حصول محبوب الحق، ودفع ما يكرهه الحق، فإذا ترك العبد ما يقدر عليه من الجهاد كان دليلاً على ضعف محبة اللَّه ورسوله في قلبه، ومعلوم أن المحبوبات لا تنال غالبًا إلا باحتمال المكروهات، سواء كانت محبة صالحة أو فاسدة، فالمحبون للمال والرئاسة والصور لا ينالون مطالبهم إلا بضرر يلحقهم في الدنيا مع ما يصيبهم من الضرر في الدنيا والآخرة، فالمحب لله ورسوله إذا لم يتحمل ما يرى ذو الرأي من المحبين لغير اللَّه مما يحتملون في حصول محبوبهم دل ذلك على ضعف محبتهم لله، إذا كان ما يسلكه أولئك هو الطريق الذي يشير به العقل.

---

(١) أخرجه مسلم (٦٩٨٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٤١٦١) من حديث أنس ﷺ، ومسلم (١٩١١/١٥٩) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

ومن المعلوم أن المؤمن أشد حبًا لله، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] نعم قد يسلك المحب لضعف عقله وفساد تصوره طريقا لا يحصل بها المطلوب فمثل هذه الطريق لا تحمد إذا كانت المحبة صالحة محمودة فكيف إذا كانت المحبة فاسدة والطريق غير موصل؟! كما يفعله المتهورون في طلب المال والرئاسة والصور في حب أمور توجب لهم ضررا ولا تحصل لهم مطلوبا!! وإنما المقصود الطرق التي يسلكها العقل حصول مطلوبه.

وإذا تبين هذا فكلما ازداد القلب حبا لله ازداد له عبودية وكلما ازداد له عبودية ازداد له حبا وحرية عما سواه والقلب فقير بالذات إلى اللَّه من وجهين:

من جهة العبادة: وهى العلة الغائية.

ومن جهة الاستعانة والتوكل: وهي العلة الفاعلية فالقلب لا يصلح ولا يفلح ولا يلتذ ولا يسر ولا يطيب ولا يسكن ولا يطمئن إلا بعبادة ربه وحبه والإنابة إليه ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن؛ إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه ومن حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطمأنينة.

وهذا لا يحصل له إلا بإعانة اللَّه له لا يقدر على تحصيل ذلك له إلا اللَّه فهو دائما مفتقر إلى حقيقة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]، فإنه لو أُعين على حصول ما يحبه ويطلبه، ويشتهيه ويريده، ولم يحصل له عبادته لله، بحيث يكون هو غاية مراده ونهاية مقصوده، وهو المحبوب له بالقصد الأول، وكل ما سواه إنما يحبه لأجله، لا يحب شيئًا لذاته إلا اللهَ -

متى لم يحصل له هذا لم يكن قد حقق حقيقة لا اله إلا الله، ولا حقق التوحيد والعبودية والمحبة، وكان فيه من النقص والعيب، بل من الألم والحسرة والعذاب بحسَب ذلك.

ولو سعى في هذا المطلوب، ولم يكن مستعينًا بالله، متوكلاً عليه، مفتقرًا إليه في حصوله، لم يحصل له، فإنه ما شاء اللَّه كان، وما لم يشأ لم يكن، فهو مفتقر إلى اللَّه من حيث هو المطلوب المحبوب، المراد المعبود، ومن حيث هو المسئول المستعان به، المتوكل عليه، فهو إلهه لا إله له غيره، وهو ربه لا رب سواه، ولا تتم عبوديته لله إلا بهذين.

فمتى كان يحب غير اللَّه لذاته، أو يلتفت إلى غير اللَّه أنه يعينه، كان عبدًا لما أحبه، وعبدًا لما رجاه، بحسب حبه له ورجائه إياه، وإذا لم يحب لذاته إلا الله، وكلما أحب سواه فإنما أحبه له، ولم يرج قط شيئًا إلا الله، وإذا فعل ما فعل من الأسباب، أو حصَّل ما حصَّل منها، كان شاهدًا أن اللَّه هو الذي خلقها وقدرها، وأن كل ما في السموات والأرض فاللَّه ربه ومليكه وخالقه، وهو مفتقر إليه، كان قد حصل له من تمام عبوديته لله بحسب ما قسم له من ذلك.

والناس في هذا على درجات متفاوتة، لا يحصي طرفيها إلا الله.

فأكمل الخلق وأفضلهم وأعلاهم وأقربهم إلى اللَّه وأقواهم وأهداهم؛ أتمهم عبودية لله من هذا الوجه.

وهذا هو حقيقة دين الإسلام الذي أرسل به رسله، وأنزل به كتبه، وهو أن يستسلم العبد لله لا لغيره، فالمستسلم له ولغيره مشرك، والممتنع عن الاستسلام له مستكبر، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ: «**إنَّ الجنةَ لا**

يدخلُها مَن في قلبِه مثقالُ ذرةٍ مِن كبرٍ، كما أن النار لا يدخلها من في قلبه مثقال ذرة من الإيمان» (١).

فجعل الكبر مقابلاً للإيمان؛ فإن الكبر ينافي حقيقة العبودية، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**يقولُ اللهُ: العظمةُ إزاري، والكبرياءُ ردائي، فمَن نازعني واحدًا منهما عذبتُه**»(٢).

فالعظمة والكبرياء من خصائص الربوبية، والكبرياء أعلى من العظمة، ولهذا جعلها بمنزلة الرداء كما جعل العظمة بمنزلة الإزار.

ولهذا كان شعار الصلوات والأذان والأعياد هو التكبير، وكان مستحبًا في الأمكنة العالية، كالصفا والمروة، وإذا علا الإنسان شرفًا، أو ركب دابة، ونحو ذلك، وبه يطفأ الحريق وإن عظم، وعند الأذان يهرب الشيطان، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠].

وكل من استكبر عن عبادة الله لا بد أن يعبد غيره، فإن الإنسان حساس يتحرك بالإرادة، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**أصدقُ الأسماءِ حارثٌ وهمامٌ**»(٣). **فالحارث**: الكاسب الفاعل. **والهمام**: فعال من

---

(١) ورد هذا المعنى في حديث الرؤية لأبي سعيد الخدري وغيره، وتقدم تخريجه؛ وورد أيضًا في حديث الشفاعة الطويل، وتقدم تخريجه. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

(٢) سلف تخريجه.

(٣) الذي في الصحيح هو ما أخرجه: الإمامُ أحمد (٢/ ٢٤، ١٢٨)، ومسلمٌ (٢١٣٢)، وأبو داود (٤٩٤٩)، والترمذي (٢٨٣٣، ٢٨٣٤)، وابنُ ماجه (٣٧٢٨)، والدارميُّ (٢٦٩٥)، من طرق عن نافع، عن ابن عُمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أحبَّ أسمائكم إلى الله: عبد الله وعبد الرحمن». وهذا لفظ مسلم، وليس فيه: «أصدق الأسماء حارث وهمام». وقال الترمذي: «حسنٌ غريبٌ». ا؟.

=

الهم. **والهم**: أول الإرادة. فالإنسان له إرادة دائمًا، وكل إرادة فلا بد لها من مراد تنتهي إليه، فلا بد لكل عبد من مراد محبوب، هو منتهى حبه وإرادته، فمن لم يكن اللَّه معبوده ومنتهى حبه وإرادته، بل استكبر عن ذلك، فلا بد أن يكون له مراد محبوب، بل الاستقراء يدل على أنه كلما كان الرجل أعظم استكبارًا عن عبادة اللَّه كان الرجل أعظم إشراكًا بالله؛ لأنه كلما استكبر عن عبادة اللَّه ازداد فقره أو حاجته إلى المراد المحبوب الذي هو المقصود، مقصود القلب بالقصد الأول، فيكون مشركًا بما استعبده من ذلك.

ولن يستغني القلب عن جميع المخلوقات، إلا بأن يكون اللَّه هو مولاه الذي لا يعبد إلا إياه، ولا يستعين إلا به، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يفرح إلا بما يحبه ويرضاه، ولا يكره إلا ما يبغضه الرب ويكرهه، ولا يوالي إلا من والاه الله، ولا يعادي إلا من عاداه الله، ولا يحب إلا الله، ولا يبغض شيئًا

= وأخرج الإمامُ أحمد (٤/ ٣٤٥)، والبخاريُّ في كتابه «المفرد في الأدب» (٨١٤)، وأبو داود (٤٩٥٠)، والنسائيُّ في «المجتبى» (٦/ ٢١٨)، وفي «الكبرى» (٣/ ٣٧)، وأبومحمد ابنُ قتيبة في «غريب الحديث» (١/ ٢٨٦)، من طريق محمد بن المهاجر، عن عقيل بن شبيب، عن أبي وهب الكلاعي الجشمي، عن النبي: «سَمُّوا أولادكم أسماء الأنبياء. وأَحسنُ الأسماء عبد الله وعبد الرحمن، وأصدقُها: الحارث وهَمَّام. وأقبَحُها: حرب ومُرَّة». وعقيل بنُ شبيب؛ تكلم أهل الصناعة الحديثية بجهالته، فلم يروِ عنه غير محمد بن المهاجر. كما اختلف في صحبة أبي وهب الكلاعي. والله أعلم.

وروى ابنُ مسعود ﷺ قال: نهى رسول الله ﷺ أن يسمي الرجل عبده أو ولده: حارثًا أو مرة أو وليدًا أو حكمًا أو أبا الحكم أو أفلح أو نجيحًا أو يسارًا. وقال: «أحب الأسماء إلى الله ﷻ: ما يعبد به. وأصدق الأسماء: همام». أورده الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٩٩) عنه، ثم قال: رواه الطبراني في «الأوسط» و«الكبير»، وفيه محمد بن محصن العكاشي: وهو متروك.ا؟. قلتُ: بل قال ابنُ معين وأبو حاتم: كذاب.

وفي الباب عن: أنس بن مالك، وجابر بن عبد الله، وأبي سبرة يزيد بن مالك الجعفي ﷺ. ومراسيل بأسانيد صحيحة. والله أعلم.

إلا لله، ولا يعطي إلا لله، ولا يمنع إلا لله، فكلما قوي إخلاص دينه لله كملت عبوديته واستغناؤه عن المخلوقات، وبكمال عبوديته لله يبرئه من الكبر والشرك.

والشرك غالب على النصارى، والكبر غالب على اليهود، قال تعالى في النصارى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١]، وقال في اليهود: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأعراف: ١٤٦].

ولما كان الكبر مستلزمًا للشرك، والشرك ضد الإسلام، وهو الذنب الذي لا يغفره الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء: ٤٨]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ [النساء: ١١٦] كان الأنبياء جميعهم مبعوثين بدين الإسلام، فهو الدين الذي لا يقبل اللّه غيره، لا من الأولين، ولا من الآخرين، قال نوح ﷺ: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [يونس: ٧٢]، وقال في حق إبراهيم: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى

ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣٠ - ١٣٢]، وقال يوسف: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس: ٨٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [المائدة: ٤٤]، وقالت بلقيس: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤]»[١].

* * *

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٨٨- ١٩٩).

بيان حقيقة الرياء وجوامع ما يراءى به

«وهو: طلب الجاه والمنزلة بالعبادات: اعلم أن الرياء حرام، والمرائي عند اللَّه ممقوت، وقد شهدت لذلك الآيات والأخبار.

أما الآيات: فقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦﴾ [الماعون: ٤ - ٦]. وقوله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر: ١٠].
قال مجاهد: هم أهل الرياء.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ [الإنسان: ٩]. فمدح المخلصين بنفي كل إرادة سوى وجه الله، والرياء ضده.

وقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]. نزل ذلك فيمن يطلب الأجر والحمد بعباداته وأعماله.

ومن الأحاديث: قوله ﷺ: «**يقول اللَّه ﷻ: مَن عمِل لي عملاً أشرَك فيه غيري، فهو له كلُّه، وأنا منه بريءٌ، وأنا أغنى الأغنياءِ عن الشركِ**»[1]. وقال ﷺ: «**إن أخوفَ ما أخاف عليكم الشركُ الأصغرُ**». قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «**الرياء، يقولُ اللهُ** ﷻ يومَ القيامةِ، إذا جاز العبادَ بأعمالِهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تُراءون في الدنيا، فانظروا هل

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢٢٨٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

تجدون عندهم الجزاء؟»[١]. وقال ﷺ : «**لا يقبلُ اللهُ ﷻ عملاً فيه مثقالُ ذرةٍ مِن رياءٍ**». وقال ﷺ : «**إن أدنى الرياءِ شركٌ**»[٢]. وقال ﷺ : «**إن في ظلِّ العرشِ يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّه رجلاً تصدَّق بيمينِه فكان يخفيها عن شمالِه**»[٣]. وقال عليه السلام: «**صلاةُ المرءِ في بيتِه حيث لا يراه الناس تعدل صلاتَه على أعينِ الناسِ خمسًا وعشرين**»[٤].

ومن الآثار: ما روي أن عمر بن الخطاب ؓ رأى رجلاً يطأطئ رقبته، فقال: «**يا صاحب الرقبة، ارفع رقبتك، ليس الخشوع في الرقاب، إنما الخشوع في القلوب**». ورأى أبو أمامة الباهلي رجلاً في المسجد يبكي في سجوده، فقال: «**أنت أنت! لو كان هذا في بيتك**»[٥][٦].

* * *

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٩)، أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٤/ ٢٥٣) من حديث محمود بن لبيد ؓ.
(٢) أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٣٢٠)، والحاكم (٣/ ٣٠٣) من حديث معاذ ؓ .
(٣) أخرجه البخاري (١٣٥٧)، ومسلم (٩١/ ١٠٣١) من حديث أبي هريرة ؓ .
(٤) انظر «كنز العمال» (٣/ ٢٤) وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٢٦٩).
(٥) انظر «كنز العمال» (٣/ ٣٢٧).
(٦) «موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين» (١/ ٣٥٠).

بعض مظاهر الرياء

«اعلم أن للمرائي مقصودًا لا محالة، وإنما يرائي لإدراك مال، أو جاه، أو غرض من الأغراض، وله درجات:

أشدها: أن يكون مقصوده التمكن من معصية، كالذي يرائي بعباداته، ويظهر التقوى والورع، وغرضه أن يعرف بالأمانة، فيولَّى منصبًا، أو يسلم إليه تفرقة مال ليستأثر بما قدر عليه منه، أو يودع الودائع فيأخذها، أو يتوصل إلى التحبب بامرأة لفجور ونحوه، أو يحضر مجالس العلم والتذكير، وقصده النظر لأمرد، فهؤلاء أبغض المرائين إلى اللَّه تعالى؛ لأنهم جعلوا طاعة ربهم سُلَّمًا إلى معصيته، ويَقرُب منهم من يقترف جريمة وهو مصر عليها، فيُظهر التقوى؛ لينفي التهمة عن نفسه.

ثانيها: أن يكون غرضه نيل حظ من حظوظ الدنيا، من مال، أو نكاح امرأة جميلة، أو شريفة، كالذي يظهر العلم والعبادة ليرغب في تزويجه أو إعطائه، فهذا رياء محظور؛ لأنه طلب بطاعة اللَّه متاع الحياة الدنيا، ولكنه دون الأول.

الثالثة: أن لا يقصد نيل حظ، وإدراك مال، أو نكاح، ولكن يظهر عبادته؛ خوفًا من أن ينظر إليه بعين النقص، ولا يعد من الخاصة والزهاد، ويعتقد أنه من جملة العامة، كالذي يمشي مستعجلاً فيطلع عليه الناس فيحسن المشي ويترك العجلة؛ كيلا يقال: إنه من أهل اللهو والسهو، لا من أهل الوقار.

وكذلك يسبق إلى الضحك، أو يبدو منه المزاح، فيخاف أن ينظر إليه

بعين الاحتقار فيتبع ذلك بالاستغفار، وتنفس الصعداء، وإظهار الحزن، ويقول: ما أعظم غفلة الآدمي عن نفسه! واللَّه يعلم منه أنه لو كان في خلوة لما كان يثقل عليه ذلك، وإنما يخاف أن ينظر إليه بعين الاحتقار، لا بعين التوقير، وكالذي يرى جماعة يصلون التراويح ويتهجدون، أو يصومون الخميس والاثنين، أو يتصدقون، فيوافقهم؛ خيفة أن ينسب إلى الكسل، ويلحق بالعوام، ولو خلا بنفسه لكان لا يفعل شيئًا من ذلك، وكالذي يعطش يوم عرفة، أو عاشوراء فلا يشرب خوفًا من أن يعلم الناس أنه غير صائم، أو يُدعى إلى طعام فيمتنع ليُظن أنه صائم، وقد لا يصرح ب - :إني صائم. ولكن يقول: لي عذر. وهو جمع بين خبيثين، فإنه يري أنه صائم، ثم يري أنه مخلص.

● **وأجلى علاماته:**

أن يُسَرَّ باطلاع الناس على طاعته، فرب عبد يخلص في عمله، ولا يعتقد الرياء، بل يكرهه ويرده، ويتمم العمل كذلك، ولكن إذا اطلع عليه الناس سره ذلك وارتاح له، وروَّح ذلك عن قلبه شدة العبادة، وهذا السرور يدل على رياء خفي منه يرشح السرور، ولولا التفات القلب إلى الناس ما ظهر سروره عند اطلاع الناس، فلقد كان الرياء مستكنًا في القلب استكنان النار في الحجر، فأظهر منه اطلاع الخلق أثر الفرح والسرور، ثم إذا استشعر لذة السرور بالاطلاع، ولم يقابل ذلك بكراهية فيصير ذلك قوتًا وغذاء للعرق الخفي من الرياء، حتى يتحرك على نفسه حركة خفية، فيتقاضى تقاضيًا خفيًّا أن يتكلف سببًا يطلع عليه بالتعريض، أو بالشمائل، «كإظهار النحول والصفار وخفض الصوت ويبس الشفتين وجفاف الريق وآثار الدموع وغلبة

النعاس الدال على طول التهجد...».

وأما المخلص: فإنه لا يبالي كيف نظر الخلق إليه، فإن لم يكن له رغبة في الصوم وقد علم اللَّه ذلك منه، فلا يريد أن يعتقد غيره ما يخالف علم الله، فيكون ملبسًا، وإن كان له رغبة في الصوم لله قنع بعلم اللَّه تعالى ولم يشرك فيه غيره، وقد يخطر له أن في إظهاره اقتداء غيره به، وتحريك رغبة الناس فيه، وفيه مكيدة وغرور.

فهذه درجات الرياء، ومراتب أصناف المرائين، وجميعهم تحت مقت اللَّه وغضبه، ومن أشد المهلكات.

فإن قلت: فما نرى أحدًا ينفك عن السرور إذا عرفت طاعاته، فالسرور مذموم كله، أو بعضه محمود وبعضه مذموم؟

فنقول: السرور منقسم إلى محمود ومذموم:

فالمحمود مثل: أن يكون قصده إخفاء الطاعة والإخلاص لله، ولكن لما اطلع عليه الخلق علم أن اللَّه أطلعهم، وأظهر الجميل من أحواله، فيستدل به على حسن صنع اللَّه به وإلطافه به، إذ لا لطف أعظم من ستر القبيح، وإظهار الجميل، فيكون فرحه بجميل نظر اللَّه له، لا بحمد الناس وقيام المنزلة في قلوبهم، وقد قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ الآية [يونس: ٥٨].

ومثل: أن يظن رغبة المطلعين على الاقتداء به في الطاعة، فيتضاعف بذلك أجره، فيكون له أجر العلانية بما أظهر، وأجر السر بما قصده أولاً، ومن اقتدي به في طاعة فله مثل أجر أعمال المقتدين به، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، وتوقع ذلك جدير بأن يكون سبب السرور.

وأما السرور المذموم: فهو أن يكون فرحه لقيام منزلته في قلوب الناس حتى يمدحوه ويعظموه، ويقوموا بقضاء حوائجه، ويقابلوه بالإكرام»[١].

* * *

(١) «موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين» (١/ ٣٥٤).

بيان ما يحبط العمل من الرياء وما لا يحبط

«إذا عقد العبد العبادة على الإخلاص، ثم ورد عليه وارد الرياء، فلا يخلو إما أن يُرِدَ عليه بعد فراغه من العمل، أو قبل الفراغ:

فإن ورد بعد الفراغ سرور مجرد بالظهور من غير إظهار، فهذا لا يفسد العمل، إذ العمل قد تم على نعت الإخلاص سالمًا عن الرياء، إلا إذا ظهرت له بعده رغبة في الإظهار، فتحدث به وأظهره، فهذا مخوِّف، وفي الآثار والأخبار ما يدل على أنه محبط.

وأما إذا ورد وارد الرياء قبل الفراغ من العمل وكان عقد على الإخلاص، فإن كان مجرد سرور، فلا يؤثر في العمل، وإن كان رياء باعثًا على العمل، وختم العبادة به حبط أجره؛ لأن الواجب عليه أداء عمل خالص لوجه الله.

والخالص: ما لا يشوبه شيء، فلا يكون مؤديًا للواجب مع هذا الشوب.

وأما الرياء الذي يقارن حال العقد: كأن يبتدئ الصلاة على قصد الرياء، فإن استمر عليه حتى سلَّم، فلا خلاف في أنه يقضي، ولا يعتد بصلاته، وإن ندم عليه في أثناء ذلك واستغفر ورجع قبل التمام، فالأرجح أنه لا تنعقد صلاته مع قصد الرياء، فليستأنف؛ لأن باعثه في الرياء في ابتداء العقد دون امتثال الأمر، فلم ينعقد افتتاحه، فلم يصح ما بعده»[١].

* * *

---

(١) «موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين» (١/ ٣٥٧).

طريق معالجة الرياء

«وفي علاجه مقامان:

أحدهما: قلع عروقه وأصوله التي منها انشعابه.

والثاني: دفع ما يخطر منه في الحال.

المقام الأول: في قلع عروقه وأصوله: وأصله حب المنزلة والجاه، وإذا فُصِّل رجع إلى ثلاثة أصول: وهي حب لذة المحمدة، والفرار من ألم الذم، والطمع فيما في أيدي الناس، فهذه الثلاثة هي التي تحرك المرائي إلى الرياء.

وعلاجه: أن يعلم مضرة الرياء، وما يفوته من صلاح قلبه، وما يحرم عنه في الحال من التوفيق، وفي الآخرة من المنزلة عند اللَّه تعالى، وما يتعرض له من العقاب والمقت الشديد والخزي الظاهر، فمهما تفكر العبد في هذا الخزي، وقابل ما يحصل له من العباد والتزين لهم في الدنيا بما يفوته في الآخرة، وبما يحبط عليه من ثواب الأعمال، فإنه يسهل عليه قطع الرغبة عنه، كمن يعلم أن العسل لذيذ، ولكن إذا بان له أن فيه سمًّا، أعرض عنه.

ثم أي غرض له في مدحهم وإيثار ذم اللَّه لأجل حمدهم؟! ولا يزيده حمدهم رزقًا، ولا أجلاً، ولا ينفعه يوم فقره وفاقته، وهو يوم القيامة.

وأما الطمع فيما في أيديهم، فبأن يعلم أن اللَّه تعالى هو المسخِّر للقلوب بالمنع والإعطاء، وأن الخلق مضطرون فيه، ولا رازق إلا الله، ومن طمع في الخلق لم يخل من الذل والخيبة، وإن وصل إلى المراد لم يخل عن المنة والمهانة، فكيف يترك ما عند اللَّه برجاءٍ كاذب ووهمٍ فاسد؟! وقد يصيب

وقد يخطئ، وإذا أصاب فلا تفي لذته بألم منته ومذلته.

وأما ذمهم فلِمَ يحذر منه ولا يزيده ذمهم شيئًا، ما لم يكتب اللَّه عليه، ولا يعجل أجله، ولا يؤخر رزقه، ولا يجعله من أهل النار إن كان من أهل الجنة، ولا يبغضه إلى اللَّه إن كان محمودًا عند الله، فالعباد كلهم عجزة، لا يملكون لأنفسهم ضرًا ولا نفعًا، فإذا قرر في قلبه آفة هذه الأسباب وضررها فترت رغبته، وأقبل على اللَّه قلبه، والعاقل لا يرغب فيما يكثر ضرره ويقل نفعه. فهذا من الأدوية العلمية القالعة مغارس الرياء.

وأما الدواء العملي فهو أن يعوِّد نفسه إخفاء العبادات، وإغلاق الأبواب دونها، كما تغلق الأبواب دون الفواحش، فلا تنازعه نفسه إلى طلب علم غير اللَّه به، ومكايد النفس وخفاياها في هذا الفن لا تنحصر، ولا ينجيك منها إلا أن تخرج ما سوى اللَّه من قلبك، وتتجرد بالشفقة على نفسك بقية عمرك، ولا ترضى لها بالنار بسبب شهوات منغصة في أيام متقاربة.

المقام الثاني: في دفع العارض منه أثناء العبادة: وذلك لا بد أيضًا من تعلمه، فإن من جاهد نفسه بقلع مغارس الرياء، وقطع الطمع واستحقار مدح المخلوقين وذمهم، فقد لا يتركه الشيطان في أثناء العبادة بل يعارضه بخطرات الرياء، فإذا خطر له معرفة اطلاع الخلق دفع ذلك بأن قال: ما لك وللخلق علموا أو لم يعلموا واللَّه عالم بحالك؟ فأي فائدة في علم غيره؟! فإن هاجت الرغبة إلى لذة الحمد ذكر ما رسخ في قلبه من قبل آفة الرياء، وتعرضه للمقت الإلهي وخسرانه الأخروي»[١].

* * *

(١) «موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين» (١/ ٣٥٧).

بيان الخطأ في ترك الطاعات خوفًا من الرياء

«من الناس من يترك العمل خوفًا من أن يكون مرائيًا به، وذلك غلط، وموافقة للشيطان، وجر إلى البطالة، وترك للخير، فما دمت تجد باعثًا دينيًا على العمل، فلا تترك العمل، وجاهد خاطر الرياء، وألزم قلبك الحياء من اللَّه إذا دعتك نفسك إلى أن تستبدل بحمده حمد المخلوقين وهو مطلع على قلبك، بل إن قدرت على أن تزيد في العمل حياء من ربك وعقوبة لنفسك فافعل، فإن قال لك الشيطان: أنت مراء. فاعلم كذبه وخدعه، بما تصادف في قلبك من كراهية الرياء وإبائه، وخوفك منه، وحيائك من اللَّه تعالى، وإن لم يبق باعث ديني، بل تجرد باعث الرياء، فاترك العمل عند ذلك»[1].

* * *

(١) «موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين».

مرض الكبر وأسبابه

قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأعراف: ١٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [المؤمنون: ٤٦]، وقال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾ [غافر: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الحجر: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾ [لقمان: ١٨].

«اعلم أنه لا يتكبر إلا من استعظم نفسه، ولا يستعظمها إلا وهو يعتقد لها صفة من صفات الكمال، وجماع ذلك يرجع إلى كمال ديني أو دنيوي:

فالديني: هو العلم والعمل.

والدنيوي: هو النسب، والجمال، والقوة، والمال، وكثرة الأنصار، فهذه سبعة أسباب:

الأول: العلم وما أسرع الكبر إلى بعض العلماء، فلا يلبث أن يستشعر

في نفسه كمال العلم، فيستعظم نفسه، ويستحقر الناس، ويستجهلهم ويستخدم مَن خالطه منهم، وقد يرى نفسه عند اللَّه تعالى أعلى وأفضل منهم، فيخاف عليهم أكثر مما يخاف على نفسه، ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم.

وسبب كبره بالعلم أمران:

أحدهما: أن يكون اشتغاله بما يسمى علمًا، وليس علمًا في الحقيقة، فإن العلم الحقيقي ما يعرف به العبد ربه ونفسه، وخطر أمره في لقاء الله، والحجاب منه، وهذا يورث الخشية والتواضع دون الكبر؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨].

ثانيهما: أن يخوض في العلم وهو خبيث الدخلة، رديء النفس، سيئ الأخلاق، فإنه لم يشتغل أولاً بتهذيب نفسه وتزكية قلبه بأنواع المجاهدات، فبقي خبيث الجوهر، فإذا خاض في العلم، صادف العلم من قلبه منزلاً خبيثًا، فلم يطب ثمره، ولم يظهر في الخير أثره، وقد ضرب وهبٌ لهذا مثلاً، فقال: العلم كالغيث ينزل من السماء حلوًا صافيًا فتشربه الأشجار بعروقها، فتحوله على قدر طعومها، فيزداد المر مرارة، والحلو حلاوة، فكذلك العلم يحفظه الرجال، فتحوله على قدر هممها وأهوائها، فيزيد المتكبر كبرًا، والمتواضع تواضعًا؛ وهذا لأن من كانت همته الكبر وهو جاهل، فإذا حفظ العلم وجد ما يتكبر به، فازداد كبرًا، وإذا كان الرجل خائفًا مع علمه فازداد علمًا علم أن الحجة قد تأكدت عليه فيزداد خوفًا.

الثاني: العمل والعبادة، وليس يخلو عن رذيلة الكبر، واستمالة قلوب الناس الزهاد والعباد، فيترشح منهم الكبر في الدين والدنيا.

أما في الدنيا: فهو أنهم يتوقعون ذكرهم بالورع والتقوى، وتقديمهم على سائر الناس، وكأنهم يرون عبادتهم منة على الخلق.

وأما في الدين: فهو أن يرى الناس هالكين ويرى نفسه ناجيًا، وهو الهالك تحقيقًا، مهما رأى ذلك، قال ﷺ: «**إذا سمعتم الرجلَ يقولُ: هلك الناسُ. فهو أهلكُهم**»(١). وإنما قال ذلك لأن هذا القول منه يدل على أنه مزدرٍ بخلق الله، مغتر، آمن من مكره، غير خائف من سطوته، وكيف لا يخاف ويكفيه شرًّا احتقاره لغيره؟! قال ﷺ: «**كفى بالمرءِ شرًّا أن يحقِرَ أخاه المسلمَ**»(٢).

وكثير من العباد إذا استخف به مستخف، أو آذاه مؤذ؛ استبعد أن يغفر اللَّه له، ولا يشك في أنه صار ممقوتًا عند الله؛ وذلك لعظم قدر نفسه عنده، وهو جهل، وجمع بين الكبر والعجب، والاغترار بالله، وقد ينتهي الحمق والغباوة ببعضهم إلى أن يتحدى ويقول: سترون ما يجري عليه! وإذا أصيب بنكبة زعم أن ذلك من كراماته، وأن اللَّه ما أراد إلا الانتقام له، مع أنه يرى طبقات من الكفار يسبون اللَّه ورسوله، وعرف جماعة آذوا الأنبياء صلوات اللَّه عليهم، فمنهم من قتلهم، ومنهم من ضربهم، ثم إن اللَّه أمهل أكثرهم ولا يعاقبهم في الدنيا بل ربما أسلم بعضهم، فلم يصبه مكروه في الدنيا، ولا في الآخرة، أفيظن هذا الجاهل المغرور أنه أكرم على اللَّه من أنبيائه؟! وأنه قد انتقم له بما لم ينتقم لأنبيائه به!! ولعله في مقت اللَّه بإعجابه وكبره، وهو غافل عن هلاك نفسه، فهذه عقيدة المغترين.

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٢٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم (٤/ ١٩٨٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وأما الأكياس من العباد فيقولون ما كان يقوله السلف بعد انصرافه من عرفات: كنت أرجو الرحمة لجميعهم لولا كوني فيهم. فانظر إلى الفرق بين الرجلين، هذا يتقي اللَّه ظاهرًا وباطنًا، وهو وجِلٌ على نفسه مزدرٍ لعمله، وذاك يضمر من الرياء والكبر والغل ما هو ضحكة للشيطان به، ثم إنه يمتن على اللَّه بعمله.

ومن آثار الكبر في العابد أن يعبس وجهه، كأنه متنزه عن الناس، مستقذر لهم، وليس يعلم المسكين أن الورع ليس في الجبهة حتى تقطب، ولا في الرقبة حتى تطأطأ، ولا في الذيل حتى يضم، إنما الورع في القلوب؛ قال رسول اللَّه ﷺ: «**التقوى هاهنا**». وأشار إلى صدره[(١)]. فقد كان ﷺ أكرم الخلق وأتقاهم، وكان أوسعهم خلقًا، وأكثرهم بشرًا وتبسمًا وانبساطًا، كما قال تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ [الشعراء: ٢١٥].

الثالث: التكبر بالحسب والنسب، فالذي له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب، وإن كان أرفع منه عملاً وعلمًا، وقد يتكبر بعضهم فيأنف من مخالطة الناس ومجالستهم، وقد يجري على لسانه التفاخر به، فيقول لغيره: من أنت؟! ومن أبوك؟! فأنا فلان ابن فلان! ومع مثلي تتكلم!! وقد روي أن أبا ذر ﷺ قال: «**قاولت رجلاً عند النبي** ﷺ فقلت له: يا ابن السوداء، فغضب ﷺ وقال: «**يا أبا ذر، ليس لابنِ البيضاءِ على ابنِ السوداء فضلٌ**». فقال أبو ذر: فاضطجعت، وقلت للرجل: قم فطأ على خدي»[(٢)]. فانظر كيف نبهه ﷺ على أن ذلك جهل، وانظر كيف تاب وقلع من نفسه

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ١٩٨٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٢) أخرجه أخرجه البخاري (١/ ٢٠) بنحوه.

شجرة الكبر؛ إذ عرف أن العز لا يقمعه إلا الذل.

الرابع: التفاخر بالجمال، وذلك أكثر ما يجري بين النساء، ويدعو ذلك إلى التنقص والثلب والغيبة وذكر عيوب الناس.

الخامس: الكبر بالمال، وذلك يجري بين الأمراء والتجار في لباسهم وخيولهم ومراكبهم، فيستحقر الغنيُّ الفقير، ويتكبر عليه، وكل ذلك جهل بفضيلة الفقر وآفة الغِنى.

السادس: الكبر بالقوة وشدة البطش، والتكبر به على أهل الضعف.

السابع: التكبر بالأتباع والأنصار، والعشيرة والأقارب.

فهذه مجامع ما يتكبر به العباد بعضهم على بعض»[(١)].

* * *

(١) «موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين» (١/ ٣٦٦).

الطريق إلى معالجة الكبر

«اعلم أن الكبر من المهلكات، وإزالته فرض عين، ولا يزول بمجرد التمني، بل بالمعالجة، وفي معالجته مقامان:

أحدهما: قلع شجرته من مغرسها في القلب.

الثاني: دفع العارض منه بالأسباب التي قد يتكبر بها، المقام الأول: في استئصال أصله.

- **علاجه علمي وعملي، ولا يتم الشفاء إلا بمجموعهما.**

أما العلمي: فهو أن يعرف نفسه، ويعرف ربه تعالى، ويكفيه ذلك في إزالة الكبر، فإنه مهما عرف نفسه حق المعرفة علم أنه لا يليق به إلا التواضع، وإذا عرف ربه علم أنه لا تليق العظمة والكبرياء إلا بالله.

أما معرفته ربه وعظمته ومجده فالقول فيه يطول.

وأما معرفته نفسه فهو أيضًا يطول، ولكنا نذكر من ذلك ما ينفع في إثارة التواضع، ويكفيه أن يعرف معنى آية واحدة في كتاب الله، فإن في القرآن علم الأولين والآخرين لمن فتحت بصيرته؛ قال تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾ [عبس: ١٧ - ٢٢]، فقد أشارت الآية إلى أول خلق الإنسان، وإلى آخر أمره، وإلى وسطه، فلينظر الإنسان ذلك؛ ليفهم معنى هذه الآية.

أما أول الإنسان فهو أنه لم يكن شيئًا مذكورًا، وقد كان في حيز العدم دهورًا، وأي شيء أخسُّ من العدم؟! ثم خلقه اللَّه من أقذر الأشياء؛ إذ خلقه

من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، ثم جعله عظمًا، ثم كسا العظم لحمًا، فهذا بداية وجوده، فما صار شيئًا مذكورًا إلا وهو على أخس الأوصاف والنعوت؛ إذ لم يخلق في ابتدائه كاملاً، بل خلقه جمادًا ميتًا، لا يسمع ولا يبصر، ولا يحس ولا يتحرك، ولا ينطق ولا يبطش، ولا يدرك ولا يعلم، فبدأ بموته قبل حياته، وبضعفه قبل قوته، وبجهله قبل علمه، وبعماه قبل بصره، وبصممه قبل سمعه، وببكمه قبل نطقه، وبضلاله قبل هداه، وبفقره قبل غناه، وبعجزه قبل قدرته، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿١٩﴾﴾.

ثم امتن عليه فقال: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾﴾، وهذا إشارة إلى ما تيسر له في مدة حياته إلى الموت، وإنما خلقه من التراب الذليل الذي يوطأ بالأقدام، والنطفة القذرة بعد عدمها؛ ليعرف خسة ذاته، فيعرف بها نفسه، وإنما أكمل النعمة عليه؛ ليعرف بها ربه، ويعلم بها عظمته وجلاله، وأنه لا يليق الكبرياء إلا به جل وعلا، فمن كان هذا بدؤه، وهذه أحواله، فمن أين له البطر والكبرياء؟! والفخر والخيلاء! وهو على التحقيق أضعف الضعفاء، ولكن هذه عادة الخسيس، إذا رفع من خسته شمخ بأنفه وتعظم، وذلك لدلالة خسة أوله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، نعم، لو أكمله وفوض إليه أمره، وأدام له الوجود باختياره؛ لجاز أن يطغى وينسى المبدأ والمنتهى، ولكنه سلط عليه في دوام وجوده الأمراض والآفات، يهدم البعض من أجزائه البعض، شاء أم أبى، فيجوع كرهًا، ويعطش كرهًا، ويمرض كرهًا، ويموت كرهًا، لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، ولا خيرًا ولا شرًا، يريد أن يعلم الشيء فيجهله، ويريد أن يذكر الشيء فينساه، ويريد أن ينسى الشيء ويغفل

عنه، فلا يغفل عنه، ولا يأمن في لحظة من ليله أو نهاره أن يسلب سمعه وبصره، وتفلج أعضاؤه، ويختلس عقله، ويختطف روحه، ويسلب جميع ما يهواه في دنياه، فهو مضطر ذليل إن تُرك بقي، وإن اختطف فني، عبد مملوك لا يقدر على شيء من نفسه، ولا شيء من غيره، فأي شيء أذل منه لو عرف نفسه؟! وأنى يليق الكبر به لولا جهله؟! **فهذا وسط أحواله**، فليتأمله.

وأما آخره فهو الموت المشار إليه، بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾، ومعناه أنه يسلب روحه، وسمعه وبصره، وعلمه وقدرته، وحسه وإدراكه وحركته، فيعود جمادًا كما كان أول مرة، لا يبقى إلا شكل أعضائه وصورته، لا حس فيه ولا حركة، ثم يوضع في التراب، فيصير جيفة منتنة قذرة، ثم تبلى أعضاؤه، وتتفتت أجزاؤه، وتنخر عظامه، ويأكل الدود أجزاءه، فيصير روثًا في أجواف الديدان، ويكون جيفة يهرب منه الحيوان، ويستقذره كل إنسان، ويُهرب منه لشدة الإنتان.

وليته بقي كذلك، فما أحسنه لو ترك! لا بل يحييه بعد طول البِلى، ليقاسي شديد البَلا، فيخرج من قبره بعد جمع أجزائه المتفرقة، ويخرج إلى أهوال القيامة، فينظر إلى قيامة قائمة، وسماء مشققة ممزقة، وأرض مبدلة، وجبال مسيرة، ونجوم منكدرة، وشمس منكسفة، وأحوال مظلمة، وملائكة غلاظ شداد، وجهنم تزفر، وجنة ينظر إليها المجرم فيتحسر، ويرى صحائف منشورة، فيقال له: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ [الإسراء: ١٤] فيقول: وما هو؟ فيقال: كان قد وُكِّل بك في حياتك التي كنت تتكبر بنعيمها، وتفتخر بأسبابها، ملكان رقيبان، يكتبان عليك ما تنطق به، أو تعمله من قليل أو

كثير، وصغير وكبير، قد نسيت ذلك وأحصاه اللَّه عليك، فهلم إلى الحساب واستعد للجواب، أو تساق إلى دار العذاب، فينقطع قلبه فزعًا من هول هذا الخطاب، قبل أن تنتشر الصحيفة ويشاهد ما فيها من مخازيه، فإذا شاهده قال: ﴿يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩] فهذا آخر أمره، وهو معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾ [عبس: ٢٢].

فما لِمن هذا حاله والتكبر والتعظم؟! بل ما له وللفرح، فضلًا عن البطر؟!! فقد ظهر له أول حاله، ووسطه، ولو ظهر آخره - والعياذ باللَّه تعالى - ربما اختار أن يصير مع البهائم ترابًا، ولا يكون إنسانًا يسمع خطابًا، أو يَلقى عذابًا، فمن هذا حاله في العاقبة - إلا أن يعفو اللَّه عنه، وهو على شك من العفو - فكيف يفرح ويبطر؟! وكيف يتكبر ويتجبر؟! حقًّا؛ يكفيه ذلك حزنًا وخوفًا وإشفاقًا ومهانة وذلًّا، فهذا هو العلاج العلمي القامع لأصل الكبر.

وأما العلاج العملي: فهو التواضع لله بالفعل، ولسائر الخلق بالمواظبة على أخلاق المتواضعين، كما وصفناه من شمائل رسول اللَّه ﷺ ومن أحوال الصالحين، ولا يتم التواضع بعد المعرفة إلا بالعمل، ولذلك أمر العرب الذين تكبروا على اللَّه ورسوله بالإيمان وبالصلاة جميعًا، وقيل: الصلاة عماد الدين، وفي الصلاة أسرار لأجلها كانت عمادًا، ومن جملتها ما فيها من التواضع بالمثول قائمًا وبالركوع وبالسجود، وقد كان العرب قديمًا يأنفون من الانحناء، فكان يسقط من يد الواحد سوطه، فلا ينحني لأخذه، وينقطع شراك نعله فلا ينكس رأسه لإصلاحه، فلما كان السجود عندهم هو منتهى

الذلة والضعة؛ أُمروا به، لتنكسر بذلك خيلاؤهم، ويزول كبرهم، ويستقر التواضع في قلوبهم، وبه أمر سائر الخلق.

● **المقام الثاني: فيما يعرض من التكبر بالأسباب السبعة المتقدمة:**

الأول: النسب: فمن يعتريه الكبر من جهة النسب، فليداو قلبه بمعرفة أن هذا جهل؛ من حيث أنه تعزز بكمال غيره، ومن كان خسيسًا فمن أين تجبر خسته بكمال غيره، وبمعرفة نسبه الحقيقي، أعني أباه وجده، فإن أباه القريب نطفة قذرة، وجده البعيد تراب، وقد عرف اللَّه تعالى نسبه فقال: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾﴾ [السجدة: ٧، ٨]، فإذا كان أصله من التراب، وفصله من النطفة، فمن أين تأتيه الرفعة؟! فهذا هو النسب الحقيقي للإنسان، ومن عرفه لا يتكبر بالنسب.

الثاني: الكبر بالجمال، ودواؤه أن ينظر إلى باطنه نظر العقلاء، ولا ينظر إلى الظاهر نظر البهائم، ومهما نظر إلى باطنه رأى من القبائح ما يكدر عليه تعززه بالجمال، إذ خلق من أقذار ووكِّل به في جميع أجزائه الأقذار، وسيموت فيصير جيفة أقذر من سائر الأقذار، وجماله لا بقاء له، بل هو في كل حين يتصور أن يزول بمرض، أو سبب من الأسباب، فكم من وجوه جميلة قد سُمجت بهذه الأسباب، فمعرفة ذلك تنزع من القلب داء الكبر بالجمال لمن أكثر تأملها.

الثالث: الكبر بالقوة، ويمنعه من ذلك أن يعلم ما سلط اللَّه عليه من العلل والأمراض، وأنه لو توجع عرق واحد في يده لصار أعجز من كل عاجز، أو أن شوكة لو دخلت في رجله لأعجزته، وأنَّ حُمَّى يوم تحلل من

قوته ما لا ينجبر في مدة، فمن لا يطيق شوكة، ولا يقاوم بقة، فلا ينبغي أن يفتخر بقوته، ثم إن قوي الإنسان فلا يكون أقوى من حمار، أو بقرة، أو فيل، أو جمل، وأي افتخار في صفة يسبقك بها البهائم!!

السبب الرابع، والخامس: الغنى وكثرة المال، وفي معناه كثرة الأتباع والأنصار والتكبر بالمناصب، والولايات، وكل ذلك تكبر بمعنى خارج عن ذات الإنسان، وهذا أقبح أنواع الكبر، فلو ذهب ماله أو احترقت داره؛ لعاد ذليلًا، وكم في اليهود من يزيد عليه في الغنى والثروة والتجمل، فأفٍّ لشرف يسبقه به يهودي، أو يأخذه سارق في لحظة فيعود ذليلاً مفلسًا.

السادس: الكبر بالعلم، وهو أعظم الآفات، وعلاجه بأمرين:

أحدهما: أن يعلم أن حجة اللَّه على أهل العلم آكد، وأنه يحتمل من الجاهل ما لا يحتمل عُشره من العالم، فإن من عصى اللَّه تعالى عن معرفة وعلم، فجنايته أفحش؛ إذ لم يقض حق نعمة اللَّه عليه في العلم، ولذلك قال ﷺ: «**يؤتَى بالعالِمِ يومَ القيامةِ فيُلقى في النارِ، فتَندَلِقُ أقتابُه، فيدورُ بها كما يدورُ الحمارُ بالرَّحا، فيُطِيفُ به أهلُ النارِ فيقولون: ما لك؟ فيقول: كنتُ آمرُ بالخيرِ ولا آتيه، وأنهى عن الشرِّ وآتيه**»[(١)].

وقد مثل اللَّه سبحانه وتعالى من يعلم ولا يعمل بالحمار والكلب، فقال ﷻ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥] أراد به علماء اليهود. وقال في بلعم بن باعوراء: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ ... حتى بلغ: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٧٦٧٤)، من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما.

قال ابن عباس رضي اللَّه عنهما: «**أوتي بَلْعَمُ كتابًا فأخلد إلى شهوات الأرض**». أي: سكن حبه إليها، فمثله بالكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث، أي: سواء آتيته الحكمة أو لم أوته لا يدع شهوته، ويكفي العالم هذا الخطر، فأي عالم لم يتبع شهوته وأي عالم لم يأمر بالخير الذي لا يأتيه؟ فمهما خطر للعالم عظم قدره بالإضافة إلى الجاهل فليتفكر في الخطر العظيم الذي هو بصدده، فإن خطره أعظم من خطر غيره، كما أن قدره أعظم من قدر غيره، فهذا بذاك.

وهو كالملك المخاطر بروحه في ملكه لكثرة أعدائه فإنه إذا أخذ وقهر اشتهى أن يكون قد كان فقيراً، فكم من عالم يشتهي في الآخرة سلامة الجهال، والعياذ باللَّه منه.

فهذا الخطر يمنع من التكبر، فإنه إن كان من أهل النار فالخنزير أفضل منه، فكيف يتكبر مَن هذا حاله؟

فلا ينبغي أن يكون العالم عند نفسه أكبر من الصحابة رضوان اللَّه عليهم، وقد كان بعضهم يقول: يا ليتني لم تلدني أمي! ويأخذ الآخر تبنة من الأرض ويقول: يا ليتني كنت هذه التبنة! ويقول الآخر: ليتني كنت طيراً أُوكَل! ويقول الآخر: ليتني لم أك شيئاً مذكوراً!

كل ذلك خوفاً من خطر العاقبة، فكانوا يرون أنفسهم أسوأ حالًا من الطير ومن التراب.

ومهما أطال فكره في الخطر الذي هو بصدده زال بالكلية كبره، ورأى نفسه كأنه شر الخلق.

ومثاله مثال عبد أمره سيده بأمور فشرع فيها، فترك بعضها، وأدخل

النقصان في بعضها، وشك في بعضها أنه هل أداها على ما يرتضيه سيده أم لا؟ فأخبره مخبر أن سيده أرسل إليه رسولًا يخرجه من كل ما هو فيه عرياناً ذليلًا، ويلقيه على بابه في الحر والشمس زماناً طويلًا، حتى إذا ضاق عليه الأمر وبلغ به المجهود أمر برفع حسابه، وفتش عن جميع أعماله، قليلها وكثيرها، ثم أمر به إلى سجن ضيق، وعذاب دائم، لا يروح عنه ساعة، وقد علم أن سيده قد فعل بطوائف من عبيده مثل ذلك، وعفا عن بعضهم، وهو لا يدري من أي الفريقين يكون؟ فإذا تفكر في ذلك انكسرت نفسه وذل، وبطل عزه وكبره، وظهر حزنه وخوفه، ولم يتكبر على أحد من الخلق، بل تواضع؛ رجاء أن يكون هو من شفعائه عند نزول العذاب، فكذلك العالم إذا تفكر فيما ضيعه من أوامر ربه بجنايات على جوارحه، وبذنوب في باطنه: من الرياء والحقد والحسد والعجب والنفاق وغيره، وعلم بما هو بصدده من الخطر العظيم فارقه كبره لا محالة.

الأمر الثاني: أن العالم يعرف أن الكبر لا يليق إلا باللَّه ﷻ وحده، وأنه إذا تكبر صار ممقوتاً عند اللَّه بغيضاً، وقد أحب اللَّه منه أن يتواضع، وقال له: إن لك عندي قدراً ما لم تر لنفسك قدراً، فإن رأيت لنفسك قدراً فلا قدر لك عندي. فلا بد وأن يكلف نفسه ما يحبه مولاه منه.

وهذا يزيل التكبر عن قلبه، وإن كان يستيقن أنه لا ذنب له، مثلًا، أو تصور ذلك. وبهذا زال التكبر عن الأنبياء عليهم السلام؛ إذ علموا أن من نازع اللَّه تعالى رداء الكبرياء قصمه، وقد أمرهم اللَّه بأن يصغروا أنفسهم حتى يعظم عند اللَّه محلهم، فهذا أيضاً مما يبعثه على التواضع لا محالة.

فإن قلت: فكيف يتواضع للفاسق المتظاهر بالفسق والمبتدع، وكيف

يرى نفسه دونهم وهو عالم عابد، وكيف يجهل فضل العلم والعبادة عند اللَّه تعالى، وكيف يغنيه أن يخطر بباله خطر العلم وهو يعلم أن خطر الفسق والمبتدع أكثر؟

فاعلم أن ذلك إنما يمكن بالتفكر في خطر الخاتمة، بل لو نظر إلى كافر لم يمكنه أن يتكبر عليه؛ إذ يتصور أن يسلم الكافر فيختم له بالإيمان، ويضل هذا العالم فيختم له بالكفر، والكبير من هو كبير عند اللَّه في الآخرة، والكلب والخنزير أعلى رتبة ممن هو عند اللَّه من أهل النار وهو لا يدري ذلك، فكم من مسلم نظر إلى عمر ﷺ قبل إسلامه فاستحقره وازدراه لكفره، وقد رزقه اللَّه الإسلام وفاق جميع المسلمين إلا أبا بكر وحده! والعواقب مطوية عن العباد ولا ينظر العاقل إلا إلى العاقبة، وجميع الفضائل في الدنيا تراد للعاقبة.

فإذن من حق العبد أن لا يتكبر على أحد؛ إن نظر إلى جاهل قال: هذا عصى اللَّه بجهل وأنا عصيته بعلم، فهو أعذر مني. وإن نظر إلى عالم قال: هذا قد علم ما لم أعلم فكيف أكون مثله؟! وإن نظر إلى كبير هو أكبر منه سناً قال: هذا قد أطاع اللَّه قبلي فكيف أكون مثله؟! وإن نظر إلى صغير قال: إني عصيت اللَّه قبله فكيف أكون مثله؟! وإن نظر إلى مبتدع أو كافر قال: ما يدريني لعله يختم له بالإسلام ويختم لي بما هو عليه الآن؟! فليس دوام الهداية إليَّ، كما لم يكن ابتداؤها إليَّ.

فبملاحظة الخاتمة يقدر على أن ينفي الكبر عن نفسه، وكل ذلك بأن يعلم أن الكمال في سعادة الآخرة والقرب من الله، لا فيما يظهر في الدنيا مما لا بقاء له، ولعمري هذا الخطر مشترك بين المتكبر والمتكبر عليه! ولكن

حق على كل واحد أن يكون مصروف الهمة إلى نفسه، مشغول القلب بخوفه لعاقبته، لا أن يشتغل بخوف غيره، فإن الشفيق بسوء الظن مولع، وشفقة كل إنسان على نفسه، فإذا حبس جماعة في جناية ووعدوا بأن تضرب رقابهم لم يتفرغوا لتكبر بعضهم على بعض، وإن عمهم الخطر؛ إذ شغل كل واحد نفسه عن الالتفات إلى هم غيره، حتى كأن كل واحد هو وحده في مصيبته وخطره.

فإن قلت: فكيف أبغض المبتدع في الله، وأبغض الفاسق، وقد أمرت ببغضهما، ثم مع ذلك أتواضع لهما، والجمع بينهما متناقض؟!

فاعلم أن هذا أمر مشتبه يلتبس على أكثر الخلق؛ إذ يمتزج غضبك لله في إنكار البدعة والفسق بكبر النفس والإدلال بالعلم والورع، فكم من عابد جاهل وعالم مغرور إذا رأى فاسقاً جلس بجنبه أزعجه من عنده وتنزه عنه بكبر باطن في نفسه، وهو ظان أنه قد غضب لله؛ كما وقع لعابد بني إسرائيل مع خليعهم، وذلك لأن الكبر على المطيع ظاهر كونه شراً والحذر منه ممكن، والكبر على الفاسق والمبتدع يشبه الغضب لله، وهو خير، فإن الغضبان أيضاً يتكبر على من غضب عليه، والمتكبر يغضب، وأحدهما يثمر الآخر ويوجبه، وهما ممتزجان ملتبسان، لا يميز بينهما إلا الموفقون.

والذي يخلصك من هذا أن يكون الحاضر على قلبك عند مشاهدة المبتدع أو الفاسق، أو عند أمرهما بالمعروف ونهيهما عن المنكر، ثلاثة أمور:

أحدها: التفاتك إلى ما سبق من ذنوبك وخطاياك ليصغر عند ذلك قدرك في عينك.

والثاني: أن تكون ملاحظتك لما أنت متميز به من العلم واعتقاد الحق

والعمل الصالح من حيث إنها نعمة من اللَّه تعالى عليك، فله المنة فيه لا لك، فترى ذلك منه حتى لا تعجب بنفسك، وإذا لم تعجب لم تتكبر.

والثالث: ملاحظة إبهام عاقبتك، وعاقبتك أنه ربما يختم لك بالسوء ويختم له بالحسنى، حتى يشغلك الخوف عن التكبر عليه.

فإن قلت: فكيف أغضب مع هذه الأحوال؟

فأقول: تغضب لمولاك وسيدك، إذ أمرك أن تغضب له لا لنفسك، وأنت في غضبك لا ترى نفسك ناجياً وصاحبك هالكاً، بل يكون خوفك على نفسك بما علم اللَّه من خفايا ذنوبك أكثر من خوفك عليه، مع الجهل بالخاتمة.

وأعرفك ذلك بمثال تعلم أنه ليس من ضرورة الغضب لله أن تتكبر على المغضوب عليه وترى قدرك فوق قدره، فأقول: إذا كان للملك غلام وولد هو قرة عينه، وقد وكل الغلام بالولد ليراقبه، وأمره أن يضربه مهما أساء أدبه واشتغل بما لا يليق به، ويغضب عليه. فإن كان الغلام محبًّا مطيعًا لمولاه فلا يجد بدًّا أن يغضب مهما رأى ولده قد أساء الأدب، وإنما يغضب عليه لمولاه ولأنه أمره به، ولأنه يريد التقرب بامتثال أمره إليه، ولأنه جرى من ولده ما يكره مولاه، فيضرب ولده ويغضب عليه من غير تكبر عليه، بل هو متواضع، له يرى قدره عند مولاه فوق قدر نفسه، لأن الولد أعز - لا محالة - من الغلام.

فإذن، ليس من ضرورة الغضب التكبر وعدم التواضع؛ فكذلك يمكنك أن تنظر إلى المبتدع والفاسق وتظن أنه ربما كان قدرهما في الآخرة عند اللَّه أعظم، لما سبق لهما من الحسنى في الأزل، ولما سبق لك من سوء القضاء

في الأزل، وأنت غافل عنه، ومع ذلك فتغضب بحكم الأمر؛ محبة لمولاك، إذ جرى ما يكرهه، مع التواضع لمن يجوز أن يكون عنده أقرب منك في الآخرة؛ فهكذا يكون بعض العلماء الأكياس، فينضم إليه الخوف والتواضع.

وأما المغرور فإنه يتكبر ويرجو لنفسه أكثر مما يرجوه لغيره، مع جهله بالعاقبة، وذلك غاية الغرور.

فهذا سبيل التواضع لمن عصى الله، أو اعتقد البدعة، مع الغضب عليه ومجانبته بحكم الأمر.

السبب السابع: التكبر بالورع والعبادة: وذلك أيضاً فتنة عظيمة على العباد، وسبيله أن يلزم قلبه التواضع لسائر العباد، وهو أن يعلم أن من يتقدم عليه بالعلم لا ينبغي أن يتكبر عليه كيفما كان؛ لما عرفه من فضيلة العلم، وقد قال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الزمر: ٩]. وقال ﷺ: «**فضلُ العالمِ على العابدِ كفضلي على أدنى رجلٍ مِن أصحابي**»[(١)]. إلى غير ذلك مما ورد في فضل العلم.

فإن قال العابد: ذلك العالم عامل بعلمه وهذا عالم فاجر؟

فيقال له: أما عرفت أن الحسنات يذهبن السيئات، وكما أن العلم يمكن أن يكون حجة على العالم فكذلك يمكن أن يكون وسيلة له وكفارة لذنوبه، وكل واحد منهما ممكن، وقد وردت الأخبار بما يشهد لذلك، وإذا كان هذا الأمر غائباً عنه لم يجز له أن يحتقر عالماً، بل يجب عليه التواضع له.

فإن قلت: فإن صح هذا فينبغي أن يكون للعالم أن يرى نفسه فوق

---

(١) أخرجه الترمذي (٧٦٦٢)، من حديث أبي أمامة رضي الله عنهما، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٦٦٢).

العابد؛ لقوله عليه السلام «**فضل العالم على العابد كفضلي على أدني رجل من أصحابي**»؟

فاعلم أن ذلك كان ممكناً لو علم العالم عاقبة أمره، وخاتمة الأمر مشكوك فيها، فيحتمل أن يموت بحيث يكون حاله عند اللَّه أشد من حال الجاهل الفاسق؛ لذنب واحد كان يحسبه هيناً وهو عند اللَّه عظيم؛ وقد مقته به، وإذا كان هذا ممكناً كان على نفسه خائفاً، فإذا كان كل واحد من العابد والعالم خائفاً على نفسه، وقد كلف أمر نفسه لا أمر غيره، فينبغي أن يكون الغالب عليه في حق نفسه الخوف، وفي حق غيره الرجاء، وذلك يمنعه من التكبر بكل حال.

فهذا العابد مع العالم، فأما مع غير العالم فهم منقسمون في حقه إلى: مستورين وإلى مكشوفين:

فينبغي أن لا يتكبر على المستور؛ فلعله أقل عنه ذنوباً، وأكثر منه عبادة، وأشد منه حباً لله.

وأما المكشوف حاله إن لم يظهر لك من الذنوب إلا ما تزيد عليه ذنوبك في طول عمرك، فلا ينبغي أن تتكبر عليه، ولا يمكن أن تقول هو أكثر مني ذنباً، لأن عدد ذنوبك في طول عمرك وذنوب غيرك في طول العمر لا تقدر على إحصائها حتى تعلم الكثرة، نعم، يمكن أن تعلم أن ذنوبه أشد كما لو رأيت منه القتل والشرب والرياء، ومع ذلك فلا ينبغي أن تتكبر عليه؛ إذ ذنوب القلب: من الكبر والحسد، والرياء والغل، واعتقاد الباطل، والوسوسة في صفات اللَّه تعالى، وتخيل الخطأ في ذلك، كل ذلك شديد عند الله، فربما جرى عليك في باطنك من خفايا الذنوب ما صرت به عند

اللَّه ممقوتاً، وقد جرى للفاسق الظاهر الفسق من طاعات القلوب: من حب الله، وإخلاص، وخوف، وتعظيم، ما أنت خال عنه، وقد كفَّر اللَّه بذلك عن سيئاته، فينكشف الغطاء يوم القيامة فتراه فوق نفسك بدرجات، فهذا ممكن، والإمكان البعيد فيما عليك ينبغي أن يكون قريباً عندك، إن كنت مشفقاً على نفسك، فلا تتفكر فيما هو ممكن لغيرك بل فيما هو مخوف في حقك، فإنه لا تزر وازرة وزر أخرى، وعذاب غيرك لا يخفف شيئاً من عذابك، فإذا تفكرت في هذا الخطر كان عندك شغل شاغل عن التكبر وعن أن ترى نفسك فوق غيرك.

وقد قال وهب بن منبه: «**ما تم عقل عبد حتى يكون فيه عشر خصال**». فعد تسعة حتى بلغ العاشرة، فقال: «العاشرة! وما العاشرة! بها شاد مجده، وبها علا ذكره: أن يرى الناس كلهم خيرًا منه، وإنما الناس عنده فرقتان: فرقة هي أفضل منه وأرفع، وفرقة هي شر منه وأدنى، فهو يتواضع للفرقتين جميعًا بقلبه، وإن رأى مَن هو خير منه سره ذلك، وتمنى أن يلحق به، وإن رأى من هو شر منه، قال: لعل هذا ينجو، وأهلك أنا. فلا تراه إلا خائفًا من العاقبة، ويقول: لعل بِرَّ هذا باطن، فذلك خير له، ولا أدري لعل فيه خُلقًا كريمًا بينه وبين اللَّه فيرحمه اللَّه ويتوب عليه، ويختم له بأحسن الأعمال، وبِرِّي ظاهر، فذلك شر لي. فلا يأمن فيما أظهره من الطاعة، أن يكون دخلها الآفات فأحبطتها». قال: «**فحينئذ كمل عقله وساد أهل زمانه**».

والذي يدل على فضيلة هذا الإشفاق قوله تعالى: ﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾[المؤمنون: ٦٠]؛ أي: أنهم يؤتون الطاعات وهم على وجل عظيم من قبولها، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم

مُّشۡفِقُونَ ﴿٥٧﴾ [المؤمنون: ٥٧] ، وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ﴾ [الطُّور: ٢٦]، وقد وصف اللَّه تعالى الملائكة عليهم السلام - مع تقدسهم عن الذنوب، ومواظبتهم على العبادات - بالدءوب على الإشفاق، فقال تعالى مخبرًا عنهم: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾[الأنبياء: ٢٨] فمتى زال الإشفاق والحذر غلب الأمن من مكر الله، وذلك يوجب الكبر، وهو سبب الهلاك، فالكبر دليل الأمن، والأمن مهلك، والتواضع دليل الخوف، وهو مسعد، فإذن ما يفسده العابد بإضمار الكبر واحتقار الخلق أكثر مما يصلحه بظاهر الأعمال.

فهذه معارف بها يُزال داء الكبر عن القلب، إلا أن النفس بعد هذه المعرفة قد تضمر التواضع، وتدعي البراءة من الكبر، وهي كاذبة، فإذا وقعت الواقعة عادت إلى طبعها ونسيت وعدها، فعلى هذا لا ينبغي أن يكتفى في المداواة بمجرد المعرفة، بل ينبغي أن تكمل بالعمل، وتجرب بأفعال المتواضعين في مواقع هيجان الكبر من النفس، وبيانه أن يمتحن النفس بالامتحانات الدالة على استخراج ما في الباطن، والامتحانات كثيرة، فمنها:

وهو أولها: أن يناظر في مسألة مع واحد من أقرانه، فإن ظهر شيء من الحق على لسان صاحبه فثقل عليه قبوله والانقياد له والشكر له على تنبيهه، فذلك يدل على أن فيه كبرًا دفينًا، فليتق اللَّه فيه، ويشتغل بعلاجه، أما من حيث العلم فبأن يُذكِّر نفسه خسة نفسه، وخطر عاقبته، وأن الكبر لا يليق إلا باللَّه تعالى، وأما العمل فبأن يكلف نفسه ما ثقل عليه من الاعتراف بالحق،

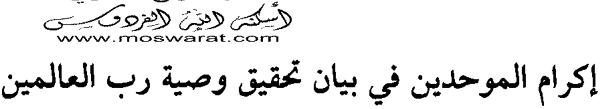
وأن يطلق اللسان بالحمد والثناء، ويقر على نفسه بالعجز ويشكره على الاستفادة، ويقول: ما أحسن ما فطنتَ له، وقد كنتُ غافلاً عنه، فجزاك اللَّه خيرًا كما نبهتني له، فالحكمة ضالة المؤمن، فإذا وجدها ينبغي أن يشكر من دله عليها. فإذا واظب على ذلك مرات متوالية صار ذلك له طبعًا، وسقط ثقل الحق عن قلبه، وطاب له قبوله، ومهما ثقل عليه الثناء على أقرانه بما فيهم ففيه كبر.

الامتحان الثاني: أن يجتمع مع الأقران والأمثال في المحافل، ويقدمهم على نفسه ويمشي خلفهم، ويجلس في الصدور تحتهم، فإن ثقل ذلك عليه، فهو متكبر، فليواظب عليه تكلفًا حتى يسقط عنه ثقله، فبذلك يزايله الكبر.

وهاهنا للشيطان مكيدة: وهو أن يجلس في صف النعال، أو يُجلس بينه وبين الأقران بعضَ الأرذال، فيظن أن ذلك تواضع، وهو عين الكبر؛ فإن ذلك يخف على نفوس المتكبرين، إذ يوهمون أنهم تركوا مكانهم بالاستحقاق والتفضل، فيكون قد تكبر بإظهار التواضع أيضًا، بل ينبغي أن يقدم أقرانه ويجلس بجنبهم ولا ينحط عنهم إلى صف النعال، فذلك هو الذي يخرج خبث الكبر من الباطن.

الامتحان الثالث: أن يجيب دعوة الفقير، ويمر إلى السوق في حاجة الرفقاء والأقارب، فإن ثقل ذلك عليه فهو كبر، فإن هذه الأفعال من مكارم الأخلاق، والثواب عليها جزيل، فنفور النفس عنها ليس إلا لخبث في الباطن، فليشتغل بإزالته بالمواظبة عليه مع تذكر جميع ما ذكرناه من المعارف التي تزيل داء الكبر»[1].

(١) «موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين» (١/ ٣٧٠).



العجب وآفاته

«**اعلم أن العجب مذموم في كتاب اللَّه تعالى وسنة رسوله ﷺ**؛ قال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [القصص: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الزمر: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥]، ذكر ذلك في معرض الإنكار، وقال ﷻ: ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾ [الحشر: ٢]، فرد على الكفار في إعجابهم بحصونهم وشوكتهم، وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤]، وهذا أيضًا يرجع إلى العجب بالعمل، وقد يعجب الإنسان بعمل هو مخطئ فيه، كما يعجب بعمل هو مصيب فيه، وقال ﷺ: «**ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه**»[(١)].

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «**الهلاك في اثنتين: القنوط، والعجب**». وإنما جمع بينهما: ؛ لأن السعادة لا تنال إلا بالسعي والطلب، والجد والتشمير، والقانط لا يسعى ولا يطلب، والمعجب يعتقد أنه قد سعد، وقد ظفر بمراده فلا يسعى، وقد قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النَّجم: ٣٢]؛ أي: لا تعتقدوا أنها بارة، وقال تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ

(١) أخرجه بن شهاب في «مسنده» (١/ ٢١٥)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٥/ ٣٢٨).

﴿وَٱلۡأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، والمن نتيجة استعظام الصدقة، واستعظام العمل هو العجب»[١].

* * *

بيان آفة العجب

«اعلم أن آفات العجب كثيرة، فإن العجب يدعو إلى الكبر؛ لأنه أحد أسبابه، فيتولد من العجب الكبر، ومن الكبر الآفات الكثيرة التي لا تخفى، هذا مع العباد، وأما مع اللَّه تعالى: فالعجب يدعو إلى نسيان الذنوب وإهمالها، فبعض ذنوبه لا يذكرها، لظنه أنه مستغنٍ عن تفقدها، وما يتذكره منها فيستصغره فلا يجتهد في إزالته، بل يظن أنه يغفر له، وأما العبادات والأعمال فإنه يستعظمها، ويمن على اللَّه بفعلها، وينسى نعمة اللَّه عليه بالتوفيق والتمكين منها، ثم إذا أعجب بها عمي عن آفاتها، وذلك أن المعجب يغتر بنفسه وبرأيه، ويأمن مكر اللَّه وعذابه، ويظن أنه عند اللَّه بمكان، وأن له عند اللَّه منة وحقًّا بأعماله التي هي نعمة من نعمه، ويخرجه العجب إلى أن يثني على نفسه، ويحمدها، ويزكيها، وإن أعجب برأيه وعمله وعقله منع ذلك من الاستفادة ومن الاستشارة والسؤال، فيستبد بنفسه ورأيه، ويستنكف مِن سؤال مَن هو أعلم منه، وربما يعجب بالرأي الخطأ الذي خطر له، فيفرح بكونه من خواطره، ولا يفرح بخواطر غيره، فيصر عليه، ولا يسمع نصح ناصح، ولا وعظ واعظ، بل ينظر إلى غيره بعين

(١) «موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين» (١/ ٣٧٧).

الاستجهال، ويصر على خطاياه.

فهذا وأمثاله من آفات العجب، فلذلك كان من المهلكات، ومن أعظم آفاته أن يغتر في السعي لظنه أنه قد فاز، وأنه قد استغنى، وهو الهلاك الصريح، نسأل اللَّه العظيم حسن التوفيق لطاعته»[١].

* * *

بيان علاج العجب

«اعلم أن علاج كل علة هو مقابلة سببها بضده، وعلة العجب الجهل المحض، فعلاجه المعرفة المضادة لذلك الجهل، وذلك أن المعجب بجماله أو قوته أو نسبه وما لا يدخل تحت اختياره، إنما يعجب بما ليس إليه؛ لأن كل ذلك من فضل الله، وإنما هو محل لفيضان جوده تعالى، فله الشكر والمنة، لا لك، إذ أفاض على عبده ما لا يستحق، وآثره به على غيره، من غير سابقة ووسيلة، فإذن منشأ العجب بذلك هو الجهل، وإزالة ذلك بالعلم المحقق بأن العبد وعمله وأوصافه كلها من عند اللَّه تعالى؛ نعمة ابتدأه بها قبل الاستحقاق، وهذا ينفي العجب والإدلال، ويورث الخضوع والشكر، والخوف من زوال النعمة، قال اللَّه تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١]، قال النبي ﷺ لأصحابه وهو خير الناس: «**ما منكم مِن أحدٍ ينجيه عملُه**». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال:

(١) «موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين» (٣/ ٣٧٠).

«**ولا أنا، إلا أن يتغمدنيَ اللهُ برحمتِه**»[١]. ومهما غلب الخوف على القلب شغله خشية سلب هذه النعمة عن الإعجاب بها، وأنى لذي بصيرة أن يعجب بعمله، ولا يخاف على نفسه؟! فإذن هذا هو العلاج القامع لمادة العجب من القلب.

ومن ذلك العجب بالرأي الخطأ؛ قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ﴾ [فاطر: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤]، وقد أخبر رسول اللَّه صلوات اللَّه عليه أن بذلك هلكت الأمم السالفة؛ إذ افترقت فرقًا وكل معجب برأيه، ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣]، وعلاجه أن يتهم رأيه أبدًا، فلا يغتر به إلا أن يشهد له قاطع من كتاب، أو سنة، أو دليل عقل صحيح، جامع لشروط الأدلة، ولن يعرف الإنسان أدلة الشرع والعقل وشروطها، ومكامن الغلط فيها، إلا بقريحة تامة، وعقل ثاقب، وجد وتشمير في الطلب، وممارسة للكتاب والسنة، ومجالسة لأهل العلم طول العمر، ومدارسة للعلوم، ومع ذلك فلا يؤمن عليه الغلط في بعض الأمور، والصواب لمن لم يتفرغ لاستغراق عمره في العلم، أن لا يخوض في المذاهب، بل يشتغل بالتقوى، واجتناب المعاصي، وأداء الطاعات، والشفقة على المسلمين نسأله تعالى العصمة من الضلال، ونعوذ به من الاغترار بخيالات الجهال»[٢].

* * *

---

(١) أخرجه البخاري (٥/ ٢٣٧٣) ومسلم (٤/ ٢١٧١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) «موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين» (١/ ٣٧٩).



ذم الحسد وأسبابه

قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَـٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ [النساء: ٥٤].

«**اعلم أن الحسد أيضًا من نتائج الحقد الذميم، وللحسد من الفروع الذميمة ما لا يكاد يحصى، وقد ورد في ذمه أخبار كثيرة، منها قوله ﷺ: «الحسدُ يأكلُ الحسناتِ كما تأكلُ النارُ الحطبَ»**[١]. وقوله: «**لا تحاسدوا، ولا تقاطعوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عبادَ اللهِ إخوانًا كما أمركم اللهُ**»[٢].

ومن الآثار قول بعض السلف: «إن أول خطيئة كانت هي الحسد؛ حسد إبليس آدم عليه السلام على رتبته، فأبى أن يسجد له، فحمله الحسد على المعصية».

وعن ابن سيرين رحمه الله: «ما حسدت أحدًا على شيء من أمر الدنيا؛ لأنه إن كان من أهل الجنة فكيف أحسده على أمر الدنيا، وهي حقيرة في الجنة، وإن كان من أهل النار فكيف أحسده على أمر الدنيا، وهو يصير إلى النار».

وقال بعضهم: «الحاسد لا ينال من المجالس إلا مذمة وذلّاً، ولا ينال من الملائكة إلا لعنة وبغضًا، ولا ينال من الخلق إلا جزعًا وغمًّا، ولا ينال عند الموقف إلا فضيحة ونكالاً».

---

(١) أخرجه أبو داود (٤/ ٢٧٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٦/ ٢٢٥٣)، ومسلم (٤/ ١٩٨٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

- **حقيقة الحسد وحكمه وأقسامه:**

الحسد نوعان:

أحدهما: كراهة النعمة، وحب زوالها عن المنعَم عليه.

وثانيهما: عدم محبة زوالها، وتمني مثلها، وهذا يسمى غبطة، فالأول حرام بكل حال إلا نعمة أصابها فاجر، وهو يستعين بها على محرم، كإفساد وإيذاء، فلا يضر محبة زوالها عنه من حيث هي آلة الفساد.

ويدل على تحريم الحسد الأخبار التي نقلناها.

وإن هذه الكراهة تَسَخُّطٌ لقضاء اللَّه في تفضيل بعض عباده على بعض، وذلك لا عذر فيه ولا رخصة، وأي معصية تزيد على كراهتك لراحة مسلم من غير أن يكون لك منه مضرة؟! وإلى هذا أشار القرآن بقوله: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ [آل عمران: ١٢٠]، وهذا الفرح شماتة، والحسد والشماتة يتلازمان، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾ [الحشر: ٩]؛ أي: لا تضيق صدورهم به ولا يغتمون، فأثنى عليهم بعدم الحسد.

وأما المنافسة فليست بحرام، بل قد تكون مطلوبة، قال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطَّففين: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الحديد: ٢١]، وقال ﷺ: «**لا حسَد إلا في اثنتين: رجلٌ آتاه اللهُ مالاً فسلَّطه على هلكتِه في الحقِّ، ورجلٌ آتاه اللهُ علمًا، فهو يعملُ به، ويعلِّمه الناسَ**»[1]. فلا حرج على من يغبط غيره في نعمة، ويشتهي لنفسه مثلها، مهما لم يحب زوالها عنه، ولم يكره دوامها له.

---

(١) أخرجه البخاري (٢/ ٥١٠)، ومسلم (١/ ٥٥٩) من حديث ابن مسعود ﷺ.

وأما تمني عين نعمة الغير بانتقالها إليه لرغبته فيها، بحيث يكون مطلوبه تلك النعمة لا زوالها، فهو مذموم لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ﴾ [النساء: ٣٢]، وأما تمنيه لمثل ذلك فليس مذمومًا، فاعرف الفرق»(١).

* * *

أسباب الحسد

«**للحسد المذموم مداخل كثيرة وأسباب عديدة:**

فمنها: العداوة والبغضاء، وهذا أشد أسباب الحسد، فإن من آذاه شخص بسبب من الأسباب، وخالفه في غرض بوجه من الوجوه أبغضه قلبه، وغضب عليه، ورسخ في نفسه الحقد، والحقد يقتضي منه التشفي والانتقام، فإن عجز المتنغص عن أن يتشفى بنفسه أحب أن يتشفى منه الزمان، وربما يحيل ذلك على كرامة نفسه عند اللَّه تعالى، فمهما أصابت عدوه بلية فرح بها، وظنها مكافأة له من جهة اللَّه على بغضه، وأنها لأجله، ومهما أصابته نعمة ساءه ذلك؛ لأنه ضد مراده، وربما يخطر له أنه لا منزلة له عند الله؛ حيث لم ينتقم له من عدوه الذي آذاه، بل أنعم عليه.

وبالجملة: فالحسد يلزم البغض والعداوة، ولا يفارقهما، وإنما غاية التقي أن لا يبغي، وأن يكره ذلك من نفسه.

ومنها: التعزز، وهو أن يثقل عليه أن يترفع عليه غيره.

ومنها: حب الرياسة وطلب الجاه، بأن يكون منفردًا عديم النظير غير

---

(١) «موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين» (١/ ٣٢٢).

مشارك في المنزلة يسوؤه وجود مناظر له في المنزلة.

ومنها: خبث النفس وشحها بالخير لعباد الله، بحيث يشق عليه أن يوصف عنده حسن حال عبد فيما أنعم عليه، ويفرح بذكر فوات مقاصد أحد، واضطراب أموره، وتنغص عيشه، فهو أبدًا يحب الإدبار لغيره، ويبخل بنعمة اللَّه على عباده، كأنهم يأخذون ذلك من ملكه، وهذا ليس له سبب ظاهر إلا خبث في النفس، ورذالة في الطبع، ومعالجته شديدة؛ لأنه خبث في الجبلة، لا عن عارض حتى يتصور زواله، وقد يجتمع بعض هذه الأسباب أو أكثرها، أو جميعها في شخص واحد، فيعظم فيه الحسد بذلك، ويقوى قوة لا يقدر معها على الإخفاء والمجاملة، بل ينتهك حجاب المجاملة، وتظهر العداوة بالمكاشفة، أعاذنا المولى من ذلك بلطفه وكرمه»[(١)].

* * *

طريق معالجة الحسد

«اعلم أن الحسد من الأمراض العظيمة للقلوب، ولا تداوى أمراض القلوب إلا بالعلم والعمل، والعلم النافع لمرض الحسد: هو أن تعرف تحقيقًا أن الحسد ضرر عليك في الدنيا والدين، وأنه لا ضرر فيه على المحسود في الدنيا والدين، بل ينتفع به فيهما، ومهما عرفت هذا عن بصيرة، ولم تكن عدو نفسك وصديق عدوك، فارقت الحسد لا محالة.

(١) «موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين» (٣/ ١٩٤).

أما كونه ضررًا عليك في الدين، فهو أنك بالحسد سخطت قضاء اللَّه تعالى، وكرهت نعمته التي قسمها بين عباده، وعدله الذي أقامه في ملكه بخفي حكمته، فاستنكرت ذلك واستبشعته، وهذه جناية في حدقة التوحيد، وقذًى في عين الإيمان، وناهيك بهما جناية على الدين، وقد انضاف إلى ذلك أنك فارقت أولياءه وأنبياءه في حبهم الخير لعباده تعالى، وشاركت إبليس والكفار في محبتهم للمؤمنين البلايا وزوال النعم، وهذه خبائث في القلب، تأكل حسنات القلب كما تأكل النار الحطب.

وأما كونه ضررًا في الدنيا، فهو أنك تتألم بحسدك في الدنيا، أو تتعذب به، ولا تزال في كمد وغم؛ إذ أعداؤك لا يُخْليهم اللَّه تعالى عن نعم يفيضها عليهم، فلا تزال تتعذب بكل نعمة تراها، وتتألم بكل بلية تنصرف عنهم، فتبقى مغمومًا ضيق الصدر، فقد نزل بك ما يشتهيه الأعداء لك، وتشتهيه لأعدائك، فقد كنت تريد المحنة لعدوك فتنجزت في الحال محنتك وغمك نقدًا، ولا تزول النعمة عن المحسود بحسدك، ولو لم تكن تؤمن بالبعث والحساب لكان مقتضى الفطنة إن كنت عاقلاً أن تحذر من الحسد؛ لما فيه من ألم القلب ومساءته مع عدم النفع، فكيف وأنت عالم بما في الحسد من العذاب الشديد في الآخرة؟! فما أعجب من يتعرض لسخط اللَّه من غير نفع يناله، بل مع ضرر يحتمله وألم يقاسيه، فيهلك دينه ودنياه من غير جدوى ولا فائدة!!

وأما أنه لا ضرر على المحسود في دينه ودنياه فواضح؛ لأن النعمة لا تزول عنه بحسدك.

وأما أن المحسود ينتفع به في الدين والدنيا فواضح:

أما منفعته في الدين: فهو أنه مظلوم من جهتك، لا سيما إذا أخرجك الحسد إلى القول والفعل بالغيبة، والقدح فيه، وهتك ستره، وذكر مساوئه، فهذه هدايا تهديها إليه؛ إذ تهدي إليه حسناتك حتى تلقاه يوم القيامة مفلسًا محرومًا، كما حرمت في الدنيا عن النعمة، فإذا تأملت هذا عرفت أنك عدو نفسك، وصديق عدوك؛ إذ تعاطيت ما تضررت به في الدنيا والآخرة، وانتفع به عدوك في الدنيا والآخرة، وصرت مذمومًا عند الخالق والخلائق، شقيًّا في الحال والمآل، ونعمة المحسود دائمة - شئت أم أبيت - باقية، ومن تفكر بهذا بذهن صاف، وقلب حاضر، انطفأت نار الحسد من قلبه.

وأما العمل النافع فيه: فهو أن يكلف نفسه نقيض ما يتقاضاه الحسد، وذلك بالتواضع للمحسود، والثناء والمدح وإظهار السرور بالنعمة، فتعود القلوب إلى التآلف والتحاب، وبذلك تستريح القلوب من ألم الحسد، وغم التباغض.

فهذه هي أدوية الحسد وهي نافعة جدًّا، إلا أنها مرة على القلوب جدًّا، ولكن النفع في الدواء المر، فمن لم يصبر على مرارة الدواء لم ينل حلاوة الشفاء، وإنما تهون مرارة هذا الدواء - أعني: التواضع للأعداء والتقرب إليهم بالمدح والثناء - بقوة العلم بالمعاني التي ذكرناها، وقوة الرغبة في ثواب الرضاء بقضاء اللَّه تعالى»[1].

* * *

(١) «موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين» (١/ ٣٢٤).

البواعث التي تعين على ترك المعصية

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: ٥٠].

«**أحدها: إجلال اللَّه تبارك وتعالى أن يعصى وهو يرى ويسمع**: ومن قام بقلبه مشهد إجلاله لم يطاوعه قلبه لذلك البتة.

الثاني: مشهد محبته سبحانه: فيترك معصيته محبة له، فإن المحب لمن يحب مطيع، وأفضل الترك ترك المحبين، كما أن أفضل الطاعة طاعة المحبين، فبين ترك المحبِّ وطاعتِه وترك من يخاف العذاب وطاعته - بون بعيد.

الثالث: مشهد النعمة والإحسان: فإن الكريم لا يقابل بالإساءة من أحسن إليه، وإنما يفعل هذا لئام الناس، فليمنعه مشهد إحسان اللَّه تعالى ونعمته عن معصيته حياء منه أن يكون خير اللَّه وإنعامه نازلاً إليه، ومخالفاته ومعاصيه وقبائحه صاعدة إلى ربه، فملك ينزل بهذا، وملك يعرج بذاك، فأقبح بها من مقابلة!!

الرابع: مشهد الغضب والانتقام: فإن الرب تعالى إذا تمادى العبد في معصيته غضب، وإذا غضب لم يقم لغضبه شيء، فضلاً عن هذا العبد الضعيف.

الخامس: مشهد الفوات: وهو ما يفوته بالمعصية من خير الدنيا والآخرة، وما يحدث له بها من كل اسم مذموم، عقلاً وشرعًا وعرفًا،

ويزول عنه من الأسماء الممدوحة شرعًا وعقلاً وعرفًا، ويكفي في هذا المشهد مشهد فوات الإيمان، الذي أدنى مثقال ذرة منه خير من الدنيا وما فيها أضعافًا مضاعفة، فكيف أن يبيعه بشهوة تذهب لذاتها، وتبقى تبعتها، تذهب الشهوة، وتبقى الشقوة، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمنٌ**»[(١)].

قال بعض الصحابة: «ينزع منه الإيمان حتى يبقى على رأسه مثل الظلة؛ فإن تاب رجع إليه».

وقال بعض التابعين: «ينزع عنه الإيمان كما ينزع القميص، فإن تاب لبسه». ولهذا روي عن النبي ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري: الزناة في التنور عراة؛ لأنهم تعروا من لباس الإيمان[(٢)]. وعاد تنور الشهوة الذي كان في قلوبهم تنورًا ظاهرًا يحمى عليه في النار.

السادس: مشهد القهر والظفر: فإن قهر الشهوة والظفر بالشيطان له حلاوة ومسرة وفرحة عند من ذاق ذلك أعظم من الظفر بعدوه من الآدميين، وأحلى موقعًا، وأتم فرحة، وأما عاقبته فأحمد عاقبة، وهو كعاقبة شرب الدواء النافع الذي أزال داء الجسد، وأعاده إلى صحته واعتداله.

السابع: مشهد العوض: وهو ما وعد اللَّه سبحانه من تعويض من ترك المحارم لأجله، ونهى نفسه عن هواها، وليوازنه بين العوض المعوض، فأيهما كان أولى بالإيثار اختاره وارتضاه لنفسه.

(١) أخرجه أخرجه البخاري (٢/ ٨٧٥)، ومسلم (١/ ٧٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٦/ ٢٥٨٤) ولفظه: «. . . فانطلقنا فأتينا على مِثْلِ التَّنُّورِ». قال: وأحسب أنه كان يقول: «فإذا فيه لَغَطٌ وأصواتٌ». قال: «فاطَّلَعْنَا فيه فإذا فيه رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ وإذا هُمْ يَأْتِيهِمْ لَهَبٌ من أَسْفَلَ منهم».

الثامن: مشهد المعية: وهو نوعان: معية عامة، ومعية خاصة.

فالعامة: اطلاع الرب عليه، وكونه بعينه، لا تخفى عليه حاله، وقد تقدم هذا.

والمقصود هنا المعية الخاصة، كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ۝١٢٨﴾ [النحل: ١٢٨]، وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

فهذه المعية الخاصة خير وأنفع في دنياه وآخرته ممن قضى وطره، ونيل شهوته على التمام، من أول عمره إلى آخره، فكيف يؤثر عليها لذة منغصة منكدة في مدة يسيرة من العمر؟! إنما هي كأحلام نائم، أو كظل زائل.

التاسع: مشهد المغافصة والمعاجلة: وهو أن يخاف أن يغافصه الأجل، فيأخذه اللَّه على غرة، فيحال بينه وبين ما يشتهي من لذات الآخرة، فيا لها من حسرة، ما أَمَرَّها وما أصعبها، لكن ما يعرفها إلا من جربها، وفي بعض الكتب القديمة: «**يا من لا يأمن على نفسه طرفة عين، ولا يتم له سرور يوم، الحذرَ الحذرَ!**».

العاشر: مشهد البلاء والعافية: فإن البلاء في الحقيقة ليس إلا الذنوب وعواقبها، والعافية المطلقة هي الطاعات وعواقبها، فأهل البلاء هم أهل المعصية، وإن عوفيت أبدانهم، وأهل العافية هم أهل الطاعة، وإن مرضت أبدانهم.

وقال بعض أهل العلم: في الأثر المروي: «**إذا رأيتم أهل البلاء؛ فاسألوا اللَّه العافية**»[1]. فإن أهل البلاء المبتلون بمعاصي اللَّه والإعراض والغفلة

---

(١) انظر «التفسير الكبير» (٢٢/ ١١٣).

عنه، وهذا وإن كان أعظم البلاء، فاللفظ يتناول أنواع المبتلين في أبدانهم وأديانهم، واللَّه أعلم.

الحادي عشر: أن يعوِّد باعث الدين ودواعيه مصارعة داعي الهوى ومقاومته على التدريج قليلاً قليلاً حتى يدرك لذة الظفر، فتقوى حينئذ همته، فإن من ذاق لذة شيء قويت همته في تحصيله، والاعتياد لممارسة الأعمال الشاقة تزيد القوى التي تصدر عنها تلك الأعمال، ولذلك تجد قوى الحمالين وأرباب الصنائع الشاقة تتزايد، بخلاف البزاز والخياط ونحوهما، ومن ترك المجاهدة بالكلية ضعف فيه باعث الدين، وقوى فيه باعث الشهوة، ومتى عود نفسه مخالفة الهوى غلبه متى أراد.

الثاني عشر: كف الباطل عن حديث النفس، وإذا مرت به الخواطر نفاها ولا يؤويها ويساكنها، فإنها تصير أماني، وهي رءوس أموال المفاليس، ومتى ساكن الخواطر صارت أماني، ثم تقوى فتصير همومًا، ثم تقوى فتصير إرادات، ثم تقوى فتصير عزمًا، يقترن به المراد، فدفع الخاطر الأول أسهل وأيسر من دفع أثر المقدور بعد وقوعه وترك معاودته.

الثالث عشر: قطع العلائق والأسباب التي تدعوه إلى موافقة الهوى، وليس المراد أن لا يكون له هوًى، بل المراد أن يصرف هواه إلى ما ينفعه، ويستعمله في تنفيذ مراد الرب تعالى، فإن ذلك يدفع عنه شر استعماله في معاصيه، فإن كل شيء من الإنسان يستعمله لله، فإن اللَّه يقيه شر استعماله لنفسه وللشيطان.

وما لا يستعمله لله استعمله لنفسه وهواه، ولا بد، فالعلم إن لم يكن لله كان للنفس والهوى، والعمل إن لم يكن لله كان للرياء والنفاق، والمال إن

لم ينفق في طاعة اللَّه أنفق في طاعة الشيطان، والهوى والجاه إن لم يستعمله لله استعمله صاحبه في هواه وحظوظه، والقوة إن لم يستعملها في أمر اللَّه استعملته في معصيته.

فمن عوَّد نفسه العمل لله لم يكن عليه أشق من العمل لغيره، ومن عوَّد نفسه العمل لهواه وحظه لم يكن عليه أشق من الإخلاص والعمل لله، وهذا في جميع أبواب الأعمال، فليس شيء أشق على المنفق لله من الإنفاق لغيره، وكذا بالعكس.

الرابع عشر: صرف الفكر إلى عجائب آيات اللَّه التي ندب عباده إلى التفكر فيها، وهي آياته المتلوة، وآياته المجلوة، فإذا استولى ذلك على قلبه دفع عنه محاظرة الشيطان ومحادثته ووسواسه، وما أعظم غبن من أمكنه أن لا يزال محاظرًا للرحمن وكتابه ورسوله والصحابة، فرغب عن ذلك إلى محاظرة الشيطان من الإنس والجن، فلا غبن بعد هذا الغبن، واللَّه المستعان.

الخامس عشر: التفكر في الدنيا وسرعة زوالها وقرب انقضائها، فلا يرضى لنفسه أن يتزود منها إلى دار بقائه وخلوده أخس ما فيها وأقله نفعًا - إلا ساقط الهمة، دنيء المروءة، ميت القلب، فإن حسرته تشتد إذا عاين حقيقة ما تزوده وتبين له عدم نفعه له، فكيف إذا كان ترك تزود ما ينفعه إلى زاد يعذب به ويناله بسببه غاية الألم، بل إذا تزود ما ينفعه وترك ما هو أنفع منه له كان ذلك حسرة عليه وغبنًا.

السادس عشر: تعرضه إلى من القلوب بين أصبعيه، وأزمة الأمور بيديه، وانتهاء كل شيء إليه على الدوام، فلعله أن يصادف أوقات النفحات، كما في

الأثر المعروف: «**إنَّ للهِ في أيامِ دهرِه نفحاتٍ، فتعرَّضوا لنفحاتِه، واسألوا اللهَ أن يسترَ عوراتِكم ويؤمِّنَ روعاتِكم**»[١]. ولعله في كثرة تعرضه أن يصادف ساعة من الساعات التي لا يسأل اللَّه فيها شيئًا إلا أعطاه، فمن أُعطي منشور الدعاء أُعطي الإجابة، فإنه لو لم يرد إجابته لما ألهمه الدعاء.

كما قيل:

لو لم تُرِدْ نيلَ ما أرجو وأطلبُهُ مِن جُودِ كفِّك ما عودتني الطَّلبَا

ولا يستوحش من ظاهر الحال، فإن اللَّه سبحانه يعامل عبده معاملة من ليس كمثله شيء في أفعاله، كما ليس كمثله شيء في صفاته، فإنه ما حرمه إلا ليعطيه، ولا أمرضه إلا ليشفيه، ولا أفقره إلا ليغنيه، ولا أماته إلا ليحييه، وما أخرج أبويه من الجنة إلا ليعيدهما إليها على أكمل حال، كما قيل: «**يا آدمُ، لا تجزعْ من قولي لك: ﴿واخرج منها﴾. فلك خلقتُها، وسأعيدُك إليها**». فالرب تعالى ينعم على عبده بابتلائه، ويعطيه بحرمانه، ويصحبه بسقمه، فلا يستوحش عبده من حالة تسوؤه أصلاً، إلا إذا كانت تغضبه عليه وتبعده منه.

السابع عشر: أن يعلم العبد بأن فيه جاذبين متضادين، ومحنته بين الجاذبين: جاذب يجذبه إلى الرفيق الأعلى من أهل عليين، وجاذب يجذبه إلى أسفل سافلين، فكلما انقاد مع الجاذب الأعلى صعد درجة، حتى ينتهي إلى حيث يليق به من المحل الأعلى، وكلما انقاد إلى الجاذب الأسفل نزل درجة، حتى ينتهي إلى موضعه من سِجِّين، ومتى أراد أن يعلم هل هو مع الرفيق الأعلى أو الأسفل، فلينظر أين روحه في هذا العالم، فإنها إذا فارقت

(١) أخرجه الطبراني في «معجمه» (١/ ٢٥٠)، وابن شهاب في «مسنده» (١/ ٤٠٧).

البدن تكون في الرفيق الأعلى الذي كانت تجذبه إليه في الدنيا، فهو أولى بها، فالمرء مع من أحب طبعًا وعقلاً وجزءًا، وكل مهتم بشيء فهو منجذب إليه، وإلى أهله بالطبع، وكل امرئ يصبو إلى ما يناسبه، وقد قال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٤]، فالنفوس العلوية تنجذب بذاتها، وهمها وأعمالها إلى أعلى، والنفوس السافلة إلى أسفل.

الثامن عشر: أن يعلم العبد أن تفريغ المحل شرط لنزول غيث الرحمة، وتنقيته من الدغل شرط لكمال الزرع، فمتى لم يفرغ المحل لم يصادف غيث الرحمة محلًّا قابلاً ينزل فيه، وإن فرغه حتى أصابه غيث الرحمة ولكنه لم ينقه من الدغل لم يكن الزرع زرعًا كاملاً، بل ربما غلب الدغل على الزرع فكان الحكم له، وهذا كالذي يصلح أرضه ويهيئها لقبول الزرع ويودع فيها البذور وينتظر نزول الغيث.

فإذا طهَّر العبد قلبه وفرغه من إرادة السوء وخواطره، وبذر فيه بذر الذكر والفكر، والمحبة والإخلاص، وعرَّضه لمهاب رياح الرحمة، وانتظر نزول غيث الرحمة في أوانه؛ كان جديرًا بحصول المحل، وكما يقوى الرجاء لنزول الغيث في وقته كذلك يقوى الرجاء لإصابة نفحات الرحمن - جل جلاله - في الأوقات الفاضلة والأحوال الشريفة، ولا سيما إذا اجتمعت الهمم، وتساعدت القلوب، وعظم الجمع، كجمع عرفة، وجمع الاستسقاء، وجمع أهل الجمعة.

فإن اجتماع الهمم والأنفاس أسباب نصبها اللَّه تعالى مقتضية لحصول الخير ونزول الرحمة، كما نصب سائر الأسباب مقتضية إلى مسبباتها، بل هذه الأسباب في حصول الرحمة أقوى من الأسباب الحسية في حصول

مسبباتها، ولكن العبد بجهله يغلب عليه الشاهد على الغائب الحسن، وبظلمه يؤثر ما يحكم به هذا ويقتضيه على ما يحكم به الآخر ويقتضيه، ولو فرغ العبد المحل وهيأه وأصلحه لرأى العجائب، فإن فضل اللَّه لا يرده إلا المانع الذي في العبد، فلو زال ذلك المانع لسارع إليه الفضل من كل صوب.

فتأمل حال نهر عظيم يسقي كل أرض يمر عليها، فحصل بينه وبين بعض الأرض المعطشة المجدية سَكْرٌ[1] وسدٌّ كثيف، فصاحبها يشكو الجدب، والنهر إلى جانب أرضه.

التاسع عشر: أن يعلم العبد أن اللَّه سبحانه خلقه لبقاء لا فناء له، ولعز لا ذل معه، وأمن لا خوف فيه، وغناء لا فقر معه، ولذة لا ألم معها، وكمال لا نقص فيه، وامتحنه في هذه الدار بالبقاء الذي يسرع إليه الفناء، والعز الذي يقارنه الذل، ويعقبه الذل، والأمن الذي معه الخوف، وبعده الخوف، وكذلك الغناء واللذة، والفرح والسرور والنعيم، الذي هنا مشوب بضده؛ لأنه يتعقبه ضده، وهو سريع الزوال، فغلط أكثر الخلق في هذا المقام إذ طلبوا النعيم والبقاء، والعز والملك والجاه، في غير محله، ففاتهم في محله، وأكثرهم لم يظفر بما طلبه من ذلك، والذي ظفر به إنما هو متاع قليل، والزوال قريب، فإنه سريع الزوال عنه.

والرسل - صلوات اللَّه وسلامه عليهم - إنما جاءوا بالدعوة إلى النعيم المقيم، والملك الكبير، فمَن أجابهم حصل له ألذ ما في الدنيا وأطيبه، فكان عيشه فيها أطيب من عيش الملوك فمَن دونهم، فإن الزهد في الدنيا مُلْكٌ

(١) السكر: المنع والحبس. «اللسان» (س ك ر).

حاضر، والشيطان يحسد المؤمن عليه أعظم حسد، فيحرص كل الحرص على أن لا يصل إليه، فإن العبد إذا ملك شهوته وغضبه فانقادا معه لداعي الدين فهو المَلِكُ حقًّا؛ لأن صاحب هذا الملك حر، والمَلِكُ المنقاد لشهوته وغضبه عبدُ شهوتِه وغضبِه، فهو مسخَّر مملوك في زي مالك، يقوده زمام الشهوة والغضب كما يقاد البعير، فالمغرور المخدوع يقطع نظره على الملك الظاهر الذي صورته ملك وباطنه رق، وعلى الشهوة التي أولها لذة وآخرها حسرة، والبصير الموفق يعير نظره من الأوائل إلى الأواخر، ومن المبادئ إلى العواقب، وذلك فضل اللَّه يؤتيه من يشاء واللَّه ذو الفضل العظيم.

العشرون: أن لا يغتر العبد باعتقاده أن مجرد العلم بما ذكرنا كافٍ في حصول المقصود، بل لا بد أن يضيف إليه بذل الجهد في استعماله واستفراغ الوسع والطاقة فيه، ومِلاك ذلك الخروج عن العوائد، فإنها أعداء الكمال والفلاح، فلا أفلح من استمر مع عوائده أبدًا، ويستعين على الخروج عن العوايد بالهرب عن مظان الفتنة والبعد عنها ما أمكنه، وقد قال النبي ﷺ: «**مَن سمِع بالدجالِ فَلْيَنْأَ عنه**»[1]. فما استعين على التخلص من الشر بمثل البعد عن أسبابه ومظانه»[2].

* * *

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٤٣١)، أخرجه أبو داود (٤/ ١١٦)، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» الجزء الثالث الحديث الذي رواه أبو داود.

(٢) «عدة الصابرين» (١/ ٤٤-٥٠).

منافاة السحر والكهانة للتوحيد

«وسئل رحمه اللَّه تعالى: ما يقول السادة الفقهاء أئمة الدين رضي اللَّه عنهم أجمعين في هؤلاء المنجمين الذين يجلسون على الطرق، وفى الحوانيت وغيرها، ويجلس عندهم النساء والفساق أيضًا بسبب النساء، ويزعم هؤلاء المنجمون أنهم يخبرون بالأمور المغيبة معتمدين في ذلك على صناعة التنجيم، ويكتبون للناس الأوفاق، ويسحرون، ويكتبون الطلاسم، ويعلمون النساء السحر لأزواجهم وغيرهم، ويجتمع النساء والرجال على أبواب الحوانيت بسبب ذلك، وربما آل الأمر إلى غير ذلك من إفساد النساء على أزواجهن، وإفساد عقائد الناس، وتعلق همتهم بالسحر والكواكب، وإعراضهم عن اللَّه ﷻ والتوكل عليه في الحوادث والنوازل، فهل يحل ذلك أم لا؟

وهل صناعة التنجيم محرمة أم لا؟

وهل يجوز أخذ الأجرة على ذلك؟ وبذلها حرام أم لا؟

وهل يجوز لمن له تعلق بالحانوت من ناظر ومالك ووكيل أن يؤجره من ذلك أم لا؟ وهل الأجرة حرام أم لا؟

وهل يجب على ولي الأمر وكل مسلم يقدر على ذلك إزالة ذلك أم لا؟

وهل إذا لم يفعل ولي الأمر الإنكار عليهم يدخل في وعيد الحديث الصحيح المروى عن النبي ﷺ وهو قوله: «**ما مِن والٍ يَستَرعِيهِ اللَّهُ رَعِيَّةً ثم لم يَجهَدْ لهم ويَنصَحُ لهم، إلَّا لم يَدخُلْ معهم الجنَّةَ**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٧١٥٠، ٧١٥١)، ومسلم (١٤٢/ ٢١، ٢٢٧- ٢٢٩) من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه.

وإذا أنكر ولي الأمر هذا المنكر يدخل في قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤]؟

وهل يثاب على ذلك الثواب الجزيل إذا أنكره أم لا؟

وإن رأوا أن يذكروا ما حضرهم من الأحاديث الوعيدية في ذلك مأجورين إن شاء اللَّه تعالى؟

فأجاب: الحمد لله رب العالمين، لا يحل شيء من ذلك، وصناعة التنجيم التي مضمونها الأحكام والتأثير، وهو الاستدلال على الحوادث الأرضية بالأحوال الفلكية، والتمزيج بين القوى الفلكية والقوابل الأرضية - صناعة محرمة، بالكتاب والسنة وإجماع الأمة، بل هي محرمة على لسان جميع المرسلين في جميع الملل، قال اللَّه تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩]، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٥١] قال عمر وغيره: «**الجبت: السحر**».

وروى أبو داود في «**سننه**» بإسناد حسن عن قبيصة بن مخارق عن النبي ﷺ قال: «**العِيافَةُ والطَّرْقُ والطِّيَرَةُ مِن الجِبْتُ**». قال عوف، راوي الحديث: «**العيافة: زجر الطير. والطَّرق: الخطُّ، يُخَطُّ في الأرض**»[1]. وقيل: بالعكس.

فإذا كان الخط ونحوه، الذي هو من فروع النِّجامة، من الجبت، فكيف بالنجامة؟! وذلك أنهم يولدون الأشكال في الأرض، لأن ذلك متولد من أشكال الفلك.

وروى أحمد وأبو داود وابن ماجه وغيرهم بإسناد صحيح عن ابن عباس

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٧٧)، و(٥/ ٦٠)، وأبو داود (٣٩٠٧).

- رضي اللَّه عنهما - قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**مَن اقتَبَس علمًا مِن النجومِ؛ اقتبس شعبةً مِن السِّحرِ، زاد ما زاد**»(١). فقد صرح رسول اللَّه ﷺ بأن علم النجوم من السحر، وقد قال اللَّه تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩]، وهكذا الواقع، فإن الاستقراء يدل على أن أهل النجوم لا يفلحون، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

وروى أحمد ومسلم في «الصحيح» عن صفية بنت عبيد، عن بعض أزواج النبي عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَن أتى عَرَّافًا فسأله عن شيء؛ لم تُقبلْ له صلاةٌ أربعين يومًا**»(٢).

والمنجم يدخل في اسم العراف عند بعض العلماء، وعند بعضهم هو في معناه، فإذا كانت هذه حال السائل فكيف بالمسئول؟!

وروى أيضًا في «صحيحه» عن معاوية بن الحكم السُّلَمي ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، إن قومًا منا يأتون الكهان؟ قال: «**فلا تأتوهم**»(٣).

فنهى النبي ﷺ عن إتيان الكهان، والمنجم يدخل في اسم الكاهن عند الخطابي وغيره من العلماء، وحكي ذلك عن العرب، وعند آخرين هو من جنس الكاهن، وأسوأ حالاً منه، فلحق به من جهة المعنى.

وفي «الصحيح» عنه أنه قال ﷺ: «**ثمنُ الكلبِ خبيثٌ، ومهرُ البغيِّ خبيثٌ، وحُلْوان الكاهنِ خبيثٌ**»(٤). وحُلوانه الذي تسميه العامة (حلاوته)،

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٢٧، ٣١١)، وأبو داود (٣٩٠٥)، وابن ماجه (٣٧٢٦).
(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٦٨)، و(٥/ ٣٨٠)، ومسلم (١٢٥/ ٢٢٣٠).
(٣) أخرجه مسلم (٥٣٧/ ٣٣).
(٤) أخرجه البخاري (٢٢٣٧، ٢٢٨٢، ٥٣٤٦، ٥٧٦١)، ومسلم (١٥٦٧/ ٣٩)، من حديث أبي مسعود الأنصاري ﷺ. وأخرجه مسلم (١٥٦٨/ ٤٠، ٤١)، من حديث رافع بن خديج ﷺ.

ويدخل في هذا المعنى ما يعطيه المنجم وصاحب الأزلام التي يستقسم بها، مثل الخشبة المكتوب عليها (أ ب ج د)، والضارب بالحصى ونحوهم، فما يعطى هؤلاء حرام، وقد حكى الإجماع على تحريمه غير واحد من العلماء، كالبغوي والقاضي عياض وغيرهما.

وفي «الصحيحين» عن زيد بن خالد ﵁ قال: خطبنا رسول اللَّه ﷺ بالحديبية على إثْرِ سماء كانت من الليل فقال: «**أتدرون ماذا قال ربُّكم الليلةَ؟**». قلنا: اللَّه ورسوله أعلم، قال: «**أصْبَحَ مِن عبادي مؤمنٌ بي وكافرٌ بي، فمَن قال: مُطِرْنَا بفضلِ اللهِ ورحمتِه؛ فذلك مؤمنٌ بي وكافرٌ بالكواكبِ**»[1].

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**ما أنزَلَ اللهُ مِن السَّماءِ مِن بركةٍ إلا أصبَحَ فريقٌ مِن النَّاسِ بها كافرين؛ يُنَزِّلُ اللَّه الغَيْثَ ويقولون بكوكبِ كذا وكذا**»[2].

وفي «صحيح مسلم» عنه أنه قال: «**أربعٌ في أُمَّتي مِن أمرِ الجاهليَّةِ: الفخرُ بالأحسابِ، والطَّعنُ في الأنسابِ، والنِّياحةُ، والاستسقاءُ بالأنواءِ**»[3].

وفيه عن ابن عباس عن النبي ﷺ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة: ٨٢] قال: «**هو الاستسقاءُ بالأنواءِ**». أو كما قال[4].

والنصوص عن النبي وأصحابه وسائر الأئمة بالنهي عن ذلك أكثر من أن يتسع هذا الموضع لذكرها، وقد تبين بما ذكرناه أن الأجرة المأخوذة على ذلك والهبة والكرامة حرام على الدافع والآخذ، وأنه يحرم على الملاك

(١) أخرجه البخاري (٨٤٦، ١٠٣٨، ٤١٤٧، ٧٥٠٣)، ومسلم (٧١/ ١٢٥).
(٢) أخرجه مسلم (٧٢).
(٣) أخرجه مسلم (٩٣٤/ ٢٩)، من حديث أبي مالك الأشعري ﵁.
(٤) أخرجه مسلم (٧٣/ ١٢٧)، بنحوه

والنظار والوكلاء إكراء الحوانيت المملوكة أو الموقوفة أو غيرها من هؤلاء الكفار والفساق بهذه المنفعة إذا غلب على ظنهم أنهم يفعلون فيها هذا الجبت الملعون.

ويجب على ولي الأمر وكلٍّ قادرٍ السعيُ في إزالة ذلك، ومنعهم من الجلوس في الحوانيت أو الطرقات، أو دخولهم على الناس في منازلهم لذلك، وإن لم يفعل ذلك فيكفيه قوله تعالى: ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة: ٧٩]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ [المائدة: ٦٣]، فإن هؤلاء الملاعين يقولون الإثم ويأكلون السحت بإجماع المسلمين، وثبت عن النبي ﷺ برواية الصديق عنه أنه قال: «**إنَّ النَّاسَ إذا رأَوْا المنكرَ ولم يغيِّروه أَوْشَكَ أن يَعُمَّهُم اللَّهُ بعقابٍ منه**»(١).

وأي منكر أنكر من عمل هؤلاء الأخابث، سوس الملك، وأعداء الرسل، وأفراخ الصابئة عباد الكواكب؟! فهل كانت بعثة الخليل - صلاة اللَّه وسلامه عليه - إمام الحنفاء إلا إلى سلف هؤلاء، فإن نمرود بن كنعان كان ملك هؤلاء، وعلماء الصابئة هم المنجمون ونحوهم، وهل عبدت الأوثان في غالب الأمر إلا عن رأي هذا الصنف الخبيث الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، ويصدون عن سبيل الله؟!

ومن استقووه ممن ينتسب إلى التدين بكتاب، فإنه الخليق بأن يأخذ بنصيب من قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢، ٥، ٧)، وأبو داود (٤٣٣٨)، والترمذي (٢١٦٨، ٣٠٥٧).

وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [البقرة: ١٠٢].

وهكذا قد اعترف رؤساء المنجمين من الأولين والآخرين أن أهل الإيمان أهل العبادات والدعوات يرفع اللَّه عنهم ببركة عباداتهم ودعائهم وتوكلهم على اللَّه ما يزعم المنجمون أن الأفلاك توجبه، ويعترفون أيضًا بأن أهل العبادات والدعوات ذوي التوكل على اللَّه يُعطَون من ثواب الدنيا والآخرة ما ليس في قوى الأفلاك أن تجلبه، فالحمد لله الذي جعل خير الدنيا والآخرة في اتباع المرسلين، وجعل خير أمة هم الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وقال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤]، واللَّه يؤيد ويعين على الدين، واتباع سبيل المؤمنين، واللَّه سبحانه وتعالى أعلم وأحكم»[(١)].

«والناس في هذا الباب ثلاثة أصناف:

قوم يكذبون بدخول الجني في الإنس، وقوم يدفعون ذلك بالعزائم المذمومة، فهؤلاء يكذبون بالموجود، وهؤلاء يعصون بل يكفرون بالمعبود، والأمة الوسط تصدق بالحق الموجود، وتؤمن بالإله الواحد المعبود،

(١) «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ١٩١- ١٩٧).

وبعبادته ودعائه وذكره وأسمائه وكلامه، فتدفع شياطين الإنس والجن.

وأما سؤال الجن وسؤال من يسألهم، فهذا إن كان على وجه التصديق لهم في كل ما يخبرون به والتعظيم للمسئول فهو حرام، كما ثبت في «**صحيح مسلم**» وغيره عن معاوية بن الحكم السلمي ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، أمورًا كنا نصنعها في الجاهلية؛ كنا نأتي الكهان؟ قال: «**فلا تأتوا الكهان**»[١]، وفي «صحيح مسلم» أيضًا عن عبيد اللَّه عن نافع عن صفية عن بعض أزواج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**مَن أتى عرافًا فسأله عن شيءٍ لم تُقبلْ له صلاةٌ أربعين يومًا**»[٢].

وأما إن كان يسأل المسئول ليمتحن حاله، ويختبر باطن أمره، وعنده ما يميز به صدقه من كذبه فهذا جائز، كما ثبت في «الصحيحين» أن النبي ﷺ سأل ابن صياد فقال: «**ما يأتيك؟**» فقال: يأتيني صادق وكاذب، قال: «**ما ترى؟**» قال: أرى عرشًا على الماء، قال: «**فإني قد خبأت لك خبيئًا**» قال: الدُّخُّ الدُّخُّ، قال: «**اخسأ، فلن تعدو قدرك، فإنما أنت مِن إخوانِ الكهانِ**»[٣]»[٤].

«**وفى الجملة**: استمتاع الإنس بالجن والجن بالإنس يشبه استمتاع الإنس بالإنس، قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزُّخرف: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦]،

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري (١٣٥٤، ٢٦٣٨)، وانظر أطرافه، ومسلم (٩٥-٩٧/ ٢٩٣٠)، من حديث ابن عمر، رضي الله عنهما.

(٤) «مجموع الفتاوى» (١٩/ ٦٣).

قال مجاهد: «هي المودات التي كانت لغير الله»[١]. وقال الخليل عليه السلام: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣].

فالمشرك يعبد ما يهواه، واتباع الهوى هو استمتاع من صاحبه بما يهواه، وقد وقع في الإنس والجن هذا كله.

وتارة يخدم هؤلاء لهؤلاء في أغراضهم، وهؤلاء لهؤلاء في أغراضهم، فالجن تأتيه بما يريد، من صورة أو مال أو قتل عدوه، والإنس تطيع الجن، فتارة تسجد له، وتارة تسجد لِما يأمره بالسجود له، وتارة يمكنه من نفسه فيفعل به الفاحشة، وكذلك الجنيات منهن من يريد من الإنس الذي يخدمنه ما يريد نساء الإنس من الرجال، وهذا كثير في رجال الجن ونسائهم، فكثير من رجالهم ينال من نساء الإنس ما يناله الإنسي، وقد يفعل ذلك بالذكران.

- **وصرع الجن للإنس هو لأسباب ثلاثة:**

تارة يكون الجني يحب المصروع، فيصرعه ليتمتع به، وهذا الصرع يكون أرفق من غيره وأسهل.

وتارة يكون الإنسي آذاهم؛ إذا بال عليهم، أو صب عليهم ماء حارًا، أو يكون قتل بعضهم، أو غير ذلك من أنواع الأذى، وهذا أشد الصرع، وكثيرًا ما يقتلون المصروع.

وتارة يكون بطريق العبث به، كما يعبث سفهاء الإنس بأبناء السبيل.

---

(١) أورده السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٤٠٢)، وعزاه لوكيع، وعبد بن حميد، وابن جرير، وأبي نعيم في «الحلية»، عن مجاهد به. وراجع «تفسير ابن كثير» (١/ ٢٧٥). والله أعلم.

ومن استمتاع الإنس بالجن استخدامهم في الأخبار بالأمور الغائبة، كما يخبر الكهان، فإن في الإنس من له غرض في هذا لما يحصل به من الرياسة والمال وغير ذلك، فإن كان القوم كفارًا كما كانت العرب لم تبال بأن يقال: إنه كاهن، كما كان بعض العرب كهانًا، وقدم النبي ﷺ المدينة وفيها كهان، وكان المنافقون يطلبون التحاكم إلى الكهان، وكان أبو أَبْرَق الأسلمي أحد الكهان قبل أن يسلم، وإن كان القوم مسلمين لم يُظهر أنه كاهن، بل يجعل ذلك من باب الكرامات، وهو من جنس الكهان، فإنه لا يخدم الإنسي بهذه الأخبار إلا لما يستمتع به من الإنسي؛ بأن يطيعه الإنسي في بعض ما يريده، إما في شرك، وإما في فاحشة، وإما في أكل حرام، وإما في قتل نفس بغير حق.

فالشياطين لهم غرض فيما نهى اللَّه عنه من الكفر والفسوق والعصيان، ولهم لذة في الشر والفتن، يحبون ذلك، وإن لم يكن فيه منفعة لهم، وهم يأمرون السارق أن يسرق، ويذهبون إلى أهل المال فيقولون: فلان سرق متاعكم، ولهذا يقال القوة الملكية، والبهيمية، والسبعية، والشيطانية، فإن الملكية فيها العلم النافع والعمل الصالح، والبهيمية فيها الشهوات، كالأكل والشرب، والسبعية فيها الغضب، وهو دفع المؤذى، وأما الشيطانية فشر محض ليس فيها جلب منفعة ولا دفع مضرة.

والفلاسفة ونحوهم ممن لا يعرف الجن والشياطين لا يعرفون هذه، وإنما يعرفون الشهوة والغضب، والشهوة والغضب خلقا لمصلحة ومنفعة، لكن المذموم هو العدوان فيهما، وأما الشيطان فيأمر بالشر الذي لا منفعة فيه، ويحب ذلك، كما فعل إبليس بآدم لما وسوس له، وكما امتنع من

السجود له، فالحسد يأمر به الشيطان، والحاسد لا ينتفع بزوال النعمة عن المحسود، لكن يبغض ذلك، وقد يكون بغضه لفوات غرضه، وقد لا يكون.

ومن استمتاع الإنس بالجن استخدامهم في إحضار بعض ما يطلبونه من مال وطعام وثياب ونفقة، فقد يأتون ببعض ذلك، وقد يدلونه على كنز وغيره.

واستمتاع الجن بالإنس استعمالهم فيما يريده الشيطان: من كفر وفسوق ومعصية.

ومن استمتاع الإنس بالجن استخدامهم فيما يطلبه الإنس من شرك وقتل وفواحش، فتارة يتمثل الجني في صورة الإنسي، فإذا استغاث به بعض أتباعه أتاه، فظن أنه الشيخ نفسه، وتارة يكون التابع قد نادى شيخه، وهتف به: يا سيدي فلان. فينقل الجني ذلك الكلام إلى الشيخ بمثل صوت الإنسي حتى يظن الشيخ أنه صوت الإنسي بعينه، ثم إن الشيخ يقول: نعم. ويشير إشارة يدفع بها ذلك المكروه، فيأتي الجني بمثل ذلك الصوت والفعل، فيظن ذلك الشخص أنه شيخه نفسه، وهو الذي أجابه وهو الذي فعل ذلك حتى إن تابع الشيخ قد تكون يده في إناء يأكل فيضع الجني يده في صورة يد الشيخ، ويأخذ من الطعام، فيظن ذلك التابع أنه شيخه حاضر معه، والجني يمثل للشيخ نفسه مثل ذلك الإناء فيضع يده فيه حتى يظن الشيخ أن يده في ذلك الإناء، فإذا حضر المريد ذكر له الشيخ أن يدي كانت في الإناء فيصدقه، ويكون بينهما مسافة شهر، والشيخ موضعه، ويده لم تطل، ولكن الجني مثل للشيخ ومثل للمريد حتى ظن كل منهما أن أحدهما عند الآخر، وإنما كان

عنده ما مثله الجني وخيله.

وإذا سئل الشيخ المخدوم عن أمر غائب إما سرقة، وإما شخص مات، وطلب منه أن يخبر بحاله، أو علة في النساء، أو غير ذلك، فإن الجني قد يمثل ذلك فيريه صورة المسروق، فيقول الشيخ: ذهب لكم كذا وكذا. ثم إن كان صاحب المال معظمًا، وأراد أن يدله على سرقته مثل له الشيخ الذي أخذه، أو المكان الذي فيه المال، فيذهبون إليه فيجدونه كما قال، والأكثر منهم أنهم يظهرون صورة المال، ولا يكون عليه؛ لأن الذي سرق المال معه أيضًا جني يخدمه، والجن يخاف بعضهم من بعض، كما أن الإنس يخاف بعضهم بعضًا، فإذا دل الجني عليه جاء إليه أولياء السارق فآذوه، وأحيانًا لا يدل؛ لكون السارق وأعوانه يخدمونه ويرشونه، كما يصيب من يعرف اللصوص من الإنس، تارة يعرف السارق ولا يُعرِّف به، إما لرغبة ينالها منه، وإما لرهبة وخوف منه، وإذا كان المال المسروق لكبير يخافه ويرجوه عرَّف سارقه، فهذا وأمثاله مِن استمتاع بعضهم ببعض»[1].

* * *

(١) «مجموع الفتاوى» (١٣/ ٨١- ٨٥).

منافاة الديمقراطية للتوحيد ومفهومها في الإسلام

قال تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾ [المؤمنون: ٧١].

«يقول بعض المتفلسفة: «إن المقصود بالدين مجرد المصلحة الدنيوية».

وليس المقصود بالدين الحق مجرد المصلحة الدنيوية من إقامة العدل بين الناس في الأمور الدنيوية، كما يقوله طوائف من المتفلسفة في مقصود النواميس والنبوات، إن المراد بها مجرد وضع ما يحتاج إليه معاشهم في الدنيا من القانون العدلي الذي ينتظم به معاشهم، لكن هذا قد يكون المقصود في أديان من لم يؤمن بالله ورسوله من أتباع الملوك المتفلسفة ونحوهم، مثل قوم نوح ونمرود وجنكيزخان وغيرهم.

فإن كل طائفة من بني آدم محتاجون إلى التزام واجبات، وترك محرمات، يقوم بها معاشهم وحياتهم الدنيوية، وربما جعلوا مع ذلك ما به يستولون به على غيرهم من الأصناف ويقهرونه، كفعل الملوك الظالمين، مثل جنكيزخان.

فإذا لم يكن مقصود الدين والناموس الموضوع إلا جلب المنفعة في الحياة الدنيا، ودفع المضرة فيها، فليس لهؤلاء في الآخرة من خلاق، ثم إن كان مع ذلك جعلوه ليستولوا به على غيرهم من بني آدم ويقهرونهم، كفعل فرعون وجنكيزخان ونحوهما، فهؤلاء من أعظم الناس عذابًا في الآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ

وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص: ٤]، وقد قص اللَّه سبحانه قصة فرعون في غير موضع من القرآن، وكان هو وقومه على دين لهم من دين الملوك، كما قال تعالى في قصة يوسف: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ [يوسف: ٧٦]، وهذا الملك كان فرعون يوسف، وكان قبل فرعون موسى.

وفرعون: اسم لمن يملك مصر من القبط، وهو اسم جنس كقيصر، وكسرى، والنجاشي، ونحو ذلك.

وهؤلاء المتفلسفة الصابئة المبتدعة، من المشائين ومن سلك مسلكهم من المنتسبين إلى الملل في المسلمين واليهود والنصارى، يجعلون الشرائع والنواميس والديانات من هذا الجنس لوضع قانون تتم به مصلحة الحياة الدنيا.

ولهذا لا يأمرون فيها بالتوحيد، وهو: عبادة اللَّه وحده، ولا بالعمل للدار الآخرة، ولا ينهون فيها عن الشرك، بل يأمرون فيها بالعدل والصدق والوفاء بالعهد، ونحو ذلك من الأمور التي لا تتم مصلحة الحياة الدنيا إلا بها، ويشرعون التأله للمخلصين والمشركين، ولهذا يقيمون النواميس بأنواع من الحيل والسحر والطلسمات، كما وضعوه في كتب ذلك، ويقولون في بعض الطلاسم: هذا يصلح لوضع النواميس. كما تواصت القرامطة والباطنية، وكما كان يفعله سحرة فرعون وغيرهم، وآثارهم موجودة بذلك إلى اليوم، وكما يفعله المشركون من الترك والهند في بلادهم.

وقد فرض اللَّه على ولاة أمر المسلمين اتباع الشرع الذي هو الكتاب والسنة، وإذا تنازع بعض المسلمين في شيء من مسائل الدين، ولو كان المنازع من آحاد طلبة العلم لم يكن لولاة الأمور أن يلزموه باتباع حكم

حاكم، بل عليهم أن يبينوا له الحق كما يبين الحق للجاهل المتعلم، فإن تبين له الحق الذي بعث اللَّه به رسوله وظهر وعانده بعد هذا استحق العقاب، وأما من يقول: إن الذي قلته هو قولي، أو قول طائفة من العلماء المسلمين، وقد قلته اجتهادًا أو تقليدًا - فهذا باتفاق المسلمين لا تجوز عقوبته، ولو كان قد أخطأ خطأً مخالفًا للكتاب والسنة، ولو عوقب هذا لعوقب جميع المسلمين، فإنه ما منهم من أحد إلا وله أقوال اجتهد فيها، أو قلد فيها، وهو مخطئ فيها، فلو عاقب اللَّه المخطئ لعاقب جميع الخلق، بل قد قال اللَّه تعالى في القرآن: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة: ٢٨٥، ٢٨٦]»[١].

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ: «**إنَّ اللهَ استجاب هذا الدعاءَ، ولما قال المؤمنون:** ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ﴾. قال اللهُ: قد فعلتُ»[٢]. وكذلك في سائر الدعاء، وقال النبي ﷺ: «**إنَّ اللهَ تجاوزَ لأمتي عن الخطأِ والنسيانِ وما استُكرهوا عليه**»[٣].

فالمفتي والجندي والعامي إذا تكلموا بالشيء بحسب اجتهادهم اجتهادًا

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ٣٧٩).

(٢) أخرجه مسلم (١٢٦/ ٢٠٠)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢٠٤٥)، والطبراني في «الأوسط» (٨/ ٨٢٧٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

أو تقليدًا قاصدين لاتباع الرسول بمبلغ علمهم، لا يستحقون العقوبة بإجماع المسلمين، وإن كانوا قد أخطئوا خطأً مجمعًا عليه، وإذا قالوا: إنا قلنا الحق. واحتجوا بالأدلة الشرعية، لم يكن لأحد من الحكام أن يلزمهم بمجرد قوله، ولا يحكم بأن الذي قاله هو الحق دون قولهم، بل يحكم بينه وبينهم الكتاب والسنة، والحق الذي بعث اللَّه به رسوله لا يغطَّى، بل يظهر، فإن ظهر رجع الجميع إليه، وإن لم يظهر سكت هذا عن هذا، وسكت هذا عن هذا، كالمسائل التي تقع يتنازع فيها أهل المذاهب، لا يقول أحد: إنه يجب على صاحب مذهب أن يتبع مذهب غيره؛ لكونه حاكمًا، فإن هذا ينقلب، فقد يصير الآخر حاكمًا فيحكم بأن قوله هو الصواب، فهذا لا يمكن أن يكون كل واحد من القولين المتضادين يلزم جميع المسلمين اتباعه، بخلاف ما جاء به الرسول فإنه من عند اللَّه حق وهدى وبيان، ليس فيه خطأ قط، ولا اختلاف ولا تناقض، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].

وعلى ولاة الأمر أن يمنعوهم من التظالم، فإذا تعدى بعضهم على بعض منعوهم العدوان، وهم قد ألزموا بمنع ظلم أهل الذمة، وأن يكون اليهودي والنصراني في بلادهم إذا قام بالشروط المشروطة عليهم لا يُلزمه أحد بترك دينه، مع العلم بأن دينه يوجب العذاب، فكيف يسوغ لولاة الأمور أن يمكنوا طوائف المسلمين من اعتداء بعضهم على بعض، وحكم بعضهم على بعض بقوله ومذهبه؟! هذا مما يوجب تغير الدول وانتقاضها، فإنه لا صلاح للعباد على مثل هذا.

وهذا إذا كان الحكام قد حكموا في مسألة فيها اجتهاد ونزاع معروف،

فإذا كان القول الذي قد حكموا به لم يقل به أحد من أئمة المسلمين، ولا هو مذهب أئمتهم الذين ينتسبون إليهم، ولا قاله أحد من الصحابة والتابعين، ولا فيه آية من كتاب اللَّه وسنة رسوله، بل قولهم يخالف الكتاب والسنة وإجماع الأئمة، فكيف يحل مع هذا أن يلزم علماء المسلمين باتباع هذا القول وينفذ فيه هذا الحكم المخالف للكتاب والسنة والإجماع؟ وأن يقال القول الذي دل عليه الكتاب والسنة وأقوال السلف لا يقال ولا يفتى به، بل يعاقب ويؤذى من أفتى به ومن تكلم به وغيرهم، ويؤذى المسلمون في أنفسهم وأهليهم وأموالهم لكونهم اتبعوا ما علموه من دين الإسلام، وإن كان قد خفي على غيرهم وهم يعذرون من خفي عليه ذلك ولا يلزمون باتباعهم ولا يعتدون عليه، فكيف يعان من لا يعرف الحق؟ بل يحكم بالجهل والظلم! ويلزم من عرف ما عرفه من شريعة الرسول أن يترك ما علمه من شرع الرسول لأجل هذا!!

لا ريب أن هذا أمر عظيم عند اللَّه تعالى وعند ملائكته وأنبيائه وعباده، واللَّه لا يغفل عن مثل هذا، وليس الحق في هذا لأحد من الخلق، فإن الذين اتبعوا ما علموه من شرع الرسول لم يظلموا أحدًا في دم ولا مال ولا عرض، ولا لأحد عليهم دعوى، بل هم قالوا: نحن نتبع ما عرفناه من دين الإسلام، وما جاء به الكتاب والسنة من توحيد اللَّه وعبادته لا شريك له، فلا نعبد إلا اللَّه وحده، ونعبده بما أمر به رسوله وشرعه من الدين، فما دعانا إليه رسول اللَّه ﷺ وأمرنا به أطعناه، وما جعله الرسول دينًا وقربة وطاعة وحسنة وعملًا صالحًا وخيرًا سمعنا وأطعنا لله ولرسوله، واعتقدناه قربة وطاعة، وفعلناه وأحببنا من يفعل به، ودعونا إليه، وما نهانا عنه الرسول انتهينا عنه، وإن كان

غيرنا يعتقد أن ذلك قربة، فنحن علينا أن نطيع الرسول، ليس علينا أن نطيع من خالفه، وإن كان متأولاً، ومعلوم أن أهل الكتاب وأهل البدع يتعبدون تعبدات كثيرة يرونها قربة وطاعة، وقد نهى عنها رسول الله، فمن قال: أنا أطيع الرسول ، ولا أتعبد بهذه العبادات، بل أنهى عما نهى عنه رسول اللَّه ﷺ . كيف يسوغ أن يعارض؟ بل لو كان مخطئًا مع اجتهاده لم يستحق العقوبة بإجماع المسلمين، ولا يجب عليه اتباع حكم أحد بإجماع المسلمين، وليس للحاكم أن يحكم بأن هذا أمر به رسول اللَّه وأن هذا العمل طاعة أو قربة، أو ليس بطاعة ولا قربة، ولا بأن السفر إلى المساجد والقبور وقبر النبي يشرع، أو لا يشرع، ليس للحكام في هذا مدخل إلا كما يدخل فيه غيرهم من المسلمين، بل الكلام في هذا لجميع أمة محمد، فمن كان عنده علم تكلم بما عنده من العلم، وليس لأحد أن يحكم على عالم بإجماع المسلمين، بل يبين له أنه قد أخطأ، فإن بين له بالأدلة الشرعية التي يجب قبولها أنه قد أخطأ، وظهر خطؤه للناس، ولم يرجع، بل أصر على إظهار ما يخالف الكتاب والسنة والدعاء إلى ذلك - وجب أن يمنع من ذلك ويعاقب إن لم يمتنع، وأما إذا لم يبين له ذلك بالأدلة الشرعية لم تجز عقوبته باتفاق المسلمين، ولا منعه من ذلك القول، ولا الحكم عليه بأنه لا يقوله إذا كان يقول أن هذا هو الذي دل عليه الكتاب والسنة، كما قاله فلان وفلان من علماء المسلمين، فهذا إذا اجتهد فأخطأ لم يحكم عليه إلا بالكتاب والسنة، والمنازع له يتكلم بلا علم، والحكم الذي حكم به لم يقله أحد من علماء المسلمين، فعلماء المسلمين الكبار لو قالوا بمثل قول الحكام لم يكن لهم إلزام الناس بذلك إلا بحجة شرعية، لا بمجرد حكمهم، فإن اللَّه إنما أوجب

على الناس اتباع الرسول وطاعته، واتباع حكمه وأمره وشرعه ودينه، وهو حجة اللَّه على خلقه، وهو الذي فرق اللَّه به بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والرشاد والغي، وطريق الجنة وطريق النار، وبه هدى اللَّه الخلق، قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء: ١٦٣ - ١٦٥].

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما أحدٌ أحبَّ إليه العذرَ من اللهِ؛ مِن أجلِ ذلك أرسَل الرسلَ مبشرين ومنذرين**»[(١)]. فالحجة على الخلق تقوم بالرسل، وما جاء به الرسول هو الشرع الذي يجب على الخلق قبوله، وإلى الكتاب والسنة يتحاكم جميع الخلق، ولهذا كان من أصول السنة والجماعة أن من تولى بعد رسول اللَّه كالخلفاء الراشدين وغيرهم لا يجب أن ينفرد واحد منهم بعلم لا يعلمه غيره، بل علم الدين الذي سنة الرسول يشترك المسلمون في معرفته، وإذا كان عند بعضهم من الحديث ما ليس عند بعض بلَّغه هؤلاء لأولئك، ولهذا كان الخلفاء يسألون الصحابة في بعض الأمور: هل عندكم علم عن النبي ﷺ؟ فإذا تبين لهم سنة الرسول حكموا بها، كما سألهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن ميراث الجدة لما أتته، فقال: ما لك في

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٣٧، ٤٦٣٤)، ومسلم (٣٢- ٣٥/ ٢٧٦٠) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

كتاب اللَّه من شيء، وما علمت لك في سنة رسول اللَّه شيئًا، ولكن حتى أسأل الناس. فسألهم، فأخبره محمد بن مسلمة وغيره أن رسول اللَّه ﷺ أعطاها السدس(١).

وكذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما سألهم عن الجنين إذا قتل؟ قام بعض الصحابة فأخبره أن النبي ﷺ قضى فيه بغُرَّة عَبدٍ أو أَمَةٍ(٢). أي: من قتل جنينًا ضمنه بمملوك أو جارية لورثته، فقضى بذلك، قالوا: وتكون قيمته بقدر عشر دية أمة، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه قد قال النبي ﷺ فيه: «**إنه قد كان في الأمم قبلكم محدَّثون، فإن يكن في أمتي أحدٌ فعمرُ**»(٣). وروي: «**إنه ضرَب الحقَّ على لسانِه وقلبِه**»(٤). وقال: «**لو لم أُبعث فيكم لبُعث فيكم عمرُ**»(٥).

ومع هذا فما كان يُلزم أحدًا بقوله، ولا يحكم في الأمور العامة، بل كان يشاور الصحابة ويراجَع، فتارة يقول قولاً فترده عليه امرأة فيرجع إليها، كما أراد أن يجعل الصداق محدودًا لا يُزاد على صداقات أزواج النبي ﷺ وقال: «**من زاد جعلت الزيادة في بيت المال**». وكان المسلمون يعجلون الصداق قبل الدخول لم يكونوا يؤخرونه إلا أمرًا نادرًا، فقالت امرأة: «**يا أمير**

---

(١) حديث توريث الجدة السدس: أخرجه أبو داود (٢٨٩٤)، والترمذي (٢١٠١)، والنسائي في «الكبرى» (٤/ ٧٥).

(٢) حديث دية الجنين: أخرجه البخاري (٦٩٠٥، ٦٩٠٧، ٦٩٠٨، ٧٣١٧)، مسلم (١٦٨٩/ ٣٩) من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٦٩، ٣٦٨٩)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) أخرجه أحمد (٥/ ١٦٥، ١٧٧)، وأبو داود (٢٩٦٢)، وابن ماجه (١٠٨)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٥) أخرجه أحمد (٤/ ١٥٤) وابن عدي في «الكامل» (٤/ ١٩٤)، وابن عساكر في «تاريخه» (٤٤/ ١١٤).

المؤمنين، لِمَ تحرمنا شيئًا أعطانا اللَّه إياه في كتابه؟ فقال: وأين؟ فقالت: في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٢٠]». فرجع عمر إلى قولها، وقال: «**امرأة أصابت، ورجل أخطأ**»(١).

وكان في مسائل النزاع مثل مسائل الفرائض والطلاق يرى رأيًا، ويرى عليُّ بن أبي طالب ﷺ رأيًا، ويرى عبد اللَّه بن مسعود ﷺ رأيًا، ويرى زيد بن ثابت ﷺ رأيًا، فلم يُلزم أحدًا أن يأخذ بقوله، بل كل منهم يفتي بقوله، وعمر ﷺ إمام الأمة كلها وأعلمهم وأدينهم وأفضلهم، فكيف يكون واحد من الحكام خيرًا من عمر؟!

هذا إذا كان قد حكم في مسألة اجتهاد، فكيف إذا كان ما قاله لم يقله أحد من أئمة المسلمين؛ لا الأربعة ولا من قبلهم من الصحابة والتابعين، وإنما يقوله مثله وأمثاله ممن لا علم لهم بالكتاب والسنة، وأقوال السلف والأئمة، وإنما يحكمون بالعادات التي تربوا عليها، كالذين قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢]، وكما تحكم الأعراب بالسوالف التي كانت لهم، وهي عادات، كما يحكم التتر ب - «**الياسق**» الذي جرت به عاداتهم.

---

(١) قال الحافظ في «الفتح» (٩/ ٢٠٤): أخرجه عبد الرزاق من طريق أبي عبد الرحمن السلمي، قال: قال عمر: «لا تغالوا في مهور النساء». فقالت امرأة: ليس ذلك لك يا عمر، إن الله يقول: ﴿وآتيتم إحداهن قنطارًا من ذهب﴾. قال: وكذلك هي في قراءة ابن مسعود. فقال عمر: «امرأة خاصمت عمر فخصمته». وأخرجه الزبير بنُ بكار من وجه آخر منقطع، فقال عمر: «امرأة أصابت، ورجل أخطأ». وأخرجه أبو يعلى من وجه آخر، عن مسروق، عن عمر... فذكره متصلاً مطولاً. وأصل قول عمر: «لا تغالوا في صدقات النساء». عند أصحاب السنن، وصححه ابن حبان والحاكم، لكن ليس فيه قصة المرأة..

وأما أهل الإيمان والإسلام والعلم والدين فإنما يحكمون بكتاب اللَّه وسنة رسوله، كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٥٠].

واللَّه سبحانه لم يرض بحكم واحد بين الزوجين إذا خيف الشقاق بينهما، فإنه لا يعلم أيهما الظالم، وليس بينهما بينة، بل أمر بحكمين وأن لا يكونا متهمين، بل حَكَمًا من أهل الرجل وحَكَمًا من أهل المرأة؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا﴾ [النساء: ٣٥]؛ أي: الحكمين، ﴿يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾، فإن رأيا المصلحة أن يجمعا بين الزوجين جمعًا، وإن رأيا المصلحة أن يفرِّقا بينهما فرَّقا، إما بعوض تبذله المرأة فتكون الفرقة خلعًا إن كانت هي الظالمة، وإن كان الزوج هو الظالم فرق بينهما بغير اختياره، وأكثر العلماء على أن هذين حكمان، كما سماهما اللَّه حكمين، يحكمان بغير توكيل الزوجين، وهذا قول مالك والشافعي والإمام أحمد في أحد قوليهما، وقيل: هما وكيلان، كقول أبي حنيفة والقول الآخر في المذهبين.

فهنا لما اشتبه الحق لم يجعل اللَّه الحكم لواحد، وهو في قضية معينة بين زوجين، ولو حكم حاكم واحد بين الزوجين في أمر ظاهر لم ينفذ حكمه باتفاق المسلمين، فكيف بأمور الدين والعبادات التي يشترك فيها جميع المسلمين، وقد اشتبهت على كثير من الناس؟! هذا بإجماع المسلمين لا يحكم فيه إلا اللَّه ورسوله، فمن كان عنده علم مما جاء به الرسول ﷺ بينه

وأوضحه للمسلمين، والمسلمون إذا عرفوا شرع نبيهم لم يعدلوا عنه، وإن كان كل قوم يقولون: عندنا علم من الرسول، ولم يكن هناك أمر ظاهر يجمعون فيما تنازعوا فيه كان أحد الحزبين لهم أجران، والآخرون لهم أجر واحد؛ كما قال تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ [الأنبياء: ٧٨، ٧٩].

وولي الأمر إن عرف ما جاء به الكتاب والسنة حكم بين الناس به، وإن لم يعرفه وأمكنه أن يعلم ما يقول هذا وما يقول هذا حتى يعرف الحق حكم به، وإن لم يمكنه لا هذا ولا هذا ترك المسلمين على ما هم عليه، كل يعبد اللَّه على حسب اجتهاده، وليس له أن يلزم أحدًا بقبول قول غيره، وإن كان حاكمًا، وإذا خرج ولاة الأمور عن هذا فقد حكموا بغير ما أنزل الله، ووقع بأسهم بينهم، قال النبي ﷺ: «**ما حكَم قومٌ بغيرِ ما أنزَل اللهُ إلا وقَع بأْسُهم بينهم**»[1]. وهذا من أعظم أسباب تغيير الدول، كما قد جرى مثل هذا مرة بعد مرة في زماننا وغير زماننا.

ومن أراد اللَّه سعادته جعله يعتبر بما أصاب غيره، فيسلك مسلك من أيده اللَّه ونصره، ويجتنب مسلك من خذله اللَّه وأهانه، فإن اللَّه يقول في كتابه: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: ٤٠، ٤١]، فقد وعد اللَّه بنصر من ينصره،

---

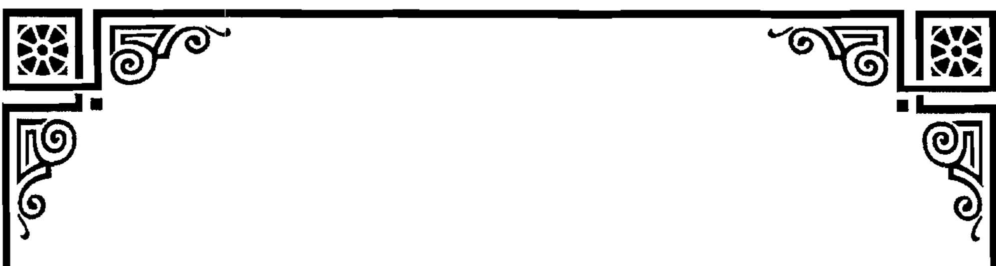
(١) أخرجه ابن ماجه (٤٠١٩) وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٣٣٣)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٥٤٠) بإسناد حسن. انظر: «السلسلة الصحيحة» (رقم ١٠٦).

ونصْرُه هو نصر كتابه ودينه ورسوله، لا نصر من يحكم بغير ما أنزل الله، ويتكلم بما لا يعلم، فإن الحاكم إذا كان دَيِّنًا لكنه حكم بغير علم كان من أهل النار، وإن كان عالمًا لكنه حكم بخلاف الحق الذي يعلمه كان من أهل النار، وإذا حكم بلا عدل ولا علم كان أولى أن يكون من أهل النار، وهذا إذا حكم في قضية معينة لشخص، وأما إذا حكم حكمًا عامًّا في دين المسلمين فجعل الحق باطلاً والباطل حقًّا، والسنة بدعة، والبدعة سنة، والمعروف منكرًا، والمنكر معروفًا، ونهى عما أمر اللَّه به ورسوله، وأمر بما نهى اللَّه عنه ورسوله، فهذا لون آخر يحكم فيه رب العالمين، وإله المرسلين، مالك يوم الدين، الذي له الحمد في الأولى والآخرة، وله الحكم وإليه ترجعون، الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى باللَّه شهيدًا، والحمد لله رب العالمين، وصلى اللَّه على محمد وآله وصحبه وسلم»[1].

* * *

(١) «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ٣٨٠-٣٨٨).





المخالفون لدعوة الرسل



تحذير القرآن والسنة من اتباع سبيل اليهود

- **ذكر تلاعب الشيطان بالأمة الغضبية، وهم اليهود..**

قال اللَّه تعالى في حقهم: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ [البقرة: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [المائدة: ٦٠ - ٦٣]، وقال تعالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [المائدة: ٨٠].

«وقد أمرنا اللَّه سبحانه أن نسأله في صلواتنا أن يهدينا صراط الذين أنعم عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، وثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**اليهودُ مغضوبٌ عليهم، والنصارى ضالون**»[(١)].

فأول تلاعب الشيطان بهذه الأمة في حياة نبيها، وقرب العهد بإنجائهم من فرعون وإغراقه وإغراق قومه، فلما جاوزوا البحر رأوا قومًا يعكفون على

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١/ ١٠٧- ١١٢)، بأسانيده إلى عدي بن حاتم وابن مسعود مرفوعًا، وموقوف عن ابن عباس ومجاهد والربيع بن أنس وابن زيد.
وقال ابنُ أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (١/ ٤٢): لا أعلم خلافا بين المفسرين في تفسير المغضوب عليهم باليهود والضالين بالنصارى. ا؟.

أصنام لهم، فقالوا: ﴿يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] فقال لهم موسى عليه السلام: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ [الأعراف: ١٣٨، ١٣٩]، فأي جهل فوق هذا، والعهد قريب وإهلاك المشركين أمامهم بمرأى من عيونهم؟! فطلبوا من موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلهًا، فطلبوا من مخلوق أن يجعل لهم إلهًا مخلوقًا، وكيف يكون الإله مجعولاً، فإن الإله هو الجاعل لكل ما سواه، والمجعول مربوب مصنوع، فيستحيل أن يكون إلهًا.

وما أكثر الخلف لهؤلاء في اتخاذ إله مجعول، فكل من اتخذ إلهًا غير اللَّه فقد اتخذ إلهًا مجعولاً، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه كان في بعض غزواته، فمروا بشجرة يعلق عليها المشركون أسلحتهم وشاراتهم وثيابهم، يسمونها: ذات أنواط، فقال بعضهم: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط، كما لهم ذات أنواط. فقال: «**اللهُ أكبرُ! قلتم كما قال قوم موسى لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾**»، ثم قال: «**لتركبُنَّ سَنَنَ مَن كان قبلكم حَذْوَ القُذَّةِ بالقُذَّةِ**»(١).

ومن تلاعبه بهم: عبادتهم العجل من دون اللَّه تعالى، وقد شاهدوا ما حل بالمشركين من العقوبة والأخذة الرابية، ونبيهم حي لم يمت، هذا، وقد شاهدوا صانعه يصنعه ويصوغه، ويُصْلِيه النار، ويدقه بالمطرقة، ويسطو عليه بالمبرد، ويقلبه بيديه ظهرًا لبطن، ومن عجيب أمرهم أنهم لم يكتفوا بكونه إلههم حتى جعلوه إله موسى، فنسبوا موسى عليه السلام إلى الشرك وعبادة غير اللَّه تعالى، بل عبادة أبلد الحيوانات وأقلها دفعًا عن نفسه؛ بحيث يضرب به

---

(١) سلف تخريجه.

المثل في البلادة والذل، فجعلوه إله كليم الرحمن.

ثم لم يكتفوا بذلك حتى جعلوا موسى عليه السلام ضالاً مخطئًا، فقالوا: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ [طه: ٨٨]، قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: «**أي: ضل وأخطأ الطريق**». وفي رواية عنه: «**أي: إن موسى ذهب يطلب ربه، فضلَّ ولم يعلم مكانه**». وعنه أيضًا: «**نسي أن يذكر لكم أن هذا إلهه وإلهكم**»[1].

وقال السدي: «**أي: ترك موسى إلهه هاهنا وذهب يطلبه**»[2].

وقال قتادة: «**أي: إن موسى إنما يطلب هذا، ولكنه نسيه وخالفه في طريق آخر**»[3].

هذا هو القول المشهور أن قوله: ﴿فَنَسِيَ﴾ من كلام السامري وعباد العجل معه، وعن ابن عباس رواية أخرى: «**إن هذا من إخبار الله تعالى عن السامري، أنه نسي؛ أي: ترك ما كان عليه من الإيمان**».

والصحيح القول الأول، والسياق يدل عليه، ولم يذكر البخاري في التفسير غيره[4].

فقال: «**فنسي موساهم، يقولونه أخطأ الرب**».

فإنه لما جعله إله موسى استحضر سؤالاً من بني إسرائيل يوردونه عليه فيقولون له: إذا كان هذه إله موسى فلأي شيء ذهب عنه لموعد إلهه؟

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١/ ٢٨٢- ٢٨٣)، (١٦/ ٢٠١).

(٢) أخرجه ابنُ جرير الطبري في «تفسيره» (١/ ٢٨٢).

(٣) أخرجها ابنُ جرير الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٢٠١).

(٤) أخرجها ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١/ ٢٨٢- ٢٨٣)، (١٦/ ٢٠١). ذكره البخاري في «صحيحه» (٤/ ١٧٦٢).

فأجاب عن هذا السؤال قبل إيراده عليه بقوله: ﴿فَنَسِيَ﴾، وهذا من أقبح تلاعب الشيطان بهم، فانظر إلى هؤلاء كيف اتخذوا إلهًا مصنوعًا، مصنوعًا من جوهر أرضي، إنما يكون تحت التراب محتاجًا إلى سبك بالنار وتصفية وتخليص لخبثه منه، مدقوقًا بمطارق الحديد، مقلبًا في النار مرة بعد مرة، قد نحت بالمبارد وأحدث الصانع صورته، وشكله على صورة الحيوان المعروف بالبلادة والذل والضيم، وجعلوه إله موسى ونسبوه إلى الضلال حيث ذهب يطلب إلهًا غيره.

قال محمد بن جرير[1]: وكان سبب اتخاذهم العجل ما حدثني به عبد الكريم بن الهيثم قال: حدثني إبراهيم بن بشار الرمادي، حدثنا سفيان بن عيينة، حدثنا أبو سعيد، عن عكرمة، عن ابن عباس - رضي اللَّه تعالى عنهما - قال: «لما هجم فرعون على البحر هو وأصحابه، وكان فرعون على فرس أَدْهَم ذَنُوب[2]، فلما هجم فرعون على البحر هاب الحصان أن يقتحم في البحر، فمثل له جبريل على فرس أنثى وَدِيق[3]، فلما رآها الحصان تقحم خلفها، قال: وعرف السامريُّ جبريلَ؛ لأن أمه حين خافت أن يُذبح خلفته في غار، وأطبقت عليه، وكان جبريل يأتيه فيغذوه بأصابعه، فيجد في بعض أصابعه لبنًا، وفي الأخرى عسلًا، وفي الأخرى سمنًا، فلم يزل يغذوه حتى نشأ، فلما عاينه في البحر عرفه، فقبض قبضة من أثر فرسه، قال: أخذ قبضة من تحت الحافر».

قال سفيان: وكان ابن مسعود ﷺ يقرؤها: «**فقبضت قبضة من أثر فرس**

---

(١) في «تفسيره» (١/ ٢٨١).

(٢) فرس أدهم: أي أسود. وذنوب: أي وافر شعر الذَّنَب. «اللسان» (د هـ م - ذ ن ب).

(٣) الوديق: التي تشتهي الفحل. «اللسان» (و د ق).

الرسول»(١).

قال أبو سعيد: قال عكرمة عن ابن عباس - رضي اللَّه عنهما -: «**وألقي في روع السامري إنك لا تلقيها على شيء فتقول: كن كذا وكذا؛ إلا كان، فلم تزل القبضة معه في يده حتى جاوز البحر، فلما جاوز موسى وبنو إسرائيل البحر وأغرق اللَّه آل فرعون، قال موسى لأخيه هارون:** ﴿ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ﴾ [الأعراف: ١٤٢]، ومضى موسى لموعد ربه. قال: وكان مع بني إسرائيل حُلِيٌّ من حُلِيِّ آل فرعون، قد استعاروه، فكأنهم تأثموا منه، فأخرجوه لتنزل النار فتأكله، فلما جمعوه قال السامري بالقبضة التي كانت في يده هكذا، وأومأ ابن إسحاق بيده هكذا، فقذفها فيه، وقال: كن عجلاً جسدًا له خوار، فصار عجلاً جسدًا له خوار، فكان يدخل الريح من دبره، ويخرج من فيه يسمع له صوت، فقال: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾، فعكفوا على العجل يعبدونه، فقال هارون: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾ [طه: ٩٠، ٩١]»(٢).

وقال السدي: «لما أمر اللَّه موسى أن يخرج ببني إسرائيل من أرض مصر، أمر موسى بني إسرائيل أن يخرجوا، وأمرهم أن يستعيروا الحُلِيَّ من القبط، فلما نجى اللَّه موسى ومن معه من بني إسرائيل من البحر، وأغرق آل فرعون، أتى جبريل إلى موسى ليذهب به إلى الله، فأقبل على فرس، فرآه السامري فأنكره، ويقال: إنه فرس الحياة، فقال حين رآه: إن لهذا لشأنًا،

(١) راجع «تفسير الطبري» (١/ ٢٨١).
(٢) «تفسير الطبري» (١/ ٢٨١).

فأخذ من تربة حافر الفرس، فانطلق موسى الطَّيْلاً، واستخلف هارون على بني إسرائيل، وواعدهم ثلاثين ليلة فأتمها اللَّه تعالى بعشر، فقال لهم هارون: يا بني إسرائيل إن الغنيمة لا تحل لكم، وإن حُلِيَّ القبط إنما هو غنيمة فاجمعوها جميعًا، واحفروا لها حفرة فادفنوها، فإن جاء موسى فأحلها أخذتموها، وإلا كان شيئًا لم تأكلوه، فجمعوا ذلك الحُلِيَّ في تلك الحفرة، وجاء السامري بتلك القبضة فقذفها، فأخرج اللَّه من الحُلِيِّ عجلاً جسدًا له خوار، وعدَّت بنو إسرائيل موعد موسى، فعدُّوا الليلة يومًا واليوم يومًا فلما كان تمام العشرين، أخرج لهم العجل، فلما رأوه قال لهم السامري: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾، يقول: ترك موسى إلهه هاهنا، وذهب يطلبه. فعكفوا عليه يعبدونه، وكان يخور ويمشي، فقال لهم هارون: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾، يقول: إنما ابتليتم بالعجل، ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾. فأقام هارون ومن معه من بني إسرائيل لا يقاتلونهم، وانطلق موسى إلى اللَّه يكلمه، فلما كلمه قال له: ﴿۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾﴾ [طه: ٨٣، ٨٤] فأخبره خبرهم، قال موسى: يا رب، هذا السامري أمرهم أن يتخذوا العجل، فالروح من نفخها فيه؟ قال الرب تعالى: أنا. قال: يا رب، أنت إذًا أضللتهم»[(١)].

وقال ابن إسحاق: عن حكيم بن جبير، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس - رضي اللَّه عنهما - قال: «كان السامري من أهل باجَرْما، وكان من قوم يعبدون البقر، فكان يحب عبادة البقر في نفسه، وكان قد أظهر الإسلام في بني

---

(١) «تفسير الطبري» (١/ ٢٨٢).

إسرائيل، فلما ذهب موسى إلى ربه قال لهم هارون: أنتم قد حملتم أوزارًا من زينة القوم، آل فرعون، وأمتعة وحُليًا، فتطهروا منها فإنها نجس. وأوقد لهم نارًا، فقال: اقذفوا ما كان معكم من ذلك فيها. فجعلوا يأتون بما كان معهم من تلك الأمتعة والحُليِّ، فيقذفون به فيها، حتى إذا انكسر الحُليِّ فيها، ورأى السامري أثر فرس جبريل، فأخذ ترابًا من أثر حافره، ثم أقبل إلى النار فقال لهارون: يا نبي الله، أُلقي ما في يدي؟ قال: نعم. ولا يظن هارون إلا أنه كبعض ما جاء به غيره من الحليِّ والأمتعة، فقذفه فيها، فقال: كن عجلاً جسدًا له خوار، فكان البلاء والفتنة، فقال: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾، فعكفوا عليه وأحبوه حبًّا لم يحبوا شيئًا مثله قط، يقول الله ﷻ: ﴿فَنَسِىَ﴾؛ أي: ترك ما كان عليه من الإسلام، يعني السامري، ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾، وكان اسم السامري: موسى بن ظَفَر، وقع في أرض مصر، فدخل في بني إسرائيل، فلما رأى هارون ما وقعوا فيه، قال: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾، فأقام هارون فيمن معه من المسلمين ممن لم يفتتن، وأقام من يعبد العجل على عبادة العجل، وتخوف هارون إن سار بمن معه من المسلمين أن يقول له موسى: ﴿فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾، وكان له هائبًا مطيعًا، فقال تعالى - مذكرًا لبني إسرائيل بهذه القصة التي جرت لأسلافهم مع نبيهم -: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾﴾ [البقرة: ٥١]؛ يعني: من بعد ذهابه إلى ربه، وليس المراد من بعد موته: ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾؛ أي: بعبادة غير الله تعالى؛ لأن الشرك أظلم الظلم؛ لأن المشرك وضع العبادة في غير موضعها.

فلما قدم موسى عليه السلام، ورأى ما أصاب قومه من الفتنة اشتد غضبه وألقى الألواح عن رأسه، وفيها كلام اللَّه الذي كتبه له، وأخذ برأس أخيه ولحيته، ولم يعتب اللَّه عليه في ذلك؛ لأنه حمله عليه الغضب لله، وكان اللَّه عز وجل قد أعلمه بفتنة قومه، ولكن لما رأى الحال مشاهدة حدث له غضب آخر، فإنه ليس الخبر كالمعاينة(١).

ومن تلاعب الشيطان بهذه الأمة في حياة نبيهم أيضًا: ما قصه اللَّه تعالى في كتابه حيث يقول: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [البقرة: ٥٥]؛ أي: عيانًا.

قال ابن جرير: «ذكرهم اللَّه تعالى بذلك اختلاف آبائهم، وسوء استقامة أسلافهم لأنبيائهم، مع كثرة معاينتهم من آيات اللَّه ما يثلج بأقلها الصدور، وتطمئن بالتصديق معها النفوس، وذلك مع تتابع الحجج عليهم، وسبوغ النعم من اللَّه تعالى لديهم، وهم مع ذلك مرة يسألون نبيهم أن يجعل لهم إلهًا غير الله، ومرة يعبدون العجل من دون الله، ومرة يقولون: لا نصدقك حتى نرى اللَّه جهرة. وأخرى يقولون له إذا دُعوا إلى القتال: ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون﴾. ومرة يقال لهم: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾، فيقولون: حبة في شعيرة. ويدخلون من قِبل أستاههم، ومرة يعرض عليهم العمل بالتوراة فيمتنعون من ذلك، حتى نَتَقَ اللَّه تعالى عليهم الجبل كأنه ظلة، إلى غير ذلك من أفعالهم التي آذوا بها نبيهم، التي يكثر إحصاؤها، فأعلم ربنا تبارك وتعالى الذين خاطبهم بهذه الآيات من يهود بني إسرائيل الذين كانوا على عهد رسول اللَّه أنهم لن

---

(١) «تفسير الطبري» (١/ ٢٨٢- ٢٨٣).

يعدوا أن يكونوا - في تكذيبهم محمدًا وجحودهم نبوته وتركهم الإقرار به وبما جاء به مع علمهم به ومعرفتهم بحقيقة أمره - كأسلافهم وآبائهم الذين قص اللَّه علينا قصصهم»(١).

وقال محمد بن إسحاق: «لما رجع موسى إلى قومه فرأى ما هم فيه من عبادة العجل، وقال لأخيه وللسامري ما قال، وحرّق العجل وذراه في اليم، اختار موسى منهم سبعين رجلًا الخير فالخير، وقال: انطلقوا إلى اللَّه ﷿، فتوبوا إلى اللَّه مما صنعتم واسألوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم، فصوموا وتطهروا وطهروا نياتكم. فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقَّته له ربه، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه، فقال له السبعون فيما ذكر لي حين صنعوا ما أمرهم به، وخرجوا للقاء الله: يا موسى، اطلب لنا إلى ربك أن نسمع كلام ربنا، فقال: أفعل. فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه الغمام حتى تغشى الجبل كله، ودنا موسى فأدخل فيه، وقال للقوم: ادنوا، وكان موسى ﵇ إذا كلمه ربه وقع على جبهته نور ساطع، لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه، فضرب دونه بالحجاب، ودنا القوم، حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجودًا، فسمعوه تعالى وهو يكلم نبيه موسى؛ يأمره وينهاه، افعل ولا تفعل، فلما فرغ اللَّه من أمره انكشف عن موسى الغمام، فأقبل إليهم فقالوا لموسى ﵇: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾، فماتوا جميعًا، وقام موسى ﵇ يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه ويقول: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ [الأعراف: ١٥٥](٢).

---

(١) أخرجه في «تفسيره» (١/ ٢٨٩).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١/ ٢٩١).

فإن قيل: فما مقصود موسى بقوله: ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ﴾ [الأعراف: ١٥٥]؟

فقد ذُكر فيه وجوه:

فقال السدي: «لما ماتوا، قام موسى يبكي ويقول: يا رب، ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكتَ خيارهم؟»(١). وقال محمد بن إسحاق: «**اخترت منهم سبعين رجلًا؛ الخير فالخير، أرجع إليهم وليس معي منهم رجل واحد؟ فما الذي يصدقوني به، أو يأمنوني عليه بعد هذا؟**»(٢).

وعلى هذا؛ فالمعنى: لو شئت أهلكتهم من قبل خروجنا، فكان بنو إسرائيل يعاينون ذلك ولا يتهموني.

وقال الزجاج: «المعنى: لو شئت أهلكتهم من قبل أن تبتليهم بما أوجب عليهم الرجفة»(٣).

قلت: وهؤلاء كلهم حاموا حول المقصود، والذي يظهر، والله أعلم بمراده ومراد نبيه، أن هذا استعطاف من موسى عليه السلام لربه، وتوسل إليه بعفوه عنهم من قبلُ حين عبد قومهم العجل، ولم ينكروا عليهم، يقول موسى: إنهم قد تقدم منهم ما يقتضي هلاكهم، ومع هذا فوسعهم عفوك ومغفرتك ولم تهلكهم، فليسعهم اليوم ما وسعهم من قبل.

وهذا كما يقول من واخذه سيده بجرم: لو شئت واخذتني من قبل هذا بما هو أعظم من هذا الجرم، ولكن وسعني عفوك أولاً، فليسعني اليوم.

ثم قال نبي الله: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ [الأعراف: ١٥٥].

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١/ ٢٩٢)،

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١/ ٢٩١)،

(٣) ذكره عنه في «زاد المسير» (٣/ ٢٦٩).

فقال ابن الأنباري وغيره: «هذا استفهام على معنى الجحد؛ أي: لست تفعل ذلك». والسفهاء هنا عبدة العجل.

قال الفراء: «ظن موسى أنهم أهلكوا باتخاذ قومهم العجل، فقال: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾، وإنما كان إهلاكهم بقولهم: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣] ثم قال: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، وهذا من تمام الاستعطاف؛ أي: ما هي إلا ابتلاؤك واختبارك لعبادك، فأنت ابتليتهم وامتحنتهم، فالأمر كله لك وبيدك، لا يكشفه إلا أنت، كما لم يمتحن به ويختبر به إلا أنت، فنحن عائذون بك منك، ولاجئون منك إليك.

ومِن تلاعب الشيطان بهذه الأمة وكيده لهم: أنهم قيل لهم وهم مع نبيهم والوحي ينزل عليه من اللَّه تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [البقرة: ٥٨]. **قال قتادة وابن زيد والسدي وابن جرير وغيرهم**: «**هي قرية بيت المقدس**». ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ [البقرة: ٥٨]؛ أي: هنيئًا واسعًا. ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ [البقرة: ٥٨]، **قال السدي**: «**هو باب من أبواب بيت المقدس**». وكذلك قال ابن عباس - رضي اللَّه تعالى عنهما.

قال: «والسجود بمعنى الركوع، وأصل السجود الانحناء لمن تُعظِّمه، فكل منحنٍ لشيء تعظيمًا له فهو ساجد». قاله ابن جرير وغيره.

قلت: وعلى هذا فانحناء المتلاقيين عند السلام أحدهما لصاحبه من السجود المحرم، وفيه نهي صريح عن النبي ﷺ.

ثم قيل لهم: ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ [البقرة: ٥٨]؛ أي: حُطَّ عنا خطايانا. هذا قول الحسن وقتادة وعطاء(١).

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١/ ٣٠٠).

وقال عكرمة وغيره: أي قولوا: لا إله إلا الله. وكأن أصحاب هذا القول اعتبروا الكلمة التي تُحَطُّ بها الخطايا، هي كلمة التوحيد، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: «**أمروا بالاستغفار**»[(١)].

وعلى القولين؛ فيكونون مأمورين بالدخول بالتوحيد والاستغفار، وضمن لهم بذلك مغفرة خطاياهم، فتلاعب الشيطان بهم، فبدلوا قولاً غير الذي قيل لهم، وفعلاً غير الذي أُمروا به.

فروى البخاري في «صحيحه» ومسلم أيضًا من حديث همام بن منبه عن أبي هريرة - رضي اللّه تعالى عنه - قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**قيل لبني إسرائيل: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾**، فبدلوا، فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم، وقالوا: حبة في شعرة. فبدلوا القول والفعل معًا، فأنزل اللّه عليهم رجزًا من السماء»[(٢)]. **قال أبو العالية**: «**هو الغضب**» **وقال ابن زيد**: «**هو الطاعون**»[(٣)]. وعلى هذا، فالطاعون بالرصد لمن بدل دين اللّه قولاً وعملاً.

ومن تلاعب الشيطان بهم: أنهم كانوا في البرية قد ظلل عليه الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى، فملُّوا ذلك، وذكروا عيش الثُّوم والبصل، والعَدَس والبقل والقثاء، فسألوه موسى عليه السلام، وهذا من سوء اختيارهم لأنفسهم، وقلة بصرهم بالأغذية النافعة الملائمة، واستبدال الأغذية الضارة القليلة التغذية منها، ولهذا قال لهم موسى عليه السلام: ﴿أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١/ ٣٠١).
(٢) أخرجه البخاري (٣٤٠٣، ٤٤٧٩، ٤٦٤١)، ومسلم (٣٠١٥/ ١).
(٣) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١/ ٣٠٥).

بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌۚ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا﴾ [البقرة: ٦١]؛ أي: مصرًا من الأمصار: ﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْۗ﴾ [البقرة: ٦١].

فكانوا في أفسح الأمكنة وأوسعها وأطيبها هواء، وأبعدها عن الأذى ومجاورة الأنتان والأقذار، سقفهم الذي يظلهم من الشمس الغمام، وطعامهم السلوى، وشرابهم المن.

قال ابن زيد: «**كان طعام بني إسرائيل في التيه واحدًا، وشرابهم واحدًا، كان شرابهم عسلًا ينزل من السماء، يقال له: المن، وطعامهم طير، يقال له: السلوى، يأكلون الطير ويشربون العسل، لم يكن لهم خبز ولا غيره**».

ومعلوم فضل هذا الغذاء والشراب على غيرهما من الأغذية والأشربة.

وكانوا مع ذلك يتفجر لهم من الحجر اثنا عشر عينًا من الماء، فطلبوا الاستبدال بما هو دون ذلك بكثير، فذموا على ذلك.

فكيف بمن استبدل الضلال بالهدى والغي بالرشاد، والشرك بالتوحيد، والسنة بالبدعة، وخدمة الخالق بخدمة المخلوق، والعيش الطيب في المساكن الطيبة في جوار اللَّه تعالى بحظه من العيش النكد الفاني في هذه الدار؟

ومن تلاعبه بهم: أنهم لما عرضت عليهم التوراة لم يقبلوها، وقد شاهدوا من الآيات ما شاهدوه حتى أمر اللَّه سبحانه جبريل، فقلع جبلًا من أصله على قدرهم ثم رفعه فوق رءوسهم، وقيل لهم: إن لم تقبلوها ألقيناه عليكم. فقبلوه كرهًا، قال اللَّه تعالى: ﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [الأعراف: ١٧١]، قال عبد اللَّه بن وهب: قال ابن زيد: «لما رجع موسى من عند ربه بالألواح، قال لبني إسرائيل: إن هذه الألواح فيها كتاب الله،

وأمْرُه الذي أمركم به، ونهيه الذي نهاكم عنه. فقالوا: ومن يأخذ بقولك أنت؟ لا والله، حتى نرى اللَّه جهرة، حتى يطلع اللَّه إلينا، فيقول: هذا كتابي فخذوه، فما له لا يكلمنا كما كلمك أنت يا موسى، فيقول: هذا كتابي فخذوه. فجاءت غضبة من اللَّه تعالى، فجاءتهم صاعقة، فصعقتهم، فماتوا أجمعون، قال: ثم أحياهم اللَّه تعالى بعد موتهم، فقال لهم موسى: خذوا كتاب الله، فقالوا: لا. فقال: أي شيء أصابكم؟ قالوا: متنا ثم حيينا، فقال: خذوا كتاب الله. قالوا: لا. قال: فبعث اللَّه ملائكته فنتقت الجبل فوقهم، فقيل لهم: أتعرفون هذا؟ قالوا: نعم، الطور. قال: خذوا الكتاب، وإلا طرحناه عليكم. قال: فأخذوه بالميثاق»[(١)].

وقال السدي: «لما قال اللَّه تعالى لهم: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾. فأبوا أن يسجدوا، فأمر اللَّه الجبل أن يرتفع فوق رءوسهم، فنظروا إليه، وقد غشيهم، فسقطوا سجدًا على شق، ونظروا بالشق الآخر، فكشفه عنهم، ثم تولوا من بعد هذه الآيات وأعرضوا، ولم يعملوا بما في كتاب الله، ونبذوه وراء ظهورهم، فقال تعالى مذكرًا لهؤلاء بما جرى من أسلافهم: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝٦٣ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۖ فَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٦٤﴾ [البقرة: ٦٣، ٦٤]»[(٢)].

ومن تلاعبه بهم: أن اللَّه سبحانه أنجاهم من فرعون وسلطانه وظلمه، وفرق بهم البحر، وأراهم الآيات والعجائب، ونصرهم وآواهم وأعزهم،

(١) أخرجه ابن جرير (١/ ٢٩٢، ٣٢٤).
(٢) أخرجه ابن جرير (١/ ٣٢٥).

وآتاهم ما لم يؤت أحدًا من العالمين، ثم أمرهم أن يدخلوا القرية التي كتب اللَّه لهم، وفي ضمن هذا بشارتهم بأنهم منصورون ومفتوح لهم، وأن تلك القرية لهم، فأبوا طاعته وامتثال أمره، وقابلوا هذا الأمر والبشارة بقولهم: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤].

وتأمل تلطف نبي اللَّه تعالى موسى ﷺ بهم، وحسن خطابه لهم، وتذكيرهم بنعم اللَّه عليهم، وبشارتهم بوعد اللَّه لهم: بأن القرية مكتوبة لهم، ونهيهم عن معصيته بارتدادهم على أدبارهم، وأنهم إن عصوا أمره ولم يمتثلوا؛ انقلبوا خاسرين.

فجمع لهم بين الأمر والنهي، والبشارة والنذارة، والترغيب والترهيب، والتذكير بالنعم السالفة، فقابلوه أقبح المقابلة فعارضوا أمر اللَّه تعالى بقولهم: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة: ٢٢]، فلم يوقروا رسول اللَّه وكليمه حتى نادوه باسمه! ولم يقولوا: يا نبي الله. وقالوا: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾، ونسوا قدرة جبار السموات والأرض الذي يذل الجبابرة لأهل طاعته، وكان خوفهم من أولئك الجبارين الذين نواصيهم بيد اللَّه أعظم من خوفهم من الجبار الأعلى سبحانه، وكانوا أشد رهبة في صدورهم منه.

ثم صرحوا بالمعصية والامتناع من الطاعة، فقالوا: ﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ [المائدة: ٢٢].

- **فأكدوا معصيتهم بأنواع من التأكيد:**

أحدها: تمهيد عذر العصيان بقولهم: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾.

والثاني: تصريحهم بأنهم غير مطيعين، وصدروا الجملة بحرف التأكيد، وهو (إنَّ) ثم حققوا النفي بأداة (لن) الدالة على نفي المستقبل؛ أي: لا

ندخلها الآن ولا في المستقبل.

ثم علقوا دخولها بشرط خروج الجبارين منها، فقال لهم: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا﴾ [المائدة: ٢٣] بطاعته والانقياد إلى أمره من الذين يخافون الله، هذا قول الأكثرين، وهو الصحيح، وقيل: من الذين يخافونهم من الجبارين، أسلما واتبعا موسى عليه السلام: ﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ﴾ [المائدة: ٢٣]؛ أي: باب القرية، فاهجموا عليهم، فإنهم قد ملئوا منكم رعبًا، ﴿فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، ثم أرشداهم إلى ما يحقق النصر والغلبة لهم، وهو التوكل.

فكان جواب القوم أن قالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، فسبحان مَن عَظُم حلمه؛ حيث يقابَل أمرُه بمثل هذه المقابلة! ويواجَه رسولُه بمثل هذا الخطاب! وهو يحلم عنهم ولا يعاجلهم بالعقوبة!! بل وسعهم حلمه وكرمه!! وكان أقصى ما عاقبهم به أن ردهم في برية التيه أربعين عامًا، يظلل عليهم الغمام من الحر، وينزل عليهم المن والسلوى.

وفي «الصحيحين» عن عبد اللّه بن مسعود رضي الله عنه قال: «**لقد شهدت من المقداد بن الأسود مشهدًا لأن أكون صاحبه أحب إليَّ مما عدل به، أتى النبي وهو يدعو على المشركين فقال: لا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى: ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون﴾، ولكنا نقاتل عن يمينك وشمالك، وبين يديك ومن خلفك. فرأيت رسول اللّه أشرق وجهه لذلك وسُرَّ به**»[1].

(١) أخرجه البخاري (٣٩٥٢، ٤٦٠٩)، ولم أجده في مسلم.

فلما قابلوا نبي اللَّه بهذه المقابلة قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥]، ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [المائدة: ٢٦].

ومن تلاعبه بهم في حياة نبيهم أيضًا: ما قصه اللَّه سبحانه وتعالى في كتابه من قصة القتيل الذي قتلوه، وتدافعوا فيه، حتى أُمروا بذبح بقرة وضربه ببعضها.

- **وفي هذه القصة أنواع من العبر:**

منها: أن الإخبار بها من أعلام نبوة رسول الله.

ومنها: الدلالة على نبوة موسى، وأنه رسول رب العالمين.

ومنها: الدلالة على صحة ما اتفقت عليه الرسل من أولهم إلى خاتمهم من معاد الأبدان، وقيام الموتى من قبورهم.

ومنها: إثبات الفاعل المختار، وأنه عالم بكل شيء، قادر على كل شيء، عدل لا يجوز عليه الظلم والجور، حكيم لا يجوز عليه العبث.

ومنها: إقامة أنواع الآيات والبراهين والحجج على عباده بالطرق المتنوعات؛ زيادة في هداية المهتدي، وإعذارًا وإنذارًا للضال.

ومنها: أنه لا ينبغي مقابلة أمر اللَّه تعالى بالتعنت وكثرة الأسئلة، بل يبادر إلى الامتثال، فإنهم لما أمروا أن يذبحوا بقرة كان الواجب عليهم أن يبادروا إلى الامتثال بذبح أي بقرة اتفقت، فإن الأمر بذلك لا إجمال فيه ولا إشكال، بل هو بمنزلة قوله: اعتق رقبة، وأطعم مسكينًا، وصم يومًا، ونحو ذلك، ولذلك غلط من احتج بالآية على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب، فإن الآية غنية عن البيان المنفصل، مبينة بنفسها، ولكن لما تعنتوا

وشددوا؛ شُدد عليهم.

قال أبو جعفر بن جرير: عن الربيع، عن أبي العالية: «**لو أن القوم حين أُمروا أن يذبحوا بقرة استعرضوا بقرة من البقر فذبحوها لكانت إياها، ولكنهم شددوا على أنفسهم، فشدد اللَّه عليهم**»(١).

ومنها: أنه لا يجوز مقابلة أمر اللَّه الذي لا يعلم المأمور به وجه الحكمة فيه بالإنكار، وذلك نوع من الكفر، فإن القوم لما قال لهم نبيهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ﴾ [البقرة: ٦٧]، قابلوا هذا الأمر بقولهم: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ﴾ [البقرة: ٦٧]، فلما لم يعلموا وجه الحكمة في ارتباط هذا الأمر بما سألوه عنه قالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ﴾، وهذا من غاية جهلهم باللَّه ورسوله، فإنه أخبرهم عن أمر اللَّه لهم بذلك، ولم يكن هو الآمر به، ولو كان هو الآمر به لم يجز لمن آمن بالرسول أن يقابل أمره بذلك، فلما قال لهم: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧]، وتيقنوا أن اللَّه سبحانه أمره بذلك، أخذوا في التعنت بسؤالهم عن عينها ولونها، فلما أُخبروا عن ذلك رجعوا إلى السؤال، مرة ثالثة، عن عينها، فلما تعينت لهم ولم يبق إشكال توقفوا في الامتثال ولم يكادوا يفعلون.

ثم من أقبح جهلهم وظلمهم قولهم لنبيهم: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾ [البقرة: ٧١]، فإن أرادوا بذلك أنك لم تأتِ بالحق قبل ذلك في أمر البقرة، فتلك ردة وكفر ظاهر، وإن أرادوا أنك الآن بينت لنا البيان التام في تعيين البقرة المأمور بذبحها فذلك جهل ظاهر؛ فإن البيان قد حصل بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ﴾، فإنه لا إجمال في الأمر، ولا في الفعل، ولا في المذبوح،

---

(١) أخرجه في «تفسيره» (١/ ٣٣٧، ٣٣٨).

فقد جاء رسول اللَّه بالحق من أول مرة.

قال محمد بن جرير: «وقد كان بعض من سلف يزعم أن القوم ارتدوا عن دينهم وكفروا بقولهم لموسى: ﴿ٱلۡـَٔـٰنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾، وزعم أن ذلك نفي منهم أن يكون موسى عليه السلام أتاهم بالحق في أمر البقرة قبل ذلك، وأن ذلك كفر منهم». قال: «وليس الأمر كما قال عندنا؛ لأنهم قد أذعنوا بالطاعة بذبحها، وإن كان قولهم الذي قالوا لموسى جهلًا منهم وهفوة من هفواتهم».

ومنها: الإخبار عن قساوة قلوب هذه الأمة وغلظها وعدم تمكن الإيمان فيها.

قال عبد الصمد بن معقل، عن وهب: كان ابن عباس - رضي اللَّه عنهما - يقول: «إن القوم بعد أن أحيا اللَّه تعالى الميت فأخبرهم بقاتله أنكروا قتله، وقالوا: واللَّه ما قتلناه، بعد أن رأوا الآيات والحق! قال اللَّه تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ﴾ [البقرة: ٧٤]»(١).

ومنها: مقابلة الظالم الباغي بنقيض قصده شرعًا وقدرًا؛ فإن القاتل قصده ميراث المقتول، ودفع القتل عن نفسه، ففضحه اللَّه تعالى وهتكه وحرمه ميراث المقتول.

ومنها: أن بني إسرائيل فُتنوا بالبقرة مرتين من بين سائر الدواب، ففتنوا بعبادة العجل، وفتنوا بالأمر بذبح البقرة، والبقر من أبلد الحيوان، حتى ليضرب به المثل.

والظاهر: أن هذه القصة كانت بعد قصة العجل، ففي الأمر بذبح البقرة

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١/ ٣٥٦).

تنبيه على أن هذا النوع من الحيوان الذي لا يمتنع من الذبح والحرث والسقي لا يصلح أن يكون إلهًا معبودًا من دون اللَّه تعالى، وأنه إنما يصلح للذبح والحرث والسقي والعمل.

ومن تلاعبه بهذه الأمة أيضًا: ما قصه اللَّه تعالى علينا من قصة أصحاب السبت، حتى مسخهم قردة لما تحيلوا على استحلال محارم اللَّه تعالى.

ومعلوم أنهم كانوا يعصون اللَّه تعالى بأكل الحرام، واستباحة الفروج والحرام، والدم الحرام، وذلك أعظم إثمًا من مجرد العمل يوم السبت، ولكن لما استحلوا محارم اللَّه تعالى بأدنى الحيل، وتلاعبوا بدينه وخادعوه مخادعة الصبيان، ومسخوا دينه بالاحتيال؛ مسخهم اللَّه تعالى قردة، وكان اللَّه تعالى قد أباح لهم الصيد في كل أيام الأسبوع إلا يومًا واحدًا، فلم يدعهم حرصهم وجشعهم حتى تعدوا إلى الصيد فيه، وساعد القدر بأن عوقبوا بإمساك الحيتان عنهم في غير يوم السبت وإرسالها عليهم يوم السبت، وهكذا يفعل اللَّه سبحانه بمن تعرض لمحارمه، فإنه يرسلها عليه بالقدر تزدلف إليه بأيها يبدأ، فانظر ما فعل الحرص، وما أوجب من الحرمان بالكلية؟ ومن هاهنا قيل: من طلبه كله فاته كله.

ومن تلاعب الشيطان بهم أيضًا: أنهم لما حرمت عليهم الشحوم أذابوها ثم باعوها وأكلوا ثمنها، وهذا من عدم فقههم وفهمهم عن اللَّه تعالى دينه، فإن ثمنها بدل منها، فتحريمها تحريم لبدلها والمعاوضة عنها، كما أن تحريم الخمر والميتة والدم ولحم الخنزير يتناول تحريم أعيانها وأبدالها.

ومن تلاعبه بهم أيضًا: اتخاذ قبور أنبيائهم مساجد، وقد لعنهم رسول اللَّه ﷺ على ذلك، ولعنته تتناول فعلهم.

ومن تلاعبه بهم أيضًا: أنهم كانوا يقتلون الأنبياء الذين لا تنال الهداية إلا على أيديهم، ويتخذون أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون اللَّه تعالى، يحرمون عليهم ويحلون لهم، فيأخذون بتحريمهم وتحليلهم، ولا يلتفتون هل ذلك التحريم والتحليل من عند اللَّه تعالى أم لا!

قال عدي بن حاتم: أتيت رسول اللَّه ﷺ فسألته عن قوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، فقلت: يا رسول الله، ما عبدوهم، فقال: «**حرموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام، فأطاعوهم، فكانت تلك عبادتهم إياهم**»، رواه الترمذي وغيره[١].

وهذا من أعظم تلاعب الشيطان بالإنسان أن يقتل أو يقاتل مَن هُداه على يديه، ويتخذ من لم تضمن له عصمته ندًّا لله، يحرم عليه، ويحلل له.

ومن تلاعبه بهم: ما كان منهم في شأن زكريا ويحيى - عليهما السلام - وقتلهم لهما، حتى سلط اللَّه عليهم بُخْتَنَصَّر وسنجاريب وجنودهما، فنالوا منهم ما نالوه، ثم كان منهم في شأن المسيح ورميه وأمه بالعظائم، وهم يعلمون أنه رسول اللَّه تعالى إليهم، فكفروا به بغيًا وعنادًا، وراموا قتله وصلبه، فصانه اللَّه تعالى من ذلك، ورفعه إليه، وطهره منهم، فأوقعوا القتل والصلب على شبهه، وهم يظنون أنه رسول اللَّه عيسى، فانتقم اللَّه تعالى منهم ودمر عليهم أعظم تدمير، وألزمهم كلهم حكم الكفر بتكذيبهم بالمسيح، كما ألزم النصارى معهم حكم الكفر بتكذيبهم بمحمد.

ولم يزل أمر اليهود بعد تكذيبهم بالمسيح وكفرهم به في سفال ونقص إلى أن قطعهم اللَّه تعالى في الأرض أممًا، ومزقهم كل ممزق، وسلبهم

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٩٥)، والطبراني في «الكبير» (١٧/ ٢١٨)، والبيهقي (١٠/ ١١٦).

عزهم وملكهم، فلم يقم لهم بعد ذلك ملك، إلى أن بعث اللَّه تعالى محمدًا، فكفروا به وكذبوه، فأتم عليهم غضبه، ودمرهم غاية التدمير، وألزمهم ذلًّا وصغارًا، لا يُرفع عنهم إلى أن ينزل أخوه المسيح من السماء، فيستأصل شأفتهم، ويطهر الأرض منهم، ومن عباد الصليب، قال تعالى: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩٠)﴾ [البقرة: ٩٠].

فالغضب الأول: بسبب كفرهم بالمسيح. **والغضب الثاني**: بسبب كفرهم بمحمد صلوات اللَّه وسلامه عليهما.

ومن تلاعب الشيطان بهذه الأمة: أن ألقى إليهم أن الرب تعالى محجور عليه في نسخ الشرائع، فحجروا عليه أن يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وجعلوا هذه الشبهة الشيطانية ترسًا لهم في جحد نبوة رسول اللَّه محمد، وقرروا ذلك بأن النسخ يستلزم البداء، وهو على اللَّه تعالى محال.

وقد أكذبهم اللَّه تعالى في نص التوراة كما أكذبهم في القرآن، قال اللَّه تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٣) فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩٤) قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٩٥)﴾ [آل عمران: ٩٣ - ٩٥]، فتضمنت هذه الآيات بيان كذبهم صريحًا في إبطال النسخ، فإنه سبحانه وتعالى أخبر أن الطعام كله كان حلالاً لبني إسرائيل قبل نزول التوراة، سوى ما حرم إسرائيل على نفسه منه.

ومعلوم أن بني إسرائيل كانوا على شريعة أبيهم إسرائيل وملته، وأن الذي كان لهم حلالاً إنما هو بإحلال اللّه تعالى له على لسان إسرائيل والأنبياء بعده، إلى حين نزول التوراة، ثم جاءت التوراة بتحريم كثير من المآكل عليهم التي كانت حلالاً لبني إسرائيل، وهذا محض النسخ.

وقوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾؛ أي: كانت حلالاً لهم قبل نزول التوراة، وهم يعلمون ذلك، ثم قال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾، هل تجدون فيها أن إسرائيل حرم على نفسه ما حرمته التوراة عليكم؟ أم تجدون فيها تحريم ما خصه بالتحريم، وهي لحوم الإبل وألبانها خاصة؟ وإذا كان إنما حرم هذا وحده وكان ما سواه حلالاً له ولبنيه، وقد حرمت التوراة كثيرًا منه - ظهر كذبكم وافتراؤكم في إنكار نسخ الشرائع، والحجر على اللّه تعالى في نسخها.

فتأمل هذا الموضع الشريف الذي حام حوله أكثر المفسرين وما وردوه.

وهذا أولى من احتجاج كثير من أهل الكلام عليهم، بأن التوراة حرمت أشياء كثيرة من المناكح، والذبائح، والأفعال، والأقوال، وذلك نسخ لحكم البراءة الأصلية، فإن هذه المناظرة ضعيفة جدًّا، فإن القوم لم ينكروا رفع البراءة الأصلية بالتحريم والإيجاب؛ إذ هذا شأن كل الشرائع، وإنما أنكروا تحريم ما أباحه اللّه تعالى، فيجعله حرامًا، أو تحليل ما كان حرمه فيجعله مباحًا، وأما رفع البراءة والاستصحاب فلم ينكره أحد من أهل الملل.

ثم يقال لهذه الأمة الغضبية: هل تقرون أنه كان قبل التوراة شريعة أم لا؟ فهم لا ينكرون أن يكون قبل التوراة شريعة.

فيقال لهم: فهل رفعت التوراة شيئًا من أحكام تلك الشرائع المتقدمة أم لا؟

فإن قالوا: لم ترفع شيئًا من أحكام تلك الشرائع. فقد جاهروا بالكذب والبهت، وإن قالوا: قد رفعت بعض الشرائع المتقدمة. فقد أقروا بالنسخ قطعًا.

وأيضًا فيقال للأمة الغضبية: هل أنتم اليوم على ما كان عليه موسى عليه السلام؟

فإن قالوا: نعم. قلنا: أليس في التوراة أن من مس عظم ميت، أو وطئ قبرًا، أو حضر ميتًا عند موته فإنه يصير من النجاسة بحال لا مخرج له منها إلا برماد البقرة التي كان الإمام الهاروني يحرقها؟ فلا يمكنهم إنكار ذلك، فيقال لهم: فهل أنتم اليوم على ذلك؟

فإن قالوا: لا نقدر عليه. فيقال لهم: لم جعلتم أن من مس العظم والقبر والميت طاهرًا يصلح للصلاة، والذي في كتابكم خلافه؟

فإن قالوا: لأنا عدمنا أسباب الطهارة، وهي رماد البقرة، وعدمنا الإمام المطهر المستغفر.

فيقال لهم: فهل أغناكم عدمه عن فعله أو لم يغنكم؟

فإن قالوا: أغنانا عدمه عن فعله.

قيل لهم: قد تبدل الحكم الشرعي من الوجوب إلى إسقاطه لمصلحة التعذر.

فيقال: وكذلك يتبدل الحكم الشرعي بنسخه لمصلحة النسخ، فإنكم إن بنيتم على اعتبار المصالح والمفاسد في الأحكام، فلا ريب أن الشيء يكون مصلحة في وقت دون وقت، وفي شريعة دون أخرى، كما كان تزويج الأخ بالأخت مصلحة في شريعة آدم عليه السلام، ثم صار مفسدة في سائر الشرائع،

وكذلك إباحة العمل يوم السبت كان مصلحة في شريعة إبراهيم عليه السلام ومن قبله وفي سائر الشرائع، ثم صار مفسدة في شريعة موسى عليه السلام، وأمثال ذلك كثيرة.

وإن منعتم مراعاة المصالح في الأحكام، ومنعتم تعليلها بها فالأمر حينئذ أظهر، فإنه سبحانه يحلل ما يشاء، ويحرم ما يشاء، والتحليل والتحريم تبع لمجرد مشيئته، لا يسأل عما يفعل، وإن قلتم لا نستغني في الطهارة عن ذلك الطهور الذي كان عليه أسلافنا؛ فقد أقررتم بأنكم الأنجاس أبدًا، ولا سبيل لكم إلى حصول الطهارة.

فإن قالوا: نعم، الأمر كذلك.

قيل لهم: فإذا كنتم أنجاسًا على مقتضى أصولكم، فما بالكم تعتزلون الحائض بعد انقطاع الحيض وارتفاعه سبعة أيام؛ اعتزالاً تخرجون فيه إلى حد لو أن أحدكم لمس ثوبه ثوب المرأة نجستموه مع ثوبه؟!

فإن قلتم: ذلك من أحكام التوراة.

قيل لكم: ليس في التوراة أن ذلك يراد به الطهارة، فإذا كانت الطهارة قد تعذرت عندكم والنجاسة التي أنتم عليها لا ترتفع بالغسل، فهي إذًا أشد من نجاسة الحيض.

ثم إنكم ترون أن الحائض طاهر إذا كانت من غير ملتكم، ولا تنجسون من لمسها ولا الثوب الذي تلمسه، فتخصيص هذا الأمر بطائفتكم ليس في التوراة.

قالت الأمة الغضبية: التوراة قد حظرت أمورًا كانت مباحة من قبل، ولم تأت بإباحة محظور، والنسخ الذي ننكره ونمنع منه هو ما أوجب إباحة

محظور؛ لأن تحريم الشيء إنما هو لأجل ما فيه من المفسدة، فإذا جاءت شريعة بتحريمه كان ذلك من مؤكداتها ومقرراتها، فإذا جاء من أباحه علمنا بإباحة المفسدة أنه غير نبي، بخلاف تحريم ما كان مباحًا، فإنا نكون متعبدين بتحريمه.

قالوا: وشريعتكم جاءت بإباحة كثير مما حرمته التوراة، مع أنه إنما حرم لما فيه من المفسدة.

فهذه النكتة هي التي تعتمد عليها الأمة الغضبية، ويتلقاها خالف منهم عن سالف.

والمتكلمون لم يشفوهم في جوابها، وإنما أطالوا معهم الكلام في رفع البراءة الأصلية بالشرائع، وفي نسخ الإباحة بالتحريم.

ولعمر الله، إنه بما يبطل شبهتهم؛ لأن رفع البراءة الأصلية ورفع الإباحة بالتحريم هو تغيير لما كان عليه الحكم الاستصحابي، أو الشرعي، بحكم آخر لمصلحة اقتضت تغييره، ولا فرق في اقتضاء المصلحة بين تغيير الإباحة بالتحريم، أو تغيير التحريم بالإباحة.

والشبهة التي عرضت لهم في أحد الموضعين هي بعينها في الموضع الآخر، فإن إباحة الشيء في الشريعة تابع لعدم مفسدته، إذ لو كانت فيه مفسدة راجحة لم تأت الشريعة بإباحته، فإذا حرمته الشريعة الأخرى وجب قطعًا أن يكون تحريمه فيها هو المصلحة، كما كان إباحته في الشريعة الأولى هو المصلحة، فإن تضمن إباحة الشحوم المحرمة في الشريعة الأولى إباحة المفاسد، وحاشا لله تضمن تحريم المباح في الشريعة الأولى تحريم المصالح، وكلاهما باطل قطعًا.

فإذا جاز أن تأتي شريعة التوراة بتحريم ما كان إبراهيم ومن تقدمه يستبيحه فجائز أن تأتي شريعة أخرى بتحليل بعض ما كان في التوراة محظورًا.

وهذه الشبهة الباطلة الداحضة هي التي ردت بها الأمة الغضبية نبوة سيدنا محمد هي بعينها رد بها أسلافهم نبوة المسيح وتوارثوها كافرًا عن كافر، وقالوا لمحمد كما قال أسلافهم للمسيح: لا نقر بنبوة من غير شريعة التوراة.

فيقال لهم: فكيف أقررتم لموسى بالنبوة وقد جاء بتغيير بعض شرائع من تقدمه؟! فإن قدح ذلك في المسيح ومحمد - عليهما الصلاة والسلام - قدح في موسى، فلا تقدحون في نبوتهما بقادح إلا ومثله في نبوة موسى سواء، كما أنكم لا تثبتون نبوة موسى ببرهان إلا وأضعافه شاهد على نبوة محمد، فمِن أَبين المحال أن يكون موسى رسولاً صادقًا، ومحمد ليس برسول، أو يكون المسيح رسولاً ومحمد ليس برسول.

ويقال للأمة الغضبية أيضًا: لا يخلو المحرم إما أن يكون تحريمه لعينه وذاته، بحيث تمنع إباحته في زمان من الأزمنة، وإما أن يكون تحريمه لما تضمنه من المفسدة في زمان دون زمان، ومكان دون مكان، وحال دون حال.

فإن كان الأول؛ لزم أن يكون ما حرمته التوراة محرمًا على جميع الأنبياء في كل زمان ومكان، من عهد نوح إلى خاتم الأنبياء عليهم السلام.

وإن كان الثاني؛ ثبت أن التحريم والإباحة تابعان للمصالح، وإنما يختلفان باختلاف الزمان والمكان والحال، فيكون الشيء الواحد حرامًا في ملة دون ملة، وفي وقت دون وقت، وفي مكان دون مكان، وفي حال دون

حال، وهذا معلوم بالاضطرار من الشرائع، ولا يليق بحكمة أحكم الحاكمين غير ذلك.

ألا ترى أن تحريم السبت لو كان لعينه لكان حرامًا على إبراهيم ونوح وسائر النبيين؟

وكذلك ما حرمته التوراة من المطاعم والمناكح وغيرها، لو كان حرامًا لعينه وذاته لوجب تحريمه على كل نبي وفي كل شريعة.

وإذا كان الرب تعالى لا حجر عليه، بل يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، ويبتلي عباده بما يشاء، ويحكم ولا يحكم عليه، فما الذي يحيل عليه ويمنعه أن يأمر أمة بأمر من أوامر الشريعة ثم ينهى أمة أخرى عنه؟ أو يحرم محرمًا على أمة ويبيحه لأمة أخرى؟

بل أي شيء يمنعه سبحانه أن يفعل ذلك في الشريعة الواحدة في وقتين مختلفين بحسب المصلحة، وقد بين ذلك سبحانه وتعالى بقوله: ﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [البقرة: ١٠٦، ١٠٧]؟

فأخبر سبحانه أن عموم قدرته وملكه وتصرفه في مملكته وخلقه لا يمنعه أن ينسخ ما يشاء ويثبت ما يشاء، كما أنه يمحو من أحكامه القدرية الكونية ما يشاء ويثبت.

فهكذا أحكامه الدينية الأمرية ينسخ منها ما يشاء ويثبت منها ما يشاء، فمن أكفر الكفر وأظلم الظلم أن يعارض الرسول الذي جاء بالبينات والهدى، وتدفع نبوته وتجحد رسالته بكونه أتى بإباحة بعض ما كان محرمًا

على من قبله، أو تحريم بعض ما كان مباحًا لهم، وباللَّه التوفيق، يضل من يشاء ويهدي من يشاء.

ومن العجب أن هذه الأمة الغضبية تحجر على اللَّه تعالى أن ينسخ ما يشاء من شرائعه، وقد تركوا شريعة موسى عليه السلام في أكثر ما هم عليه، وتمسكوا بما شرعه لهم أحبارهم وعلماؤهم.

فمن ذلك أنهم يقولون في صلاتهم ما ترجمته هكذا: «**اللهم اضرب ببوق عظيم لفيفنا، واقبضنا جميعًا من أربعة أقطار الأرض إلى قدسك سبحانك، يا جامع شتات قوم إسرائيل**».

ويقولون كل يوم ما ترجمته هكذا أردد: «**حكامنا كالأولين، ومسراتنا كالابتداء وابن أورشليم قرية قدسك في أيامنا، وأعزنا بابتنائها، سبحانك يباني يورشليم**».

فهذا قولهم في صلاتهم مع علمهم بأن موسى وهارون - عليهما السلام - لم يقولا شيئًا من ذلك، ولكنها فصول لفَّقوها بعد زوال دولتهم.

وكذلك صيامهم كصوم إحراق بيت المقدس، وصوم أحصا، وصوم كدليا التي جعلوها فرضًا لم يصمها موسى ولا يوشع بن نون، وكذلك صوم صلب هامان ليس شيء من ذلك في التوراة، وإنما وضعوها لأسباب اقتضت وضعها عندهم.

هذا مع أن في التوراة ما ترجمته: «**لا تزيدوا على الأمر الذي أنا موصيكم به شيئًا، ولا تنقصوا منه شيئًا**».

وقد تضمنت التوراة أوامر كثيرة جدًّا هم مجمعون على تعطيلها وإلغائها، فإما أن تكون منسوخة بنصوص أخرى من التوراة، أو بنقل صحيح عن

موسى عليه السلام، أو باجتهاد علمائهم، وعلى التقادير الثلاث فقد بطلت شبهتهم في إنكار النسخ.

ثم من العجب أن أكبر تلك الأوامر التي هم مجمعون على عدم القول والعمل بها، إنما يستندون فيها إلى أقوال علمائهم وأمرائهم، وقد اتفقوا على تعطيل الرجم للزاني، وهو نص التوراة، وتعطيل أحكام كثيرة منصوصة في التوراة.

ومن تلاعب الشيطان بهم: أنهم يزعمون أن الفقهاء إذا أحلوا لهم الشيء صار حلالاً، وإذا حرموه صار حرامًا، وإن كان نص التوراة بخلافه.

وهذا تجويز منهم لنسخهم ما شاءوا من شريعة التوراة، فحجروا على الرب تعالى وتقدس أن ينسخ ما يريد من شريعته، وجوزوا ذلك لأحبارهم وعلمائهم، كما تكبر إبليس أن يسجد لآدم، ورأى أن ذلك يغض منه، ثم رضي أن يكون قوادًا لكل عاصٍ وفاسق.

وكما أبى عبَّاد الأصنام أن يكون النبي المرسل إليهم بشرًا، ثم رضوا أن يكون إلههم ومعبودهم حجرًا.

وكما نزهت النصارى بتاركتهم عن الولد والصاحبة، ولم يتحاشوا من نسبة ذلك إلى اللَّه سبحانه وتعالى!

وكما نزهت الفرعونية من الجهمية الرب سبحانه أن يكون مستويًا على عرشه؛ لئلا يلزم الحصر، ثم جعلوه سبحانه في الآبار والحانات وأجواف الحيوانات.

ومن تلاعبه بهم: ما شددوه على أنفسهم في باب الذبائح وغيرها مما ليس له أصل عن موسى عليه السلام، ولا هو في التوراة، وإنما هو من أوضاع

الحاخاميم وآرائهم، وهم فقهاؤهم.

ولقد كان لهذه الأمة في قديم الزمان بالشام والعراق والمدائن مدارس وفقهاء كثيرون، وذلك في زمن دولة البابليين والفرس، ودولة اليونان والروم، حتى اجتمع فقهاؤهم في بعض تلك الدول على تأليف المشنا والتلمود.

فأما المشنا فهو الكتاب الأصغر، ومبلغ حجمه نحو ثمانمائة ورقة.

وأما التلمود فهو الكتاب الأكبر، ومبلغه نحو نصف حمل بغل لكبره، ولم يكن الفقهاء الذين ألفوه في عصر واحد، وإنما ألفوه جيلاً بعد جيل، فلما نظر المتأخرون منهم إلى هذا التأليف، وأنه كلما مر عليه الزمان زادوا فيه، وأن في الزيادات المتأخرة ما يناقض أوائل هذا التأليف، علموا أنهم إن لم يقطعوا ذلك ويمنعوا من الزيادة فيه أدى إلى الخلل الذي لا يمكن سده، فقطعوا الزيادة فيه ومنعوا منها، وحظروا على الفقهاء الزيادة فيه وإضافة شيء آخر إليه، وحرموا من يضيف إليه شيئًا آخر، فوقف على ذلك المقدار.

وكانت أئمتهم قد حرموا عليهم في هذين الكتابين مؤاكلة الأجانب، وهم مَن كان على غير ملتهم، فحرموا عليهم الأكل من ذبيحة من لم يكن على دينهم؛ لأن علماءهم علموا أن دينهم لا يبقى في هذه الجلوة مع كونهم تحت الذل والعبودية إلا أن يصدوهم عن مخالطة من هو على غير ملتهم، فحرموا عليهم الأكل من ذبائحهم، ومناكحتهم، ولم يمكن تقرير ذلك إلا بحجة يبتدعونها من أنفسهم، ويكذبون بها على اللَّه تعالى؛ لأن التوراة إنما حرمت عليهم مناكحة غيرهم من الأمم؛ لئلا يوافقوا الأزواج في عبادة الأصنام والشرك، وحرم عليهم في التوراة أكل ذبائح الأمم التي يذبحونها

قربانًا إلى الأصنام؛ لأنه قد سمي عليها اسم غير اللَّه تعالى، فأما الذبائح التي لم تذبح قربانًا للأصنام فلم تنطق التوراة بتحريمها، وإنما نطقت بإباحة الأكل من أيدي غيرهم من الأمم، وموسى عليه السلام إنما نهاهم عن مناكحة عباد الأصنام، وأكل ما يذبحونها على اسمها.

فما بال هؤلاء لا يأكلون من ذبائح المسلمين، وهم لا يذبحون للأصنام، ولا يذكرون اسمها عليها؟ فلما نظر أئمتهم إلى أن التوراة غير ناطقة بتحريم مآكل الأمم عليهم إلا عباد الأصنام، وأن التوراة قد صرحت بأن تحريم مؤاكلتهم ومخالطتهم خوف استدراج المخالطة إلى المناكحة، وأن مناكحتهم إنما منع منها خوف استتباعها إلى الانتقال إلى أديانهم وعبادة أوثانهم، ووجدوا جميع هذا واضحًا في التوراة، اختلقوا كتابًا في علم الذباحة، ووضعوا فيه من التشديد والآصار والأغلال ما شغلوهم به عما هم فيه من الذل والمشقة.

وذلك أنهم أمروهم أن ينفخوا الرئة حتى يملؤها هواء، ويتأملوها هل يخرج الهواء من ثقب منها أم لا، فإن خرج منها الهواء حرموها، وإن كان بعض أطراف الرئة لاصقًا ببعض لم يأكلوه، وأمروا الذي يتفقد الذبيحة أن يدخل يده في بطن الذبيحة ويتأمل بأصابعه فإن وجد القلب ملتصقًا إلى الظهر، أو أحد الجانبين، ولو كان الالتصاق بعرق دقيق كالشعرة حرموه ولم يأكلوه، وسموه: طريفا؛ يعنون بذلك: أنه تنجس وأكله حرام.

وهذه التسمية هي أصل بلائهم وذلك أن التوراة حرمت عليهم أكل الطريفا، والطريفا هي الفريسة التي يفترسها الأسد أو الذئب أو غيرهما من السباع، وهو الذي عبر عنه القرآن بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ [المائدة: ٣].

والدليل على ذلك أنه قال في التوراة: «**ولحمًا في الصحراء فريسة لا تأكلوه، وللكلب ألقوه**».

وأصل لفظ طريفا: طوارف، وقد جاءت هذه اللفظة في التوراة في قصة يوسف عليه السلام لما جاء إخوته على قميصه بدم كذب، وزعموا أن الذئب افترسه[١].

وقال في التوراة: «ولحمًا في الصحراء فريسة لا تأكلوه»، والفريسة إنما توجد غالبًا في الصحراء، وكان سبب نزول هذا عليهم أنهم كانوا ذوي أخبية يسكنون البر؛ لأنهم مكثوا يترددون في التيه أربعين سنة، وكانوا لا يجدون طعامًا إلا المن والسلوى، وهو طائر صغير يشبه السمان، وفيه من الخاصية أن أكل لحمه يلين القلب، ويذهب بالخُنْزُوانة[٢] والقساوة، فإن هذا الطائر يموت إذا سمع صوت الرعد، كما أن الخطاف يقتله البرد، فألهمه اللَّه سبحانه وتعالى أن يسكن جزائر البحر التي لا يكون بها مطر ولا رعد إلى انقضاء أوان المطر والرعد، فيخرج من الجزائر، وينتشر في الأرض، فجلب اللَّه تعالى إليهم هذا الطائر لينتفعوا به، ويكون اغتذاؤهم به كالدواء لغلظ قلوبهم وقسوتها.

والمقصود: أن مشايخهم تعدوا في تفسير الطريفا عن موضوعها وما أريد بها، وكذلك فقهاؤهم اختلقوا من أنفسهم هذيانات وخرافات تتعلق بالرئة والقلب، وقالوا ما كان من الذبائح سليمًا من تلك الشروط فهو دحيا، ومعنى هذه اللفظة أنه طاهر، وما كان خارجًا عن هذه الشروط فهو طريفا،

---

(١) للمزيد: ينظر كتاب «إفحام اليهود» (١/ ١٦٦، ١٦٧) ففيه بقية كلام.

(٢) وهي: الكِبْر. «اللسان» (خ ن ز).

وتفسيرها أنه حرام.

قالوا: ومعنى نص التوراة: «**ولحمًا فريسة في الصحراء لا تأكلوه، وللكلب ألقوه**»؛ أي: إنكم إذا ذبحتم ذبيحة ولم توجد فيها هذه الشروط فلا تأكلوها، بل تبيعونها على من ليس من أهل ملتكم.

وفسروا قوله: «**للكلب ألقوه**»؛ أي: لمن ليس من أهل ملتكم، فأطعموه وبيعوه، وهم أحق بهذا اللقب، وأشبه الناس بالكلاب.

***



فرقتا اليهود

ثم إن هذه الأمة الغضبية فرقتان:

إحداهما: عرفوا أن أولئك السلف الذين ألفوا «**المشنا، والتلمود**» هم فقهاء اليهود، وهم قوم كذابون على الله، وعلى موسى النبي، وهم أصحاب حماقات وتنطع ودعاوى كاذبة، يزعمون أنهم كانوا إذا اختلفوا في شيء من تلك المسائل يوحي اللَّه تعالى إليهم بصوت يسمعه جمهورهم، يقول: الحق في هذه المسألة مع الفقيه فلان. ويسمون هذا الصوت (بث قول)، فلما نظرت اليهود القراءون، وهم أصحاب عانان وبنيامين إلى هذه المحالات الشنيعة، وهذا الافتراء الفاحش، والكذب البارد، وانفصلوا بأنفسهم عن الفقهاء، وعن كل من يقول بمقالاتهم، وكذبوهم في كل ما افتروا به على الله، وزعموا أنه لا يجوز قبول شيء من أقوالهم؛ حيث ادعوا النبوة، وأن اللَّه تعالى كان يوحي إليهم كما يوحي إلى الأنبياء.

وأما تلك الترهات التي ألفها الحاخاميم - وهم فقهاؤهم - ونسبوها إلى التوراة وإلى موسى، فإن القرائين أطرحوها كلها وألقوها، ولم يحرموا شيئًا من الذبائح التي يتولون ذباحتها البتة، ولم يحرموا سوى لحم الجدي بلبن أمه فقط، مراعاة لنص التوراة لا تنضج الجدي بلبن أمه، وليسوا بأصحاب قياس، بل أصحاب ظاهر فقط.

وأما الفرقة الثانية: فهم الربانون وهم أصحاب القياس، وهم أكثر عددًا من القرائين، وفيهم الحاخاميم المفترون على اللَّه تعالى الكذب، الذين

زعموا أن اللَّه تعالى كان يخاطب جميعهم في كل مسألة مسألة، بالصوت الذي يسمونه (بث قول).

وهذه الطائفة أشد اليهود عداوة لغيرهم من الأمم؛ لأن حاخاميمهم أوهموهم أن المأكولات إنما تحل للناس إن استعملوا فيها هذا العلم الذي نسبوه إلى موسى ﷺ، وإلى اللَّه تعالى، وأن سائر الأمم لا يعرفون هذا، وأنهم إنما شرفهم اللَّه تعالى بهذا، وأمثال ذلك من الترهات، فصار أحدهم ينظر إلى من ليس على مذهبه وملته كما ينظر إلى الحيوان البهيم، وينظر إلى مآكل الأمم وذبائحهم كما ينظر إلى العذرة.

وهذا من كيد الشيطان لهم ولعبه بهم، فإن الحاخاميم قصدوا بذلك المبالغة في مخالفتهم الأمم والإزراء عليهم، ونسبتهم إلى قلة العلم، وأنهم اختصوا دون الأمم بهذه الآصار والأغلال والتشديدات.

وكلما كان الحاخاميم فيهم أكثر تكلفًا وأشد إصرًا وأكثر تحريمًا؛ قالوا: هذا هو العالم الرباني!

ومما دعاهم إلى التضييق والتشديد أنهم مبددون في شرق الأرض وغربها، فما من جماعة منهم في بلدة إلا إذا قدم عليهم رجل من أهل دينهم من بلاد بعيدة يظهر لهم الخشونة في دينهم والمبالغة في الاحتياط، فإن كان من المتفقهة فهو يسرع في إنكار أشياء عليهم، ويوهمهم التنزه عما هم عليهم، وينسبهم إلى قلة الدين، وينسب ما ينكره عليهم إلى مشايخه وإلى أهل بلده.

ويكون في أكثر تلك الأشياء كاذبًا، وقصده بذلك إما الرياسة عليهم، وإما تحصيل بعض مآربه منهم، ولا سيما إن أراد المقام عندهم.

فتراه أول ما ينزل بهم لا يأكل من أطعمتهم، ولا من ذبائحهم، ويتأمل سكين ذابحهم وينكر عليهم بعض أمره، ويقول: أنا لا آكل إلا من ذبيحة يدي، فتراهم معه في عذاب، لا يزال ينكر عليهم المباح، ويوهمهم تحريمه بأشياء يخترعها حتى لا يشكون في ذلك.

فإن قدم عليهم قادم آخر فخاف المقيم أن ينقض عليه القادم تلقاه، وأكرمه وسعى في موافقته وتصديقه، فيستحسن ما فعله الأول، ويقول لهم: لقد عظَّم اللَّه تعالى ثواب فلان؛ إذ قوَّى ناموس الدين في قلوب هذه الجماعة، وشد سياج الشرع عندهم. وإذا لقيه يظهر من مدحه وشكره والدعاء له ما يؤكد أمره.

وإن كان القادم الثاني منكرًا لما جاء به الأول من التشديد والتضييق لم يقع عندهم بموقع، وينسبونه إما إلى الجهل، وإما إلى رقة الدين؛ لأنهم يعتقدون أن تضييق المعيشة، وتحريم الحلال هو المبالغة في الدين.

وهم أبدًا يعتقدون الصواب والحق مع من يشدد ويضيق عليهم، هذا إن كان القادم من فقهائهم.

فأما إن كانوا من عبَّادهم وأحبارهم، فهناك ترى العجب العجاب من الناموس الذي يعتمد، والسنن التي يحدثها، ويلحقها بالفرائض، فتراهم مسلِّمين له منقادين، وهو يحتلب درهم، ويجتلب درهمهم، حتى إذا بلغه أن يهوديًا جلس على قارعة الطريق يوم السبت، أو اشترى لبنًا من مسلم، ثلبه وسبه في مجمع اليهود، وأباح عرضه، ونسبه إلى قلة الدين!

ومن تلاعب الشيطان بهذه الأمة الغضبية:

أنهم إذا رأوا الأمر أو النهي مما أمروا به، أو نهوا عنه شاقًا عليهم طلبوا

التخلص منه بوجوه الحيل، فإن أعيتهم الحيل؛ قالوا: هذا كان علينا لما كان لنا الملك والرياسة.

فمن ذلك: أنهم إذا أقام أخوان في موضع واحد ومات أحدهما، ولم يعقب ولدًا؛ فلا تخرج امرأة الميت إلى رجل أجنبي، بل ولد حميها ينكحها، وأول ولد ممن ينكحها ينسب إلى أخيه الدارج، فإن أبى أن ينكحها خرجت مشتكية منه إلى مشيخة قومه، تقول: قد أبى ابن حميٍّ أن يستبقي اسمًا لأخيه في إسرائيل ولم يرد نكاحي. فيحضره الحاكم هناك ويكلفه أن يقف ويقول: ما أردت نكاحها. فتتناول المرأة نعله فتخرجها من رجله، وتمسكها بيدها، وتبصق في وجهه، وتنادي عليه: كذا فليصنع بالرجل الذي لا يبني بيت أخيه. ويُدعى فيما بعد بالمخلوع النعل، وينبز بنوه بـ (بني مخلوع النعل)!

هذا كله مفترض عليهم فيما يزعمون في التوراة، وفيه حكمة ملجئة للرجل إلى نكاح زوجة أخيه الدارج، فإنه إذا علم أن ذلك يناله إن لم ينكحها آثر نكاحها عليه، فإن كان مبغضًا لها زهدًا في نكاحها، أو كانت هي زاهدة في نكاحه مبغضة له؛ استخرج له الفقهاء حيلة يتخلص بها منها، وتتخلص منه، فيلزمونها الحضور عند الحاكم بمحضر من مشايخهم، ويلقنونها أن تقول: أبى ابن حميّ أن يقيم لأخيه اسمًا في إسرائيل، ولم يرد نكاحي. فيلزمونها بالكذب عليه؛ لأنه أراد نكاحها وكرهته، وإذا لقنوها هذه الألفاظ قالتها، فيأمرونه بالكذب، وأن يقوم ويقول: ما أردت نكاحها. ولعل ذلك سؤله وأمنيته، فيأمرونه بأن يكذب، ولم يكفهم أن كذبوا عليه وألزموه أن يكذب، حتى سلطوها على الإحراق به والبصاق في وجهه، ويسمون هذه

المسألة: (البياما، والجالوس).

وقد تقدم من التنبيه على حيلهم في استباحتهم محارم اللَّه تعالى بعض ما فيه كفاية.

فالقوم بيت الحيل والمكر والخبث.

وقد كانوا يتنوعون في عهد رسول اللَّه بأنواع الحيل والكيد والمكر عليه وعلى أصحابه، ويرد اللَّه سبحانه وتعالى ذلك كله عليهم.

فتحيلوا عليه وأرادوا قتله مرارًا، واللَّه تعالى ينجيه من كيدهم: فتحيلوا عليه وصعدوا فوق سطح، وأخذوا رحًا أرادوا طرحها عليه، وهو جالس في ظل حائط، فأتاه الوحي فقام منصرفًا، وأخذ في حربهم وإجلائهم.

ومكروا به وظاهروا عليه أعداءه من المشركين، فظفره اللَّه تعالى بهم.

ومكروا به وأخذوا في جمع العدو له، فظفره اللَّه تعالى برئيسهم فقتله.

ومكروا به وأرادوا قتله بالسم، فأعلمه اللَّه تعالى به ونجاه منه.

ومكروا به فسحروه حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء ولم يفعله، فشفاه اللَّه تعالى وخلصه.

ومكروا به في قولهم: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ﴾ [آل عمران: ٧٢]. يريدون بذلك تشكيك المسلمين في نبوته؛ فإنهم إذا أسلموا أول النهار اطمأن المسلمون إليهم، وقالوا: قد اتبعوا الحق، وظهرت لهم أدلته. فيكفرون آخر النهار، ويجحدون نبوته، ويقولون: لم نقصد إلا الحق واتباعه، فلما تبين لنا أنه ليس به رجعنا عن الإيمان به. وهذا من أعظم خبثهم ومكرهم.

ولم يزالوا مُوْضِعين مجتهدين في المكر والخبث إلى أن أخزاهم اللَّه بيد

رسوله وأتباعه - ﷺ ورضي عنهم - أعظم الخزي، ومزقهم كل ممزق، وشتت شملهم كل مشتت.

وكانوا يعاهدونه - عليه الصلاة والسلام - ويصالحونه، فإذا خرج لحرب عدوه نقضوا عهده.

ولما سلب اللَّه تعالى هذه الأمة ملكها وعزها وأذلها وقطعهم في الأرض؛ انتقلوا من التدبير بالقدرة والسلطان إلى التدبير بالمكر والدهاء، والخيانة والخداع، وكذلك كل عاجز جبان سلطانه في مكره وخداعه، وبهته وكذبه، ولذلك كان النساء بيت المكر والخداع، والكذب والخيانة، كما قال اللَّه تعالى عن شاهد يوسف عليه السلام أنه قال: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ﴾ [يوسف: ٢٨].

- **ومن تلاعب الشيطان بهذه الأمة:**

أنهم يمثلون أنفسهم بعناقيد الكرم، وسائر الأمم بالشوك المحيط بأعالي حيطان الكرم، وهذا من غاية جهلهم وسفههم، فإن المعتنين بمصالح الكرم إنما يجعلون على أعالي حيطانه الشوك حفظًا له، وحياطة وصيانة، ولسنا نرى لليهود من سائر الأمم إلا الضرر والذل والصغار، كما يفعل الناس بالشوك.

ومن تلاعبه بهم: أنهم ينتظرون قائمًا من ولد داود النبي إذا حرك شفتيه بالدعاء مات جميع الأمم، وأن هذا المنتظر بزعمهم هو المسيح الذي وعدوا به.

وهم في الحقيقة إنما ينتظرون مسيح الضلالة الدجال، فهم أكثر أتباعه، وإلا فمسيح الهدى عيسى ابن مريم عليه السلام يقتلهم ولا يبقي منهم أحدًا.

والأمم الثلاث تنتظر منتَظرًا يخرج في آخر الزمان، فإنهم وعدوا به في كل ملة، والمسلمون ينتظرون نزول المسيح عيسى ابن مريم من السماء لكسر الصليب، وقتل الخنزير، وقتل أعدائه من اليهود، وعبَّاده من النصارى، وينتظرون خروج المهدي من أهل بيت النبوة، يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جَورًا.

ومن تلاعب الشيطان بهذه الأمة الغضبية: أنهم في العشر الأول من الشهر الأول من كل سنة يقولون في صلاتهم: «**لِمَ تقول الأمم: أين إلههم؟ انتبه كم تنام يا رب استيقظ من رقدتك**».

وهؤلاء إنما أقدموا على هذه الكفريات من شدة ضجرهم من الذل والعبودية، وانتظار فرج لا يزداد منهم إلا بعدًا، فأوقعهم ذلك في الكفر، والتزندق الذي لا يستحسنه إلا أمثالهم، وتجرءوا على اللَّه سبحانه وتعالى بهذه المناجاة القبيحة، كأنهم ينخونه بذلك لينتخي لهم، ويحمي لنفسه، فكأنهم يخبرونه سبحانه وتعالى بأنه قد اختار الخمول لنفسه ولأحبابه ولأبناء أنبيائه، فينخونه للنباهة واشتهار الصيت، فترى أحدهم إذا تلا هذه الكلمات في الصلاة يقشعر جلده، ولا يشك أن هذه المناجاة تقع عند اللَّه تعالى بموقع عظيم، وأنها تؤثر فيه وتحركه، وتهره وتنخيه.

ومن ذلك أنهم ينسبون إلى اللَّه سبحانه وتعالى الندم على الفعل، فمن ذلك قولهم في التوراة التي بأيديهم: «**وندم اللَّه سبحانه وتعالى على خلق البشر الذين في الأرض وشق عليه وعاد في رأيه**». وذلك عندهم في قصة قوم نوح.

وزعموا أن اللَّه سبحانه وتعالى وتقدس لما رأى فساد قوم نوح وأن

شركهم وكفرهم قد عظم ندم على خلق البشر.

وكثير منهم يقول: «إنه بكى على الطوفان حتى رمد، وعادته الملائكة، وأنه عض على أنامله حتى جرى الدم منها».

وقالوا أيضًا: «إن اللَّه تعالى ندم على تمليكه شاءول على بني إسرائيل، وأنه قال ذلك لشمويل».

وعندهم أيضًا: «**أن نوحًا** عليه السلام لما خرج من السفينة بدأ ببناء مذبح لله تعالى وقرب عليه قرابين، وأن اللَّه تعالى استنشق رائحة القتار فقال اللَّه تعالى في ذاته: لن أعاود لعنة الأرض بسبب الناس؛ لأن خاطر البشر مطبوع على الرداءة ولن أهلك جميع الحيوان كما صنعت».

وقد واجهوا رسول اللَّه وأصحابه رضي اللَّه تعالى عنهم بأمثال هذه الكفريات.

فقال قائل منهم للنبي ﷺ: إن اللَّه سبحانه وتعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام، ثم استراح. فشق ذلك على النبي ﷺ، فأنزل اللَّه تعالى تكذيبًا لهم: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق: ٣٨][1].

وتأمل قوله تعالى عقيب ذلك: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾﴾ [ق: ٣٩]، فإن أعداء الرسول نسبوه إلى ما لا يليق به، وقالوا فيه ما هو منزه عنه، فأمره اللَّه سبحانه وتعالى أن يصبر على قولهم، ويكون له أسوة بربه سبحانه وتعالى حيث قال أعداؤه فيه

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٢٤/ ٩٤)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٥٩٢). وأورده الشوكاني في «فتح القدير» (٤/ ٧٢٤) وزاد نسبته للنحاس في «ناسخه» وأبي الشيخ في «العظمة» وابن مردويه والبيهقي في «الأسماء والصفات».

ما لا يليق.

وكذلك قال فنحاص لأبي بكر ﷺ : إن اللَّه فقير ونحن أغنياء؛ ولهذا استقرضنا من أموالنا. فأنزل اللَّه سبحانه وتعالى : ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾ [آل عمران: ١٨١](١)، وقالوا أيضًا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ﴾ [المائدة: ٦٤]، ويقولون في العشر الأول من الشهر الأول من كل سنة: «يا إلهنا وإله آبائنا، املك على جميع أهل الأرض، ليقول كل ذي نسمة: اللَّه إله إسرائيل قد ملك، ومملكته في الكل متسلطة». ويقولون في هذه الصلاة أيضًا: «**وسيكون لله تعالى الملك، وفي ذلك اليوم يكون اللَّه تعالى واحدًا واسمه واحدًا**».

ويعنون بذلك أنه لا يظهر الملك لله تعالى إلا إذا صارت الدولة لليهود الذين هم صفوته وأمته، فأما ما دامت الدولة لغير اليهود، فإنه سبحانه وتعالى خامل الذكر عند الأمم، مطعون في ملكه مشكوك في قدرته.

ومن تلاعب الشيطان بهم: أنهم يقولون بالقدح في الأنبياء وأذيتهم، وقد آذوا موسى عليه السلام في حياته، ونسبوه إلى ما برأه اللَّه تعالى منه، ونهى اللَّه سبحانه هذه الأمة عن الاقتداء بهم في ذلك؛ حيث يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾ [الأحزاب: ٦٩].

---

(١) أورده الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٥٧٥)، وعزاه لابن مردويه وابن أبي حاتم في «تفسيريهما».

وثبت في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ قال: **«كانت بنو إسرائيلَ يغتسلون عراةً ينظُرُ بعضُهم إلى سَوْأةِ بعضٍ، وكان موسى** ﵇ يَغْتَسِلُ وحده، فقالوا: واللَّهِ ما يَمنَعُ موسى يَغتَسِلُ معنا إلا أنَّه آدَرُ[1]، قال: فذهب مَرَّةً يَغتَسِلُ فوضَع ثوبَه على حَجَرٍ، ففَرَّ الحجَرُ بثوبِه، قال: فجَمَحَ موسى بإِثْرِهِ يقولُ: ثوبي حَجَرُ، ثوبي حجَرُ. حتى نَظَرَتْ بنو إسرائيلَ إلى سَوْأةِ موسى، وقالوا: واللَّهِ ما بموسى مِن بأسٍ. فقام الحجَرُ بَعْدُ حتى نَظَرَ إليه، فأخَذ ثوبَه وطَفِقَ بالحجَرِ ضربًا، وأنزل اللَّه تعالى هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾ [الأحزاب: ٦٩]»[2].

وقال ابن جرير[3]: حدثنا ابن حميد، حدثنا يعقوب، عن جعفر، عن سعيد، قالت بنو إسرائيل: «**إن موسى آدر. وقالت طائفة: هو أبرص. من شدة تستره**».

وقال ابن سيرين: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «**كان موسى حَيِيًّا ستيرًا، لا يكادُ يُرِي مِن جلدِه شيئًا؛ استحياءً منه، فآذاه مَن آذاه مِن بني إسرائيلَ، وقالوا: ما يَتستَّرُ هذا التَّستُّرَ إلا مِن عيبٍ بجلدِه: إمَّا بَرَصًا، وإمَّا أُدْرَةً، وَإِمَّا آفَةً. وإنَّ اللهَ تعالى أراد أَن يُبَرِّئَه ممَّا قالوا ...**» وذكر الحديث[4].

وقال سفيان بن حسين: عن الحكم، عن ابن جبير، عن ابن عباس، عن

---

(١) ورجل آدر أي: به أُدرة العظيم الخصيتين. «فتح الباري».
(٢) أخرجه البخاري (٢٧٨)، ومسلم (٣٣٩/ ٧٥، ١٥٥).
(٣) في «تفسيره» (٢٢/ ٥١).
(٤) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢٢/ ٥١، ٥٢).

عليّ بن أبي طالب - رضي اللَّه عنهم - في قوله تعالى: ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَاذَوْا مُوسَىٰ﴾ قال: «صعد موسى وهارون الجبل، فمات هارون، فقالت بنو إسرائيل: أنت قتلته، وكان أشد حبًّا لنا منك، وألين لنا منك. وآذَوه بذلك، فأمر اللَّه تعالى الملائكة فحملته، حتى مروا به على بني إسرائيل، وتكلمت الملائكة بموته، حتى عرف بنو إسرائيل أنه مات، فبرَّأه اللَّه تعالى من ذلك، فانطلقوا به فدفنوه، فلم يطلع على قبره أحد من خلق اللَّه تعالى إلا الرَّخَم[1] فجعله اللَّه تعالى أصم أبكم»[2].

وقال اللَّه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الصَّف: ٥]، **وتأمل قوله**: ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾، فإنها جملة في موضع الحال؛ أي: أتؤذونني وأنتم تعلمون أني رسول اللَّه إليكم. وذلك أبلغ في العناد، وكذلك المسيح قال: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

فهذا قليل من كثير من أذاهم لأنبيائهم، وأما أذاهم لهم بالقتل والبغي فأشهر من أن يذكر.

ولقد بالغوا في أذى النبي ﷺ بجهدهم بالقول والفعل حتى ردهم اللَّه تعالى خاسئين.

ومِن قدحهم في الأنبياء ما نسبوه إلى نص التوراة: «أنه لما أهلك اللَّه أمة لوط لفسادها، ونجى لوطًا بابنتيه فقط، ظن ابنتاه أن الأرض قد خلت ممن

(١) والرَّخَمُ نوع من الطير، واحدته رَخَمةٌ، وهو موصوف بالغَدْر والمُوقِ-أي الحمق- وقيل بالقَذَر، ومنه قولهم: رَخِمَ السّقاءُ. إذا أنْتن. «اللسان» (ر خ م)، (م أ ق).

(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢٢/ ٥٢).

يستبقين منه نسلاً، فقالت الصغرى للكبرى: إن أبانا شيخ ولم يبق في الأرض إنسان يأتينا كسبيل البشر، فَهَلمِّي نسقي أبانا خمرًا، ونضاجعه لنستبقي من أبينا نسلاً. ففعلتا ذلك بزعمهم.

فنسبوا لوطًا النبي عليه السلام إلى أنه سَكِر حتى لم يعرف ابنتيه، ثم وطئهما وأحبلهما، وهو لا يعرفهما، فولدت إحداهما ولدًا أسمته مواب، يعني أنه من الأب، والثانية سمت ولدها بني عمون يعني أنه من قبيلها.

وقد أجاب بعضهم عن هذا: بأنه كان قبل نزول التوراة، فلم يكن نكاح الأقارب حرامًا. والتوراة تكذبهم؛ فإن فيها أن إبراهيم الخليل خاف في ذلك العصر أن يقتله المصريون حسدًا له على زوجته سارة، فأخفى نكاحها، وقال: هي أختي. علمًا منه بأنه إذا قال ذلك لم يبق للظنون إليهما سبيل.

وهذا أظهر دليل على أن تحريم نكاح الأخت كان ثابتًا في ذلك الزمان، فما ظنك بنكاح البنت الذي لم يشرع ولا في زمن آدم عليه السلام؟!

وعندهم أيضًا في التوراة التي بأيديهم قصة أعجب من هذه وهي: أن يهوذا بن يعقوب النبي زوج ولده الأكبر من امرأة يقال لها تامار، فكان يأتيها مستدبرًا، فغضب اللَّه تعالى من فعله، فأماته، فزوجها يهوذا من ولده الآخر، فكان إذا دخل بها أنزل على الأرض، علمًا منه بأنه إن أولدها كان أول الأولاد مدعوًّا باسم أخيه، ومنسوبًا إلى أخيه، فكره اللَّه تعالى ذلك من فعله، فأماته أيضًا، فأمرها يهوذا باللحاق ببيت أبيها إلى أن يكبر ولده شبلاً ويتم عقله؛ حذرًا من أن يصيبه ما أصاب أخويه، فأقامت في بيت أبيها، ثم ماتت من بعد زوجة يهوذا، وصعد إلى منزل يقال له تمناث ليحرس غنمه، فلما أخبرت المرأة تامار بإصعاد حموها إلى المنزل لبست زي الزواني،

وجلست في مستشرف على طريقه لعلمها بشبقه، فلما مر بها خالَها زانية، فراودها فطالبته بالأجرة، فوعدها بجدي ورهن عندها عصاه وخاتمه، ودخل بها فعلقت منه، فلما أخبر يهوذا أن كَنَّته[1] علقت من الزنا أذن بإحراقها، فبعثت إليه بخاتمه وعصاه، فقالت: مِن ربِّ هذين أنا حامل. فقال: صدقَتْ، ومني ذلك. واعتذر بأنه لم يعرفها، ولم يستحل معاودتها، ولا تسليمها إلى ولده، وعلقت من هذا الزنا بفارص، قالوا: ومن ولدها داود النبي!

ففي ذلك من نسبتهم الزنا والكفر إلى بيت النبوة ما يقارب ما نسبوه إلى لوط عليه السلام.

وهذا كله عندهم، وفي نص كتابهم، وهم يجعلون هذا نسبًا لداود وسليمان عليهما السلام، ولمسيحهم المنتظر، ومن العجب أنهم يجعلون المسلمين أولاد زنا، ويسمونهم ممزيريم، واحدهم ممزير: وهو اسم لولد الزنا، لأن شرعهم أن الزوج إذا راجع زوجته بعد أن نكحت زوجًا غيره فأولادهما أولاد زنا، وزعموا أن ما جاءت به شريعة الإسلام من ذلك هو من موضوعات عبد اللّه بن سلام قصد به أن يجعل أولاد المسلمين ممزيريم، بزعمهم.

قالوا: وكان محمد قد رأى أحلامًا تدل على أنه صاحب دولة، فسافر إلى الشام في تجارة لخديجة، واجتمع بأحبار اليهود، وقص عليهم أحلامه، فعلموا أنه صاحب دولة، فأصحبوه عبد اللّه بن سلام فقرأ عليه علوم التوراة، وفقهها مدة، ونسبوا الفصاحة والإعجاز اللذين في القرآن إلى عبد اللّه بن

(١) وكَنَّته: امرأة ابنه. «اللسان» (ك ن ن).

سلام، وأن من جملة ما دبره عبد اللَّه بن سلام أن الزوجة لا تحل للمطلق ثلاثًا إلا بعد أن ينكحها رجل آخر، ليجعل أولاد المسلمين ممزيريم، أولاد زنا.

ولا ريب أن مثل هذا البهت يروج على كثير من حميرهم.

وقد خلق اللَّه تعالى لكل باطل وبهت حَمَلَةً، كما جعل للحق حملة، وليس وراء هذا البهت بهت!

وليس بمستنكر من أمة قدَحت في معبودها وإلهها ونسبته إلى ما لا يليق بعظمته وجلاله، ونسبت أنبياءه إلى ما لا يليق بهم، ورمتهم بالعظائم - أن ينسبوا محمدًا وبجل وكرم وعظم إلى ذلك، وعداوته لهم، وملاحمه فيهم، وإجلاؤه لهم من ديارهم وأموالهم، وسبي ذراريهم، ونسائهم معلوم غير مجهول.

وقد نسبت هذه الأمة الغضبية عيسى ابن مريم إلى أنه ساحر، ولد بغية، ونسبت أمه إلى الفجور.

ونسبت لوطا إلى أنه وطئ ابنتيه وأولدهما وهو سكران من الخمر.

ونسبوا سليمان عليه السلام إلى أنه كان ملكًا ساحرًا، وكان أبوه عندهم ملكًا مسيحًا.

ونسبوا يوسف عليه السلام إلى أنه حل تكة سراويله، وتكة سراويل سيدته، وأنه قعد منها مقعد الرجل من امرأته، وأن الحائط انشق له فرأى أباه يعقوب عليه السلام عاضًا على أنامله، فلم يقم حتى نزل جبريل عليه السلام فقال: يا يوسف تكون من الزناة، وأنت معدود عند اللَّه تعالى من الأنبياء؟! فقام حينئذ.

ومعلوم أن ترك الفاحشة عن هذا لا مدح فيه، فإن أفسق الناس لو رأى

هذا لولّى هاربًا، وترك الفاحشة.

ومنهم من يزعم أن المسيح كان من العلماء وأنه كان يداوي المرضى بالأدوية، ويوهمهم أن الانتفاع إنما حصل لهم بدعائهم، وأنه داوى جماعة من المرضى في يوم السبت، فأنكرت عليه اليهود ذلك، فقال لهم: أخبروني عن الشاة من الغنم إن وقعت في بئر أما تنزلون إليها، وتحلون السبت لتخليصها؟ قالوا: بلى. قال: فلِم أحللتم السبت لتخليص الغنم، ولا تحلونه لتخليص الإنسان الذي هو أكبر حرمة من الغنم؟! فأُفحموا.

ويحكون أيضًا عنه أنه مشى مع قوم من تلاميذه في جبل ولم يحضرهم الطعام، فأذن لهم في تناول الحشيش يوم السبت، فأنكرت عليه اليهود قطع الحشيش في يوم السبت، فقال لهم: أرأيتم لو أن أحدكم كان وحيدًا مع قوم على غير ملته، وأمروه بقطع النبات وإلقائه لدوابهم، لا يقصدون بذلك إبطال السبت، ألستم تجيزون له قطع النبات؟ قالوا: بلى. قال: فإن هؤلاء القوم أمرتهم بقطع النبات ليأكلوه وليتغذوا به، لا لقطع السبت.

ومن العجب أن عندهم في التوراة التي بأيديهم لا يزول الملك من آل يهوذا، والراسم من بين ظهرانيهم إلى أن يأتي المسيح، وهم لا يقدرون أن يجحدوا ذلك.

فيقال لهم: إنكم كنتم أصحاب دولة حتى ظهر المسيح ثم انقضى ملككم، ولم يبق لكم اليوم ملك، وهذا برهان على أن المسيح قد أرسل.

ومن حين بعث المسيح، وكفروا به، وطلبوا قتله، استولت ملوك الروم على اليهود وبيت المقدس، وانقضت دولتهم وتفرق شملهم.

فيقال لهم: ما تقولون في عيسى ابن مريم؟ فيقولون: إنه ولد يوسف

النجار؛ لغية لا لرشدة، وقد كان عرف اسم اللَّه الأعظم يسخر به كثيرًا من الأشياء.

وعند هذه الأمة الغضبية أيضًا: أن اللَّه تعالى كان قد أطلع موسى عليه السلام على الاسم المركب من اثنين وأربعين حرفًا، وبه شق البحر، وعمل المعجزات.

فيقال لهم: فإذا كان موسى قد عمل المعجزات باسم الله، فلِمَ صدَّقتم نبوته وأقررتم بها، وجحدتم نبوة عيسى، وقد عمل المعجزات بالاسم الأعظم؟!

فأجاب بعضهم عن الإلزام بأن اللَّه سبحانه وتعالى علم موسى ذلك الاسم فعلمه بالوحي، وعيسى إنما تعلم من حيطان بيت المقدس.

وهذا هو اللائق ببهتهم وكذبهم على اللَّه تعالى وأنبيائه، وهو يسد عليهم العلو بنبوة موسى؛ لأن كلا الرسولين اشتركا في المعجزات والآيات الظاهرة التي لا يقدر أحد أن يأتي بمثلها، فإن كان أحدهما قد تعلمها بحيلة أو بعلم، فالآخر يمكن ذلك في حقه، وقد أخبرا جميعًا أن اللَّه سبحانه وتعالى هو الذي أجرى ذلك على أيديهما، وأنه ليس من صنعهما، فتكذيب أحدهما وتصديق الآخر تفريق بين المتماثلين.

وأيضًا: فإنه لا دليل لهم على أن موسى تلقى تلك المعجزات عن اللَّه تعالى إلا وهو يدل على أن عيسى عليه السلام تلقاها أيضًا عن اللَّه تعالى، فإن أمكن القدح في معجزات عيسى أمكن القدح في معجزات موسى عليه السلام، وإن كان ذلك باطلًا فهذا أيضًا باطل.

وإذا كان هذا شأن معجزات هذين الرسولين مع بعد العهد، وتشتت

شمل أمتيهما في الأرض، وانقطاع معجزاتهما، فما الظن بنبوة مَن معجزاته وآياته تزيد على الألف، والعهد بها قريب، وناقلوها أصدق الخلق وأبرهم، ونقلها ثابت بالتواتر، قرنًا بعد قرن، وأعظمها معجزةً كتابٌ باقٍ غضٌّ طريٌّ، لم يتغير ولم يتبدل منه شيء، بل كأنه منزَّلٌ الآن، وهو القرآن العظيم، وما أخبر به يقع كل وقت، على الوجه الذي أخبر به، كأنه كان يشاهده عيانًا!

* * *

الإيمان بنبوة موسى وعيسى يقتضي الإيمان بنبوة محمد

ولا يمكن البتة أن يؤمن يهودي بنبوة موسى عليه السلام إن لم يؤمن بنبوة محمد، ولا يمكن نصرانيًّا أن يقر بنبوة المسيح إلا بعد إقراره بنبوة محمد.

وبيان ذلك: أن يقال لهاتين الأمتين: أنتم لم تشاهدوا هذين الرسولين، ولا شاهدتم آياتهما وبراهين نبوتهما، فكيف يسع العاقل أن يكذب نبيًّا ذا دعوة سابقة، وكلمة قائمة، وآيات باهرة، ويصدق من ليس مثله ولا قريبًا منه في ذلك؟!

لأنه لم يرَ أحد النبيين، ولا شاهد معجزاته، فإذا كذب بنبوة أحدهما لزمه التكذيب بنبوتهما، وإن صدق بأحدهما لزمه التصديق بنبوتهما، فمن كفر بنبي واحد فقد كفر بالأنبياء كلهم ولم ينفعه إيمانه به، قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾ [النساء: ١٥١ - ١٥٣]، وقال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، فنقول للمغضوب عليه: هل رأيت موسى وعاينت معجزاته؟ فبالضرورة يقول: لا. فنقول له: بأي شيء عرفت نبوته وصدقه؟

فله جوابان:

أحدهما: أن يقول: أبي عرفني ذلك وأخبرني به.

والثاني: أن يقول التواتر وشهادات الأمم حقق ذلك عندي، كما حققت شهادتهم وجود البلاد النائية، والبحار والأنهار المعروفة، وإن لم أشاهدها.

فإن اختار الجواب الأول وقال: إن شهادة أبي وإخباره إياي بنبوة موسى هي سبب تصديقي بنبوته.

قلنا له: ولِمَ كان أبوك عندك صادقًا في ذلك معصومًا عن الكذب وأنت ترى الكفار يعلمهم آباؤهم ما هو كفر عندك؟ فإذا كنت ترى الأديان الباطلة والمذاهب الفاسدة قد أخذها أربابها عن آبائهم كأخذك مذهبك عن أبيك، وأنت تعلم أن الذي هم عليه ضلال فلزمك أن تبحث عما أخذته عن أبيك؛ خوفًا أن تكون هذه حاله.

فإن قال: إن الذي أخذته عن أبي أصح من الذي أخذه الناس عن آبائهم. كفاه معارضة غيره له بمثل قوله.

فإن قال: أبي أصدق من آبائهم وأعرف وأفضل. عارضه سائر الناس في آبائهم بنظير ذلك.

فإن قال: أنا أعرف حال أبي، ولا أعرف حال غيره.

قيل له: فما يؤمنك أن يكون غير أبيك أصدق من أبيك وأفضل وأعرف؟ وبكل حال فإن كان تقليد أبيه حجة صحيحة كان تقليد غيره لأبيه كذلك، وإن كان ذلك باطلاً كان تقليده لأبيه باطلاً.

فإن رجع عن هذا الجواب واختار الجواب الثاني، وقال: إنما علمت نبوة موسى بالتواتر قرنًا بعد قرن، فإنهم أخبروا بظهوره وبمعجزاته وآياته وبراهين نبوته التي تضطرني إلى تصديقه.

فيقال له: لا ينفعك هذا الجواب؛ لأنك قد أبطلت ما شهد به التواتر من

نبوة عيسى ومحمد - عليهما الصلاة والسلام.

فإن قلت: تواتر ظهور موسى ومعجزاته وآياته، ولم يتواتر ذلك في المسيح ومحمد - عليهما الصلاة والسلام.

قيل لك: هذا هو اللائق ببهت الأمة الغضبية، فإن الأمم جميعهم قد عرفوا أنهم قوم بهت، وإلا فمن المعلوم أن الناقلين لمعجزات المسيح ومحمد أضعاف أضعافكم بكثير، والمعجزات التي شاهدها أوائلهم لا تنقص عن المعجزات التي أتى بها موسى ﵇، وقد نقلها عنهم أهل التواتر جيلاً بعد جيل، وقرنًا بعد قرن، وأنت لا تقبل خبر التواتر في ذلك وترده، فيلزمك أن لا تقربه في أمر موسى ﵇.

ومن المعلوم بالضرورة أن من أثبت شيئًا ونفى نظيره فقد تناقض، وإذا اشتهر النبي في عصر وصحت نبوته في ذلك العصر بالآيات التي ظهرت عليه لأهل عصره ووصل خبره إلى أهل عصر آخر، وجب عليهم تصديقه والإيمان به، وموسى ومحمد والمسيح في هذا سواء، ولعل تواتر الشهادات بنبوة موسى أضعف من تواتر الشهادات بنبوة عيسى ومحمد؛ لأن الأمة الغضبية قد مزقها اللّه تعالى كل ممزق، وقطعها في الأرض، وسلبها ملكها وعزها، فلا عيش لها إلا تحت قهر سواها من الأمم لها، بخلاف أمة عيسى ﵇، فإنها قد انتشرت في الأرض وفيهم الملوك ولهم الممالك، وأما الحنفاء فممالكهم قد طبقت مشارق الأرض ومغاربها، وملئوا الدنيا سهلاً وجبلاً، فكيف يكون نقلهم لما نقلوه كذبًا، ونقل الأمة الغضبية الخاملة القليلة الزائلة صدقًا؟!

فثبت أنه لا يمكن يهوديًا على وجه الأرض أن يصدق بنبوة موسى ﵇

إلا بتصديقه وإقراره بنبوة محمد، ولا يمكن نصرانيًّا البتة الإيمان بالمسيح عليه السلام إلا بعد الإيمان بمحمد.

ولا ينفع هاتين الأمتين شهادة المسلمين بنبوة موسى والمسيح؛ لأنهم آمنوا بهما على يد محمد، وكان إيمانهم بهما من الإيمان بمحمد وبما جاء به، فلولاه ما عرفنا نبوتهما ولا آمنا بهما، ولا سيما فإن أمة الغضب والضلال ليس بأيديهم عن أنبيائهم ما يوجب الإيمان بهم، فلولا القرآن ومحمد ما عرفنا شيئًا من آيات الأنبياء المتقدمين، فمحمد وكتابه هو الذي قرر نبوة موسى ونبوة المسيح، لا اليهود ولا النصارى، بل كان نفس ظهوره ومجيئه تصديقًا لنبوتهما، فإنهما أخبرا بظهوره وبشرا به قبل ظهوره، فلما بعث كان بعثه تصديقًا لهما، وهذا أحد المعنيين في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الصَّفات: ٣٦، ٣٧]؛ أي: مجيئه تصديق لهم من جهتين:

من جهة إخبارهم بمجيئه ومبعثه، ومن جهة إخباره بمثل ما أخبروه به، ومطابقة ما جاءوا به لما جاءوا به.

فإن الرسول الأول إذا أتى بأمر لا يُعلم إلا بالوحي ثم جاء نبي آخر لم يقارنه في الزمان ولا في المكان، ولا تلقى عنه ما جاء به، وأخبر بمثل ما أخبر به سواء - دل ذلك على صدق الرسولين الأول والآخر، وكان ذلك بمنزلة رجلين أخبر أحدهما بخبر عن عيان، ثم جاء آخر من غير بلده وناحيته، بحيث يعلم أنه لم يجتمع به، ولا تلقى عنه، ولا عمن تلقى عنه، فأخبر بمثل ما أخبر به الأول سواء، فإنه يضطر السامع إلى تصديق الأول والثاني.

والمعنى الثاني: أنه لم يأت مكذبًا لمن قبله من الأنبياء، مزريًا عليهم، كما يفعل الملوك المتغلبون على الناس بمن تقدمهم من الملوك، بل جاء مصدقًا لهم، شاهدًا بنبوتهم، ولو كان كاذبًا متقولاً منشئًا من عنده سياسة لم يصدق مَن قبله، بل كان يزري بهم ويطعن عليهم، كما يفعل أعداء الأنبياء.

* * *

اختلاف أقوال الناس في التوراة

وقد اختلفت أقوال الناس في التوراة التي بأيديهم؛ هل هي مبدلة؟ وهل التبديل والتحريف وقع في التأويل دون التنزيل؟ على ثلاثة أقوال:

طرفين، ووسط، فأفرطت طائفة وزعمت أنها كلها، أو أكثرها، مبدلة مغيرة، ليست التوراة التي أنزلها اللَّه تعالى على موسى ﷺ، وتعرض هؤلاء لتناقضها وتكذيب بعضها لبعض، وغلا بعضهم فجوز الاستجمار بها من البول.

وقابلهم طائفة أخرى من أئمة الحديث، والفقه والكلام، فقالوا: بل التبديل وقع في التأويل لا في التنزيل. وهذا مذهب أبي عبد اللَّه محمد بن إسماعيل البخاري، قال في «صحيحه»: «**يحرفون: يزيلون، وليس أحد يزيل لفظ كتاب من كتب اللَّه تعالى، ولكنهم يحرفونه؛ يتأولونه على غير تأويله**»[1]. وهذا اختيار الرازي في «**تفسيره**»[2].

وسمعت شيخنا يقول: «وقع النزاع في هذه المسألة بين بعض الفضلاء...». فاختار هذا المذهب ووهَّن غيره، فأُنكر عليه، فأحضر لهم خمسة عشر نقلًا به.

ومن حجة هؤلاء: أن التوراة قد طبقت مشارق الأرض ومغاربها، وانتشرت جنوبًا وشمالاً، ولا يعلم عدد نسخها إلا اللَّه تعالى، ومن الممتنع أن يقع التواطؤ على التبديل والتغيير في جميع تلك النسخ بحيث لا يبقى في الأرض نسخة إلا مبدلة مغيرة، والتغيير على منهاج واحد، وهذا مما يحيله

---

(١) ذكره البخاري في «صحيحه» (٦/ ٢٧٤٥).

(٢) في «تفسيره» (٣/ ٣٩).

العقل ويشهد ببطلانه.

قالوا: وقد قال اللَّه تعالى لنبيه محتجًا على اليهود بها: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣].

قالوا: وقد اتفقوا على ترك فريضة الرجم، ولم يمكنهم تغييرها من التوراة، ولهذا لما قرءوها على النبي وضع القارئ يده على آية الرجم، فقال له عبد اللَّه بن سلام: ارفع يدك عن آية الرجم. فرفعها، فإذا هي تلوح تحتها، فلو كانوا قد بدلوا ألفاظ التوراة، لكان هذا من أهم ما يبدلونه.

قالوا: وكذلك صفات النبي ومخرجه هو في التوراة بيِّنٌ جدًا، ولم يمكنهم إزالته وتغييره، وإنما ذمهم اللَّه تعالى بكتمانهم، وكانوا إذا احتج عليهم بما في التوراة من نعته وصفته يقولون: ليس هو، ونحن ننتظره.

قالوا: وقد روى أبو داود في «**سننه**» عن ابن عمر ﵄ قال: أتى نفر من اليهود فدعوا رسول اللَّه إلى القُفِّ[1]، فأتاهم في بيت المِدْرَاس[2]، فقالوا: يا أبا القاسم إن رجلاً منا زنى بامرأة، فاحكم. فوضعوا لرسول اللَّه ﷺ وسادة، فجلس عليها، ثم قال: «**ائتوني بالتوراةِ**». فأتي بها، فنزع الوسادة من تحته، ووضع التوراة عليها، ثم قال: «**آمنتُ بكِ وبمَن أنزلك**». ثم قال: «**ائتوني بأعلمِكم**». فأتي بفتى شاب، ثم ذكر قصة الرجم.

فلو كانت مبدلة مغيرة لم يضعها على الوسادة، ولم يقل: «**آمنتُ بكِ وبمَن أنزلك**»[3].

---

(١) القُفُّ: اسم واد بالمدينة. «عون المعبود» (١٢/ ٨٩). و«النهاية» (٤/ ١٤٣).

(٢) المِدْرَاس: البيت الذي يدرُسُون فيه. «عون المعبود» (١٢/ ٨٩) «النهاية» (٢/ ٢٩٠).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٤٤٩)، وأخرجه البخاري (١٢٦٤) وانظر أطرافه، ومسلم (٢٦/ ١٦٩٩) مختصرًا.

قالوا: وقد قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ [الأنعام: ١١٥].

قالوا: والآثار التي في كتمان اليهود صفة رسول اللَّه ﷺ في التوراة، ومنعهم أولادهم وعوامهم الاطلاع عليها مشهورة، ومن اطلع عليها منهم قالوا له: ليس به. فهذا بعض ما احتجت به هذه الفرقة.

وتوسطت طائفة ثالثة، وقالوا: قد زيد فيها وغُيِّر ألفاظ يسيرة، ولكن أكثرها باقٍ على ما أنزل عليه، والتبديل في يسير منها جدًّا.

وممن اختار هذا القول شيخنا في كتابه «**الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**»، **قال:** «**وهذا كما في التوراة عندهم أن اللَّه سبحانه وتعالى قال لإبراهيم** عليه السلام: اذبح ولدَك بِكْرَك ووحيدك إسحاق. ف - (إسحاق) زيادة منهم في لفظ التوراة».

قلت: وهي باطلة قطعًا من عشرة أوجه:

أحدها: أن بكره ووحيده هو إسماعيل باتفاق الملل الثلاث، فالجمع بين كونه مأمورًا بذبح بكره وتعيينه بإسحاق جمع بين النقيضين!

الثاني: أن اللَّه سبحانه وتعالى أمر إبراهيم أن ينقل هاجر وابنها إسماعيل عن سارة، ويسكنها في برية مكة؛ لئلا تَغِير سارة، فأمر بإبعاد السُّرِّيَّةِ وولدها عنها؛ حفظًا لقلبها، ودفعًا لأذى الغَيرة عنها، فكيف يأمر اللَّه سبحانه وتعالى بعد هذا بذبح ابن سارة وإبقاء ابن السُّرِّيَّةِ؟! فهذا مما لا تقتضيه الحكمة.

الثالث: أن قصة الذبح كانت بمكة قطعًا، ولهذا جعل اللَّه تعالى ذبح الهدايا والقرابين بمكة؛ تذكيرًا للأمة بما كان من قصة أبيهم إبراهيم مع ولده.

الرابع: أن اللَّه سبحانه بشر سارة أم إسحاق بإسحاق ومن وراء إسحاق

يعقوب، فبشرها بهما جميعًا، فكيف يأمر بعد ذلك بذبح إسحاق وقد بشر أبويه بولد ولده؟!

الخامس: أن اللَّه سبحانه وتعالى لما ذكر قصة الذبيح، وتسليمه نفسه لله تعالى، وإقدام إبراهيم على ذبحه، وفرغ من قصته، قال بعدها: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾، فشكر اللَّه تعالى له استسلامه لأمره، وبذل ولده له، وجعل من إثابته على ذلك أن آتاه إسحاق، فنجى إسماعيل من الذبح، وزاده عليه إسحاق.

السادس: أن إبراهيم - صلوات اللَّه تعالى وسلامه عليه - سأل ربه الولد فأجاب اللَّه دعاءه وبشره، فلما بلغ معه السعي أمره بذبحه، قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الصافات: ٩٩ - ١٠١]، فهذا دليل على أن هذا الولد إنما بشر به بعد دعائه وسؤاله ربه أن يهب له ولدًا، وهذا المبشر به هو المأمور بذبحه قطعًا بنص القرآن، وأما إسحاق فإنما بُشر به من غير دعوة منه، بل على كبر السن وكون مثله لا يولد له، وإنما كانت البشارة به لامرأته سارة، ولهذا تعجبت من حصول الولد منها ومنه؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ [هود: ٧٠ - ٧٣]، **فتأمل سياق هذه البشارة** وتلك تجدهما بشارتين

متفاوتتين، مخرج إحداهما غير مخرج الأخرى.

والبشارة الأولى كانت له، والثانية كانت لها.

والبشارة الأولى هي التي أمر بذبح مَن بُشر فيها دون الثانية.

السابع: أن إبراهيم عليه السلام لم يقدم بإسحاق إلى مكة البتة، ولم يفرق بينه وبين أمه، وكيف يأمره اللَّه تعالى أن يذهب بابن امرأته فيذبحه بموضع ضرتها في بلدها، ويدع ابن ضرتها.

الثامن: أن اللَّه تعالى لما اتخذ إبراهيم خليلاً، والخلة تتضمن أن يكون قلبه كله متعلقًا بربه ليس في شعبة لغيره، فلما سأله الولد وهبه إسماعيل، فتعلق به شعبة من قلبه فأراد خليله سبحانه أن تكون تلك الشعبة له ليست لغيره من الخلق، فامتحنه بذبح ولده، فلما أقدم على الامتثال، خلصت له تلك الخلة، وتمحضت لله وحده، فنسخ الأمر بالذبح لحصول المقصود، وهو العزم وتوطين النفس على الامتثال.

ومن المعلوم أن هذا إنما يكون في أول الأولاد لا في آخرها، فلما حصل هذا المقصود من الولد الأول، لم يحتج في الولد الآخر إلى مثله، فإنه لو زاحمت محبة الولد الآخر الخلة لأمر بذبحه، كما أمر بذبح الأول، فلو كان المأمور بذبحه هو الولد الآخر لكان قد أقره في الأول، على مزاحمة الخلة به مدة طويلة، ثم أمره بما يزيل المزاحم بعد ذلك، وهذا خلاف مقتضى الحكمة، فتأمله.

التاسع: أن إبراهيم عليه السلام إنما رزق إسحاق عليه السلام على الكِبَرِ، وإسماعيل عليه السلام رزقه في عنفوانه وقوته، والعادة أن القلب أعلق بأول الأولاد، وهو إليه أميل، وله أحب، بخلاف من يرزقه على الكبر، ومحل الولد بعد الكبر

كمحل الشهوة للمرأة.

العاشر: أن النبي ﷺ كان يفتخر بقوله: «**أنا ابنُ الذبيحين**». يعني: أباه عبد اللَّه وجده إسماعيل.

والمقصود: أن هذه اللفظة مما زادوها في التوراة.

ونحن نذكر السبب الموجب لتغيير ما غير منها، والحق أحق ما اتبع، فلا نغلو غلو المستهينين، بها المتمسخرين بها، بل معاذ اللَّه من ذلك، ولا نقول: إنها باقية كما أنزلت من كل وجه كالقرآن.

فنقول وباللَّه التوفيق: علماء اليهود وأحبارهم يعتقدون أن هذه التوراة التي بأيديهم ليست هي التي أنزلها اللَّه تعالى على موسى بن عمران بعينها؛ لأن موسى عليه السلام صان التوراة عن بني إسرائيل؛ خوفًا من اختلافهم من بعده في تأويلها المؤدي إلى تفرقهم أحزابًا، وإنما سلمها إلى عشيرته أولاد لاوي.

ودليل ذلك: قوله في التوراة: «وكتب موسى هذه التوراة ودفعها إلى بني إسرائيل إلى الأئمة من بني لاوي».

وكان بنو هارون قضاة اليهود وحكامهم؛ لأن الإمامة وخدمة القرابين وبيت المقدس كانت موقوفة عليهم، ولم يبذل موسى عليه السلام من التوراة لبني إسرائيل إلا نصف سورة، وهي التي قال فيها: «**وكتب موسى هذه السورة، وعلمها بني إسرائيل**». هذا نص التوراة عندهم، قال: «**وتكون لي هذه السورة شاهدة على بني إسرائيل**»، وفيها قال اللَّه تعالى: «**إن هذه السورة لا تُنسى من أفواه أولادهم**». يعني: أن هذه السورة مشتملة على ذم طبائعهم، وأنهم سيخالفون شرائع التوراة، وأن السخط يأتيهم بعد ذلك، وتخرب

ديارهم، ويُسبون في البلاد، فهذه السورة تكون متداولة في أفواههم كالشاهد عليهم، المُوقِف لهم على صحة ما قيل لهم، فلما نصت التوراة أن هذه السورة لا تُنسى من أفواه أولادهم، دل ذلك على أن غيرها من السور ليس كذلك، وأنه يجوز أن يُنسى من أفواههم، وهذا يدل على أن موسى عليه السلام لم يعطِ بني إسرائيل من التوراة إلا هذه السورة، فأما بقيتها فدفعها إلى أولاد هارون، وجعلها فيهم، وصانها عمن سواهم، وهؤلاء الأئمة الهارونيون الذين كانوا يعرفون التوراة، ويحفظون أكثرها، قتلهم بُخْتُنَصَّر على دم واحد يوم فتح بيت المقدس، ولم يكن حِفْظُ التوراة فرضًا عليهم ولا سنة، بل كان كل واحد من الهارونيين يحفظ فصلاً من التوراة، فلما رأى (عزرا) أن القوم قد أحرق هيكلهم، وزالت دولتهم، وتفرق جمعهم، ورفع كتابهم؛ جمع من محفوظاته، ومن الفصول التي يحفظها الكهنة، ما اجتمعت منه هذه التوراة التي بأيديهم، ولذلك بالغوا في تعظيم (عزرا) هذا غاية المبالغة.

فزعموا أن النور الآن يظهر على قبره، وهو عند بطائح العراق؛ لأنه جمع لهم ما يحفظ دينهم، وغلا بعضهم فيه، حتى قالوا: هو ابن الله! ولذلك نسب اللَّه تعالى ذلك إلى اليهود إلى جنسهم، لا إلى كل واحد منهم.

فهذه التوراة التي بأيديهم في الحقيقة كتاب (عزرا)، وفيها كثير من التوراة التي أنزلها اللَّه تعالى على موسى - عليه الصلاة والسلام - ، ثم تداولتها أمة قد مزقها اللَّه تعالى كل ممزق، وشتت شملها، فلحقها ثلاثة أمور:

أحدها: بعض الزيادة والنقصان.

الثاني: اختلاف الترجمة.

الثالث: اختلاف التأويل والتفسير.

ونحن نذكر من ذلك أمثلة تبين حقيقة الحال:

المثال الأول: ما تقدم من قوله: «**ولحمًا فريسة في الصحراء لا تأكلوه، وللكلب ألقوه**». وتقدم بيان تحريفهم هذا النص، وحمله على غير محمله.

المثال الثاني: قوله في التوراة: «**نبيًا أقيم لهم من وسط إخوتهم مثلك به فليؤمنوا**». فحرفوا تأويله؛ إذ لم يمكنهم أن يبدلوا تنزيله، وقالوا: هذه بشارة نبي من بني إسرائيل. وهذا باطل من وجوه:

أحدها: أنه لو أراد ذلك لقال من أنفسهم كما قال في حق محمد: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، ولم يقل: من إخوتكم.

الثاني: أن المعهود في التوراة أن إخوتهم غير بني إسرائيل، ففي الجزء الأول من السِفْر الخامس قوله: «**أنتم عابرون في تخوم إخوتكم بني العيص المقيمين في سيعير، إياكم أن تطمعوا في شيء من أرضهم**». فإذا كان بنو العيص إخوة لبني إسرائيل؛ لأن العيص وإسرائيل ولدا إسحاق، والروم هم بنو العيص، واليهود هم بنو إسرائيل، وهم إخوتهم، فكذلك بنو إسماعيل إخوة لجميع ولد إبراهيم.

الثالث: أن هذه البشارة لو كانت بشمويل أو غيره من بني إسرائيل، لم يصح أن يقال: بنو إسرائيل إخوة بني إسرائيل، وإنما المفهوم من هذا أن بني إسماعيل أو بني العيص هم إخوة بني إسرائيل.

الرابع: أنه قال: «**سأقيم لهم نبيًا مثلك**». وفي موضع آخر: «**أنزل عليه**

توراة مثل توراة موسى». ومعلوم أن شمويل وغيره من أنبياء بني إسرائيل لم يكن فيهم مثل موسى، لا سيما وفي التوراة لا يقوم في بني إسرائيل مثل موسى، وأيضًا فليس في بني إسرائيل من أنزل عليه توراة مثل توراة موسى إلا محمد والمسيح - عليهم الصلاة والسلام - ، والمسيح كان من أنفس بني إسرائيل، لا من إخوتهم، بخلاف محمد فإنه من إخوتهم بني إسماعيل.

وأيضًا: فإن في بعض ألفاظ هذا النص: «**كلكم له تسمعون**». وشموئيل لم يأت بزيادة ولا بنسخ؛ لأنه إنما أرسل ليقوي أيديهم على أهل فلسطين، وليردهم إلى شرع التوراة، فلم يأتِ بشريعة جديدة، ولا كتاب جديد، وإنما حكمه حكم سائر الأنبياء من بني إسرائيل، فإنهم كانوا يسوسهم الأنبياء، كلما مات نبي قام فيهم نبي، فإن كانت هذه البشارة لشمويل فهي بشارة بسائر الأنبياء الذين بعثوا فيهم ويكونون كلهم مثل موسى عليه السلام، وكلهم قد أنزل عليهم كتاب مثل كتاب موسى عليه السلام.

المثال الثالث: قوله في التوراة: «**جاء اللَّه تعالى من طور سيناء، وأشرق نوره من سيعير واستعلن من جبال فاران ومعه ربوات المقدسين**»، وهم يعلمون أن (جبل سيعير) هو جبل السراة الذي يسكنه بنو العيص الذين آمنوا بعيسى، ويعلمون أن في هذا الجبل كان مقام المسيح، ويعلمون أن سيناء هو جبل الطور.

وأما جبال فاران فهم يحملونها على جبال الشام، وهذا من بهتهم وتحريف التأويل.

فإن جبال فاران هي جبال مكة، وفاران اسم من أسماء مكة، وقد دل على هذا نص التوراة: أن إسماعيل لما فارق أباه سكن برية فاران، وهي

جبال مكة، ولفظ التوراة: «**أن إسماعيل أقام في برية فاران، وأنكحته أمه امرأة من أرض مصر**».

فثبت بنص التوراة أن جبال فاران مسكن لولد إسماعيل، وإذا كانت التوراة قد أشارت إلى نبوة تنزل على جبال فاران لزم أنها تنزل على ولد إسماعيل لأنهم سكانها، ومن المعلوم بالضرورة أنها لم تنزل على غير محمد من ولد إسماعيل عليه السلام، وهذا من أظهر الأمور بحمد اللّه تعالى.

ومما يدل على غلط أفهام هذه الأمة الغضبية وقلة فقههم وفساد رأيهم وعقولهم، كما في التوراة، أنهم شعب عادم الرأي، فليس فيهم فطانة - أنهم سمعوا في التوراة: «**يكون ثمار أرضك تحمل إلى بيت اللّه ربك، ولا ينضج الجدي بلبن أمه**».

والمراد بذلك: أنهم أمروا عقيب افتراض الحج إلى بيت المقدس عليهم أن يستصحبوا معهم إذا حجوا أبكار أغنامهم، وأبكار مستغلات أرضهم؛ لأنه كان فرض عليهم قبل ذلك أن تبقى سخولة الغنم والبقر وراء أمها سبعة أيام، وفي اليوم الثامن فصاعدًا يصلح أن تكون قربانًا، فأشار في هذا النص بقوله: «**لا ينضج الجدي بلبن أمه**». إلى أنهم لا يبالغون في إطالة مكث باكور أولاد البقر والغنم وراء أمها، بل يستصحبون أبكارهم اللاتي قد عبرت سبعة أيام منذ ميلادهن معهم إذا حجوا إلى بيت المقدس ليتخذوا منها القرابين.

فتوهم المشايخ البله أن الشرع يريد بالإنضاج: إنضاج الطبيخ في القدر، وأنهم نهوا أن يطبخوا لحم الجدي باللبن، ولم يكفهم هذا الغلط في تفسير هذه اللفظة حتى حرَّموا أكل سائر اللحمان باللبن، فألغوا لفظ (الجدي)،

وألغوا لفظ (أمه)، وحمَّلوا النص ما لا يحتمله، وإذا أرادوا أن يأكلوا اللحم واللبن أكلوا كلًّا منهما على حدة، والأمر في هذا ونحوه قريب، ولا يستبعد اصطلاح كافة هذه الأمة على المحال، واتفاقهم على أنواع الضلال.

فإن الدولة إذا انقرضت عن أمة باستيلاء غيرها عليها وأخذها؛ انطمست معالم دينها واندرست آثارها، فإن الدولة إنما يكون زوالها بتتابع الغارات والمصافات، وإخراب البلاد وإحراقها، ولا تزال هذه الأمور متواترة عليها إلى أن يعود علمها جهلاً، وعزها ذلًّا، وكثرتها قلة، وكلما كانت الأمة أقدم واختلفت عليها الدول المتناولة لها بالذل والصغار؛ كان حظها من اندراس معالم دينها وآثارها أوفر.

وهذه الأمة أوفر الأمم حظًّا من هذا الأمر؛ لأنها من أقدم الأمم، ولكثرة الأمم التي استولت عليها من الكلدانيين والبابليين والفرس واليونان والنصارى، وآخر ذلك المسلمون، وما من هذه الأمم إلا من طلب استئصالهم، وبالغ في إحراق بلادهم وكتبهم، وقطع آثارهم إلا المسلمين، فإنهم أعدل الأمم فيهم وفي غيرهم؛ حفظًا لوصية اللَّه تعالى بهم حيث قال: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء: ١٣٥]، ويقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ﴾ [المائدة: ٨]، وصادف الإسلام هذه الأمة تحت ذمة الفرس وذمة النصارى، بحيث لم يبق لهم مدينة ولا جيش.

وأعز ما صادفه الإسلام من هذه الأمة يهود خيبر والمدينة وما جاورها.

فإنهم إنما قصدوا تلك الناحية لما كانوا وُعِدوا به من ظهور رسول الله، وكانوا يقاتلون المشركين من العرب فيستنصرون عليهم بالإيمان برسول اللَّه قبل ظهوره، ويعدونهم بأنه سيخرج نبي نتبعه، ونقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما بعث اللَّه ﷻ نبيه سبقهم إليه مَن كانوا يحاربونهم من العرب، فحملهم الحسد والبغي على الكفر به وتكذيبه!

وأشد ما على هذه الأمة الغضبية من ذلك ما نالهم من ملوك العصاة وغيرهم من ملوك الإسرائيليين الذين قتلوا الأنبياء، وبالغوا في تطلبهم، وعبدوا الأصنام، وأحضروا من البلاد سدنتها ليعلموا رسومها في العبادة، وبنوا لها البيع والهياكل، وعكفوا على عبادتها، وتركوا أحكام التوراة أعصارًا متصلة.

فإذا كان هذا تواتر الآفات على دينهم من قبل ملوكهم ومن قبل أنفسهم، فما الظن بالآفات التي نالتهم من غير ملوكهم، وقتلهم أئمتهم، وإحراقهم كتبهم، ومنعهم من القيام بدينهم؟!

فإن الفرس كثيرًا ما منعوهم من الختان، وكثيرًا ما منعوهم من الصلاة؛ لمعرفتهم بأن معظم صلاة هذه الطائفة دعاء على الأمم بالبوار، وعلى العالم بالخراب، سوى بلادهم التي هي أرض كنعان، فلما رأت هذه الأمة الجد من الفرس في منعهم من الصلاة، اخترعوا أدعية زعموا أنها فصول من صلاتهم سموها الحزانة، وصاغوا لها ألحانًا عديدة، وصاروا يجتمعون في أوقات صلاتهم على تلحينها وتلاوتها، وسموا القائم بها الحزان.

والفرق بينها وبين الصلاة: أن الصلاة بغير لحن، والمصلي يتلو الصلاة

وحده ولا يجهر معه غيره، والحزان يشاركه غيره في الجهر بالحزانة، ويعاونونه في الألحان.

فكانت الفرس إذا أنكرت ذلك منهم قالت اليهود: إنا ننعى أحيانًا، وننوح على أنفسنا. فيتركونهم، وذلك لما قام الإسلام وأقرهم على صلاتهم استصحبوا تلك الحزانة، ولم يعطلوها.

فهذه فصول مختصرة في كيد الشيطان وتلاعبه بهذه الأمة يعرف بها المسلم الحنيف قدر نعمة اللّه تعالى ﷻ عليه، وما مَنَّ به عليه من نعمة العلم والإيمان، ويهتدي بها من أراد اللّه تعالى هدايته من طالبي الحق من هذه الأمة.

ومن اللّه التوفيق والإرشاد إلى سواء الطريق، والحمد لله رب العالمين، اللهم صل وسلم على جميع الأنبياء والمرسلين خصوصًا من بينهم محمدًا وآله بفضل الصلاة والتسليم.

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد كلما ذكره الذاكرون، وصل وسلم على سيدنا محمد كلما غفل عن ذكره الغافلون، وهدانا اللّه لهدايته، وحشرنا في زمرته تحت لوائه، وأوردنا حوضه الذي لا يظمأ من شرب منه، وأوفر نصيبنا من شفاعته، إنه جواد كريم»[1].

* * *

(١) «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٩٨- ٣٦٧).



تاريخ ضلال النصارى

«**ذكر تلاعبه - أي الشيطان - بالدهرية: وهؤلاء قوم عطلوا المصنوعات عن صانعها، وقالوا ما حكاه اللَّه عنهم:** ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]، وهؤلاء فرقتان:

فرقة قالت: إن الخالق سبحانه لما خلق الأفلاك متحركة أعظم حركة دارت عليه فأحرقته، ولم يقدر على ضبطها وإمساك حركاتها.

وفرقة قالت: إن الأشياء ليس لها أول البتة، وإنما تخرج من القوة إلى الفعل، فإذا خرج ما كان بالقوة إلى الفعل تكونت الأشياء مركباتها وبسائطها من ذاتها لا من شيء آخر.

وقالوا: إن العالم دائم لم يزل ولا يزال، لا يتغير ولا يضمحل، ولا يجوز أن يكون المبدع يفعل فعلاً يبطل ويضمحل إلا وهو يبطل ويضمحل مع فعله، وهذا العالم هو الممسك لهذه الأجزاء التي هي فيه.

وهؤلاء هم المعطلة حقًّا، وهم فحول المعطلة، وقد سرى هذا التعطيل إلى سائر فرق المعطلة، على اختلاف آرائهم وتباينهم في التعطيل، كما سرى داء الشرك تأصيلاً وتفصيلاً في سائر فرق المشركين على اختلاف مذاهبهم فيه، وكما سرى جحد النبوات تأصيلاً وتفصيلاً في سائر من جحد النبوة، أو صفة من صفاتها، أو أقر بها جملة وجحد مقصودها وزبدتها، أو بعضه.

فهذه الفرق الثلاثة سرى داؤها وبلاؤها في الناس، ولم ينجُ منه إلا أتباع الرسل، العارفون بحقيقة ما جاء به، المتمسكون به دون ما سواه ظاهرًا وباطنًا.

فداء التعطيل، وداء الإشراك، وداء مخالفة الرسول، وجحد ما جاء به، أو شيء منه، هو أصل بلاء العالم، ومنبع كل شر، وأساس كل باطل، فليست فرقة من فرق أهل الإلحاد والباطل والبدع، إلا وقولها مشتق من هذه الأصول الثلاثة، أو من بعضها، فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة، وإلا فإني لا أظنك ناجيًا، فَسَرتْ هذه البلايا الثلاثة في كثير من طوائف الفلاسفة، لا في جميعهم، فإن الفلسفة من حيث هي لا تعطي ذلك، فإن معناها محبة الحكمة، والفيلسوف أصله (فيلا سوفا)؛ أي: محبة الحكمة.

ففيلا: هي المحبة. **وسوفا**: هي الحكمة. والحكمة نوعان: قولية، وفعلية. **فالقولية**: قول الحق. **والفعلية**: فعل الصواب. وكل طائفة من الطوائف لهم حكمة يتقيدون بها.

وأصح الطوائف حكمة من كانت حكمتهم أقرب إلى حكمة الرسل التي جاءوا بها عن اللَّه تعالى، قال تعالى عن نبيه داود ﵇: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠]، وقال عن المسيح ﵇: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٤٨﴾ [آل عمران: ٤٨]، وقال عن يحيى ﵇: ﴿يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ۝١٢﴾ [مريم: ١٢]، والحكم هو الحكمة، وقال لرسوله محمد ﷺ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣]، وقال: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ﴾ [البقرة: ٢٦٩]، وقال لأهل بيت رسوله: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ﴾ [الأحزاب: ٣٤].

فالحكمة التي جاءت بها الرسل هي الحكمة الحق المتضمنة للعلم النافع، والعمل الصالح للهدى ودين الحق لإصابة الحق اعتقادًا وقولاً

وعملًا، وهذه الحكمة فرقها اللَّه سبحانه بين أنبيائه ورسله، وجمعها لمحمد، كما جمع له من المحاسن ما فرقه في الأنبياء قبله، وجمع في كتابه من العلوم والأعمال ما فرقه في الكتب قبله، فلو جمعت كل حكمة صحيحة في العالم من كل طائفة لكانت في الحكمة التي أوتيها صلوات اللَّه وسلامه عليه جزءًا يسيرًا جدًّا لا يدرك البشر نسبته.

والمقصود: أن الفلاسفة اسم جنس لمن يحب الحكمة ويؤثرها.

وقد صار هذا الاسم في عرف كثير من الناس مختصًّا بمن خرج عن ديانات الأنبياء، ولم يذهب إلا إلى ما يقتضيه العقل، في زعمه.

وأخص من ذلك أنه في عرف المتأخرين: اسم لأتباع أرسطو، وهم المشاءون خاصة، وهم الذين هذب ابن سينا طريقتهم وبسطها وقررها، وهي التي يعرفها، بل لا يعرف سواها المتأخرون من المتكلمين.

وهؤلاء فرقة شاذة من فرق الفلاسفة، ومقالتهم واحدة من مقالات القوم، حتى قيل: إنه ليس فيهم من يقول بقدم الأفلاك غير أرسطو وشيعته. فهو أول من عرف أنه قال بقدم هذا العالم، والأساطين قبله كانوا يقولون بحدوثه، وإثبات الصانع، ومباينته للعالم، وأنه فوق العالم، وفوق السموات بذاته، كما حكاه عنهم أعلم الناس في زمانه بمقالاتهم أبو الوليد بن رشد في كتابه «**مناهج الأدلة**»، فقال فيه: «القول في الجهة: وأما هذه الصفة فلم يزل أهل الشريعة من أول الأمر يثبتونها لله سبحانه حتى نفتها المعتزلة، ثم تبعهم على نفيها متأخرو الأشعرية كأبي المعالي، ومن اقتدى بقوله». إلى أن قال: «والشرائع كلها مبنية على أن اللَّه في السماء، وأن منه تنزل الملائكة بالوحي إلى النبيين، وأن من السموات نزلت الكتب وإليها كان الإسراء بالنبي ﷺ

حتى قرب من سدرة المنتهى، وجميع الحكماء اتفقوا على أن اللَّه والملائكة في السماء، كما اتفقت جميع الشرائع على ذلك».

ثم ذكر تقرير ذلك بالمعقول، وبين بطلان الشبهة التي لأجلها نفتها الجهمية ومن وافقهم إلى أن قال: «**فقد ظهر لك من هذا أن إثبات الجهة واجب بالشرع والعقل، وأنه الذي جاء به الشرع وانبنى عليه، وأن إبطال هذه القاعدة إبطال للشرائع**».

فقد حكى لك هذا المُطَّلع على مقالات القوم، الذي هو أعرف بالفلسفة من ابن سينا وأضرابه، إجماعَ الحكماء على أن اللَّه سبحانه في السماء فوق العالم.

والمتطفلون في حكايات مقالات الناس لا يحكون ذلك؛ إما جهلًا وإما عمدًا، وأكثر مَن رأيناه يحكي مذاهبهم ومقالات الناس متطفل، وكذلك الأساطين منهم متفقون على إثبات الصفات والأفعال، وحدوث العالم، وقيام الأفعال الاختيارية بذاته سبحانه كما ذكره فيلسوف الإسلام في وقته أبو البركات البغدادي، وقرره غاية التقرير، وقال: «**لا يستقيم كون الرب سبحانه رب العالمين إلا بذلك، وأن نفي هذه المسألة ينفي ربوبيته**». قال: «**والإجلال من هذا الإجلال والتنزيه من هذا التنزيه أولى**».

وكذلك كان أساطينهم ومتقدموهم العارفون فيهم معظمين للرسل والشرائع، موجبين لاتباعهم، خاضعين لأقوالهم، معترفين بأن ما جاءوا به طور آخر وراء طور العقل، وأن عقول الرسل وحكمتهم فوق عقول العالمين، وكانوا لا يتكلمون في الإلهيات، ويسلمون باب الكلام فيها إلى الرسل، ويقولون: علومنا إنما هي الرياضيات والطبيعيات وتوابعها. وكانوا

يقرون بحدوث العالم، وقد حكى أرباب المقالات أن أول من عُرف عنه القول بقدم هذا العالم أرسطو، وكان مشركًا يعبد الأصنام، وله في الإلهيات كلام كله خطأ، من أوله إلى آخره، وقد تعقبه بالرد عليه طوائف المسلمين، حتى الجهمية والمعتزلة، والقدرية والرافضة، وفلاسفة الإسلام، أنكروه عليه، وجاء فيه بما يسخر منه العقلاء، أن يكون اللَّه سبحانه يعلم شيئًا من الموجودات، وقرر ذلك بأنه لو علم شيئًا لكمل بمعلوماته، ولم يكن كاملًا في نفسه، وبأنه كان يلحقه التعب والكلال من تصور المعلومات، فهذا غاية عقل هذا المعلم والأستاذ، وقد حكى ذلك أبو البركات، وبالغ في إبطال هذه الحجج ذوردها.

فحقيقة ما كان عليه هذا المعلم لأتباعه: الكفر باللَّه تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ودرج على أثره أتباعه من الملاحدة، ممن يتستر باتباع الرسل، وهو منحل من كل ما جاءوا به، وأتباعه يعظمونه فوق ما يعظم به الأنبياء، ويرون عرض ما جاءت به الأنبياء على كلامه، فما وافقه منها قبلوه، وما خالفه لم يعبئوا به شيئًا! ويسمونه المعلم الأول؛ لأنه أول من وضع لهم التعاليم المنطقية، كما أن الخليل بن أحمد أول من وضع عروض الشعر.

وزعم أرسطو وأتباعه أن المنطق ميزان المعاني، كما أن العروض ميزان الشعر، وقد بين نظار الإسلام فساد هذا الميزان وعوجه، وتعويجه للعقول، وتخبيطه للأذهان، وصنفوا في رده وتهافته كثيرًا، وآخر من صنف في ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية، ألف في رده وإبطاله كتابين: كبيرًا وصغيرًا، بَيَّنَ فيه تناقضه وتهافته وفساد كثير من أوضاعه، ورأيت فيه تصنيفًا لأبي سعيد السيرافي.

والمقصود: أن الملاحدة درجت على أثر هذا المعلم الأول حتى انتهت نوبتهم إلى معلمهم الثاني أبي نصر الفارابي، فوضع لهم التعاليم الصوتية، كما أن المعلم الأول وضع لهم التعاليم الحرفية، ثم وسع الفارابي الكلام في صناعة المنطق وبسطها، وشرح فلسفة أرسطو وهذبها، وبالغ في ذلك، وكان على طريقة سلفه من الكفر باللَّه تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، فكل فيلسوف لا يكون عند هؤلاء كذلك فليس بفيلسوف في الحقيقة، وإذا رأوه مؤمنًا باللَّه وملائكته وكتبه ورسله ولقائه، متقيدًا بشريعة الإسلام، نسبوه إلى الجهل والغباوة، فإن كان ممن لا يشكون في فضيلته ومعرفته، نسبوه إلى التلبيس والتنميس بناموس الدين؛ استمالة لقلوب العوام، فالزندقة والإلحاد عند هؤلاء جزء من مسمى الفضيلة، أو شرط.

ولعل الجاهل يقول: إنا تحاملنا عليهم في نسبة الكفر باللَّه وملائكته وكتبه ورسله إليهم. وليس هذا من جهله بمقالات القوم وجهله بحقائق الإسلام ببعيد.

فاعلم أن اللَّه سبحانه وتعالى عما يقولون، عندهم - كما قرره أفضل متأخريهم ولسانهم وقدوتهم الذي يقدمونه على الرسل أبو علي بن سينا - هو الوجود المطلق، بشرط الإطلاق، وليس له عندهم صفة ثبوتية تقوم به، ولا يفعل شيئًا باختياره البتة، ولا يعلم شيئًا من الموجودات أصلاً؛ لا يعلم عدد الأفلاك، ولا شيئًا من المغيبات، ولا له كلام يقوم به، ولا صفة.

ومعلوم أن هذا إنما هو خيال مقدر في الذهن لا حقيقة له، وإنما غايته أن يفرضه الذهن ويقدره كما يفرض الأشياء المقدرة، وليس هذا هو الرب الذي دعت إليه الرسل وعرفته الأمم، بل بين هذا الرب الذي دعت إليه الملاحدة

وجردته عن الماهية وعن كل صفة ثبوتية وكل فعل اختياري، وأنه لا داخل العالم ولا خارجه، ولا متصل به، ولا مباين له، ولا فوقه، ولا تحته، ولا أمامه، ولا خلفه، ولا عن يمينه، ولا عن شماله - وبين رب العالمين وإله المرسلين من الفرق ما بين الوجود والعدم، والنفي والإثبات، فأي موجود فرض كان أكمل من هذا الإله الذي دعت إليه الملاحدة، ونحتته أفكارهم، بل منحوت الأيدي من الأصنام له وجود، وهذا الرب ليس له وجود، ويستحيل وجوده إلا في الذهن.

وقول هؤلاء الملاحدة أصلح من قول معلمهم الأول أرسطو، فإن هؤلاء أثبتوا وجودًا واجبًا، ووجودًا ممكنًا، هو معلول له وصادر عنه صدور المعلول عن العلة، وأما أرسطو فلم يثبته إلا من جهة كونه مبدأ عقليًّا للكثرة، وعلة غائية لحركة الفلك فقط، وصرح بأنه لا يعقل شيئًا، ولا يفعل باختياره، وأما هذا الذي يوجد في كتب المتأخرين من حكاية مذهبه فإنما هو من وضع ابن سينا، فإنه قرب مذهب سلفه الملاحدة من دين الإسلام بجهده، وغاية ما أمكنه أن قربه من أقوال الجهمية الغالين في التجهم، فهم في غلوهم في تعطيلهم ونفيهم أَسَدّ مذهبًا وأصح قولاً من هؤلاء، فهذا ما عند هؤلاء من خبر الإيمان بالله ﷻ.

وأما الإيمان بالملائكة: فهم لا يعرفون الملائكة ولا يؤمنون بهم، وإنما الملائكة عندهم ما يتصوره النبي بزعمهم في نفسه من أشكال نورانية، هي العقول عندهم، وهي مجردات ليست داخل العالم ولا خارجه، ولا فوق السموات ولا تحتها، ولا هي أشخاص تتحرك، ولا تصعد ولا تنزل، ولا تدبر شيئًا، ولا تتكلم، ولا تكتب أعمال العبد، ولا لها إحساس، ولا حركة

البتة، ولا تنتقل من مكان إلى مكان، ولا تُصَفُّ عند ربها، ولا تصلي، ولا لها تصرف في أمر العالم البتة، فلا تقبض نفس العبد، ولا تكتب رزقه وأجله وعمله، ولا عن اليمين ولا عن الشمال قعيد، كل هذا لا حقيقة له عندهم البتة، وربما تقرب بعضهم إلى الإسلام فقال: الملائكة: هي القوى الخيرة الفاضلة التي في العبد، والشياطين: هي القوى الشريرة الرديئة. هذا إذا تقربوا إلى الإسلام وإلى الرسل.

وأما الكتب فليس لله عندهم كلام أنزله إلى الأرض بواسطة الملك، فإنه ما قال شيئًا ولا يقول، ولا يجوز عليه الكلام، ومن تقرب منهم إلى المسلمين يقول: الكتب المنزلة فيض فاض من العقل الفعال على النفس المستعدة الفاضلة الزكية، فتصورت تلك المعاني، وتشكلت في نفسه بحيث توهمها أصواتًا تخاطبه، وربما قوي الوهم حتى يراها أشكالاً نورانية تخاطبه، وربما قوي ذلك حتى يخيلها لبعض الحاضرين فيرونها، ويسمعون خطابها، ولا حقيقة لشيء من ذلك في الخارج. وأما الرسل والأنبياء فللنبوة عندهم ثلاث خصائص، من استكملها فهو نبي:

أحدها: قوة الحدس؛ بحيث يدرك الحد الأوسط بسرعة.

الثانية: قوة التخيل والتخييل؛ بحيث يتخيل في نفسه أشكالاً نورانية تخاطبه، ويسمع الخطاب منها، ويخيلها إلى غيره.

الثالثة: قوة التأثير بالتصرف في هيولي العالم، وهذا يكون عندهم بتجرد النفس عن العلائق، واتصالها بالمفارقات، من العقول والنفوس المجردة، وهذه الخصائص تحصل بالاكتساب، ولهذا طلب النبوة مَن تصوف، على مذهب هؤلاء، كابن سبعين وابن هود، وأضرابهما، والنبوة عند هؤلاء صنعة

من الصنائع، بل من أشرف الصنائع، كالسياسة، بل هي سياسة العامة، وكثير منهم لا يرضى بها، ويقول: الفلسفةُ نبوةُ الخاصة، والنبوةُ فلسفةُ العامة.

وأما الإيمان باليوم الآخر: فهم لا يقرون بانفطار السموات، وانتثار الكواكب، وقيامة الأبدان، ولا يقرون بأن اللَّه خلق السموات والأرض في ستة أيام، وأوجد هذا العالم بعد عدمه، فلا مبدأ عندهم ولا معاد، ولا صانع ولا نبوة، ولا كتب نزلت من السماء تكلم اللَّه بها، ولا ملائكة تنزلت بالوحي من اللَّه تعالى، فدين اليهود والنصارى بعد النسخ والتبديل خير وأهون من دين هؤلاء.

وحسبك جهلاً باللَّه تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله من يقول: إنه سبحانه لو علم الموجودات لَحِقَه الكلل والتعب، واستكمل بغيره!

وحسبك خذلانًا وضلالاً وعمًى السير خلف هؤلاء، وإحسان الظن بهم، وأنهم أولو العقول!

وحسبك عجبًا من جهلهم وضلالهم ما قالوه في سلسلة الموجودات، وصدور العالم عن العقول والنفوس إلى أن أنهوا صدور ذلك إلى واحد من كل جهة، لا علم له بما صدر عنه، ولا قدرة له عليه ولا إرادة، وأنه لم يصدر عنه إلا واحد، فذلك الصادر إن كان فيه كثرة بوجه ما فقد بطل ما أصلوه، وإن لم يكن فيه كثرة البتة لزم أن لا يصدر عنه إلا واحد مثله، وتكثر الموجودات وتعددها يُكذِّب هذا الرأي الذي هو ضحكة للعقلاء، وسخرية لأولي الألباب، مع أن هذا كله من تخليط ابن سينا، وإرادته تقريب هذا المذهب من الشرائع، وهيهات، وإلا فالمعلم الأول لم يثبت صانعًا للعالم

البتة.

فالرجل معطل مشرك، جاحد للنبوات والمعاد، لا مبدأ عنده ولا معاد، ولا رسول ولا كتاب، والرازي وفروخه لا يعرفون من مذاهب الفلاسفة غير طريقه، ومذاهبهم وآراؤهم كثيرة جدًّا، قد حكاها أصحاب المقالات؛ كالأشعري في مقالاته الكبيرة، وأبي عيسى الوراق، والحسن بن موسى النوبختين، وأبو الوليد بن رشد يحكي مذهب أرسطو غير ما حكاه ابن سينا، ويغلطه في كثير من المواضع، وكذلك أبو البركات البغدادي يحكي نفس كلامه على غير ما يحكيه ابن سينا.

والفلاسفة لا تختص بأمة من الأمم، بل هم موجودون في سائر الأمم، وإن كان المعروف عند الناس الذين اعتنوا بحكاية مقالاتهم هم فلاسفة اليونان، فهم طائفة من طوائف الفلاسفة، وهؤلاء أمة من الأمم لهم مملكة وملوك، وعلماؤهم فلاسفتهم، ومن ملوكهم: الإسكندر المقدوني، وهو ابن فيلبس، وليس هو بالإسكندر ذي القرنين، الذي قص اللَّه تعالى نبأه في القرآن، بل بينهما قرون كثيرة، وبينهما في الدين أعظم تباين؛ فذو القرنين كان رجلًا صالحًا موحدًا لله تعالى، يؤمن باللَّه تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وكان يغزو عباد الأصنام، وبلغ مشارق الأرض ومغاربها، وبنى السد بين الناس وبين يأجوج ومأجوج، وأما هذا المقدوني فكان مشركًا يعبد الأصنام هو وأهل مملكته، وكان بينه وبين المسيح نحو ألف سنة وستمائة سنة، والنصارى تؤرخ له، وكان أرسطاطاليس وزيره، وكان مشركًا يعبد الأصنام، وهو الذي غزا دارا بن دار ملك الفرس في عقر داره، فثلَّ عرشه، ومزق ملكه، وفرق جمعه، ثم دخل إلى الصين والهند وبلاد الترك،

فقتل وسبى، وكان لليونانيين في دولته عز وسطوة بسبب وزيره أرسطو، فإنه كان مشيره ووزيره ومدبر مملكته، وكان بعده لليونان عدة ملوك يعرفون بالبطالسة، واحدهم بطليموس، كما أن كسرى: ملك الفرس، وقيصر: ملك الروم، ثم غلبهم الروم واستولوا على ممالكهم، فصاروا رعية لهم، وانقرض ملكهم، فصارت المملكة للروم، وصارت المملكة واحدة، وهم على شركهم من عبادة الأصنام، وهو دينهم الظاهر، ودين آبائهم، فنشأ فيهم سقراط أحد تلامذة فيثاغورس، وكان من عبادهم ومتألهيهم وجاهرهم بمخالفتهم في عبادة الأصنام، وقابل رؤساءهم بالأدلة والحجج على بطلان عبادتها، فثار عليه العامة، واضطروا الملك إلى قتله، فأودعه السجن ليكفهم عنه، ثم لم يرض المشركون إلا بقتله فسقاه السم خوفًا من شرهم، بعد مناظرات طويلة جرت له معهم، وكان مذهبه في الصفات قريبًا من مذهب أهل الإثبات، فقال: «**إنه إله كل شيء وخالقه ومقدره، وهو عزيز؛ أي: منيع ممتنع أن يضام، وحكيم؛ أي: محكم أفعاله على النظام**».

وقال: «إن علمه وقدرته ووجوده وحكمته بلا نهاية، لا يبلغ العقل أن يضعها».

وقال: «إن تناهي المخلوقات بحسب احتمال القوابل، لا بحسب الحكمة والقدرة، فلما كانت المادة لا تحتمل صورًا بلا نهاية تناهت الصور، لا من جهة بخل في الواهب، بل لقصور في المادة».

قال: «وعن هذا اقتضت الحكمة الإلهية أنها وإن تناهت ذاتًا وصورة وحيزًا ومكانًا، إلا أنها لا تتناهى زمانًا في آخرها، لا من نحو أولها، فاقتضت الحكمة استبقاء الأشخاص، باستبقاء الأنواع، وذلك بتجدد أمثالها

ليحفظ الأشخاص ببقاء الأنواع، ويستبقي الأنواع بتجدد الأشخاص، فلا تبلغ القدرة إلى حد النهاية، ولا الحكمة تقف على غاية».

ومِن مذهبه: أن أخص ما يوصف به الرب سبحانه هو كونه: «**حيًّا قيومًا**»؛ لأن العلم والقدرة والجود والحكمة تندرج تحت كونه حيًّا قيومًا، فهما صفتان جامعتان للكل، وكان يقول: «هو حي ناطق من جوهره؛ أي: من ذاته وحياته ونطقنا وحياتنا لا من جوهرنا، ولهذا يتطرق إلى حياتنا ونطقنا العدم والدثور والفساد، ولا يتطرق ذلك إلى حياته ونطقه».

وكلامه في المعاد والصفات والمبدأ أقرب إلى كلام الأنبياء من كلام غيره، وبالجملة فهو أقرب القوم إلى تصديق الرسل، ولهذا قتله قومه.

وكان يقول: «إذا أقبلت الحكمة خدمت الشهوات العقول، وإذا أدبرت خدمت العقول الشهوات».

وقال: «لا تكرهوا أولادكم على آثاركم، فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم».

وقال: «ينبغي أن يغتم بالحياة ويفرح بالموت؛ لأن الإنسان يحيا ليموت، ثم يموت ليحيا».

وقال: «قلوب المغرمين بالمعرفة بالحقائق منابر الملائكة، وقلوب المؤثرين للشهوات مقاعد للشياطين».

وقال: «للحياة حدان: أحدهما: الأمل، والآخر: الأجل، فبالأول بقاؤها، وبالآخر فناؤها».

وكذلك أفلاطون كان معروفًا بالتوحيد، وإنكار عبادة الأصنام، وإثبات حدوث العالم، وكان تلميذ سقراط، ولما هلك سقراط قام مقامه، وجلس

على كرسيه.

وكان يقول: «إن للعالم صانعًا محدثًا مبدعًا أزليًا، واجبًا بذاته، عالمًا بجميع المعلومات».

قال: «وليس في الوجود رسم ولا طلل إلا ومثاله عند الباري تعالى». يشير إلى وجود صور المعلومات في علمه، فهو مثبت للصفات، وحدوث العالم، ومنكر لعبادة الأصنام، ولكن لم يواجه قومه بالرد عليهم، وعيب آلهتهم، فسكتوا عنه، وكانوا يعرفون له فضله وعلمه، وصرح أفلاطون بحدوث العالم كما كان عليه الأساطين، وحكى ذلك عنه تلميذه أرسطو، وخالفه فيه، فزعم أنه قديم، وتبعه على ذلك ملاحدة الفلاسفة من المنتسبين إلى الملل وغيرهم حتى انتهت النوبة إلى أبي علي بن سينا فرام بجهده تقريب هذا الرأي من قول أهل الملل، وهيهات اتفاق النقيضين واجتماع الضدين.

فرسل اللَّه تعالى وكتبه وأتباع الرسل في طرف، وهؤلاء القوم في طرف.

وكان ابن سينا كما أخبر عن نفسه قال: **«أنا وأبي من أهل دعوة الحاكم»**. فكان من القرامطة الباطنية الذين لا يؤمنون بمبدأ ولا معاد، ولا رب خالق، ولا رسول مبعوث جاء من عند اللَّه تعالى.

وكان هؤلاء زنادقة يتسترون بالرفض، ويبطنون الإلحاد المحض، وينتسبون إلى أهل بيت الرسول، وهو وأهل بيته براء منهم نسبًا ودينًا، وكانوا يقتلون أهل العلم والإيمان، ويدَعون أهل الإلحاد والشرك والكفران، لا يحرمون حرامًا، ولا يحلون حلالاً، وفي زمنهم ولخواصهم وضعت رسائل إخوان الصفا.

ولما انتهت النوبة إلى نصير الشرك والكفر، الملحد وزير الملاحدة

النصير الطوسى، وزير هولاكو، شفا نفسه من أتباع الرسول وأهل دينه، فعرضهم على السيف، حتى شفا إخوانه من الملاحدة واشتفى هو، فقتل الخليفة والقضاة والفقهاء والمحدثين، واستبقى الفلاسفة والمنجمين والطبائعيين والسحرة، ونقل أوقاف المدارس والمساجد والربط إليهم، وجعلهم خاصته وأولياءه، ونصر في كتبه قِدم العالم، وبطلان المعاد، وإنكار صفات الرب جل جلاله، من علمه وقدرته وحياته وسمعه وبصره، وأنه لا داخل العالم ولا خارجه، وليس فوق العرش إله يعبد البتة.

واتخذ للملاحدة مدارس، ورام جعل إشارات إمام الملحدين ابن سينا مكان القرآن، فلم يقدر على ذلك، فقال: هي قرآن الخواص، وذاك قرآن العوام. ورام تغيير الصلاة، وجعلها صلاتين، فلم يتم له الأمر، وتعلم السحر في آخر الأمر، فكان ساحرًا يعبد الأصنام.

وصارع محمدُ الشهرستاني ابنَ سينا في كتاب سماه «**المصارعة**» أبطل فيه قوله بقدم العالم، وإنكار المعاد، ونفي علم الرب تعالى وقدرته، وخلقه العالم، فقام له نصير الإلحاد وقعد، ونقضه بكتاب سماه «**مصارعة المصارعة**»، ووقفنا على الكتابين، نصر فيه: «**أن اللَّه تعالى لم يخلق السماوات والأرض في ستة أيام، وأنه لا يعلم شيئًا، وأنه لا يفعل شيئًا بقدرته واختياره، ولا يبعث من في القبور**».

وبالجملة: فكان هذا الملحد هو وأتباعه من الملحدين الكافرين باللَّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

والفلسفة التي يقرؤها أتباع هؤلاء اليوم هي مأخوذة عنه، وعن إمامه ابن سينا، وبعضها عن أبي نصر الفارابي، وشيء يسير منها من كلام أرسطو،

وهو مع قلته وغثاثته وركاكة ألفاظه، كثير التطويل لا فائدة فيه.

وخيار ما عند هؤلاء فالذي عند مشركي العرب من كفار قريش وغيرهم أهون منه! فإنهم يدأبون حتى يثبتوا واجب الوجود، ومع إثباتهم له فهو عندهم وجود مطلق، لا صفة له ولا نعت، ولا فعل يقوم به، لم يخلق السماوات والأرض بعد عدمها، ولا له قدرة على فعل، ولا يعلم شيئًا، وعباد الأصنام كانوا يثبتون ربًا خالقًا مبدعًا، عالمًا قادرًا حيًا، ويشركون به في العبادة.

فنهاية أمر هؤلاء الوصول إلى شيء برز عليهم فيه عباد الأصنام، وهم فرق شتى لا يحصيهم إلا الله ﷻ .

وأحصى المعتنون بمقالات الناس منهم اثنتي عشرة فرقة، كل فرقة منها مختلفة اختلافًا كثيرًا عن الأخرى:

فمنهم: أصحاب الرواق، وأصحاب الظلة، والمشاءون، وهم شيعة أرسطو، وفلسفتهم هي الدائرة اليوم بين الناس، وهي التي يحكيها ابن سينا، والفارابي، وابن خطيب الري، وغيرهم.

ومنهم: الفيثاغورية والأفلاطونية، ولا تكاد تجد منهم اثنين متفقين على رأي واحد، بل قد تلاعب بهم الشيطان كتلاعب الصبيان بالكرة، ومقالاتهم أكثر من أن نذكرها على التفصيل.

وبالجملة: فملاحدتهم هم أهل التعطيل المحض، فإنهم عطلوا الشرائع، وعطلوا المصنوع عن الصانع، وعطلوا الصانع عن صفات كماله، وعطلوا العالم عن الحق الذي خلق له وبه، فعطلوه عن مبدئه ومعاده، وعن فاعله وغايته، ثم سرى هذا الداء منهم في الأمم وفي فرق المعطلة، فكان

منهم إمام المعطلين فرعون، فإنه أخرج التعطيل إلى العمل وصرح به، وأذن به بين قومه، ودعا إليه، وأنكر أن يكون لقومه إله غيره، وأنكر أن يكون اللَّه تعالى فوق سماواته على عرشه، وأن يكون كلم عبده موسى تكليمًا، وكذب موسى في ذلك، وطلب من وزيره هامان أن يبني له صرحًا ليطلع بزعمه إلى إله موسى عليه السلام، وكذبه في ذلك، فاقتدى به كل جهمي، فكذب أن يكون اللَّه مكلِّما مُكلَّما، أو أن يكون فوق سماواته على عرشه، بائنًا من خلقه، على العرش استوى، ودرج قومه وأصحابه على ذلك، حتى أهلكهم اللَّه تعالى بالغرق، وجعلهم عبرة لعباده المؤمنين، ونكالاً لأعدائه المعطلين، ثم استمر الأمر على عهد نبوة موسى كليم الرحمن على التوحيد، وإثبات الصفات، وتكليم اللَّه لعبده موسى تكليمًا، إلى أن توفي موسى عليه السلام، ودخل الداخل على بني إسرائيل، ورفع التعطيل رأسه بينهم، وأقبلوا على علوم المعطلة أعداء موسى عليه السلام، وقدموها على نصوص التوراة، فسلط اللَّه تعالى عليهم من أزال ملكهم، وشردهم من أوطانهم، وسبى ذراريهم، كما هي عادته سبحانه وسنته في عباده، إذا أعرضوا عن الوحي، وتعوضوا عنه بكلام الملاحدة، والمعطلة من الفلاسفة وغيرهم، كما سلط النصارى على بلاد المغرب لما ظهرت فيها الفلسفة والمنطق واشتغلوا بها، فاستولت النصارى على أكثر بلادهم، وأصاروهم رعية لهم، وكذلك لما ظهر ذلك ببلاد المشرق سلط عليهم عساكر التتار، فأبادوا أكثر البلاد الشرقية، واستولوا عليها، وكذلك في أواخر المائة الثالثة وأول الرابعة، لما اشتغل أهل العراق بالفلسفة وعلوم أهل الإلحاد، سلط عليهم القرامطة الباطنية، فكسروا عسكر الخليفة عدة مرات، واستولوا على الحاج، واستعرضوهم

قتلاً وأسرًا، واشتدت شوكتهم، واتهم بموافقتهم في الباطن كثير من الأعيان من الوزراء والكتاب والأدباء وغيرهم، واستولى أهل دعوتهم على بلاد المغرب، واستقرت دار مملكتهم بمصر، وبنيت في أيامهم القاهرة، واستولوا على الشام والحجاز واليمن والمغرب، وخطب لهم على منبر بغداد.

والمقصود: أن هذا الداء لما دخل في بني إسرائيل؛ كان سبب دمارهم، وزوال مملكتهم، ثم بعث اللَّه سبحانه عبده ورسوله وكلمته المسيح ابن مريم، فجدد لهم الدين، وبين لهم معالمه، ودعاهم إلى عبادة اللَّه وحده، والتبرى من تلك الأحداث والآراء الباطلة، فعادوه وكذبوه، ورموه وأمه بالعظائم، وراموا قتله، فطهره اللَّه تعالى منهم، ورفعه إليه، فلم يصلوا إليه بسوء، وأقام اللَّه تعالى للمسيح أنصارًا، دعوا إلى دينه وشريعته، حتى ظهر دينه على من خالفه، ودخل فيه الملوك، وانتشرت دعوته، واستقام الأمر على السداد بعده نحو ثلاثمائة سنة.

ثم أخذ دين المسيح في التبديل والتغيير، حتى تناسخ واضمحل، ولم يبق بأيدي النصارى منه شيء، بل ركَّبوا دينًا بين دين المسيح ودين الفلاسفة عباد الأصنام، وراموا بذلك أن يتلطفوا للأمم حتى يدخلوهم في النصرانية، فنقلوهم من عبادة الأصنام المجسدة إلى عبادة الصور التي لا ظل لها، ونقلوهم من السجود للشمس إلى السجود إلى جهة المشرق، ونقلوهم من القول باتحاد العاقل والمعقول والعقل إلى القول باتحاد الأب والابن وروح القدس.

هذا، ومعهم بقايا من دين المسيح، كالختان، والاغتسال من الجنابة،

وتعظيم السبت، وتحريم الخنزير، وتحريم ما حرمته التوراة، إلا ما أحل لهم بنصها، ثم تناسخت الشريعة إلى أن استحلوا الخنزير، وأحلوا السبت، وعوضوا منه يوم الأحد، وتركوا الختان، والاغتسال من الجنابة، وكان المسيح يصلي إلى بيت المقدس فصلوا هم إلى المشرق، ولم يعظم المسيح عليه السلام صليبًا قط، فعظموا هم الصليب وعبدوه، ولم يصم المسيح عليه السلام صومهم هذا أبدًا ولا شرعه، ولا أمر به البتة، بل هم وضعوه على هذا العدد، ونقلوه إلى زمن الربيع، فجعلوا ما زادوا فيه من العدد عوضًا عن نقله من الشهور الهلالية إلى الشهور الرومية، وتعبدوا بالنجاسات، وكان المسيح عليه السلام في غاية الطهارة والطيب والنظافة، وأبعد الخلق عن النجاسة، فقصدوا بذلك تغيير دين اليهود ومراغمتهم، فغيروا دين المسيح، وتقربوا إلى الفلاسفة وعباد الأصنام؛ بأن وافقوهم في بعض الأمر ليرضوهم به، وليستنصروا بذلك على اليهود.

* * *

مؤتمرات النصارى

ولما أخذ دين المسيح عليه السلام في التغيير والفساد اجتمعت النصارى عدة مجامع، تزيد على ثمانين مجمعًا، ثم يتفرقون على الاختلاف والتلاعن، يلعن بعضهم بعضًا، حتى قال فيهم بعض العقلاء: «**لو اجتمع عشرة من النصارى يتكلمون في حقيقة ما هم عليه؛ لتفرقوا عن أحد عشر مذهبًا**». حتى جمعهم قسطنطين الملك آخر ذلك من الجزائر والبلاد وسائر الأقطار، فجمع كل بُتْرك وأسقف وعالم فكانوا ثلاثمائة وثمانية عشر، فقال: «أنتم اليوم

علماء النصرانية، وأكابر النصارى، فاتفِقوا على أمر تجتمع عليه كلمة النصرانية، ومن خالفها لعنتموه وحرمتموه، فقاموا وقعدوا وفكروا وقدروا، واتفقوا على وضع الأمانة التي بأيديهم اليوم، وكان ذلك بمدينة نيقية سنة خمس عشرة من ملك قسطنطين».

وكان أحد أسباب ذلك أن بطريق الإسكندرية منع أريوس من دخول الكنيسة ولعنه، فخرج أريوس إلى قسطنطين الملك مستعديًا عليه، ومعه أسقفان، فشكوه إليه، وطلبوا مناظرته بين يدي الملك، فاستحضره الملك، وقال لأريوس: «**اشرح مقالتك**». فقال أريوس: «أقول: إن الأب كان إذ لم يكن الابن، ثم أحدث الابن فكان كلمة له، إلا أنه محدث مخلوق، ثم فوض الأمر إلى ذلك الابن المسمى كلمة، فكان هو خالق السموات والأرض وما بينهما، كما قال في إنجيله، إذ يقول: وهب لي سلطانًا على السماء والأرض. فكان هو الخالق لهما بما أعطي من ذلك، ثم إن تلك الكلمة بعدُ تجسدت من مريم العذراء، ومن روح القدس، فصار ذلك مسيحًا واحدًا، فالمسيح الآن معنيان: كلمة وجسد، إلا أنهما جميعًا مخلوقان».

فقال بطريق الإسكندرية: «**أخبرنا أيما أوجب علينا عندك: عبادة من خلقنا، أو عبادة من لم يخلقنا؟**». فقال أريوس: «**بل عبادة من خلقنا**». فقال: «**فإن كان الابن خالقنا - كما وصفت - وكان الابن مخلوقًا، فعبادة الابن الذي خلقنا، وهو مخلوق، أوجب من عبادة الأب الذي ليس بمخلوق، بل تصير عبادة الأب الخالق كفرًا وعبادة الابن المخلوق إيمانًا، وذلك من أقبح الأقوال!**». فاستحسن الملك والحاضرون مقالته، وأمرهم الملك أن يلعنوا أريوس، وكل من يقول مقالته.

فلما انتصر البطريق قال للملك: «استحضر البطارقة والأساقفة حتى يكون لنا مجمع ونصنع قصة نشرح فيها الدين ونوضحه للناس». فحشرهم قسطنطين من سائر الآفاق، فاجتمع عنده بعد سنة وشهرين ألفان وثمانية وأربعون أسقفًا، وكانوا مختلفي الآراء، متباينين في أديانهم، فلما اجتمعوا كثر اللغط بينهم، وارتفعت الأصوات، وعظم الاختلاف، فتعجب الملك من شدة اختلافهم، فأجرى عليهم الأنزال، وأمرهم أن يتناظروا، حتى يعلم الدين الصحيح مع من منهم، فطالت المناظرة بينهم فاتفق منهم ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفًا على رأي واحد، فناظروا بقية الأساقفة فظهروا عليهم، فعقد الملك لهؤلاء الثلاثمائة والثمانية عشر مجلسًا خاصًّا، وجلس في وسطه وأخذ خاتمه وسيفه وقضيبه فدفعها إليهم، وقال لهم: «**قد سلطتكم على المملكة، فاصنعوا ما بدا لكم مما فيه قوام دينكم وصلاح أمتكم**». فباركوا عليه، وقلدوه سيفه، وقالوا له: أظهر دين النصرانية، وذب عنه، ودفعوا إليه الأمانة التي اتفقوا على وضعها، فلا يكون عندهم نصراني من لم يقر بها، ولا يتم لهم قربان إلا بها، وهي هذه: «**نؤمن باللَّه الواحد الأب، مالك كل شيء، صانع ما يُرى وما لا يُرى، وبالرب الواحد يسوع المسيح، ابن اللَّه الواحد، بكر الخلائق كلها، الذي ولد من أبيه قبل العوالم كلها، وليس بمصنوع، إله حق من إله حق، من جوهر أبيه الذي بيده أتقنت العوالم، وخلق كل شيء، الذي من أجلنا معشر الناس ومن أجل خلاصنا نزل من السماء، وتجسد من روح القدس، وصار إنسانًا، وحمل به، ثم ولد من مريم البتول، وألم وشُجَّ، وقتل وصلب ودفن، وقام في اليوم الثالث، وصعد إلى السماء، وجلس عن يمين أبيه، وهو مستعد للمجيء تارة أخرى للقضاء بين**

الأموات والأحياء، ونؤمن بروح القدس الواحد، روح الحق، الذي يخرج من أبيه روح محبته، وبمعمودية واحدة لغفران الخطايا، وبجماعة واحدة قديسية جاثليقية، وبقيامة أبداننا، والحياة الدائمة إلى أبد الآبدين».

فهذا العقد الذي أجمع عليه الملكية والنسطورية واليعقوبية، وهذه الأمانة التي ألفها أولئك البتاركة والأساقفة والعلماء، وجعلوها شعار النصرانية.

وكان رؤساء هذا المجمع بُتْرك الإسكندرية، وبُتْرك أنطاكية، وبُتْرك بيت المقدس، فافترقوا عليها وعلى لعن ما خالفها، ومن خالفها، والتبري منه وتكفيره.

ثم ذهب أريوس يدعو إلى مقالته وينفر النصارى عن أولئك الثلاثمائة والثمانية عشر، فجمع جمعًا عظيمًا، وصاروا إلى بيت المقدس، وخالف بكثير من النصارى لأولئك المجمع، فلما اجتمعوا قال أريوس: «إن أولئك النفر تعدوا عليَّ وظلموني، ولم ينصفوني في الحجاج، وحرموني ظلمًا وعدوانًا». ووافقه كثير من الذين معه، وقالوا: صدق. فوثبوا عليه فضربوه حتى كاد أن يقتل لولا ابن أخت الملك خلصه، وافترقوا على هذه الحال.

ثم كان لهم مجمع ثالث بعد ثمان وخمسين سنة من المجمع الأول اجتمع الوزراء والقواد إلى الملك، وقالوا: «**إن مقالة الناس قد فسدت، وغلب عليهم مقالة أريوس، فاكتب إلى جميع البتاركة والأساقفة أن يجتمعوا ويوضحوا دين النصرانية**»، فكتب الملك إلى سائر بلاده، فاجتمع بقسطنطينية مائة وخمسون أسقفًا، وكان مقدموهم بُتْرك الإسكندرية، وبُتْرك أنطاكية، وبُتْرك بيت المقدس، فنظروا في مقالة أريوس، وكان من مقالته: «**أن روح القدس مخلوق مصنوع ليس بإله**». فقال بُتْرك الإسكندرية:

«ليس لروح القدس عندنا معنى غير روح اللَّه تعالى، وليس روح اللَّه تعالى شيئًا غير حياته، فإذا قلنا إن روح القدس مخلوق، فقد قلنا إن روح اللَّه مخلوق، وإذا قلنا إن روح اللَّه مخلوقة، فقد قلنا إن حياته مخلوقة، فقد جعلناه غير حي، ومن جعله غير حي فقد كفر، ومن كفر وجب عليه اللعن». فلعنوا بأجمعهم أريوس وأشياعه وأتباعه والبتاركة الذين قالوا بمقالته، وبينوا أن روح القدس خالق غير مخلوق، إله حق، وأن طبيعة الأب والابن جوهر واحد، وطبيعة واحدة، وزادوا في الأمانة التي وضعها الثلاثمائة والثمانية عشر أسقفًا: ونؤمن بروح القدس، الرب المحيى المميت، المنبثق من الأب الذي مع الابن، والأب وهو مسجود وممجد. وكان في الأمانة الأولى: وبروح القدس فقط.

وبينوا أن الأب وروح القدس ثلاثة أقانيم، وثلاث وجوه، وثلاثة خواص، وحدة في تثليث، وتثليث في وحدة، وزادوا ونقصوا في الشريعة.

وأطلق بُتْرك الإسكندرية للرهبان والأساقفة والبتاركة أكل اللحم، وكانوا على مذهب ماني لا يرون أكل ذوات الأرواح.

فانفض هذا المجمع وقد لعنوا فيه أكثر أساقفتهم وبتاركتهم، ومضوا على تلك الأمانة.

ثم كان لهم مجمع رابع بعد إحدى وخمسين سنة من هذا المجمع على نسطورس، وكان مذهبه: أن مريم ليست بوالدة الإله على الحقيقة، ولكن ثمة اثنان: الإله الذي هو موجود من الأب، والآخر إنسان الذي هو موجود من مريم، وأن هذا الإنسان الذي نقول إنه المسيح بالمحبة متوحد مع ابن الإله، وابن الإله ليس ابنًا على الحقيقة، ولكن على سبيل الموهبة والكرامة

واتفاق الاسمين.

فبلغ ذلك بتاركة سائر البلاد، فجرت بينهم مراسلات، واتفقوا على تخطئته، واجتمع منهم مائتا أسقف في مدينة أفسيس، وأرسلوا إلى نسطورس للمناظرة، فامتنع ثلاث مرات، فأوجبوا عليه الكفر، فلعنوه ونفوه وحرموه، وثبتوا أن مريم ولدت إلهًا، وأن المسيح إله حق وإنسان معروف بطبيعتين متوحد في الأقنوم، فلما لعنوا نسطورس، غضب له يوحنا بُتْرك أنطاكية، فجمع أساقفته الذين قدموا معه وناظرهم فقطعهم، فتقاتلوا ووقع الحرب والشر بينهم، وتفاقم أمرهم، فلم يزل الملك تذوس حتى أصلح بينهم، فكتب أولئك صحيفة: أن مريم القدسية ولدت إلهًا، وهو ربنا يسوع المسيح، الذي هو مع أبيه في الطبيعة ومع الناس في الناسوت، وأنفذوا لعن نسطورس.

فلما نفي نسطورس سار إلى أرض مصر، وأقام بإخميم سبع سنين، ودفن بها، ودرست مقالته إلى أن أحياها ابن صرما مطران نصيبين، وبثها في بلاد المشرق فأكثر نصارى العراق والمشرق نسطورية، وانفض ذلك المجمع أيضًا على لعن نسطورس ومن قال بقوله.

وكل مجامعهم كانت تجتمع على الضلال، وتفترق على اللعن، فلا ينفض المجمع إلا وهم ما بين لاعن وملعون.

ثم كان لهم مجمع خامس، وذلك أنه كان بالقسطنطينية طبيب راهب، يقال له: أوطيوس. يقول: «إن جسد المسيح ليس هو مع أجسادنا في الطبيعة، وأن المسيح قبل التجسد طبيعتان وبعد التجسد طبيعة واحدة». وهذه مقالة اليعقوبية، فرحل إليه أسقف دولته فناظره فقطعه، ودحض

حجته، ثم سار إلى قسطنطينية فأخبر بُتْركها بالمناظرة وبانقطاعه، فأرسل بُتْرك الإسكندرية إليه فاستحضره وجمع جمعًا عظيمًا، وسأله عن قوله، فقال: «إن قلنا إن المسيح طبيعتان فقد قلنا بقول نسطورس، ولكنا نقول: إن المسيح طبيعة واحدة وأقنوم واحد؛ لأنه من طبيعتين كانتا قبل التجسد، فلما تجسد زالت عنه الإثنينية، وصار طبيعة واحدة، وأقنومًا واحدًا». فقال له بُتْرك القسطنطينية: «**إن كان المسيح طبيعة واحدة، فالطبيعة القديمة هي الطبيعة المحدثة، وإن كان القديم هو المحدث فالذي لم يزل هو الذي لم يكن، ولو جاز أن يكون القديم هو المحدث لكان القائم هو القاعد، والحار هو البارد**». فأبى أن يرجع عن مقالته، فلعنوه، فاستعدى عليهم الملك، وزعم أنهم ظلموه، وسأله أن يكتب إلى جميع البتاركة للمناظرة.

فاستحضر الملك البتاركة والأساقفة من سائر البلاد إلى مدينة أفسيس، فثبت بطريق الإسكندرية مقالة أوطيوس، وقطع بتاركة القسطنطينية وأنطاكية وبيت المقدس وسائر البتاركة والأساقفة، وكتب إلى بُتْرك رومية وإلى جماعة البتاركة والأساقفة، فحرمهم ومنعهم من القربان إن لم يقبلوا مقالة أوطيوس، ففسدت الأمانة، وصارت المقالة مقالة أوطيوس وخاصة بمصر والإسكندرية، وهو مذهب اليعقوبية.

فافترق هذا المجمع الخامس وهم ما بين لاعن وملعون، وضالٌّ ومضل، وقائل يقول: الصواب مع اللاعنين. وقائل يقول: الحق مع الملاعنين.

ثم كان لهم بعد هذا مجمع سادس في دولة مرقيون، فإنه اجتمع إليه الأساقفة من سائر البلاد فأعلموه ما كان من ظلم ذلك المجمع، وقلة الإنصاف وأن مقالة أوطيوس قد غلبت على الناس، وأفسدت دين النصرانية،

فأمر الملك باستحضار سائر الأساقفة والبطارقة إلى حضرته، فاجتمع عنده ستمائة وثلاثون أسقفًا، فنظروا في مقالة أوطيوس وبُتْرك الإسكندرية التي قطعا بها جميع البتاركة، فأفسدوا مقالتهما ولعنوهما، وأثبتوا أن المسيح إله وإنسان، وهو مع اللَّه في اللاهوت، ومعنا في الناسوت، له طبيعتان تامتان، فهو تام باللاهوت، تام بالناسوت، وهو مسيح واحد، وثبتوا قول الثلاثمائة والثمانية عشر أسقفًا، وقبلوا قولهم بأن الابن مع اللَّه في المكان، وأنه إله حق من إله حق، ولعنوا أريوس، وقالوا: «**إن روح القدس إله**». وقالوا: «**إن الأب وروح القدس واحد بطبيعة واحدة، وأقانيم ثلاثة**». وثبتوا قول أهل المجمع الثالث، وقالوا: «**إن مريم العذراء ولدت إلهًا ربنا يسوع المسيح، الذي هو مع اللَّه في الطبيعة، ومعنا في الناسوت**». وقالوا: «**إن المسيح طبيعتان وأقنوم واحد**». ولعنوا نسطورس وبُتْرك الإسكندرية، فانفض هذا المجمع وهم ما بين لاعن وملعون.

ثم كان لهم بعد هذا مجمع سابع في أيام أنسطاس الملك، وذلك أن سورس القسطنطين جاء إلى الملك فقال: «إن أصحاب ذلك المجمع الستمائة والثلاثين قد أخطئوا، والصواب ما قاله أوطيوس وبُتْرك الإسكندرية، فلا تقبل ممن سواهما، واكتب إلى جميع بلادك: أن العنوا الستمائة والثلاثين. وأن يأخذوا الناس بطبيعة واحدة ومشيئة واحدة، وأقنوم واحد». فأجابه الملك إلى ذلك، فلما بلغ بُتْرك بيت المقدس جمع الرهبان فلعنوا أنسطاس الملك وسورس ومن يقول بمقالتهما، فبلغ ذلك الملك فغضب، وبعث فنفى البُتْرك إلى أيلة، وبعث يوحنا بُتْركًا على بيت المقدس؛ لأنه كان قد ضمن للملك أن يلعن الستمائة والثلاثين.

فلما قدم إلى بيت المقدس اجتمع الرهبان وقالوا: إياك أن تقبل عن سورس، ولكن اقبل عن الستمائة والثلاثين، ونحن معك. ففعل وخالف الملك، فلما بلغه، أرسل قائدًا وأمره أن يأخذ يوحنا بلعنة أولئك، فإن لم يفعل أنزله عن الكرسي ونفاه، فقدم القائد وطرح يوحنا في الحبس فصار إليه الرهبان في الحبس، وأشاروا عليه بأن يضمن للقائد أن يفعل ذلك، فإذا حضر فليقر بلعنة كل من لعنه الرهبان.

فاجتمع الرهبان وكانوا عشرة آلاف راهب، فلعنوا أوطسوس ونسطورس وسورس ومن لا يقبل من أولئك الستمائة والثلاثين.

ففزع رسول الملك من الرهبان، وبلغ ذلك الملك، فَهَمَّ بنفي يوحنا، فاجتمع الرهبان والأساقفة فكتبوا إلى الملك أنهم لا يقبلون مقالة سورس، ولو أريقت دماؤهم، وسألوه أن يكف أذاه عنهم.

وكتب بُتْرك رومية إلى الملك بقبح فعله وبلعنه، فانفض هذا المجمع على اللعنة أيضًا، وكان لسورس تلميذ يقال له: يعقوب البراذعي؛ لأنه كان يلبس من قطع براذع الدواب، يرقع بعضها ببعض، وإليه ينسب اليعاقبة، فأفسد أمانة القوم.

ثم هلك أنسطاس الملك، وولي بعده قسطنطين، فرد كل من نفاه أنسطاس إلى موضعه، وكتب إلى بيت المقدس بأمانته.

فاجتمع الرهبان وأظهروا كتابه، وفرحوا به، وأثبتوا قول الستمائة والثلاثين أسقفًا، وغلبت اليعقوبية على الإسكندرية، وقتلوا بُتْركًا لهم يقال له بولس، وكان ملكانيًّا، فولى الملك إسطفانوس فأرسل قائدًا ومعه عسكر عظيم إلى الإسكندرية، فدخل الكنيسة في ثياب البتركة، وتقدم وقدس،

فرموه بالحجارة، حتى كادوا يقتلونه، فانصرف وتوارى عنهم، ثم أظهر لهم بعد ثلاثة أيام أنه أتاه كتاب من الملك، وأمر الحرس أن يجمعوا الناس لسماعه، فلم يبق أحد بالإسكندرية حتى حضر لسماعه، وكان قد جعل بينه وبين جنده علامة إذا هو فعلها وضعوا السيف في الناس، فصعد المنبر، وقال: «**يا معشر أهل الإسكندرية، إن رجعتم إلى الحق وتركتم مقالة اليعاقبة، وإلا لم تأمنوا أن يوجه الملك إليكم من يسفك دماءكم**». فرموا بالحجارة حتى خاف على نفسه، فأظهر العلامة، فوضعوا السيوف على من بالكنيسة، فقتل خلق لا يحصيهم إلا اللّه تعالى، حتى خاض الجند في الدماء، وظهرت مقالة الملكانية بالإسكندرية.

ثم كان لهم بعد ذلك مجمع ثامن، وذلك أن أسقف منبج كان يقول بالتناسخ، وأنه ليس ثمة قيامة ولا بعث، وكان أسقف الرها وأسقف المصيصة وأسقف ثالث، يقولون: «**إن جسد المسيح خيال غير حقيقة**». فحشرهم الملك إلى قسطنطينية، فقال لهم بُتْركها: «إن كان جسده خيالاً فيجب أن يكون فعله خيالاً، وقوله خيالاً، وكل جسد نعاينه لأحد من الناس أو فعل أو قول، فهو كذلك».

وقال له: «**إن المسيح قد قام من الموت، وأعلمنا أنه كذلك يقوم الناس يوم الدين**».

واحتج بنصوص من الإنجيل كقوله: «**إن كل من في القبور إذا سمعوا قول اللّه سبحانه يحيون**». فأوجب عليهم اللعن، وأمر الملك أن يكون لهم مجمع يلعنون فيه، واستحضر بتاركة البلاد.

فاجتمع عنده مائة وأربعة وستون أسقفًا، فلعنوا أسقف منبج وأسقف

المصيصة، وثبتوا أن جسد المسيح حقيقة لا خيال، وأنه إله تام، وإنسان تام، معروف بطبيعتين ومشئيتين وفعلين، أقنوم واحد، وأن الدنيا زائلة، وأن القيامة كائنة، وأن المسيح يأتي بمجد عظيم، فيدين الأحياء والأموات، كما قال الثلاثمائة والثمانية عشر الأوائل، فتفرقوا على ذلك.

ثم كان لهم مجمع تاسع على عهد معاوية بن أبي سفيان ﵁ تلاعنوا فيه، وذلك أنه كان برومية راهب له تلميذان، فجاء إلى قسطا الوالي فوبخه على قبح مذهبه وشناعة كفره، فأمر به قسطا فقطعت يداه ورجلاه، ونزع لسانه، وفعل بأحد التلميذين كذلك وضرب الآخر بالسياط، ونفاه، فبلغ ذلك ملك قسطنطينية فأرسل إليه أن يوجه إليه من أفاضل الأساقفة، ليعلم وجه هذه الشبهة، ومن كان ابتدأ بها، ويعلم من يستحق اللعن، فبعث إليه مائة وأربعين أسقفًا وثلاثمائة شماس، فلما وصلوا إليه جمع الملك مائة وثمانية وخمسين أسقفًا، فصاروا مائتين وثمانية وتسعين وأسقطوا الشمامسة.

وكان رئيس هذا المجمع بُتْرك قسطنطينية وبُتْرك أنطاكية، فلعنوا من تقدم من القديسين والبتاركة واحدًا واحدًا، فلما لعنوهم جلسوا فلخصوا الأمانة، وزادوا فيها ونقصوا، فقالوا: «نؤمن بأن الواحد من الناسوت الابن الوحيد الذي هو الكلمة الأزلية الدائم المستوي مع الأب الإله في الجوهر، الذي هو ربنا يسوع المسيح بطبيعتين تامتين وفعلين ومشيئتين في أقنوم واحد، ووجه واحد، تامًّا بلاهوته تامًّا بناسوته، وشهدت أن الإله الابن في آخر الأيام اتخذ من العذراء السيدة مريم القدسية جسدًا إنسانًا بنفس ناطقة عقلية، وذلك برحمة اللَّه تعالى محب البشر، ولم يلحقه اختلاط ولا فساد، ولا فرقة ولا فصل، ولكن هو واحد، يعمل بما يشبه الإنسان أن يعمله في طبيعته، وما

يشبه الإله أن يعمله في طبيعته، الذي هو الابن الوحيد، والكلمة الأزلية المتجسدة التي صارت في الحقيقة لحمًا، كما يقول الإنجيل المقدس من غير أن ينتقل من مجده الأزلي، وليست بمتغيرة لكنها بفعلين ومشيئتين، وطبيعتين: إلهي وإنسي، الذي بهما يكمل قول الحق، وكل واحدة من الطبيعتين تعمل مع شركة صاحبتها مشيئتين غير متضادتين ولا متصارعتين، ولكن مع المشيئة الإنسية المشيئة الإلهية القادرة على كل شيء».

هذه أمانة هذا المجمع فوضعوها، ولعنوا من لعنوه، وبين المجمع الخامس الذي اجتمع فيه الستمائة والثلاثون وبين هذا المجمع مائة سنة.

ثم كان لهم مجمع عاشر، وذلك لما مات الملك، وولي ابنه بعده، فاجتمع أهل المجمع السادس، وزعموا أن اجتماعهم كان على الباطل فجمع الملك مائة وثلاثين أسقفًا فثبتوا قول أهل المجامع الخمسة، ولعنوا من لعنهم وخالفهم، وانصرفوا بين لاعن وملعون.

فهذه عشرة مجامع كبار من مجامعهم مشهورة، اشتملت على أكثر من أربعة عشر ألفًا من البتاركة والأساقفة والرهبان كلهم ما بين لاعن وملعون، فهذه حال المتقدمين، مع قرب زمانهم من أيام المسيح، ووجود أخباره فيهم، والدولة دولتهم، والكلمة كلمتهم، وعلماؤهم إذ ذاك أوفر ما كانوا، واهتمامهم بأمر دينهم واحتفالهم به كما ترى، وهم حيارى تائهون ضالون مضلون، لا يثبت لهم قدم، ولا يستقر لهم قول في إلههم، بل كل منهم قد اتخذ إلهه هواه، وصرح بالكفر والتبري ممن اتبع سواه، قد تفرقت بهم في نبيهم وإلههم الأقاويل، وهم كما قال اللَّه تعالى: ﴿قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]، فلو سألت أهل

البيت الواحد عن دينهم ومعتقدهم في ربهم ونبيهم؛ لأجابك الرجل بجواب، وامرأته بجواب، وابنه بجواب، والخادم بجواب، فما ظنك بمن في عصرنا هذا، وهم نخالة الماضين، وزبالة الغابرين، ونفاية المتحيرين، وقد طال عليهم الأمد، وبعُد عهدهم بالمسيح ودينه؟!!

وهؤلاء هم الذين أوجبوا لأعداء الرسل من الفلاسفة والملاحدة أن يتمسكوا بما هم عليه، فإنهم شرحوا لهم دينهم الذي جاء به المسيح على هذا الوجه، ولا ريب أن هذا دين لا يقبله عاقل، فتواصى أولئك بينهم أن يتمسكوا بما هم عليه، وساءت ظنونهم بالرسل والكتب، ورأوا أن ما هم عليه من الآراء أقرب إلى المعقول من هذا الدين، وقال لهم هؤلاء الحيارى الضُّلَّال: إن هذا هو الحق الذي جاء به المسيح. فتركب من هذين الظنين الفاسدين إساءة الظن بالرسل، وإحسان الظن بما هم عليه.

ولهذا قال بعض ملوك الهند، وقد ذكرت له الملل الثلاث، فقال: «أما النصارى، فإن كان محاربوهم من أهل الملل يحاربونهم بحكم شرعي، فإني أرى ذلك بحكم عقلي، وإن كنا لا نرى بحكم عقولنا قتالاً، ولكن أستثني هؤلاء القوم من بين جميع العوالم؛ لأنهم قصدوا مضادة العقل وناصبوه العداوة، وحلوا ببيت الاستحالات، وحادوا عن المسلك الذي انتهجه غيرهم من أهل الشرائع، فشذوا عن جميع مناهج العالم الصالحة، العقلية والشرعية، واعتقدوا كل مستحيل ممكنًا، وبنوا على ذلك شريعة لا تؤدي البتة إلى صلاح نوع من أنواع العالم، إلا أنها تُصَيِّرُ العاقلَ إذا تشرع بها أخرقَ، والرشيدَ سفيهًا، والمحسنَ مسيئًا؛ لأن من كان أصل عقيدته التي جرى نشوؤه عليها الإساءة إلى الخالق، والنيل منه، ووصفه بضد صفاته

الحسنى، فأخلِق به أن يستسهل الإساءة إلى المخلوق، مع ما بلغنا عنهم من الجهل، وضعف العقل، وقلة الحياء، وخساسة الهمة، فهذا وقد ظهر له من باطلهم وضلالهم غيض من فيض، وكانوا إذ ذاك أقرب عهدًا بالنبوة».

وقال أفلاطون رئيس سدنة الهياكل بمصر، وليس بأفلاطون تلميذ سقراط؛ إذ ذاك أقدم من هذا: «لما ظهر محمد بتهامة، ورأينا أمره يعلو على الأمم المجاورة له، رأينا أن نقصد اصطمر البابلي لنعلم ما عنده، ونأخذ برأيه، فلما اجتمعنا على الخروج من مصر رأينا أن نصير إلى قراطيس معلمنا وحكيمنا لنودعه، فلما دخلنا عليه، ورأى جمعنا، أيقن أن الهياكل قد خلت منا، فغُشي عليه حينًا غشية ظننا أنه فارق الحياة فيها، فبكينا، فأومأ إلينا أن كفوا عن البكاء، فتصبرنا جهدنا حتى هدأ وفتح عينيه، وقال: هذا ما كنت أنهاكم عنه، وأحذركم منه، إنكم قوم غيرتم فغير بكم، أطعتم جهالاً من ملوككم فخلطوا عليكم في الأدعية، فقصدتم البشر من التعظيم بما هو للخالق وحده، فكنتم في ذلك كمن أعطى القلم مدحة الكاتب، وإنما حركة القلم بالكاتب».

ومن المعلوم أن هذه الأمة ارتكبت محذورين عظيمين لا يرضى بهما ذو عقل ولا معرفة:

أحدهما: الغلو في المخلوق، حتى جعلوه شريك الخالق وجزءًا منه، وإلهًا آخر معه، وأنفوا أن يكون عبدًا له.

والثاني: تنقص الخالق وسبه ورميه بالعظائم؛ حيث زعموا أنه - سبحانه وتعالى عن قولهم علوًا كبيرًا - نزل من العرش عن كرسي عظمته، ودخل في فرج امرأة، وأقام هناك تسعة أشهر يتخبط بين البول والدم

والنجو، وقد علته أطباق المشيمة والرحم والبطن، ثم خرج من حيث دخل، رضيعًا صغيرًا يمص الثدي، ولُفَّ في القُمُط، وأودع السرير، يبكي ويجوع ويعطش، ويبول ويتغوط، ويُحمل على الأيدي والعواتق، ثم صار إلى أن لطمت اليهود خديه، وربطوا يديه، وبصقوا في وجهه، وصفعوا قفاه، وصلبوه جهرًا بين لصين، وألبسوه إكليلاً من الشوك، وسمروا يديه ورجليه، وجرعوه أعظم الآلام، هذا هو الإله الحق الذي بيده أتقنت العوالم، وهو المعبود المسجود له.

ولعمر اللَّه إن هذه مسبة لله سبحانه ما سبه بها أحد من البشر قبلهم ولا بعدهم، كما قال تعالى فيما يحكي عنه رسوله الذي نزهه ونزه أخاه المسيح عن هذا الباطل، الذي تكاد السماوات يتفطرن منه، وتنشق الأرض، وتخر الجبال هدًّا، فقال: «**شتمني ابن آدم، وما ينبغي له ذلك، وكذبني ابن آدم وما ينبغي له ذلك، أما شتمه إياي فقوله: اتخذ اللَّه ولدًا، وأنا الأحد الصمد الذي لم ألد ولم أولد، ولم يكن لي كفوًا أحد، وأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني. وليس أول الخلق بأهون عليَّ من إعادته**»[1].

وقال عمر بن الخطاب - رضي اللَّه تعالى عنه - في هذه الأمة: «**أهينوهم ولا تظلموهم، فلقد سبُّوا اللَّه ﷻ مسبة ما سبه إياها أحد من البشر**»[2].

---

(١) أخرجه البخار (٣١٩٣، ٤٩٧٤، ٤٩٧٥)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرج سعيد بن منصور في «سننه» (٢/ ٣١٦)، والطبراني في «مسند الشاميين» (٢/ ١٢٧)، عن معاذ بن جبل ﷺ بنحوه.

وذكره شيخ الإسلام في مواضع كثيرة من كتبه عن معاذ بن جبل. انظر على سبيل المثال «مجموع الفتاوى» (٢٧/ ٢٤٠).

ولعمر اللَّه إن عُبَّاد الأصنام مع أنهم أعداء اللَّه ﷻ على الحقيقة، وأعداء رسله عليهم السلام، وأشد الكفار كفرًا يأنفون أن يصفوا آلهتهم التي يعبدونها من دون اللَّه تعالى، وهي من الحجارة والحديد والخشب، بمثل ما وصفت به هذه الأمة رب العالمين، وإله السموات والأرضين.

وكان اللَّه تعالى في قلوبهم أجل وأعظم من أن يصفوه بذلك، أو بما يقاربه، وإنما شرك القوم أنهم عبدوا من دونه آلهة مخلوقة مربوبة محدثة، وزعموا أنها تقربهم إليه، لم يجعلوا شيئًا من آلهتهم كفوًا له ولا نظيرًا ولا ولدًا، ولم ينالوا من الرب تعالى ما نالت منه هذه الأمة، وعُذرهم في ذلك أقبح من قولهم، فإن أصل معتقدهم أن أرواح الأنبياء - عليهم السلام - كانت في الجحيم، في سجن إبليس، من عهد آدم إلى زمن المسيح، فكان إبراهيم وموسى ونوح وصالح وهود معذبين مسجونين في النار بسبب خطيئة آدم عليه السلام وأكله من الشجرة، وكان كلما مات واحد من بني آدم أخذه إبليس، وسجنه في النار بذنب أبيه، ثم إن اللَّه سبحانه وتعالى لما أراد رحمتهم وخلاصهم من العذاب تحيل على إبليس بحيلة، فنزل عن كرسي عظمته، والتحم ببطن مريم حتى ولد وكبر، وصار رجلًا، فمكن أعداءه اليهود من نفسه حتى صلبوه، وتوَّجوه بالشوك على رأسه، فخلص أنبياءه ورسله، وفداهم بنفسه ودمه، فهرق دمه في مرضاة جميع ولد آدم؛ إذ كان ذنبه باقيًا في أعناق جميعهم، فخلصهم منه؛ بأن مكن أعداءه من صلبه وتسميره وصفعه، إلا من أنكر صلبه أو شك فيه، أو قال بأن الإله يجل عن ذلك، فهو في سجن إبليس معذب حتى يقر بذلك، وأن إلهه صلب وصفع وسمر.

فنسبوا الإله الحق سبحانه إلى ما يأنف أسقط الناس وأقلهم أن يفعله

بمملوكه وعبده، وإلى ما يأنف عباد الأصنام أن ينسب إليه أوثانهم، وكذبوا الله ﷻ في كونه تاب على آدم ﷺ وغفر له خطيئته.

ونسبوه إلى أقبح الظلم؛ حيث زعموا أنه سجن أنبياءه ورسله وأولياءه في الجحيم بسبب خطيئة أبيهم.

ونسبوه إلى غاية السفه؛ حيث خلصهم من العذاب بتمكينه أعداءه من نفسه حتى قتلوه وصلبوه وأراقوا دمه.

ونسبوه إلى غاية العجز؛ حيث عجزوه أن يخلصهم بقدرته من غير هذه الحيلة.

ونسبوه إلى غاية النقص؛ حيث سلط أعداءه على نفسه وابنه ففعلوا به ما فعلوا.

وبالجملة: فلا نعلم أمة من الأمم سبَّت ربها ومعبودها وإلهها بما سبَّت به هذه الأمة كما قال عمر ؓ: «**إنهم سبُّوا الله مسبة ما سبه إياها أحد من البشر**».

وكان بعض أئمة الإسلام إذا رأى صليبيًّا أغمض عينيه عنه، وقال: «**لا أستطيع أن أملأ عيني ممن سب إلهه ومعبوده بأقبح السب**».

ولهذا قال عقلاء الملوك: «إن جهاد هؤلاء واجب شرعًا وعقلاً؛ فإنهم عار على بني آدم، مفسدون للعقول والشرائع»[(١)].

وأما شريعتهم ودينهم فليسوا متمسكين بشيء من شريعة المسيح ولا دينه البتة.

فأول ذلك: أمر القبلة؛ فإنهم ابتدعوا الصلاة إلى مطلع الشمس، مع

---

(١) تقدم في الذي قبله.

علمهم أن المسيح ﷺ لم يصل إلى المشرق أصلاً، بل قد نقل مؤرخوهم أن ذلك حدث بعد المسيح بنحو ثلاثمائة سنة، وإلا فالمسيح إنما كان يصلي إلى قبلة بيت المقدس، وهي قبلة الأنبياء قبله وإليها كان يصلي النبي ﷺ مدة مقامه بمكة، وبعد هجرته ثمانية عشر شهرًا، ثم نقله اللَّه تعالى إلى قبلة أبيه إبراهيم.

ومن ذلك: أن طوائف منهم، وهم الروم، وغيرهم لا يرون الاستنجاء بالماء، فيبول أحدهم ويتغوط، ويقوم بأثر البول والغائط إلى صلاته بتلك الرائحة الكريهة، فيستقبل المشرق، ويصلب على وجهه، ويحدث من يليه بأنواع الحديث، كذبًا كان أو فجورًا، أو غيبة، أو سبًّا وشتمًا، ويخبره بسعر الخمر ولحم الخنزير، وما شاكل ذلك، ولا يضر ذلك في الصلاة ولا يبطلها، وإن دعته الحاجة إلى البول في الصلاة بال وهو يصلي صلاته.

وكل عاقل يعلم أن مواجهة إله العالمين بهذه العبادة قبيح جدًّا، وصاحبها إلى استحقاق غضبه وعقابه أقرب منه إلى الرضا والثواب، ومن العجيب أنهم يقرءون في التوراة: «**ملعون من تعلق بالصليب**». وهم قد جعلوا شعار دينهم ما يُلعنون عليه، ولو كان لهم أدنى عقل لكان الأولى بهم أن يحرقوا الصليب حيث وجدوه ويكسروه ويضمخوه بالنجاسة؛ فإنه قد صلب عليه إلههم ومعبودهم، بزعمهم، وأهين عليه، وفضح وخزي.

فيا للعجب!! بأي وجه بعد هذا يستحق الصليب التعظيم، لولا أن القوم أضل من الأنعام.

وتعظيمهم للصليب مما ابتدعوه في دين المسيح بعده بزمان، ولا ذِكْرَ له في الإنجيل البتة، وإنما ذُكر في التوراة باللعن لمن تعلق به، فاتخذته هذه

الأمة معبودًا يسجدون له؟!

وإذا اجتهد أحدهم في اليمين بحيث لا يحنث ولا يكذب حلف بالصليب، ويكذب إذا حلف بالله، ولا يكذب إذا حلف بالصليب!!

ولو كان لهذه الأمة أدنى مسكة من عقل لكان ينبغي لهم أن يلعنوا الصليب؛ من أجل معبودهم وإلههم حين صلب عليه، كما قالوا: «**إن الأرض لعنت من أجل آدم حين أخطأ، وكما لعنت الأرض حين قتل قابيل أخاه**». وكما في الإنجيل: «**إن اللعنة تنزل على الأرض إذا كان أمراؤها الصبيان**».

فلو عقلوا لكان ينبغي لهم أن لا يحملوا صليبًا، ولا يمسوه بأيديهم، ولا يذكروه بألسنتهم، وإذا ذكر لهم سدوا مسامعهم عن ذكره، ولقد صدق القائل: «**عدوٌّ عاقل خير من صديق أحمق**». لأنهم بحمقهم قصدوا تعظيم المسيح، فاجتهدوا في ذمه وتنقصه والإزراء به والطعن عليه، وكان مقصودهم بذلك التشنيع على اليهود، وتنفير الناس عنهم وإغراءهم بهم، فنفروا الأمم عن النصرانية وعن المسيح ودينه أعظم تنفير، وعلموا أن الدين لا يقوم بذلك، فوضع لهم رهبانهم وأساقفتهم من الحيل والمخاريق وأنواع الشعبذة ما استمالوا به الجهال وربطوهم به، وهم يستجيزون ذلك ويستحسنونه، ويقولون: يشد دين النصرانية. وكأنهم إنما عظموا الصليب؛ لما رأوه قد ثبت لصلب إلههم، ولم ينشق ولم يتطاير ولم يتكسر من هيبته لما حمل عليه، وقد ذكروا أن الشمس اسودت، وتغير حال السماء والأرض، فلما لم يتغير الصليب ولم يتطاير استحق عندهم التعظيم وأن يعبد.

ولقد قال بعض عقلائهم: «**إن تعظيمنا للصليب جار مجرى تعظيم قبور الأنبياء**». فإنه كان قبر المسيح وهو عليه، ثم لما دفن صار قبره في الأرض، وليس وراء هذا الحمق والجهل حمق! فإن السجود لقبور الأنبياء وعبادتها شرك، بل من أعظم الشرك، وقد لعن إمامُ الحنفاء وخاتمُ الأنبياء اليهود والنصارى؛ حيث اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، وأصل الشرك وعبادة الأوثان من العكوف على القبور واتخاذها مساجد.

ثم يقال: فأنتم تعظمون كل صليب لا تخصون التعظيم بذلك الصليب بعينه.

فإن قلتم: الصليب من حيث هو يُذَكِّر بالصليب الذي صلب عليه إلهنا.

قلنا: وكذلك الحفر تُذكِّر بحفرته، فعظِّموا كل حفرة، واسجدوا لها؛ لأنها كحفرته أيضًا، بل أولى؛ لأن خشبة الصلب لم يستقر عليها استقراره في الحفرة.

ثم يقال: اليد التي مسته أولى أن تعظم من الصليب، فعظِّموا أيدي اليهود؛ لمسهم إياه وإمساكهم له، ثم انقلوا ذلك التعظيم إلى سائر الأيدي!

فإن قلتم: منع من ذلك مانع العداوة.

فعندكم أنه هو الذي رضي بذلك واختاره، ولو لم يرضَ به لم يصلوا إليه منه، فعلى هذا فينبغي لكم أن تشكروهم وتحمدوهم؛ إذ فعلوا مرضاته واختياره الذي كان سبب خلاص جميع الأنبياء والمؤمنين والقديسين من الجحيم، ومن سجن إبليس، فما أعظم منة اليهود عليكم، وعلى آبائكم، وعلى سائر النبيين من لدن آدم عليه السلام إلى زمن المسيح!!

والمقصود: أن هذه الأمة جمعت بين الشرك، وعيب الإله وتنقصه،

وتنقص نبيهم وعيبه، ومفارقة دينه بالكلية، فلم يتمسكوا بشيء مما كان عليه المسيح، لا في صلاتهم، ولا في صيامهم، ولا في أعيادهم، بل هم في ذلك أتباع كل ناعق، مستجيبون لكل ممخرق ومبطل، أدخلوا في الشريعة ما ليس منها، وتركوا ما أتت به.

وإذا شئت أن ترى التغيير في دينهم، فانظر إلى صيامهم الذي وضعوه لملوكهم وعظمائهم، فلهم صيام للحواريين، وصيام لماري مريم، وصيام لماري جرجس، وصيام للميلاد.

وتركهم أكل اللحم في صيامهم مما أدخلوه في دين المسيح، وإلا فهم يعلمون أن المسيح عليه السلام كان يأكل اللحم، ولم يمنعهم منه لا في صوم ولا فطر، وأصل ذلك: أن المانوية كانوا لا يأكلون ذا روح، فلما دخلوا في النصرانية خافوا أن يتركوا أكل اللحم فيقتلوا، فشرعوا لأنفسهم صيامًا، فصاموا للميلاد، والحواريين، وماري مريم، وتركوا في هذا الصوم أكل اللحم؛ محافظة على ما اعتادوه من مذهب ماني، فلما طال الزمان تبعهم على ذلك النسطورية واليعقوبية، فصارت سنة متعارفة بينهم، ثم تبعهم على ذلك الملكانية.

- **حيل أئمة الضلال:**

ثم إنك إذا كشفت عن حالهم وجدت أئمة دينهم ورهبانهم قد نصبوا حبائل الحيل ليقتنصوا بها عقول العوام، ويتوصلوا بالتمويه والتلبيس إلى استمالتهم وانقيادهم، واستدرار أموالهم، وذلك أشهر وأكثر من أن يذكر.

فمن ذلك ما يعتمدونه في العيد الذي يسمونه عيد النور، ومحله بيت المقدس، فيجتمعون من سائر النواحي في ذلك اليوم، ويأتون إلى بيت فيه

قنديل معلق لا نار فيه، فيتلوا أحبارهم الإنجيل، ويرفعون أصواتهم، ويبتهلون في الدعاء فبينا هم كذلك وإذا نار قد نزلت من سقف البيت، فتقع على ذبالة القنديل، فيشرق ويضيء ويشتعل، فيضجون ضجة واحدة، ويصلبون على وجوههم ويأخذون في البكاء والشهيق.

قال أبو بكر الطُّرْطُوشي: كنت ببيت المقدس، وكان واليها إذ ذاك رجلاً يقال له: سقمان، فلما نما خبر هذا العيد إليه، أنفذ إلى بتاركتهم وقال: أنا نازل إليكم في يوم هذا العيد لأكشف عن حقيقة ما تقولون، فإن كان حقًّا ولم يتضح لي وجه الحيلة فيه أقررتكم عليه، وعظمته معكم بعلم، وإن كان مخرقة على عوامكم، أوقعت بكم ما تكرهونه، فصعب ذلك عليهم جدًّا وسألوه أن لا يفعل، فأبى ولَجَّ، فحملوا له مالاً عظيمًا، فأخذه وأعرض عنهم!

قال الطُّرْطُوشي: ثم اجتمعت بأبي محمد بن الأقدم بالإسكندرية، فحدثني أنهم يأخذون خيطًا دقيقًا من نحاس، وهو الشريط، ويجعلونه في وسط قبة البيت إلى رأس الفتيلة التي في القنديل، ويدهنونه بدهن اللبان، والبيت مظلم بحيث لا يدرك الناظرون الخيط النحاس، وقد عظموا ذلك البيت فلا يمكنون كل أحد من دخوله، وفي رأس القبة رجل فإذا قدسوا ودعوا ألقى على ذلك الخيط النحاس شيئًا من نار النفط فتجرى النار مع دهن اللبان إلى آخر الخيط النحاس، فتلقى الفتيلة فيتعلق بها.

فلو نصح أحد منهم نفسه، وفتش على نجاته لتتبع هذا القدر، وطلب الخيط النحاس وفتش رأس القبة ليرى القبة، ليرى الرجل والنفط، ويرى أن منبع ذلك النور من ذلك الممخرق الملبس، وأنه لو نزل من السماء لظهر من

فوق، ولم يكن ظهوره من الفتيلة.

ومن حيلهم أيضًا: أنه قد كان بأرض الروم في زمان المتوكل كنيسة، إذا كان يوم عيدها، يحج الناس إليها، ويجتمعون عند صنم فيها، فيشاهدون ثدي ذلك الصنم في ذلك اليوم، يخرج منه اللبن، وكان يجتمع للسادن في ذلك اليوم مال عظيم، فبحث الملك عنها، فانكشف له أمرها، فوجد القيم قد ثقب من وراء الحائط ثقبًا إلى ثدي الصنم، وجعل فيها أنبوبة من رصاص، وأصلحها بالجبس ليخفى أمرها فإذا كان يوم العيد فتحها وصب فيها اللبن، فيجرى إلى الثدي فيقطر منه، فيعتقد الجهال أن هذا سر في الصنم، وأنه علامة من اللَّه تعالى لقبول قربانهم، وتعظيمهم له، فلما انكشف له ذلك أمر بضرب عنق السادن، ومحو الصور من الكنائس، وقال إن هذه الصور مقام الأصنام فمن سجد للصورة فهو كمن سجد للأصنام.

ولقد كان من الواجب على ملوك الإسلام أن يمنعوا هؤلاء من هذا وأمثاله؛ لما فيه من الإعانة على الكفر، وتعظيم شعائره، فالمساعد على ذلك والمعين عليه شريك للفاعل، لكن لما هان عليهم دين الإسلام، وكان السحت الذي يأخذونه منهم أحب إليهم من اللَّه ﷻ ورسوله عليه الصلاة والسلام أقروهم على ذلك، ومكنوهم منه.

والمقصود: أن دين الأمة الصليبية بعد أن بعث اللَّه ﷻ محمدًا بل قبله بنحو ثلاثمائة سنة مبني على معاندة العقول والشرائع، وتنقص إله العالمين، ورميه بالعظائم، فكل نصراني لا يأخذ بحظه من هذه البلية، فليس بنصراني على الحقيقة.

أفليس هو الدين الذي أسسه أصحاب المجامع المتلاعنين على أن

الواحد ثلاثة والثلاثة واحد!

فيا عجبًا كيف رضي العاقل أن يكون هذا مبلغ عقله، ومنتهى علمه؟! أفترى لم يكن في هذه الأمة من يرجع إلى عقله وفطرته، ويعلم أن هذا عين المحال، وإن ضربوا له الأمثال، واستخرجوا له الأشباه، فلا يذكرون مثالاً ولا شبهًا إلا وفيه بيان خطئهم وضلالهم؛ كتشبيه بعضهم اتحاد اللاهوت بالناسوت، وامتزاجه به باتحاد النار والحديد، وتمثيل غيرهم ذلك باختلاط الماء باللبن، وتشبيه آخرين ذلك بامتزاج الغذاء واختلاطه بأعضاء البدن، إلى غير ذلك من الأمثال والمقاييس التي تتضمن امتزاج حقيقتين واختلاطهما حتى صارا حقيقة أخرى، تعالى اللَّه ﷻ عن إفكهم وكذبهم، ولم يقنعهم هذا القول في رب السماوات والأرض حتى اتفقوا بأسرهم على أن اليهود أخذوه وساقوه بينهم ذليلاً مقهورًا، وهو يحمل خشبته التي صلبوه عليها، واليهود يبصقون في وجهه ويضربونه، ثم صلبوه وطعنوه بالحربة حتى مات، وتركوه مصلوبًا، حتى التصق شعره بجلده لما يبس دمه بحرارة الشمس، ثم دفن وأقام تحت التراب ثلاثة أيام، ثم قام بلاهوتيته من قبره.

هذا قول جميعهم ليس فيهم من ينكر منه شيئًا.

- **فيا للعقول!!**

كيف كان حال هذا العالم الأعلى والأسفل في هذه الأيام الثلاثة؟!

ومن كان يدبر أمر السموات والأرض؟!

ومن الذي خلف الرب سبحانه وتعالى في هذه المدة؟!

ومن الذي كان يمسك السماء أن تقع على الأرض، وهو مدفون في قبره؟!!

● **ويا عجبًا!!**

هل دفنت الكلمة معه بعد أن قتلت وصلبت؟!

أم فارقته وخذلته أحوج ما كان إلى نصرها له، كما خذله أبوه وقومه؟!

فإن كانت قد فارقته وتجرد منها فليس هو حينئذٍ المسيح، وإنما هو كغيره من آحاد الناس!

وكيف يصح مفارقتها له بعد أن اتحدت به ومازجت لحمه ودمه؟!

وأين ذهب الاتحاد والامتزاج؟!

وإن كانت لم تفارقه وقتلت وصلبت، ودفنت معه، فكيف وصل المخلوق إلى قتل الإله وصلبه ودفنه؟!!

● **ويا عجبًا!!**

أي قبر يسع إله السموات والأرض، هذا هو الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، سبحان اللَّه عما يشركون؟!

الحمد لله، ثم الحمد لله تعالى، الذي هدانا للإسلام، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

يا ذا الجلال والإكرام، كما هديتنا للإسلام، أسألك أن لا تنزعه عنا حتى تتوفانا على الإسلام.

أعبَّادَ المسيحِ لنا سؤالٌ ... نريدُ جوابَه ممن وعاهُ

إذا مات الإلهُ بصنعِ قومٍ ... أماتوه فما هذا الإلهُ

وهل أرضاه ما نالوه منهُ ... فبشراهم إذا نالوا رضاهُ

وإنْ سخِط الذي فعلوه فيهِ ... فقوتهم إذًا أوهت قواه

وهل بقيَ الوجودُ بلا إلهِ ... سميعٍ يستجيبُ لمن دعاهُ

وهل خلتِ الطباقُ السبعُ لمَّا ... ثوى تحتَ الترابِ وقد علاهُ
وهل خلتِ العوالمُ من إلهٍ ... يُدبِّرُها وقد سمرتْ يداهُ
وكيف تخلتِ الأملاكُ عنهُ ... بنصرهمُ وقد سمِعوا بكاهُ
وكيف أطاقتِ الخشباتُ حملَ الـ ... ـإلهِ الحقِّ شُدَّ على قفاهُ
وكيف دنا الحديدُ إليه حتى ... يخالطَه ويلحقَه أذاهُ
وكيف تمكنتْ أيدي عِداهُ ... وطالتْ حيثُ قد صفَعوا قفاهُ
وهل عاد المسيحُ إلى حياةٍ ... أم المحيي له ربٌّ سواهُ
ويا عجبًا لقبرٍ ضمَّ ربًّا ... وأعجبُ منه بطنٌ قد حواهُ
أقام هناك تسعًا من شهورٍ ... لدى الظلماتِ من حيضٍ غذاهُ
وشقَّ الفرجَ مولودًا صغيرًا ... ضعيفًا فاتحًا للثدي فاهُ
ويأكلُ ثم يشربُ ثم يأتي ... بلازمِ ذاك هل هذا إلهُ؟!
تعالى اللهُ عن إفكِ النصارى ... سيُسأل كلُّهم عما افتراهُ
أعبادَ الصليبِ لأيِّ معنًى ... يعظمُ أو يقبحُ مَن رماهُ
وهل تقضى العقولُ بغيرِ كسرٍ ... وإحراقٍ له ولمن بغاهُ
إذا ركب الإلهُ عليه كرهًا ... وقد شُدتْ لتسميرٍ يداهُ
فذاك المَركبُ الملعونُ حقًّا ... فدسَّه لا تبسَّه إذ تراهُ
يُهانُ عليه ربُّ الخلقِ طُرًّا ... وتعبدُه فإنَّك مِن عِداهُ
فإنْ عظَّمتَه مِن أجلِ أنْ قَدْ ... حَوى ربَّ العبادِ وقد علاهُ
وقد فُقد الصليبُ فإن رأينا ... له شكلًا تَذكَّرنا سناهُ
فهلَّا للقبورِ سجدتَ طُرًّا ... لضمِّ القبرِ ربَّك في حشاهُ
فيا عبدَ المسيحِ أفِقْ فهذا ... بدايتُه وهذا منتهاهُ

فقد بان لكل ذي عقل أن الشيطان تلاعب بهذه الأمة الضالة كل التلاعب، ودعاهم فأجابوه، واستخفهم فأطاعوه، فتلاعب بهم في شأن المعبود سبحانه وتعالى، وتلاعب بهم في أمر المسيح، وتلاعب بهم في شأن الصليب وعبادته، وتلاعب بهم في تصوير الصور في الكنائس وعبادتها، فلا تجد كنيسة من كنائسهم تخلو عن صورة مريم والمسيح، وجرجس وبطرس، وغيرهم من القديسين عندهم والشهداء، وأكثرهم يسجدون للصور، ويدعونها من دون اللَّه تعالى، حتى لقد كتب بِطْريق الإسكندرية إلى ملك الروم كتابًا يحتج فيه للسجود للصور بأن اللَّه تعالى أمر موسى عليه السلام أن يصور في قبة الزمان صورة الساروس، وبأن سليمان بن داود لما عمل الهيكل عمل صورة الساروس من ذهب ونصبها داخل الهيكل، ثم قال في كتابه: «**وإنما مثال هذا مثال الملك يكتب إلى بعض عماله كتابًا، فيأخذه العامل ويقبله ويضعه على عينيه، ويقوم له، لا تعظيمًا للقرطاس والمداد، بل تعظيمًا للملك، كذلك السجود للصور تعظيم لاسم ذلك المصور لا للأصباغ والألوان**». وبهذا المثال بعينه عُبدت الأصنام، وما ذكره هذا المشرك عن موسى وسليمان - عليهما السلام - لو صح لم يكن فيه دليل على السجود للصور، وغايته أن يكون بمثابة ما يذكر عن داود أنه نقش خطيئته في كفه؛ كيلا ينساها، فأين هذا مما يفعله هؤلاء المشركون من التذلل والخضوع والسجود بين يدي تلك الصور؟!

وإنما المثال المطابق لما يفعله هؤلاء المشركون مثال خادم من خدام الملك دخل على رجل، فوثب الرجل من مجلسه وسجد له وعبده، وفعل به ما لا يصلح أن يفعل إلا مع الملك، وكل عاقل يستجهله ويستحمقه في

فعله؛ إذ قد فعل مع عبد الملك ما كان ينبغي له أن يخص به الملك دون عبيده من الإكرام والخضوع والتذلل، ومعلوم أن هذا إلى مقت الملك له وسقوطه من عينه أقرب منه إلى إكرام له ورفع منزلته.

كذلك حال من سجد لمخلوق أو لصورة مخلوق؛ لأنه عمد إلى السجود الذي هو غاية ما يتوصل به العبد إلى رضا الرب، ولا يصلح إلا له، ففعله لصورة عبد من عبيده، وسوى بين اللّه وبين عبده في ذلك، وليس وراء هذا في القبح والظلم شيء.

ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وقد فطر اللّه سبحانه عباده على استقباح معاملة عبيد الملك وخدمه بالتعظيم والإجلال والخضوع والذل، الذي يعامل به الملك، فكيف حال من فعل ذلك بأعداء الملك؟!

فإن الشيطان عدو الله، والمشرك إنما يشرك به لا بولي اللّه ورسوله، بل رسول اللّه وأولياؤه بريئون ممن أشرك بهم، معادون لهم أشد الناس مقتًا لهم، فهم في نفس الأمر إنما أشركوا بأعداء الله، وسووا بينهم وبين اللّه في العبادة والتعظيم، والسجود والذل، ولهذا كان بطلان الشرك وقبحه معلومًا بالفطرة السليمة والعقول الصحيحة، والعلم بقبحه أظهر من العلم بقبح سائر القبائح.

والمقصود ذكر تلاعب الشيطان بهذه الأمة في أصول دينهم، وفروعه:

كتلاعبه بهم في صيامهم: فإن أكثر صومهم لا أصل له في شرع المسيح، بل هو مختلق مبتدع، فمن ذلك أنهم زادوا جمعة في بدء الصوم الكبير، يصومونها لهرقل مخلص بيت المقدس، وذلك أن الفرس لما ملكوا بيت

المقدس وقتلوا النصارى وهدموا الكنائس، أعانهم اليهود على ذلك، وكانوا أكثر قتلاً وفتكًا في النصارى من الفرس.

فلمَّا سار هرقل إليه، استقبله اليهود بالهدايا، وسألوه أن يكتب لهم عهدًا ففعل، فلما دخل بيت المقدس شكا إليه مَن فيه من النصارى ما كان اليهود صنعوه بهم.

فقال لهم هرقل: وما تريدون مني؟ قالوا: تقتلهم. قال: كيف أقتلهم وقد كتبت لهم عهدًا بالأمان؟ وأنتم تعلمون ما يجب على ناقض العهد. فقالوا له: إنك حين أعطيتهم الأمان لم تدرِ ما فعلوا من قتل النصارى وهدم الكنائس، وقتلُهم قربانٌ إلى اللَّه تعالى، ونحن نتحمل عنك هذا الذنب، ونكفره عنك، ونسأل المسيح أن لا يؤاخذك به، ونجعل لك جمعة كاملة في بدء الصوم نصومها لك، ونترك فيها أكل اللحم ما دامت النصرانية، ونكتب به إلى جميع الآفاق غفرانًا لما سألناك.

فأجابهم وقتل من اليهود حول بيت المقدس وجبل الخليل ما لا يحصى كثرة، فصيروا أول جمعة من الصوم الذي يترك فيه الملكية أكل اللحم، يصومونها لهرقل الملك؛ غفرانًا لنقضه العهد وقتل اليهود، وكتبوا بذلك إلى الآفاق.

وأهل بيت المقدس وأهل مصر يصومونها، وبقية أهل الشام والروم يتركون اللحم فيه ويصومون الأربعاء والجمعة.

وكذلك لما أرادوا نقل الصوم إلى فصل الربيع المعتدل، وتغيير شريعة المسيح، زادوا فيه عشرة أيام؛ عوضًا وكفارة لنقلهم له.

ومن ذلك تلاعبه في أعيادهم: فكلها موضوعة مختلقة محدثة بآرائهم

واستحسانهم، فمن ذلك عيد ميكائيل، وسببه أنه كان بالإسكندرية صنم، وكان جميع من بمصر والإسكندرية يعيدون له عيدًا عظيمًا، ويذبحون له الذبائح، فولَّى بَتْركة الإسكندرية واحدًا منهم، فأراد أن يكسره ويبطل الذبائح فامتنعوا عليه، فاحتال عليهم، وقال: إن هذا الصنم لا ينفع ولا يضر، فلو جعلتم هذا العيد لميكائيل ملك اللَّه تعالى وجعلتم هذه الذبائح له كان يشفع لكم عند الله، وكان خيرًا لكم من هذا الصنم، فأجابوه إلى ذلك فكسر الصنم وصيره صلبانًا، وسمى الكنيسة كنيسة ميكائيل، وسماها قيسارية، ثم احترقت الكنيسة، وخربت وصيروا العيد والذبائح لميكائيل، فنقلهم من كفر إلى كفر، ومن شرك إلى شرك.

فكانوا في ذلك كمجوسيٍّ أسلم فصار رافضيًا، فدخل الناس عليه يهنئونه، فدخل عليه رجل، وقال: إنك إنما انتقلت من زاوية من النار إلى زاوية أخرى!

ومن ذلك عيد الصليب: وهو مما اختلقوه وابتدعوه، فإن ظهور الصليب إنما كان بعد المسيح بزمن كثير، وكان الذي أظهره زورًا وكذبًا أخبرهم به بعض اليهود أن هذا هو الصليب الذي صُلب عليه إلههم وربهم، فانظر إلى هذا السند وهذا الخبر! فاتخذوا ذلك الوقت الذي ظهر فيه عيدًا، وسموه عيد الصليب، ولو أنهم فعلوا كما فعل أشباههم من الرافضة حيث اتخذوا وقت قتل الحسين رضي الله عنه مأتمًا وحزنًا لكان أقرب إلى العقول.

وكان من حديث الصليب: أنه لما صلب المسيح - على زعمهم الكاذب - وقتل ودفن، رفع من القبر إلى السماء، وكان التلاميذ كل يوم يصيرون إلى القبر، إلى موضع الصلب، ويصلون، فقالت اليهود: إن هذا

الموضع لا يخفى، وسيكون له نبأ، وإذا رأى الناس القبر خاليًا آمنوا به. فطرحوا عليه التراب والزبل، حتى صار مزبلة عظيمة، فلما كان في أيام قسطنطين الملك، جاءت زوجته إلى بيت المقدس، تطلب الصليب، فجمعت من اليهود والسكان ببيت المقدس وجبل الخليل مائة رجل، واختارت منهم عشرة، واختارت من العشرة ثلاثة، اسم أحدهم: يهوذا، فسألتهم أن يدلوها على الموضع، فامتنعوا، وقالوا: لا علم لنا بالموضع. فطرحتهم في الحبس، في جب لا ماء فيه، فأقاموا سبعة أيام لا يطعمون ولا يسقون، فقال يهوذا لصاحبيه: إن أباه عرَّفه بالموضع الذي تطلب، فصاح الاثنان، فأخرجوهما، فخبراها بما قال يهوذا، فأمرت بضربه بالسياط، فأقر، وخرج إلى الموضع الذي فيه المقبرة، وكان مزبلة عظيمة، فصلى، وقال: اللهم إن كان في هذا الموضع فاجعله أن يتزلزل، ويخرج منه دخان. فتزلزل الموضع، وخرج منه دخان، فأمرت الملكة بكنس الموضع من التراب، فظهرت المقبرة، وأصابوا ثلاثة صلبان، فقالت الملكة: كيف لنا أن نعلم صليب سيدنا المسيح؟ وكان بالقرب منهم عليل شديد العلة قد أيس منه، فوضع الصليب الأول عليه، ثم الثاني، ثم الثالث، فقام عند الثالث، واستراح من علته، فعلمت أنه صليب المسيح، فجعلته في غلاف من ذهب وحملته إلى قسطنطين.

وكان من ميلاد المسيح إلى ظهور هذا الصليب ثلاثمائة وثمانية وعشرون سنة.

هذا كله نقله سعيد بن بطريق النصراني في «**تاريخه**».

والمقصود: أنهم ابتدعوا هذا العيد بنقل علمائهم بعد المسيح بهذه

المدة.

وبعد، فسند هذه الحكاية من بين يهودي ونصراني مع انقطاعها وظهور الكذب فيها لمن له عقل من وجوه كثيرة، ويكفي في كذبها وبيان اختلاقها:

أن ذلك الصليب الذي شفى العليل كان أولى أن لا يميت الإله الرب المحيي المميت.

ومنها: أنه إذا بقي تحت التراب خشب ثلاثمائة وثمانية وعشرون سنة، فإنه ينخر ويبلى لدون هذه المدة.

فإن قال عباد الصليب: إنه لما مس جسم المسيح حصل له الثبات والقوه والبقاء.

قيل لهم: فما بال الصليبين الباقيين لم يتفتتا، واشتبها به؟!

فلعلهم يقولون: لما مست صليبه مسها البقاء والثبات، وجهل القوم وحمقهم أعظم من ذلك، والرب سبحانه لما تجلى للجبل تدكك الجبل، وساخ في الأرض، ولم يثبت لتجليه، فكيف تثبت الخشبة لركوبه عليها في تلك الحال؟!

ولقد صدق القائل: «إن هذه الأمة عار على بني آدم أن يكونوا منهم».

فإن كانت هذه الحكاية صحيحة، فما أقربها من حيل اليهود التي تخلصوا بها من الحبس والهلاك! وحيل بني آدم تصل إلى أكثر من ذلك بكثير، ولا سيما لما علم اليهود أن ملكة دين النصرانية قاصدة إلى بيت المقدس، وأنها تعاقبهم حتى يدلوها على موضع القتل والصلب، وعلموا أنهم إن لم يفعلوا لم يتخلصوا من عقوبتها.

ومنها: أن عباد الصليب يقولون: إن المسيح لما قتل غار دمه، ولو وقع

منه قطرة على الأرض ليبست ولم تنبت.

فيا عجبًا!!

كيف يحيى الميت، ويبرأ العليل بالخشبة التي شهر عليها وصلب؟!! أهذا كله من بركتها وفرحها به، وهو مشدود عليها يبكي ويستغيث؟!!

ولقد كان الأليق أن يتفتت الصليب ويضمحل لهيبة من صلب عليه وعظمته، ولخسفت الأرض بالحاضرين عند صلبه، والمتمالئين عليه، بل تتفطر السموات وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًّا.

ثم يقال لعباد الصليب: لا يخلو أن يكون المصلوب الناسوت وحده، أو مع اللاهوت، فإن كان المصلوب هو الناسوت وحده، فقد فارقته الكلمة، وبطل اتحادها به، وكان المصلوب جسدًا من الأجساد ليس بإله، ولا فيه شيء من الإلهية والربوبية البتة.

وإن قلتم: إن الصلب وقع على اللاهوت والناسوت معًا. فقد أقررتم بصلب الإله وقتله وموته، وقدرة الخلق على أذاه، وهذا أبطل الباطل، وأمحل المحال!

فبطل تعلقكم بالصليب من كل وجه عقلاً وشرعًا.

وأما تلاعبه بهم في صلاتهم، فمن وجوه:

أحدها: صلاةُ كثير منهم بالنجاسة والجنابة، والمسيح بريء من هذه الصلاة، وسبحان اللَّه أن يُتقرب إليه بمثل هذه الصلاة! فقَدْرُه أعلى، وشأنه أجلُّ من ذلك.

ومنها: صلاتهم إلى مشرق الشمس، وهم يعلمون أن المسيح لم يصلِّ إلى المشرق أصلاً، وإنما كان يصلي إلى قبلة بيت المقدس.

ومنها: تصليبهم على وجوههم عند الدخول في الصلاة، والمسيح بريء من ذلك، فصلاةٌ مفتاحها النجاسة، وتحريمها التصليب على الوجه، وقبلتها الشرق، وشعارها الشرك، كيف يخفى على العاقل أنها لا تأتي بها شريعة من الشرائع البتة؟!

ولما علمت الرهبان والمطارنة والأساقفة أن مثل هذا الدين تنفر عنه العقول أعظم نفرة؛ شدوه بالحيل، والصور في الحيطان بالذهب، واللازورد، والزنجفر، وبالأرغل وبالأعياد المحدثة، ونحو ذلك مما يروج على السفهاء، وضعفاء العقول والبصائر، وساعدهم ما عليه اليهود من القسوة والغلظة، والمكر والكذب والبهت، وما عليه كثير من المسلمين من الظلم والفواحش والفجور والبدعة، والغلو في المخلوق حتى يتخذه إلهًا من دون الله، واعتقاد كثير من الجهال أن هؤلاء من خواص المسلمين وصالحيهم، فتركَّب من هذا وأمثاله تمسك القوم بما هم فيه، ورؤيتهم أنه خير من كثير مما عليه المنتسبون إلى الإسلام من البدع والفجور والشرك والفواحش.

ولهذا لما رأى النصارى الصحابةَ، وما هم عليه، آمن أكثرهم اختيارًا وطوعًا، وقالوا: ما الذين صحبوا المسيح بأفضل من هؤلاء.

ولقد دعونا نحن وغيرنا كثيرًا من أهل الكتاب إلى الإسلام، فأخبروا أن المانع لهم ما يرون عليه المنتسبين إلى الإسلام ممن يعظمهم الجهال من البدع والظلم والفجور، والمكر والاحتيال، ونسبة ذلك إلى الشرع ولمن جاء به، فساء ظنهم بالشرع، وبمن جاء به، فاللَّه طليب قطاع طريق اللَّه وحسيبهم.

فهذه إشارة يسيرة جدًّا إلى تلاعب الشيطان بعباد الصليب تدل على ما بعدها، واللَّه الهادي الموفق»[١].

* * *

أسباب ضلال النصارى

«ومما ينبغي أن يعلم أن سبب ضلال النصارى، وأمثالهم من الغالية، كغالية العباد والشيعة وغيرهم، ثلاثة أشياء:

أحدها: ألفاظ متشابهة مجملة مشكلة، منقولة عن الأنبياء، وعدلوا عن الألفاظ الصريحة المحكمة، وتمسكوا بها، وهم كلما سمعوا لفظًا لهم فيه شبهة تمسكوا به، وحملوه على مذهبهم، وإن لم يكن دليلاً على ذلك، والألفاظ الصريحة المخالفة لذلك إما أن يفوضوها، وإما أن يتأولوها، كما يصنع أهل الضلال، يتبعون المتشابه من الأدلة العقلية والسمعية، ويعدلون عن المحكم الصريح من القسمين.

والثاني: خوارق ظنوها آيات، وهي من أحوال الشياطين، وهذا مما ضل به كثير من الضُّلَّال المشركين وغيرهم، مثل دخول الشياطين في الأصنام وتكليمها للناس، ومثل إخبار الشياطين للكهان بأمور غائبة، ولا بد لهم مع ذلك من كذب، ومثل تصرفات تقع من الشياطين.

والثالث: أخبار منقولة إليهم ظنوها صدقًا، وهي كذب، وإلا فليس مع النصارى ولا غيرهم من أهل الضلال على باطلهم لا معقول صريح، ولا

(١) «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٥٥- ٢٩٨).

منقول صحيح، ولا آية من آيات الأنبياء، بل إن تكلموا بمعقول تكلموا بألفاظ متشابهة مجملة، فإذا استفسروا عن معاني تلك الكلمات، وفرق بين حقها وباطلها تبين ما فيها من التلبيس والاشتباه، وإن تكلموا بمنقول، فإما أن يكون صحيحًا لكن لا يدل على باطلهم، وإما أن يكون غير صحيح ثابت، بل مكذوب، وكذلك ما يذكرونه من خوارق العادات، إما أن يكون صحيحًا، قد ظهر على يد نبي، كمعجزات المسيح ومن قبله، كإلياس واليسع، وغيرهما من الأنبياء، وكمعجزات موسى - ﷺ - فهذه حق.

وإما أن تكون قد ظهرت على يد بعض الصالحين، كالحواريين، وذلك لا يستلزم أن يكونوا معصومين كالأنبياء، فإن الأنبياء معصومون فيما يبلغونه، لا يتصور أن يقولوا على اللَّه إلا الحق، ولا يستقر في كلامهم باطل، لا عمدًا ولا خطأ.

وأما الصالحون فقد يغلط أحدهم ويخطئ، مع ظهور الخوارق على يديه، وذلك لا يخرجه عن كونه رجلًا صالحًا، ولا يوجب أن يكون معصومًا، إذا كان هو لم يَدَّعِ العصمة، ولم يأت بالآيات دالة على ذلك.

ولو ادعى العصمة، وليس بنبي، لكان كاذبًا، لا بد أن يظهر كذبه، وتقترن به الشياطين فتضله، ويدخل في قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾ [الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢].

والنصارى عندهم منقول في الأناجيل أن الذي صلب ودفن في القبر رآه بعض الحواريين وغيرهم بعد أن دفن قام من قبره، رأوه مرتين أو ثلاثًا، وأراهم موضع المسامير، وقال: لا تظنوا أني شيطان. وهذا إذا كان صحيحًا فذاك شيطان ادعى أنه المسيح، والتبس على أولئك، ومثل هذا قد جرى

لخلق عظيم في زماننا، وقبل زماننا، كناس كانوا بتدمر فرأوا شخصًا عظيما طائرًا في الهواء، وظهر لهم مرات بأنواع من اللباس، وقال لهم: أنا المسيح ابن مريم. وأمرهم بأمور يمتنع أن يأمر بها المسيح عليه السلام، وحضروا إلى عند الناس، وبينوا لهم أن ذلك هو شيطان أراد أن يضلهم.

وآخرون يأتي أحدهم إلى قبر من يعظمه ويحسن به الظن من الصالحين وغيرهم، فتارة يرى القبر قد انشق، وخرج منه إنسان على صورة ذلك الرجل، وتارة يرى ذلك الإنسان قد دخل في القبر، وتارة يراه إما راكبًا، وإما ماشيًا، داخلاً إلى مكان ذلك الميت، كالقبة المبنية على القبر، وتارة يراه خارجًا من ذلك المكان، ويظن أن ذلك هو ذلك الرجل الصالح، وقد يظن أن قومًا استغاثوا به، فذهب إليهم، ويكون ذلك شيطانًا تصور بصورته، وهذا جرى لغير واحد ممن أعرفهم، وتارة يستغيث أقوام بشخص يحسنون به الظن، إما ميت وإما غائب، فيرونه بعيونهم قد جاء، وقد يكلمهم، وقد يقضي بعض حاجاتهم، فيظنونه ذلك الشخص الميت، وإنما هو شيطان زعم أنه هو، وليس هو إياه، وكثيرًا ما يأتي الشخص بعد الموت في صورة الميت، فيحدثهم ويقضي ديونًا، ويرد ودائع، ويخبرهم عن الموتى، ويظنون أنه هو الميت نفسه قد جاء إليهم، وإنما هو شيطان تصور بصورته، وهذا كثير جدًا، لا سيما في بلاد الشرك، كبلاد الهند ونحوها.

ومن هؤلاء من تراه أنت تحت سريره آخذ بيد ابنه في الجنازة، ومنهم من يقول: إذا مت فلا تدعوا أحدًا يغسلني، فأنا آتي من هذه الناحية أغسل نفسي. فيأتي بعد الموت شخص في الهواء على صورته يغسله هو والذي أوصاه، ويظن ذلك أنه جاء، وإنما هو شيطان تصور بصورته.

وتارة يرى أحدهم شخصًا إما طائرًا في الهواء، وإما عظيم الخلقة، وإما أن يخبره بأشياء غائبة ونحو ذلك، ويقول له: أنا الخضر. ويكون ذلك شيطانًا كذب على ذلك الشخص، وقد يكون الرائي من أهل الدين والزهد والعبادة، وقد جرى هذا لغير واحد.

وتارة يرى عند قبر نبي أو غيره أن الميت قد خرج إما من حجرته، وإما من قبره، وعانق ذلك الزائرَ وسلم عليه، ويكون شيطانًا تصور بصورته.

وتارة يجيء من يجيء إلى عند قبر ذلك الشخص فيستأذنه في أشياء، ويسأله عن أمور، فيخاطبه شخص يراه، أو يسمع صوتًا، ولا يرى شخصًا، ويكون ذلك شيطانًا أضله.

وقد يرى أشخاصًا في اليقظة، إما ركبانًا وإما غير ركبان، ويقولون: هذا فلان النبي. إما إبراهيم، وإما المسيح، وإما محمد. و: هذا فلان الصديق. إما أبو بكر، وإما عمر، وإما بعض الحواريين. و: هذا فلان. لبعض من يعتقد فيه الصلاح، إما جرجس، أو غيره، ممن تعظمه النصارى، وإما بعض شيوخ المسلمين، ويكون ذلك شيطانًا ادعى أنه ذلك النبي أو ذلك الشيخ، أو الصديق، أو القديس، ومثل هذا يجري كثيرًا لكثير من المشركين والنصارى، وكثير من المسلمين، ويرى أحدهم شيخًا يحسن به الظن، ويقول: أنا الشيخ فلان. ويكون شيطانًا.

وأعرف من هذا شيئًا كثيرًا، وأعرف غير واحد ممن يستغيث ببعض الشيوخ الغائبين والموتى، يراه قد أتاه في اليقظة وأعانه، وقد جرى مثل هذا لي ولغيري ممن أعرفه، ذكر غير واحد أنه استغاث بي من بلاد بعيدة، وأنه رآني قد جئته، ومنهم من قال: رأيتك راكبًا بلباسك وصورتك. ومنهم من

قال: رأيتك على جبل. ومنهم من قال غير ذلك، فأخبرتهم أني لم أغثهم، وإنما ذلك شيطان تصور بصورتي ليضلهم لما أشركوا بالله، ودعوا غير الله.

وكذلك غير واحد ممن أعرفه من أصحابنا استغاث به بعض من يحسن به الظن، فرآه قد جاءه وقضى حاجته، قال صاحبي: وأنا لا أعلم بذلك. ومن هؤلاء الشيوخ من يقول: إنه يسمع صوت ذلك الشخص المستغيث به ويجيبه، وتكون الشياطين أسمعته صوتًا يشبه صوت الشيخ المستغيث له، فأجابه الشيخ بصوته، فأسمعت المستغيث صوتًا يشبه صوت الشيخ، فيظن أنه صوت الشيخ، وهذا جرى لمن أعرفه، وأخبر بذلك عن نفسه، وقال: بقي الجني الذي يحدثني يبلغني مثل صوت المستغيثين بي، ويبلغهم مثل صوتي، ويريني في شيء أبيض نظير ما أسأل عنه، فأخبر به الناس أني رأيته وأنه سيأتي ولا أكون قد رأيته وإنما رأيت شبيهه.

وهكذا تفعل الجن بمن يعزم عليهم، ويقسم عليهم، وكذلك ما رآه قسطنطين من الصليب الذي رآه من نجوم، والصليب الذي رآه مرة أخرى هو مما مثله الشياطين، وأراهم ذلك ليضلهم به، كما فعلت الشياطين ما هو أعظم من ذلك بعباد الأوثان، وكذلك من ذكر أن المسيح جاءه في اليقظة، وخاطبه بأمور، كما يذكر عن بولس، فإنه إذا كان صادقًا كان ذلك الذي رآه في اليقظة، وقال: إنه المسيح؛ شيطانًا من الشياطين، كما جرى مثل ذلك لغير واحد.

والشيطان إنما يضل الناس ويغويهم بما يظن أنهم يطيعونه فيه، فيخاطب النصارى بما يوافق دينهم، ويخاطب من يخاطب من ضلال المسلمين بما يوافق اعتقاده، وينقله إلى ما يستجيب لهم فيه، بحسب اعتقادهم، ولهذا

يتمثل لمن يستغيث من النصارى بجرجس في صورة جرجس، أو بصورة من يستغيث به النصارى من أكابر دينهم، إما بعض البطاركة، وإما بعض المطارنة، وإما بعض الرهبان، ويتمثل لمن يستغيث به من ضلال المسلمين بشيخ من الشيوخ في صورة ذلك الشيخ، كما تمثل لجماعة ممن أعرفهم في صورتي، وفي صورة جماعة من الشيوخ الذين ذكروا في ذلك، ويتمثل كثيرًا في صورة بعض الموتى، تارة يقول: أنا الشيخ عبد القادر. وتارة يقول: أنا الشيخ أبو الحجاج الأقصري. وتارة يقول: أنا الشيخ عدي. وتارة يقول: أنا أحمد بن الرفاعي. وتارة يقول: أنا أبو مدين المغربي. وإذا كان يقول: أنا المسيح. أو: إبراهيم. أو: محمد. فغيرهم بطريق الأولى، والنبي ﷺ قال: «**مَن رآني في المنامِ فقد رآني حقًّا، فإن الشيطانَ لا يَتَمَثَّلُ في صورتي**»[(١)].
وفي رواية: «**في صورةِ الأنبياءِ**».

فرؤيا الأنبياء في المنام حق، وأما رؤية الميت في اليقظة فهذا جني تمثل في صورته، وبعض الناس يسمي هذا روحانية الشيخ، وبعضهم يقول هي رفيقه، وكثير من هؤلاء يُرى يقوم من مكانه، ويدع في مكانه صورة مثل صورته، وكثير من هؤلاء ومن هؤلاء من يقول يُرى في مكانين، ويُرى واقفًا بعرفات، وهو في بلده لم يذهب، فيبقى الناس الذين لا يعرفون حائرين، فإن العقل الصريح يعلم أن الجسم الواحد لا يكون في الوقت الواحد في مكانين.

والصادقون قد رأوا ذلك عيانًا لا يشكون فيه، ولهذا يقع النزاع كثيرًا بين هؤلاء وهؤلاء، كما قد جرى ذلك غير مرة، وهذا صادق فيما رأى وشاهد،

---

(١) أخرجه البخاري (١١٠، ٦١٩٧) ومسلم (١٠/ ٢٢٦٦)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

وهذا صادق فيما دل عليه العقل الصريح، لكن ذلك المرئي كان جنيًا تمثل بصورة الإنسان، والحسيات إن لم يكن معها عقليات تكشف حقائقها، وإلا وقع فيها غلط كبير، وهذا القسم المشهود في الخارج غير ما يتخيله الإنسان في نفسه، فإن هذا يعرفه جميع الناس، ويصوبه جميع العقلاء، يتخيلون أشياء في أنفسهم كما يتخيله النائم في منامه، وتكون تلك الصورة موجودة في الخيال لا في الخارج.

والفلاسفة وسائر العقلاء يعترفون بهذا، لكن كثير من الفلاسفة يظن أن ما رأته الأنبياء من الملائكة، وما سمعته من الكلام، كان من هذا النوع، ويظنون أن ما يرى من الجن هو من هذا النوع، وهؤلاء جهال غالطون في هذا، كما جهلوا وغلطوا في ظنهم أن خوارق العادات سببها قوى نفسانية، أو طبيعية، أو قوى فلكية، وأن الفرق بين النبي والساحر إنما هو حسن قصد هذا، وفساد قصد الآخر، وإلا فكلاهما خوارق سببها قوى نفسانية، أو فلكية، وهذا النفي باطل، كما قد بسطنا الكلام عليه، وبينا جهل هؤلاء وضلالهم في غير هذا الموضع.

والذين شاهدوا ذلك في الخارج، وثبت عندهم بالأخبار الصادقة المتواترة وجود ذلك في الخارج يعلمون أن هؤلاء جاهلون ضالون، ويعلمون أن الملائكة تظهر في صورة البشر، كما ظهرت لإبراهيم ولوط ومريم في صورة البشر، وكما كان جبريل يظهر للنبي ﷺ تارة في صورة دحية الكلبي، وتارة في صورة أعرابي، ويراه كثير من الناس عيانًا، وما في خيال الإنسان لا يراه غيره، وكذلك كما ظهر إبليس للمشركين في صورة الشيخ النجدي، وظهر لهم يوم بدر في صورة سراقة بن مالك بن جعشم، فلما رأى

الملائكة هرب؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنفال: ٤٨][1].

وروي عن ابن عباس وغيره، قال: «تبدى إبليس في جند من الشياطين ومعه راية في صورة رجال من مدلج، والشيطان في صورة سراقة بن مالك بن جعشم فقال: لا غالب لكم اليوم من الناس، وإني جار لكم، وأقبل جبريل عليه السلام على إبليس فلما رآه، وكانت يده في يد رجل من المشركين انتزع إبليس يده، وولى مدبرًا هو وشيعته فقال الرجل: يا سراقة أتزعم أنك لنا جار، فقال: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾».

قال ابن عباس: «وذلك لما رأى الملائكة»[2].

قال الضحاك: «سار الشيطان معهم برايته وجنوده، وألقى في قلوب المشركين أن أحدًا لن يغلبكم، وأنتم تقاتلون على دينكم ودين آبائكم».

وكثير من الناس تحمله الجن إلى مكان بعيد، فتحمل كثيرًا من الناس إلى عرفات وغير عرفات، وإذا رئي واحد من هؤلاء في غير بلده يكون تارة محمولاً قد حملته الجن، وتارة تصورت على صورته.

ولا يكون هذا من أولياء اللَّه المتقين الذين لهم كرامات، بل قد يكون من الكافرين أو الفاسقين، وأعرف من ذلك قضايا كثيرة ليس هذا موضع تفصيلها.

وعند المشركين والنصارى من ذلك شيء كثير يظنونه من جنس الآيات

---

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٠/ ١٨).

(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٠/ ١٩).

التي للأنبياء، إنما هي من جنس ما للسحرة والكهان، ومن لم يفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، ويفرق بين معجزات الأنبياء وكرامات الصالحين، وبين خوارق السحرة والكهان ومن تقترن بهم الشياطين، وإلا التبس عليه الحق بالباطل، فإما أن يكذب بالحق الذي جاء به الأنبياء الصادقون، وإما أن يصدق بالباطل الذي يقوله الكاذبون والغالطون، وهذه الأمور مبسوطة في موضع آخر.

والمقصود هنا: التنبيه على هذا الأصل، وعلماء النصارى يسلمون هذا، وعندهم من ذلك أخبار كثيرة من حكايات أولياء الشيطان الذين عارضهم أولياء الرحمن، وأبطلوا أحوالهم، كما أبطل موسى - صلوات اللّه عليه - ما عارضته به السحرة من الخوارق، كما ذكر ذلك في التوراة، وكما يذكرونه عن فلان وفلان، مثل حكاية سيمون الساحر مع الحواريين، وغير ذلك، وإذا كان هذا معلومًا كان ما يذكرونه من هذا الجنس إذا كان مخالفًا لما ثبت عن الأنبياء - من الشيطان، فلا يجوز أن يحتج به على ما يخالف شرائع الأنبياء الثابتة عنهم، بل هؤلاء من جنس الدجال الكبير الذي أنذرت به الأنبياء كلهم، حتى نوح أنذر قومه، وقال خاتم الرسل ﷺ: «**ما مِن نبيٍّ إلا قد أنذَر أمتَه، حتى نوحٌ أنذَر قومَه، وسأقول لكم فيه قولاً لم يقله نبيٌّ لأمته: إنه أعورُ، وإنَّ ربَّكم ليس بأعورَ، مكتوبٌ بين عينيه كافر: (ك ف ر)، يقرؤه كلُّ مؤمنٍ قارئٌ وغيرُ قارئٍ**». وقال: «**واعلموا أنَّ أحدًا منكم لن يَرى ربَّه حتى يموتَ**»[1].

(١) أخرجه البخاري (١٣٥٤، ٣٣٣٧، ٧١٢٩)، ومسلم (٩٦/ ٢٩٣٠) بنحوه، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وقد أخبر أن المسيح عيسى ابن مريم مسيح الهدى ينزل إلى الأرض على المنارة البيضاء، شرقي دمشق فيقتل مسيح الضلالة، وهذا هو الذي تنتظره اليهود، ويجحدون المسيح عيسى ابن مريم، ويقولون هذا هو الذي بشرت به الأنبياء، ويتبعه من يهود أصبهان سبعون ألفًا مطيلسين، ويقتلهم المسلمون مع عيسى ابن مريم شرَّ قِتلة حتى يقول الشجر والحجر: «**يا مسلمُ، هذا يهوديٌّ ورائي، تعال اقتله**». وكل هذا ثابت في «الصحيح» عن النبي ﷺ[1]، ولهذا أمر أمته أن يستعيذوا باللَّه من فتنته، فقال: «**إذا قعَد أحدُكم في التشهدِ في الصلاةِ، فليتعوذْ باللهِ مِن أربعٍ: من عذابِ جهنمَ، ومِن عذابِ القبرِ، ومِن فتنةِ المحيا والمماتِ، ومِن فتنةِ المسيحِ الدجالِ**»[2].

والأنبياء كلهم أنذروا بالكذابين الذين يتشبهون بالأنبياء، لكن من الناس من يتعمد الكذب، وكثير منهم لا يتعمد، بل يلتبس عليه فيغلط، فيخبر بما يظنه حقًّا، ولا يكون كذلك، ويرى في اليقظة ما يظنه فلانًا الولي أو النبي أو الخضر، ولا يكون كذلك.

والغلط جائز على كل أحد إلا الأنبياء عليهم السلام، فإنهم معصومون، لا يُقَرُّون على خطأ، فمن لم يزن علومه وأعماله وأقواله وأفعاله بالمعلوم عن الأنبياء، وإلا كان ضالًّا.

فنسأل اللَّه العظيم أن يهدينا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا.

والمسلمون وأهل الكتاب متفقون على إثبات مسيحَين: مسيح هدى من

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٣٧/ ١١٠، ١١١)، من حديث النواس بن سمعان ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم (٥٨٨/ ١٢٨ من حديث أبي هريرة رض الله عنه.

ولد داود، ومسيح ضلال، يقول أهل الكتاب: إنه من ولد يوسف. ومتفقون على أن مسيح الهدى سوف يأتي كما يأتي مسيح الضلالة، لكن المسلمون والنصارى يقولون مسيح الهدى هو عيسى ابن مريم، وإن اللَّه أرسله، ثم يأتي مرة ثانية، لكن المسلمون يقولون: إنه ينزل قبل يوم القيامة، فيقتل مسيح الضلالة، ويكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ولا يبقى دين إلا دين الإسلام، ويؤمن به أهل الكتاب اليهود والنصارى، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء: ١٥٩].

والقول الصحيح الذي عليه الجمهور قبل موت المسيح، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [الزُّخرف: ٦١].

وأما النصارى فتظن أنه الله! وأنه يأتي يوم القيامة لحساب الخلائق وجزائهم، وهذا مما ضلوا فيه، واليهود تعترف بمجيء مسيح هدى يأتي، لكن يزعمون أن عيسى عليه السلام لم يكن مسيح هدى، لظنهم أنه جاء بدين النصارى المبدل، ومن جاء به فهو كاذب، وهم ينتظرون المسيحَين.

***

تلاعب رهبان النصارى بعوامهم

الخوارق التي تضل بها الشياطين لبني آدم، مثل تصور الشيطان بصورة شخص غائب أو ميت ونحو ذلك ضل بها خلق كثير من الناس من المنتسبين إلى المسلمين، أو إلى أهل الكتاب وغيرهم وهم بنو ذلك على مقدمتين:

إحداهما: أن من ظهرت هذه على يديه فهو ولي لله، وبلغة النصارى هو قديس عظيم.

الثانية: أن من يكون كذلك فهو معصوم، فكل ما يخبر به فهو حق، وكل ما يأمر به فهو عدل، وقد لا يكون ظهرت على يديه خوارق لا رحمانية، ولا شيطانية، ولكن صنع حيلة من حيل أهل الكذب، والفجور، وحيل أهل الكذب والفجور كثيرة جدا، فيظن أن ذلك من العجائب الخارقة للعادة، ولا يكون كذلك مثل الحيل المذكورة عن الرهبان.

- **وقد صنف بعض الناس مصنفًا في حيل الرهبان:**

مثل الحيلة المحكية عن أحدهم في جعل الماء زيتًا: بأن يكون الزيت في جوف منارة، فإذا نقص صب فيها ماء فيطفو الزيت على الماء، فيظن الحاضرون أن نفس الماء انقلب زيتًا.

ومثل الحيلة المحكية عنهم في ارتفاع النخلة: وهو أن بعضهم مر بدير راهب، وأسفل منه نخلة، فأراه النخلة صعدت شيئًا شيئًا حتى حاذت الدير، فأخذ من رطبها، ثم نزلت حتى عادت كما كانت، فكشف الرجل الحيلة، فوجد النخلة في سفينة في مكان منخفض إذا أرسل عليه الماء امتلأ حتى تصعد السفينة، وإذا صرف الماء إلى موضع آخر هبطت السفينة.

ومثل الحيلة المحكية عنهم في التكحل بدموع السيدة: يضعون كحلًا في ماء متحرك حركة لطيفة، فيسيل حتى ينزل من تلك الصورة، فيخرج من عينها، فيظن أنه دموع.

ومثل الحيلة التي صنعوها بالصورة التي يسمونها القوة بصيد نايا: وهي أعظم مزاراتهم بعد القمامة وبيت لحم، حيث ولد المسيح، وحيث قبر، فإن هذه صورة السيدة مريم، وأصلها خشبة نخلة سقيت بالأدهان حتى تنعمت، وصار الدهن يخرج منها دهنًا مصنوعًا، يظن أنه من بركة الصورة.

ومن حيلهم الكثيرة النار التي يظن عوامهم أنها تنزل من السماء في عيدهم في قمامة: وهي حيلة قد شهدها غير واحد من المسلمين والنصارى، ورأوها بعيونهم أنها نار مصنوعة يضلون بها عوامهم، يظنون أنها نزلت من السماء، ويتبركون بها، وإنما هي صنعة صاحب محال وتلبيس.

ومثل ذلك كثير من حيل النصارى، فجميع ما عند النصارى المبدلين لدين المسيح من الخوارق إما حال شيطاني وإما محال بهتاني ليس فيه شيء من كرامات الصالحين.

وكذلك أهل الإلحاد المبدلين لدين محمد ﷺ الذين يتخذون دينًا لم يشرعه اللَّه ورسوله، ويجعلونه طريقًا إلى الله، وقد يختارونه على الطريق التي شرعها اللَّه ورسوله، مثل أن يختاروا سماع الدفوف والشبابات على سماع كتاب اللَّه تعالى، فقد يحصل لأحدهم من الوجد والغرام الشيطاني ما يلبسه معه الشيطان حتى يتكلم على لسان أحدهم بكلام لا يعرفه ذلك الشخص إذا أفاق، كما يتكلم الجني على لسان المصروع، وقد يخبر بعض الحاضرين بما في نفسه، ويكون ذلك من الشيطان، فإذا فارق الشيطان ذلك

الشخص لم يدر ما قال.

ومنهم: من يحمله الشيطان ويصعد به قدام الناس في الهواء.

ومنهم: من يشير إلى بعض الحاضرين فيموت، أو يمرض، أو يصير مثل الخشبة.

ومنهم: من يشير إلى بعض الحاضرين فيلبسه الشيطان، ويزول عقله حتى يبقى دائرًا زمانًا طويلاً بغير اختياره.

ومنهم: من يدخل النار ويأكلها، ويبقى لهبها في بدنه وشعره.

ومنهم: من تحضر له الشياطين طعامًا، أو شيئًا من لادن، أو سكر، أو زعفران، أو ماء ورد، ومنهم من تأتيه بدراهم تسرقها الشياطين من بعض المواضع، ثم من هؤلاء من إذا فرق الدراهم على الحاضرين أخذت منهم فلا يمكنون من التصرف فيها، إلى أمور يطول وصفها.

وآخرون ليس لهم من يعينهم على ذلك من الشياطين، فيصنعون حيلاً ومخاريق، فالملحدون المبدلون لدين الرسل، دين المسيح، أو دين محمد - صلى اللَّه عليهما وسلم - هم كأمثالهم من أهل الإلحاد والضلال الكفار المرتدين والمشركين ونحوهم، كمسيلمة الكذاب، والأسود العنسي، والحارث الدمشقي، وبابا الرومي، وغيرهم ممن لهم خوارق شيطانية.

وأما أهل الحيل فيكثرون، وهؤلاء ليسوا أولياء الله، بل خوارقهم إذا كانت شيطانية من جنس خوارق الكهنة والسحرة، لم يكن لهم حال شيطاني بل محال بهتاني، فهم متعمدون للكذب والتلبيس، بخلاف من تقترن به الشياطين، فإن فيهم من يلتبس عليه، فيظن أن هذا من جنس كرامات الصالحين، كما أن فيهم من يعرف أن ذلك من الشياطين، ويفعله لتحصيل

أغراضه.

فالمقصود: أنه كثير من الخوارق ما يكون من الشياطين، أو يكون حيلاً ومخاريق، ويظن أنها من كرامات الصالحين، فإن ما يكون شبيه الشرك أو الفجور إنما يكون من الشيطان، مثل أن يشرك الرجل بالله، فيدعو الكواكب، أو يدعو مخلوقًا من البشر، ميتًا أو غائبًا، أو يعزم ويقسم بأسماء مجهولة لا يعرف معناها، أو يعرف أنها أسماء الشياطين، أو يستعين بالفواحش والظلم، فإن ما كان هذا سببه من الخوارق فهو من الشيطان، كما قد بسط الكلام على ذلك في غير هذا الموضع.

والصالحون لهم كرامات مثل كرامات صالحي هذه الأمة، ومثل كرامات الحواريين وغيرهم، ممن كان على دين المسيح، لكن وجود الكرامات على أيدي الصالحين لا توجب أن يكونوا معصومين كالأنبياء، لكن يكون الرجل صالحًا وليًا لله وله كرامات، ومع هذا فقد يغلط ويخطئ فيما يظنه، أو فيما يسمعه ويرويه، أو فيما يراه، أو فيما يفهمه من الكتب، ولهذا كان كل من سوى الأنبياء يؤخذ من قولهم ويترك، بخلاف الأنبياء - صلوات الله عليهم أجمعين - ، فإنه يجب تصديقهم في كل ما أخبروا به من الغيب، وطاعتهم في كل ما أمروا به، ولهذا أوجب الله الإيمان بما أوتوه، ولم يوجب الإيمان بجميع ما يأتي به غيرهم؛ قال تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾ [البقرة: ١٣٦]، وقال تعالى: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

ولهذا اتفق المسلمون على أن من كذب نبيًّا معلوم النبوة فهو كافر مرتد، ومن سب نبيًّا وجب قتله، بل يجب الإيمان بجميع ما أوتيه النبيون كلهم، وأن لا نفرق بين أحد منهم، فنؤمن ببعض ونكفر ببعض، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١]، وليس هذا لأحد غير الأنبياء، ولو كان من رسل الأنبياء، وكانوا من أعظم الصديقين المقدمين.

- **فضلال الضلال من هؤلاء مبني على مقدمتين:**

إحداهما: أن هذا له كرامة فيكون وليًّا لله.

والثانية: أن ولي اللَّه لا يجوز أن يخطئ، بل يجب تصديقه في كل ما أخبر وطاعته في كل ما أمر، وليس لأحد من البشر أن يصدق في كل ما أخبر به ويطاع في كل أمر إلا أن يكون نبيًّا.

والمقدمتان المذكورتان قد تكون إحداهما باطلة، وقد يكون كلاهما باطلًا، فالرجل المعين قد لا يكون من أولياء اللَّه تكون خوارقه من الشياطين، وقد يكون من أولياء اللَّه ولكن ليس بمعصوم، بل يجوز عليه الخطأ، وقد لا يكون من أولياء الله، ولا يكون له خوارق ولكن له محالات وأكاذيب»[(١)].

* * *

(١) «الجواب الصحيح» (٢/ ٣١٥- ٣٤٥).

التناقضات في الأناجيل

وأما الإنجيل فهي أربعة أناجيل: أخذت عن أربعة نفر، اثنان منهم لم يريا المسيح أصلاً، واثنان رأياه واجتمعا به، وهما متَّى ويوحنا، وكل منهم يزيد وينقص، ويخالف إنجيله إنجيل أصحابه في أشياء، وفيها ذكر القول ونقيضه، كما فيه أنه قال: «إن كنت أشهد لنفسي فشهادتي غير مقبولة، ولكن غيري يشهد لي». وقال في موضع آخر: «إن كنت أشهد لنفسي فشهادتي حق؛ لأني أعلم من أين جئت، وإلى أين أذهب».

وفيه: «أنه لما استشعر بوثوب اليهود عليه، قال: قد جزعت نفسي الآن، فماذا أقول يا أبتاه؟! سلمني من هذا الوقت». وأنه لما رفع على خشبة الصلب صاح صياحًا عظيمًا، وقال: «**يا إلهي، لم أسلمتني؟!**».

فكيف يجتمع هذا مع قولكم: «إنه هو الذي اختار إسلام نفسه إلى اليهود ليصلبوه ويقتلوه؛ رحمة منه بعباده حتى فداهم بنفسه من الخطايا، وأخرج بذلك آدم ونوحًا وإبراهيم وموسى وجميع الأنبياء من جهنم بالحيلة التي دبرها على إبليس؟!».

وكيف يجزع إله العالم من ذلك؟!

وكيف يسأل السلامة منه وهو الذي اختاره ورضيه؟!

وكيف يشتد صياحه ويقول: «**يا إلهي، لم أسلمتني**». وهو الذي أسلم نفسه؟!.

وكيف لم يخلصه أبوه مع قدرته على تخليصه وإنزال صاعقة على الصليب وأهله؟! أم كان ربًّا عاجزًا مقهورًا مع اليهود؟!

وفيه أيضًا أن اليهود سألته أن يظهر لهم برهانًا أنه المسيح، فقال: «**تهدمون هذا البيت**». يعني بيت المقدس، وأبنيه لكم في ثلاثة أيام». فقالوا له: «بيت مبنيٌّ في خمس وأربعين سنة، تبنيه أنت في ثلاثة أيام؟!».

ثم ذكرتم في الإنجيل أيضًا أنه لما ظفرت به اليهود، وحُمل إلى بلاط عامل قيصر، واستدعيت عليه بينة أن شاهدي زور جاءا إليه وقالا: سمعناه يقول: أنا قادر على بنيان بيت المقدس في ثلاثة أيام؟!

فياللَّه العجب كيف يُدعى أن تلك المعجزة والقدرة له، ويدعي أن الشاهدين عليه بها شاهدا زور؟!

وفيه أيضًا للوقا أن المسيح قال لرجلين من تلامذته: «اذهبا إلى الحصن الذي يقابلكما، فإذا دخلتماه فستجدان فَلُوًّا مربوطًا لم يركبه أحد، فحِلَّاه وأقبلا به إليَّ».

وقال في إنجيل متَّى في هذه القصة أنها كانت حمارة مُتْبِعَة[1].

وفيه أنه قال: «لا تحسبوا أني قدمت لأصلح بين أهل الأرض، لم آت لصلاحهم، لكن لألقي المحاربة بينهم، إنما قدمت لأفرق بين المرء وابنه، والبنت وأمها، حتى يصير أعداء المرء أهل بيته».

ثم فيه أيضًا: «إنما قدمت لتحيوا وتزدادوا خيرًا، وأصلح بين الناس».

وأنه قال: «**من لطم خدك اليمين فانصب له الآخر**».

وفيه أيضًا أنه قال: «طوبا لك يا شمعون، رأس الجماعة، وأنا أقول: إنك ابن الحجر وعلى هذا الحجر تبني بيعتي، فكلما أحللته على الأرض يكون محللاً في السماء، وما عقدته على الأرض يكون معقودًا في السماء».

---

(١) هي التي يَتْبَعُها ولدها حيثما أَقبلت وأَدبرت. «اللسان» (ت ب ع).

ثم فيه بعينه بعد أسطر يقول له: «**اذهب يا شيطان ولا تعارض، فإنك جاهل**».

فكيف يكون شيطان جاهل مطاع في السموات؟!

وفي الإنجيل نص: «إنه لم تلد النساء مثل يحيى». هذا في إنجيل متَّى.

وفي إنجيل يوحنا: «إن اليهود بعثت إلى يحيى من يكشف عن أمره، فسألوه من هو، أهو المسيح؟ قال: لا. قالوا: تراك إلياس؟ قال: لا. قالوا: أنت نبي؟ قال: لا. قالوا: أخبرنا، من أنت؟ قال: أنا صوت مناد المفاوز». ولا يجوز لنبي أن ينكر نبوته؛ فإنه يكون مخبرًا بالكذب.

ومن العجب أن في إنجيل متَّى نسبة المسيح إلى أنه ابن يوسف، فقال: عيسى بن يوسف بن فلان، ثم عد إلى إبراهيم الخليل تسعة وثلاثين أبًا؟!

ثم نسبه لوقا أيضًا في إنجيله إلى يوسف، وعد منه إلى إبراهيم نيفًا وخمسين أبًا؟!

فبينا هو إله تام إذ صيروه ابن الإله.

ثم تواطؤ اليهود والنصارى على تغيير بعض النسخ غير ممتنع من مثالب النصارى؟!

والمقصود: أن هذا الاضطراب في الإنجيل يشهد بأن التغيير وقع فيه قطعًا، ولا يمكن أن يكون ذلك من عند الله، بل الاختلاف الكثير الذي فيه يدل على أن ذلك الاختلاف من عند غير الله، وأنت إذا اعتبرت نسخه ونسخ التوراة التي بأيدي اليهود والسامرة والنصارى رأيتها مختلفة اختلافًا يقطع مَن وقف عليه بأنه من جهة التغيير والتبديل، وكذلك نسخ الزبور مختلفة جدًّا، ومن المعلوم أن نسخ التوراة والإنجيل إنما هي عند رؤساء اليهود والنصارى، وليست عند

عامتهم، ولا يحفظونها في صدورهم كحفظ المسلمين للقرآن، ولا يمتنع على الجماعة القليلة التواطؤ على تغيير بعض النسخ، ولا سيما إذا كان بقيتهم لا يحفظونها، فإذا قصد طائفة منهم تغيير نسخة أو نسخ عندهم أمكن ذلك، ثم إذا تواطئوا على أن لا يذكروا ذلك لعوامهم وأتباعهم أمكن ذلك، وهذا واقع في العالم كثيرًا، فهؤلاء اليهود تواطئوا وتواصوا بكتمان نبوة المسيح، وجحد البشارة به وتحريفها، واشتهر ذلك بين طائفتهم في الأرض، مشارقها ومغاربها.

وكذلك تواطئوا على أنه كان طبيبًا ساحرًا مُمَخْرِقًا[1]، ابن زانية! وتواصَوا به - مع رؤيتهم الآيات الباهرات التي أرسل بها، وعلمهم أنه أبعد خلق اللَّه مما رمي به - وشاع ما تواطئوا عليه، وملئوا به كتبهم شرقًا وغربًا.

وكذلك تواطئوا على أن لوطًا نكح ابنتيه وأولدهما أولادًا، وشاع ذلك فيهم جميعهم، فصرعه يعقوب، وأنه راقد عنهم، وإنهم يسألونه أن ينتبه من رقدته، وشاع ذلك في جميعهم.

وكذلك تواطئوا على فصول لفقوها بعد زوال مملكتهم يصلون بها، لم تعرف عن موسى ولا عن أحد من أتباعه، كقولهم في صلاتهم: «اللهم اضرب ببوق عظيم لعتقنا، واقبضنا جميعًا من أربعة أقطار الأرض إلى قدسك، سبحانك يا جامع تشتيت قوم إسرائيل». وقولهم فيها: «اردد حكامنا منا كالأولين، وسيرتنا كالابتداء، وابن أورشليم قرية قدسك في أيامنا، وأعزنا ببنائها، سبحانك يا باني أورشليم!». ولم يكن موسى وقومه يقولون في صلاتهم شيئًا من ذلك، وكذلك تواطؤهم على قولهم في صلاتهم

(١) المُمَخْرَق المُمَوِّه وهي المَخْرقةُ مأخوذة من مَخاريق الصبيان «اللسان» (مخرق).

أول العام ما حكيناه عنهم، وكذلك تواطؤهم على شرع صوم إحراق بيت المقدس، وصوم حصا، وصوم كدليا، وفرضهم ذلك، وصوم صَلب هامان، وقد اعترفوا بأنهم زادوها لأسباب اقتضتها، وتواطئوا بذلك على مخالفة ما نصت عليه التوراة من قوله: «**لا تزيدوا على الأمر الذي أنا موصيكم به شيئًا، ولا تنقصوا منه شيئًا**». فتواطئوا على الزيادة والنقصان، وتبديل أحكام الله، كما تواطئوا على تعطيل فريضة الرجم على الزاني، وهو في التوراة نصًّا.

وكذلك تواطؤهم على امتناع النسخ على اللَّه فيما شرعه لعبادة؛ تمسكًا منهم باليهودية، وقد أكذبتهم التوراة وسائر النبوات.

ومن العجائب حجرهم على اللَّه أن ينسخ ما شرعه؛ لئلا يلزم البداء، ثم يقولون: «**إنه ندم وبكي على الطوفان، وعاد في رأيه، وندم على خلق الإنسان!!**». وهذه مضارعة لإخوانهم من عباد الصليب، الذين نزهوا رهبانهم عن الصاحبة والولد، ثم نسبوهما إلى الفرد الصمد!!

ومن ذلك تواطؤهم على أن الملك يعود إليهم، وترجع الملل كلها إلى ملة اليهودية، ويصيرون قاهرين لجميع أهل الملل!

ومن ذلك تواطؤهم على تعطيل أحكام التوراة وفرائضها، وتركها في جل أمورهم، إلا اليسير منها، وهم معترفون بذلك، وأنه أكبر أسباب زوال ملكهم وعزهم، فكيف يُنكر من طائفة تواطأت على تكذيب المسيح وجحد نبوته وبهته وبهت أمه، والكذب الصريح على الله، وعلى أنبيائه، وتعطيل أحكام الله، والاستبدال بها، وعلى قتلهم أنبياء الله - أن تتواطأ على تحريف بعض التوراة، وكتمان نعت محمد رسول اللَّه ﷺ وصفته فيها؟!

وأما أمة الضلال، وعباد الصليب والصور المزوقة في الحيطان، وإخوان الخنازير، وشتموا خالقهم ورازقهم أقبح شتم، وجاعلوه مصفعة اليهود، وتواطؤهم على ذلك، وعلى ضروب المستحيلات، وأنواع الأباطيل.

فلا إله إلا اللَّه الذي أبرز للوجود مثل هذه الأمة التي هي أضل من الحمير، ومن جميع الأنعام السائمة.

وخلى بينهم وبين سبه وشتمه، وتكذيب عبده ورسوله، ومعاداة حزبه وأوليائه، وموالاة الشيطان.

والتعوض بعبادة الصور والصلبان عن عبادة الرحمن الرحيم!

وعن قول: اللَّه أكبر. بالتصليب على الوجه! وعن قراءة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝﴾ [الفاتحة: ٢ -٤] بـ«**اللهم أعطنا خبزنا الملائم لنا**»!

وعن السجود للواحد القهار بالسجود للصور المدهونة في الحائط بالأحمر والأصفر واللازورد(١).

فهذا بعض شأن هاتين الأمتين، اللتين عندهما آثار النبوة والكتاب، فما الظن بسائر الأمم الذين ليس عندهم من النبوة والكتاب حس ولا خبر، ولا عين ولا أثر؟!»(٢).

* * *

(١) هي من الأحجار الكريمة لونه أزرق سماوي، أو بنفسجي، يكثر في أفغانستان وأمريكا، يستعمل للزينة. «الوسيط».

(٢) «هداية الحيارى» (١/ ١١٢- ١١٥).

بيان ضلال المجوس

«ومن كيده وتلاعبه ما تلاعب بعباد النار حتى اتخذوها إلهًا معبودة.

وقد قيل: **«إن هذا كان من عهد قابيل»**. كما ذكر أبو جعفر محمد بن جرير: «أنه لما قتل قابيلُ هابيلَ، وهرب من أبيه آدم عليه السلام، أتاه إبليس، فقال له: إن هابيل إنما قبل قربانه وأكلته النار؛ لأنه كان يخدمها ويعبدها، فانصِبْ أنت أيضًا نارًا تكون لك ولعقبك. فبنى بيت نار، فهو أول من نصب النار وعبدها»(١).

وسرى هذا المذهب في المجوس، فبنوا لها بيوتًا كثيرة، واتخذوا لها الوقوف والسدنة والحجَّاب، فلا يدعوها تخمد لحظة واحدة، فاتخذ لها إفريدون بيتًا بطوس، وآخر ببخارى، واتخذ لها بهمن بيتًا بسجستان، واتخذ لها أبو قباذ بيتًا بناحية بخارى، واتُخذت لها بيوت كثيرة، وعباد النار يفضلونها على التراب ويعظمونها، ويصوِّبون رأي إبليس، وقد رمي بشار بن برد بهذا المذهب لقوله في قصيدته:

الأرضُ سافلةٌ سوداءُ مظلمةٌ والنارُ معبودةٌ مذ كانت النار

ويقولون: إنها أوسع العناصر خيرًا، وأعظمها جرمًا، وأوسعها مكانًا، وأشرفها جوهرًا، وألطفها جرمًا، ولا كون في العالم إلا بها، ولا نمو ولا انعقاد إلا بممازجتها!

ومن عبادتهم لها: أن يحفروا لها أخدودًا مربعًا في الأرض، ويطوفون به.

(١) ذكره ابن جرير في «تاريخه» (١/ ١٠٤).

وهم أصناف مختلفة، فمنهم من يحرم إلقاء النفوس فيها، وإحراق الأبدان بها، وهم أكثر المجوس، وطائفة أخرى منهم تبلغ بهم عبادتهم لها إلى أن يقربوا أنفسهم وأولادهم لها، وهؤلاء أكثر ملوك الهند وأتباعهم، ولهم سنة معروفة في تقريب نفوسهم وإلقائهم فيها، فيعمد الرجل الذي يريد أن يفعل ذلك بنفسه، أو بولده، أو حبيبه، فيحمله ويلبسه أحسن اللباس، وأفخر الحلي، ويركبه أعلى المراكب، وحوله المعازف والطبول، والبوقات فيزف إلى النار أعظم من زفافه ليلة عرسه، حتى إذا ما قابلها ووقف عليها وهي تأجج، طرح نفسه فيها! فضج الحاضرون ضجة واحدة بالدعاء له وغبطته على ما فعل، فلا يلبث إلا يسيرًا حتى يأتيهم الشيطان في صورته وشكله وهيأته، لا ينكرون منه شيئًا فيأمرهم بأمره، ويوصيهم بما يوصيهم به، ويوصيهم بالتمسك بهذا الدين، ويخبرهم أنه صار إلى جنة ورياض وأنهار، وأنه لم يتألم بمس النار له، فلا يهولنهم ذلك ولا يمنعهم عن أن يفعلوا مثله!

ومنهم زهاد وعباد يجلسون حول النار صائمين عاكفين عليها، ومن سنتهم الحث على الأخلاق الجميلة، كالصدق، والوفاء، وأداء الأمانة، والعفة، والعدل، وترك أضدادها، ولهؤلاء شرائع في عبادتها ونواميس وأوضاع لا يخلُّون بها.

ومن كيده وتلاعبه: تلاعبه بطائفه أخرى تعبد الماء من دون الله، وتسمى الحلبانية.

وتزعم أن الماء لما كان أصل كل شيء، وبه كل ولادة ونمو ونشوء، وطهارة وعمارة، وما من عمل في الدنيا إلا ويحتاج إلى الماء فكان حقه أن يعبد!

ومن شريعتهم في عبادته: أن الرجل منهم إذا أراد عبادته تجرد وستر عورته، ثم دخل فيه حتى يصير إلى وسطه، فيقيم هناك ساعتين، أو أكثر بقدر ما أمكنه، ويكون معه ما يمكنه أخذه من الرياحين، فيقطعها صغارًا، فيلقيها فيه شيئًا فشيئًا، وهو يسبحه ويمجده، فإذا أراد الانصراف حرك الماء بيديه، ثم أخذ منه فيضعه على رأسه ووجهه وجسده، ثم يسجد وينصرف!

ومن تلاعبه: تلاعبه بعباد الحيوانات فطائفة عبدت الخيل، وطائفة عبدت البقر، وطائفة عبدت البشر، الأحياء والأموات، وطائفة تعبد الشجر، وطائفة تعبد الجن[1]، كما قال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١].

وقال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [يس: ٦٠، ٦١].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأنعام: ١٢٨]؛ يعني: قد استكثرتم من إضلالهم وإغوائهم.

قال ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم: «أضللتم منهم كثيرًا»[2].

---

(١) ومن العجيب أن في الهند تقام المعابد الفخمة الضخمة التي تقدم لها القرابين وترسل لها البذور ولكن! أتعلم يا ترى ما هي الآلهة التي تعبد في هذه المعابد؟! إنها الفئران نعم إنها الفئران!!!

«مقارنة الأديان» (ص٣٧). ط: دار النفائس، الطبعة الرابعة.

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٨/ ٣٣) بأسانيده إلى ابن عباس ومجاهد والحسن.

فيجيبه سبحانه أولياؤهم من الإنس بقولهم: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾؛ يعنون: استمتاع كل نوع بالنوع الآخر، فاستمتاع الجن بالإنس طاعتهم لهم فيما يأمرونهم به من الكفر والفسوق والعصيان، فإن هذا أكثر أغراض الجن من الإنس، فإذا أطاعوهم فيه، فقد أعطوهم مُنَاهم، واستمتاع الإنس بالجن أنهم أعانوهم على معصية اللَّه تعالى والشرك به بكل ما يقدرون عليه: من التحسين، والتزيين، والدعاء، وقضاء كثير من حوائجهم، واستخدامهم بالسحر، والعزائم، وغيرها.

فأطاعهم الإنس فيما يرضيهم من الشرك، والفواحش والفجور، وأطاعتهم الجن فيما يرضيهم من التأثيرات، والإخبار ببعض المغيبات.

فتمتع كل من الفريقين بالآخر.

وهذه الآية منطبقة على أصحاب الأحوال الشيطانية الذين لهم كشوف شيطانية، وتأثير شيطاني، فيحسبهم الجاهل أولياء الرحمن، وإنما هم من أولياء الشيطان؛ أطاعوه في الإشراك، ومعصية الله، والخروج عما بعث به رسله، وأنزل به كتبه، فأطاعهم في أن خدمهم بإخبارهم بكثير من المغيبات والتأثيرات، واغتر بهم مَن قلَّ حظه من العلم والإيمان، فوالى أعداء الله، وعادى أولياءه، وحسن الظن بمن خرج عن سبيله وسنته، وأساء الظن بمن اتبع سنة الرسول وما جاء به، ولم يدعها لأقوال المختلفين وآراء المتحيرين، وشطحات المارقين، وترهات المتصوفين.

والبصير الذي نور اللَّه بصيرته بنور الإيمان والمعرفة إذا عرف حقيقة ما عليه أكثر هذا الخلق، وكان ناقدًا لا يروج عليه الزغل، تبين له أنهم داخلون تحت حكم هذه الآية، وهي منطبقة عليهم.

فالفاسق يستمتع بالشيطان؛ بإعانته له على أسباب فسوقه، والشيطان يستمتع به في قبوله منه وطاعته له، فيسره ذلك، ويفرح به منه.

والمشرك يستمتع به الشيطان بشركه به وعبادته له، ويستمتع هو بالشيطان في قضاء حوائجه وإعانته له.

ومن لم يحط علمًا بهذا لم يعلم حقيقة الإيمان والشرك، وسرَّ امتحان الرب سبحانه كلًّا من الثقلين بالآخر.

ثم قالوا: ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ وهو يتناول أجل الموت وأجل البعث، فكلاهما أجل أجله اللَّه تعالى لعباده، وهما الأجلان اللذان قال اللَّه فيهما: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ [الأنعام: ٢].

وكأن هذا - واللَّه أعلم - إشارة منهم إلى نوع استعطاف وتوبة، فكأنهم يقولون: هذا أمر قد كان إلى وقت وانقطع بانقطاع أجله، فلم يستمر ولم يدم فبلغ الأمر الذي كان أجله وانتهى إلى غايته، ولكل شيء آخِر.

فقال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾، فإنه وإن انقطع زمن التمتع، وانقضى أجله، فقد بقي زمن العقوبة، فلا يتوهم أنه إذا انقصى زمن الكفر والشرك، وتمتع بعضكم ببعض، أن مفسدته زالت بزواله وانتهت بانتهائه.

والمقصود: أن الشيطان تلاعب بالمشركين حتى عبدوه واتخذوه وذريته أولياء من دون الله.

ومن تلاعبه بهم: أن زين لقوم عبادة الملائكة، فعبدوهم بزعمهم.

ولم تكن عبادتهم في الحقيقة لهم، ولكن كانت للشياطين، فعبدوا أقبح خلق الله، وأحقهم باللعن والذم، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ

كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [الفرقان: ١٧ - ١٩].

- **وهذه الآيات تحتاج إلى تفسير وبيان:**

فقوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾. عام في كل عابد ومن عبده من دون الله.

وأما قوله: ﴿فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾. فقال مجاهد فيما رواه ورقاء عن ابن أبي نجيح عنه، قال: «**هذا خطاب لعيسى، وعزير، والملائكة**»[1]. وروى عنه ابن جريج نحوه[2].

وأما عكرمة والضحاك والكلبي فقالوا: «**هو عام في الأوثان وعبدتها**»[3].

ثم يأذن سبحانه لها في الكلام فيقول: ﴿فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾.

قال مقاتل: «يقول سبحانه: أأنتم أمرتموهم بعبادتكم أم هم ضلوا السبيل؟ أي: أم هم أخطئوا الطريق؟».

فأجاب المعبودون بما حكى اللّه عنهم من قولهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾.

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١٨/ ١٨٩)

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١٨/ ١٩٠)

(٣) ذكره القرطبي (١٣/ ١٣) والشوكاني (٤/ ٩٧) في «تفسيريهما».

وهذا الجواب إنما يحسن من الملائكة، والمسيح، وعزير، ومن عبدهم المشركون من أولياء الله.

ولهذا قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: قالت الملائكة وعيسى الذين كان هؤلاء المشركون يعبدونهم من دون الله: تنزيهًا لك يا ربنا وتبرئة مما أضاف إليك هؤلاء المشركون، ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء نواليهم، بل أنت ولينا من دونهم».

وقال ابن عباس ومقاتل: «نزهوا اللَّه وعظموه أن يكون معه إله».

وفيها قراءتان: أشهرهما (نَتخِذَ) بفتح النون وكسر الخاء؛ على البناء للفاعل، وهي قراءة السبعة، والثانية (نُتخَذَ) بضم النون وفتح الخاء؛ على البناء للمفعول، وهي قراءة الحسن ويزيد بن القعقاع.

وعلى كل واحدة من القراءتين إشكال:

فأما قراءة الجمهور: فإن اللَّه سبحانه إنما سألهم: هل أضلوا المشركين بأمرهم إياهم بعبادتهم، أم هم ضلوا السبيل باختيارهم وأهوائهم؟ وكيف يكون هذا الجواب مطابقًا للسؤال؟ فإنه لم يسألهم: هل اتخذتم من دوني من أولياء؟ حتى يقولوا: ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾. وإنما سألهم: هل أمرتم عبادي هؤلاء بالشرك؟ أم هم أشركوا مِن قِبل أنفسهم؟ فالجواب المطابق أن يقولوا: لم نأمرهم بالشرك، وإنما هم آثروه وارتضوه. أو: لم نأمرهم بعبادتنا. كما قال في الآية الأخرى عنهم: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ ۝٦٣﴾ [القصص: ٦٣].

فلما رأى أصحاب القراءة الأخرى ذلك، فروا إلى بناء الفعل للمفعول،

وقالوا: الجواب يصح على ذلك ويطابق؛ إذ المعنى: ليس يصلح لنا أن نُعبد ونُتخذ آلهة، فكيف نأمرهم بما لا يصلح لنا ولا يحسن منا.

ولكن لزم هؤلاء من الإشكال أمر آخر، وهو قوله: ﴿مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾. فإن زيادة (من) لا يحسن إلا مع قصد العموم، كما تقول: ما قام من رجل. و: ما ضربت من رجل. فأما إذا كان النفي واردًا على شيء مخصوص، فإنه لا يحسن زيادة (من) فيه، وهم إنما نفوا عن أنفسهم ما نسب إليهم من دعوى المشركين أنهم أمروهم بالشرك، فنفوا عن أنفسهم ذلك بأنه لا تحسن منهم ولا يليق بهم أن يعبدوا، فكيف ندعوا عبادك إلى أن يعبدونا؟ فكان الواجب على هذا أن تقرأ: ما كان ينبغي لنا أن نتخذ أولياء من دونك. أو: من دونك أولياء.

فأجاب أصحاب القراءة الأولى بوجوه:

أحدها: أن المعنى ما كان ينبغي لنا أن نعبد غيرك، ونتخذ غيرك وليًّا ومعبودًا، فكيف ندعو أحدًا إلى عبادتنا؟ أي: إذا كنا نحن لا نعبد غيرك، فكيف ندعو أحدًا إلى أن يعبدنا. والمعنى: أنهم إذا كانوا لا يرون لأنفسهم عبادة غير اللّه تعالى، فكيف يدعون غيرهم إلى عبادتهم؟ وهذا جواب الفراء.

وقال الجرجاني: هذا بالتدريج يصير جوابًا للسؤال الظاهر، وهو أن من عبد شيئًا فقد تولاه، وإذا تولاه العابد صار المعبود وليًّا للعابد، يدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾[1].

---

(١) في «تفسيره» (١٨/ ١٩٠).

فدل على أن العابد يصير وليًّا للمعبود، ويصير المعنى كأنهم قالوا: ما كان ينبغي لنا أن نأمر غيرنا باتخاذنا أولياء، وأن نتخذ من دونك وليًّا يعبدنا، وهذا بسط لقول ابن عباس في هذه الآية.

قال: «**يقولون: ما توليناهم ولا أحببنا عبادتهم**». **قال**: ويحتمل أن يكون قولهم: ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾. أن يريدوا معشر العبيد لا أنفسهم؛ أي: نحن وهم عبيدُك، ولا ينبغي لعبيدك أن يتخذوا من دونك أولياء. ولكنهم أضافوا ذلك إلى أنفسهم تواضعًا منهم، كما يقول الرجل لمن أتى منكرًا: ما كان ينبغي لي أن أفعل مثل هذا. أي: أنت مثلي عبد محاسب، فإذا لم يحسن من مثلي أن يفعل هذا لم يحسن منك أيضًا.

قال: ولهذا الإشكال قرأ من قرأ (نُتخذ) بضم النون، وهذه القراءة أقرب في التأويل.

لكن قال الزجاج: «**هذه القراءة خطأ؛ لأنك تقول: ما اتخذت من أحد وليًا. ولا يجوز: ما اتخذت أحدًا من ولي. لأن (من) إنما دخلت لأنها تنفي واحدًا من معنى جميع، تقول: ما من أحد قائمًا. و:ما من رجل محبًّا لما يضره. ولا يجوز: ما رجل من محب لما يضره.**

قال: ولا وجه عندنا لهذا البتة، ولو جاز هذا لجاز في: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقَّة: ٤٧] فلو لم تدخل (من) لصحت هذه القراءة.

قال صاحب النظم: العلة في سقوط هذه القراءة أن (من) لا تدخل إلا على مفعول لا مفعول دونه، فإذا كان قبل المفعول مفعول سواه لم يحسن دخول (من)، كقوله: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ [مريم: ٣٥] لا مفعول دونه سواه، ولو قال: ما كان لله أن يتخذ أحدًا من ولد؛ لم يحسن فيه دخول

(من)؛ لأن فعل الاتخاذ مشغول بـ(أحد).

وصحح آخرون هذه القراءة لفظًا ومعنى، وأجروها على قواعد العربية.

وقد قرأ بها من لا يرتاب في فصاحته، فقرأ بها زيد بن ثابت، وأبو الدرداء، وأبو جعفر، ومجاهد، ونصر بن علقمة، ومكحول، وزيد بن علي، وأبو رجاء، والحسن وحفص بن حميد، ومحمد بن علي، على خلاف عن بعض هؤلاء، ذكر ذلك أبو الفتح بن جني، ثم وجهها بأن يكون (من أولياء) في موضع الحال؛ أي: ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك أولياء، ودخلت (من) زائدة لمكان النفي، كقولك: اتخذت زيدًا وكيلاً. فإذا نفيت قلت: ما اتخذت زيدًا من وكيل. وكذلك: أعطيته درهمًا. و: ما أعطيته من درهم. وهذا في المفعول فيه.

قلت: يعني أن زيادتها مع الحال كزيادتها مع المفعول.

ونظير ذلك أن تقول: ما ينبغي لي أن أخدمك متثاقلاً. فإذا أكدت؛ قلت: من متثاقل.

فإن قيل: فقد صحت القراءتان لفظًا ومعنى، فأيهما أحسن؟

قلت: قراءة الجمهور أحسن وأبلغ في المعنى المقصود، والبراءة مما لا يليق بهم، فإنهم على قراءة الضم يكونون قد نفوا حسن اتخاذ المشركين لهم أولياء، وعلى قراءة الجمهور يكونون قد أخبروا أنهم لا يليق بهم ولا يحسن منهم أن يتخذوا وليًا من دونه، بل أنت وحدك ولينا ومعبودنا، فإذا لم يحسن بنا أن نشرك بك شيئًا، فكيف يليق بنا أن ندعو عبادك إلى أن يعبدونا من دونك، وهذا المعنى أجل من الأول وأكبر. فتأمله.

والمقصود: أنه على القراءتين، فهذا الجواب من الملائكة ومن عُبد من

دون اللَّه من أوليائه، وأما كونه من الأصنام فليس بظاهر.

وقد يقال: إن اللَّه سبحانه أنطقها بذلك؛ تكذيبًا لهم، وردًّا عليهم، وبراءة منهم، كقوله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة: ١٦٦]، وفي الآية الأخرى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [القصص: ٦٣].

ثم ذكر المعبودون سبب ترك العابدين الإيمان باللَّه تعالى بقولهم: ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا﴾.

قال ابن عباس: «أطلتَ لهم العمر، وأفضلتَ عليهم، ووسعتَ لهم في الرزق»[(١)].

وقال الفراء: «ولكنك متعتهم بالأموال والأولاد حتى نسوا ذكرك، وكانوا قومًا بورًا؛ أي: هلكى فاسدين قد غلب عليهم الشقاء والخذلان، والبوار: الهلاك والفساد. يقال: بارت السلعة. و: بارت المرأة. إذا كسدت ولم يحصل لها من يتزوجها».

قال قتادة: «واللَّه ما نسي قوم ذكر اللَّه ﷻ إلا باروا وفسدوا»[(٢)].

والمعنى: ما أضللناهم، ولكنهم ضلوا.

قال اللَّه تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾؛ أي: كذبكم المعبودون بقولكم فيهم: إنهم آلهة، وإنهم شركاء، أو بما تقولون إنهم أمروكم بعبادتهم ودعوكم إليها.

---

(١) راجع فتح القدير (٤/ ٩٧)، وزاد المسير (٦/ ٧٨).

(٢) أورده السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٤٢)، وعزاه لعبد بن حميد عنه.

وقيل: الخطاب للمؤمنين في الدنيا؛ أي: فقد كذبكم أيها المؤمنون هؤلاء المشركون بما تقولونه، مما جاء به محمد عن اللَّه من التوحيد والإيمان.

والأول أظهر وعليه يدل السياق.

ومن قرأها بالياء، آخر الحروف، فالمعنى فقد كذبوكم بقولهم، ثم قال: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾؛ إخبارًا عن حالهم يومئذٍ، وأنهم لا يستطيعون صرف العذاب عن أنفسهم ولا نصرها من الله.

قال ابن زيد: «ينادي منادٍ يوم القيامة حتى يجتمع الخلائق: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الصَّفات: ٢٥]، يقول: من عُبد من دون اللَّه لا ينصر اليوم من عبده، والعابد لا ينصر إلهه. ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الصَّفات: ٢٦]»[1].

فهذا حال عباد الشيطان يوم لقاء الرحمن، فواسوء حالهم حين امتيازهم عن المؤمنين إذا سمعوا النداء: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يس: ٥٩ - ٦٢]!

ومن تلاعبه وكيده تلاعبه بالثنوية: وهم طائفة قالوا: الصانع اثنان؛ ففاعل الخير نور، وفاعل الشر ظلمة، وهما قديمان لم يزالا ولن يزالا قويين حساسين مدركين سميعين بصيرين، وهما مختلفان في النفس والصورة، متضادان في الفعل والتدبير.

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١٨/ ١٩٣).

فالنور فاضل حسن نقي، طيب الريح، حسن المنظر، ونفسه خيرة كريمة، حكيمة نفاعة، منها الخيرات والمسرات والصلاح، وليس فيها شيء من الضرر، ولا من الشر.

والظلمة على ضد ذلك: من الكدر، والنقص، ونتن الريح، وقبح المنظر، ونفسها نفس شريرة بخيلة، سفيهة منتنة مضرة، منها الشر والفساد.

ثم اختلفوا، فقالت فرقة منهم: إن النور لم يزل فوق الظلمة.

وقالت فرقة: بل كل واحد منهما إلى جانب الآخر.

وقالت فرقة: النور لم يزل مرتفعًا في ناحية الشمال، والظلمة منحطة في الجنوب، ولم يزل كل واحد منهما مباينًا لصاحبه.

وزعموا أن لكل واحد منهما أربعة أبدان، وخامس هو الروح:

فأبدان النور الأربعة: النار، والنور، والريح، والماء، وروحه النسيم، ولم يزل يتحرك في هذه الأبدان.

وأبدان الظلمة الأربعة: الحريق، والظلمة، والسموم، والضباب، وروحها الدخان.

وسموا أبدان النور ملائكة، وسموا أبدان الظلمة شياطين وعفاريت.

وبعضهم يقول: الظلمة تتولد شياطين، والنور يتولد ملائكة، والنور لا يقدر على الشر ولا يجيء منه، والظلمة لا تقدر على الخير ولا يجيء منها.

ولهم مذاهب سخيفة جدًّا!!

وفرض عليهم صوم سبع العمر، وأن لا يؤذي أحدهم ذا روح البتة.

وأن شريعتهم أن لا يدخروا إلا قوت يوم، وتجنب الكذب، والبخل، والسحر، وعبادة الأوثان، والزنا، والسرقة.

واختلفوا: هل الظلمة قديمة أو حادثة؟

فقالت فرقة منهم: هي قديمة لم تزل مع النور.

وقالت فرقة: بل النور هو القديم، ولكنه فكر فكرة رديئة حدثت منها الظلمة.

فدار مذهبهم على أصلين من أبطل الباطل:

أحدهما: أن شر الموجودات وأخبثها وأردأها كفؤ لخير الموجودات، وضد له، ومناوئ له، يعارضه ويضاده، ويناقضه دائمًا، ولا يستطيع دفعه.

وهذا أعظم من شرك عباد الأصنام الذين عبدوها لتقربهم إلى اللَّه تعالى، فإنهم جعلوها مملوكة له مربوبة مخلوقة، كما كانوا يقولون في تلبيتهم: «**لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه ومالك**».

والأصل الثاني: أنهم نزَّهو النور أن يصدره منه شر، ثم جعلوه منبع الشر كله وأصله ومولده، وأثبتوا إلهين وربين وخالقين، فجمعوا بين الكفر باللَّه تعالى، وأسمائه وصفاته ورسله وأنبيائه وملائكته وشرائعه، وأشركوا به أعظم الشرك.

وحكى أرباب المقالات عنهم: أن قومًا منهم يقال لهم الديصانية زعموا أن طينة العالم كانت طينة خشنة، وكانت تحاكي جسم النور الذي هو الباري عندهم زمانًا، فتأذى بها، فلما طال ذلك عليه، قصد تنحيتها عنه، فتوحل فيها، واختلط بها، فتركب من بينهما هذا العالم المشتمل على النور والظلمة، فما كان من جهة الصلاح فمن النور، وما كان من جهة الفساد فمن الظلمة.

قال: وهؤلاء يغتالون الناس ويخنقونهم، ويزعمون أنهم يحسنون إليهم

بذلك، وأنهم يخلصون الروح النورانية من الجسد المظلم.

وقال بعضهم: إن الباري سبحانه لما طالت وحدته استوحش، ففكر فكرة سوء فتجسمت فكرته، فاستحالت ظلمة، فحدث منها إبليس، فرام الباري إبعاده عن نفسه، فلم يستطع، فتحرز منه بخلق الجنود والخيرات، فشرع إبليس في خلق الشر.

وأصل عقد مذهبهم الذي عليه خواصهم: إثبات القدماء الخمسة:

الباري، والزمان، والخلاء، والهيولي، وإبليس، فالباري خالق الخيرات، وإبليس خالق الشرور، وكان محمد بن زكريا الرازي على هذا المذهب، لكنه لم يثبت إبليس، فجعل مكانه النفس، وقال بقدم الخمسة، مع ما رشحه به من مذاهب الصابئة، والدهرية، والفلاسفة، والبراهمة، فكان قد أخذ من كل دين شر ما فيه، وصنف كتابًا في إبطال النبوات، ورسالة في إبطال المعاد، فركب مذهبًا مجموعًا من زنادقة العالم.

وقال: أنا أقول إن الباري، والنفس، والهيولي، والمكان، والزمان، قدماء، وأن العالم محدث.

فقيل له: فما العلة في إحداثه؟

فقال: إن النفس اشتهت أن تحبل في هذا العالم وحركتها الشهوة لذلك، ولم تعلم ما يلحقها من الوبال إذا حبلت فيه، فاضطربت وحركت الهيولي حركات مشوشة مضطربة على غير نظام، وعجزت عما أرادت، فأعانها الباري على إحداث هذا العالم، وحملها على النظام والاعتدال، وعلم أنها إذا ذاقت وبال ما اكتسبته عادت إلى عالمها، وسكن اضطرابها، وزالت شهواتها، واستراحت، فأحدثت هذا العالم بمعاونة الباري لها.

قال: ولولا ذلك لما قدرت على إحداث هذا العالم، ولولا هذه العلة لما حدث هذا العالم.

ولولا أن اللَّه سبحانه يحكي عن المشركين والكفار أقوالاً أسخف من هذا وأبطل لاستحيى العاقل من حكاية مثل هذا، ولكن اللَّه سبحانه سن لنا حكاية أقوال أعدائه.

وفي ذلك من قوة الإيمان وظهور جلالته، ومعرفة قدره، وتمام نعمة اللَّه تعالى على أهله به، ومعرفة قدر خذلانه للعبد، وإلى أي شيء يصيره الخذلان حتى يصير ضحكة لكل عاقل، فأي ضلال وأي خذلان أعجب ممن أن يفني عمره في النظر والبحث، وهذا غاية علمه باللَّه ﷻ وبالمبدأ والمعاد؟!!

والمجوس: تعظم الأنوار والنيران، والماء والأرض، ويقرون بنبوة زرادشت، ولهم شرائع يصيرون إليها، وهم فرق شتى:

منهم المزدكية، أصحاب مزدك الموبذ، والموبذ عندهم: العالم القدوة، وهؤلاء يرون الاشتراك في النساء والمكاسب كما يشترك في الهواء والطرق وغيرها.

ومنهم الخرمية، أصحاب بابك الخرمي، وهم شر طوائفهم، لا يقرون بصانع ولا معاد ولا نبوة، ولا حلال ولا حرام، وعلى مذهبهم طوائف القرامطة، والإسماعلية، والنصيرية، والبشكية، والدرزية، والحاكمية، وسائر العبيدية، الذين يسمون أنفسهم الفاطمية، وهم من أكفر الكفار، كما ستأتي ترجمتهم، فكل هؤلاء يجمعهم هذا المذهب، ويتفاوتون في التفصيل.

فالمجوس شيوخ هؤلاء كلهم، وأئمتهم وقدوتهم، وإنْ كان المجوس قد يتقيدون بأصل دينهم وشرائعهم، وهؤلاء لا يتقيدون بدين من ديانات العالم، ولا بشريعة من الشرائع»[1].

* * *

(١) «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٣٣- ٢٤٩).



بيان ضلال الصابئة

هذه أمة كبيرة من الأمم الكبار، وقد اختلف الناس فيهم اختلافًا كثيرًا، بحسب ما وصل إليهم من معرفة دينهم، وهم منقسمون إلى مؤمن وكافر؛ قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة: ٦٢]، فذكرهم في الأمم الأربعة الذين تنقسم كل أمة منهم إلى ناجٍ وهالك.

وذكرهم أيضًا في الأمم الستة الذين انقسمت جملتهم إلى ناج وهالك، كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ [الحج: ١٧]، فذكر الأمتين اللتين لا كتاب لهم، ولا ينقسمون إلى شقي وسعيد، وهما المجوس والمشركون في آية الفصل، ولم يذكرهما في آية الوعد بالجنة، وذكر الصابئين فيهما فعلم أن فيهم الشقي والسعيد.

وهؤلاء كانوا قوم إبراهيم الخليل، وهم أهل دعوته، وكانوا بحَرَّان، فهي دار الصابئة، وكانوا قسمين: صابئة حنفاء، وصابئة مشركين، والمشركون منهم يعظمون الكواكب السبعة، والبروج الاثني عشر، ويصورونها في هياكلهم.

ولتلك الكواكب عندهم هياكل مخصوصة، وهي المتعبدات الكبار، كالكنائس للنصارى، والبِيَع لليهود، فلهم هيكل كبير للشمس، وهيكل للقمر، وهيكل للزُّهَرَة، وهيكل للمشترى، وهيكل للمريخ، وهيكل

لعطارد، وهيكل لزحل، وهيكل للعلة الأولى.

ولهذه الكواكب عندهم عبادات ودعوات مخصوصة، ويصورونها في تلك الهياكل، ويتخذون لها أصنامًا تخصها، ويقربون لها القرابين، ولها صلوات خمس في اليوم والليلة، نحو صلوات المسلمين، وطوائف منهم يصومون شهر رمضان، ويستقبلون في صلواتهم الكعبة، ويعظمون مكة، ويرون الحج إليها، ويحرمون الميتة والدم ولحم الخنزير، ويحرمون من القرابات في النكاح ما يحرمه المسلمون.

وعلى هذا المذهب كان جماعة من أعيان الدولة ببغداد، منهم: هلال بن المحسن الصابئ، صاحب الديوان الإنشائي، وصاحب الرسائل المشهورة، وكان يصوم مع المسلمين، ويعيِّد معهم، ويزكي، ويحرم المحرمات، وكان الناس يعجبون من موافقته للمسلمين، وليس على دينهم.

وأصل دين هؤلاء، فيما زعموا، أنهم يأخذون بمحاسن ديانات العالم ومذاهبهم، ويخرجون من قبيح ما هم عليه قولاً وعملًا، ولهذا سموا صابئة؛ أي: خارجين، فقد خرجوا عن تقيدهم بجملة كل دين وتفصيله، إلا ما رأوه فيه من الحق، وكانت قريش تسمي النبي الصابئ، وأصحابه الصبأة.

يقال: صبأ الرجل، بالهمز، إذا خرج من شيء إلى شيء. و: صبا يصبو، إذا مال، ومنه قوله: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ [يوسف: ٣٣]؛ أي: أَمِل، والمهموز والمعتل يشتركان، فالمهموز: ميل عن الشيء، والمعتل: ميل إليه، واسم الفاعل من المهموز صابئ، بوزن قارئ، ومن المعتل: صاب، بوزن قاض، وجمع الأول: صابئون، كقارئون، وجمع الثاني: صابون، كقاضون، وقد قرئ بهما.

والمقصود: أن هذه الأمة قد شاركت جميع الأمم وفارقتهم، فالحنفاء منهم شاركوا أهل الإسلام في الحنيفية، والمشركون منهم شاركوا عباد الأصنام، ورأوا أنهم على صواب، وأكثر هذه الأمة فلاسفة، والفلاسفة يأخذون من كل دين، بزعمهم، محاسن ما دلت عليه العقول، وعقلاؤهم يوجبون اتباع الأنبياء وشرائعهم، وبعضهم لا يوجب ذلك ولا يحرمه، وسفهاؤهم وسفلتهم يمنعون ذلك، كما سيأتي ذكر تلاعب الشيطان بهم بعد هذا.

ولهذا لم يكن هؤلاء الفلاسفة ولا الصابئة من الأمم المستقلة التي لها كتاب ونبي، وإن كانوا من أهل دعوة الرسل، فما من أمة إلا وقد أقام اللَّه سبحانه عليها حجته وقطع عنها حجتها؛ لئلا يكون للناس على اللَّه حجة بعد الرسل، وتكون حجته عليهم.

والمقصود: أن الصابئة فرق، فصابئة حنفاء، وصابئة مشركون، وصابئة فلاسفة، وصابئة يأخذون بمحاسن ما عليه أهل الملل والنحل، من غير تقيد بملة ولا نحلة، ثم منهم من يقر بالنبوات جملة، ويتوقف في التفصيل، ومنهم من يقر بها جملة وتفصيلاً، ومنهم من ينكرها جملة وتفصيلاً.

وهم يقرون أن للعالم صانعًا فاطرًا حكيمًا، مقدسًا عن العيوب والنقائص، ثم قال: المشركون منهم: لا سبيل لنا إلى الوصول إلى جلاله إلا بالوسائط، فالواجب علينا أن نتقرب إليه بتوسطات الروحانيات القريبة منه، وهم الروحانيون المقربون، المقدسون عن المواد الجسمانية، وعن القوى الجسدانية، بل قد جبلوا على الطهارة، فنحن نتقرب إليهم، ونتقرب بهم إليه، فهم أربابنا، وآلهتنا، وشفعاؤنا عند رب الأرباب وإله الآلهة، فما

نعبدهم إلا ليقربونا إلى اللّه زلفى، فالواجب علينا أن نطهر نفوسنا عن الشهوات الطبيعية، ونهذب أخلاقنا من علائق القوى الغضبية؛ حتى تحصل المناسبة بيننا وبين الروحانيات، وتتصل أرواحنا بهم، فحينئذ نسأل حاجتنا منهم، ونعرض أحوالنا عليهم، ونصبوا في جميع أمورنا إليهم، فيشفعون لنا إلى إلهنا وإلهكم.

وهذا التطهير والتهذيب لا يحصل إلا باستمداد من جهة الروحانيات، وذلك بالتضرع والابتهال بالدعوات من الصلوات، والزكوات، وذبح القرابين، والبخورات والعزائم، فحينئذ يحصل لنفوسنا استعداد واستمداد، من غير واسطة الرسل، بل نأخذ من المعدن الذي أخذت منه الرسل، فيكون حكمنا وحكمهم واحدًا، ونحن وإياهم بمنزلة واحدة.

قالوا: والأنبياء أمثالنا في النوع، وشركاؤنا في المادة، وأشكالنا في الصورة، يأكلون مما نأكل، ويشربون مما نشرب، وما هم إلا بشر مثلنا، يريدون أن يتفضلوا علينا.

وزادت الاتحادية، أتباع ابن عربي، وابن سبعين، والعفيف التلمساني وأضرابهم، على هؤلاء بما قاله شيخ الطائفة محمد بن عربي: أن الولي أعلى درجة من الرسول؛ لأنه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحي إلى الرسول، فهو أعلى منه بدرجتين!

فجعل هؤلاء الملاحدة أنفسهم وشيوخهم أعلى في التلقي من الرسل بدرجتين، وإخوانهم من المشركين جعلوا أنفسهم في ذلك التلقي بمنزلة الأنبياء، ولم يدَّعوا أنهم فوقهم.

والمقصود: أن هؤلاء كفروا بالأصلين اللذين جاءت بهما جميع الرسل

والأنبياء من أولهم إلى آخرهم.

أحدهما: عبادة اللَّه وحده لا شريك له، والكفر بما يعبد من دونه من إله.

والثاني: الإيمان برسله، وما جاءوا به من عند الله، تصديقًا وإقرارًا وانقيادًا وامتثالاً، وليس هذا مختصًا بمشركي الصابئة، كما غلط فيه كثير من أرباب المقالات، بل هذا مذهب المشركين من سائر الأمم، لكن شرك الصابئة كان من جهة الكواكب والعلويات، ولذلك ناظرهم إمام الحنفاء - صلوات اللَّه وسلامه عليه - في بطلان إلهيتها، بما حكاه اللَّه سبحانه في سورة «**الأنعام**» أحسن مناظرة وأبينها، ظهرت فيها حجته ودحضت حجتهم، فقال بعد أن بين بطلان إلهية الكواكب والقمر والشمس بأفولها، وأن الإله لا يليق به أن يغيب ويأفل، بل لا يكون إلا شاهدًا غير غائب، كما لا يكون إلا غالبًا قاهرًا، غير مغلوب ولا مقهور، نافعًا لعباده، يملك لعابده الضر والنفع، فيسمع كلامه، ويرى مكانه، ويهديه ويرشده، ويدفع عنه كل ما يضره ويؤذيه، وذلك ليس إلا لله وحده، فكل معبود سواه باطل.

فلما رأى إمام الحنفاء أن الشمس والقمر والكواكب ليست بهذه المثابة، صعد منها إلى فاطرها، وخالقها، ومبدعها، فقال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: ٧٩].

وفي ذلك إشارة إلى أنه سبحانه خالق أمكنتها ومحالها التي هي مفتقرة إليها، ولا قوام لها إلا بها، فهي محتاجة إلى محل تقوم به، وفاطر يخلقها ويدبرها ويربها، والمحتاج المخلوق المربوب المدبر لا يكون إلهًا، فحاجه قومه في الله، ومَن حاج في عبادة اللَّه فحجته داحضة، فقال إبراهيم عليه السلام:

﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ﴾ [الأنعام: ٨٠]، وهذا من أحسن الكلام؛ أي: أتريدون أن تصرفوني عن الإقرار بربي وبتوحيده، وعن عبادته وحده، وتشككوني فيه، وقد أرشدني وبيَّن لي الحق حتى استبان لي كالعيان، وبيَّن لي بطلان الشرك، وسوء عاقبته، وأن آلهتكم لا تصلح للعبادة، وأن عبادتها توجب لعابديها غاية الضرر في الدنيا والآخرة، فكيف تريدون مني أن أنصرف عن عبادته وتوحيده إلى الشرك به، وقد هداني إلى الحق، وسبيل الرشاد؟! فالمحاجة والمجادلة إنما فائدتها طلب الرجوع والانتقال من الباطل إلى الحق، ومن الجهل إلى العلم، ومن العمى إلى الإبصار، ومجادلتكم إياي في الإله الحق الذي كل معبود سواه باطل، تتضمن خلاف ذلك.

فخوفوه بآلهتهم أن تصيبه بسوء، كما يخوف المشركُ الموحدَ بإلهه الذي يألهه مع اللّه أن يناله بسوء، فقال الخليل: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٨٠]، فإن آلهتكم أقل وأحقر من أن تضر من كفر بها، وجحد عبادتها، ثم رد الأمر إلى مشيئة اللّه وحده، وأنه هو الذي يُخاف ويرجى، فقال: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ﴾ [الأنعام: ٨٠] وهذا استثناء منقطع، والمعنى لا أخاف آلهتكم، فإنها لا مشيئة لها ولا قدرة، لكن إن شاء ربي شيئًا نالني وأصابني، لا آلهتكم التي لا تشاء ولا تعلم شيئًا، وربي له المشيئة النافذة وقد وسع كل شيء علمًا، فمَن أولى بأن يُخاف ويعبد؟ هو سبحانه أم هي؟

ثم قال: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠]، فتعلمون ما أنتم عليه من إشراك من لا مشيئة له ولا يعلم شيئًا، ممن له المشيئة التامة والعلم التام.

ثم قال: ﴿وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا

لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾ [الأنعام: ٨١]، وهذا من أحسن قلب الحجة، وجعل حجة المبطل بعينها دالة على فساد قوله وبطلان مذهبه، فإنهم خوفوه بآلهتهم التي لم ينزل اللَّه عليهم سلطانًا بعبادتها، وقد تبين بطلان إلهيتها ومضرة عبادتها، ومع هذا فلا تخافون شرككم بالله، وعبادتكم معه آلهة أخرى، فأي الفريقين أحق بالأمن وأولى بأن لا يلحقه الخوف: فريق الموحدين أم فريق المشركين؟

فحكم اللَّه سبحانه بين الفريقين بالحكم العدل الذي لا حكم أصح منه، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾؛ أي: بشرك ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

ولما نزلت هذه الآية شق أمرها على الصحابة، وقالوا: يا رسول الله، وأينا لم يظلم نفسه؟! فقال: «**إنما هو الشركُ، ألم تسمعوا قولَ العبدِ الصالحِ**: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:]».

فحكم سبحانه للموحدين بالهدى والأمن، وللمشركين بضد ذلك، وهو الضلال والخوف.

ثم قال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنعام: ٨٣].

قال أبو محمد بن حزم: «وكان الذي ينتحله الصابئون أقدم الأديان على وجه الدهر، والغالب على الدنيا إلى أن أحدثوا الحوادث، وبدلوا شرائعه، فبعث اللَّه إليهم إبراهيم خليله بدين الإسلام الذي نحن عليه اليوم، وتصحيح ما أفسدوه بالحنيفية السمحة، التي أتانا بها محمد رسول اللَّه من عند اللَّه تعالى، وكانوا في ذلك الزمان وبعده يسمون الحنفاء».

قلت: هم قسمان: صابئة مشركون، وصابئة حنفاء، وبينهم مناظرات وقد حكى الشهرستاني بعض مناظراتهم في كتابه.

في ذكر تلاعبه بالدهرية: وهؤلاء قوم عطلوا المصنوعات عن صانعها، وقالوا ما حكاه اللَّه عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

وهؤلاء فرقتان:

فرقة قالت: إن الخالق سبحانه لما خلق الأفلاك متحركة أعظم حركة دارت عليه فأحرقته، ولم يقدر على ضبطها وإمساك حركاتها.

وفرقة قالت: إن الأشياء ليس لها أول البتة، وإنما تخرج من القوة إلى الفعل، فإذا خرج ما كان بالقوة إلى الفعل تكونت الأشياء، مركباتها وبسائطها، من ذاتها لا من شيء آخر.

وقالوا: إن العالم دائم، لم يزل ولا يزال، لا يتغير ولا يضمحل، ولا يجوز أن يكون المبدع يفعل فعلاً يبطل ويضمحل إلا وهو يبطل ويضمحل مع فعله، وهذا العالم هو الممسك لهذه الأجزاء التي هي فيه.

وهؤلاء هم المعطلة حقًّا، وهم فحول المعطلة، وقد سرى هذا التعطيل إلى سائر فرق المعطلة، على اختلاف آرائهم، وتباينهم في التعطيل، كما سرى داء الشرك تأصيلاً وتفصيلاً في سائر فرق المشركين، على اختلاف مذاهبهم فيه، وكما سرى جحد النبوات تأصيلاً وتفصيلاً في سائر من جحد النبوة، أو صفة من صفاتها، أو أقر بها جملة وجحد مقصودها وزبدتها، أو بعضه.

فهذه الفرق الثلاثة سرى داؤها وبلاؤها في الناس، ولم ينجُ منه إلا أتباع

الرسل العارفون بحقيقة ما جاء به، المتمسكون به دون ما سواه، ظاهرًا وباطنًا.

فداء التعطيل، وداء الإشراك، وداء مخالفة الرسول، وجحد ما جاء به، أو شيء منه، هو أصل بلاء العالم، ومنبع كل شر، وأساس كل باطل، فليست فرقة من فرق أهل الإلحاد والباطل والبدع، إلا وقولها مشتق من هذه الأصول الثلاثة، أو من بعضها.

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة، وإلا فإني لا أظنك ناجيًا.

فَسَرَت هذه البلايا الثلاثة في كثير من طوائف الفلاسفة، لا في جميعهم، فإن الفلسفة من حيث هي لا تعطي ذلك، فإن معناها: محبة الحكمة، والفيلسوف: أصله فيلاسوفا أي محبة الحكمة، ففيلا: هي المحب، وسوفا: هي الحكمة، والحكمة نوعان: قولية وفعلية، فالقولية: قول الحق، والفعلية: فعل الصواب، وكل طائفة من الطوائف لهم حكمة يتقيدون بها.

وأصح الطوائف حكمة من كانت حكمتهم أقرب إلى حكمة الرسل التي جاءوا بها عن الله تعالى، قال تعالى عن نبيه داود عليه السلام: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠]، وقال عن المسيح عليه السلام: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾ [آل عمران: ٤٨]، وقال عن يحيى عليه السلام: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢] والحكم: هو الحكمة، وقال لرسوله محمد ﷺ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣]، وقال: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ﴾ [البقرة: ٢٦٩]، وقال لأهل بيت رسوله: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ﴾ [الأحزاب: ٣٤].

فالحكمة التي جاءت بها الرسل: هي الحكمة الحق، المتضمنة للعلم النافع، والعمل الصالح، للهدى ودين الحق، لإصابة الحق، اعتقادًا، وقولاً، وعملاً، وهذه الحكمة فرقها اللَّه سبحانه بين أنبيائه ورسله، وجمعها لمحمد، كما جمع له من المحاسن ما فرقه في الأنبياء قبله، وجمع في كتابه من العلوم والأعمال ما فرقه في الكتب قبله، فلو جمعت كل حكمة صحيحة في العالم من كل طائفة، لكانت في الحكمة التي أوتيها - صلوات اللَّه وسلامه عليه - جزءًا يسيرًا جدًّا، لا يدرك البشر نسبته.

والمقصود: أن الفلاسفة اسم جنس لمن يحب الحكمة ويؤثرها، وقد صار هذا الاسم في عرف كثير من الناس مختصًّا بمن خرج عن ديانات الأنبياء، ولم يذهب إلا إلى ما يقتضيه العقل، في زعمه.

وأخص من ذلك: أنه في عرف المتأخرين اسم لأتباع أرسطو، وهم المشاءون خاصة، وهم الذين هذب ابن سينا طريقتهم، وبسطها وقررها، وهي التي يعرفها، بل لا يعرف سواها، المتأخرون من المتكلمين.

وهؤلاء فرقة شاذة من فرق الفلاسفة، ومقالتهم واحدة من مقالات القوم، حتى قيل: إنه ليس فيهم من يقول بقدم الأفلاك غير أرسطو وشيعته، فهو أول من عرف أنه قال بقدم هذا العالم، والأساطين قبله كانوا يقولون بحدوثه، وإثبات الصانع ومباينته للعالم، وأنه فوق العالم، وفوق السموات بذاته، كما حكاه عنهم أعلم الناس في زمانه بمقالاتهم أبو الوليد بن رشد في كتابه «**مناهج الأدلة**»، فقال فيه: «القول في الجهة: وأما هذه الصفة فلم يزل أهل الشريعة من أول الأمر يثبتونها لله سبحانه حتى نفتها المعتزلة، ثم تبعهم على نفيها متأخرو الأشعرية، كأبي المعالي، ومن اقتدى بقوله». إلى أن

قال: «والشرائع كلها مبنية على أن اللَّه في السماء، وأن منها تنزل الملائكة بالوحي إلى النبيين، وأن من السموات نزلت الكتب، وإليها كان الإسراء بالنبي حتى قرب من سدرة المنتهى، وجميع الحكماء اتفقوا على أن اللَّه والملائكة في السماء، كما اتفقت جميع الشرائع على ذلك». ثم ذكر تقرير ذلك بالمعقول، وبين بطلان الشبهة التي لأجلها نفتها الجهمية ومن وافقهم إلى أن قال: «فقد ظهر لك من هذا أن إثبات الجهة واجب بالشرع والعقل، وأنه الذي جاء به الشرع، وانبنى عليه، وأن إبطال هذه القاعدة إبطال للشرائع».

فقد حكى لك هذا المطلع على مقالات القوم الذي هو أعرف بالفلسفة من ابن سينا وأضرابه إجماع الحكماء على أن اللَّه سبحانه في السماء فوق العالم.

والمتطفلون في حكايات مقالات الناس لا يحكون ذلك؛ إما جهلاً، وإما عمدًا، وأكثر من رأيناه يحكي مذاهبهم ومقالات الناس متطفل.

وكذلك الأساطين منهم متفقون على إثبات الصفات والأفعال، وحدوث العالم وقيام الأفعال الاختيارية بذاته سبحانه، كما ذكره فيلسوف الإسلام في وقته أبو البركات البغدادي، وقرره غاية التقرير، وقال: «لا يستقيم كون الرب سبحانه رب العالمين إلا بذلك، وأن نفي هذه المسألة ينفي ربوبيته».

قال: «**والإجلال من هذا الإجلال والتنزيه من هذا التنزيه أولى**»[1].

تم بحمد الله، كتاب «**إكرام الموحدين في بيان وصية رب العالمين**» ليلة: الجمعة، التاسع والعشرين، من شهر رجب، لعام تسعةٍ وعشرين

---

(١) «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٤٩- ٢٥٨).

وأربعمائة وألف، لهجرة نبينا ورسولنا محمد صلى اللَّه عليه وعلى آله وصحبه وسلم، في قرية نقبين، في جبل طي، جعله اللَّه عملاً صالحًا متقبلاً، ونفعني به، وكل من قرأه وسمعه، أو اطلع عليه، إن ربي قريب مجيب، سميع الدعاء.

وكتبه

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته

عبد اللَّه بن صالح بن عبد العزيز العبيلان

* * *


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



فهرس الموضوعات

تم الصف والإخراج بشركة غراس للطباعة والنشر والتوزيع والدعاية والإعلان

هاتف ٢٤٨١٩٠٣٧ - فاكس ٢٤٨٣٨٤٩٥ - الكويت


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com